روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتي بغداد العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

دار
احياء التراث العربي

بيروت ـ لبنان

Marfat.com

روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتى بغداد العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

الجزء التاسع عشر

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وإمضاء علامة العراق
المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى

إدارة الطباعة المنيرية
دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ الخ شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها إثر حكاية إبطال أباطيلهم السابقة وذكر ما يتعلق بذلك، والجملة معطوفة على قوله تعالى (وقالوا مال هذا الرسول) إلى آخره، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم فى الشناعة بحيث لا يصدر عمن يرجو لقاء الله عز وجل، والرجاء فى المشهور الأمل وقد فسر أحدهما بالآخر أكثر اللغويين، وفى فروق ابن هلال الأمل رجاء يستمر ولذا قيل للنظر فى الشئ إذا استمر وطال تأمل، وقيل: الأمل يكون فى الممكن والمستحيل والرجاء يخص الممكن. وفى المصباح الأمل ضد اليأس وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله والطمع يكون فيما قرب حصوله والرجاء بين الأمل والطمع فان الراجى يخاف أن لا يحصل مأموله ولذا استعمل بمعنى الطمع انتهى، وفسره أبو عبيدة. وقوم بالخوف، وقال الفراء: هذه الكلمة تهامية وهى أيضا من لغة هذيل إذا كان مع الرجاء جحد ذهبوا به إلى معنى الخوف فيقولون: فلان لا يرجو ربه سبحانه يريدون لا يخاف ربه سبحانه، ومن ذلك (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى لا تخافون لله تعالى عظمة وإذا قالوا: فلان يرجو ربه فهذا على معنى الرجاء لا على معنى الخوف، وقال الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عواسل

وقال آخر: لا يرتجى حين يلاقى الذائدا أسبعة لاقت له أو واحدا

انتهى، وذكر أن استعمال الرجاء فى معنى الخوف مجاز لأن الراجى لأمر يخاف فواته، وأصل اللقاء مقابله الشئ ومصادفته وهو مراد من قال: الوصول إلى الشئ لا المماسة ويطلق على الرؤية لأنها وصول إلى المرئى، ولقاؤه تعالى هنا كناية عن لقاء جزائه يوم القيامة أو المراد ذلك بتقدير مضاف؛ والمعنى على التفسير المشهور للرجاء وقال الذين لا يأملون لقاء جزائنا بالخير والثواب على الطاعة لتكذيبهم بالبعث، وعلى التفسير الآخر وقال الذين لا يخافون لقاء جزائنا بالشر والعقاب على المعصية لتكذيبهم بالبعث كذا قيل. وقيل المراد به رؤيته تعالى فى الآخرة والرجاء عليه بمعنى الأمل دون الخوف إذ لا معنى لكون الرؤية مخوفة وهو خلاف الظاهر وإن لم يأبه ما بعد إذ يكون المعنى عليه إن الذين لا يرجون رؤيتنا فى الآخرة التى هى مظنة الرؤية لكثير من الناس اقترحوا رؤيتنا فى الدنيا التى ليست مظنة لذلك، وقد يقال: نفى رجاء لقائه تعالى كناية عن إنكار البعث والحشر ولعله أولى مما تقدم أى وقال الذين ينكرون البعث والحشر ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى هلا أنزلوا علينا فيخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ فيخبرنا بذلك كما روى عن ابن جريج. وغيره وفى طلب إنزال الملائكة للتصديق دون انزال الملك إشارة إلى أنهم بلغوا فى التكذيب مبلغا لا ينفع معه تصديق ملك واحد وإذا اعتبرت أل فى الملائكة للاستغراق الحقيقى كانت الاشارة إلى قوة تكذيبهم أقوى، وتزداد القوة إذا اعتبر فى

Marfat.com

(علينا) معنى كل واحد منا ولم يعتبر توزيع، ويشير أيضا إلى قوة ذلك تعبيرهم بالمضارع الدال على الاستمرار التجددى فى أو (نرى ربنا) كأنهم لم يكتفوا برؤيته تعالى واخباره سبحانه بصدق رسوله ﷺ حتى يروه سبحانه ويخبرهم مرارا بذلك، ولا يأبى قصد الاستمرار من المضارع كون الأصل فى « لولا » التى للتحضيض أو العرض أن تدخل على المضارع وما لم يكن مضارعا يؤول به ، ولعل عدولهم إلى الماضى فى جانب إنزال الملائكة المعطوف عليه وإن كان فى تأويل المضارع على نحو ما قدمنا فى تفسير قوله تعالى (لولا أنزل اليه ملك) فتذكر فما فى العهد من قدم ه

وقيل : المعنى لولا أنزل علينا الملائكة فيبلغون أمر الله تعالى ونهيه بدل محمد ﷺ أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك من غير توسيط أحد . ورجح الأول بأن السياق لتكذيبه ﷺ وحاشاه ثم حاشاه من الكذب والتعنت فى طلب مصدق له عليه الصلاة والسلام لا لطلب من يفيدهم الأمر والنهى سواه ﷺ ، ولا نسلم أن (لولا أنزل علينا الملائكة) يتكرر عليه مع «لولا أنزل اليه ملك » السابق لظهور الفرق بين المطلوبين فيهما ولو فرض لزوم التكرار بينهما فهو لا يضر كما لا يخفى . وانتصر للاخير بأن المقام ليس الا لذكر المكذبين وحكاية أباطيلهم الناشئة عن تكذيبهم . وقد عد فيما سبق بعضا منها متضمنا تعنتهم فى طلب مصدق له ﷺ فالأولى أن يكون ماهنا حكاية نوع آخر منها ليكون أبعد عن التكرار وأدل على العناد والاستكبار . ولعل قوله تعالى ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ٢١﴾ أنسب بما ذكر . ومعنى «استكبروا فى أنفسهم» أوقعوا الاستكبار فى شأنها وعدوها كبيرة الشأن، وفيه تنزيل الفعل المتعدى منزلة اللازم كما فى قوله :

* يجرح فى عراقيبها نصلى * والعتو تجاوز الحد فى الظلم وهو المصدر الشائع لعتا ، واللام واقعة فى جواب القسم أى والله لقد استكبروا فى شأن أنفسهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان تجاوزا كبيرا بالغا أقصى غايته حيث كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينقادوا لبشر مثلهم يوحى اليه فى أمرهم ونهيهم ولم يكترثوا بمعجزاته القاهرة وآياته الباهرة فطلبوا مالا يكاد ترنو اليه أحداق الأمم ورأوا مالا يحظى به إلا بعض أولى العزم من الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم . وقد فسر « استكبروا فى أنفسهم » باضمروا الاستكبار وهو الكفر والعناد فى قلوبهم وهو أظهر مما تقدم وما تقدم أبلغ وأوفق لما انتصر له . وكذا فسر العتو بالنبو عن الطاعة وما تقدم أبلغ وأوفق بذلك أيضا . وفى تعقيب حكاية باطل أولئك الكفرة بالجملة القسمية ايذان بغاية قبح ماهم عليه واشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم وهو من الفحوى فى الحقيقة ومثل ذلك شائع فى الكلام تقول لمن جنى جناية :فعلت كذا وكذا استعظاما وتعجبا منه ، ويستعمل فى سائر الألسنة وجعل الزمخشرى من ذلك قول مهلهل :

وجارة جساس أبأنا بنابها كليبا غات ناب(١) كليب بواؤها

والطيبى قوله تعالى (كبرت كلمة) ، وتعقب بأن ذلك ليس من هذا القبيل لأن الثلاثى المحول إلى فعل لفظا أو تقديرا موضوع للتعجب كما صرح به النحاة ؛ وذكر الامام مختار القول الأول فى تفسير «لولا أنزل » الخ أن هذه الجملة جواب لقولهم «لولا أنزل» الخ من عدة أوجه ،أحدها أن القرآن لما ظهر كونه معجزا فقد ثبتت نبوته

(١) الناب الناقة المسنة اه منه

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم فبعد ذلك لا يكون اقتراح هذه الآيات الا محض استكبار. وثانيها أن نزول الملائكة عليهم السلام لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه نزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك ورد الآخر ترجيحا لأحد المثلين من غير مرجح. وثالثها أنهم بتقدير رؤية الرب سبحانه وتصديقه لرسوله ﷺ لا يستفيدون علما أزيد من تصديق المعجز إذ لا فرق بين أن يقول النبي: اللهم إن كنت صادقا فأحى هذا الميت فيحييه عز وجل وبين أن يقول: إن كنت صادقا فصدقنى فيصدقه فتعيين أحد الطريقين محض العناد، ورابعها أن العبد ليس له أن يعترض على مولاه إما بحكم المالكية عند الاشعرى أو بحكم المصلحة عند المعتزلى، وخامسها أن السائل الملح المعاند الذى لا يرضى بما ينعم عليه مذموم واظهار المعجز من جملة الايادى الجسيمة فرد احداهما واقتراح الاخرى ليس من الادب فى شىء. وسادسها العل المراد أنى لو علمت أنهم ليسوا مستكبرين وعاتين لاعطيتهم مطلوبهم لكنى علمت أنهم إنما سألوا لاجل المكابرة والعناد فلاجرم لا أعطيهم، وسابعها لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى فى الدنيا وأنه لا ينزل الملائكة عليهم السلام على عوام الخلق ثم انهم علقوا إيمانهم على ذلك فهم مستكبرون ساخرون انتهى وفيه مالا يخلو عن بحث *

واستدلت الاشاعرة بقوله تعالى «لا يرجون لقاءنا» على أن رؤية الله تعالى ممكنة. واستدلت المعتزلة بقوله سبحانه «لقد استكبروا، وعتوا» على أنها ممتنعة ولا يخفى ضعف الاستدلالين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدة الملائكة عليهم السلام بعد استعظام طلبهم إنزالهم عليهم وبيان كونه فى غاية الشناعة. وإنما قيل: يوم يرون دون أن يقال يوم تنزل الملائكة ايذانا من أول الامر بان رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة إلى ما طلبوه بل على وجه آخر لم يمر ببالهم. «ويوم» منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فانه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول إلى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى فكأنه قيل لا يبشرون يوم يرون الملائكة، وقدر بعضهم يمنعون البشرى أو يفقدونها والأول أبعد من احتمال توهم تهوين الخطب، وقدر بعضهم لا بشرى قبل يوم وجعله ظرفا لذلك، وجوز أبو البقاء تعلقه بيعذبون مقدرا لدلالة «لا بشرى» الخ عليه وكونه معمولا لاذكر مقدرا قال أبو حيان وهو أقرب *

وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يكون منصوبا بينزل مضمرا لقولهم: لولا أنزل علينا الملائكة كأنه قيل ينزل الملائكة يوم يرونهم، ولا يقال: كيف يكون وقت الرؤية وقتا للانزال لأنا نقول: الظرف يحتمل ذلك لسعته واستحسنه الطيبى فقال هو قول لا مزيد عليه لأنه اذا انتصب بينزل يلتئم الكلام لأن قوله تعالى «يوم يرون» الخ نشر لقوله تعالى «لولا أنزل» الخ، وقوله سبحانه «وقدمنا» نشر لقوله عز وجل «أو نرى ربنا» ولم يجوز الأكثرون تعلقه ببشرى المذكور لكونه مصدرا وهو لا يعمل متأخرا وكونه منفيا بلا ولا يعمل ما بعدها فيما قبلها. «ويومئذ» تاكيد للاول أو بدل منه أو خبر «وللمجرمين» تبيين متعلق بمحذوف كما فى سقيا له أو خبر ثان أو هو ظرف لما يتعلق به اللام أو لبشرى ان قدرت منونة غير مبنية مع لا فانها لا تعمل اذ لو عمل اسم لا طال وأشبه المضاف فينتصب *

وفى البحر احتمل بشرى أن يكون مبنيا مع لا واحتمل أن يكون فى نية التنوين منصوب اللفظ ومنع من الصرف للتأنيث اللازم فان كان مبنيا مع لا احتمل أن يكون الخبر «يومئذ» وللمجرمين خبر بعد خبر أو نعت لبشرى أو متعلق بما تعلق به الخبر، وأن يكون (يومئذ) صفة لبشرى والخبر «للمجرمين» ويجىء خلاف سيبويه

Marfat.com

والأخفش هل الخبر لنفس لا أو للمبتدا الذى هو مجموع لا ومابنى معها. وان كان فى نية التنوين وهو معرب جاز أن يكون «يومئذ» معمولا لبشرى وأن يكون صفة والخبر «للمجرمين»، وجاز أن يكون «يومئذ» خبرا «وللمجرمين» صفة، وجاز أن يكون «يومئذ» خبرا و «للمجرمين» خبرا بعد خبر والخبر إذا كان الاسم ليس مبنيا اللا نفسها بالاجماع.ه

وقال الزمخشرى: يومئذ تكرير ولا يجوز ذلك سواء أريد بالتكرير التوكيد اللفظى أم أريد به البدل لأن «يوم» منصوب بما تقدم ذكره من اذكر أو من يفقدون ومابعد لا العاملة فى الاسم لا يعمل فيه ماقبلها وعلى تقديره يكون العامل فيه ماقبلها انتهى. ولا يخفى عليك ما فى الاحتمالات التى ذكرها. وأما ما اعترض به على الزمخشرى فتعقب بان الجملة المنفية معمولة لقول مضمر وقع حالا من الملائكة التى هى معمول ليرون «ويرون» معمول ليوم فلا وما فى حيزها من تتمة الظرف الأول من حيث أنه معمولا لبعض مافى حيزه و مثله لا يعد محذوراً مع أن كون لا لها الصدر مطلقا أو إذا بنى معها اسمها ليس بمسلم عند جميع النحاة لأنها لكثرة دورها خرجت عن الصدارة فتأمل، هذا ما وقفنا عليه المتقدمين فى إعراب الآية ومافيه من الجرح والتعديل ه

وقال بعض العصريين: يجوز تعلق «يوم» بكبيرا وتقييد كبره بذلك اليوم ليس لنفى كبره فى نفسه بل لظهور موجبه فى ذلك اليوم ونظيره لزيد علم عظيم يوم يباحث الخصوم وتكون جملة «لا بشرى يومئذ للمجرمين» استئنافا لبيان ذلك وهو كما ترى، وأيا ما كان فالمراد بذلك اليوم على ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يوم الموت، وقال أبو حيان: الظاهر أنه يوم القيامة لقوله تعالى بعد (وقدمنا إلى ماعملوا) الخ وفيه نظر *

ونفى البشرى كناية عن إثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى (والله لا يحب الكافرين) كناية عن البغض والمقت فيدل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه، والمراد بالمجرمين أولئك الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ووضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالاجرام مع ماهم عليه من الكفر والعناد وإيذانا بعلة الحكم، ومن اعتبر المفهوم فى مثله ادعى افادة الآية عدم تحقق الحكم فى غيرهم، وقد دل قوله تعالى فى حق المؤمنين (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا) الخ على حصول البشرى لهم، وقيل: المراد بهم مايعم العصاة والكفار الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ويفيد الكلام سلب البشرى عن الكفار على أتم وجه لدلالته على أن المانع من حصول البشرى هو الاجرام ولا اجرام أعظم من اجرام الذين لا يرجون لقاءه عز وجل ويقولون مايقولون فهم أولى به. ولا يتم استدلال المعتزلة بالآية عليه فى نفى العفو والشفاعة للعصاة لأنها لا تفيد النفى فى جميع الأوقات فيجوز أن يبشر العصاة بما ذكر فى وقت آخر *

وتعقب بأن الجملة قبل النفى لكونها اسمية تفيد الاستمرار فبعد دخول النفى إرادة نفى استمرار البشرى للمجرمين بمعنى أن البشرى تكون لهم لكن لا تستمر مما لا يظن أن أحدا يذهب اليه فيتعين إرادة استمرار النفى كما فى قوله تعالى فى حق أضدادهم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فحينئذ لا يتسنى قوله: إنها لا تفيد النفى فى جميع الأوقات، فالأولى أن يراد بالمجرمين من سمعت حديثهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على لا يبشرون أو يمنعون البشرى أو نحوه المقدر قبل «يوم» *

وجوز أن يكون عطفا على ماقبله باعتبار مايفهم منه كأنه قيل: يشاهدون أهوال القيامة ويقولون، وأن

Marfat.com

يكون عطفا على «يرون» وجملة «لا بشرى» حال بتقدير القول فلا يضر الفصل به ، وضمير الجمع على ما استظهره أبو حيان لأنهم المحدث عنهم وحكاه الطبرسى عن مجاهد . وابن جريج للذين لا يرجون أى ويقول أولئك الكفرة ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ٢٢ ﴾ وهى كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو وموتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكأن المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجراً .

وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهلية فى الأشهر الحرم فيقول: حجرا محجورا أى حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدؤه بشر ، وقال أبو عبيدة : هى عوذة للعرب يقولها من يخاف ءاخر فى الحرم أو فى شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة . وقال أبو على الفارسى : مما كانت العرب تستعمله ثم ترك قولهم حجرا محجورا ، وهذا كان عندهم لمعنيين، أحدهما أن يقال عند الحرمان إذا سئل الانسان فقال ذلك علم السائل أنه يريد أن يحرمه ، ومنه قول المتلمس :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس (١)

والمعنى الآخر الاستعاذة كان الانسان إذا سافر فرأى ما يخاف قال: حجرا محجورا أى حرام عليك التعرض لى انتهى . وذكر سيبويه «حجرا» من المصادر المنصوبة غير المتصرفة وأنه واجب اضمار ناصبها ، وقال: ويقول الرجل للرجل أتفعل كذا فيقول: حجرا وهى من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله تعالى أن يمنع المكروه من أن يلحقه والاصل فيه فتح الحاء ، وقرىء به كما قال أبو البقاء لكن لما خصوا استعماله بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول فلما تغير معناه تغير لفظه عما هو أصله وهو الفتح إلى الكسر وقد جاء فيه الضم أيضا وهى قراءة أبى رجاء . والحسن . والضحاك ويقال فيه حجرى بالف التانيث أيضا ومثله فى التغيير عن أصله قعدك الله تعالى بسكون العين وفتح القاف ، وحكى كسرها عن المازنى وأنكره الازهرى وقعيدك وهو منصوب على المصدرية . والمراد رقيبك وحفيظك الله تعالى ثم نقل إلى القسم فقيل قعدك أو قعيدك الله تعالى لا تفعل ، وأصله باقعاد الله تعالى أى ادامته سبحانه لك و كذا عمرك الله بفتح الراء وفتح العين وضمها وهو منصوب على المصدرية ثم اختص بالقسم، وأصله بتعميرك الله تعالى أى باقرارك له بالبقاء ، وما ذكر من أنه لازم النصب على المصدرية بفعل واجب الاضمار اعترض عليه فى الدر المصون بما أنشده الزمخشرى :

قالت وفيها حيدة وذعر عوذ بربى منكم وحجر

فانه وقع فيه مرفوعا، ووصفه بمحجورا للتاكيد كشعر شاعر وموت مايت وليل ألىل ، وذكر أن مفعولا هنا للنسب أى ذو حجر وهو كفاعل يأتى لذلك ، وقيل : إنه على الاسناد المجازى وليس بذاك ، والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول باس فظيع ، وقيل : ضمير يقولون للملائكة وروى ذلك عن أبى سعيد الخدرى . والضحاك . وقتادة . وعطية . ومجاهد على ما فى الدر المنثور قالوا :إن الملائكة يقولون للكفار حجرا محجورا أى حراما محرما عليكم البشرى أى جعلها الله تعالى حراما عليكم .

(١) اى الدواهى اه منه

Marfat.com

وفى بعض الروايات أنهم يطلبون البشرى من الملائكة عليهم السلام فيقولون ذلك لهم ، وقال بعضهم : يعنون حراما محرما عليكم الجنة وحكاه فى مجمع البيان عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وقيل : الغفران، وفى جعل (حجرا) نصبا على المفعولية لجعل مقدرا كما أشير اليه بحث ، والظاهر على ماذكر أن ايراد هذه الكلمة للحرمان وهو المعنى الأول من المعنيين اللذين ذكرهما الفارسى (ويقولون) على هذا القول قيل معطوف على ماعطف عليه على القول بان ضميره للكفرة، وقيل: معطوف على جملة يقولون المقدرة قبل (لا بشرى) الواقعة حالا • وقال الطيبي: هو حال من (الملائكة) بتقدير وهم يقولون نظير قولهم: قمت وأصك وجهه وعلى الاول هو عطف على (يرون) ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى عمدنا وقصدنا كما روى عن ابن عباس وأخرجه ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد. وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ فخيم كصلة رحم. واغاثة ملهوف. وقرى ضعيف. ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها ، والجار والمجرور بيان لما وصحة البيان باعتبار التنكير كصحة الاستثناء فى (إن نظن الا ظنا) لكن التنكير ههنا للتفخيم كما أشرنا اليه •

وجوز أن يكون للتعميم ودفع ما يتوهم من العهد فى الموصول أى عمدنا إلى كل عمل عملوه خال عن الايمان ، ولعل الأول أنسب بقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً ﴾ مثل هباء فى الحقارة وعدم الجدوى، وهو على ما أخرج عبد الرزاق . والفريابى . وابن أبى حاتم عن على كرم الله تعالى وجهه وهج الغبار يسطع ثم يذهب • وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه الشرر الذى يطير من النار إذا اضطرمت، وفى رواية أخرى عنه أنه الماء المهراق . وعن يعلى بن عبيد أنه الرماد •

وأخرج جماعة عن مجاهد . والحسن . وعكرمة . وأبى مالك . وعامر أنه شعاع الشمس فى الكوة وكأنهم أرادوا مايرى فيه من الغبار كما هو المشهور عند اللغويين، قال الراغب : الهباء دقاق التراب وما أنبث فى الهواء فلا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس فى الكوة ويقال : هبا الغبار يهبو إذا ثار وسطع ، ووصف بقوله تعالى ﴿ مَّنثُورًا ٢٣ ﴾ مبالغة فى الغاء أعمالهم فان الهباء تراه منتظما مع الضوء فاذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء حتى جعل متناثرا لا يمكن جمعه والانتفاع به أصلا، ومثل هذا الارداف يسمى فى البديع بالتتميم والايغال ، ومنه قول الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

حيث لم يكفها أن جعلته علما فى الهداية حتى جعلته فى رأسه نار ، وقيل : وصف بالمنثور أى المتفرق لما أن أغراضهم فى أعمالهم متفرقة فيكون جعل أعمالهم هباء متفرقا جزاء من جنس العمل ، وجوز أن يكون مفعولا بعد مفعول لجعل وهو مراد من قال : مفعولا ثالثا لها على معنى جعلناه جامعا لحقارة الهباء والتناثر ، ونظير ذلك قوله تعالى : (كونوا قردة خاسئين) أى جامعين للمسخ والخسء ، وفيه خلاف ابن درستويه حيث لم يجوز أن يكون لكان خبران وقياس قوله : أن يمنع أن يكون لجعل مفعول ثالث ، ومع هذا الظاهر الوصفية ، وفى الكلام استعارة تمثيلية حيث مثلت حال هؤلاء الكفرة وحال أعمالهم التى عملوها

Marfat.com

فى كفرهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ماتحت أيديهم فأفسدها وجعلها شذر مذر ولم يترك لها من عين ولا أثر ، واللفظ المستعار وقع فيه استعمال ـ قدم ـ بمعنى عمد وقصد لاشتهاره فيه وإن كان مجازاً كما يشير إليه كلام الأساس، ويسمى القصد الموصل إلى المقصد قدوماً لأنه مقدمته ، وتضمن التمثيل تشبيه أعمالهم المحبطة بالهباء المنثور بدون استعارة ، فلا إشكال على ماقيل ، والكلام فى ذلك طويل فليطلب من محله . وجعل بعضهم القدوم فى حقه عز وجل عبارة عن حكمه ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أى قدم ملائكتنا ، وأسند ذلك إليه عز وجل لأنه عن أمره سبحانه ، ونقل عن بعض السلف أنه لا يؤول فى قوله تعالى : (وجاء ربك) وقوله سبحانه : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) على ماهو عادتهم فى الصفات المتشابهة ، وقياس ذلك عدم التأويل فى الآية ، ولعله من هنا قيل : إن تأويل الزمخشرى لها بناء على معتقده من إنكار الصفات ، والقلب إلى التأويل فيها أميل ٭

وأنت إن لم تؤول القدوم فلابدلك أن تؤول جعلها هباء منثوراً باظهار بطلانها بالكلية وإلغائها عن درجة الاعتبار بوجه من الوجوه ، ولا يأبى ذلك السياق ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم فى قوله تعالى : (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ يكون ماذكر من القدوم إلى أعمالهم وجعلها هباء منثوراً ، أو من هذا وعدم التبشير ، وقولهم : حجراً محجوراً ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ المقيل المكان الذى يؤوى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهن ، سمى بذلك لأن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً ، وقيل : هو فى الأصل مكان القيلولة ـ وهى النوم نصف النهار ـ ونقل من ذلك إلى مكان التمتع بالأزواج لأنه يشبهه فى كون كل منهما محل خلوة واستراحة فهو استعارة ، وقيل : أريد به مكان الاسترواح مطلقاً استعمالا للمقيد فى المطلق فهو مجاز مرسل ، وإنما لم يبق على الأصل لما أنه لانوم فى الجنة أصلا ٭

وأخرج ابن المبارك فى الزهد. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) وقرأ (إن مقيلهم لالى الجحيم) وأخذ منه بعضهم أن المراد بالمستقر موضع الحساب ، وبالمقيل محل الاستراحة بعد الفراغ منه ، ومعنى يقيل هؤلاء يعنى أصحاب الجنة ينقلون إليها وقت القيلولة ، وقيل : المستقر والمقيل فى المحشر قبل دخول الجنة ، أو المستقر فيها والمقيل فيه ٭

فقد أخرج ابن جرير عن سعيد الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون فى رياض حتى يفرغ الناس من الحساب ، وذلك قوله تعالى: (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) وفى وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز إلى أن لهم مايتزين به من حسن الصور وغيره من التحاسين . فان حسن المنزل إن لم يكن باعتبار مايرجع لصاحبه لم تتم المسرة به ، والتفضيل المعتبر فيهما المسرة إما لارادة الزيادة على الاطلاق ، أى هم فى أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل . وإما بالاضافة إلى مالكفرة المتنعمين فى الدنيا

Marfat.com

أو إلى مالهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم ، هذا وتفسير المستقر والمقيل بالمكانين حسبما سمعت هو المشهور وهو أحد احتمالات تسعة . وذلك أنهم جوزوا أن يكون كلاهما اسم مكان أو اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم مكان والثانى اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم زمان والثانى اسم مكان أو مصدراً وأن يكون الأول مصدراً والثانى اسم مكان أو اسم زمان . وما شئت تخيل فى خيرية زمان أصحاب الجنة وأحسنيته وكذا فى خيرية استقرارهم وأحسنية استراحتهم يومئذ ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ العامل فى (يوم) إما اذكر أو ينفرد الله تعالى بالملك الدال عليه قوله تعالى : (الملك يومئذ الحق للرحمن) وقيل: العامل ذاك بمعناه المذكور. وقيل : إنه معطوف على (يومئذ) أو (يوم يرون) و «تشقق » تتفتح والتعبير به دونه للتهويل . وأصله تتشقق فحذفت إحدى التاءين كما فى « تلظى » وقرأ الحرميان · وابن عامر بادغام التاء فى الشين لما بينهما من المقاربة ؛ والظاهر أن المراد بالسماء المظلة لنا وبالغمام السحاب المعروف والباء الداخلة عليه باء السبب . أى تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها . ولا مانع من أن تشقق به كما يشق السنام بالشفرة والله تعالى على كل شىء قدير . وحديث امتناع الخرق على السماء حديث خرافة * وقيل: باء الحال وهى باء الملابسة . واستظهره بعضهم أى تشقق متغيمة . وقيل : بمعنى عن وإليه ذهب الفراء ، والفرق بين قولك انشقت الأرض بالنبات وانشقت عنه أن معنى الأول أن الله تعالى شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى الثانى أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه ، وقيل : المراد بالغمام غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أنه الغمام الذى يأتى الله تعالى فيه يوم القيامة المذكور فى قوله سبحانه « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » قال ابن جريج: وهو غمام زعموا أنه فى الجنة ، وعن مقاتل أن المراد بالسماء مايعم السموات كلها وتشقق سماء سماء ، وروى ذلك عن ابن عباس ، فقد أخرج عبد بن حميد :وابن أبى الدنيا فى الأهوال· وابن جرير· وابن المنذر. وابن أبى حاتم عنه رضى الله تعالى عنه أنه قرأ هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ﴾ أى تنزيلا عجيباً غير معهود فقال : يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد الجن والانس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن فى الأرض من الجن والانس وجميع الخلق فيحيطون بجميعهم فتقول أهل الأرض : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والانس وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والانس وجميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والدنيا وجميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والانس وجميع الخلق ، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض ، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ، ثم أهل السماء السادسة كذلك ، ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السموات وأهل الأرض ، ثم ينزل ربنا فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع والانس والجن وجميع الخلق لهم قرون كركعوب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى مابين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومن نخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، ومن ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك

Marfat.com

خمسمائة عام ، ونزول الرب جل وعلا من المتشابه ، وكذا قوله : « وحوله الكروبيون » وأهل التأويل يقولون : المراد بذلك نزول الحكم والقضاء ، فكأنه قيل : ثم ينزل حكم الرب وحوله الكروبيون أى معه ، وأما نزول الملائكة مع كثرتهم وعظم أجسامهم فلا يمنع عنه مايشاهد من صغر الأرض لأن الأرض يومئذ تمتد بحيث تسع أهلها وأهل السموات أجمعين ، وسبحان من لايعجزه شىء ، ثم الخبر ظاهر فى أن الملائكة عليهم السلام لاينزلون فى الغمام ، وذكر بعضهم فى الآية أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحائف الأعمال ، وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء (ونزل) ماضياً مبنياً للفاعل مشدداً ، وعنه أيضاً « وأنزل » مبنياً للفاعل وجاء مصدره تنزيلا وقياسه إنزالا إلا أنه لما كان معنى أنزل ونزل واحداً جاء مصدر أحدهما للآخر كما قال الشاعر :

* حتى تطويت انطواء الخصب * كأنه قال : حتى انطويت ، وقرأ الأعمش وعبدالله فى نقل ابن عطية «وأنزل» ماضياً رباعياً مبنياً للمفعول ، وقرأ جناح بن حبيش . والخفاف عن أبى عمرو « ونزل » ثلاثياً مخففاً مبنياً للفاعل ، وقرأ أبو معاذ وخارجة عن أبى عمرو « ونزل » بضم النون وشد الزاى وكسرها ونصب «الملائكة» وخرجها ابن جنى بعد أن نسبها إلى ابن كثير . وأهل مكة على أن الأصل « ننزل » كما وجد فى بعض المصاحف فحذفت النون التى هى فاء الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين ، وقرأ أبى « ونزلت » ماضيا مشدداً مبنيا للمفعول بتاء التأنيث . وقال صاحب اللوامح عن الخفاف عن أبى عمرو « ونزل » مخففا مبنيا للمفعول و « الملائكة » بالرفع فان صحت القراءة فانه حذف منها المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه : والتقدير ونزل نزول الملائكة فحذف النزول ونقل اعرابه الى الملائكة بمعنى نزل نازل الملائكة لأن المصدر يكون بمعنى الاسم اه ، وقال الطيبي: قال ابن جنى : نزل بالبناء للمفعول غير معروف لأن نزل لايتعدى إلى مفعول به ولا يقاس بجن حيث أنه مما لايتعدى إلى المفعول فلايقال جنه الله تعالى بل أجنه الله تعالى ، وقد بنى للمفعول لأنه شاذ والقياس عليه مرود فاما أن يكون ذلك لغة نادرة وإما أن يكون من حذف المضاف أى نزل نزول الملائكة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه قال العجاج :

* حتى إذا اصطفوا له حذارا * فحذارا منصوب مصدرا لامفعولا به يريد اصطفوا له اصطفافا حذارا ومنزل نزول الملائكة على حد قولك: هذا نزول منزول وصعود مصعود وضرب مضروب وقريب منه ،وقد قيل قول وقد خيف منه خوف فاعرف ذلك فانه أمثل مايحتج به لهذه القراءة اه . وهو أحسن من كلام صاحب اللوامح . وعن أبى عمرو أيضا أنه قرأ (وتنزلت الملائكة) فهذه مع قراءة الجمهور ومافى بعض المصاحف عشرة قراءات وماكان منها بصيغة المضارع وجهه ظاهر ، وأما ماكان بصيغة الماضى فوجهه على ماقيل الاشارة إلى سرعة الفعل *

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لازوال له ثابت للرحمن يوم إذ تشقق السماء وتنزل الملائكة ، فالملك مبتدأ و(الحق) صفته و(للرحمن) خبره و(يومئذ) ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ ، وفائدة التقييد ان ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره عز وجل أيضا تصرف صورى فى الجملة واختار هذا بعض المحققين ، ولعل أمر الفصل بين الصفة والموصوف بالظرف المذكور سهل ، وقيل : «الملك» مبتدأ و«يومئذ» متعلق به وهو بمعنى

Marfat.com

المالكية (والحق)خبره و(للرحمن) متعلق بالحق . وتعقب بأنه لا يظهر حينئذ نكتة ايراد المسند معرفا فان الظاهر عليه أن يقال: الملك يومئذ حق للرحمن . وأجيب بأن فى تعلقه بما ذكر تأكيدا لما يفيده تعريف الطرفين ، وقيل: هو متعلق بمحذوف على التبيين كما فى سقيا لك والمبين من له الملك ، وقيـــل : متعلق بمحذوف وقع صفة للحق وهو كما ترى، وقيل «يومئذ» هو الخبر و«الحق» نعت للملك و«للرحمن» متعلق به،وفيه الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر فلا تغفل ه

ومنعوا تعلق (يومئذ) فيما إذا لم يكن خبرا بالحق وعللوا ذلك بأنه مصدر والمصدر لا تتقدم عليه صلته ولو ظرفا وفيه بحث ، والجملة على أكثر الاحتمالات السابقة فى عامل يوم استئناف مسوق لبيان أحوال ذلك اليوم وأهواله ، وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بأن اتصافه عز وجل بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة المشار اليه بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ٢٦ ﴾ أى وكان ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة بعباده شديداً على الكافرين ، والمراد شدة ما فيه من الأهوال ،وفسر الراغب العسير بما لا يتيسر فيه أمر ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ،وفيها إشارة إلى كون ذلك اليوم يسيرا للمؤمنين وفى الحديث «إنه يهون على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا» *

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ قال الطبرسى : العامل فى (يوم) اذكر محذوفا ، ويجوز أن يكون معطوفا على ما قبله ، والظاهر أن أل فى الظالم للجنس فيعم كل ظالم وحكى ذلك أبو حيان عن مجاهد . وأبى رجاء ، وذكر أن المراد بفلان فيما بعد الشيطان ، وقيل : لتعريف العهد ، والمراد بالظالم عقبة بن أبى معيط لعنه الله تعالى و بفلان أبى بن خلف، فقد روى أنه كان عقبة بن أبى معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا عليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبى ﷺ و يعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فقال : ما أنا بالذى آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فقال : اطعم يا ابن أخى فقال ﷺ : ما أنا بالذى أفعل حتى تقول فشهد بذلك وطعم عليه الصلاة والسلام من طعامه فبلغ ذلك أبى بن خلف فاتاه فقال : أصبوت ياعقبة وكان خليله فقال : والله ما صبوت ولكن دخل على رجل فابى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى قبل أن يطعم فشهدت له فطعم فقال : ما أنا بالذى أرضى عنك حتى تأتيه فتفعل كذا وذكر فعلا لا يليق إلا بوجه القائل اللعين ففعل عقبة (١) فقال له رسول الله ﷺ : لا ألقاك خارجا عن مكة إلا علوت رأسك بالسيف ،وفى رواية إن وجدتك خارجا من جبال مكة أضرب عنقك صبرا فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج فقال له أصحابه : أخرج معنا قال . قد وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقى صبرا فقالوا : لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم فلما هزم الله تعالى المشركين رحل به جمله فى جدد من الأرض فاخذ أسيرا فى سبعين من قريش وقدم إلى رسول الله ﷺ فأمر عليا كرم الله تعالى وجهه *

(١) قال الضحاك لما بزق عقبة رجع بزاقه على وجهه لعنه الله تعالى ولم يصل حيث أراد فاحرق خديه و بقى أثر ذلك فيهما حتى ذهب الى النار اه منه

Marfat.com

وفى رواية ثابت بن أبى الافلح بأن يضرب عنقه فقال أتقتلنى من بين هؤلاء؟قال: نعم قال: بم ؟قال: بكفرك وفجورك وعتوك على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وفى رواية أنه ﷺ صرح له بما فعل معه ثم ضربت عنقه.وأما أبى بن خلف فمع فعله ذلك قال:والله لأقتلن محمدا ﷺ فبلغ ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : بل أقتله إن شاء الله تعالى فأفزعه ذلك وقال لمن أخبره:أنشدك بالله تعالى أسمعته يقول ذلك؟ قال نعم فوقعت فى نفسه لما علموا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماقال قولا إلا كان حقا فلما كان يوم أحد خرج مع المشركين فجعل يلتمس غفلة النبى عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بين النبى عليه الصلاة والسلام وبينه فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لاصحابه: خلوا عنه فاخذ الحربة فرماه بها فوقعت فى ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه فخر يخور كما يخور الثور فاتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور فقالوا :ماهذا فوالله مابك الاخدش فقال:والله لو لم يصبنى الا بريقه لقتلنى أليس قد قال: أنا اقتله،والله لو أن الذى بى بأهل ذى المجاز لقتلهم فما لبث الا يوما أونحو ذلك حتى ذهب إلى النار فانزل الله تعالى هذه الآية ، وروى هذا القول عن ابن عباس.وجماعة ،وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن الظالم أبى بن خلف وفلان عقبة ، وعض اليدين إما على ظاهره ، وروى ذلك عن الضحاك . وجماعة قالوا:يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وإما كناية عن فرط الحسرة والندامة، وكذا عض الانامل والسقوط فى اليد وحرق الاسنان والادم ونحوها لانها لازمة لذلك فى العادة والعرف وفى المثل يأكل يديه ندما ويسيل دمعه دما ، وقال الشاعر :

أبى الضيم والنعمان يحرق نابه عليه فافضى والسيوف معاقله

والفعل عض على وزن فعل مكسور العين ، وحكى الكسائى عضضت بفتح العين*

﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ٢٧ ﴾ الجملة مع موضع الحال من الظالم أو جملة مستأنفة أو مبينة لما قبلها و(ياليتنى) الخ مقول القول، ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه أو المنادى محذوف ياقومى ليتنى، وأل فى (الرسول) اما للجنس فيعم كل رسول واما للعهد فالمراد به رسول هذه الأمه محمد ﷺ والأول إذا كانت أل فى الظالم للجنس والثانى إذا كانت للعهد،و تنكير (سبيلا) اما للشيوع أو للوحدة وعدم تعريفه لادعاء تعينه أى ياليتنى اتخذت طريقا إلى النجاة أى طريق كان أو طريقا واحدا وهو طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة*

﴿ يَاوَيْلَتَىٰ ﴾ بقلب ياء المتكلم ألفا كما فى صحارى ،وقرأ الحسن . وابن قطيب ياويلتى بكسر التاء والياء على الاصل، وقرأت فرقة بالامالة،قال أبو على:وترك الامالة أحسن لان الاصل فى هذه اللفظة الياء فابدلت الكسرة فتحة والياء ألفا فرارا من الياء فمن أمال رجع إلى الذى عنه فر أولا ، وايا ما كان فالمعنى ياهلكتى تعالى واحضرى فهذا أوانك ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ٢٨ ﴾ أراد بفلان الشيطان أو من أضله فى الدنيا كائنا من كان أو أبيا ان كان الظالم عقبة أو عقبة إن كان الظالم أبيا،وهو كناية عن علم مذكر وفلانة عن علم مؤنث، واشترط ابن الحاجب فى فلان أن يكون محكيا بالقول كما هنا ،ورده فى شرح التسهيل بانه سمع خلافه كثيرا كقوله :

وإذا فلان مات عن أكرومة دفعوا معاوز فقره بفلان

وتقدير القول فيه غير ظاهر، والفلان والفلانة كناية عن غير العاقل من الحيوانات كما قال الراغب،وفل

Marfat.com

وفلة كناية عن نكرة من يعقل فالأول بمعنى رجل والثانى بمعنى امرأة ، ووهم ابن عصفور . وابن مالك . وصاحب البسيط كما فى البحر فى قولهم : فل كناية عن العلم كفلان ويختص بالنداء إلا ضرورة كما فى قوله :

• فى لجة أمسك فلان عن فل • وليس مرخم فلان خلافا للفراء ، واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو ، وقيل : ياء ، وكنوا بهن بفتح الهاء وتخفيف النون عن أسماء الأجناس كثيرا ، وقد كنى به عن الأعلام كما فى قوله :

والله أعطاك فضلا عن عطيته على هن وهن فيما مضى وهن

فانه على ما قال الخفاجى أراد عبدالله . وابراهيم . وحسنا . والخليل من الخلة بضم الخاء بمعنى المودة أطلق عليها ذلك إما لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها ، وأنشد :

قد تخللت مسلك الروح منى وبه سمى الخليل خليلا

وإما لأنها تخلها فتؤثر فيها تأثير السهم فى الرمية ، وإما لفرط الحاجة اليها ، وهذا التمنى وإن كان مسوقا لا براز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته إلى الغير ، وقوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ ﴾ تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله ، وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى فلان عن ذكر الله تعالى أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو عن كلمة الشهادة أو عن القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى ﴾ أى وصل إلى وعلمته أو تمكنت منه فلا دلالة فى الآية على إيمان من أنزلت فيه ثم ارتداده ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ٢٩ ﴾ مبالغا فى الخذلان وهو ترك المعاونة والنصرة وقت الحاجة ممن يظن فيه ذلك ، والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله إما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص الأوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان ابليس لأنه الذى حمله على مجالسة المضلين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه فان وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بأن ينفعه فى الآخرة وهو أوفق لحال ابليس عليه اللعنة .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ عطف على قوله تعالى : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) الخ ومابينهما اعتراض مسوق لاستعظام ماقالوه وبيان مايحيق بهم من الأهوال والخطوب ، والمراد بالرسول نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم وكرم ، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ماحكى عنهم قدحا فى رسالته ﷺ أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ماشاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث إلى ربه عز وجل والشكوى عليهم ﴿ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى ﴾ الذين حكى عنهم ماحكى من الشنائع ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الجليل الشأن المشتمل على مافيه صلاح معاشهم ومعادهم ﴿ مَهْجُورًا ٣٠ ﴾ أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده ووعده ، فمهجورا من الهجر بفتح الهاء بمعنى الترك وهو الظاهر ، وروى ذلك عن مجاهد . والنخعى . وغيرهما ، واستدل ابن الفرس بالآية على كراهة هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه ، وكان ذلك لئلا يندرج من لم يتعاهد القراءة فيه تحت ظاهر

Marfat.com

النظم الكريم فان ظاهره ذم الهجر مطلقا وإن كان المراد به عدم القبول لاعدم الاشتغال مع القبول ولاما يعمهما فان كان مثل هذا يكفى فى الاستدلال فذاك وإلا فليطلب دليل آخر للكراهة . وأورد بعضهم فى ذلك خبرا وهو « من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول : يارب عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه » وقد تعقب هذا الخبر العراقى بأنه روى عن أبى هدبة وهو كذاب ، والحق أنه متى كان ذلك مخلا باحترام القرءان والاعتناء به كره بل حرم وإلا فلا *

وقيل : مهجوراً من الهجر بالضم على المشهور أى الهذيان وفحش القول والكلام على الحذف والايصال أى جعلوه مهجورا فيه إما على زعمهم الباطل نحو ماقالوا : إنه أساطير الأولين اكتتبها وإما بأن هجروا فيه ورفعوا أصواتهم بالهذيان لما قرئ لئلا يسمع كما قالوا : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وجوز أن يكون مصدرا من الهجر بالضم كالمعقول بمعنى العقل والمجلود بمعنى الجلادة أى اتخذوه نفس الهجر والهذيان ، ومجئ مفعول مصدرا مما أثبته الكوفيون لكن على قلة ، وفى هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لايخفى فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا *

وقيل : إن (قال) الخ عطف على (يعض الظالم) ، والمراد ويقول الرسول إلا أنه عدل إلى الماضى لتحقق الوقوع مع عدم قصد الاستمرار التجددى المراد بمعونة المقام فى بعض وإن كان إخبارا عما فى الآخرة *

وحال عطفه على (وكان الشيطان) الخ على أنه من كلامه تعالى لايخفى حالة ، وقول الرسول ذلك يوم القيامة وهو كالشهادة على أولئك الكفرة وليس بتخويف وإلى ذلك ذهبت فرقة منهم أبو مسلم ، والأول أنسب بقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فانه تسلية لرسول الله ﷺ وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم السلام ، والبلية إذا عمت هانت ، والعدو يحتمل أن يكون واحدا وجمعا أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل جعلنا لكل نبى من الانبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مرتكبى الجرائم والآثام ويدخل فى ذلك آدم عليه السلام لدخول الشياطين وقابيل فى المجرمين ويكتفى بدخول قابيل إن أريد بالمجرمين مجرمو الانس أو مجرمو أمة النبى ، وقيل : الكلية بمعنى الكثرة ، والمراد بجعل الأعداء جعل عداوتهم وخلقها وما ينشأ منها فيهم لا جعل ذواتهم ، ففى ذلك رد على المعتزلة فى زعمهم إن خالق الشر غيره تعالى شأنه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ٣١ ﴾ وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ومبلغك إلى الكمال هاديا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التى من جملتها تبليغ ما أنزل اليك واجراء أحكامه فى أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتاب أجله وناصرا لك عليهم على أبلغ وجه

وقدر بعضهم متعلق « هاديا » إلى طريق قهرهم ، وقيل : المعنى هاديا لمن آمن منهم ونصيرا لك على غيره ، وقيل : هاديا للانبياء إلى التحرز عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحبله ونصيرا لهم عليهم وهو كما ترى . ونصب الوصفين على الحال أو التمييز ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حكاية لنوع آخر من أباطيلهم ، والمراد بهم المشركون كما صح عن ابن عباس وهم القائلون أولا ، والتعبير عنهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم ، وقيل : المراد بهم طائفة من اليهود ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾ أى أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر فلا قصد فيه إلى التدريج

Marfat.com

لمكان ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ فانه لو قصد ذلك لتدافعا إذ يكون المعنى لولا فرق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافى الجملية ،وقيل: عبر بذلك للدلالة على كثرة المنزل فى نفسه ،ونصب (جملة) على الحال و (واحدة) على أنه صفة مؤكدة له أى هلا أنزل القرآن عليه عليه الصلاة والسلام دفعة غير مفرق كما أنزلت التوراة والانجيل والزبور على ما تدل عليه الاحاديث والآثار حتى كاد يكون إجماعا كما قال السيوطى ورد على من أنكر ذلك من فضلاء عصره،فقول ابن الكمال إن التوراة أنزلت منجمة فى ثمانى عشرة سنة ويدل عليه نصوص التوراة ولا قاطع بخلافه من الكتاب والسنة ناشىء من نقصان الاطلاع *

وهذا الاعتراض مما لا طائل تحته لأن الاعجاز مما لا يختلف بنزوله جملة أومفرقا مع أن للتفويق فوائد منها ما ذكره الله تعالى بعد ، وقيل : إن شاهد صحة القرآن اعجازه وذلك ببلاغته وهى بمطابقته لمقتضى الحال فى كل جملة منه ولا يتيسر ذلك فى نزوله دفعة واحدة فلا يقاس بسائر الكتب فان شاهد صحتها ليس الاعجاز * وفيه أن قوله: ولا يتيسر الخ ممنوع فانه يجوز أن ينزل دفعة واحدة مع رعاية المطابقة المذكورة فى كل جملة لما يتجدد من الحوادث الموافقة لها الدالة على أحكامها . وقد صح أنه نزل كذلك إلى السماء الدنيا فلو لم يكن هذا لزم كونه غير معجز فيها ولا قائل به بل قد يقال ان هذا أقوى فى اعجازه والبليغ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام فافهم ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان بعض الحكم فى تنزيله تدريجا،ومحل الكاف نصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده ،وجوز نصبها على الحالية، (وذلك) إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أى تنزيلا مثل ذلك التنزيل الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا مغايرا له أو نزلناه مماثلا لذلك التنزيل لنقوى به فؤادك فان فى تنزيله مفرقا تيسيرا لحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الكلام والوقوف على تفاصيل ماروعى فيه من الحكم والمصالح وتعدد نزول جبريل عليه السلام وتجدد اعجاز الطاعنين فيه فى كل جملة مقدار أقصر سورة تنزل منه،ولذلك فوائد غير ماذكر أيضا ، منها معرفة الناسخ المتأخر نزوله من المنسوخ المتقدم نزوله المخالف لحكمه ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فانه يعين على معرفة البلاغة لأنه بالنظر إلى الحال يتنبه السامع لما يطابقها ويوافقها إلى غير ذلك ، وقيل : قوله تعالى (كذلك) من تمام كلام الكفرة والكاف نصب على الحال من القرآن أو الصفة لمصدر نزل المذكور أو لجملة، والاشارة إلى تنزيل الكتب المتقدمة ،ولام «لنثبت» لام التعليل والمعلل محذوف نحو ما سمعت أولا أى نزلناه مفرقا لنثبت الخ ، وقال أبو حاتم : هى لام القسم ، والتقدير والله لنثبتن فحذف النون وكسرت اللام وقد حكى ذلك عنه أبو حيان. والظاهر أنها عنده كذلك على القولين فى (كذلك) . وتعقبه بانه قول فى غاية الضعف وكأنه ينحو إلى مذهب الأخفش إن جواب القسم يتلقى بلام كى وجعل منه «ولتصغى اليه أفئدة » الخ وهو مذهب مرجوح . وقرأ عبد الله «ليثبت» بالياء أى ليثبت الله تعالى *

وقوله تعالى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٢ ﴾ عطف على الفعل المحذوف المعلل بما ذكر ، وتنكير «ترتيلا» للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ، وترتيله تفريقه اية بعد اية قاله النخعى. والحسن. وقتادة

وقال ابن عباس: بيناه بيانا فيه ترسل ، وقال السدى : فصلناه تفصيلا ، وقال مجاهد : جعلنا بعضه إثر بعض، وقيل: هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى : (ورتل القرآن ترتيلا) وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل

Marfat.com

عليه السلام شيئا فشيئا فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل وهو مأخوذ من قولهم : ثغر مرتل أى مفاج الأسنان غير متلاصقها ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ من الأمثال التى من جملتها اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الأمثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى نبوتك ويظهرونه لك ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ ﴾ فى مقابلته ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال مما من الأجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ عطف على (الحق) أى جئناك بأحسن تفسيرا أى بما هو أحسن أو على محل (بالحق) أى استحضرنا لك وأنزلنا عليك الحق وأحسن تفسيرا أى كشفا وبيانا على معنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته لا أن ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه، وهذا نظير قولهم : الله تعالى أكبر أى له غاية الكبرياء فى حد ذاته وبعضهم قدر مفضلا عليه فقال: أى وأحسن تفسيراً من مثلهم وحسنه على زعمهم أو هو تهكم ، وتعقب الأول بأنه يفوت عليه معنى التسلية لأن المراد لا يهلك ما اقترحوه من قولهم :(لولا أنزل عليه القرءان جملة) فان تنزيله مفرقا أحسن مما اقترحوه لفوائد شتى وفيه منع ظاهر ، وقيل : المراد بالتفسير المعنى، والمراد وأحسن معنى لأنه يقال: تفسير كذا كذا أى معناه فهو مصدر بمعنى المفعول لأن المعنى مفسر كدرهم ضرب الأمير ، ورد بأن المفسر اسم مفعول هو الكلام لا المعنى لأنه يقال فسرت الكلام لا معناه ه

وقال الطيبى : وضع التفسير موضع المعنى من وضع السبب موضع المسبب لأن التفسير سبب لظهور المعنى وكشفه ، وقيل عليه : إنه فرق بين المعنى وظهوره فلا يتم التقريب وقد يكتفى بسببيته له فى الجملة ه

وأياما كان فهو نصب على التمييز والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال فالجملة فى محل النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل فى حال من الأحوال أى إلا حال إنزالنا عليك واستحضارنا لك الحق وأحسن تفسيرا، وجعل ذلك مقارنا لاتيانهم وإن كان بعده للدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به تثبيتا لفؤاده ﷺ ، وجوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من الاستغناء عن الأكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرءان عليه جملة واحدة على معنى لا يأتوك بحالة عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن ، وتعقب بأنه يأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الأباطيل دامغا لها ولا ريب فى أن ما أتاه الله تعالى من الملكات السنية الطائفة بالرسالة قد أتاه من أول الأمر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لأجل دمغها ، وإبطالها ه

وأجيب بأن معنى (إلا جئناك) الخ على ذلك إلا أظهرنا فيك ما يكشف عن بطلان ما أتوا به وهو كما ترى فالحق التعويل على الأول . والمشهور أن الاتيان والمجىء بمعنى لكن عبر أولا بالاتيان ، وثانيا بالمجىء للتفنن وكراهة أن يتحد ما ينسب اليه عز وجل وما ينسب اليهم لفظا مع كون ما أتوا به فى غاية القبح والبطلان وما جاء به سبحانه فى غاية الحقية والحسن ، وفرق الراغب بينهما فقال المجىء كالاتيان لكن المجىء أعم لأن الاتيان مجىء بسهولة ، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى وأتاوى، والاتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن

Marfat.com

منه الحصول والمجىء يقال اعتبارا بالحصول ، ولعل فى التعبير بالاتيان أولا والمجىء ثانيا على هذا إشارة إلى أن مايأتون به من الأمثال فى نفسه من الأمور التى تتخيل بسهولة ولاتحتاج إلى إعمال فكر بخلاف مايكون فى مقابلته فانه فى نفسه من الأمور العقلية التى صقلها الفكر فلا يجد أحد سبيلا إلى ردها والطعن فيها أو إلى أن فعلهم لخروجه عن حيز القبول منزل منزلة العدم حتى كأنهم لم يتحقق منهم القصد دون الحصول بخلاف ما كان من قبله عز وجل فتامل والله تعالى أعلم باسرار كتابه *

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ أى يحشرون ماشين على وجوههم. فقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف. صنفا مشاة. وصنفا ركبانا. وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال إن الذى أمشاهم على اقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم اما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك» وهذا يحتمل أن يكون بمس وجوههم وسائر مافى جهتها من صدورهم وبطونهم ونحوها الأرض وأن يكون بكسهم على رؤسهم ، وجعل وجوههم الى مايلى الأرض وارتفاع اقدامهم وسائر ابدانهم ، ولعل الحديث اظهر فى الأول ، وقيل : إن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرهم على وجوههم إلى جهنم والأمر عليه ظاهر لاغرابة فيه ، وقيل : الحشر على الوجه مجاز عن الذلة المفرطة والخزى والهوان ، وقيل : هو من قول العرب مر فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب ، وقيل : الكلام كناية أو استعارة تمثيلية والمراد أنهم يحشرون متعلقة قلوبهم بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم اليها ، ولعل كون هذه الحال فى الحشر باعتبار بقاء آثارها والافهم هناك فى شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وزخارفها وتعلق قلوبهم بها ، ومحل الموصول قيل إما النصب بتقدير أذم أو أعنى أو الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هم الذين أو على أنه مبتدأ، وقوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ بدل منه أو بيان له ، وقوله تعالى : ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٣٤ ﴾ خبر له أو اسم الاشارة مبتدأ ثان (وشر) خبره ، والجملة خبر الموصول ، وقال صاحب الفرائد: يمكن أن يكون الموصول بدلا من الضمير فى يأتونك و (أولئك شر مكانا) كلام مستأنف، ولعل الاقرب كون الموصول مبتدأ ومابعده خبره قال الطيبى. وذلك من باب كلام المنصف وارخاء العنان. وفصل (الذين يحشرون) عما قبله استئنافا لأن التسلية السابقة حركت منه ﷺ بان يسأل فاذا بماذا أجيبهم ومايكون قولى لهم؟ فقيل قل لهم الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم الخ يعنى مقصودكم من هذا التعنت تحقير مكانى وتضاليل سبيلى ومااقول لكم أنتم كذلك بل أقول الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم شر مكانا واضل سبيلا فانظروا بعين الانصاف وتفكروا من الذى هو أولى بهذا الوصف منا ومنكم لتعلموا أن مكانكم شر من مكاننا وسبيلكم أضل من سبيلنا. وعليه قوله تعالى (إنا او اياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين) فالمكان الشرف والمنزلة. ويجوز أن يراد به الدار والمسكن. (وشر. وأضل) محمولان على التفضيل على طريقة قوله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه). وجعل صاحب الفرائد ذلك لاثبات كل الشر لمكانهم وكل الضلال لسبيلهم . ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والآية على ماسمعت متصلة بما قبلها من قوله تعالى (ولا ياتونك) الخ وقال الكرمانى هى متصلة بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ الآية (قيل) ويجوز أن تكون

Marfat.com

متصلة بقوله سبحانه «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين» انتهى . وماذكر أولا أبعد مغزى، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ الخ جملة مستأنفة سيقت لتأكيد مامر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى «وكفى بربك هاديا ونصيراً» على ماقدمناه بحكاية ماجرى بين من ذكر من الانبياء عليهم السلام وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيماهو المقصود .واللام واقعة فى جواب القسم أى وبالله تعالى لقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة ، وقيل : المراد بالكتاب الحكم والنبوة ولايخفى بعده ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ ﴾ الظرف متعلق بجعلنا، وقوله تعالى ﴿ أَخَاهُ ﴾ مفعول أول له وقوله سبحانه ﴿ هَٰرُونَ ﴾ بدل من «أخاه» أوعطف بيان له وقوله عز وجل ﴿ وَزِيرًا ٣٥ ﴾ مفعول ثان له وتقدم معنى الوزير ولاينافى هذا قوله تعالى «ووهبنا له أخاه هرون نبيا» لأنه وإن كان نبيا فالشريعة لموسى عليه السلام وهو تابع له فيها كما أن الوزير متبع لسلطانه *

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ هم فرعون وقومه والظاهر تعلق بآياتنا «بكذبوا». والمراد بها دلائل التوحيد المودعة فى الانفس والآفاق أو الآيات التى جاءت بها الرسل الماضية عليهم السلام أو التسع المعلومة .والتعبير عن التكذيب بصيغة الماضى على الاحتمالين الأولين ظاهر وعلى الاخير قيل. لتنزيل المستقبل لتحققه منزلة الماضى . وتعقب بانه لايناسب المقام . وقال العلامة أبو السعود: لم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تاخر تكذيب الآيات التسع عن اظهارها المتاخر عن ذهابهما المتاخر عن الامر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بيانا لعلة استحقاقهم لمايحكى بعده من التدمير وبحث فيه بما فيه تامل، وجوز أن يكون الظرف متعلقا باذهبا فمعنى «كذبوا» فعلوا التكذيب ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ٣٦ ﴾ عجيبا هائلا لايقادر قدره ولايدرك كنهه والمراد به أشد الهلاك .وأصله كسر الشىء على وجه لايمكن اصلاحه والفاء فصيحة والاصل فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا اليهم ودعواهم إلى الايمان فكذبوهما واستمروا على ذلك فدمرناهم فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء بماهو المقصود . وقيل : معنى فدمرناهم فحكمنا بتقديرهم فالتعقيب باعتبار الحكم وليس فى الاخبار بذلك كثير فائدة . وقيل : الفاء لمجرد الترتيب وهو كما ترى *

وعطف «قلنا» على «جعلنا» المعطوف على «آتينا» بالواو التى لاتقتضى ترتيبا على الصحيح فيجوز تقدمه مع ما يعقبه على ايتاء الكتاب فلايرد أن إيتاء الكتاب وهو التوراة بعد هلاك فرعون وقومه فلايصح الترتيب والتعرض لذلك فى مطلع القصة مع أنه لامدخل له فى اهلاك القوم لما أنه بعد للايذان من أول الأمر ببلوغه عليه السلام غاية الكمال التى هى انجاء بنى اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم إلى طريق الحق بما فى التوراة من الأحكام إذبه يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى ذكر سابقا *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والحسن . ومسلمة بن محارب فدمرا هم على الأمر لموسى . وهرون عليهما السلام . وعن على كرم الله تعالى وجهه أيضا كذلك إلا أنه مؤكد بالنون الشديدة ، وعنه كرم الله تعالى وجهه «فدمرا» أمرا لهما بهم بياء الجر وكأن ذلك من قبيل *تجرح فى عراقيبها نصلى * وحكى فى الكشاف عنه أيضا كرم الله تعالى وجهه «فدمرتهم» بتاء الضمير ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى (فدمرناهم) أى ودمرنا قوم نوح ، وجوز الحوفى . وأبو حيان كونه معطوفا على مفعول فدمرناهم . ورد بأن تدمير

Marfat.com

قوم نوح ليس مترتبا على تكذيب فرعون وقومه فلا يصح عطفه عليه ٠

وأجيب بأن ليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ماقبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أى نوحا ومن قبله من الرسل عليهم السلام أونوحا وحده فان تكذيبه عليه السلام تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد أو أنكروا جواز بعثة الرسل مطلقا ، وتعريف الرسل على الأول عهدى، ويحتمل أن يكون للاستغراق إذلم يوجد وقت تكذيبهم غيرهم ، وعلى الثانى استغراقى لكن على طريق المشابهة والادعاء ، وعلى الثالث للجنس أو للاستغراق الحقيقى،وكأن المجيب أراد أن اعتبار العطف قبل الترتيب فيكون المرتب مجموع المتعاطفين ويكفى فيه ترتب البعض . وقيل : المقصود من العطف التسوية والتنظير كأنه قيل: دمرناهم كقوم نوح فتكون الضمائر لهم . والرسل نوح . وموسى . وهرون عليهم السلام ولا يخفى مافيه . واختار جمع كونه منصوبا باذكر محذوفا ، وقيل : هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ ويرجحه على الرفع تقدم الجمل الفعلية . ولا يخفى أنه إنما يتسنى ذلك على مذهب الفارسى من كون ـ لما ـ ظرف زمان وأما إذا كانت حرف وجود لوجود فلا لأن «أغرقناهم» حينئذ يكون جوابا لها فلا يفسر ناصبا . ولعل أولى الأوجه الأول ، و(أغرقناهم) استئناف مبين لكيفية تدميرهم كأنه قيل: كيف كان تدميرهم ؟ فقيل : أغرقناهم بالطوفان﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾أى جعلنا اغراقهم أوقصتهم﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أى آية عظيمة يعتبر بها من شاهدها أوسمعها وهو مفعول ثان لجعلنا و(للناس) متعلق به أومتعلق بمحذوف وقع حالا من «آية» إذ لو تاخر عنها لكان صفة لها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ أى جعلناه معدا لهم فى الآخرة أو فى البرزخ أوفيهما . والمراد بالظالمين القوم المذكورون ، والاظهار فى موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد فى الكفر والتكذيب أو جميع الظالمين الذين لم يعتبروا بماجرى عليهم من العذاب فيدخل فى زمرتهم قريش دخولا أوليا . ويحتمل العذاب الدنيوى وغيره ٠

﴿وَعَادًا﴾ عطف على «قوم نوح» أى ودمرنا عادا أو واذكر عادا على ماقيل ، ولا يصح أن يكون عطفا إذا نصب على الاشتغال لأنهم لم يغرقوا. وقال أبو اسحق هو معطوف على ـ هم ـ من «جعلناهم للناس آية» ويجوز أن يكون معطوفا على محل (الظالمين) فان الكلام بتأويل وعدنا الظالمين اه ولا يخفى بعد الوجهين ﴿وَثَمُودَا﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله ٠

وقرأ عبد الله . وعمرو بن ميمون . والحسن . وعيسى . وثمود غير مصروف على تأويل القبيلة ،وروى ذلك عن حمزة . وعاصم . والجمهور بالصرف ، ورواه عبد بن حميد عن عاصم على اعتبار الحى أو أنهم سموا بالأب الاكبر ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ عن ابن عباس هم قوم ثمود . ويبعده العطف لأنه يقتضى التغاير ، وقال قتادة : هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفلج قيل قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وقوم صالح ،وقال كعب . ومقاتل . والسدى : أهل بئر يقال له الرس بانطاكية الشام قتلوا فيها صاحب يس وهو حبيب النجار ٠

وقيل : هم قوم قتلوا نبيهم ورسوه فى بئر أى دسوه فيه ، وقال وهب . والكلبى : أصحاب الرس وأصحاب الايكة قومان أرسل اليهما شعيب ، وكان أصحاب الرس قوما من عبدة الاصنام وأصحاب آبار ومواش فدعاهم

Marfat.com

إلى الاسلام فتمادوا فى طغيانهم وفى إيذائه عليه السلام فبينماهم حول الرس وهى البئر غير المطوية كما روى عن أبى عبيدة انهارت بهم وبدارهم، وقال على كرم الله تعالى وجهه . فيما نقله الثعلبى : هم قوم عبدوا شجرة يقال لها : شاه درخت رسوا نبيهم فى بئر حفروه له فى حديث طويل ، وقيل : هم أصحاب النبى حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهى أعظم ما يكون من الطير وكان فيها من كل لون وسميت عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتح وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد ولاتيانها بهذا الأمر الغريب سميت مغربا ، وقيل : لأنها اختطفت عروسا ، وقيل : لغروبها أى غيبتها ، وقيل : لأن وكرها كان عند مغرب الشمس، ويقال فيها عنقاء مغرب بالتوصيف والاضافة مع ضم الميم وفتحها فدعا عليها حنظلة فاصابتها الصاعقة فهلكت ثم انهم قتلوا حنظله فاهلكوا ، وقيل : هم قوم أرسل اليهم نبى فاكلوة ، وقيل : قوم نساؤهم سواحق وقيل : قوم بعث اليهم أنبياء فقتلوهم ورسوا اعظامهم فى بئر، وقيل : هم أصحاب الاخدود والرس هو الأخدود . وفى رواية عن ابن عباس أنه بئر أذربيجان . وقيل : الرس ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت ؛ وقيل : هو ماء ونخل لبنى اسد . وقيل : نهر من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبيا من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمانا فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا له بئرا وأرسلوه فيه وقالوا : نرجو أن ترضى عنا آلهتنا فكانوا عليه يومهم يسمعون أنين نبيهم فدعا بتعجيل قبض روحه فمات وأظلتهم سحابة سوداء أذابتهم كما يذوب الرصاص . وروى عكرمة . ومحمد بن كعب القرظى عن النبى ﷺ أن أصحاب الرس أخذوا نبيهم فرسوه فى بئر وأطبقوا عليه صخرة فكان عبد أسود قد آمن به يجىء بطعام إلى البئر فيعينه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها فيعطيه ما يغذيه به ثم يرد الصخرة على فم البئر إلى أن ضرب الله تعالى على اذن ذلك الاسود فنام أربع عشرة سنة . وأخرج أهل القرية نبيهم فآمنوا به فى حديث طويل ذكر فيه أن ذلك الاسود أول من يدخل الجنة . وهذا إذا صح كان القول الذى لا يمكن خلافه لكن يشكل عليه ايرادهم هنا . وأجاب عنه الطبرى بانه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فاهلكوا فذكرهم الله تعالى مع من ذكر من المهلكين ، وملخص الأقوال أنهم قوم أهلكهم الله تعالى بتكذيب من أرسل اليهم ﴿ وَقُرُونًا ﴾ أى أهل قرون وتقدم الكلام فى القرن ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أى المذكور من الأمم ، وللتعدد حسن بين من غير عطف ﴿ كَثِيرًا ٣٨ ﴾ يطول الكلام جدا بذكرها ، ولا يبعد أن يكون قد علم رسول الله ﷺ مقدارها ، وقوله تعالى (ومنهم من لم نقصص عليك) ليس نصا فى نفى العلم بالمقدار كما لا يخفى . وفى إرشاد العقل السليم لعل الا كتفاء فى شؤن تلك القرون بهذا البيان الاجمالى لما أن كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الأمم المذكورة .

﴿ وَكُلًّا ﴾ منصوب بمضمر يدل عليه مابعده فان ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير . والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة إما عن الأمم التى لم تذكر أسباب إهلاكهم وإما عن الكل فان ماحكى عن فرعون وقومه وعن قوم نوح عليه السلام تكذيبهم للآيات والرسل لاعدم التاثر من الامثال المضروبة أى ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى بينا لكل القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل عليهم السلام ، وقيل : ضمير له للرسول عليه الصلاة والسلام . والمعنى

Marfat.com

وكل الأمثال ضربناه للرسول فيكون (كلا) منصوبا بضربنا (والأمثال) بدلا منه على ما فى البحر ، وفيه أنه أبعد من ذهب إلى ذلك ، وعندى أنه مما لا ينبغى أن يفسر به كلام الله تعالى ه

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ﴾ مفعول مقدم لقوله سبحانه : ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ٣٩ ﴾ وتقديمه للفاصلة ، وقيل. لافادة القصر على أن المعنى كلا لا بعضا ، وتعقب بأن لفظ ـ كل ـ يفيد ذلك ويمكن توجيه ذلك بالعناية ، وأصل التتبير التفتيت ، قال الزجاج : كل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة . والمراد به التمزيق والاهلاك أى أهلكنا كل واحد منهم إهلاكا عجيبا هائلا لما أنهم لم يتاثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدة كفار قريش لآثار هلاك بعض الأمم المتبرة وعدم اتعاظهم بها . وتصديرها بالقسم لتقرير مضمونها اعتناء به . وأتى مضمن معنى مر لتعديه بعلى ، والمعنى بالله لقد مر قريش فى متاجرهم إلى الشام *

﴿ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ وهى سذوم وهى أعظم قرى قوم لوط سميت باسم قاضيها سذوم بالذال المعجمة على ماصححه الأزهرى واعتمده فى الكشف ، وفى المثل أجور من سذوم أهلكها الله تعالى بالحجارة وهو المراد بمطر السوء وكذا أهلك سائر قراهم وكانت خمسا إلا قرية واحدة وهى زغر لم يهلكها لأن أهلها لم يعملوا العمل الخبيث كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وافراد القرية بالذكر لما أشرنا اليه وانتصب (مطر) على أنه مفعول ثان لأمطرت على معنى أعطيت أو أوليت أو على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى امطار السوء كما قيل فى (أنبتكم من الأرض نباتا)، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة لمحذوف أى امطاراً مثل مطر السوء وليس بشىء *

وقرأ زيد بن على مطرت ثلاثيا مبنيا للمفعول ، ومطر مما يتعدى بنفسه .وقرأ أبو السمال (مطر السوء) بضم السين ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ توبيخ على تركهم التذكر عند مشاهدة مايوجبه . والهمزة لانكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها ، والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب *

والمنكر فى الاول النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها عادة كذا فى ارشاد العقل السليم . ولم يقل : أفلم يرونها مع أنه أخصر وأظهر قصدا لافادة التكرار مع الاستمرار ولم يصرح فى أول الآية بنحو ذلك بأن يقال : ولقد كانوا يأتون بدل ولقد أتوا للاشارة إلى أن المرور ولو مرة كاف فى العبرة فتأمل . وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ٤٠ ﴾ إما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا انه اكتفى عن التصريح بانكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من انكار الجزاء الأخروى وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور ، والمراد بالرجاء التوقع مجازا كأنه قيل : بل كانوا لا يتوقعون النشور المستتبع للجزاء الاخروى وينكرونه ولا يرون لنفس من النفوس نشورا اصلا مع

Marfat.com

تحققه حتما وشموله للناس عموما وإطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بماشاهدوه من آثار الهلاك وإنما يحملونه على الاتفاق ، وإما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر إلى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم رجاء النشور، وحمل الرجاء على التوقع وعموم النشور أوفق بالمقام . وقيل : هو على حقيقته أعنى انتظار الخير . والمراد بالنشور نشور فيه خير كنشور المسلمين ٭

وجوز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامة ، والمراد بالنشور نشورهم والكل كما ترى ٭

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ ﴾ أى مايتخذونك ﴿ إِلَّا هُزُوًا ﴾ على معنى مايفعلون به الا اتخاذك هزوا أى موضع هزو أو مهزوا به فهزوا إما مصدر بمعنى المفعول مبالغة أوهو بتقدير مضاف وجملة (إن يتخذونك) جواب إذا، وهى كما قال أبوحيان . وغيره تنفرد بوقوع جوابها المنفى بأن ولا ومابدون فاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط .وقوله تعالى ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ٤١ ﴾ مقول قول مضمر أى يقول أهذا الخ . والجملة فى موضع الحال من فاعل يتخذونك أومستأنفة فى جواب ماذا يقولون؟ ٭

وجوز أن تكون الجواب . وجملة (ان يتخذونك) معترضة، وقائل ذلك أبوجهل ومن معه، وروى أن الاية نزلت فيه، والاشارة للاستحقار كما فى ياعجبا لابن عمرو هذا،وعائد الموصول محذوف أى بعثه و(رسولا) حال منه وهو بمعنى مرسل . وجوز أبو البقاء أن يكون مصدرا حذف منه المضاف أى ذا رسول أى رسالة وهو تكلف مستغنى عنه ، وإخراج بعث الله تعالى إياه ﷺ رسولا بجعله صلة وهم على غاية الانكار تهكم واستهزاء وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولا . وقيل : إن ذلك بتقدير أهذا الذى بعث الله رسولا فى زعمه، وما تهدم أوفق بحال أولئك الكفرة مع سلامته من التقدير ﴿ إِنْ كَادَ ﴾ ان مخففة من ان واسمها عند بعض ضمير الشأن محذوف أى إنه كاد ﴿ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لاعن عبادتها فقط ، والعدول إلى الاضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى ٭

﴿ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ثبتنا عليها واستمكنا بعبادتها، و(لولا) فى أمثال هذا الكلام يجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ ، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بالغ من الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد واظهار المعجزات وإقامة الحجج والبينات ماشارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم ، ولاينافى هذا استحقارهم واستهزائهم السابق لأن هذا من وجه وذاك من وجه آخر زعموه سببا لذلك قاتلهم الله تعالى . وقيل : إن كلامهم قد تناقض لاضطرابهم وتحيرهم فان الاستفهام السابق دال على الاستحقار وهذا دال على قوة حجته وكمال عقله ﷺ ففيما حكاه سبحانه عنهم تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه ٭

وقيل عليه: إنه ليس بصريح فى اعترافهم بماذكر بل الظاهر أنه أخرج فى معرض التسليم تهكما كما فى قولهم بعث الله رسولا وفيه منع ظاهر والتناقض مندفع كما لايخفى ٭

﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢ ﴾ أى يعلمون جواب هذا على أن (من) استفهامية مبتدأ و(أضل) خبرها والجملة فى موضع مفعولى (يعلمون) إن كانت

Marfat.com

تعدت إلى مفعولين أو فى موضع مفعول واحد إن كانت متعدية إلى واحد أو يعلمون الذى هو أضل على أن من موصولة مفعول (يعلمون) وأضل خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة الموصول، وحذف صدر الصلة وهو العائد لطولها بالتمييز، وكان أولئك الكفرة لما جعلوا دعوته ﷺ إلى التوحيد إضلالا حيث قالوا (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) الخ والمضل لغيره لا بد أن يكون ضالا فى نفسه جىء بهذه الجملة ردا عليهم ببيان أنه عليه الصلاة والسلام هاد لامضل على أبلغ وجه فانها تدل على نفى الضلال عنه ﷺ لأن المراد أنهم يعلمون أنهم فى غاية الضلال لاهو ونفى اللازم يقتضى فى ملزومه فيلزمه أن يكون عليه الصلاة والسلام هاديا لامضلا، وفى تقييد العلم بوقت رؤية العذاب وعيد لهم وتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وإن أمهلهم ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال والتنبيه على ما لهم من المصير والمال وتنبيه على أن ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه، والظاهر أن رأى بصرية و(من) مفعولها وهى اسم موصول والجملة بعدها صلة، و(اتخذ) متعدية لمفعولين أولهما (هواه) وثانيهما (إلهه) وقدم على الأول للاعتناء به من حيث أنه الذى يدور عليه أمر التعجيب لامن حيث أن الاله يستحق التعظيم والتقديم كما قيل أى أرأيت الذى جعل هواه إلها لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب منه، وقال ابن المنير فى تقديم المفعول الثانى هنا نكتة حسنة وهى إفادة الحصر فان الكلام قبل دخول (أرأيت) واتخذ) الأصل فيه هواه إلهه على أن هواه مبتدأ خبره الهه فاذا قيل إلهه هواه كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحصر فيكون معنى الآية حينئذ أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه وذلك ابلغ فى ذمه وتوبيخه *

وقال صاحب الفرائد: تقديم المفعول الثانى يمكن حيث يمكن تقديم الخبر على المبتدأ والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأ وخبرا فالمقدم هو المبتدأ فمن جعل ما هنا نظير قولك: علمت منطلقا زيدا فقد غفل عن هذا، ويمكن أن يقال: المتقدم ههنا يشعر بالثبات بخلاف المتأخر فتقدم (الهه) يشعر بأنه لا بد من إله فهو كقولك اتخذ ابنه غلامه فانه يشعر بأن له ابنا ولا يشعر بأن له غلاما فهذا فائدة تقديم إلهه على هواه. وتعقب ذلك الطيبى فقال: لا يشك فى أن مرتبة المبتدأ التقديم وأن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ لكن صاحب المعانى لا يقطع نظره عن أصل المعنى فاذا قيل: زيد الأسد فالاسد هو المشبه به اصالة ومرتبته التأخير عن المشبه بلانزاع فاذا جعلته مبتدأ فى قولك: الاسد زيد فقد أزلته عن مقره الأصلى للمبالغة، وما نعنى بالمقدم إلا المزال عن مكانه لا القار فيه فالمشبه به ههنا الإله والمشبه الهوى لأنهم نزلوا أهواءهم فى المتابعة منزلة الاله فقدم المشبه به الأصلى وأوقع مشبها ليؤذن بأن الهوى فى باب استحقاق العبادة عندهم أقوى من الاله عز وجل كقوله تعالى: (قالوا انما البيع مثل الربا) ولمح صاحب المفتاح الى هذا المعنى فى كتابه *

وأما المثال الذى أورده صاحب الفرائد فمعنى قوله: اتخذ ابنه غلامه جعل ابنه كالغلام يخدمه فى مهنة أهله وقوله: اتخذ غلامه ابنه جعل غلامه كابنه مكرما مدللا اه، وأنت تعلم ما فى قوله: إن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ فان الحق ان الأمر دائر مع القرينة والقرينة هنا قائمة على أن (الهه) الخبر وهى عقلية لأن المعنى على ذلك فلاحاجة إلى جعل ذلك من التقديم المعنوى، وقال شيخ الاسلام: من توهم أنهما على الترتيب بناء على

Marfat.com

تساويهما فى التعريف فقد زل عنه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة ؛ وفى ذلك رد على أبى حيان حيث أوجب كونهما على الترتيب *

ونقل عن بعض المدنيين أنه قرأ (مالهة) منونة على الجمع وجعل ذلك على التقديم والتأخير ، والمعنى جعل كل جنس من هواه إلها ، وذكر أيضا أن ابن هرمز قرأ (الهة) على وزن فعالة وهو أيضا من التقديم والتأخير أى جعل هواه الهة بمعنى مألوهة أى معبودة والهاء للمبالغة فلذلك صرفت ، وقيل : بل الالاهة الشمس ويقال ألاهة بضم الهمزة وهى غير مصروفة للعلمية والتأنيث لكنها لما كانت مما يدخلها لام التعريف فى بعض اللغات صارت بمنزلة ما كان فيه اللام ثم نزعت فلذلك صرفت وصارت كالمنكر بعد التعريف قاله صاحب اللوامح وهو كما ترى . والآية نزلت على ما قيل فى الحرث بن قيس السهمى كان كلما هوى حجراً عبده ، وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر فى الجاهلية فاذا وجد أحسن منه رمى به وعبد الآخر فأنزل الله تعالى (أرأيت) الخ . وزعم بعضهم لهذا ونحوه أن هواه بمعنى مهويه وليس بلازم كما لا يخفى *

وأخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى الآية كلما هوى شيئا ركبه وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى فالآية شاملة لمن عبد غير الله تعالى حسب هواه ولمن أطاع الهوى فى سائر المعاصى وهو الذى يقتضيه كلام الحسن ، فقد أخرج عنه عبد بن حميد أنه قيل له : أفى أهل القبلة شرك ؟ فقال : نعم المنافق مشرك إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله تعالى وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هذه الآية ، والمنافق عند الحسن مرتكب المعاصى كما ذكره غير واحد من الأجلة *

وقد أخرج الطبرانى . وأبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله تعالى أعظم عند الله عزوجل من هوى يتبع» ولا يكاد يسلم على هذا من عموم الآية إلا من اتبع ما اختاره الله تعالى لعباده وشرعه سبحانه لهم فى كل ما يأتى ويذر ، وعليه يدخل الكافر فيما ذكر دخولا أوليا ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ استئناف مسوق لاستبعاد كونه ﷺ حفيظا على هذا المتخذ يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده إلى الحق طوعا أو كرها وإنكار له ، والفاء لترتيب الانكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل : أبعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى تعسره على الانقياد إلى الهدى شاء أو أبى ، وجوز أن تكون رأى علمية وهذه الجملة فى موضع المفعول الثانى وليس بذاك *

وقوله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضراب وانتقال عن الانكار المذكور إلى إنكار حسبانه صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبىء عنه جده عليه الصلاة والسلام فى الدعوة واهتمامه بالارشاد والتذكير على معنى أنه لا ينبغى أن يقع أى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات القرآنية أو يعقلون ما أظهر لهم من الآيات الآفاقية والأنفسية فتعتنى فى شأنهم وتطمع فى إيمانهم ، ولما كان الدليل السمعى أهم نظرا للمقام من الدليل العقلى قيل : يسمعون أو يعقلون ، وقيل : المعنى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن فتجتهد فى دعوتهم وتهتم

Marfat.com

بارشادهم وتذكيرهم ولعل ما قلناه أولى فتدبر *

وأيا ما كان فضمير (أكثرهم) لمن باعتبار معناه وضمير (عليه) له أيضا باعتبار لفظه واختير الجمع هنا لمناسبة إضافة الأكثر لهم وأفرد فيما قبله لجعلهم فى اتفاقهم على الهوى كشىء واحد ، وقيل: ضمير (أكثرهم) للكفار لا لمن لأن قوله (تعالى) عليه بأباه وليس بشىء ، وضميرا الفعلين للاكثر لا لما أضيف اليه ، وتخصيص الأكثر لأن منهم من سبقت له العناية الأزلية بالايمان بعد الاتخاذ المذكور ، ومنهم من سمع أو عقل لكنه كابر استكباراً وخوفا على الرياسة ، وقوله تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ الخ جملة مستأنفة لتكرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة والضمير للاكثر أو لمن ، واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبله أى ماهم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر بما يشاهدونه من الدلائل البينات إلا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا ٤٤﴾ لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يتعهدها وتعرف من يحسن اليها ومن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى إلى معاطنها ومرابضها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه تعالى اليهم من إساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات الذى هو عدو مبين ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ، ولأنها إن لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى إلى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها بل صارفة لها إلى ما خلقت له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الناس عليها . واستدل بالآية على أن البهائم لا تعلم ربها عز وجل ، ومن ذهب إلى أنها تعلمه سبحانه وتسبحه كما هو مذهب الصوفية . وجماعة من الناس قال: إن هذا خارج مخرج الظاهر ، وقيل: المراد إن هم إلا كالأنعام فى عدم الانتفاع بالآيات القرآنية والدلائل الانفسية والآفاقية فان الأنعام كذلك والعلم بالله تعالى الحاصل لها ليس استدلاليا بل هو فطرى ، وكونهم أضل سبيلا من الأنعام من حيث أنها رزقت علما بربها تعالى فهى تسبحه عز وجل به وهؤلاء لم يرزقوا ذلك فهم فى غاية الضلال *

وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الخ بيان لبعض دلائل التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم ، والخطاب لرسول الله ﷺ والهمزة للتقرير والرؤية بصرية لأنها التى تتعدى بالى ، وفى الكلام مضاف مقدر حذف وأقيم المضاف اليه مقامه أى ألم تنظر الى صنع ربك لأنه ليس المقصود رؤية ذات الله عز وجل ، وكون -إلى- اسما واحد الآلاء وهى النعم بعيد جداً ، وجوز أن تكون علمية وليس هناك مضاف مقدر وتعديتها بالى لتضمين معنى الانتهاء أى ألم ينته علمك الى أن ربك كيف مد الظل والأول أولى * وذكر بعض الأجلة أنه يحتمل أن يكون حق التعبير ألم تر إلى الظل كيف مده ربك فعدل عنه إلى ما فى النظم الجليل

Marfat.com

إشعارا بأن المعقول المفهوم من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع باسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئى فكيف بالمحسوس منه، وقال الفاضل الطيبى: لو قيل ألم تر الى الظل كيف مده ربك كان الانتقال من الأثر الى المؤثر والذى عليه التلاوة كان عكسه والمقام يقتضيه لأن الكلام فى تقريع القوم وتجهيلهم فى اتخاذهم الهوى إلها مع وضوح هذه الدلائل ولذلك جعل ما يدل على ذاته تعالى مقدما على أفعاله فى سائر آياته (وهو الذى جعل لكم الليل. وهو الذى أرسل الرياح. ولو شئنا لبعثنا) وروى السلمى فى الحقائق عن بعضهم مخاطبة العام (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) ومخاطبة الخاص (ألم تر الى ربك) انتهى ، وفى الأرشاد لعل توجيه الرؤية اليه سبحانه مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره ﷺ معرفة شؤن الصانع المجيد جل جلاله ولعل هذا هو سر ما روى عن السلمى ، وقيل : إن التعبير المذكور للاشعار بأن المقصود العلم بالرب علما يشبه الرؤية ، ونقل الطبرسى عن الزجاج أنه فسر الرؤية بالعلم . وذكر أن الكلام من باب القلب ،والتقدير ألم تر الى الظل كيف مده ربك ولا حاجة الى ذلك،والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ وللايذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته جل وعلا،(و كيف) منصوب بمد على الحالية وهى معلقة لتر إن لم تكن الجملة مستأنفة ، وفى البحر أن الجملة الاستفهامية التى يتعلق عنها فعل القلب ليس باقية على حقيقة الاستفهام وفيه بحث ،وذكر بعض الأفاضل أن كيف للاستفهام وقد تجرد عن الاستفهام وتكون بمعنى الحال نحو انظر الى كيف تصنع ،وقد جوزه الدمامينى فى هذه الآية على أنه بدل اشتمال من المجرور وهو بعيد انتهى ،ولا يخفى أنه يستغنى على ذلك عن اعتبار المضاف لكنه لا يعادل البعد . والمراد بالظل على ما رواه جماعة عن ابن عباس . ومجاهد . وقتادة . والحسن . وأيوب بن موسى . وابراهيم التيمى والضحاك . وأبى مالك الغفارى . وأبى العالية . وسعيد بن جبير ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وذلك أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وتسد النظر وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ، ومن هنا كان ظل الجنة مدودا كما قال سبحانه (وظل ممدود) ٥

وقيل : المراد به ما يكون من مقابلة كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس عند ابتداء طلوعها، ومد الظل من باب ضيق فم القربة ، فالمعنى ألم تنظر الى صنع ربك كيف أنشأ ظلا أى مظلا كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا الى ما شاء الله عز وجل واختاره شيخ الاسلام . وتعقب ما تقدم بقوله :غير سديداذ لاريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عزوجل وبالغ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه فلابد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس، وماذ كروان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة اه وفيه منع ظاهر، وهو أظهر على ماذكره أبو حيان فى الاعتراض على ذلك من أنه لا يسمى ظلا فقد قال الراغب وكفى به حجة فى اللغة الظل ضد الضح وهو أعم من الفىء فانه يقال: ظل الليل وظل الجنة ويقال لكل موضع لم تصل اليه الشمس ظل ولا يقال الفىء الا لما زال عنه الشمس انتهى ،وظاهر قوله تعالى « وظل ممدود » فى وصف الجنة يقتضى أنهم يعدون مثل ماذكر ظلا . وقيل: هو ما كان من غروب

Marfat.com

الشمس الى طلوعها وحكى ذلك عن الجبائى . والبلخى . وقيل : هو ما كان يوم خلق الله تعالى السماء وجعلها كالقبة ودحا الأرض من تحتها فالقت ظلها عليها وليس بشىء، وإن فسر (ألم تر) بألم تعلم لما فى تطبيق ما يأتى من تتمة الآية عليه من التكلف وارتكاب خلاف الظاهر ، وربما يفوت عليه المقصود الذى سيق له النظم الكريم، وربما يختلج فى بعض الأذهان جواز أن يراد به مايشمل جميع مايصدق عليه أنه ظل فيشمل ظل الليل ومابين الفجر وطلوع الشمس وظل الأشياء الكثيفة المقابلة للشمس كالجبال وغيرها فاذا شرع فى تطبيق الآية على ذلك عدل عنه كما لايخفى ، وللصوفية فى ذلك كلام طويل سنذكر إن شاء الله تعالى شيئا منه ، وجمهور المفسرين على الأول، والقول الثانى أسلم من القال والقيل ه

وقوله تعالى ﴿وَلَوْشَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ جملة اعتراضية بين المتعاطفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لامدخل للاسباب العادية من قرب الشمس إلى الأفق الشرقى على الأول أو قيام الشاخص الكثيف على الثانى ، وإنما المؤثر فيه حقيقة المشيئة والقدرة ،ومفعول المشيئة محذوف وهو مضمون الجزاء كما هو القاعدة المستمرة فى أمثال هذا التركيب أى ولو شاء جعله ساكنا لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله ظلا أبدا كما فعل عزوجل فى ظل الجنة أولجعله ثابتا على حاله من الطول والامتداد وذلك بأن لايجعل سبحانه للشمس على نسخه سبيلا بأن يطلعها ولايدعها تنسخه أو بأن لايدعها تغيره باختلاف أوضاعها بعد طلوعها ، وقيل : بأن يجعلها بعد الطلوع مقيمة على وضع واحد وليس بذاك ، وإنما عبر عن ذلك بالسكون قيل: لما أن مقابله الذى هو زواله لما كان تدريجيا كان أشبه شىء بالحركة ، وقيل : لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الأوضاع بين الظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا ه

وأفاد الزمخشرى أنه قوبل مد الظل الذى هو انبساطه وامتداده بقوله تعالى (ساكنا) والسكون إنما يقابل الحركة فيكون قد أطلق (مد الظل) على الحركة مجازا من باب تسمية الشىء باسم ملابسه أوسببه كما قرره الطيبى وذكر أنه عدل عن حرك إلى مد مع أنه أظهر من مد فى تناوله الانبساط والامتداد ليدمج فيه معنى الانتفاع المقصود بالذات وهو معرفة أوقات الصلوات فان اعتبار الظل فيها بالامتداد دون الانبساط وتمم معنى الادماج بقوله تعالى (ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا) أى بالتدرج والمهل لمعرفة الساعات والأوقات وفيه لمحة من معنى قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) اه . ولايبعد أن يقال : إن التعبير بمد لما أن الظل المذكور ظل الأفق الشرقى ، وقد اعتبر المشرق والمغرب طرفى جهتى الأرض طولا والشمال والجنوب طرفى جهتيها عرضا أولأن ظهوره فى الأرض وطول المعمور منها الذى يسكنه من يشاهد الظل أكثر من عرض المعمور منها إذ الأول كما هو المشهور نصف دور أعنى مائة وثمانين درجة ، والثانى دون ذلك على جميع الأقوال فيه فيكون الظل بالنظر إلى الرائين فى المعمور من الأرض ممتداً مابين جهتى شرقيه وغربيه أكثر مما بين جهتى شماليه وجنوبيه ، وربما يقال: إن ذلك لما أن مبدأ الظل الفجر الأول وضوؤه يرى مستطيلا ممتدا كذنب السرحان ويلتزم القول بانه لايذهب بالكلية وإن ضعف بل يبقى حتى يمده ضوء الفجر الثانى فيرى منبسطا والله تعالى أعلم، وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ٤٥﴾ عطف على (مد) داخل فى حكمه أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره للحس فان الناظر إلى الجسم الملون حال قيام

Marfat.com

الظل عليه لايظهر له شئ سوى الجسم ولونه ثم إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم ظهر له أن الظل كيفية زائدة على الجسم ولونه *

* والضد يظهر حاله الضد * قاله الرازى . والطبرى . وغيرهما ، وقيل : أى ثم جعلناها دليلا على وجوده أى علة له لأن وجوده بحركة الشمس إلى الأفق وقربها منه عادة ولا يخفى ما فيه أو ثم جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسما نطق به الشرطية المعترضة ، ومن الغريب الذى لا ينبغى أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد أن على بمعنى مع أى ثم جعلنا الشمس مع الظل دليلا على وحدانيتنا على معنى جعلنا الظل دليلا وجعلنا الشمس دليلا على وحدانيتنا * والالتفات إلى نون العظمة للايذان بعظم قدر هذا الجعل لما يستتبعه من المصالح التى لا تحصى أو لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الظل والشمس من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد الدلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة ، وثم إما للتراخى الرتبى ويعلم وجهه مما ذكر ، وإما للتراخى الزمانى كما هو حقيقة معناها بناء على طول الزمان بين ابتداء الفجر وطلوع الشمس ، وقوله سبحانه ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ٤٦ ﴾ عطف على (مد) داخل فى حكمه أيضا أى ثم أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه أو بايقاعه كذلك ومحوناه على مهل قليلا قليلا حسب سير الشمس ، وهذا ظاهر على القول بان المراد بالظل ظل الشاخص من جبل ونحوه ، وأما على القول بان المراد به ما بين الطلوعين فلأنه إذا عم لا يزول دفعة واحدة بطلوع الشمس فى أفق لكروية الأرض واختلاف الآفاق فقد تطلع فى أفق ويزول ما عند أهله من الظل وهى غير طالعة فى أفق آخر وأهله فى طرف من ذلك الظل ومتى ارتفعت عن الأفق الاول حتى بانت من أفقهم زال ما عندهم من الظل فزوال الظل بعد عمومه تدريجى كذا قيل *

وقيل لاحاجة إلى ذلك فان زواله تدريجى نظرا إلى أفق واحد أيضا بناء على أنه يبقى منه بعد طلوع الشمس ما لم يقع على موقعه شعاعها المانع جبل ونحوه ويزول ذلك تدريجا حسب حركة الشمس ووقوع شعاعها على ما لم يقع عليه ابتداء طلوعها ، وكأن التعبير عن تلك الازالة بالقبض وهو كما قال الطبرسى : جمع الاجزاء المنبسطة لما أنه قد عبر عن الاحداث بالمد *

وقوله سبحانه (الينا) للتنصيص على كون مرجع الظل اليه عز وجل لا يشاركه حقيقة أحد فى إزالته كما أن حدوثه منه سبحانه لا يشاركه حقيقة فيه أحد ، وثم يحتمل أن تكون للتراخى الزمانى وأن تكون للتراخى الرتبى نحو ما مر ، ومن فسر الظل بما كان يوم خلق الله تعالى السماء كالقبة ودحا الأرض من تحتها فالقت ظلها عليها جعل معنى (ثم جعلنا) الخ ثم خلقنا الشمس وجعلناها مسلطة على ذلك الظل وجعلناها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد وينقص ويمتد ويقلص ثم قبضناه قبضا سهلا لاعسر فيه *

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة الينا وكذا (يسيرا) وذلك بقبض أسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بانشاء أسبابه ، والتعبير بالماضى لتحققه ولمناسبة ما ذكر معه ، وثم للتراخى الزمانى وفيه ما فيه كما أشرنا اليه ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته عز وجل وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق ، وتلوين الخطاب

Marfat.com

لتوفية مقام الامتنان حقه، واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما بعد من منافعهم، وفى تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذى هو ظل الأرض من لطف المسلك مالا مزيد عليه أى وهو الذى جعل لنفعكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿ وَ ﴾ جعل ﴿ النَّوْمَ ﴾ الذى يقع فيه غالبا بسبب استيلاء الابخرة على القوى عادة ، وقيل : بشم نسيم يهب من تحت العرش ولا يكاد يصح ه ﴿ سُبَاتًا ﴾ راحة للابدان بقطع الأفاعيل التى تكون حال اليقظة، وأصل السبت القطع، وقيل: يوم السبت لما جرت العادة من الاستراحة فيه على ماقيل ، وقيل : لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئا ، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة: مسبوت، وإلى هذا ذهب أبو مسلم •

وقال أبو حيان : السبات ضرب من الاغماء يعترى اليقظان مرضا فشبه النوم به، والسبت الاقامة فى المكان فكان النوم سكونا ما ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ٤٧ ﴾ أى ذا نشور ينتشر فيه الناس لطلب المعاش فهو كقوله تعالى : (وجعلنا النهار معاشا) وفى جعله نفس النشور مبالغة ، وقيل : نشورا بمعنى ناشرا على الاسناد المجازى ، وجوز أن يراد بالسبات الموت لما فيه من قطع الاحساس أو الحياة، وعبر عن النوم به لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: (وهو الذى يتوفاكم بالليل) وقوله سبحانه : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) وبالنشور البعث أى وجعل النهار زمان بعث من ذلك الثبات أو نفس البعث على سبيل المبالغة . وأبى الزمخشرى الراحة فى تفسير السبات وقال : انه يأباه النشور فى مقابلته اباء العيوف الورد وهو مرنق، وكأن ذلك لأن النشور فى القرآن لا يكاد يوجد بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش، وعلل فى الكشف اباء الزمخشرى بذلك وبأن الآيات السابقة واللاحقة مع ما فيها من التذكير بالنعمة والقدرة أدمج فيها الدلالة على الاعادة فكذلك ينبغى أن لا يفرق بين هذه وبين أترابها •

وكأنه جعل جعل الليل لباسا والنوم فيه سباتا بمجموعه مقابل جعل النهار نشورا ولهذا كرر جعل فيه لما فى النشور من معنى الظهور والحركة الناصبة أو معنى الظهور والبعث ولم يسلك فى اية سورة النبأ هذا المسلك لما لا يخفى ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ وقرأ ابن كثير بالتوحيد على ارادة الجنس بأل أو الاستغراق فهو فى معنى الجمع موافقة لقراءة الجمهور ، وقال ابن عطية: قراءة الجمع أوجه لأن الريح متى وردت فى القرآن مفردة فهى للعذاب ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعة لأن ريح المطر تتشعب وتتذأب وتتفرق وتأتى لينة من ههنا وههنا وشيئا إثر شىء وريح العذاب تأتى جسدا واحدا لا تتذأب الا ترى انها تحطم ما تجد وتهدمه •

وقال الرمانى: جمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة لواقح الجنوب. والصبا. والدبور وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهى الدبور، وفى قوله ﷺ اذا هبت الريح: اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا اشارة إلى ما ذكر ، وأنت تعلم أن فى كلام ابن عطية غفولا عن التأويل الذى تتوافق به القراءتان، وقد ذكر فى البحر أنه لا يسوغ أن يقال فى تلك القراءة أنها أوجه من القراءة الأخرى مع أن كلا منهما متواتر، وأل فى الريح للجنس فتعم، وما ذكر فى التفرقة بين المفرد والمجموع أكثرى أو عند عدم القرينة أو فى المنكر كما جاء فى الحديث، وسيأتى ان شاء الله تعالى فى سورة الروم ما يتعلق بهذا المبحث •

Marfat.com

﴿ بُشْرَا﴾ تخفيف بشراً بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أى أرسل الرياح مبشرات ، وقرىء (نشرا) بالنون والتخفيف جمع نشور كرسول ورسل، و(نشرا) بضم النون والشين وهو جمع لذلك أيضا أى أرسلها ناشرات للسحاب من النشر بمعنى البعث لأنها تجمعه كأنها تحييه لامن النشر بمعنى التفريق لأنه غير مناسب إلا أن يراد به السوق مجازا، و(نشرا) بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر وصف به مبالغة، وجوز أن يكون مفعولا مطلقا لأرسل لأنه بمعنى نشر والكل متواتر *

وروى عن ابن السميقع أنه قرأ (بشرى) بألف التأنيث ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ أى قدام المطر وقداستعيرت الرحمة له ورشحت الاستعارة أحسن ترشيح ، وجوز أن يكون فى الكلام استعارة تمثيلية و(بشرا) من تتمة الاستعارة داخل فى جملتها ، والالتفات إلى نون العظمة فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابراز كمال العناية لانزال لأنه نتيجة ماذكر من ارسال الرياح أى أنزلناه بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة العلو التى ليست مظنة الماء أو من السحاب أومن الجرم المعلوم، وقد تقدم تفصيل الكلام فى ذلك ﴿مَاءً طَهُورًا ٤٨﴾ الظاهر أنه نعت لماء ، وعليه قيل معناه بليغ الطهارة زائدها ، ووجه فى البحر المبالغة بأنها راجعة إلى الكيفية باعتبار أنه لم يشبه شىء آخر مما فى مقره أو ممره أو مايطرح فيه كمياه الأرض ، وفسره ثعلب بما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره . وتعقبه الزمخشرى بأنه إن كان ماقاله شرحا لبلاغته فى الطهارة كان سديدا وإلا فليس فعول من التفعيل فى شىء، وقال غيره: إن أخذ التطهير فيه يأباه لزوم الطهارة والمبالغة فى اللازم لا توجب التعدى * وأجاب صاحب الكشف بأنه لما لم تكن الطهارة فى نفسها قابلة للزيادة رجعت المبالغة فيها إلى انضمام معنى التطهير اليها لأن اللازم صار متعديا ، وتعقبه المولى الدوانى بأن فيه تأملا من حيث أن انضمام معنى التطهير لما كان مستفادا من المبالغة بمعونة عدم قبول الزيادة كانت المبالغة فى الجملة سببا للتعدى، ثم قال: ويمكن التفصى بأن المعنى اللازم باق بحاله ، والمبالغة أوجبت انضمام المتعدى اليه لا تعدية ذلك اللازم وبينهما فرقان ، وذكر بعض الأجلة أن افادة المبالغة تعلق الفعل بالغير مما لايساعده لغة ولاعرف وأين هذا التعلق فى قول جرير :

إلى رجح الأكفال غيد من الظبا عذاب الثنايا ريقهن طهور

ومثله قوله تعالى (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) ومن هذا وأمثاله اختار بعضهم كون المبالغة راجعة إلى الكيفية على ماسمعت عن البحر ، وقال بعض المحققين: إن (طهورا) هنا اسم لما يتطهر به كما فى قوله ﷺ: « التراب طهور المؤمن » وفعول كما قال الأزهرى فى كتاب الزاهر يكون اسم آلة لما يفعل به الشىء كغسول ووضوء وفطور وسحور إلى غير ذلك كما يكون صفة بمعنى فاعل كأكول أو مفعول كصبوب بمعنى مصبوب واسم جنس كذنوب ومصدرا وهو نادر كقبول فيفيد التطهير للغير وضعا ، ويمكن حمل ماروى عن ثعلب على هذا، واعتبار كونه طاهرا فى نفسه لأن كونه مطهرا للغير فرع ذلك ، وجعل على هذا بدلا من ماء أو عطف بيان له لانعتا فيكون التركيب نحو أرسلت اليك ماء وضوءا *

وأنت تعلم أن المتبادر فيما نحن فيه كونه نعتا فان أمكن ذلك على هذا الوجه بنوع تأويل كان أبعد عن

Marfat.com

القيل والقال ، وحكى سيبويه أن طهورا جاء مصدر التطهر فى قولهم: تطهرت طهورا حسنا ، وذكر أن منه قوله عليه الصلاة والسلام : «لاصلاة إلا بطهور» وحمل ما فى الآية على ذلك مما لا ينبغى . وأيا ما كان ففى توصيف الماء به اعظام للمنة كما لا يخفى ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ﴾ أى بما أنزلنا من الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ليس فيها نبات وذلك بانبات النبات به ؛ والمراد بالبلدة الأرض كما فى قوله :

أنيخت فالقت بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بغامها

وجوز أن يراد بها معناها المعروف وتنكيرها للتنويع، وتذكير صفتها لأنها بمعنى البلد أولأن (ميتا) من أمثلة المبالغة التى لا تشبه المضارع فى الحركات والسكنات وهو يدل على الثبوت فاجرى مجرى الجوامد، ولام (لنحيى) متعلق بانزلنا وتعلقه بطهورا ليس بشىء . وقرأ عيسى . وأبو جعفر (ميتا) بالتشديد ، قال أبو حيان: ورجح الجمهور التخفيف لأنه يماثل فعلا من المصادر فكما وصف المذكر والمؤنث بالمصدر فكذلك بما أشبهه بخلاف المشدد فانه يماثل فاعلا من حيث قبوله للتاء إلا فيما خص المؤنث نحو طامث ه

﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أى ذلك الماء الطهور وعند جريانه فى الأودية أو اجتماعه فى الحياض والمناقع والآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ٤٩﴾ أى أهل البوادى الذين يعيشون بالحياء ، ولذلك ذكر الأنعام والأناسى فالتنكير للتنويع ه

وتخصيص هذا النوع بالذكر لأن أهل القرى والامصار يقيمون بقرب الانهار والمنابع فبهم وبما لهم من الانعام غنية عن سقى السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا، ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالانعام حيث كانت قنية للانسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها أحياء الأرض فانه سبب لحياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الاسباب على المسببات ، وجوز أن يكون تقديم ما ذكر على سقى الاناسى لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والاصل فى باب الامتنان، وذكر سقى الاناسى على هذا إرداف وتتميم للاستيعاب، ومن تبعيضية أو بيانية و(كثيرا) صفة للمتعاطفين لا على البدل ه

وقرأ عبد الله . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . والأعمش . وعاصم. وأبو عمرو فى رواية عنهما (ونسقيه) بفتح النون ورويت عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأسقى وسقى لغتان ، وقيل : أسقاه بمعنى جعل السقيا له وهيأها، و(أناسى) جمع انسان عند سيبويه وأصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها ه وذهب الفراء . والمبرد. والزجاج إلى أنه جمع إنسى، قال فى البحر: والقياس أناسية كما قالوا فى مهلبى مهالبة . وفى الدر المصون أن فعالى إنما يكون جمعا لما فيه ياء مشددة إذا لم يكن للنسب ككرسى وكراسى وما فيه ياء النسب يجمع على أفاعلة كازرقى وأزارقة وكون ياء انسى ليست للنسب بعيد فحقه أن يجمع على أناسية، وقال فى التسهيل: أنه أكثرى ، وعليه لا يرد ماذكر ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ الضمير للماء المنزل من السماء. كالضميرين السابقين، وتصريفه تحويل أحواله وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة أى وبالله تعالى لقد صرفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أى بين الناس

Marfat.com

فى البلدان المختلفة والاوقات المتغايرة والصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ أى ليعتبروا بذلك ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠ ﴾ أى لم يفعل إلا كفران النعمة وإنكارها رأسا باضافتها لغيره عز وجل بأن يقول: مطرنا بنوء كذا معتقدا أن النجوم فاعلة لذلك ومؤثرة بذواتها فيه، وهذا الاعتقاد والعياذ بالله تعالى كفر ، وفى الكشاف وغيره أن من اعتقد أن الله عز وجل خالق الأمطار وقد نصب الانواء دلائل وأمارات عليها وأراد بقوله مطرنا بنوء كذا مطرنا فى وقت سقوط النجم الفلانى فى المغرب مع الفجر لا يكفر، وظاهره أنه لا يأثم أيضا ، وقال الامام: من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك فى كفره وأما من قال: إنه سبحانه جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر * وسيأتى إن شاء الله تعالى منا فى هذه المسئلة كلام أرجو من الله تعالى أن تستحسنه ذوو الأفهام ويتقوى به كلام الامام ، ورجوع ضمير أنزلناه إلى الماء المنزل مروى عن ابن عباس . وابن مسعود . ومجاهد . وعكرمة * وأخرج جماعه عن الأول وصححه الحاكم أنه قال: ما من عام باقل مطرا من عام ولكن الله تعالى يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية . وأخرج الخرائطى فى مكارم الاخلاق عن الثانى مثله ، ويفهم من ذلك حمل التصريف على التقسيم ، وقال بعضهم : هو راجع إلى القول المفهوم من السياق وهو ماذكر فيه إنشاء السحاب وإنزال القطر لما ذكر من الغايات الجليلة وتصريفه تكريره وذكره على وجوه ولغات مختلفة ، والمعنى ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل فى ذلك فابى أكثرهم ممن سلف وخالف إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث بها أو إنكارها رأسا باضافتها لغيره تعالى شأنه ، واختار هذا القول الزمخشرى ، وقال أبو السعود : هو الاظهر ، وأخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى أنه عائد على القرآن ألا ترى قوله تعالى بعد :(وجاهدهم به) وحكاه فى البحر عن ابن عباس أيضا والمشهور عنه ما تقدم ، ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته تعالى وواسع رحمته عز وجل أو نحو ذلك فتأمل ، وأما ما قيل إنه عائد على الريح فليس بشئ *

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ٥١ ﴾ نبيا ينذر أهلها فتخف عليك اعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك وقصرنا الأمر عليك اجلالا لك وتعظيما ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيما يريدونك عليه وهو تهييج له ﷺ وللمؤمنين * ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ أى بالقرآن كما أخرج ابن جرير. وابن المنذر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وذلك بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ٥٢ ﴾ فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا، وترتيب ما ذكر على ما قبله حسبما تقتضيه الفاء باعتبار أن قصر الرسالة عليه عليه الصلاة والسلام نعمة جليلة ينبغى شكرها وما ذكر نوع من الشكر فكأنه قيل : بعثناك نذيرا لجميع القرى وفضلناك وعظمناك ولم نبعث فى كل قرية نذيرا فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق ، وفى الكشف لبيان النظم الكريم أنه لما ذكر ما يدل على حرصه ﷺ على طلب هدام وتمارضهم فى ذلك فى قوله سبحانه : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه أفانت

Marfat.com

تـكون عليه وكيلا) وذنب بدلائل القدرة والنعمة والرحمة دلالة على انهم لا ينفع فيهم الاحتشاد وانهم يغمطون مثل هذه النعم ويغفلون عن عظمة موجدها سبحانه وجعلوا كالأنعام وأضل وختم بانه ليس لهم مراد إلا كفور نعمته تعالى ، قيل : (ولو شئنا) على معنى أنا عظمناك بهذا الأمر لتستقل باعبائه وتحوز ما ادخر لك من جنس جزائه فعليك بالمجاهدة والمصابرة ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالاباء والمشاجرة وبوالغ فيه فجعل حرصه ﷺ على إيمان هؤلاء المطبوع على قلوبهم طاعة لهم ، وقيل : فلا تطعهم. ومدار السورة على ما ذكره الطيبى على كونه صلى الله تعالى عليه وسلم مبعوثا على الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) والآية على ماسمعت متعلقة بقوله تعالى (أفرأيت) الى آخر الآيات ، وفيها من التنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما فيها وليست مسوقة للتاديب كما وهم . وقيل هى متعلقة بما عندها على معنى ولو شئنا لقسمنا النذير بينهم ، كما قسمنا المطر بينهم ولـكنا نفعل ماهو الانفع لهم فى دينهم ودنياهم فبعثناك اليهم كافة فلا تطع الخ ، وفيه من الدلالة على قصور النظر ما فيه ٥

هذا وجوز أن يكون ضمير (به) عائدا على ترك طاعتهم المفهوم من النهى ولعل الباء حينئذ للملابسة والمعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الـكريم ملابسا ترك طاعتهم كأنه قيل : وجاهدهم بالشدة والعنف لا باللائمة والمداراة كما فى قوله تعالى : (يا أيها النبى جاهد الـكفار والمنافقين واغلظ عليهم) والاورد عليه أن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير ، وجوز أيضا أن يكون لما دل عليه قوله عز وجل (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم نذير كافة القرى لأنه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فـكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لـكل مجاهدة . وتعقب بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الـكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه وإنما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الـكيفية ، وجوز أبو حيان أن يكون الضمير للسيف ٥

وأنت تعلم أن السورة مكية ولم يشرع فى مكة الجهاد بالسيف ، ومع هذا لا يخفى ما فيه ، ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لاعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة وأوفرهم حظا المجاهدون بالقرآن منهم ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أى أرسلهما فى مجاريهما كما يرسل الخيل فى المرج كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ويقال فى هذا أمرج ايضا على ما قيل إلا أن مرج لغة الحجاز وأمرج لغة نجد ٥

وأصل المرج كما قال الراغب : الخلط ، ويقال : مرج أمرهم أى اختلط ، وسمى المرعى مرجا لاختلاط النبات فيه ، والمراد بالبحرين الماء الكثير العذب والماء الكثير الملح من غير تخصيص ببحرين معينين ، وهذا رجوع إلى ما تقدم من ذكر الأدلة ، وقوله تعالى ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ الخ أى شديد العذوبة ووزنه فعال من فرته وهو مقلوب من رفته إذا كسره لأنه يكسر سورة العطش ويقمعها ، وقيل : هو البارد كما فى مجمع البيان إما استئناف أو حال بتقدير القول أى يقال فيهما هذا عذب فرات ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وقيل : هى حال من

Marfat.com

غير تقدير قول على معنى مرج البحرين مختلفين عذوبة شديدة وملوحة كذلك، واسم الاشارة يغنى غناء الضمير، والاجاج شديد الملوحة كما أشرنا اليه أطلق عليه لأن شربه يزيد أجيج العطش ، وقال الراغب : هو شديد الملوحة والحرارة من أجيج النار انتهى ، وقيل : هو المر وحكاه الطبرسى عن قتادة ، وقيل : الحار فهو يقابل الفرات عند من فسره بالبارد ٠

وقرأ طلحة بن مصرف . وقتيبة عن الكسائى (ملح) بفتح الميم وكسر اللام هنا و كذا فى فاطر ، قال أبو حاتم : وهذا منكر فى القراءة ، وقال أبو الفتح :أراد مالحا فخفف بحذف الالف كما قيل برد فى بارد فى قوله :

أصبح قلبي صردا * لا يشتهى أن يردا ٠ إلا عرادا عردا * وصليانا بردا * وعكنا ملتبدا

وقيل . مخفف مليح لأنه ورد بمعنى مالح ، وقال أبو الفضل الرازى فى كتاب اللوامح : هى لغة شاذة قليلة فليس مخففا من شىء ، نعم هو كملح فى قراءة الجمهور بمعنى مالح ، والافصح أن يقال فى وصف الماء: ماء ملح دون ماء مالح وإن كان صحيحا كما نقل الأزهرى ذلك عن الكسائى، وقد اعترف أيضا بصحته ثعلب ، وقال الخفاجى: الصحيح أنه مسموع من العرب كما أثبته أهل اللغة وأنشدوا لاثباته شواهد كثيرة وعليه فمن خطأ الامام أبا حنيفة رضى الله تعالى عنه بقوله: ماء مالح فقد أخطأ جاهلا بقدر هذا الامام ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ أى حاجزا وهو لفظ عربى ، وقيل : أصله برزه فعرب ، والمراد بهذا الحاجز كما أخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن أبى حاتم عن الحسن ما يحول بينهما من الأرض كالأرض الحائلة بين دجلة ويقال لها بحر لعظمها ولشيوع إطلاق البحر على النهر العظيم صار حقيقة فيه أيضا فلا إشكال فى التثنية، وإن أبيت صيرورته حقيقة فاعتبار التغليب يرفع الاشكال وبين البحر الكبير، والمراد حيلولتها فى مجاريها وإلا فهى تنتهى إلى البحر وكذا سائر الانهار العظام، ودلالة هذا الجعل على كمال قدرته عز وجل كونه على خلاف مقتضى الطبيعة فان مقتضى طبيعة الماء أن يكون متضام الاجزاء مجتمعا غامراً للارض محيطا بها من جميع جهاتها إحاطة الهواء به ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامة الاجزاء أيضا لا غور فيها ولا نجد مغمورة بالماء واقعة فى جوفه كمركز الدائرة كما قرر ذلك الفلاسفة وذكروا فى سبب انكشاف ما انكشف من الأرض ووقوع الاغوار والانجاد فيها ما لا يخلو عن قيل وقال ، و(بينهما)ظرف لجعل،ويجوز أن يكون حالا من (برزخا)، والظاهر أن تنوين (برزخا) للتعظيم أى وجعل بينهما برزخا عظيما حيث إنه على كثرة مرور الدهور لا يتخلله ماء أحد البحرين حتى يصل إلى الآخر فيغير طعمه ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ٥٣ ﴾ أى وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة ، والمراد لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة فلا ينقلب البحر العذب ملحا فى مكانه ولا البحر الملح عذبا فى مكانه وذلك من كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته عز وجل فان العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكل عذبا أو الكل ملحا ،وذكر فى حكمة جعل البحر الكبير ملحا أن لا ينتن بطول المكث وتقادم الدهور، قيل: وهو السر فى جعل دمع العين ملحا ، وفيه حكم اخرى الله تعالى أعلم بها ٠

والظاهر إن (حجرا) عطف على (برزخا) أى وجعل بينهما هذه الكلمة، والمراد بذلك ما سمعت آنفا وهو من أبلغ الكلام وأعذبه ، وقيل : هو منصوب بقول مقدر أى ويقولان حجرا محجور ، وعن الحسن أن

Marfat.com

المراد من الحجر ما حجر بينهما من الأرض وتقدم تفسيره البرزخ بنحو ذلك، وكان الجمع بينهما حينئذ لزيادة المبالغة فى أمر الحاجز وماقدمنا أولى وأبعد مغزى ، وقيل : المراد بالبرزخ حاجز من قدرته عز وجل غير مرئى وبقوله سبحانه (حجرا محجورا) التميز التام وعدم الاختلاط ، وأصله كلام يقوله المستعيذ لما يخافه كما تقدم تفصيله ، وحاصل معنى الآية أنه تعالى هو الذى جعل البحرين مختلطين فى مرأى العين ومنفصلين فى التحقيق بقدرته عز وجل أكمل انفصال بحيث لا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب ولا يتغير طعم كل منهما بالآخر أصلا *

وحكى هذا عن الأكثرين وفيه أنه خلاف المحسوس فان الأنهار العظيمة كدجلة وما ينضم اليها والنيل وغيرها مما يشاهده الناس إذا اتصلت فى البحر تغير طعم غير قليل منها فى جهة المتصل وكذا يتغير طعم غير قليل من البحر فى جهة المتصل أيضا ويختلف التغير قلة وكثرة باختلاف الورود لاختلاف أسبابه من الهواء وغيره قوة وضعفا مما أخبر به مبلغ التواتر ولم يخبر أحد أنه شاهد فى الأرض بحرين أحدهما عذب والآخر ملح، وقد اتصل أحدهما بالآخر من غير تغير لطعم شىء منهما أصلا ، ولا مساغ عند من له أدنى ذوق لجعل الآية فى بحرين فى الأرض كذلك لكنهما لم يشاهدهما أحد كما لا يخفى، ولا أرى وجها لتفسير الآية بما ذكر والتزام هذا ونحوه من التكلفات الباردة مع ظهور الوجه الذى لا كدورة فيه عند المنصف إلا تسبب طعن الكفرة فى القرآن العظيم وسوء الظن بالمسلمين ؛ وقيل : المراد بالبرزخ الواسطة أى وجعل بين البحر العذب الشديد العذوبة والبحر الملح الشديد الملوحة ماء متوسطا ليس بالشديد العذوبة ولا بالشديد الملوحة وهو قطعة من العذب الفرات عند موضع التلاقى ما زجها شىء من الملح الأجاج فكسر سورة عذوبتها وقطعة من الملح الأجاج عند موضع التلاقى أيضا ما زجها شىء من العذب الفرات فكسر سورة ملوحتها ويكون التنافر البليغ بينهما المفهوم من قوله سبحانه (وحجرا محجورا) فيما عدا ذلك وهو ما لم يتأثر بصاحبه منهما بل بقى على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة وهو كما ترى ، وحكى فى البحر أن المراد بالبحرين بحران معينان هما بحر الروم وبحر فارس *

وذكره فى الدر المنثور عن الحسن برواية ابن أبى حاتم وهو من العجب العجاب لأن كلا هذين البحرين ملح أجاج فكيف يصح ارادتهما هنا مع قوله تعالى (هذا عذب فرات . وهذا ملح أجاج) نعم قد يصح فيما سيأتى ان شاء الله تعالى من آية سورة الرحمن أعنى قوله سبحانه (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) لعدم ذكر ما يمنعه هناك ، وما روى عن الحسن إن صح فلعله فى تلك الآية ، ووهم السيوطى فى روايته فى الكلام على هذه الآية ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أن البحرين هما بحر السماء وبحر الأرض وذكر مثله فى البحر عن ابن عباس وانهما يلتقيان كل عام ، وهذا شىء أنا لا أقول به فى الآية ولا أعتقد صحة روايته عمن سمعت وإن كان مناسبة الآية عليه لما تقدم من قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) على القول بأن المطر من بحر فى السماء أتم ودلالتها على كمال قدرته تعالى أظهر ؛ وأما أنت فبالخيار والله تعالى ولى التوفيق *

﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءا من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتستعد لقبول الاشكال والهيئات ، فالمراد بالماء الماء المعروف وتعريفه للجنس والمراد بالبشر آدم عليه السلام وتنوينه للتعظيم أو جنس البشر الصادق عليه عليه السلام وعلى ذريته، ومن

Marfat.com

ابتدائية، ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشر على أولاد ءادم عليه السلام ٭

﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم وذوات صهر أى اناثا يصاهر بهن فهو كقوله تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) فالواو للتقسيم والكلام على تقدير مضاف حذف ليدل على المبالغة ظاهرا وعدل عن ذكر وأنثى ليؤذن بالانشعاب نصا ،وهذا الجعل والتقسيم مما لاخفاء فيه على تقدير أن يراد بالبشر الجنس ، وأما على تقدير أن يراد به ءادم عليه السلام فقيل : هو باعتبار الجنس وفى الكلام ما هو من قبيل الاستخدام نظير ما فى قولك: عندى درهم ونصفه ، وقيل: لاحاجة إلى اعتبار ذلك والكلام من باب الحذف والايصال ، أى جعل منه وقد جىء به على الأصل فى نظير هذه الآية وهو ما سمعته ءانفا ، وقيل : معنى جعل ءادم نسبا وصهرا خلق حواء منه وابقاؤه على ما كان عليه من الذكورة وتعقيب جعل الجنس قسمين خلق ءادم أو الجنس باعتبار خلقه أو جعل قسمين من آدم خلقه عليه السلام كما تؤذن به الفاء ظاهر ، وربما يتوهم أن الضمير المنصوب فى جعله عائد على الماء والفاء مثلها فى قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال رب) الخ وقوله تعالى:(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون) وليس بشىء٭

وعن على كرم الله تعالى وجهه أن النسب ما لايحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه ، وفى رواية أخرى عنه رضى الله تعالى عنه النسب ما لايحل نكاحه والصهر قرابة الرضاع ،وتفسير الصهر بذلك مروى عن الضحاك أيضا

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤ ﴾ مبالغا فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة ، وجعله قسمين متقابلين (وكان) فى مثل هذا الموضع للاستمرار. وإذا قلنا بأن الجملة الاسمية نفسها تفيد ذلك أيضا أفاد الكلام استمرارا على استمرار . وربما أشعر ذلك بأن القدرة البالغة من مقتضيات ذاته جل وعلا . ومن العجب ما زعمه بعض (١) من يدعى التفرد بالتحقيق ممن صحبناه من علماء العصر رحمة الله تعالى عليه ان (كان) فى مثله للاستمرار فيما لم يزل والجملة الاسمية للاستمرار فيما لايزال فيفيد جمعهما استمرار ثبوت الخبر للمبتدأ أزلا وابدا،ويعلم منه مبلغ الرجل فى العلم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الذى شأنه تعالى شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ان عبدوه ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوه ، والمراد بذلك الأصنام أو كل ما عبد من دون الله عز وجل وما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ﴾ الذى ذكرت ءاثار ربوبيته جل وعلا ﴿ظَهِيرًا ٥٥ ﴾ أى مظاهرا كما قال الحسن. ومجاهد .وابن زيد، وفعيل بمعنى مفاعل كثير ومنه نديم وجليس ، والمظاهرة المعاونة أى يعاون الشيطان على ربه سبحانه بالعداوة والشرك،والمراد بالكافر الجنس فهو اظهار فى مقام الاضمار لنعى كفرهم عليهم . وقيل : هو أبو جهل والآية نزلت فيه ، وقال عكرمة: هو ابليس عليه اللعنة ، والمراد يعاون المشركين على ربه عز وجل بأن يغريهم على معصيته والشرك به عز وجل ، وقيل : المراد يعاون على أولياء الله تعالى ٭

وجوز أن يكون هذا مرادا على سائر الاحتمالات فى الكافر . وقيل : المراد بظهيرا مهينا من قولهم: ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك أى كان من يعبد من دون الله تعالى ما لا ينفعه ولا يضره مهينا على ربه

(١) هو المرحوم محمد الأمين السويدى اه منه

Marfat.com

عز وجل لاخلاق له عنده سبحانه قاله الطبرى ،ففعيل بمعنى مفعول،والمعروف أن (ظهيرا) بمعنى معين لا بمعنى مظهور به ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ فى حال من الأحوال ﴿ الَّا ﴾ حال كونك ﴿ مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ٥٦ ﴾ أى ومنذرا مبالغا فى الانذار للكافرين ،ولتخصيض الانذار بهم وكون الكلام فيهم والاشعار بغاية اصرارهم على ماهم فيه من الضلال اقتصر على صيغة المبالغة فيه ، وقيل : المبالغة باعتبار كثرة المنذرين فان الكفرة فى كل وقت أكثر من المؤمنين •

وبعضهم اعتبر كثرتهم بادخال العصاة من المؤمنين فيهم أى ونذيرا للعاصين مؤمنين كانوا أو كافرين والمقام يقتضى التخيصص بالكافرين كما لايخفى ،والمراد ماارسلناك إلا مبشر اللمؤمنين ونذير اللكافرين فلا تحزن على عدم ايمانهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم دافعا عن نفسك تهمة الانتفاع بايمانهم ﴿ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على تبليغ الرسالة الذى ينبىء عنه الارسال أو على المذكور من التبشير والانذار ، وقيل : على القرآن ﴿ من أَجْر ﴾ أى أجر مامن جهتكم ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أى إلى رحمته ووضوانه ﴿ سَبِيلًا ٥٧ ﴾ أى طريقا،والاستثناء عند الجمهور منقطع أى لكن ماشاء أن يتخذ إلى ربه سبحانه سبيلا أى بالانفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والنفقة فى سبيل الله تعالى لينا سب الاستدراك فليفعل، وذهب البعض إلى أنه متصل ، وفى الكلام مضاف مقدر أى الافعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالايمان والطاعة حسبما ادعو اليهما ،وهو مبنى على الادعاء وتصوير ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الاتيان به،وهذا كالاستثناء فى قوله :

ولاعيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الأحبة والوطن

وفى ذلك قلع كلى لشائبة الطمع وإظهار لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه ﷺ ، وقيل : المعنى ماأسألكم عليه أجراً إلا أجر من آمن أى إلا الأجر الحاصل لى من إيمانه فان الدال على الخير كفاعله وحينئذ لايحتاج إلى الادعاء والتصوير السابق ، والأولى مافيه قلع شائبة الطمع بالكلية •

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ فى الاغناء عن أجورهم والاستكفاء عن شرورهم،وكأن العدول عن وتوكل على الله إلى مافى النظم الجليل ليفيد بفحواه أوبترتب الحكم فيه على وصف مناسب عدم صحة التوكل على غير المتصف بماذكر من الحياة والبقاء ،أماعدم صحة التوكل على من لم يتصف بالحياة كالأصنام فظاهر وأماعدم صحته على من لم يتصف بالبقاء بأن كان ممن يموت فلأنه عاجز ضعيف فالمتوكل عليه أشبه شىء بضعيف عاد بقرملة ، وقيل : لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه •

وأخرج ابن أبى الدنيا فى التوكل . والبيهقى فى شعب الايمان عن عقبة بن أبى ثبيت قال : مكتوب فى التوراة لاتوكل على ابن آدم فان ابن آدم ليس له قوام ، ولكن توكل على الحى الذى لايموت .وقرأ بعض السلف هذه الآية فقال: لايصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ أى ونزهه سبحانه ملتبسا بالثناء عليه تعالى بصفات الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابقه عزوجل فالباء للملابسة ، والجارو المجرور فى موضع الحال ،وقدم التنزيه لأنه تخلية وهى أهم من التحلية ، وفى الحديث « من قال سبحان الله وبحمده غفرت ذنوبه ولوكانت مثل زبد البحر» ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ﴾ ماظهر منها ومابطن كما يؤذن به الجمع

Marfat.com

المضاف فانه من صيغ العموم أو قوله تعالى . ﴿خبيراً ٥٨﴾ لأن الخبرة معرفة بواطن الأمور كما ذكره الراغب ومن علم البواطن علم الظواهر بالطريق الأولى فيدل على ذلك مطابقة والتزاما *

والظاهر أن «بذنوب» متعلق بخبيرا وهو حال أو تمييز. وباء «به» زائدة فى فاعل « كفى» ،وجوز أن يكون «بذنوب » صلة كفى ، والجملة مسوقة لتسليته ﷺ ووعيد الكفار أى أنه عز وجل مطلع على ذنوب عباده بحيث لا يخفى عليه شىء منها فيجازيهم عليها ولا عليك ان آمنوا أو كفروا *

﴿الذى خَلَقَ السَّمـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد سلف تفسيره. ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى، ووصف سبحانه بالصفة الفعلية بعد وصفه جل وعلا بالأبدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة إلى اتصافه تعالى بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه جل جلاله وتأكيده فان من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته سبحانه على ابداعها دفعة بحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر اليه *

وقوله تعالى ﴿الرَّحْمـٰنُ﴾ مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما فى قراءة زيد بن عبد الرحمن بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه جل شأنه وإن لم يتبعه فى الأعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة، ألا ترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وإنما قطعوا للافتنان الموجب لايقاظ السامع وتحريكه إلى الجد فى الاصغاء *

وجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الاختصاص وأن يكون فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف صفة له أو مبتدأ و(الرحمن) خبره ، وجوز أن يكون (الرحمن) بدلا من المستكن فى «استوى» ويجوز على مذهب الاخفش أن يكون «الرحمن» مبتدأ، وقوله تعالى ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ٥٩﴾ خبره على حد تخريجه قول الشاعر * وقائلة خولان فانكح فتاتهم * وهو بعيد ، والظاهر أن هذه جملة منقطعة عما قبلها اعرابا ، والفاء فصيحة والجار والمجرور صلة اسأل. والسؤال لما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء . وعليه قول علقمة بن عبيدة :

فان تسالونى بالنساء فانى خبير بادواء النساء طبيب

فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن كما فعل الأخفش . والزجاج .والضمير راجع الى ما ذكر اجمالا من الخلق والاستواء. والمعنى إن شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معتنيا به خبيرا عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله عز وجل يطلعك على جلية الأمر .والمسؤل فى الحقيقة تفاصيل ما ذكر لا نفسه اذ بعد بيانه لا يبقى الى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء المبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤل أمرا خطيرا مهتما بشأنه غير حاصل للسائل فائدة فان نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس

Marfat.com

كذلك كما لايخفى. وكون التقدير ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على أن الخطاب له ﷺ والمراد غيره عليه الصلاة والسلام بمعزل عن السداد ،وقيل : (به) صلة (خبيرا) قدم لرؤس الآى ه

وجوز أن يكون الكلام من باب التجريد نحو رأيت به أسدا أى رأيت برؤيته أسدا فكأنه قيل هنا فاسأل بسؤاله خبيرا ، والمعنى إن سألته وجدته خبيرا ، والباء عليه ليست صلة فانها باء التجريد وهى على ماذهب اليه الزمخشرى سببية والخبير عليه هو الله تعالى أيضا . وقد ذكر هذا الوجه السجاوندى .واختاره صاحب الكشف قال : وهو أوجه ليكون كالتتميم لقوله تعالى: (الذى خلق) الخ فانه لاثبات القدرة مدمجا فيه العلم ، وكون ضمير به راجعا إلى ماذكر من الخلق والاستواء، والخبير فى الآية هو الله تعالى مروى عن الكلبي . وروى تفسير الخبير (به) تعالى عن ابن جريج أيضا *

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الخبير هو جبريل عليه السلام ، وقيل : هو من وجد ذلك فى الكتب القديمة المنزلة من عنده تعالى أى فاسأل بماذكر من الخلق والاستواء من علم به من أهل الكتب ليصدقك ،وقيل: إذا أريد بالخبير من ذكر فضمير (به) للرحمن، والمعنى إن أنكروا اطلاق الرحمن عليه تعالى فاسأل به من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجىء مايرادفه فى كتبهم. وفيه أنه لا يناسب ماقبله ولأن فيه عود الضمير للفظ (الرحمن) دون معناه وهو خلاف الظاهر ولأنه كان الظاهر حينئذ أن يؤخر عن قوله تعالى· (ماالرحمن)*

وقيل: الخبير محمد ﷺ وضمير (به) للرحمن ،والمراد فاسال بصفاته والخطاب لغيره ﷺ ممن لم يعلم ذلك وليس بشىء كما لايخفى ، وقيل ؛ ضمير (به) للرحمن ، والمراد فاسأل برحمته وتفاصيلها عارفا يخبرك بها أو المراد فاسال برحمته حال كونه عالما بكل شىء على أن (خبيرا) حال من الهاء لامفعول اسال كما فى الأوجه السابقة *

وجوز أبو البقاء أن يكون (خبيرا) حالا من (الرحمن) إذا رفع باستوى .وقال : يضعف أن يكون حالا من فاعل اسأل لأن الخبير لايسال إلا على جهة التوكيد مثل «وهو الحق مصدقا» والوجه الأقرب الأولى فى الآية من بين الأوجه المذكورة لايخفى، وقرىء « فسل »*

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ القائل رسول الله ﷺ أو الله عزوجل على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام. ولايخفى موقع هذا الاسم الشريف هنا .وفيه كما قال الخفاجى : معنى أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التجاهل والوقاحة ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ كما قال فرعون ومارب العالمين حين قال له موسى عليه السلام (إنى رسول من رب العالمين) وهو عالم به عزوجل كما يؤذن بذلك قول موسى عليه السلام له: (لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) ، والسؤال يحتمل أن يكون عن المسمى ووقع بما دون من لأنه مجهول بزعمهم فهو كما يقال للشبح المرئى ماهو فاذا عرف أنه من ذوى العلم قيل من هو ، ويحتمل أن يكون عن معنى الاسم ووقوعه بماحينئذ ظاهر · وقيل : سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره عز وجل فقد شاع فيما بينهم تسمية مسيلمة برحمن اليمامة فظنوا أنه المراد بحمل التعريف على العهد . وقيل : لأنه كان عبرانيا وأصله رخمان بالخاء المعجمة فعرب ولم يسمعوه · والأظهر عندى أن ذلك عن تجاهل وأن السؤال عن المسمى ولذا قالوا : ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أى للذي تامرنا بالسجود له من غير أن نعرفه. فما موصولة

Marfat.com

والعائد محذوف . وأصل الجملة المشتملة عليه ما أشرنا اليه . ثم صـــار تأمرنا بسجوده ثم تامرنا سجوده كامرتك الخير ثم تأمرناه بحذف المضاف ثم تأمرنا . واعتبار الحذف تدريجا مذهب أبى الحسن . ومذهب سيبويه أنه حذف كل ذلك من غير تدريج، ويحتمل أن تكون ما نكرة موصوفة وأمر العائد على ماسمعت . ويجوز أن تكون مصدرية واللام تعليلية والمسجودله محذوف أو متروك أى أنسجد له لأجل أمرك ايانا أو أنسجد لأجل أمرك إيانا ٭

وقرأ ابن مسعود . والأسود بن زيد . وحمزة . والكسائى (يأمرنا) بالياء من تحت على أن الضمير للنبى ﷺ وهذا القول قول بعضهم لبعض ﴿ وَزَادَهُمْ ﴾ أى الأمر بالسجود للرحمن . والاسناد مجازى. والجملة معطوفة على (قالوا) أى قالوا ذلك وزادهم ﴿نُفُورًا ٦٠﴾ عن الايمان وفى اللباب أن فاعل (زادهم) ضمير السجود لما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزئين ،وعليه فليست معطوفة على جواب اذا بل على مجموع الشرط والجواب كما قيل : وفى- لايستقدمون- من قوله تعالى : (إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون) والأول أولى واظهر ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ الظاهر أنها البروج الاثنا عشر المعروفة . وأخرج ذلك الخطيب فى كتاب النجوم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وهى فى الأصل القصور العالية وأطلقت عليها على طريق التشبيه لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها ثم شاع فصار حقيقة فيها ، وعن الزجاج أن البرج كل مرتفع فلاحاجة إلى التشبيه أو النقل. واشتقاقه من التبرج بمعنى الظهور ، والذى يقتضيه مشرب أهل الحديث انها فى السماء الدنيا ولا مانع منه عقلا لاسيما إذا قلنا بعظم تخنها بحيث يسع الكواكب وما تقتضيه على ما ذكره أهل الهيئة وهى عندهم أقسام الفلك الأعظم المسمى على ما قيل بالعرش ولم يرد فيما أعلم اطلاق السماء عليه وان كان صحيحا لغة سميت بأسماء صور من الثوابت فى الفلك الثامن وقعت فى محاذاتها وقت اعتبار القسمة وتلك الصور متحركة بالحركة البطيئة كسائر الثوابت ، وقد قارب فى هذه الأزمان أن تخرج كل صورة عما حاذته أولا وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعى وهى نقطة معينة من معدل النهار لاتتحرك بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطة أخرى من منطقة البروج تتحرك بحركته وإذا لم يتحرك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرك ما عداها ،وقد جعل الله تعالى ثلاثة منها ربيعية وهى الحمل. والثور. والجوزاء وتسمى التوأمين أيضا ،وثلاثة صيفية وهى السرطان. والأسد. والسنبلة وتسمى العذراء أيضا وهذه الستة شمالية . وثلاثة خريفية وهى الميزان .والعقرب. والقوس ويسمى الرامى أيضا، وثلاثة شتوية وهى الجدى. والدلو .ويسمى الدالى وساكب الماء أيضا. والحوت وتسمى السمكتين وهذه الستة جنوبية، ولحلول الشمس فى كل من الأثنى عشر يختلف الزمان حرارة وبرودة والليل والنهار طولا وقصرا وبذلك يظهر بحكم جرى العادة فى عالم الكون والفساد آثار جليلة من نضج الثمار وإدراك الزروع ونحو ذلك مما لايخفى ، ولعل ذلك هو وجه البركة فى جعلها ٭

وأما ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شىء منها طالعا وقت الولادة أو شروع فى عمل من الأعمال أو وقت حلول الشمس نقطة الحمل الذى هو مبدأ السنة الشمسية فى المشهور فهو محض ظن ورجم بالغيب وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام فى ذلك مفصلا ،ولهم فى تقسيمها إلى مذكر ومؤنث (١) وليلى ونهارى وحار

(١) وزعم بعضهم ان اول الجدى واول العقرب خنثى اه منه

Marfat.com

وبارد وسعد ونحس إلى غير ذلك كلام طويل ولعلنا نذكر شيئا منه بعد أن شاء الله تعالى، ومن أراده مستوفى فليرجع إلى كتبهم، ثم الظاهر أن البروج المجعولة مما لادخل للاعتبار فيها، والمذكور فى كلام أهل الهيئة أنها حاصلة من اعتبار فرض ست دوائر معلومة قاطعة للعالم فيكون للاعتبار دخل فيها وان لم تكن فى ذلك كاياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها فان كان الأمر على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيم ما هى فيه إلى اثنتى عشرة قطعة وتسمى كل قطعة برجا فالظاهر أن المراد بجعله تعالى اياها جعل ما يتم به ذلك الاعتبار ويتحقق به أمر التفاوت والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه، وقيل: ان فى الآية إيماء إلى أن اعتبار التقسيم كان عن وحى، والمشهور أن من اعتبر ذلك أولا هرمس وهو على ما قيل ادريس عليه السلام فتأمل *

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أن البروج قصور على أبواب السماء فيها الحرس، وقيل: هى القصور فى الجنة، قال الأعمش: وكان أصحاب عبد الله يقرؤن فى السماء قصورا، وتعقب بأنه يأباه السياق لأن الآية قد سيقت للتنبيه على ما يقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جل شأنه وبيان أنه المستحق للسجود ببيان آثار قدرته سبحانه وكماله جل جلاله، والظاهر أن يكون ذلك بذكر أمور مدركة معلومة لهم وتلك القصور ليست كذلك، وأخرج ابن جرير. وابن المنذر عن مجاهد أنها النجوم، وروى ذلك عن قتادة أيضا، وعن أبى صالح تقييدها بالكبار وأطلق عليها ذلك لعظمها وظهورها لاسيما التى من أول المراتب الثلاثة للقدر الأول من الأقدار الستة *

وأنت تعلم أنه لم يعهد إطلاق البروج على النجوم فالأولى أن يراد بها المعنى الأول المروى عن ابن عباس الذى هو أظهر من الشمس ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أى فى السماء، وقيل: فى البروج ﴿ سِرَاجًا ﴾ هى الشمس كقوله تعالى: (وجعل الشمس سراجا) وقرأ عبد الله. وعلقمة. والأعمش. والاخوان (سرجا) بالجمع مضموم الراء، وقرأ الأعمش أيضا. والنخعى. وابن وثاب كذلك إلا أنهم سكنوا الراء وهو على ما قيل من قبيل (إن إبراهيم كان أمة) لأن الشمس لعظمها وكمال إضاءتها لأنها سرج كثيرة أو الجمع باعتبار الأيام والمطالع، وقد جمعت لهذين الأمرين فى قول الشاعر: * لمعان برق أو شعاع شموس * وعلى هذا القول تتحد القراءتان، وقال بعض الأجلة: الجمع على ظاهره، والمراد به الشمس والكواكب الكبار، ومنهم من فسره بالكواكب الكبار، واعترض على الأول بأنه يلزم تخصيص القمر بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ٦١ ﴾ بعد دخوله فى السرج، والمناسب تخصيص الشمس لكمال مزيتها على ماسواها. ورد بأنه بعد تسليم دخوله فى السرج خص بالذكر لأن سنيهم قمرية ولذا يقدم الليل على النهار وتعتبر الليلة لليوم الذى بعدها فهم أكثر عناية به مع أنه على ما ذكره يلزمه ترك ذكر الشمس وهى أحق بالذكر من غيرها. والاعتذار عنه بأنها لشهرتها كأنها مذكورة ولذا لم تنظم مع غيرها فى قرن لايجدى. والقمر معروف ويطلق عليه بعد الليلة الثالثة إلى آخر الشهر، قيل: وسمى بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب، وفى الصحاح لبياضه. وفى وصفه مايشعر بالاعتناء به. وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور يكون فى وصفه بمنيرا دون مضيئا إشارة إلى أن مايشاهد فيه مستفاد

Marfat.com

من غيره وهو الشمس بل قال غير واحد : إن نور جميع الكواكب مستفاد منها وإن لم يظهر اختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها كما فى نور القمر ٠

وقرأ الحسن . والأعمش . والنخعى . وعصمة عن عاصم (وقمرا) بضم القاف وسكون الميم ؛ واستظهر أبو حيان أنها لغة فى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ، وقيل : هو جمع قمراء وهى الليلة المنيرة بالقمر والكلام على حذف مضاف أى وذا قمر أى صاحب ليال قمر ، والمراد بهذا الصاحب القمر نفسه ويكون قوله سبحانه : (منيرا) صفة لذلك المضاف المحذوف لأن المحذوف قد يعتبر بعد حذفه كما فى قول حسان رضى الله تعالى عنه :

٠ بردى يصفق بالرحيق السلسل ٠ فانه يريد ماء بردى ولذا قال يصفق بالياء من تحت ولو لم يراع المضاف لقال تصفق بالتاء ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه. وروى هذا عن ابن عباس . والحسن . وسعيد بن جبير ، وقيل : بأن يعقبه ويجىء بعده وهو اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس. ونصبه على أنه مفعول ثان لجعل أو حال إن كان بمعنى خلق . وجعله بعضهم بمعنى اختلافا والمراد الاختلاف فى الزيادة والنقصان كما قيل أو فى السواد والبياض كما روى عن مجاهد أو فيما يعم ذلك وغيره كما هو محتمل ؛ وفى البحر يقال: بفلان خلفة واختلاف إذا اختلف كثيرا إلى متبرزه. ومن هذا المعنى قول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفة ٠٠ واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل فى الشتاء إلى منزل فى الصيف دأبا :

ولها بالماطرون إذا ٠٠ أكل النمل الذى جمعا

خلفة حتى إذا ارتفعت ٠٠ سكنت من جلق بيعا

فى بيوت وسط دسكرة ٠٠ حولها الزيتون قد نبعا

انتهى. وجوز عليه أن يكون المراد يذهب كل منهما ويجىء كثيرا. واعتبار المضاف المقدر على حاله وكذا فيما قبله . وفى القاموس الخلف والخلفة بالكسر المختلف. وعليه لا حاجة إلى تقدير المضاف . والمعنى جعلهما مختلفين والافراد لكونه مصدرا فى الأصل ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أى ليكونا وقتين للمتذكر من فاته ورده من العبادة فى أحدهما تداركه فى الآخر ، وروى هذا عن جماعة من السلف ، وروى الطيالسى . وابن أبى حاتم أن عمر رضى الله تعالى عنه أطال صلاة الضحى فقيل له : صنعت شيئا لم تكن تصنعه قال : إنه بقى على من وردى شىء فأحببت أن أتمه أو قال: أقضيه وتلا هذه الآية. وكأن التذكر مجاز عن أداء ما فات وهو مما يتوقف الاداء عليه ، وفى الكلام تقدير كما أشير اليه. ويجوز أن يكون تقدير معنى لا إعراب ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢﴾ أن يشكر الله تعالى باداء نوع من العبادة لم يكن وردا له . وفى مجمع البيان المعنى لمن أراد النافلة بعد أداء الفريضة ، ويجوز أن يكون المعنى لمن أراد أن يتذكر ويتفكر فى بدائع صنع الله تعالى فيعلم أنه لا بد لما ذكر من صانع حكيم واجب الذات ذى رحمة على العباد أو أراد أن يشكر الله سبحانه على ما فيهما من النعم وهو وجه حسن يكاد لا يلتفت لغيره لو لم يكن مأثورا ، والظاهر أن اللام على هذا صلة (جعل) ولما كان ظهور فائدة ذلك لمن أراد التذكر أو أراد الشكر اقتصر عليه ، وجوز أن تكون للتعليل و(او) للتنويع على معنى الاشتمال على

Marfat.com

هذين المعنيين أو للتخيير على معنى الاستقلال بكل ولا منع من الاجتماع .وفائدة هذا الأسلوب إفادة الاستقلال ولو ذكر الواو بدلها لتوهم المعية ، ولعل فى التعبير أولا بأن والفعل دون المصدر الصريح كما فى الشق الثانى مع أنه أخصر إيماء إلى الاعتناء بأمر التذكر فتذكر ه

وقرأ ابى بن كعب (أن يتذكر) وهو أصل ليذكر فابدل التاء ذالا وأدغم . وقرأ النخعى . وابن وثاب. وزيد بن على . وطلحة . وحمزة (أن يذكر) مضارع ذكر الثلاثى بمعنى تذكر ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ﴾ كلام مستأنف لبيان أوصاف خاصى عباد الله تعالى وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن ادته سبحانه والسجود له عز وجل وإضافتهم إلى الرحمن دوى غيره من أسمائه تعالى وضمائره عز وجل لتخصيصهم برحمته أو لتفضيلهم على من عداهم لكونهم مرحومين منعما عليهم كما يفهم من فحوى الاضافة إلى مشتق .وفى ذلك أيضا تعريض بمن قالوا: وما الرحمن؟ . والأكثرون أن عبادا هنا جمع عبد ، وقال ابن بحر : جمع عابد كصاحب وصحاب وراجل ورجال ويوافقه قراءة اليمانى (وعباد) بضم العين وتشديد الباء فانه جمع عابد بالاجماع وهو على هذا من العبادة وهى أن يفعل ما يرضاه الرب وعلى الأول من العبودية وهى أن يرضى ما يفعله الرب ، وقال الراغب : العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل. وفرق بعضهم بينهما بأن العبادة فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب والنجاة من العقاب بذلك والعبودية فعل المأمورات وترك المنهيات لا لما ذكر بل لمجرد إحسان الله تعالى عليه .قيل : وفوق ذلك العبودة وهو فعل وترك ما ذكر لمجرد أمره سبحانه ونهيه عز وجل واستحقاقه سبحانه الذاتى لأن يعظم ويطاع ،واليه الاشاره بقوله تعالى (فصل لربك) وقرأ الحسن (وعبد) بضم العين والباء .وهو كما قال الأخفش جمع عبد كسقف وسقف. وأنشد :

أنسب العبد إلى آبائه اسود الجلدة من قوم عبد

وهو على كل حال مبتدأ وفى خبره قولان. الأول أنه ما فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة ، والثانى وهو الأقرب أنه قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ والهون مصدر بمعنى اللين والرفق.ونصبه إما على أنه نعت لمصدر محذوف أى مشيا هونا أو على أنه حال من ضمير (يمشون) والمراد يمشون هينين فى تؤدة وسكينة ووقار وحسن سمت لا يضربون باقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ، وروى نحو هذا عن ابن عباس . ومجاهد . وعكرمة . والفضيل بن عياض . وغيرهم ، وعن الامام أبى عبدالله رضى الله تعالى عنه أن الهون مشى الرجل بسجيته التى جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر ●

وأخرج الآمدى فى شرح ديوان الأعشى بسنده عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال له : إن البخترة مشية تكره إلا فى سبيل الله تعالى.وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله سبحانه: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) فاقصد فى مشيتك . وقيل : المشى الهون مقابل السريع وهو مذموم . فقد أخرج أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة . وابن النجار عن ابن عباس قالا : «قال رسول الله ﷺ سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن» ●

وأخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران إن (هونا) بمعنى حلما بالسريانية فيكون حالا لا غير .والظاهر

Marfat.com

أنه عربى بمعنى اللين والرفق . وفسره الراغب بتذلل الانسان فى نفسه لما لا يلحق به غضاضة وهو الممدوح . ومنه الحديث «المؤمن هين لين» والظاهر بقاء المشى على حقيقته وأن المراد مدحهم بالسكينة والوقار فيه من غير تعميم . نعم يلزم من كونهم يمشون كذلك أنهم هينون لينون فى سائر أمورهم بحكم العادة على ما قيل ه

واختار ابن عطية أن المراد مدحهم بعدم الخشونة والفظاظة فى سائر أمورهم وتصرفاتهم . والمراد أنهم يعيشون بين الناس هينين فى كل أمورهم . وذكر المشى لما أنه انتقال فى الأرض وهو يستدعى معاشرة الناس ومخالطتهم واللين مطلوب فيها غاية الطلب . ثم قال : وأما أن يكون المراد مدحهم بالمشى وحده هونا فباطل فكم ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس . وقد كان ﷺ يتكفأ فى مشيه كأنما يمشى فى صبب وهو عليه الصلاة والسلام الصدر فى هذه الآية . وفيه بحث من وجهين فلا تغفل . وقرأ اليمانى . والسلمى (يمشون) مبنيا للمفعول مشددا ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أى السفهاء وقليلو الادب كما فى قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿قَالُواْ سَلاَماً ٦٣﴾ بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم إثر بيان حالهم فى أنفسهم أو بيان لحسن معاملتهم . وتحقيق للينهم عند تحقق مايقتضى خلاف ذلك إذا خلى الانسان وطبعه أى إذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسلما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر . فسلاما مصدر أقيم مقام التسليم وهو مصدر مؤكد لفعله المضمر . والتقدير نتسلم تسلما منكم . والجملة مقول القول . وإلى هذا ذهب سيبويه فى الكتاب ومنع أن يراد السلام المعروف بان الآية مكية والسلام فى النساء وهى مدنية ولم يؤمر المسلمون بمكة أن يسلموا على المشركين ه

وقال الأصم : هو سلام توديع لا تحية كقول ابراهيم عليه السلام لأبيه (سلام عليك) ولا يخفى أنه راجع إلى المتاركة وهو كثير فى كلام العرب . وقال مجاهد : المراد قالوا قولا سديدا ه

وتعقب بان هذا تفسير غير سديد لأن المراد ههنا يقولون هذه اللفظة لا أنهم يقولون قولا ذا سداد بدليل قوله تعالى (سلام عليكم) لا نبتغى الجاهلين . ورده صاحب الكشف بان تلك الآية لا تخالف هذا التفسير فان قولهم . سلام عليكم من سداد القول أيضا كيف والظاهر أن خصوص اللفظ غير مقصود بل هو أو مايؤدى مؤداه أيضا من كل قول يدل على المتاركة مع الخلو عن الاثم واللغو وهو حسن لا غبار عليه ه

وفى بعض التواريخ كما فى البحر أن ابراهيم بن المهدى كان منحرفا عن على كرم الله تعالى وجهه فرآه فى النوم قد تقدم إلى عبور قنطرة فقال له : إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك فحكى ذلك على المامون ثم قال . ما رأيت له بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه فقال له المامون : فما أجابك به قال : كان يقول لى : سلاما سلاما فقال المامون : ياعم قد أجابك بابلغ جواب ونبهه على هذه الآية فخزى ابراهيم واستحيى عليه من الله تعالى ما يستحق ، والظاهر أن المراد مدحهم بالاغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم فى الكلام ولا تعرض فى الآية لمعاملتهم مع الكفرة فلا تنافى آية القتال ليدعى نسخها بها لأنها مكية وتلك مدنية . ونقل عن أبى العالية واختاره ابن عطية انها نسخت بالنظر إلى الكفرة بآية القتال ه

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ٦٤﴾ بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم . وكان الحسن إذا قرأ ما تقدم يقول : هذا وصف نهارهم وإذا قرأ هذه قال : هذا وصف ليلهم والبيتوتة أن يدركك الليل

Marfat.com

نمت أولم تنم و(لربهم) متعلق بما بعده. وقدم للفاصلة والتخصيص. والقيام جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه أى يبيتون ساجدين وقائمين لربهم سبحانه أى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة، وقيل: من قرأ شيئا من القرءان بالليل فى صلاة فقد بات ساجدا وقائما، وقيل: أريد بذلك فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء، وقيل: من شفع وأوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل فى عموم الآية. وبالجملة فى الآية حض على قيام الليل فى الصلاة. وقدم السجود على القيام ولم يعكس وإن كان متاخرا فى الفعل لأجل الفواصل ولأنه أقرب ما يكون العبد فيه من ربه سبحانه واباه المستكبرين عنه فى قوله تعالى: (وإذا قيل) الآية.

وقرأ أبو البرهسم (سجودا) على وزن قعودا وهو أوفق بقياما ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ فى أعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ أى لازما كما أخرجه الطستى عن ابن عباس وأنشد رضى الله تعالى عنه فى ذلك قول بشر بن أبى حاتم:

ويوم النسار ويوم الجفار كانا عذابا وكانا غراما

ومثله قول الأعشى: ان يعاقب يكن غراما وان يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالى

وهذا اللزوم إما للكفار أو المراد به الامتداد كما فى لزوم الغريم. وفى رواية أخرى عنه تفسيره بالفظيع الشديد. وفسره بعضهم بالمهلك، وفى حكاية قولهم هذا مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى ربهم عز وجل فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) وفى ذلك تحقيق إيمانهم بالبعث والجزاء، والظاهر أن قوله تعالى: (ان عذابها) الخ من كلام الداعين وهو تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حال عذابها. وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦﴾ وهو تعليل لذلك بسوء حالها فى نفسها. وترك العطف للاشارة إلى أن كلا منهما مستقل بالعلية، وقيل: تعليل لما علل به أولا وضعفه ابن هشام فى التذكرة بانه لا مناسبة بين كون الشىء غراما وكونه ساء مستقرا.

وأجيب بانه بملاحظة اللزوم والمقام فان المقام من شانه اللزوم، وقيل: كلتا الجملتين من كلامه تعالى ابتداء علل بهما القول على نحو ما تقدم أو علل ذلك باولاهما وعللت الأولى بالثانية، وجوز كون احداهما مقولة والأخرى ابتدائية والكل كما ترى. و(ساءت) فى حكم بئست والمخصوص بالذم محذوف تقديره هى وهو الرابط لهذه الجملة بما هى خبر عنه إن لم يكن ضمير القصة. و(مستقر) تمييز وفيها ضمير مبهم عائد على (مستقرا) مفسر به وأنث لتأويل المستقر بجهنم أو مطابقة للمخصوص. ألا ترى إلى ذى الرمة كيف أنث الزورق على تاويل السفينة حيث كان المخصوص مؤنثا فى قوله:

أو حرة عيطل ثبجاء مجفرة دعائم الزور نعمت زورق البلد

قيل: ويجوز أن تكون (ساءت) بمعنى أحزنت فهى فعل متصرف متعد وفاعله ضمير جهنم ومفعوله محذوف أى أحزنت أهلها وأصحابها و(مستقرا) تمييز أو حال وهو مصدر بمعنى الفاعل أو اسم مكان وليس بذاك. والظاهر أن (مستقرا) ومقاما كقوله وألفى قولها كذبا وميناء وحسنه كون المقام يستدعى التطويل أو كونه فاصلة، وقيل: المستقر للعصاة والمقام للكفرة وإن فى الموضعين للاعتناء بشأن الخبر. وقرأت فرقة (ومقاما)

Marfat.com

بفتح الميم أى مكان قيام ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ أى لم يتجاوزوا حدالكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ أى ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، وقال أبو عبد الرحمن الحبلى:الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر الامساك عن طاعة ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس . ومجاهد . وابن زيد ،وقال عون بن عبدالله بن عتبة : الاسراف أن تنفق مال غيرك •

وقرأ الحسن . وطلحة . والأعمش . وحمزة . والكسائى . وعاصم (يقتروا) بفتح الياء وضم التاء . ومجاهد. وابن كثير . وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء . ونافع . وابن عامر بضم الياء وكسر التاء .وقرأ العلاء ابن سبابة(١) واليزيدى بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة وكلها لغات فى التضييق .وأنكر أبو حاتم لغة أقتر رباعيا هنا وقال : إنما يقال أقتر إذا افتقر ومنه (وعلى المقتر قدره) وغاب عنه ما حكاه الاصمعى . وغيره من أقتر بمعنى ضيق ﴿ وَكَانَ ﴾ انفاقهم ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الاسراف والقتر ﴿ قَوَامًا ٦٧ ﴾ وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين وتعادلهما كأن كلا منهما يقاوم الآخر كما سمى سواء لاستوائهما .وقرأ حسان (قواما) بكسر القاف ، فقيل : هما لغتان بمعنى واحد وقيل: هو بالكسر ما يقام به الشئ ،والمراد به هنا ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص. وهو خبر ثان لكان ،وكد للاول وهو (بين ذلك) أو هو الخبر و(بين ذلك) إما معمول لكان على مذهب من يرى أن كان الناقصة تعمل فى الظرف وإما حال من (قواما) لأنه لو تأخر لكان صفة ، وجوز أن يكون ظرفا لغوا متعلقا به أو (بين ذلك) هو الخبر و(قواما) حال مؤكدة .وأجاز الفراء أن يكون «بين ذلك» اسم كان وبنى لاضافته إلى مبنى كقوله تعالى (ومن خزى يومئذ) فى قراءة من فتح الميم .ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وتعقبه الزمخشرى بأنه من جهة الاعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوى لأن ما بين الاسراف والتقتير قوام لا محالة فليس فى الخبر الذى هو معتمد الفائدة فائدة. وحاصله أن الكلام عليه من باب كان الذاهب جاريته صاحبها وهو غير مفيد .ولا يخفى أنه غير وارد على قراءة «قواما» بالكسر على القول الثانى فيه وعلى غير ذلك متجه . وما قيل من أنه من باب شعرى شعرى والمعنى كان قواما معتبرا مقبولا غير مقبول لأنه مع بعده إنما ورد فيما اتحد لفظه وما نحن فيه ليس كذلك .وكذا ما قيل: إن «بين ذلك» أعم من القوام بمعنى العدل الذى يكون نسبة كل واحد من طرفيه اليه على السواء فان ما بين الاقتار والاسراف لا يلزم أن يكون قواما بهذا المعنى إذ يجوز أن يكون دون الاسراف بقليل وفوق الاقتار بقليل فانه تكلف أيضا إذ ما بينهما شامل لحاق الوسط وما عداه كالوسط من غير فرق ومثله لا يستعمل فى المخاطبات لا لغازه ، وقيل : لأنه بعد تسليم جواز الاخبار عن الأعم بالأخص يبعد أن يكون مدحهم بمراعاة حاق الوسط مع ما فيه من الحرج الذى نفى عن الاسلام .وفيه أنه لا شك فى جواز الاخبار عن الأعم بالاخص نحو الذى جاءنى زيد والقائل لم يرد إلحاق الحقيقى بل التقريبى كما يدل عليه قوله بقليل ولا حرج فى مثله فتأمل •

ولعل الاخبار عن إنفاقهم بما ذكر بعد قوله تعالى : (إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) المستلزم لكون

(١) قوله سبابة كذا بخطه وانظره اه

Marfat.com

إنفاقهم كذلك للتنصيص على أن فعلهم من خير الأمور فقد شاع خير الأمور أوساطها ، والظاهر أن المراد بالانفاق مايعم إنفاقهم على أنفسهم وإنفاقهم على غيرها والقوام فى كل ذلك خير، وقد أخرج أحمد. والطبرانى. عن أبى الدرداء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «من فقه الرجل رفقه فى معيشته» ٥

وأخرج ابن ماجه فى سننه عن أنس قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » وحكى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز عليه الرحمة حين زوجه ابنته فاطمة مانفقتك فقال له عمر: الحسنة بين السيئتين ثم تلا الآية. وقد مدح الشعراء التوسط فى الأمور والاقتصاد فى المعيشة قديما وحديثا ، ومن ذلك قوله :

ولا تغل فى شئ من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقول حاتم: إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول الآخر: إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذى دعته اليه من حلاوة عاجل

إلى غير ذلك ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أى لا يشركون به غيره سبحانه ٥

﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أى حرمها الله تعالى بمعنى حرم قتلها لأن التحريم إنما يتعلق بالافعال دون الذوات فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مبالغة فى التحريم ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بلا يقتلون والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أى لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الاحصان والكفر بعد الايمان ، وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أى لا يقتلونها نوعا من القتل إلا قتلا ملتبسا بالحق وأن يكون حالا أى لا يقتلونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق ٥

وقيل : يجوز أن يكون متعلقا بالقتل المحذوف والاستثناء أيضا من أعم الأسباب أى لا يقتلون النفس التى حرم الله تعالى قتلها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق. ويكون الاستثناء مفرغا فى الاثبات لاستقامة المعنى بارادة العموم أو لكون حرم نفيا معنى .ولا يخفى مافيه من التكلف ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ولا يطؤن فرجا محرما عليهم ، والمراد من نفى هذه القبائح العظيمة التعريض بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة اليه بعد وصفهم بالصفات السابقة من حسن المعاملة وإحياء الليل بالصلاة ومزيد خوفهم من الله تعالى لظهور استدعائها نفى ماذكر عنهم .ومنه يعلم حل ماقيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التخلية على التحلية فكأنه قيل. والذين طهرهم الله تعالى وبرأهم سبحانه مما أنتم عليه من الاشراك وقتل النفس المحرمة كالموؤدة والزنا ٥

وقيل : إن التصريح بنفى الاشراك مع ظهور إيمانهم لهدا أو لاظهار كمال الاعتناء والاخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه ، وقد صح من رواية البخارى . ومسلم . والترمذى عن ابن مسعود قال: سالت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أى الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك قلت: ثم أى؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت: ثم أى؟ قال : أن تزانى حليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية ٥

Marfat.com

وأخرج الشيخان . وأبوداود. والنسائى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان ناسا من اهل الشرك قد قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا .ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لايدعون مع الله الها آخر)الآية ونزلت (قل ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم) الآية ه

وقدذكر الامام الرازى أن ذكرهذا بعد ما تقدم لأن الموصوف بتلك الصفات قد يرتكب هذه الأمور تدينا فبين سبحانه أن المكلف لايصير بتلك الخلال وحدها من عباد الرحمن حتى ينضاف إلى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر وهو كما ترى، وجوز أن يقال فى وجه تقديم التحلية على التخلية كون الأوصاف المذكورة فى التحلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ومزيد الانقياد والخوف والاقتصاد فى التصرف بما أذن المولى بالتصرف فيه.ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر فى التخلية .ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ أى ومن يفعل ما ذكر يلق فى الآخرة عقابا لايقادر قدره. وتفسير الأثام بالعقاب مروى عن قتادة .وابن زيد ونقله أبو حيان عن أهل اللغة وأنشد قوله :

جزى الله ابن عروة حيث أمسي عقوقا والعقوق له جزاء

وأخرج ابن الأنبارى عن ابن عباس أنه فسره لنافع بن الأزرق بالجزاء وأنشد قول عامر بن الطفيل :

ورو ينا الأسنة من صداه ولاقت حمير منا أثاما

والفرق يسير : وقال أبو مسلم. الأثام الاثم والكلام عليه على تقدير مضاف أى جزاء أثام أو هو مجاز من ذكر السبب وارادة المسبب ، وقال الحسن:هو اسم من أسماء جهنم ،وقيل : اسم بئر فيها ، وقيل:اسم جبل ه وروى جماعة عن عبدالله بن عمر . ومجاهد أنه واد فى جهنم ، وقال مجاهد : فيه قيح ودم ه

وأخرج ابن المبارك فى الزهد عن شفى الأصبحى أن فيه حيات وعقارب فى فقار إحداهن مقدار سبعين قلة من سم والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة ،وعن عكرمة اسم لاودية فى جهنم فيها الزناة .وقرى.«يلق» بضم الياء وفتح اللام والقاف مشددة.وقرأ ابن مسعود .وأبو رجاء «يلقى» بالف كانه نوى حذف الضمة المقدرة على الألف فاقرت الألف . وقرأ ابو مسعود أيضا (أياما) جمع يوم يعنى شدائد ،واستعمال الأيام بهذا المعنى شائع ومنه يوم ذو أيام وأيام العرب لوقائعهم ومقاتلتهم ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من«يلق» بدل كل من كل أو بدل اشتمال .وجاء الابدال من المجزوم بالشرط فى قوله :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾ أى فى ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا ٦٩﴾ ذليلا مستحقرا فيجتمع له العذاب الجسمانى والروحانى . وقرأ الحسن . وأبو جعفر .وابن كثير (يضعف) بالياء والبناء للمفعول وطرح الألف والتضعيف ه وقرأ شيبة . وطلحة بن سليمان . وأبو جعفر أيضا (نضعف) بالنون مضمومة وكسر العين مضعفة و(العذاب) بالنصب، وطلحة بن مصرف «يضاعف» مبنيا للفاعل و(العذاب) بالنصب . وقرأ طلحة بن سليمان (وتخلد) بتاء الخطاب على الالتفات المنبى عن شدة الغضب مرفوعا . وقرأ أبو حيوة (وتخلد) مبنيا للمفعول مشدد اللام مجزوما . ورويت عن أبى عمرو.وعنه كذلك مخففا . وقرأ أبو بكر عن عاصم (يضاعف.ويخلد) بالرفع فيهما ، وكذا ابن عامر : والمفضل عن عاصم (يضاعف.ويخلد) مبنيا للمفعول مرفوعا مخففا.والأعمش

Marfat.com

بضم الياء مبنيا للمفعول مشددا مرفوعا وقد عرفت وجه الجزم ، وأما الرفع فوجهه الاستئناف ، ويجوز جعل الجملة حالا من فاعل (يلق) ، والمعنى يلق أثاما مضاعفا له العذاب ، ومضاعفته مع قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله سبحانه «ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» قيل لانضمام المعصية إلى الكفر ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فان استثناء المؤمن يدل على اعتبار الكفر فى المستثنى منه . وأورد عليه أن تكرر لا النافية يفيد نفى كل من تلك الأفعال بمعنى لا يوقعون شيئا منها فيكون (ومن يفعل ذلك) بمعنى ومن يفعل شيئا من ذلك ليتحد مورد الاثبات والنفى فلا دلالة على الانضمام ، والمستثنى من جمع بين ماذكر من الايمان والتوبة والعمل الصالح فيكون المستثنى منه غير جامع لها ، فلعل الجواب أن المضاعفة بالنسبة إلى عذاب مادون المذكورات *

وتعقب بأن الجواب المذكور لابعد فيه وإن لم يذكر مادونها إلا أن الايراد ليس بشىء لأن الكلام تعريض للكفرة ومن يفعل شيئا من ذلك منهم فقد ضم معصيته إلى كفره ولو لم يلاحظ ذلك على ما اختاره لزم أن من ارتكب كبيرة يكون مخلدا ولا يخفى فساده عندنا ، وماذكر من اتحاد مورد الاثبات والنفى ليس بلازم *

ثم إن فى الكلام قرينة على أن المستثنى منه من جمع بين أضدادها كما علمت ولذا جمع بين الايمان والعمل الصالح مع أن العمل مشروط بالايمان فذكره للاشارة إلى انتفائه عن المستثنى منه ولذا قدم التوبة عليه ، ويحتمل أن تقديمها لأنها تخلية ، وقال بعضهم : ليس المراد بالمضاعفة المذكورة ضم قدرين متساويين من العذاب كل منهما بقدر ماتقتضيه المعصية بل المراد لازم ذلك وهو الشدة فكأنه قيل : ومن يفعل ذلك يعذب عذابا شديدا ويكون ذلك العذاب الشديد جزاء كل من تلك الأفعال ومماثلا له ، والقرينة على المجاز قوله تعالى «ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» ونحوه ، ويراد من الخلود المكث الطويل الصادق بالخلود الأبدى وغيره ، ويكون لمن أشرك باعتبار فرده الأول ، ولمن ارتكب إحدى الكبيرتين الأخيرتين باعتبار فرده الآخر وهو كما ترى ، ومثله ماقيل من أن المضاعفة لحفظ ماتقتضيه المعصية فان الأمر الشديد إذا دام هان *

هذا والظاهر أن الاستثناء متصل على ماهو الأصل فيه ، وقال أبو حيان : الأولى عندى أن يكون منقطعا أى لكن من تاب الخ لأن المستثنى منه على تقدير الاتصال محكوم عليه بانه يضاعف له العذاب فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلا يضاعف له العذاب ، ولا يلزم من انتفاء التضعيف لقاء العذاب غير المضعف ، وفيه إن قوله تعالى الآتى «فاولئك» الخ احتراس لدفع توهم ثبوت أصل العذاب بافادة أنهم لا يلقونه أصلا على أكمل وجه ، وقيل أيضا فى ترجيح الانقطاع : إن الاتصال مع قطع النظر عن إيهامه ثبوت أصل العذاب بل وعن إيهامه الخلود غير مهان يوهم أن مضاعفة العمل الصالح شرط لنفى الخلود مع أنه ليس كذلك *

ثم أية ضرورة تدعو إلى أن يرتكب مافيه إيهام ثم يتشبث بأذيال الاحتراس ، على أن الظاهر أن يجعل من مبتدأ والجملة المقرونة بالفاء خبره وقرنت بذلك لوقوعها خبرا عن الموصول كما فى قولك : الذى يأتينى فله درهم ، وأنا أميل لما مال اليه أبو حيان لمجموع ماذكر ، وذكر الموصوف فى قوله سبحانه «وعمل عملا

Marfat.com

صالحا» مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال السابقة *

﴿فَأُولَـٰئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد فى الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه أى فاولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح *

﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ﴾ فى الدنيا ﴿سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم كما يشير إلى ذلك كلام كثير من السلف ، وقيل : المراد بالسيئات والحسنات ملكتهما لا نفسهما أى يبدل عز وجل بملكة السيئات ودواعيها فى النفس ملكة الحسنات بأن يزيل الأولى ويأتى بالثانية ،وقيل: هذا التبديل فى الآخرة ، والمراد بالسيئات والحسنات العقاب والثواب مجازا من باب اطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى يعفو جل وعلا عن عقابهم ويتفضل سبحانه عليهم بدله بالثواب ، وإلى هذا ذهب القفال. والقاضى ، وعن سعيد بن المسيب . وعمرو بن ميمون . ومكحول أن ذلك بأن تمحى السيئات نفسها يوم القيامة من صحيفة أعمالهم ويكتب بدلها الحسنات ، واحتجوا بالحديث الذى رواه مسلم فى الصحيح عن أبى ذر قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وينحى عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو يقر لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة فيقول : إن لى ذنوبا لم أرها هنا قال : ولقد رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه » ، ونحو هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل: من هم ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يبدل الله تعالى سيئاتهم حسنات » ويسمى هذا التبديل كرم العفو، وكأنه لذلك قال أبو نواس :

تعض ندامة كفيك مما ترکت مخافة الذنب السرورا

ولعل المراد إنه تغفر سيئاته ويعطى بدل كل سيئة ما يصلح أن يكون ثواب حسنة تفضلا منه عز وجل وتكرما لا أنه يكتب له أفعال حسنات لم يفعلها ويثاب عليها. وفى كلام أبى العالية ماهو ظاهر فى إنكار تمنى الاستكثار من السيآت، فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن أناسا يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب فقال. ولم ذلك؟ فقيل: يتأولون هذه الآية (فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) وكان أبو العالية إذا أخبر بما لا يعلم قال : آمنت بما أنزل الله تعالى من كتابه فقال ذلك ثم تلا هذه الآية (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا) وكأنه ظن أن ما تلاه مناف لما زعموه من التمنى، ويمكن أن يقال: إن ما دلت عليه تلك الآية يكون قبل الوقوف على التبديل والله تعالى أعلم *

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ أى عن المعاصى التى فعلها بتركها بالكلية والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلافى به ما فرط منه أو ومن خرج عن جنس المعاصى وإن لم يفعله ودخل فى الطاعات ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى يرجع اليه سبحانه بذلك ﴿مَتَابًا ٧١﴾ أى رجوعا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو فانه يتوب إلى الله

Marfat.com

تعالى ذى اللطف الواسع الذى يحب التائبين ويصطنع اليهم أو فانه يرجع إلى الله تعالى أو إلى ثوابه سبحانه مرجعا حسنا، وأياما كان فالشرط والجزاء متغايران،وهذا لبيان حال من تاب من جميع المعاصى وما تقدم لبيان من تاب من أمهاتها فهو تعميم بعد تخصيص ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة كما روى عن على كرم الله تعالى وجهه.والباقر رضى الله تعالى عنه فهو من الشهادة، و(الزور) منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أى شهادة الزور أو بالزور ،ويفهم من كلام قتادة أن الشهادة هنا بمعنى يعم ماهو المعروف منها ،أخرج عبد بن حميد . وابن أبى حاتم عنه أنه قال: أى لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ولا يؤملونهم فيه ٠

وأخرج جماعة عن مجاهد أن المراد بالزور الغناء ، وروى نحوه عن محمد بن الحنفية رضى الله تعالى عنه، وضم الحسن اليه النياحة ، وعن قتادة أنه الكذب،وعن عكرمة أنه لعب كان فى الجاهلية ، وعن ابن عباس أنه صنم (١) كانوا يلعبون حوله سبعة أيام ، وفى رواية أخرى عنه أنه عيد المشركين وروى ذلك عن الضحاك، وعن هذا أنه الشرك فيشهدون على هذه الأقوال من الشهود بمعنى الحضور ،و(الزور) مفعول به بتقدير مضاف أى محال الزور ، وجوز أن يراد بالزور مايعم كل شئ باطل مائل عن جهة الحق من الشرك والكذب والغناء والنياحة ونحوها فكأنه قيل : لا يشهدون مجالس الباطل لما فى ذلك من الاشعار بالرضا به ،وأيضا من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ بِاللَّغْوِ ﴾ بما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢ ﴾ أى مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه معرضين عنه ٠

وفسر الحسن اللغو كما أخرج عنه ابن أبى حاتم بالمعاصى ، وأخرج هو . وابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : بلغنى أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه مرّ بلهو معرضا ولم يقف فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلا إبراهيم (وإذا مروا باللغو مروا كراما) ٠

وقيل : المراد باللغو الكلام الباطل المؤذى لهم أو مايعمه والفعل المؤذى وبالكرم العفو والصفح عمن آذاهم ، واليه يشير ماأخرجه جماعة عن مجهد أنه قال فى الآية: إذا أوذوا صفحوا وجعل الكلام على هذا بتقدير مضاف أى إذا مروا بأهل اللغو أعرضوا عنهم كما قيل :

واقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

ولا يخفى أنه ليس بلازم ، وقيل : اللغو القول المستهجن،والمراد بمرورهم عليه إتيانهم على ذكره وبكرمهم الكف عنه والعدول إلى الكناية ،واليه يومئ ماأخرجه جماعة عن مجاهد أيضا أنه قال: فيها كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كنوا عنه ، وعمم بعضهم وجعل ماذكر من باب التمثيل ، وجوز أن يراد باللغو الزور بالمعنى العام أعنى الأمر الباطل عبر عنه تارة بالزور لميله عن جهة الحق وتارة باللغو لأنه من شأنه أن يلغى ويطرح، ففى الكلام وضع المظهر موضع المضمر،والمعنى والذين لا يحضرون الباطل وإذا مروا به على طريق الاتفاق أعرضوا عنه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ القرآنية المنطوية على المواعظ والأحكام

(١) قال الراغب وسمى الصنم زورا فى قوله ﴿ جاؤ ابزوريهم وجئنا بالاصم لكون ذلك كذبا وميلا عن الحق وظاهره انه مطلق الصنم فتأمل اهـ منه

Marfat.com

﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣ ﴾ أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية فالنفى متوجه إلى القيد على ما هو الأكثر فى لسان العرب ، وفى التعبير بما ذكر دون أكبوا عليها سامعين مبصرين ونحوه تعريض لما عليه الكفرة والمنافقون إذا ذكروا بآيات ربهم، والخرور السقوط على غير نظام وترتيب ، وفى التعبير به مبالغة فى تأثير التذكير بهم ، وقيل : ضمير عليها للمعاصى المدلول عليها باللغو ، والمعنى إذا ذكروا بآيات ربهم المتضمنة للنهى عن المعاصى والتخويف لم ترتكبها لم يفعلوها ولم يكونوا كمن لا يسمع ولا يبصر وهو كما ترى *

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ بتوفيقهم للطاعة كما روى عن ابن عباس والحسن وعكرمة . ومجاهد فان المؤمن الصادق إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له فى الدنيا حيا وميتا ولحوقهم به فى الأخرى ، وذكر أنه كان فى أول الاسلام يهتدى الأب والابن كافر والزوج والزوجة كافرة فلا يطيب عيش ذلك المهتدى فكان يدعو بما ذكر ، وعن ابن عباس قرة عين الوالد بولده أن يراه يكتب الفقه، ومن ابتدائية متعلقة بهب أى هب لنا من جهتهم *

وجوز أن تكون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله سبحانه : (من أزواجنا وذرياتنا) وهذا مبنى على مجيء من للبيان وجواز تقدم المبين على المبين ، وقرة العين كناية عن السرور والفرح وهو مأخوذ من القر وهو البرد لأن دمعة السرور باردة ولذا يقال فى ضده: أسخن الله تعالى عينه، وعليه قول أبى تمام :

فاما عيون العاشقين فاسخنت وأما عيون الشامتين فقرت

وقيل : هو مأخوذ من القرار لأن ما يسر يقر النظر به ولا ينظر إلى غيره ، وقيل : فى الضد أسخن الله تعالى عينه على معنى جعله خائفا مترقبا ما يحزنه ينظر يمينا وشمالا واماما ووراء لا يدرى من أين يأتيه ذلك بحيث تسخن عينه لمزيد الحركة التى تورث السخونة، وفيه تكلف ، وقيل : (أعين) بالتنكير مع أن المراد بها أعين القائلين وهى معينة لقصد تنكير المضاف للتعظيم وهو لا يكون بدون تنكير المضاف اليه، وجمع القلة على ما قال الزمخشرى لأن أعين المتقين قليلة بالاضافة إلى عيون غيرهم *

وتعقبه أبو حيان . وابن المنير بأن المتقين وإن كانوا قليلا بالاضافة إلى غيرهم إلا أنهم فى أنفسهم على كثرة من العدد والمعتبر فى إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا فى نفسه لا بالاضافة إلى غيره ، وأجيب بأن المراد أنه استعمل الجمع المذكور فى معنى القلة مجردا عن العدد بقرينة كثرة القائلين وعيونهم ، واستظهر ابن المنير أن ذلك لأن المحكى كلام كل واحد من المتقين فكأنه قيل: يقول كل واحد منهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين فتدبر وتأمل فى وجه اختيار هذا الجمع فى غير هذا الموضع مما لا يتأتى فيه ماذكروه ههنا *

وأنا أظن أنه اختير الأعين جمعا للعين الباصرة والعيون جمعا للعين الجارية فى جميع القرآن الكريم ويخطر لى فى وجه ذلك شىء لا أظنه وجيها ولعلك تفوز بما يغنيك عن ذكره والله تعالى ولى التوفيق . وقرأ طلحة . وأبو عمرو . وأهل الكوفة غير حفص (وذريتنا) على الافراد *

وقرأ عبدالله . وأبو الدرداء . وأبو هريرة «قرات» على الجمع ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ أى اجعلنا

Marfat.com

بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل ،وإمام يستعمل مفردا وجمعا كهجان والمراد به هنا الجمع ليطابق المفعول الأول لجعل ، واختير على أئمة لأنه أوفق بالفواصل السابقة واللاحقة ، وقيل : هو مفرد وأفرد مع ازوم المطابقة لأنه اسم جنس فيجوز اطلاقه على معنى الجمع مجازا بتجريده من قيد الوحدة أو لأنه فى الأصل مصدر وهو لكونه موضوعا للماهية شامل للقليل والكثير وضعا فاذا نقل لغيره قد يراعى أصله أولان المراد واجعل كل واحد منا أولانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم

وفى إرشاد العقل السليم بعد نقل ما ذكر أن مدار التوجيه على أن هذا الدعاء صدر عن الكل على طريق المعية وهو غير واقع أو عن كل واحد وهو غير ثابت ، فالظاهر أنه صدر عن كل واحد قول واجعلنى للمتقين إماما فعبر عنهم للايجاز بصيغة الجمع وأبقى (إماما) على حاله .

وتعقب بأن فيه تكلفا وتعسفا مع مخالفته للعربية وأنه ليس مداره على ذلك بل أنهم شركوا فى الحكاية فى لفظ واحد لاتحاد ما صدر عنهم مع أنه يجوز اختيار الثانى لأن التشريك فى الدعاء أدعى الاجابة فاعرف ولا تغفل .

وروى عن مجاهد أن إماما جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ،والمعنى اجعلنا قاصدين للمتقين مقتدين بهم ، وما ذكر أولا أقرب كما لايخفى وليس فى ذلك كما قال النخعى : طلب للرياسة بل مجرد كونهم قدوة فى الدين وعلماء عاملين ، وقيل : فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين مما ينبغى أن يطلب ، وإعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شىء من ذلك تتمة لغيره ، وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما عرفته فيما سبق غير مرة ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بما فصل فى حيز الصلات من حيث اتصافهم به ؛ وفيه دلالة على أنهم متميزون منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ،وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل ، وهو مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ والجملة على الأقرب استئناف لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الابدية إثر بيان مالهم فى الدنيا من الأعمال السنية ،و(الغرفة) الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال ،وقد فسرت هنا على ما روى عن ابن عباس ببيوت من زبرجد ودر وياقوت .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن سهل بن سعد عن النبى ﷺ أنه: «قال فيها بيوت من ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء أو درة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم» ، وقيل . أعلى منازل الجنة ،ولا يأباه الخبر لجواز أن تكون الغرف الموصوفة فيه هناك ، وروى عن الضحاك أنها الجنة ، وقيل : السماء السابعة ، وعلى تفسيرها بجمع ، ويؤيده قوله تعالى : (وهم فى الغرفات آمنون) وقرىء فيه فى الغرفة يكون المراد بها الجنس وهو يطلق على الجمع كما سمعت آنفا ،وايثار الجمع هنالك على ما قال الطيبى لأنها رتبت على الايمان والعمل الصالح ولا خفاء فى تفاوت الناس فيهما وعلى ذلك تتفاوت الأجزية ،وههنا رتب على مجموع الأوصاف الكاملة فلذا جىء بالواحد دلالة على أن الغرف لا تتفاوت ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بسبب صبرهم على أن الباء للسببية وما مصدرية ، وقيل : هى للبدل كما فى قوله :

Marfat.com

فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شنوا الأغارة فرسانا وركبانا

أى بدل صبرهم ولم يذكر متعلق الصبر ليعم ماسلف من عبادتهم فعلا وتركا وغيره من أنواع العبادة والكل مدمج فيه فانه إما عن المعاصى وإما على الطاعات وإما على الله تبارك وتعالى وهو أعلى منهما ويعلم من ذلك وجه إيثار (صبروا) على فعلوا ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ٧٥ ﴾ أى تحييهم الملائكة عليهم السلام ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات أو يحيي بعضهم بعضا ويدعو له بذلك ، والمراد من الدعاء به التكريم وإلقاء السرور والمؤانسة وإلا فهو متحقق لهم ويعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة فليس هناك دعاء أصلا *

وقرأ طلحة . ومحمد اليمانى .وأهل الكوفة غير حفص (يلقون) بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لايموتون ولا يخرجون ،وهو حال من ضمير (يجزون) أومن ضمير «يلقون» *

﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦ ﴾ مقابل «ساءت مستقرا» معنى ومثله إعرابا فتذكر ولاتغفل ﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل للناس مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى ﴾ أى أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد بكم ﴿ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أى عبادتكم له عز وجل حسبما مر تفصيله ، فان ماخلق له الانسان معرفة الله تعالى وطاعته جل وعلا وإلا فهو والبهائم سواء فما متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب وهى عبارة عن المصدر ،وأصل العبء الثقل وحقيقة قولهم: ماعبأت به ماعتددت له من فوادح همى ومما يكون عبأ على كما تقول: ماأكترثت له أى ماأعددت له من كوارثى ومما يهمنى *

وقال الزجاج : معناه أى وزن يكون لكم عنده تعالى لولا عبادتكم ،ويجوز أن تكون مانافية أى ليس يعبأ، وأياما كان فجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه أى لولا دعاؤكم لما اعتد بكم ،وهذا بيان لحال المؤمنين من المخاطبين *

وقوله سبحانه ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ بيان لحال الكفرة منهم ، والمعنى إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لاأعتد بعبادى إلا لعبادتهم فقد خالفتم حكمى ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين ، فالفاء مثلها فى قوله : فقد جئنا خراسانا والتكذيب مستعار للمخالفة ، وقيل : المراد فقد قصرتم فى العبادة على أنه من قولهم : كذب القتال إذا لم يبالغ فيه ،والأول أولى وإن قيل: إن المراد من التقصير فى العبادة تركها. وقرأ عبدالله . وابن عباس . وابن الزبير (فقد كذب الكافرون) وهو على معنى كذب الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين على ماأشرنا اليه وهو الذى اختاره الزمخشرى واستحسنه صاحب الكشف ، واختار غير واحد أنه خطاب لكفرة قريش ،والمعنى عليه عند بعض ما يعبأ بكم لولا عبادتكم له سبحانه أى لولا إرادته تعالى التشريعية لعبادتكم له تعالى لما عبأ بكم ولا خلقكم، وفيه معنى من قوله تعالى (ماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وقيل :المعنى مايعبأ بكم لولا دعاؤه سبحانه إياكم إلى التوحيد على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أى لولا إرادة ذلك *

وقيل . المعنى مايبالى سبحانه بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهة أو مايفعل بعذابكم لولا شركم كما

Marfat.com

قال تعالى (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) ، وقيل : المعنى ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه تعالى وتضرعكم اليه فى الشدائد كما قال تعالى (وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله) وقال سبحانه (فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) ، وقيل : المعنى ماخلقكم سبحانه وله اليكم حاجة إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم ، وروى هذا عن الوليد بن الوليد رضى الله تعالى عنه *

وأنت تعلم أن ما آثره الزمخشرى لاينافى كون الخطاب لقريش من حيث المعنى فقد خصص بهم فى قوله تعالى (فقد كذبتم).﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ٧٧﴾ أى جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار كما يعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لماقبلها فضمير «يكون» لمصدر الفعل المتقدم بتقدير مضاف أو على التجوز،وإنما لم يصرح بذلك للايذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان *

وقيل : الضمير للعذاب ، وقد صرح به من قرأ «يكون العذاب لزاما» ، وصح عن ابن مسعود أن اللزام قتل يوم بدر ، وروى عن أبى . ومجاهد . وقتادة . وأبى مالك ولعل اطلاقه على ذلك لأنه لوزم فيه بين القتلى «لزاما» *

وقرأ ابن جريج تكون بتاء التأنيث على معنى تكون العاقبة ، وقرأ المنهال ، وابان بن ثعلب . وأبو السمال «لزاما» بفتح اللام مصدر لزم يقال: لزم لزوما ولزاما كثبت ثبوتا وثباتا ، ونقل ابن خالويه عن أبى السمال أنه قرأ «لزام» على وزن حذام جعله مصدرا معدولا عن اللزمة كفجار المعدول عن الفجرة والله تعالى أعلم هذا *

﴿ ومن باب الاشارة ﴾ قيل فى قوله تعالى : (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) إشارة قصور حال المنكرين على أولياء الله تعالى حيث شاركوهم فى لوازم البشرية من الأكل والشرب ونحوهما وقالوا فى قوله تعالى : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ان وجه فتنته النظر اليه نفسه والغفلة فيه عن ربه سبحانه، ويشعر هذا بأن كل ماسوى الله تعالى فتنة من هذه الحيثية *

وقال ابن عطاء فى قوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) اطلعناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا فسقطوا من أعيننا بذلك وجعلنا أعمالهم هباء منثورا ،وهذه الآية وان كانت فى وصف الكفار لكن فى الحديث أن فى المؤمنين من يجعل عمله هباء كما تضمنته ، فقد أخرج أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى المتفق والمفترق عن سالم مولى أبى حذيفة قال: «قال رسول الله ﷺ : ليجاءن يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جىء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم فى النار ، قال سالم: بأبى وأمى يارسول الله حل لنا هؤلاء القوم قال : كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنثة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شىء من الحرام وثبوا عليه فادحض الله تعالى أعمالهم» وذكر فى قوله تعالى «ويوم يعض الظالم» الآية أن حكمه عام فى كل متحابين على معصية الله تعالى *

وعن مالك بن دينار نقل الاحجار مع الابرار خير من أكل الخبيص مع الفجار ، وفى قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) أنه يلزم من هذا مع قولهم كل ولى على قدم نبى أن يكون لكل ولى عدو يتظاهر بعداوته، وفيه إشارة إلى سوء حال من يفعل ذلك مع اولياء الله تعالى. ولذا قيل: إن عداوتهم علامة سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى، وفى قوله تعالى (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم)إشارة إلى أنهم كانوا متوجهين إلى جهة الطبيعة ولذا حشروا منكوسين ، وفى قوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون

Marfat.com

عليه وكيلا) إنه عام فى كل من مال إلى هوى نفسه واتبعه فيما توجه اليه، ومن هنا دقق العارفون النظر فى مقاصد أنفسهم حتى إنهم إذا أمرتهم بمعروف لم يسارعوا اليه وتأملوا ماذا أرادت بذلك فقد حكى عن بعضهم أن نفسه لم تزل تحسه على الجهاد فى سبيل الله تعالى فاستغرب ذلك منها لعلمه أن النفس أمارة بالسوء فاعن النظر فاذا هى قد ضجرت من العبادة فارادت الجهاد رجاء أن تقتل فتستريح مما هى فيه من النصب ولم تقصد بذلك الطاعة بل قصدت الفرار منها ، وقيل فى قوله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مدالظل) الآية أى ألم تر كيف مدظل عالم الاجسام «ولو شاء لجعله ساكنا» فى كتم العدم ثم جعلنا شمس عالم الارواح على وجود ذلك الظل دليلا بأن كانت محركة لها إلى غايتها المخلوقة هى لأجلها فعرف من ذلك أنه لولا الارواح لم تخلق الاجساد ، وفى قوله تعالى (ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا) إشارة إلى أن كل مركب فانه سينحل إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير بوجه آخر الظل ماسوى نور الأنوار يستدل به على صانعه الذى هو شمس عالم الوجود. وهذا شأن الذاهبين من غيره سبحانه اليه عز وجل ، وفى قوله تعالى (ثم جعلنا) إشارة إلى مرتبة أعلى من ذلك وهى الاستدلال به تعالى على غيره سبحانه كقوله تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) وهذه مرتبة الصديقين ٭

وقوله سبحانه (ثم قبضناه) كقوله تعالى «كل شىء هالك إلا وجهه . وألا إلى الله تصير الأمور) وبوجه آخر الظل حجاب الذهول والغفلة والشمس شمس تجلى المعرفة من أفق العناية عند صباح الهداية ولو شاء سبحانه لجعله دائما لا يزول ، وإنما يستدل على الذهول بالعرفان ، وفى قوله تعالى «ثم قبضناه » إشارة إلى أن الكشف التام يحصل بالتدريج عند انقضاء مدة التكليف «وهو الذى جعل لكم الليل لباسا» تستترون به عن رؤية الأجانب لكم واطلاعهم على حالكم من التواجد وسكب العبرات «والنوم سباتا» راحة لأبدانكم من نصب المجاهدات «وجعل النهار نشورا» تنتشرون فيه لطلب ضروریاتكم «وهو الذى أرسل الرياح» أى رياح الاشتياق على قلوب الأحباب «بشرا بين يدى رحمته» من التجليات والكشوف «وأنزلنا» من سماء الكرم ماء حياة العرفان «لنحيى به بلدة ميتا» أى قلوبا ميتة «ونسقيه مما خلقنا أنعاما» وهم الذين غلبت عليهم الصفات الحيوانية يسقيهم سبحانه ليردهم إلى القيام بالعبادات «وأناسى كثيرا» وهم الذين سكنوا إلى رياض الانس يسقيهم سبحانه من ذلك ليفطمهم عن مراضع الانسانية إلى المشارب الروحانية « ولقد صرفناه» أى القرآن الذى هو ماء حياة القلوب بينهم «ليذكروا» به موطنهم الأصلى «فابى أكثر الناس إلا كفورا» بنعمة القرءان وما عرفوا قدرها « وهو الذى مرج البحرين » بحر الروح وبحر النفس «هذا» وهو بحر الروح «عذب فرات» من الصفات الحميدة الربانية ، و«هذا» وهو بحر النفس «ملح أجاج» من الصفات الذميمة الحيوانية «وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا» فحرام على الروح أن يكون منشأ الصفات الذميمة وعلى النفس أن تكون معدن الصفات الحميدة ٭

وذكر أن البرزخ هو القلب ، وقال ابن عطاء : تلاطمت صفتان فتلاقيتا فى قلوب الخلق فقلوب أهل المعرفة منورة بانوار الهداية مضيئة بضياء الاقبال وقلوب أهل النكرة مظلمة بظلمات المخالفة معرضة عن سنن التوفيق وبينهما قلوب العامة ليس لها علم بما يرد عليها وما يصدر منها ليس معها خطاب ولا لها جواب ، وقيل: البحر العذب إشارة إلى بحر الشريعة وعذوبته لما أن الشريعة سهلة لاحرج فيها ولادقة فى معانيها ولذلك

Marfat.com

صارت مورد الخواص والعوام، والبحر الملح إشارة إلى بحر الحقيقة وملوحته لما أن الحقيقة صعبة المسالك لايكاد يدرك مافيها عقل السالك ،والبرزخ إشارة إلى الطريقة فانها ليست بسهلة كالشريعة ولاصعبة كالحقيقة بل بين بين «تبارك الذى جعل فى السماء بروجا» قيل: هو إشارة إلى أنه سبحانه جعل فى سماء القلوب بروج المنازل والمقامات وهى اثناعشر التوبة والزهد. والخوف. والرجاء. والتوكل. والصبر. والشكر. واليقين. والاخلاص والتسليم. والتفويض. والرضا وهى منازل الأحوال السيارة شمس التجلى وقمر المشاهـــدة وزهرة الشوق ومشترى المحبة وعطارد الـكشوف ومريخ الفناء وزحل البقاء « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» بغير فخرولاخيلاء لماشاهدوا من كبرياء الله تعالى وجلاله جل شأنه ٥

وذكر بعضهم أن هؤلاء العباد يعاملون الأرض معاملة الحيوان لاالجماد ولذايمشون عليها هونا «وإذا خاطبهم الجاهلون » وهم أبناء الدنيا (قالوا سلاما.) أى سـلامة من الله تعالى من شركم أو إذا خاطبهم كل ما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم وتعرض لهم ليشغلهم عما هم فيـه « قالوا سلاما » سلام متاركة وتوديع (والذين يبيتون لربهم سجداوقياما) لما علموا أن الصلاة معراج المؤمن والليل وقت اجتماع المحب بالحبيب :

نهارى نهار الناس حتى اذا بدا لى الليل هزتنى اليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليـل جامع

(والذين يقولون ربنا اصرف عناعذاب جهنم إن عذابها كان غراما) اشارة إلى مزيد خوفهم من القطيعة والبعد عن محبوبهم وذلك ما عنوه بعذاب جنهم لا العذاب المعروف فان المحب الصادق يستعذبه مع الوصال ألا تسمع ما قيل :

فليت سليمى فى المنام ضجيعتى فى جنة الفردوس او فى جهنم

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) اشارة الى أن فيوضاتهم حسب قابلية المفاض عليه لايسرفون فيها بأن يفيضوا فوق الحاجة ولايقترون بأن يفيضوا دون الحاجة أو الى أنهم اذا أنفقوا وجودهم فى ذات الله تعالى وصفاته جل شأنه لم يبالغوا فى الرياضة الى حد تلف البدن ولم يقتروا فى بذل الوجود بالركون الى الشهوات (والذين لايدعون مع الله إلها آخر) برفع حوائجهم الى الأغيار (ولايقتلون النفس التى حرم الله) قتلها (الابالحق) أى الابسطوة تجلياته تعالى (ولايزنون) بالتصرف فى عجوز الدنيا ولاينالون منها شيئا الا باذنه تعالى (والذين لايشهدون الزور) لايحضرون مجالس الباطل من الأقوال والأفعال (واذامروا باللغو) وهو مالايقربهم الى محبوبهم مروا كراما معرضين عنه (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) بل أقبلوا عليها بالسمع والطاعة مشاهدين بعيون قلوبهم أنوار ماذكروا به من كلام ربهم (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا) من ازدوج معنا وصحبنا وذرياتنا الذين أخذوا عنا (قرة أعين) بأن يوفقوا للعمل الصالح (واجعلنا للمتقين اماما) وهم الفائزون بالفناء والبقاء الأتمين (أولئك يجزون الغرفة) وهو مقام العندية (بما صبروا) فى البداية على تكاليف الشريعة ، وفى الوسط على التأدب بآداب الطريقة ، وفى النهاية على ماتقتضيه الحقيقة (ويلقون

Marfat.com

فيها تحية) هى أنس الأسرار بالحى القيوم (وسلاما) وهو سلامة القلوب من خطور الفظيعة (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) لأنها مشهد الحق ومحل رضا المحبوب المطلق، نسأل الله تعالى أن يمن علينا برضائه ويمنحنا بسوابغ نعمائه وآلائه بحرمة سيد أنبيائه وأحب أحبائه ﷺ وشرف قدره وعظم *

﴿ سورة الشعراء ٢٦ ﴾

وفى تفسير الامام مالك تسميتها بسورة الجامعة، وقد جاء فى رواية ابن مردويه عن ابن عباس. وعبد الله ابن الزبير رضى الله تعالى عنهم اطلاق القول بمكيتها، وأخرج النحاس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة (والشعراء يتبعهم الغاوون) الى آخرها، وروى ذلك عن عطاء. وقتادة، وقال مقاتل: (ألم يكن لهم آية) الآية مدنية أيضا، قال الطبرسى: وعدة آياتها مائتان وسبع وعشرون آية فى الكوفى. والشامى: والمدنى الأول ومائتان وست وعشرون فى الباقى *

ووجه اتصالها بما قبلها اشتمالها على بسط وتفصيل لبعض ماذكر فيما قبل، وفيها أيضا من تسليته صلى الله تعالى عليه وسلم مافيها، وقد افتتحت كلتا السورتين بما يفيد مدح القرآن الكريم وختمتا بايعاد المكذبين به كما لا يخفى *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم ١ ﴾ تقدم الكلام فى أمثاله اعرابا وغيره والكلام هنا كالكلام هناك بيد أنه أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب أنه قال فى هذا الطاء من ذى الطول والسين من القدوس والميم من الرحمن، وأمال فتحة الطاء حمزة. والكسائى. وأبو بكر. وقرأ نافع كما روى عنه أبو على الفارسى فى الحجة بين بين ولم يمل صرفا لأن الألف منقلبة عن ياء فلو أميلت اليها انتقض غرض القلب وهو التخفيف *

وروى بعض عنه انه قرأ كباقى السبعة من غير امالة أصلا نظرا الى أن الطاء حرف استعلاء يمنع من الامالة، وقرأ حمزة باظهار نون سين لأنه فى الأصل لكونه أحد أسماء الحروف المقطعة منفصل عما بعده وأدغمها الباقون لما رأوها متصلة فى حكم كلمة واحدة خصوصا على القول بالعلمية، وقرأ عيسى بكسر الميم من (طسم) هنا وفى القصص، وجاء كذلك عن نافع، وفى مصحف عبد الله ط س م من غير اتصال وهى قراءة أبى جعفر ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ اشارة إلى السورة، وما فى ذلك من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة. والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر إعجازه على أنه من أبان بمعنى بان والكلام على تقدير مضاف أو على أن الاسناد فيه مجازى، وجوز أن يكون المبين من أبان المتعدى ومفعوله محذوف أى الأحكام الشرعية أو الحق، والأول أنسب بالمقام، والمعنى هذه آيات مخصوصة من القرآن مترجمة باسم مستقل، والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الجليلة، وقيل: الاشارة إلى القرآن والتأنيث لرعاية الخبر، والمراد بالكتاب السورة، والمعنى ءايات هذا القرءان المؤلف من الحروف المبسوطة كآيات هذه السورة المتحدى بها فانتم عجزتم عن الاتيان بمثل هذه السورة فحكم تلك الآيات كذلك وهو كما ترى. ومن الناس من فسر (الكتاب المبين) باللوح المحفوظ ووصفه بالمبين لاظهاره أحوال الأشياء للملائكة عليهم السلام والأولى ماسمعته اولا ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أى قاتل اياها من شدة الوجد كما قال الليث وأنشد قول الفرزدق:

Marfat.com

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشئ نحته عن يديه المقادر

وقال الأخفش. والفراء: يقال بخع يبخع بخعا وبخوعا أى أهلك من شدة الوجد وأصله الجهد، ومنه قول عائشة فى عمر رضى الله تعالى عنهما بخع الأرض أى جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك، وقال الكسائى: بخع الأرض بالزراعة جعلها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة؛ وقال الزمخشرى وتبعه المطرزى: أصل البخع أن تبلغ بالذبح البخاع بكسر الباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح، ولم يطلع على ذلك ابن الأثير مع مزيد بحثه ولا ضير فى ذلك *

وقرأ زيد بن على. وقتادة رحمهم الله تعالى (باخع نفسك) بالاضافة على خلاف الأصل فان الأصل فى اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل أن يعمل على ما أشار اليه سيبويه فى الكتاب، وقال الكسائى: العمل والاضافة سواء، وذهب أبو حيان إلى أن الاضافة أحسن من العمل، ولعل فى مثل هذا الموضع لاشفاق المتكلم، ولما استحال فى حقه سبحانه جعلوه متوجها إلى المخاطب، ولما كان غير واقع منه أيضا قالوا: المراد الامر به لدلالة الانكار المستفاد من سوق الكلام عليه فكأنه قيل: أشفق على نفسك أن تقتلها وجدا وحسرة على ما فاتك من اسلام قومك، وقال العسكرى: هى فى مثل هذا الموضع موضوعة موضع النهى، والمعنى لا تبخع نفسك، وقيل: وضعت موضع الاستفهام والتقدير هل أنت باخع، وحكى مثله عن ابن عطية إلا أنه قال: المراد الانكار أى لاتكن باخعا نفسك ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ تعليل للبخع. ولما لم يصح كون عدم كونهم فى المستقبل مؤمنين كما يفيده ظاهر الكلام علة لذلك لعدم المقارنة والعلة ينبغى أن تقارن المعلول قدروا خيفة فقالوا: خيفة أن لا يؤمنوا بذلك الكتاب المبين، ومن الأجلة من لم يقدر ذلك بناء على أن المراد لاستمرارهم على عدم قبول الايمان بذلك الكتاب لأن كلمة كان للاستمرار وصيغة الاستقبال اتأكيده وأريد استمرار النفى؛ وجوز أن يكون الكون بمعنى الصحة والمعنى لامتناع ايمانهم والقول بأن فعل الكون أتى به لأجل الفاصلة ليس بشىء *

وقوله تعالى ﴿إِن نَّشَأْ﴾ الخ استئناف لتعليل الأمر باشفاقه على نفسه ﷺ أو النهى عن البخع، ومفعول المشيئة محذوف وهو على المشهور ما دل عليه مضمون الجزاء، وجوز أن يكون مدلولا عليه بما قبل أى إن نشأ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ملجئة لهم إلى الايمان قاسرة عليه كما نتق الجبل فوق بنى اسرائيل وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر *

وقرأ أبو عمرو فى رواية هرون عنه (إن يشأ ينزل) على الغيبة والضمير له تعالى، وفى بعض المصاحف لو شئنا لانزلنا ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ أى منقادين وهو خبر عن الأعناق وقد اكتسبت التذكير وصفة العقلاء من المضاف اليه فاخبر عنها لذلك بجمع من يعقل كما نقله أبو حيان عن بعض أجلة علماء العربية *

واختصاص جواز مثل ذلك الشعر كما حكاه السيرافى عن النحويين مما لم يرتضه المحققون ومنهم أبو العباس وهو ممن خرج الآية على ذلك، وجوز أن يكون ذلك لما أنها وصفت بفعل لا يكون إلا مقصودا للعاقل وهو الخضوع كما فى قوله تعالى (رأيتهم لى ساجدين) وأن يكون الكلام على حذف مضاف وقد روعى بعد حذفه أى أصحاب أعناقهم، ولا يخفى أن هذا التقدير ركيك مع الاضافة إلى ضميرهم، وقال الزمخشرى:

Marfat.com

أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع لأنه يتراءى قبل التأمل لظهور الخضوع فى العنق بنحو الانحناء أنه هو الخاضع دون صاحبه وترك الجمع بعد الاقحام على ما كان عليه قبل: وقال الكسائى: إن خاضعين حال للضمير المجرور لا للاعناق ه

وتعقبه أبو البقاء فقال: هو بعيد فى التحقيق لأن (خاضعين) يكون جاريا على غير فاعل «ظلت» فيفتقر إلى إبراز ضمير الفاعل فكان يجب أن يكون خاضعين هم فافهم ، وقال ابن عباس . ومجاهد . وابن زيد . والأخفش : الاعناق الجماعات يقال : جاءنى عنق من الناس أى جماعة، والمعنى ظلت جماعاتهم أى جملتهم *

وقيل : المراد بها الرؤساء والمقدمون مجازا كما يقال لهم: رؤس وصدور فيثبت الحكم لغيرهم بالطريق الأولى، وظاهر كلامهم أن إطلاق العنق على الجماعة مطلقا رؤساء أم لا حقيقة وذكر الطيبى عن الاساس أن من المجاز أتانى عنق من الناس للجماعة المتقدمة وجاؤا رسلا رسلا وعنقا عنقا والكلام يأخذ بعضه باعناق بعض ثم قال : يفهم من تقابل رسلا رسلا لقوله: عنقا عنقا أن فى إطلاق الاعناق على الجماعات اعتبار الهيئة المجتمعة فيكون المعنى فظلوا خاضعين مجتمعين على الخضوع متفقين عليه لا يخرج أحد منهم عنه ه

وقرأ عيسى . وابن أبى عبلة (خاضعة) وهى ظاهرة على جميع الاقوال فى الأعناق بيد أنه إذا أريد بها ما هو جمع العنق بمعنى الجارحة كان الاسناد اليها مجازيا و«لها» فى القراءتين صلة ظلت أو الوصف والتقديم للفاصلة أو نحو ذلك لا للحصر ، وظلت عطف على ننزل ولا بد من تأويل أحد الفعلين بما هو من نوع الآخر لأنه وإن صح عطف الماضى على المضارع إلا أنه هنا غير مناسب فانه لا يترتب الماضى على المستقبل بالفاء التعقيبية أو السببية ولا يعقل ذلك والمعقول عكسه ، وبتأويل أحد الفعلين يدفع ذلك لكن اختار بعضهم تأويل ظلت بتظل وكأن العدول عنه اليه ليؤذن الماضى بسرعة الانفعال وأن نزول الآية لقوة سلطانه وسرعة ترتب ماذكر عليه كأنه كان واقعا قبله، وبعضهم تاويل ننزل بأنزلنا ، ولعل وضعه موضعه لاستحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة الملجئة إلى الايمان وحصول خضوع رقابهم عند ذلك فى ذهن السامع ليتعجب منه فتأمل *

وقرأ طلحة (فتظل) بفك الادغام ، والجزم وضعف الحريرى فى درة الغواص الفك فى مثل ذلك، ورجح صاحب الكشف القراءة بانها أبلغ لافادة الماضى ما سمعته . انفا، هذا والظاهر أنه لم يتحقق انزال هذه الآية لأن سنة الله تعالى تكليف الناس بالايمان من دون الجاء، نعم إذا قيل : المراد اية مذلة لهم كما روى عن قتادة جاز أن يقال بتحقق ذلك ، ولعل ما روى عن ابن عباس كما فى البحر والكشاف من قوله نزلت هذه الآية فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة ناظر إلى هذا ، وعن أبى حمزة الثمالى أن الآية صوت يسمع من السماء فى نصف شهر رمضان وتخرج له العواتق من البيوت، وهذا قول بتحقق الانزال بعد وكأن ذلك زمان المهدى رضى الله تعالى عنه ، ومن صحة ما ذكر من الأخبار فى القلب شئ والله تعالى أعلم *

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ماذكر من الآية الملجئة تأكيدا لصرف رسول الله

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم. ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم ، وجوز أن تكون تبعيضية، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو صفة لمقدر كما نشير اليه إن شاء الله تعالى ، والثانية لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر ، وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة مافعلوا به ه

والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فان الاعراض عما يأتيهم من جنابه جل وعلا على الاطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أى ما يأتيهم تذكير وموعظة أو طائفة من القرآن من قبله عز وجل بمقتضى رحمته الواسعة يجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا اعراضا عنه واستمروا على ما كانوا عليه ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على الحالية من مفعول (يأتيهم) باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أى ما يأتيهم من ذكر فى حال من الأحوال إلا حال كونهم معرضين عنه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ أى بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وتارة أساطير الأولين وأخرى شعراً ه

وقال بعض الفضلاء : أى فقد تموا على التكذيب وكان تكذيبهم مع ورود مايوجب الاقلاع من تكرير اتيان الذكر كتكذيبهم أول مرة ، وللتنبيه على ذلك عبر عنه بما يعبر عن الحادث. ويشعر باعتبار مقارنة الاستهزاء حسبما أشير اليه قوله تعالى ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ لاقتضائه تقدم الاستهزاء، وقيل : إن ذاك لدلالة الاعراض والتكذيب على الاستهزاء ، والمراد بانباء ذلك ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة وكل آت قريب ، وقيل : من عذاب يوم بدر أو يوم القيامة والأول أولى ، وعبر عن ذلك بالانباء لكونه مما أنبأ به القرءان العظيم أولانهم بمشاهدته يقفون على حقيقة حال القرءان كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الانباء . وفيه تهويل له لان النبأ يطلق على الخبر الخطير الذى له وقع عظيم أى فسيأتيهم لامحالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير ان يتدبروا فى أحواله ويقفوا عليها ه

وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ﴾ بيان لاعراضهم عن الآيات التكوينية بعد بيان اعراضهم عن الآيات التنزيلية، والهمزة للانكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أصروا على ماهم عليه من الكفر بالله تعالى وتكذيب مايدعوهم إلى الايمان به عز وجل ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية إلى الايمان به تعالى ، وقال أبو السعود بعد جعل الهمزة للانكار والعطف على مقدر يقتضيه المقام :أى افعلوا ما فعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عما فعلوا والداعية إلى الاقبال على ما أعرضوا عنه انتهى ه

وهو ظاهر فى أن الآية مرتبطة بما قبلها من قوله تعالى : (وما يأتيهم) الخ وهو قريب بحسب اللفظ إلا أن فيه أن النظر إلى عجائب الأرض لايظهر كونه زاجرا عن التكذيب بكون القرءان منزلا من الله عز وجل وداعيا إلى الاقبال اليه ، وقال ابن كمال :التقدير ألم يتأملوا فى عجائب قدرته تعالى ولم ينظروا انتهى ه

والظاهر أن الآية عليها بتداء كلام فافهم ،وقيل : هو بيان لتكذيبهم بالمعاد إثر بيان تكذيبهم بالمبدأ وكفرهم به عز وجل والعطف على مقدر أيضا، والتقدير أكذبوا بالبعث ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عن التكذيب بذلك والاول أولى وأظهر ، وأياما كان فالكلام على حذف مضاف كما أشير اليه ،وجوز أن

Marfat.com

يراد من الأرض عجائبها مجازا ؛ وقوله تعالى : ﴿ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ ﴾ استئناف مبين لما فى الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية إلى الايمان *

وكم خبرية فى موضع نصب على المفعولية بما بعدها وهى مفيدة للكثرة وجىء بكل معها لافادة الاحاطة والشمول فيفيد أن كثرة أفراد كل صنف صنف فيكون المعنى انبتنا فيها شيئا كثيرا من كل صنف على أن من تبعيضية أو كثرة الاصناف فيكون المعنى أنبتنا فيها شيئا كثيرا هو كل صنف على أن من بيانية ،وأياما كان فلا تكرار بينهما، وقد يقال :المعنى أو لم ينظروا إلى نفس الارض التى هى طبيعة واحدة كيف جعلناها منبتا لنباتات كثيرة مختلفة الطبائع وحينئذ ليس هناك حذف مضاف ولا مجاز ويكون قوله تعالى (كم أنبتنا فيها) الخ يدل اشتمال بحسب المعنى وهو وجه حسن فافهمه لئلا تظن رجوعه إلى ما تقدم واحتياجه إلى ما احتاج اليه من الحذف أو التجوز ، والزوج الصنف كما أشرنا اليه ،وذكر الراغب أن كل ما فى العالم زوج من حيث أن له ضدا ما أو مثلا ما او تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب، والكريم من كل شىء مرضيه ومحموده ، ومنه قوله: * حتى يشق الصفوف من كرمه * فانه أراد من كونه مرضيا فى شجاعته وهو صفة لزوج أى من كل زوج كثير المنافع وهى تحتمل التخصيص والتوضيح، ووجه الأول دلالته على ما يدل عليه غيره فى شأن الواجب تعالى وزيادة حيث يدل على النعمة الزاجرة لهم عما هم عليه أيضا ،ووجه الثانى التنبيه على أنه تعالى ماانبت شيئا إلا وفيه فائدة كما يؤذن به قوله تعالى:(هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) وأياما كان فالظاهر عدم دخول الحيوان فى عموم المنبت ،وذهب بعض إلى دخوله بناء على أن خلقه من الأرض إنبات له كما يشير اليه قوله تعالى : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) وعن الشعبى التصريح بدخول الانسان فيه ،فقد روى عنه أنه قال الناس · من نبات الارض فمن صار إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فبضد ذلك *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ اى الانبات أو المنبت ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة دالة على ما يجب عليهم الايمان به من شؤونه عز وجل ، وما ألطف ماقيل فى صف النرجس :

تأمل فى رياض الورد وانظر إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات على اهدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ٨ ﴾ قيل : أى وما كان فى علم الله تعالى ذلك .واعترض بناء على أنه يفهم من السياق العلية بأن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس. وورد بأن معنى كون علمه تعالى تابعا للمعلوم أن علمه سبحانه فى الأزل بمعلوم معين حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازه عن سائر العلوم إنما هو باعتبار أنه علم بهذه الماهية وأما وجود الماهية فيما لايزال فتابع لعلمه تعالى الأزلى التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها فى الأزل على هذه الخصوصية لزم أن تتحقق وتوجد فيما لايزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلى ووقوعه تابع له ، ونقل عن سيبويه إن (كان) صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين فالمراد الأخبار عن حالهم فى الواقع لا فى علم الله تعالى الأزلى وارتضاه شيخ الاسلام ، وقال: هو الأنسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاقد موجبات

Marfat.com

الايمان من جهته عز وجل وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر ويحتاج حينئذ إلى تحقيق عدم العذر بما يخفى على العلماء المتقنين، والمعنى على الزيادة وملأ كثرهم مؤمنين مع عظم الآية الموجبة للايمان لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة. ويجوز على قياس مامر عن بعض الأجلة فى قوله تعالى : (أن لا يكونوا مؤمنين) أن يقال : إن « كان » للاستمرار واعتبر بعد النفى فالمراد استمرار نفى إيمان أكثرهم مع عظم الآية الموجبة لايمانهم، وفيه من تقبيح حالهم مافيه ه

وهذا المعنى وان تأتى على تقدير اسقاط « كان » بأن يعتبر الاستمرار الذى تفيده الجملة الاسمية بعد النفى أيضا الا أنه فرق بين الاستمرارين بعد اعتبار كان قوة وضعفا فتدبر ، ونسبة عدم الايمان الى أكثرهم لأن منهم من لم يكن كذلك ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى الغالب على كل مايريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء الكفرة ﴿ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ أى البالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات أو العزيز فى انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وءامن أو العزيز فى انتقامه من الكفرة الرحيم لك بان يقدر من يؤمن بك ان لم يؤمن هؤلاء، والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام والعدة الخفية له صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى ، وتقديم العزيز لأن ما قبله أظهر فى بيان القدرة أو لأنه أدل على دفع المضار الذى هو أهم من جلب المصالح ه

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ كلام مستأنف مقرر لسوء حالهم ومسل له ﷺ أيضا لكن بنوع آخر من أنواع التسلية على ماقيل : و« إذ » منصوب على المفعولية بمقدر خوطب به النبى ﷺ معطوف على ماقبله عطف القصة على القصة ، والتقدير عند بعض واذكر فى نفسك وقت ندائه تعالى أخاك موسى عليه السلام وما جرى له مع قومه من التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات لتعلم أن تكذيب الأمم لأنبيائهم ليس باول قارورة كسرت ولا باول صحيفة نشرت فيهون عليك الحال وتستريح نفسك مما أنت فيه من البلبال ه

وعند شيخ الاسلام واذكر لقومك وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه عليه السلام زاجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بهم حتى يتضح لديك أنهم فى غاية العناد والاصرار لايردعهم أخذ اضرابهم من المكذبين الأشرار ولا يؤثر فيهم الوعظ والانذار ، وهذا التقدير يناسب صدر القصة الآتية أعنى قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابراهيم) والأول يناسب القصص المصدرة بكذبت على ما قيل *

والأظهر عندى تقدير واذكر لقومك لوضوح اقتضاء (واتل عليهم) له. ولانسلم اقتضاء تلك القصص المصدرة بكذبت تقدير اذكر فى نفسك وأمر المناسبة مشترك وإن سلم اختصاصها به فهى لاتقاوم الاقتضاء المذكور . نعم الأظهر أن يكون وجه التسلى بماذكر كونه عليه الصلاة والسلام ليس بدعا من الرسل ولا قومه بدعا من الأقوام فى التكذيب مع ظهور الآيات وسطوع المعجزات وقد تضمن الأمر بذكر ذلك لهم الأمر بالتسلى به على أتم وجه فتدبر . وأياما كان فوجه توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه قدر مراراً . وقيل : إن ذلك المقدر معطوف على مقدر ءاخر أى خذ الآيات أو ترقب اتيان الأنباء واذكر وهو تكلف لا حاجة اليه . وقيل : « إذ » ظرف لقال بعد وليس بذاك . ومعنى نادى دعا . وقيل :

Marfat.com

أمر ﴿أَنْ ائْتِ﴾ أى بأن ائت على أن ان مصدرية حذف عنها حرف الجر أو أى ائت على أنهـــا مفسرة ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ بالكفر والمعاصى. واستعباد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ماورد فى حيز النداء وإنما هو مافصل فى سورة طه من قوله تعالى «إنى أناربك» إلى قوله سبحانه «لنريك من ءاياتنا الكبرى» وسنة القرءان الكريم إيراد ماجرى فى قصة واجدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة لاقتضاء المقام مايكون فيه من العبارات كما حقق فى موضعه ٭

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ عطف بيان للقوم الظالمين جىء به للايذان بانهم علم فى الظلم كان معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون ، وقال أبو البقاء :بدل منه ، ورجح أبوحيان الأول بانه أقضى لحق البلاغة لايذانه بما سمعت ، ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون أولى بما ذكر وقد خص فى بعض المواضع للدلالة على ذلك ، وجوز أن يقال قوم فرعون شامل له شمول بنى آدم آدم عليه السلام ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾ حال بتقدير القول أي ائتهم قائلا لهم ألا يتقون ٭

وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار . وشقيق بن سلمة . وحماد بن سلمة . وأبو قلابة بتاء الخطاب ، ويجوز فى مثل ذلك الخطاب والغيبة فيقال قل لزيد تعطى عمرا كذا ويعطى عمرا كذا . وقرىء بكسر النون مع الخطاب والغيبة والأصل يتقوننى فحذفت إحدى النونين لاجتماع المثلين وحذفت ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة .وقول موسى عليه للسلام ذلك بطريق النيابة عنه عز وجل نظير مافى قوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب) فكأنه قيل : ائتهم قائلا قولى لهم ألا تتقوننى ، وقال الزمخشرى هو كلام مستأنف اتبعه عز وجل إرساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبا لموسى عليه السلام من حالهم التى شنعت فى الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله عز وجل، وقراءة الخطاب على طريقة الالتفات اليهم وجبههم وضرب وجوههم بالانكار والغضب عليهم ،وإجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى إجرائه بحضرتهم والقائه فى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس فلا يضر كونهم غيبا حقيقة فى وقت المناجاة، وفيه مزيد حث على التقوى لمن تدبر وتأمل انتهى ، والاستئناف عليه قيل: بيانى بتقدير لم هذا الأمر؟ ، وقيل: هو نحوى إذ لاحاجة إلى هذا السؤال بعد ذكرهم بعنوان الظلم ودفع بالعناية ،ولعل ما ذكرناه أسرع تبادرا إلى الفهم٭

وقال أيضا: يحتمل أن يكون (لا يتقون) حالا من الضمير فى (الظالمين) أى يظلمون غير متقين الله تعالى وعقابه عز وجل فادخلت همزة الانكار على الحال دلالة على إنكار عدم التقوى والتوبيخ عليه ليفيد إنكار الظلم من طريق الأولى فان فائدة الاتيان بهذه الحال الاشعار بان عدم التقوى هو الذى جرأهم على الظلم ٭

وتعقبه أبو حيان بانه خطا فاحش لأن فيه مع الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبي لزوم اعمال ماقبل: الهمزة فيما بعدها. وأجيب بمنع كون الفاصل أجنبيا وأنه يتوسع فى الهمزة وهو كما ترى، وجوز أيضا فى (ألا يتقون) بالياء التحتية وكسر النون أن يكون بمعنى ألا ياناس اتقون نحو قوله تعالى : (ألا يسجدوا) فتكون (ألا) كلمة واحدة للعرض ويا ندائية سقطت الفها لالتقاء الساكنين وحذف المنادى ومابعده فعل أمر ويكون اسقاط الألفين مخالفا للقياس، ولا يخفى أنه تخريج بعيد وأن الظاهر أن ألا للعرض المضمن الحض على التقوى فى جميع القراءات

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل : فماذا قال موسى عليه السلام؟ فقيل: قال متضرعا الى الله عز وجل ٭

Marfat.com

﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢﴾ من أول الأمر ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ معطوفان على خبر إن فيفيد أن فيه عليه السلام ثلاث علل · خوف التكذيب .وضيق الصدر. وامتناع انطلاق اللسان والظاهر ثبوت الامرين الاخيرين فى أنفسهما غير متفرعين على التكذيب ليدخلا تحت الخوف لكن قرأ الأعرج . وطلحة . وعيسى . وزيد بن على . وأبو حيوة . وزائدة عن الأعمش . ويعقوب بنصب الفعلين عطفا على (يكذبون) فيفيد دخولهما تحت الخوف ولان الاصل توافق القراءتين قيل انهما متفرعان على ذلك كأنه قيل : رب انى أخاف تكذيبهم اياى ويضيق صدرى انفعالا منه ولاينطلق لسانى من سجن اللكنة وقيد العى بانقباض الروح الحيوانى الذى تتحرك به العضلات الحاصل عند ضيق الصدر واغتمام القلب، والمراد حدوث تلجلج اللسان له عليه السلام بسبب ذلك كما يشاهد فى كثير من الفصحاء إذا اشتد غمهم وضاقت صدورهم فان ألسنتهم تتلجلج حتى لا تكاد تبين عن مقصود ،هذا إن قلنا: إن هذا الكلام كان بعد دعائه عليه السلام بحل العقدة واستجابة الله تعالى له بازالتها بالكلية أو المراد ازدياد ماكان فيه عليه السلام إن قلنا :إنه كان قبل الدعاء أو بعده لكن لم تزل العقدة بالكلية وإنما انحل منها ماكان يمنع من أن يفقه قوله عليه السلام فصار يفقه قوله مع بقاء يسير لكنة ، وقال بعضهم: لاحاجة إلى حديث التفرع بل هما داخلان تحت الخوف بالعطف على (يكذبون) كما فى قراءة النصب وذلك بناء على ماجوزه البقاعى من كون (أخاف) بمعنى اعلم أو أظن فتكون أن مخففة من الثقيلة لوقوعها بعد مايفيد علما أوظنا، ويلتزم على هذا كون (أخاف) فى قراءة النصب على ظاهره لئلا تأبى ذلك ويدعى اتحاد المآل ، وحكى أبو عمرو الدانى عن الأعرج أنه قرأ بنصب (يضيق) ورفع (ينطلق) ، والكلام فى ذلك يعلم مما ذكر، وأياما كان فالمراد من ضيق الصدر ضيق القلب وعبر عنه بماذكر مبالغة ويراد منه الغم ، ثم هذا الكلام منه عليه السلام ليس تشبثا باذيال العلل والاستعفاء عن امتثال أمره عز وجل وتلقيه بالسمع والطاعة بل هو تمهيد عذر فى استدعاء عون له على الامتثال واقامة الدعوة على أتم وجه فان ماذكره ربما يوجب اختلال الدعوة وانتباذ الحجة وقد تضمن هذا الاستدعاء قوله تعالى ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣﴾ كأنه قال أرسل جبريل عليه السلام إلى هرون واجعله نبيا وآزرنى به واشدد به عضدى لان فى الارسال اليه عليه السلام حصول هذه الاغراض كلها لكن بسط فى سورة القصص واكتفى ههنا بالاصل عما فى ضمنه •

ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع (فارسل) معترضا بين الاوائل والرابعة أعنى (ولهم) الخ فاذن بتعلقه بها ولو كان تعللا لآخر وليس أمره بالاتيان مستلزما لما استدعاه عليه السلام، وتقدير مفعول (أرسل) ماأشرنا اليه قد ذهب اليه غير واحد ، وبعضهم قدر ملكا إذ لاجزم فى أنه عليه السلام كان يعلم إذ ذاك أن جبريل عليه السلام رسول الله عز وجل إلى من يستنبئه سبحانه من البشر ، وفى الخبر أن الله تعالى أرسل موسى إلى هرون وكان هرون بمصر حين بعث الله تعالى موسى نبيا بالشام ، وأخرج ابن أبى حاتم .عن السدى قال: أقبل موسى عليه السلام إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلا فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم فى ليلة كانوا يأكلون الطفيشل (١) فنزلت فى جانب الدار فجاء هرون عليه السلام فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فاخبرته

(١) كسميذع نوع من المرق قاموس •

Marfat.com

أنه ضيف فدعاه فاكل معه فلما قعدا تحدثا فسأله هرون من أنت؟ قال: أنا موسى فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى. ياهرون انطلق معى إلى فرعون فان الله تعالى قد أرسلنا اليه قال هرون: سمعا وطاعة فقامت أمهم فصاحت وقالت: أنشدكما بالله تعالى أن لاتذهبا إلى فرعون فيقتلكما فابيا فانطلقا اليه ليلا الخبر والله تعالى أعلم بصحته ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ ﴾ أى تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أوسمى باسمه مجازا بعلاقة السببية، والمراد به قتل القبطى خباز فرعون بالوكزة التى وكزها وقصته مبسوطة فى غير موضع، وتسميته ذنبا بحسب زعمهم بما ينبئ عنه قوله تعالى لهم ﴿ فَأَخَافُ ﴾ ان آتيتهم وحدى ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ١٤ ﴾ بسبب ذلك، ومراده عليه السلام بهذا استدفاع البلية خوف فوات مصلحة الرسالة وانتشار أمرها كما هو اللائق بمقام أولى العزم من الرسل عليهم السلام فانهم يتوقون لذلك كما كان يفعل ﷺ حتى نزل عليه (والله يعصمك من الناس)، ولعل الحق أن قصد حفظ النفس معه لا ينافى مقامهم ٠

وفى الكشاف أنه عليه السلام فرق أن يقتل قبل أداء الرسالة، وظاهره أنه وإن كان نبيا غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدى الرسالة واليه ذهب بعضهم لاحتمال أنه إنما أمر بذلك بشرط التمكين مع أن الله تعالى نسخ ذلك قبله، وقال الطيبى: الأقرب أن الأنبياء عليهم السلام يعلمون إذا حملهم الله تعالى على أداء الرسالة أنه سبحانه يمكنهم وأنهم سيبقون إلى ذلك الوقت وفيه منع ظاهر، وفى الكشف أنه على القولين يصح قول الزمخشرى فرق الخ لأن ذلك كان قبل الاستنباء فان النداء كان مقدمته ولاأظنك تقول به، وقوله تعالى:

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ إجابة له عليه السلام إلى الطلبتين حيث وعده عز وجل دفع بلية الأعداء بردعه عن الخوف وضم اليه أخاه بقوله: (اذهبا) فكأنه قال له عز وجل: ارتدع عن خوف القتل فانك بأعيننا فاذهب أنت وأخوك هرون الذى طلبته، وجاء النشر على عكس اللف لاختصاص ماقدم بموسى عليه السلام وظاهر السياق يقتضى عدم حضور هرون فى الخطاب المذكور تغليب والفعل معطوف على الفعل الذى يدل عليه (كلا) كما أشرنا اليه، وقيل: الفاء فصيحة، والمراد بالآيات مابعثهما الله تعالى به من المعجزات وفيها رمز إلى أنها تدفع مايخافه، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ١٥ ﴾ تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى: (إننى معكما أسمع وأرى) والخطاب لموسى وهرون ومن يتبعهما من بنى إسرائيل فيتضمن الكلام البشارة بالاشارة إلى علو أمرهما واتباع القوم لهما، وذهب سيبويه إلى أنه لهما عليهما السلام ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عوملا فى الخطاب معاملة الجمع، واعترض بأنه يأباه مابعده وماقبله من ضمير التثنية، وقيل: هو لهما عليهما السلام ولفرعون واعتبر لكون الموعود بمحضر منه وإن شئت ضم إلى ذلك قوم فرعون أيضا، واعترض بأن المعية العامة ـ أعنى المعية العلمية ـ لاتختص بأحد لقوله تعالى: (ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلا هو معهم) والمعية الخاصة وهى معية الرأفة والنصرة لاتليق بالكافر ولو بطريق التغليب، وأجيب بأن خصوص المعية لايلزم أن يكون بما ذكر بل بوجه آخر وهو تخليص احد المتخاصمين من الآخر بنصرة المحق والانتقام من المبطل، وأيا ما كان فالظرف فى موضع الخبر لان و(مستمعون) خبر ثان أو الخبر (مستمعون) والظرف متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالا من ضميره وتقديمه للاهتمام أو

Marfat.com

الفاصلة أو الاختصاص بناء على أن يراد بالمعية الاستماع فى حقه عز وجل وهو مجاز عن السمع اختير للمبالغة لأن فيه تسلما للادراك وهو مما ينزه الله تعالى عنه سواء كان بحاسة أم لا فسقط ماقيل من أن السمع فى الحقيقة إدراك بحاسة فان أريد به مطلق الادراك فالاستماع مثله فلا حاجة إلى التجوز فيه ،وإلى التجوز هنا ذهب غير واحد ، وقال بعضهم : (إنا معكم مستمعون) جملة استعارة تمثيلية مثل سبحانه حاله عز وجل بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع مايجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالاعانة وحينئذ لاتجوز فى شىء من مفرداته ولا يكون (مستمعون) مطلقا عليه تعالى فلا يحتاج إلى جعله بمعنى سامعين إلا أن يقال : إنه فى المستعار منه كذلك لأن المقصود السمع دون الاستماع الذى قد لا يوصل اليه لكنه كما ترى ●

وجوز أن يكون (إنا معكم) فقط تمثيلا لحاله عز وجل فى نصره وإمداده بحال من ذكر ويكون الاستماع مجازا عن السمع وهو بحسب ظاهره لكونه لم يطلق عليه سبحانه كالسمع كالقرينة وإن كان مجازا والقرينة فى الحقيقة عقلية وهى استحالة حضوره تعالى شأنه فى مكان ، ولابد على هذا من أن يقال : إن الاستماع المذكور فى تقرير التمثيل ليس هو الواقع فى النظم الكريم بل هو من لوازم حضور الحكم للخصومة وفيه بعده ثم إن ما ذكروه وإن كان مبنيا على جعل الخطاب لموسى وهرون وفرعون يمكن اجراؤه على جعله لهما عليهما السلام ولمن يتبعهما أولها فقط أيضا بادنى عناية فافهم ولا تغفل ●

وزعم بعضهم إن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل ،والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون وهو مما لا ينبغى أن يستمع ، ولابد فى الكلام على هذا التقدير من إرادة الاعانة والنصرة وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم لا يطيب قلب موسى عليه السلام ●

والفاء فى قوله تعالى ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها من الوعد الكريم ، وليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معناه الوصول إلى المأتى لا مجرد التوجه إلى المأتى كالذهاب ● وأفرد الرسول هنا لأنه مصدر بحسب الأصل وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة كرجل عدل فيجرى فيه كما يجرى فيه من الأوجه ، ولا يخفى الأوجه منها ، وعلى المصدرية ظاهر قول كثير عزة :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

وأظهر منه قول العباس بن مرداس :

إلا من مبلغ عنى خفافا رسولا بيت أهلك منتهاها(١)

أو لاتحادهما للاخوة أو لوحدة المرسل أو المرسل به أو لأن قوله تعالى (إنا) بمعنى إن كلا منا فصح إفراد الخبر كما يصح فى ذلك ، وفائدته الاشارة إلى أن كلا منهما مأمور بتبليغ ذلك ولو منفرداً ، وفى التعبير برب العالمين رد على اللعين ونقض لما كان أبرمه من ادعاء الألوهية وحمل لطيف له على امتثال الأمر ،و(أن) فى قوله تعالى ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٧﴾ مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ،وجوز أبو حيان كونها مصدرية على معنى انا رسوله عزوجل بالأمر بالارسال وهو بمعنى الاطلاق والتسريح كما فى قولك: أرسلت الحجر من يدى وأرسل الصقر ، والمراد خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنهم اه عليهما

(١) حيث أنث الضمير باعتبار الرسالة اه منه

Marfat.com

السلام، وكان بنو اسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة وكانت عدتهم حين أرسل موسى عليه السلام ستمائة وثلاثين ألفاً على ماذكره البغوى *

﴿قَالَ﴾ أى فرعون لموسى عليه السلام بعد ماأتياه وقالاله ماأمرا به ، ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب : إن ههنا انسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه فأذن له فدخلا فاديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عندذلك ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ وفى خبر آخر أنهما أتيا ليلا فقرع الباب ففزع فرعون وقال : من هذا الذى يضرب بابى هـذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب فكلمهما فقال له موسى : إنا رسول رب العالمين فأتى فرعون وقال : إن ههنا إنسانا مجنونا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال : أدخله فدخل فقال ماقص الله تعالى، وأراد اللعين من قوله (ألم نربك)الخ الامتنان، و(فينا) على تقدير المضاف أى منازلنا ، والوليد فعيل بمعنى مفعول يقال لمن قرب عهده بالولادة ، وإن كان على ماقال الراغب : يصح فى الأصل لمن قرب عهده أو بعد كما يقال لماقرب عهده بالاجتناء جنى فاذا كبر سقط عنه هذا الاسم ، وقال بعضهم : كان دلالته على قرب العهد من صيغة المبالغة ، وكون الولادة لاتفاوت فيها نفسها ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام به عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين ، وقيل : لبث فيهم اثنتى عشرة سنة ففر بعد أن وكز القبطى إلى مدين فأقام به عشر سنين يرعى غنم شعيب عليه السلام ثم ثمانى عشرة سنة بعد بنائه على امرأته بنت شعيب فكمل له أربعون سنة فبعثه الله تعالى وعاد اليهم يدعوهم اليه عز وجل والله تعالى أعلم *

وقرأ أبو عمرو فى رواية (من عمرك) باسكان الميم ،والجار والمجرور فى موضع الحال من (سنين) كما هو المعروف فى نعت النكرة إذا قدم ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعنى قتل القبطى . وبخه به بعد ماامتن وعظمه عليه بالابهام الذى فى الموصول، وأراد فى ذلك القدح فى نبوته عليه السلام . وقرأ الشعبى (فعلتك) بكسر الفاء يريد الهيئة وكانت قتلة بالوكز، والفتح فى قراءة الجمهور لارادة المرة ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩﴾ أى بنعمتى حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى كما روى عن ابن زيد أو وأنت حينئذ من جملة القوم الذين تدعى كفرهم الآن كما حكى عن السدى ، وهذا الحكم منه بناء على ماعرفه من ظاهر حاله عليه السلام إذذاك لاختلاطه بهم والتقية معهم بعدم الانكار عليهم وإلا فالأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل النبوة وبعدها ، وقيل : كان ذلك افتراء منه عليه عليه السلام ، واستبعد بانه لو علم بايمانه أولا لسجنه أوقتله ، والجملة على الاحتمالين فى موضع الحال من إحدى التائين فى الفعلين السابقين *

وجوز أن يكون ذلك حكما مبتدأ عليه عليه السلام بانه من الكافرين بالهيته كما روى عن الحسن أو ممن يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونهم أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لايكون مثل هذه الجناية بدعا منه، فالجملة مستأنفة أو معطوفة على ماقبلها، والاولى عندى ماتقدم من جعل الجملة حالا لتكون مع نظيرتها فى الجواب على طرز واحد لتعين الحالية هناك ولما يتضمن كلام اللعين أمرين تصدى عليه

Marfat.com

السلام لردهما على سبيل اللف والنشر المشوش فرد أولا ماوبخه به قدحا فى نبوته أعنى قوله (وفعلت فعلتك) الخ اعتناء بذلك واهتماماً به وذلك بما حكاه سبحانه عنه بقوله جل وعلا ﴿ فَعَلَتُهَآ ﴾ أى تلك الفعلة ﴿ اذاً ﴾ أى إذ ذاك على ما آثره بعض المحققين سقى الله تعالى ثراه من أن «إذا» ظرف مقطوع عن الاضافة مؤثرا فيه الفتحة على الكسرة لخفتها وكثرة الدور ،وأقر عليه السلام بالقتل لثقته بحفظ الله تعالى له ،وقيد الفعل بما يدفع كونه قادحا فى النبوة وهو جملة ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّآلِّينَ ٢٠ ﴾ اى من الجاهلين وقد جاء كذلك فى قراءة ابن عباس. وابن مسعود كما نقله أبو حيان فى البحر لكنه قال: ويظهر أن ذاك تفسير للضالين لاقراءة مروية عن الرسول ﷺ ،وأراد عليه السلام بذلك على ماروى عن قتادة أنه فعل ذلك جاهلا به غير متعمد اياه فانه عليه السلام إنما تعمد الوكز للتأديب فادى إلى ماادى ،وفى معنى ماذكر ماروى عن ابن زيد من أن المعنى وأنا من الجاهلين بأن وكزتى تأتى على نفسه ، وقيل : المعنى فعلتها مقدما عليها من غير مبالاة بالعواقب على أن الجهل بمعنى الاقدام من غير مبالاة كما فسر بذلك فى قوله * الا لايجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا ه وهذا مما يحسن على بعض الاوجه فى تقرير الجواب المذكور، قيل: إن الضلال ههنا المحبة كما فسر بذلك فى قوله تعالى «إنك لفى ضلالك القديم» وعنى عليه السلام أنه قتل القبطى غيرة لله تعالى حيث كان عليه السلام من المحبين له عز وجل وهو كما ترى، ومثله ماقيل أراد من الجاهلين بالشرائع ،وفسر الضلال بذلك فى قوله تعالى «ووجدك ضالا فهدى»، وقال أبو عبيدة: من الناسين، وفسر الضلال بالنسيان فى قوله تعالى «أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى» وعليه قيل المراد فعلتها ناسيا حرمتها ، وقيل : ناسيا أن وكزى ذلك مما يفضى إلى القتل عادة ،والذى أميل اليه من بين هذه الاقوال ما روى عن قتادة، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى سورة القصص مايتعلق بهذا المقام *

وأخرج أبو عبيد . وابن المنذر . وابن جرير عج عن ابن مسعود أنه قرأه فعلتها إذا نا من الضالين» ﴿ فَفَرَرْتُ ﴾ أى خرجت هاربا ﴿ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أى حين توقعت مكروها يصيبنى منكم وذلك حين قيل له «ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» ومن هنا يعلم وجه جمع ضمير الخطاب ، وقرأ حمزة فى رواية لما بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام حرف جر وما مصدرية أى لخوفى إياكم ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ أى نبوة أو علما وفهما للاشياء على ماهى عليه والاول مروى عن السدى ،وتأول بعضهم ذلك بأنه أراد علما هو من خواص النبوة فيكون الحكم بهذا المعنى اخص منه بالمعنى الثانى ، وقرأ عيسى (حكما) بضم الكاف ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢١ ﴾ اشارة على ظاهر الاول من تفسيرى الحكم إلى تفضله تعالى عليه برتبة هى فوق رتبة النبوة أعنى رتبة الرسالة ولم يقل فوهب لى ربى حكما ورسالة أو وجعلنى رسولا اعظاما لامر الرسالة وتنبيها لفرعون على أن رسالته عليه السلام ليس أمرا مبتدعا بل هو مما جرت به سنة الله تعالى شأنه ، وحاصل الرد أن ماذكرت من نسبة القتل إلى مسلم لكنه ليس مما أوبخ به ويقدح فى نبوتى لأنه كان قبل النبوة من غير تعمد حيث كان الوكز للتأديب وترتب عليه ذلك ،ورد ثانيا امتنانه الذى تضمنه قوله: (ألم نربك فينا وليدا) الخ فقال: ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أى التربية المفهومة من قوله: (ألم نربك) الخ ﴿ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ﴾ أى تنعم بها ﴿ عَلَىَّ ﴾ فهو من باب الحذف والايصال، وتمن من المنة بمعنى الانعام والمضارع لاستحضار الصورة ، وجوز أن يكون من المن والمعنى تلك نعمة تعدها على فليس

Marfat.com

هناك حذف وإيصال، والمضارع قيل على ظاهره من الاستقبال وفيه منع ظاهر ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى اسْرَائِيلَ ٢٢﴾ أى ذللتهم واتخذتهم عبيداً يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا. قال الشاعر :

علام يعبدنى قومى وقد كثرت فيهم أباعر ماشاؤا وعبدان ؟

وأن ومابعدها فى تأويل مصدر مرفوع على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة حالية أو مفسرة أو على أنه بدل من (تلك) أو نعمة أو عطف أو منصوب على أنه بدل من الهاء فى (تمنها) أو مجرور بتقدير الباء السببية أو اللام على أحد القولين فى محل ان ومابعدها بعد حذف الجار ، والقول الآخر ان محله النصب ، وحاصل الرد إن ما ذكرت نعمة ظاهراً وهى فى الحقيقة نقمة حيث كانت بسبب اذلال قومى وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ولولا ذلك لم أحصل بين يديك ولم أكن فى مهد تربيتك ، وقيل: «تلك» إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ماهى إلا بتفسيرها و(أن عبدت) عطف بيان لها ، والمعنى تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على ، وحاصل الرد انكار ماامتن به أيضا . ويريد حمل الكلام على رد كون ذلك نعمة فى الحقيقة قراءة الضحاك « وتلك نعمة مالك أن تمنها على» ، وإلى ذلك ذهب قتادة وكذا الأخفش . والفراء إلا أنهما قالا بتقدير همزة الاستفهام للانكار بعد الواو ، والأصل وأتلك نعمة الخ ، وأبى بعض النحاة حذف حرف الاستفهام فى مثل هذا الموضع . وقال أبو حيان : الظاهر أن هذا الكلام إقرار منه عليه السلام بنعمة فرعون كأنه يقول : وتربيتك إياى نعمة على من حيث أنك عبدت غيرى وتركتنى واتخذتنى ولداً لكن لايدفع ذلك رسالتى. وإلى هذا التأويل ذهب السدى . والطبرى وليس بذاك *

وأياما كان فالآية ظاهرة فى أن كفر الكافر لايبطل نعمته . وذهب بعضهم أن الكفر يبطل النعمة لئلا يجتمع استحقاق المدح واستحقاق الذم ، وفيه أنه لاضير فى ذلك لاختلاف جهتى الاستحقاقين . هذا وذهب الزمخشرى إلى أن «اذا» فى قوله تعالى «فعلتها اذا» جواب وجزاء وبين وجه كون الكلام جزاء بقوله: قول « وفعلت فعلتك» فيه معنى انك جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى عليه السلام : نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله كان نعمته عنده جديرة بان تجازى بنحو ذلك الجزاء *

واعترض بأن هذا لايلائم قوله (وأنا من الضالين) لأنه يدل على أنه اعترف بأنه فعل ذلك جاهلا أو ناسيا . وفى الكشف تحقيق ماذكره الزمخشرى أن الترتيب الذى هو معنى الشرط والجزاء حاصل ولما كانا ماضيين كان ذلك تقديريا كأنه قال: إن كان ذلك كفرانا بنعمتك فقد فعلته جزاء ، ولكن الوصف أى كونه كفرانا غير مسلم . وأمده بقوله: «وتلك نعمة تمنها» وفيه القول بالموجب أيضا . وقوله: (وأنا من الضالين) على هذا كأنه اعتذار ثان أى كنت تستحق ذلك عندى وأيضا كنت من الحائدين عن منهج الصواب لافى اعتقاد استحقاق مكافأة صنيعك بمثل تلك ولكن فى الاقدام قبل الاذن من الملك العلام ، والحاصل أنه نسبه إلى مقابلة الاحسان بالاساءة وقررها بكونه كافراً ، فأجاب عليه السلام بأن المقابلة حاصلة ولكن أين الاحسان وما كنت كافرا بك فانه عين الهدى بل ضالا فى الاقدام على الفعل وما كنت كافراً لنعمة منعم أصلا ولكن كنت فاعلا لذلك خطأ ، ومنه ظهر أن قوله: (وأنامن الضالين) لاينافى تقرير الزمخشرى بل يؤيده اه *

Marfat.com

ولا يخفى أن الأوفق بحديث الجزاء أن يكون المراد بقوله : فعلتها وأنا من الضالين فعلتها مقدما عليها من غير مبالاة على أن الضلال بمعنى الجهل المفسر بالاقدام من غير مبالاة لـكن التزام كون (إذاً) هنا للجواب والجزاء التزام ما لا يلزم فان الصحيح الذى قال به الأكثرون أنها قد تتمحض للجواب ، وفى البحر أنهم حملوا ما فى هذه الآية على ذلك ،وتوجيه كونها للجزاء فيها بما ذكر لا يخلو عن تـكلف، والأظهر عندى معنى ما آثره بعض أفاضل المحققين من أنها ظرف مقطوع عن الاضافة ولا أرى فيه مايقال سوى أنه معنى لم يذكره أكثر علماء العربية.وهم لم يحيطوا بكل شىء علما ،وإن أبيت هذا فهى للجواب فقط ، ومن العجيب قول ابن عطية : إنها هنا صلة فى الـكلام ثم قوله :وكأنها بمعنى حينئذ ولو اكتفى به على أنه تفسير معنى لكان له وجه فتأمل ، والله تعالى أعلم ٠

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ مستفهما عن المرسل سبحانه ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣﴾ وتحقيق ذلك على ما قال العلامة الطيبي . أنه عز وجل لما امرهما بقوله سبحانه :(فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ٠ أن أرسل معنا بنى إسرائيل) فلا بد أن يكونا ممتثلين مؤديين لتلك الرسالة بعينها عند اللعين فلما أديت عنده اعترض أولا بقوله:(ألم نربك فينا وليدا) إلى آخره وثانيا بقوله :(ومارب العالمين) ولذلك جىء بالواو العاطفة وكرر قال للطول فـكأنه قال : أأنت الرسول ومارب العالمين ؟ وقال الزمخشرى : إن اللعين لما قال له بوابه : إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : وما رب العالمين ؟ واعترض بانه نظم مختل لسبق المقاولة بينهم كما أشار اليه هو فى سابق كلامه.وانتصر له صاحب الـكشف فقال : أراد أنه تعالى ذكر مرة (فقولا انا رسولا ربك أن أرسل) وأخرى (فقولا انا رسول رب العالمين) والقصة واحدة والمجلس واحد فحمله على أن الثانى ماأداه البواب من لسانه عليه السلام والأول ماخاطبه به موسى عليه السلام مشافهة وأن اللعين أخذ أولا فى الطعن فيه وان مثله ممن قرف برذائل الأخلاق لا يرشح لمنصب عال فضلا عما ادعاه ؛ وثانيا فى السؤال عن شأن من ادعى الرسالة عنـــه استهزاء، ومن هذا تبين أن سبق المقاولة لا يدل على اختلال النظم الذى أشار اليه انتهى ٠

وجوز بعضهم وقوع الأمر مرتين وان فرعون سأل أولا بقوله.(فمن ربكما يا موسى)وسأل ثانيا بقوله (ومارب العالمين) وقد قص الله تعالى الأول فيما أنزل جل وعلا أولا وهو سورة طه والثانى فيما أنزله سبحانه ثانيا وهو سورة الشعراء، فقد روى عن ابن عباس أن سورة طه نزلت ثم الواقعة ثم طسم الشعراء.،وقال آخر: يحتمل أنهما إنما قالا :(إنا رسول رب العالمين) والاقتصار فى سورة طه على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لـكفايته فيما هو المقصود، وعلى القول بوقوع الأمر مرتين قيل : ان فرعون سأل فى المرة الأولى بقوله: (من ربكما) طلبا للوصف المشخص كما يقتضيه ظاهر الجواب خلافا للسكاكى فى دعواه أنه سؤال عن الجنس كانه قال :أبشر هو أم ملك أم جنى ؟ والجواب من الأسلوب الحـكيم وأخرى بما رب العالمين طلبا للماهية والحقيقة انتقالا لما هو أصعب ليتوصل بذلك الى بعض أغراضه الفاسدة حسبما قص الله تعالى بعد،و(ما) يسئل بها عن الحقيقة مطلقا سواء كان المسئول عن حقيقته من أولى العلم أولا فلا يتوهم أن حق الـكلام حينئذ أن يقال من رب العالمين ؟حتى يوجه بانه لانـكار اللعين له عز وجل عبر بما ، ولما كان السؤال عن الحقيقة مما لا يليق بجنابه جل وعلا ٠

Marfat.com

﴿قَالَ﴾ عليه السلام عادلا عن جوابه الى ذكر صفاته عز وجل على نهج الأسلوب الحكيم اشارة الى تعذر بيان الحقيقة ﴿رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والكلام فى امتناع معرفة الحقيقة وعدمه قد مر عليك فتذكر ، ورفع (رب) على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو رب السموات والأرض وما بينهما من العناصر والعنصريات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٢٤﴾ أى ان كنتم موقنين بالأشياء محققين لها علمتم ذلك أو ان كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله فان هذه الاجرام المحسوسة ممكنة لتركبها وتعددها وتغير أحوالها فلها مبدأ واجب لذاته ثم ذلك المبدأ لابد أن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن والالزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال، وجواب ان محذوف كما أشرنا اليه *

﴿قَالَ﴾ فرعون عند سماع جوابه عليه السلام خوفا من أن يعلق منه فى قلوب قومه شئ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من اشراف قومه، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كانوا خمسمائة رجل عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٥﴾ جوابه يريد التعجيب منه والازراء بقائله وكان ذلك لعدم مطابقته للسؤال حيث لم يبين فيه الحقيقة المسؤل عنها وكونه فى زعمه نظرا لما عليه قومه من الجهالة غير واضح فى نفسه لخفاء العلم بامكان ماذكر أو حدوثه الذى هو علة الحاجة إلى المبدأ الواجب لذاته عليهم وقد بالغ اللعين فى الاشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف فى رده وعدم قبوله، وكان موسى عليه السلام لما استشعر ذلك من اللعين ﴿قَالَ﴾ عدولا إلى ماهو أوضح وأقرب اعطاء لمنصب الارشاد حقه حسب الامكان لتعذر الوقوف على الحقيقة كما سمعت: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٦﴾ فان الحدوث والافتقار إلى واجب مصور حكيم فى المخاطبين وآبائهم الذين ذهبوا وعدموا أظهر والنظر فى الانفس اقرب وأوضح من النظر فى الآفاق ، ولما رأى اللعين ذلك وقوى عنده خوف فتنة قومه ﴿قَالَ﴾ مبالغا فى الرد والاشارة إلى عدم الاعتداد بذلك مصرحا بما ينفر قلوبهم عن قائله وقبول مايجئ به *

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧﴾ حيث يسئل عن شىء ويجيب عن شئ آخر وينبه على ما فى جوابه ولا ينتبه، وسماه رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا إلى نفسه وأكد ذلك بالوصف، وفيه إثارة لغضبهم واستدعاء لانكارهم رسالته بعد سماع الخبر ترفعا بانفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل اليهم مجنون *

وقرأ مجاهد . وحميد . والأعرج (أرسل) على بناء الفاعل أى الذى أرسله ربه اليكم ، وكأنه عليه السلام لما رأى خشونة فى رد اللعين وإيماء منه إلا أنه عليه السلام لم يتنبه لما فى جوابه الأول من الخفاء عند قومه بل كان عدوله عنه إلى الجواب الثانى لما رماه به عليه اللعنة ﴿قَالَ﴾ عليه السلام تفسيرا لجوابه الأول وإزالة لخفائه ليعلم أن العدول ليس إلا لظهور ماعدل اليه ووضوحه وقربه إلى الناظر لا لما رمى به وحاشاه مع الاشارة إلى تعذر بيان الحقيقة أيضا بالاصرار على الجواب بالصفات ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وذلك لأنه لم يكن فى الجواب الأول تصريح باستناد حركات السموات ومافيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها

Marfat.com

وكون الأرض تارة مظلمة وأخرى منورة الى الله تعالى ، وفى هذا ارشاد الى ذلك فان ذكر المشرق والمغرب منبىء عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات ومافيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الأوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة لاشك فى افتقارها الى محدث قادر عليم حكيم ، وارتكب عليه السلام الخشونة كما ارتكب معه بقوله ﴿ انْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨ ﴾ أى ان كنتم تعقلون شيئا من الأشياء أو ان كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته وأشرت اليه فان فيه تلويحاً الى أنهم بمعزل من دائرة العقل وأنهم الأحقاء بما رموه به عليه السلام من الجنون *

وقرأ عبدالله وأصحابه · والأعمش (رب المشارق والمغارب) على الجمع فيهما، ولما سمع اللعين منه عليه السلام تلك المقالات المبينة على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تنشية أمره وأنه ممن لايجارى فى حلبة المحاورة ﴿ قَالَ ﴾ ضاربا صفحاً عن المقاولة الى التهديد كما هو ديدن المحجوج العنيد: ﴿ لَئِن اتَّخَذْتَ اِلٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ٢٩ ﴾ وفيه مبالغة فى رده عن دعوى الرسالة حيث أراد منه ماأراد ولم يقنع منه عليه السلام بترك دعواها وعدم التعرض له، وفيه أيضا عتو آخر حيث أوهم أن موسى عليه السلام متخذ له الها فى ذلك الوقت وان اتخاذه غيره الها بعد مشكوك، وبالغ فى الابعاد على تقدير وقوع ذلك حيث أكد الفعل بما أكد وعدل عن لأسجننك الأخصر لذلك أيضا فان أل فى المسجونين للعهد فكأنه قال: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم فى سجونى ، وكان عليه اللعنة يطرحهم فى هوة عميقة قيل: عمقها خمسمائة ذراع وفيها حيات وعقارب حتى يموتوا *

هذا وقال بعضهم : السؤال هنا وفى سورة طه عن الوصف والقصة واحدة والمجلس واحد واختلاف العبارات فيها لاقتضاء كل مقام ماعبر به فيه ويلتزم القول بأن الواقع هو القدر المشترك بين جميع تلك العبارات ، وبهذا ينحل اشكال اختلاف العبارات مع دعوى اتحاد القصة والمجلس لكن تعيين القدر المشترك الذى يصح أن يعبر عنه بكل من تلك العبارات يحتاج الى نظر دقيق مع مزيد لطف وتوفيق ، ثم ان العلماء اختلفوا فى أن اللعين هل كان يعلم ان للعالم ربا هو الله عز وجل أولا ، فقال بعضهم : كان يعلم ذلك بدليل (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض) ومنهم من استدل بطلبه شرح الماهية زعما منه أن فيه الاعتراف باصل الوجود وذكروا أن ادعاءه الألوهية وقوله : (أنا ربكم الأعلى) انما كان ارهابا لقومه الذين استخفهم ولم يكن ذلك عن اعتقاد وكيف يعتقد أنه رب العالم وهو يعلم بالضرورة أنه وجد بعد ان لم يكن ومضى على العالم ألوف من السنين وهو ليس فيه ولم يكن له الا ملك مصر ولذا قال شعيب لموسى عليهما السلام: لما جاءه فى مدين (لاتخف نجوت من القوم الظالمين) *

وقال بعضهم : انه كان جاهلا بالله تعالى ومع ذلك لا يعتقد فى نفسه أنه خالق السموات والأرض وما فيهما بل كان دهريا نافيا للصانع سبحانه معتقدا وجوب الوجود بالذات للافلاك وان حركاتها أسباب لحصول الحوادث ويعتقد أن من ملك قطرا وتولى أمره لقوة طالعه استحق العبادة من أهله وكان ربا لهم ولهذا خصص ألوهيته وربوبيته ولم يعمهما حيث قال : (ماعلمت لكم من اله غيرى. وأنا ربكم الأعلى) ، وجوز أن يكون

Marfat.com

من الحلولية القائلين بحلول الرب سبحانه وتعالى فى بعض الذوات ويكون معتقدا حلوله عزوجل فيه ولذلك سمى نفسه إلها ، وقيل : كان يدعى الألوهية لنفسه ولغيره وهو ماكان يعبده من دون الله عز وجل كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى : (ويذرك وآلهتك) وهو وكذا ماقبله بعيد، والذى يغلب على الظن ويقتضيه أكثر الظواهر أن اللعين كان يعرف الله عز وجل وأنه سبحانه هو خالق العالم الا أنه غلبت عليه شقوته وغرته دولته فاظهر لقومه خلاف علمه فاذعن منهم له من كثرجهله ونزر عقله، ولا يبعد أن يكون فى الناس من يذعن بمثل هذه الخرافات ولا يعرف أنها مخالفة للبديهيات، وقد نقل لى من أثق به ان رجلين من أهل نجد قبل ظهور أمر الوهابى فيما بينهم بينما هما فى مزرعة لهما إذ مر بهما طائر طويل الرجلين لم يعهدا مثله فى تلك الأرض فنزل بالقرب منهما فقال أحدهما الآخر : ما هذا ؟ فقال له : لا ترفع صوتك هذا ربنا فقال له معتقداً صدق ذلك الهذيان: سبحانه ما أطول كراعيه وأعظم جناحيه، وأما من له عقل منهم ولا يخفى عليه بطلان مثل ذلك فيحتمل أن يكون قد وافق ظاهراً لمزيد خوفه من فرعون أو مزيد رغبته بما عنده من الدنيا كما نشاهد كثيراً من العقلاء وفسقة العلماء وافقوا جبابرة الملوك فى أباطيلهم العلمية والعملية حبا للدنيا الدنية أو خوفا مما يتوهمونه من البلية،ويحتمل أن يكون قد اعتقد ذلك حقيقة بضرب من التوجيه وإن كان فاسدا كزعم الحلول ونحوه، والمنكر على القائل أنا الحق والقائل ما فى الجبة إلا الله يزعم أن معتقدى صدقهما كمعتقدى صدق فرعون فى قوله : (أنا ربكم الاعلى) وسؤال اللعين لموسى عليه السلام حكاية لما وقع فى عبارته بقوله :(ما رب العالمين) كان لانكاره لظاهر أن يكون للعالمين رب سواه، وجواب موسى عليه السلام له لم يكن إلا لابطال ما يدعيه ظاهراً وارشاد قومه إلى ما هو الحق الحقيق بالقبول ولذا لم يقصر الخطاب فى الأجوبة عليه، والتعجيب المفهوم من قوله : (ألا تستمعون) لزعمه ظاهراً أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهى ربوبية نفسه ، ولما داخله من خوف اذعان قومه لما قاله موسى عليه السلام ما داخله بالغ فى صرفهم عن قبول الحق بقوله: (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) ولما رأى أن ذلك لم يفد فى دفع موسى عليه السلام عن إظهار الحق وإبطال ماكان يظهره من الباطل ذب عن دعواه الباطلة بالتهديد وتشديد الوعيد فقال : (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) ولعل أجوبته عليه السلام مشيرة إلى إبطال اعتقاد نحو الحلول بأن فيه الترجيح بلا مرجح وبانه يستلزم المربوبية لما فيه من التغير ، وبعد هذا القول عندى قول بعضهم : إنه عليه اللعنة كان دهريا إلى آخر ما سمعته آنفا،والتعجيب لزعمه حقيقة أنه عليه السلام ادعى خلاف أمر محقق وهو ربوبية نفسه عليه اللعنة والله تعالى أعلم ، ولما رأى عليه السلام فظاظة فرعون ﴿ قَالَ ﴾ على جهة التلطف به والطمع فى إيمانه ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ۝٣٠ ﴾ أى تفعل ذلك ولو جئتك بشىء مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده، والتعبير عنها بشىء للتهويل ، والواو للعطف على جملة مقابلة للجملة المذكورة، ومجموع الجملتين المتعاطفتين فى موضع الحال ، و(لو) للبيان تحقيق مايفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر تحققه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية اى أتفعل فى ذلك حال عدم مجيئى بشىء مبين وحال مجيئى به، وتصدير المجىء بلو دون إن ليس لبيان

Marfat.com

استبعاده فى نفسه بل بالنسبة إلى فرعون ، وجعل بعضهم الواو للحال على معنى أن الجملة التى بعدها حال أى أتفعل فى ذلك جائيا بشىء مبين وهو ظاهر كلام الكشاف هنا ، وظاهر كلام الكشف أن الاستفهام للانكار على معنى لا تقدر على فعل ذلك مع أنى نبي بالمعجزة ، والظاهر تعلق هذا الكلام بالوعيد الصادر من اللعين فذلك فى تفسيره إشارة إلى جعله عليه السلام من المسجونين فكأنه قال : أتجعلنى من المسجونين إن اتخذت إلها غيرك ولو جئتك بشىء مبين ؟ء

وعلى ذلك حمل الطيبي كلام الكشاف ثم قال: يمكن أن يقال إن الواو عاطفة وهى تستدعى معطوفا عليه وهو ما سبق فى أول المكالمة بين نبي الله تعالى وعدوه، والهمزة مقحمة بين المعطوف والمعطوف عليه للتقرير، والمعنى أتقر بالوحدانية وبرسالتى ان جئتك بعد الاحتجاج بالبراهين القاهرة والمعجزات الباهرة الظاهرة *

و(لو) بمعنى ان عز بز، ويؤيد هذا التأويل ما فى الاعراف (قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معى بنى اسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) انتهى *

وهو كما ترى . وفيه جعل (مبين) من أبان اللازم بمعنى بان، وجعله من أبان المتعدى وحذف المفعول كما أشرنا اليه أنسب للمقام ، ولما سمع فرعون هذا الكلام من موسى عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ حيث طمع أن يجد موضع معارضة ﴿ فَأْتِ به ﴾ أى بشىء مبين ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣١ ﴾ أى فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتى بشىء موضح لصدق دعواك أو من الصادقين فى دعوى الرسالة من رب العالمين، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أى ان كنت من الصادقين فأت به، وقدره الزمخشرى أتيت به، والمشهور تقديره من جنس الدليل *

وقال الحوفى : يجوز أن يكون ما تقدم هو الجواب وجاز تقديم الجواب لأن حذف الشرط لم يعمل فى اللفظ شيئا ، وقد بهت الزمخشرى عامله الله تعالى بعدله أهل السنة بما هم منه برآء كما بينه صاحب الكشف وغيره فارجع اليه إن أردته ﴿ فَأَلْقَى ﴾ موسى بعد أن قال له فرعون ذلك ﴿ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ٣٢ ﴾ ظاهر ثعبانيته أى ليس بتمويه وتخييل كما يفعله السحرة، والثعبان أعظم ما يكون من الحيات واشتقاقه من ثعب الماء بمعنى جرى جريا متسعا ، وسمى به لجريه بسرعة من غير رجل كأنه ماء سائل ، والظاهر أن نفس العصا انقلبت ثعبانا وليس ذلك بمحال إذا كان بسبب الوصف الذى صارت به عصا وخلقه وصف الذى يصير ثعبانا بناء على رأى بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها فى قبول الصفات إنما المحال انقلابها ثعبانا مع كونها عصا لامتناع كون الشىء الواحد فى الزمن الواحد عصا وثعبانا، وقيل: إن ذلك بخلق الثعبان بدلها وظواهر الآيات تبعد ذلك، وقد جاء فى الاخبار ما يدل على مزيد عظم هذا الثعبان ولا يعجز الله تعالى شىء، وقد مر بيان كيفية الحال *

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ٣٣ ﴾ أى بياضها يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضا نورانيا. روى أنه لما أبصر أمر العصا قال: هل لك غيرها؟ فأخرج عليه السلام يده فقال : ما هذه قال : يدى فأدخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ ﴾ أشراف قومه ﴿ حَوْلَهُ ﴾ منصوب لفظا على الظرفية وهو ظرف مستقر وقع حالا أى مستقرين حوله ، وجوز أن يكون فى موضع الصفة للملإ على حد * ولقد أمر على اللئيم يسبنى * والأول أسهل وأنسب *

Marfat.com

ومن العجيب ما نقله أبو حيان عن الكوفيين أنهم يجعلون الملأ اسم موصول و«حوله» متعلق بمحذوف وقع صلة له كأنه قيل : قال للذين استقروا حوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾ فائق فى علم السحر ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ ﴾ قسرا ﴿ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ التى نشأتم فيها وتوطنتموها ﴿ بِسِحْرِهِ ﴾ وفى هذا غاية التنفير عنه عليه السلام وابتغاء الغوائل له اذ من أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن لاسيما إذا كان ذلك قسرا وهو السر فى نسبة الاخراج والأرض اليهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥ ﴾ أى أى أمر تأمرون فمحل (ماذا) النصب على المصدرية و(تأمرون) من الأمر ضد النهى ومفعوله محذوف أى تأمرونى، وفى جعله عبيده بزعمه آمرين له مع ما كان يظهره لهم من دعوى الألوهية والربوبية مايدل على أن سلطان المعجزة بهره وحيره حتى لا يدرى أى طرفيه أطول فزل عند ذكر دعوى الألوهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وانحط عن ذروة الفرعنة إلى حضيض المسكنة ولهذا أظهر استشعار الخوف من استيلائه عليه السلام على ملكه ٭

وجوز أن يكون (ماذا) فى محل النصب على المفعولية وأن يكون «تأمرون» من المؤامرة بمعنى المشاورة لأمر كل بما يقتضيه رأيه ولعل ما تقدم أولى ٭

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أى آخر أمرهما إلى أن تأتيك السحرة من أرجأته إذا أخرته، ومنه المرجئة وهم الذين يؤخرون العمل لا يأتونه ويقولون: لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ٭

وقرأ أهل المدينة . والكسائى . وخلف (أرجه) بكسر الهاء، وعاصم . وحمزة (أرجه) بغير همز وسكون الهاء، والباقون «أرجئه» بالهمز وضم الهاء، وقال أبو على: لابد من ضم الهاء مع الهمزة ولا يجوز غيره، والأحسن أن لا يبلغ بالضم الى الواو، ومن قرأ بكسر الهاء فأرجه عنده من أرجيته بالياء دون الهمزة والهمز على ما نقل الطيبى أفصح ، وقد توصل الهاء المذكورة بياء فيقال : أرجهى كما يقال مررت بهى ، وذكر الزجاج أن بعض الحذاق بالنحو لا يجوز إسكان نحوها. (ارجه) أعنى هاء الاضمار، وزعم بعض النحويين جواز ذلك واستشهد عليه ببيت مجهول ذكره الطبرسى: وقال هو شعر لا يعرف قائله والشاعر يجوز أن يخطئ ٭

وقال بعض الأجلة : الاسكان ضعيف لأن هذه الهاء إنما تسكن فى الوقف لكنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، وقيل : المعنى احبسه ، ولعلهم قالوا ذلك لفرط الدهشة أو تجلدا و مداهنة لفرعون وإلا فكيف يمكنه أن يحبسه مع ما شاهد منه من الآيات ﴿ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦ ﴾ شرطا يحشرون السحرة ويجمعونهم عندك ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ مجزوم فى جواب الأمر أى إن تبعثهم يأتوك ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ ﴾ كثير العمل بالسحر ﴿ عَلِيمٍ ٣٧ ﴾ فائق فى علمه ، ولكون المهم هنا هو العمل أتوا بما يدل على التفضيل فيه ، وقرأ الأعمش. وعاصم فى رواية (بكل ساحر عليم) ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ ﴾ أى المعهودون على أن التعريف كما فى المفتاح عهدى، وقال الفاضل المحقق : إن المعهود قد يكون عاما مستغرقا كما هنا ولا منافاة بينهما كما يتوهم وفيه بحث فتأمل ٭

﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨ ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة على أن الميقات من صفات الزمان، وفى الكشاف هو ما وقت به أى حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الاحرام ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ ﴾

Marfat.com

استبطاء لهم فى الاجتماع وحثا على التبادر اليه ﴿ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ٣٩ ﴾ فى ذلك الميقات فالاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال كما فى قول تأبط شرا: هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق (١)

فانه يريد ابعث أحدهما الينا سريعا ولا تبطىء به ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ﴾ أى فى دينهم ﴿ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ٤٠ ﴾ لاموسى عليه السلام، وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى عليه السلام فى دينه لكن ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا للسحرة على الاهتمام والجد فى المغالبة، وجوز أن يكون مرادهم اتباع السحرة أى الثبات على ما كانوا عليه من الدين ويدعى أنهم كانوا على ما يريد فرعون من الدين ٥ والظاهر أن فرعون غير داخل فى القائلين، وعلى تقدير دخوله لم يجوز بعضهم إرادة المعنى الحقيقى لهذا الكلام لامتناع اتباع مدعى الالهية السحرة، وجوزه آخرون لاحتمال أن يكون قال ذلك لما استولى عليه من الدهشة من أمر موسى عليه السلام كما طلب الأمر ممن حوله لذلك، ولعل إتيانهم بان للالطاب وإلا فالأوفق بمقامهم أن يقولوا إذا كانوا هم الغالبين ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أى لأجرا عظيما ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ٤١ ﴾ لاموسى عليه السلام، ولعلهم أخرجوا الشرط على أسلوب ماوقع فى كلام القائلين موافقة لهم وإلا فلا يناسب حالهم إظهار الشك فى غلبتهم ٥

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لهم ﴿ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٢ ﴾ عندى، قيل: قال لهم: تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى. و(إذن) عند جمع على ماتقتضيه فى المشهور من الجواب والجزاء، ونقل الزركشى فى البرهان عن بعض المتأخرين أنها هنا مركبة من (إذا) التى هى ظرف زمان ماض والتنوين الذى هو عوض عن جملة محذوفة بعدها وليست هى الناصبة للمضارع. وقد ذهب إلى ذلك فى نظائر لآية الكافيجى. والقاضى تقى الدين بن رزين. وأناممن يقول بإثبات هذا المعنى لها. والمعنى عليه وإنكم إذا غلبتم أو إذا كنتم الغالبين لمن المقربين. وقرئ (نعم) بفتح النون وكسر العين وذلك لغة فى (نعم) ٥

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أى بعد ماقال له السحرة: «إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى» ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ٤٣ ﴾ لم يرد عليه السلام الأمر بالسحر والتمويه حقيقة فان السحر حرام وقد يكون كفرا فلا يليق بالمعصوم الأمر به بل الاذن بتقديم ماعلم بالهام أو فراسة صادقة أو قرائن الحال انهم فاعلوه البتة ولذا قال (ما أنتم ملقون) ليتوصل بذلك الى ابطاله ٥

وهذا كما يؤمر الزنديق بتقرير حجته لترد وليس فى ذلك الرضا الممتنع فانه الرضا على طريق الاستحسان وليس فى الاذن المذكور ومطلق الرضا غير ممتنع، وماالشتهر من قولهم: الرضا بالكفر كفر ليس على اطلاقه كما عليه المحققون من الفقهاء والأصوليين ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا ﴾ أى وقد قالوا عند الالقاء ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى بقوته التى يمتنع بها من الضيم من قولهم. أرض عزاز أى صلبة ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ٤٤ ﴾ لاموسى عليه السلام، والظاهر أن هذا قسم منهم بعزته عليه اللعنة على الغلبة وخصوها بالقسم هنا لمناسبتها للغلبة

(١) دينار اسم رجل وعبد رب منصوب بالعطف على محله وهو اسم رجل أيضا وأخاعون منادى لا نعت، ويجوز أن يكون عطف بيان لعبد رب اه منه ٥

Marfat.com

وقسمهم على ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر . وفى ذلك إرهاب لموسى عليه السلام بزعمهم، وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة فى قولهم (بعزة فرعون) تعظيما له، وهذا القسم من نوع أقسام الجاهلية، وقد سلك كثير من المسلمين فى الايمان ماهو أشنع من أيمانهم لايرضون بالقسم بالله تعالى وصفاته عز وجل ولا يعتدون بذلك حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان أو برأسه أو برأس المحلف أو بلحيته أو بتراب قبر أبيه فحينئذ يستوثق منه ، ولهم أشياء يعظمونها ويحلفون بها غير ذلك، ولا يبعد أن يكون الحلف بالله تعالى كذبا أقل إثما من الحلف بها صدقا وهذا مما عمت به البلوى ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلى العظيم ، وقال ابن عطية بعد أن ذكر أنه قسم : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذا كانوا يعبدونه كما تقول : إذا ابتدأت بشئ بسم الله تعالى وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحو ذلك ه

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أى تبتلع بسرعة، وأصل التلقف الأخذ بسرعة . وقرأ أكثر السبعة (تلقف) بفتح اللام والتشديد والأصل تتلقف فحذفت إحدى التاءين· والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ٤٥ ﴾ أى الذى يقلبونه من حاله الأول وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى· فما موصولة حذف عائدها للفاصلة ، وجوز أن تكون مصدرية أى تلقف أفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ٤٦ ﴾ أى خروا ساجدين إثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهى قد ظهر على يده عليه السلام لتصديقه، وعبر عن الخرور بالالقاء لأنه ذكر مع الالقاءات فسلك به طريق المشاكلة وفيه ايضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا مارأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا فهناك استعارة تبعية زادت حسنها المشاكلة، وبحث فى ذلك بعضهم بأن الله تعالى خالق خرورهم عند أهل الحق وخلقه هو الالقاء فلا حاجة إلى التجوز ه

وأنت تعلم أن إيجاد خرورهم وخلقه فيهم لا يسمى القاء حقيقة ولغة ثم ظاهر كلامهم أن فاعل الالقاء لو صرح به هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق ، وجوز الزمخشرى أن يكون إيمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة ثم قال : ولك أن لا تقدر فاعلا لأن (ألقى) بمعنى خروا وسقطوا . وتعقب هذا أبو حيان بانه ليس بشئ إذ لا يمكن أن يبنى الفعل للمفعول الذى لم يسم فاعله إلا وقد حذف الفاعل فناب ذلك عنه أما أنه لا يقدر فاعل فقول ذاهب عن الصواب، ووجه ذلك صاحب الكشف بانه أراد أنه لا يحتاج إلى تقدير فاعل آخر غير من أسند اليه المجهول لأنه فاعل الالقاء ألا ترى إنك لو فسرت سقط بالقى نفسه لصح· والطيبى بانه أراد أنه لا يحتاج إلى تعيين فاعل لأن المقصود الملقى لا تعيين من ألقاه كما تقول قتل الخارجى ه

وأنت تعلم أن التعليل الذى ذكره الزمخشرى إلى ما اختاره صاحب الكشف أقرب . وبالجملة لا بد من تأويل كلام صاحب الكشاف فانه أجل من أن يريد ظاهره الذى يرد عليه ما أورده أبو حيان ، وفى سجود السحرة وتسليمهم دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئا لا حقيقة له لأن السحر أقوى ما كان فى زمن موسى عليه السلام ومن أتى به فرعون أعلم أهل عصره به وقد بذلوا جهدهم وأظهروا أعظم ماعندهم

Marfat.com

منه ولم يأتوا إلا بتمويه وتزويق كذا قيل. والتحقيق أن ذلك هو الغالب فى السحر لا أن كل سحر كذلك.

وقول القزوينى: إن دعوى أن فى السحر تبديل صورة حقيقة من خرافات العوام وأسمار النسوة فان ذلك مما لا يمكن فى سحر أبدا لا يخلو عن مجازفة، واستدل بذلك أيضا على أن التبحر فى كل علم نافع فان أولئك السحرة لتبحرهم فى علم السحر علموا حقية ما أتى به موسى عليه السلام وأنه معجزة فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والايمان لفرقهم بين المعجزة والسحر.

وتعقب بأن هذا إنما يثبت حكما جزئيا كما لا يخفى، وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقية ذلك بعد أن أخذ موسى عليه السلام العصا فعادت كما كانت وذلك انهم لم يروا لحبالهم وعصيهم بعد أثرا، وقالوا: لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا؛ ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية وتفرقت أو عدمت لانقطاع تعلق الارادة بوجودها. وقال الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب السادس عشر والباب الاربعين من الفتوحات: إن العصا لم تلقف إلا صور الحيات من الحبال والعصى وأماهى فقد بقيت ولم تعدم كما توهمه بعض المفسرين ويدل عليه قوله تعالى (تلقف ما صنعوا) وهم لم يصنعوا إلا الصور ولولا ذلك لوقعت الشبهة للسحرة فى عصا موسى عليه السلام فلم يؤمنوا انتهى ملخصا فتأمل ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ بدل اشتمال من «ألقى» لما بين الالقاء المذكور وهذا القول من الملابسة أو حال باضمار قد أو بدونه، ويحتمل أن يكون استئنافا بيانيا كأنه قيل: فما قالوا؟ فقيل (قالوا آمنا برب العالمين) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾ عطف بيان لرب العالمين أو بدل منه جىء به لدفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بأن الموجب لايمانهم به تعالى ما أجراه سبحانه على أيديهما من المعجزة القاهرة. ومعنى كونه تعالى ربهما أنه جل وعلا خالقهما ومالك أمرهما.

ويجوز أن يكون اضافة الرب اليهما باعتبار وصفهما له سبحانه بما تقدم من قول موسى عليه السلام: (رب السموات والأرض وما بينهما) وقوله: (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقوله: (رب المشرق والمغرب وما بينهما) فكأنهم قالوا: آمنا برب العالمين الذى وصفه موسى وهرون، ولا يخفى ما فيه وإن سلم سماعهم للوصف المذكور بعد أن حشروا من المدائن ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أى بغير أن آذن لكم بالايمان له كما فى قوله تعالى: (قبل أن تنفد كلمات ربى) الا ان الاذن منه ممكن أو متوقع ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم فيكون كقوله: (ان هذا لمكر مكرتموه) الخ أو علمكم شيئا دون شىء فلذلك غلبكم كما قيل، ولا يرد عليه أنه لا يتوافق الكلامان حينئذ إذ يجوز أن يكون فرعون قال كلا منهما وان لم يذكرا معا هنا، وأراد اللعين بذلك التلبيس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق.

وقرأ الكسائى. وحمزة. وأبو بكر. وروح «أآمنتم» بهمزتين ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال مافعلتم. واللام قيل للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف أى فلانتم سوف تعلمون. وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة. وجمعها مع سوف للدلالة على أن العلم كائن لا محالة وان تأخر

Marfat.com

لداع ، وقيل : هى للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين النون فيما عدا صورة الفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس وصورة الفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى : (لالى الله تحشرون) وقال أبو على : هى اللام التى فى لاقومن ونابت سوف عن احدى نونى التأكيد فكأنه قيل : فلتعلمن ، وقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ٤٩ ﴾ بيان لمفعول (تعلمون) المحذوف الذى أشرنا اليه وتفصيل لما أجمل ولذا فصل وعطف بالفاء فى محل آخر ، وقد مر معنى (من خلاف) ﴿ قَالُوا ﴾ أى السحرة ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى لا ضرر علينا فيما ذكرت من قطع الأيدى وما معه ، والضير مصدر ضار وجاء مصدره أيضا ضورا ، وهو اسم لا وخبرها محذوف وحذفه فى مثل ذلك كثير ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ أى الذى آمنا به ﴿ مُنْقَلِبُونَ ٥٠ ﴾ تعليل لنفى الضير أى لاضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا من الصبر عليه لوجه الله تعالى من الثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما تفعل لأنه لابد من الموت بسبب من الأسباب والانقلاب إلى الله عز وجل ٠

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وحاصله نفى المبالاة بالقتل معللا بانه لابد من الموت ، ونظير ذلك قول على كرم الله تعالى وجهه : لاأبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على ، أو لا ضير علينا فى ذلك لأن مصيرنا ومصيرك إلى رب يحكم بيننا فينتقم لنا منك ، وفى معنى ذلك قوله :

إلى ديان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

ولم يرتضه بعضهم لأن فيه تفكيك الضمائر لكونها للسحرة فيما قبل وبعد ومنع بدخولهم فى ضمير الجمع فتأمل ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا ﴾ أى لأن كنا ﴿ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ٥١ ﴾ تعليل ثان لنفى الضير ولم يعطف ايذانا بأنه مما يستقل بالعلية ، وقيل إن عدم العطف لتعلق التعليل بالمعلل الأول مع تعليله وجوز أن يكون تعليلا للعلة والأول أظهر أى لاضير علينا فى ذلك إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا أول المؤمنين ، والطمع اما على بابه كما استظهره أبو حيان لعدم الوجوب على الله عز وجل ، وإما بمعنى التيقن كما قيل به فى قول ابراهيم عليه السلام (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وقولهم : (أول المؤمنين) يحتمل أنهم أرادوا به أول المؤمنين من اتباع فرعون أو أول المؤمنين من أهل المشهد أو أول المؤمنين من أهل زمانهم ، ولعل الاخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤمن سبقهم بالايمان فهو إخبار مبنى على غالب الظن ولا محذور فيه كذا قيل ، وقيل : أرادوا أول من أظهر الايمان بالله تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحا بعد الدعوة وظهور الآية فلا يرد مؤمن آل فرعون وآسية ، وكذا لايرد بنو اسرائيل لأنهم كما فى البحر كانوا مؤمنين قبلهم إما لعدم علم السحرة بذلك أو لأن كلا من المذكورين لم يظهر الايمان بالله تعالى ورسوله عند فرعون كفاحا بعد الدعوة وظهور الآية فتأمل ٠

وقرأ أبان بن تغلب . وأبو معاذ (إن كنا) بكسر همزة (إن) وخرج على أن إن شرطية والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أى ان كنا أول المؤمنين فانا نطمع ، وجعل صاحب اللوامح الجواب (إنا نطمع) المتقدم وقال:

Marfat.com

جاز حذف الفاء منه لتقدمه وهو مبنى على مذهب الكوفيين . وأبى زيد . والمبرد حيث يجوزون تقديم جواب الشرط ، وعلى هذا فالظاهر أنهم لم يكونوا متحققين بأنهم أول المؤمنين ، وقيل : كانوا متحققين ذلك لكنهم أبرزوه فى صورة الشك لتنزيل الأمر المعتمد منزلة غيره تمليحا وتضرعا لله تعالى، وفى ذلك هضم النفس والمبالغة فى تحرى الصدق والمشاكلة مع (نطمع) على ماهو الظاهر فيه ، وجوز أبو حيان أن تكون ان هى المخففة من الثقيلة ولا يحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون فلا احتمال للنفى ، وقد ورد مثل ذلك فى الفصيح فى الحديث «ان كان رسول الله ﷺ يحب العسل» ، وقال الشاعر :

ونحن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أول المؤمنين أتم جزم . واختلف فى أن فرعون هل فعل بهم ماأقسم عليه أولا والأكثرون على أنه لم يفعل لظاهر قوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وبعض هؤلاء زعم أنهم لما سجدوا رأوا الجنات والنيران وملكوت السموات والأرض وقبضت أرواحهم وهم ساجدون، وظواهر الآيات تكذب أمر الموت فى السجود ، وأما رؤية أمر ماذكر فلا جزم عندى بصدقه والله تعالى أعلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ وذلك بعد سنين أقام بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوا وعناداً حسبما فصل فى سورة الأعراف بقوله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) الآيات . وقرئ (ان اسر) بكسر النون ووصل الألف من سرى . وقرأ اليمانى (ان سر) أمراً من ساريسير ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ ﴾ تعليل للامر بالاسراء أى يتبعكم فرعون وجنوده ،صبحين فأسر ليلا بمن معك حتى لايدركوكم قبل الوصول إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم فاغرقهم ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ الفاء فصيحة أى فأسرى بهم وأخبر فرعون بذلك فارسل ﴿ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ أى مدائن مصر ﴿ حَاشِرِينَ ٥٣ ﴾ جامعين للعساكر ليتبعوهم ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾ يريد بنى اسرائيل والكلام على إرادة القول ، والظاهر أنه حال أى قائلا إن هؤلاء ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ أى طائفة من الناس ،وقيل: هى السفلة منهم، وقيل: بقية كل شئ خسيس ، ومنه ثوب شرذام وشرذامة أى خلق مقطع، قال الراجز :

جاء الشتاء وقميصى أخلاق شراذم يضحك منه التواق

وقرئ (لشرذمة) باضافة شر مقابل خير إلى ذمة ،قال أبو حاتم: وهى قراءة من لايؤخذ منه ولم يروها أحد عن رسول الله ﷺ ﴿ قَلِيلُونَ ٥٤ ﴾ صفة شرذمة ، وكان الظاهر قايلة إلا أنه جمع باعتبار أن الشرذمة مشتملة على اسباط كل سبط منهم قليل ، وقد بالغ اللعين فى قلتهم حيث ذكرهم أولا باسم دال على القلة وهو شرذمة ثم وصفهم بالقلة ثم جمع القليل للاشارة إلى قلة كل حزب منهم وأتى بجمع السلامة وقد ذكر أنه دال على القلة، واستقلالهم بالنسبة إلى جنوده .

فقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أن موسى عليه السلام خرج فى ستمائة ألف وعشرين ألفا لايعد فيهم ابن عشرين لصغره ولاابن ستين لكبره وتبعهم فرعون على مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف

Marfat.com

حصان ، وقيل : أرسل فرعون فى أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج هو فى جمـــع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضـة ،وهم كانوا على ماروى عن ابن عباس ستمائة ألف وسبعين ألفاً ،وأنا أقول:إنهم كانوا أقل من عساكر فرعون ولا أجزم بعدد فى كلا الجمعين ، والاخبار فى ذلك لاتكاد تصح وفيها مبالغات خارجة عن العادة . والمشهور عند اليهود أن بنى اسرائيل كانوا حين خرجوا من مصر ستمائة ألف رجل خلا الاطفال وهو صريح مافى التوراة التى بايديهم *

وجوز أن يراد بالقلة الذلة لا قلة العـدد بل هى مستفادة من شرذمة يعنى انهم لقلتهم أذلاء لايبـالى بهم ولا يتوقع غلبتهم ، وقيل : الذلة مفهومة من شرذمة بناء على أن المراد منها بقية كل شىء خسيس أو السفلة من الناس ، و«قليلون» إما صفة لها أو خبر بعد خبر لان ، والظاهر ماتقدم *

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥﴾ افاعلون مايغيظنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير اذننا مع ماعندهم من أموالنا المستعارة ، فقد روى ان الله تعالى أمرهم أن يستعيروا الحلى من القبط فاستعاروه وخرجوا به ، وتقديم «لنا» للحصر والفاصلة واللام للتقوية أو تنزيل المتعدى منزلة اللازم ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ٥٦﴾ أى انا لجمع من عاداتنا الحذر والاحتراز واستعمال الحزم فى الأمور ، أشار أولا الى عدم ما يمنع اتباعهم من شـوكتهم ثم الى تحقق مايدعو اليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ فى شأنهم حثا عليه أو اعتذارا بذلك الى أهل المدائن كيلا يظن به عليه اللعنة ما يكسر سلطانه *

وقرأ جمع من السبعة . وغيرهم «حذرون» بغير الف ،وفرق بين حاذر بالألف وحذر بدونها بان الأول اسم فاعل يفيد التجدد والحدوث والثانى صفة مشبهة تفيد الثبات ،وقريب منه ماروى عن الفراء .والكسائى أن الحذر من كان الحذر فى خلقته فهو متيقظ منتبه ، وقال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وذهب سيبويه الى أن حذرا يكون للمبالغة وأنه يعمل كما يعمل حاذر فينصب المفعول به، وأنشد :

حذر أموراً لا تضير وآمن ماليس منجيـه من الأقدار

وقد نوزع فى ذلك بما هو مذكور فى كتب النحو . وعن ابن عباس . وابن جبير . والضحاك . وغيرهم أن الحاذر التام السلاح . وفسروا ما فى الآية بذلك ، وكأنه بمعنى صاحب حـذر وهى ءالة الحرب سميت بذلك مجازا ، وحمل على ذلك قوله تعالى « خذوا حـذركم » . وقرأ سميط بن عجلان . وابن أبى عمار . وابن السميقع « حادرون » بالألف والدال المهملة من قولهم : عين حدرة أى عظيمة وفلان حادر أى متورم . قال ابن عطية : والمعنى ممتلئون غيظا وأنفة . وقال ابن خالويه : الحادر السمين القوى الشديد . والمعنى أقوياء أشداء . ومنه قول الشاعر :

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبغضه من بغضها وهو حادر

وقيل :المعنى تامو السلاح على هذه القراءة أيضا أخذا من الحدارة بمعنى الجسامة والقوة فان تام السلاح يتقوى به كما يتقوى بأعضائه ، و(جميع) على جميع القراآت والمعانى بمعنى الجمع وليست التى يؤكد بها كما أشرنا اليه ولو كانت هى المؤكدة لنصبت ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أى فرعون وجنوده أى خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا

Marfat.com

السبب الذى تضمنته الآيات الثلاث فحملتهم عليه أو خلقنا خروجهم ﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾ كانت لهم بحافتى النيل كما روى عن ابن عمر . وغيره ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أى أموال كنزوها وخزنوها تحت الأرض . وخصت بالذكر لأن الأموال الظاهرة أمور لازمة لهم لأنها من ضروريات معاشهم فاخراجهم عنها معلوم بالضرورة . وقيل: لأن أموالهم الظاهرة قد انطمست بالتدمير ٥

وتعقب بأن الاخراج قبل الانطماس إذ من جملة الأموال الظاهرة الجنات والاخبار عنهم بانهم أخرجوا منها بعنوان كونها جنات والأصل فيه الحقيقة. وعلى تقدير تسليم أنه بعد يرد أن المدمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وهو مفسر بالقصور والعمارات والجنان فيبقى ما سوى ذلك غير محكوم عليه بالتدمير من الأموال الظاهرة مع أنهم أخرجوا منه أيضا فيحتاج توجيه عدم التعرض له بغير ما ذكره ٥

وقيل : المراد بالكنوز أموالهم الباطنة والظاهرة وأطلق عليها ذلك لأنها لم ينفق منها فى طاعة الله تعالى ، ونقل ذلك عن مجاهد والأول أوفق باللغة . وأكثر جهلة أهل مصر يزعمون أن هذه الكنوز فى المقطم من أرض مصر وأنها موجودة إلى الآن وقد بذلوا على إخراجها أموالا كثيرة لشياطين المغاربة وغيرهم فلم يظفروا إلا بالتراب أو حجر الكذان ، وقال ابن جبير : المراد بالعيون عيون الذهب وهو خلاف المتبادر ، ومثله ما قاله الضحاك من أن المراد بالكنوز الانهار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨﴾ هى المساكن الحسان كما قال النقاش ، وعن ابن لهيعة أنها كانت بالفيوم من أرض مصر ، وقيل : مجالس الامراء والاشراف والحكام التى تحفها الاتباع ، وقيل : الاسرة فى الكلل ، وحكى الماوردى أنها مرابط الخيل ، وعن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك أنها المنابر للخطباء ٥ وقرأ قتادة . والأعرج (ومقام) بضم الميم من أقام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إما فى موضع نصب على أن يكون صفة لمصدر مقدر أى إخراجا مثل ذلك الاخراج أخرجنا ، والاشارة إلى مصدر الفعل أو فى موضع جر على أن يكون صفة لمقام أى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم ، وعلى الوجهين لا يرد أنه يلزم تشبيه الشىء بنفسه كما زعم أبو حيان لما مر تحقيقه أو فى موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى الأمر كذلك ، والمراد تقرير الأمر وتحقيقه . واختار هذا الطيبى فقال: هو أقوى الوجوه ليكون قوله تعالى :

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٥٩﴾ أى ملكناها لهم تمليك الارث عطفا عليه ، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو (فاخرجناهم) والمعطوف وهو قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ لأن الاتباع عقب الاخراج لا الايراث ٥

قال الواحدى : إن الله تعالى رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه فاعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن ، وعلى غير هذا الوجه يكون (أورثنا) عطفا على (أخرجنا) ولا بد من تقدير نحو فاردنا إخراجهم وإيراث بنى اسرائيل ديارهم فخرجوا وأتبعوهم انتهى ، ويفهم من كلام بعضهم أن جملة (أورثناها) الخ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه فى جميع الأوجه ، وما ذكر عن الواحدى من أن الله تعالى رد بنى اسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك بعد الغرق من غير تطاول مدة ٥

وأظهر منه فى هذا ما روى عن الحسن قال : لما عبروا البحر ورجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم ؛ ورأيت فى بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى عليه السلام وبقوا معه فى مصر عشر سنين ، وقيل : إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون مع موسى عليه السلام إلى أرض الشام ٥

Marfat.com

وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر فى حياة موسى عليه السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام ، والمذكور فى التوراة التى بأيدى اليهود اليوم صريح فى أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام وقد فصلت قصة ذهابهم اليها وأكثر التواريخ على هذا وظواهر كثير من الآيات تقتضى ماذكره الواحدى والله تعالى أعلم ،ومعنى (أتبعوهم) لحقوهم يقال: تبعت القوم فاتبعهم أى تلوتهم فلحقتهم كأن المعنى فجعلتهم تابعين لى بعد ما كنت تابعا لهم مبالغة فى اللحوق، وضمير الفاعل لقوم فرعون والمفعول لبنى اسرائيل . وقرأ الحسن (فاتبعوهم) بوصل الهمزة وشد التاء ﴿مُشْرِقِينَ ٦٠﴾ أى داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها من أشرق زيد دخل فى وقت الشروق كاصبح دخل فى وقت الصباح وأمسى دخل فى وقت المساء، وقال أبو عبيدة : هو من أشرق توجه نحو الشرق كانجد توجه نحو نجد وأعرق توجه نحو العراق أى فاتبعوهم متوجهين نحو الشرق ،والجمهور على الأول ، وعن السدى أن الله تعالى القى على القبط الموت ليلة خرج موسى عليه السلام بقومه فمات كل بكر رجل منهم فشغلوا عن طلبهم بدفنهم حتى طلعت الشمس ومثل ذلك فى التوراة بزيادة موت أبكار بهائمهم أيضا ،والوصف حال من الفاعل، وقيل : هو حال من المفعول ه

ومعنى (مشرقين) فى ضياء بناء على ما روى أن بنى اسرائيل كانوا فى ضياء ، وكان فرعون وقومه فى ضباب وظلمة تحيروا فيها حتى جاوز بنو اسرائيل البحر ولا يكاد يصح ذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر، نعم ذكر فى التوراة ما حاصله أن بنى إسرائيل لما خرجوا كان أمامهم نهاراً عمود من غمام وليلا عمود من نار ليدلهم ذلك على الطريق فلما طلبهم فرعون ورأوا جنوده خافوا جدا ولاموا موسى عليه السلام فى الخروج وقالوا له: أمن عدم القبور بمصر أخرجتنا لنموت فى البر أما قلنا لك :دعنا نخدم المصريين فهو خير من موتنا فى البر فقال لهم موسى : لا تخافوا وانظروا إغاثة الله تعالى لكم ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فتحول عمود الغمام إلى ورائهم وصار بينهم وبين فرعون وجنوده ودخل الليل ولم يتقدم أحد من جنود فرعون طول الليل وشق البحر ثم دخل بنو اسرائيل وليس فى هذا ما يصحح أمر الحالية المذكورة فتأمل ه

وقرأ الاعمش . وابن وثاب (ترا) بغير همز على مذهب التخفيف بين بين ولا يصح تحقيقها بالقلب للزوم ثلاث ألفات متسقة وذلك مما لا يكون أبدا قاله أبو الفضل الرازى ، وقال ابن عطية . وقرأ حمزة (ترئى) بكسر الراء وبمد ثم بهمز، وروى مثله عن عاصم وروى عنه أيضا (تراءى) بالفتح والمد، وقال أبو جعفر احمد بن على الانصارى فى كتابه الاقناع (تراءى الجمعان) فى الشعراء إذا وقف عليها حمزة. والكسائى أمالا الألف المنقلبة عن لام الفعل ، وحمزة يميل الف تفاعل وصلا ووقفا كامالة الألف المنقلبة ه

وقرىء (فلما تراءت) الفئتان ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ٦١﴾ أى لملحقون جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرف التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجيزهما، وأرادوا بذلك التحزن وإظهار الشكوى طلبا للتدبير . وقرأ الأعرج . وعبيد بن عمير « لمدركون » بفتح الدال مشددة وكسر الراء من الادراك بمعنى الفناء والاضمحلال يقال: أدرك الشىء إذا فنى تتابعا وأصله التتابع وهو ذهاب أحد على أثر آخر ثم صار فى عرف اللغة بمعنى الهلاك وأن يفنى شيئا فشيئا حتى يذهب جميعه ،وقد جاء التتابع بهذا المعنى فى قول الحماسى:

Marfat.com

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع

والمعنى انا لهالكون على أيديهم شيئا فشيئا ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ردعالهم عن ذلك وارشاداً إلى أن تدبير الله عز وجل يغنى عن تدبيره: ﴿ كَلَّا ﴾ لن يدر كوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة ﴿ سَيَهْدِينِ ٦٢ ﴾ قريبا إلى مافيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم ،ولم يشركهم عليه السلام فى المعية والهداية اخراجا للكلام على حسب مااشاروا اليه فى قولهم(إنا لمدر كون)من طلب التدبير منه عليه السلام ، وقيل : لماكان عليه السلام هو الاصل وغيره تبع له محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته قال:(معى)دون معنا و كذا قال: (سيهدين) دون سيهدينا ، وقيل : قال ذلك جزاء لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له عليه السلام (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) حتى خافوا فقالوا ماقالوا فان الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام فى مدة بقائهم معه فى مصر أوغفلتهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القبط فى مصر حيث لم يصبهم ماأصابهم من الدم ونحوه من الآيات المقتضية بواسطة حسن الظن انجاءهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم اشراكهم فيما ذكر لأنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر فان تقديمه لاجل الاهتمام بأمر المعية التى هى مدار النجاة المطلوبة ، وقيل : للحصر لكن بالنسبة إلى فرعون وجمعه ، وقيل : على القول الثانى فى توجيه عدم اشراكهم : إنه للحصر بالنسبة اليهم أيضا على معنى إن معى أولا وبالذات ربى لا معكم كذلك ، وقيل : قدم المعية هنا وأخرت فى قوله تعالى(إن الله معنا)لأن المخاطب هنا بنو اسرائيل وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام والمخاطب هناك الصديق رضى الله تعالى عنه وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شئ، ولاختلاف المقام نظم نبينا ﷺ صاحبه معه فى المعية ولم يقدم له ردعا وزجرا وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بماصورته النهى عن الحزن ،وأتى بالاسم الجامع وهو لفظ الله دون اسم مشعر بصفة واحدة مثلا ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطرز وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض *

وزعم بعضهم أن فى الكلام حذفا والتقدير إن معى وعد ربى ولذلك قال: (معى) دون معنا وفيه مافيه * ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ هو القلزم على الصحيح ، وقيل : بحر من وراء مصر يقال له اساف ، وقيل : النيل،والظاهر أن هذا الايحاء كان بعد القول المذكور ولم يكن مأمورا بالضرب يوم الامر بالاسراء ،فقد أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد أنه لما انتهى موسى عليه السلام و بنو اسرائيل إلى البحر قال مؤمن آل فرعون: يانبى الله أين أمرت فان البحر أمامك وقد غشينا آل فرعون فقال:أمرت بالبحر فاقتحم مؤمن آل فرعون فرسه فرده التيار فجعل موسى عليه السلام لايدرى كيف يصنع وكان الله تعالى قد أوحى إلى البحر أن أطع موسى وآية ذلك إذا ضربك بعصاه فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر *

وأخرج أيضا من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس أن موسى لما انتهى إلى البحر أقبل يوشع ابن نون على فرسه فمشى على الماء واقتحم غيره خيولهم فرسوا فى الماء ،وقال اصحاب موسى: (انا لمدر كون)فدعا موسى ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه ؛ وقيل : له اضرب بعصاك البحر ؛ وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع

Marfat.com

إذا ضربك فبات البحر له أفكل أى رعدة لا يدرى من أى جوانبه يضربه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد ابن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شىء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر • وروى أنه عليه السلام قال: اللهم لك الحمد واليك المشتكى واليك المستغاث وأنت المستعان ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ، وفى الدر المنثور من رواية أبن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مايدل على أنه عليه السلام قال ذلك حين الانفلاق ﴿ فَانفَلَقَ ﴾ أى فضربه فانفلق فالفاء فصيحة ، وزعم ابن عصفور فى مثل هذا التركيب أن المحذوف هو ضرب ،وفاء انفلق والفاء الموجودة هى فاء ضرب وهذا أشبه شىء بلغى العصافير وكأنه كان سكران حين قاله ، وفى هذا الحذف اشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام ،وإنما أمر عليه السلام بالضرب فضرب وترتب الانفلاق عليه اعظاما لموسى عليه السلام بجعل هذه الآية العظيمة مترتبة على فعله ولو شاء عز وجل لفلقه بدون ضربه بالعصا، ويروى أنه لم ينفلق حتى كناه بأبى خالد فقال انفلق أبا خالد: وكان بأمر الله تعالى إياه بذلك ، وعن قيس بن عباد أنه عليه السلام حين جاءه قال له: انفلق أبا خالد فقال: لن أنفلق لك ياموسى أنا أقدم منك وأشد خلقا فنودى عند ذلك اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، وفى رواية عن ابن مسعود أنه عليه السلام حين انتهى اليه قال: انفرق فقال له: لقد استكبرت ياموسى وهل انفرقت لاحد من ولد آدم فاوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ، وفى حديث أخرجه الخطيب فى المتفق والمفترق عن أبى الدرداء مرفوعا أنه عليه السلام ضربه فتأطط كما يتأطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع وهذا صريح فى أن الضرب كان ثلاثا ، وقيل : ضربه مرة واحدة فانفلق ، وقيل : ضربه اثنتى عشرة مرة فانفلق فى كل مرة عن مسلك لسبط •

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جبير أنه قال : كان البحر سا كنا لا يتحرك فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويجزر ولا أظن لهذا صحة ، والظاهر أن المد والجزر كانا قبل أن يخلق الله تعالى موسى عليه السلام ولا ينبغى لعاقل اعتقاد غيره ،ومثل هذا عندى كثير من الاخبار السابقة،والاسلم الاقتصار على ما قص الله تعالى من أنه أوحى سبحانه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٣ ﴾ أى كالجبل المنيف الثابت فى مقره،وظاهر الآية أن الطود مطلق الجبل ،وقال فى الصحاح:الطود الجبل العظيم •

والمراد بالفرق قطعة من الماء ارتفعت فصار ما تحتها كالسرداب على ما ذكره بعض الأجلة،وحينئذ لا اشكال فى قول من قال: ان الفروق اثنا عشرة والمسالك كذلك بعدة أسباط بنى اسرائيل وقد سلك كل سبط منهم فى مسلك منها ، والمشهور أن الفرق قطعة انفصلت من الماء عما يقابلها وحينئذ لا يتأتى ذلك القول بل لابد عليه على ما قيل من كون الفروق ثلاثة عشر حتى يحصل فى خلالها اثنا عشر مسلكا بعدد الأسباط ، وقيل : إذا كانت الفروق اثنى عشر فلابد أن تكون المسالك ثلاثة عشر لأن الفرق الأول والثانى عشر لابد أن يكونا منفصلين عما يحاذيهما من البحر فيكون بين كل منهما وبين ما يحاذيه من البحر مسلك وإن لم يكن كسائر المسالك بين فرقين إذ لو اتصلا لم يميزا عنه ولم يتحقق حينئذ اثنا عشر فرقا بل أقل ،ولا بعد فى أن يختار كون الفروق اثنى عشر والمسالك ثلاثة عشر بجعل الفرق الأول والثانى عشر منفصلين عما يحاذيهما من البحر بين كل

Marfat.com

منهما وبينه مسلك ،ويقال:إن كل سبط من الأسباط الاثنى عشر سلك فى مسلك وسلك فى الثالث عشر من امن بموسى عليه السلام من القبط انتهى *

وأورد عليه أنه لم يذكر فى الآثار أن المسالك ثلاثة عشر وإنما المذكور فيها أنها اثنا عشر ومن ادعى ذلك فعليه البيان، والأبعد عن القيل والقال ما تقدم عن بعض الأجلة وأثر قدرة الله تعالى عليه أعظم،وخلق الداعية إلى سلوك ذلك فى قلوب الداخلين لاسيما قوم فرعون أغرب وكذا الاحتياج إلى الكوى أظهر *

فقد روى أن بنى اسرائيل قالوا:نخاف أن يغرق بعضنا ولا نشعر فجعل الله تعالى بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا، نعم قيل عليه:إن فى بعض الآثار ما يأباه، فقد أخرج أبو العباس محمد بن اسحق السراج فى تاريخه.وابن عبد البر فى التمهيد من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن صاحب الردم كتب إلى معاوية يسأله عن أشياء منها مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ولا بعد فيه فلم يعلم معاوية جواب ذلك فكتب يسأل ابن عباس فاجاب عن كل إلى أن قال:وأما المكان الذى طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ولا بعد فيه فالمكان الذى انفلق من البحر لبنى اسرائيل فان كون الفرق مقببا كالسرداب مانع من طلوع الشمس وشروقها على الأرض من غير واسطة كما هو الظاهر من السؤال *

وأجيب بانه بعد تسليم صحة الخبر لا إباء لجواز شروق الشمس على أرض الفرق المقبب من غير واسطة من جهة المدخل والمخرج أو شروقها على أرض البحر قبل التقبيب ولم يتعرض المفسرون هنا فيما وقفت عليه لكيفية الانطلاق ، وقد رأيت فيما ينسب إلى كليات أبى البقاء أنه قد ورد أن بنى اسرائيل لما دخلوا البحر خرجوا من الجانب الذى دخلوا منه وحينئذ لا يتاتى ذلك على كون الانفلاق خطيا وإنما يتاتى على كونه قوسيا ثم انه ذكر فى عدة الفروق والمسالك كلاما ظاهره الاختلال،وقد تصدى بعض الفضلاء لشرحه وتوجيهه بما لايخلو عن تعسف ،وحاصل ماذكره ذلك البعض مع زيادة ما أنه يحتمل إذا كان انفلاق البحر الى اثنى عشر فرقا أن يكون الفرق الأول والثانى عشر متصلين بالبر الشطى بان يكون الماء الواقع حذاء كل منهما من جهة البر مرتفعا ومنضما الى كل ومعدودمن أجزائه بحيث يصير الماء المرتفع المنضم والفرق الأصلى المنضم اليه فرقا واحدا متصلا طرفه بالبر من غير فصل بينه وبينه بشىء.واورد عليه أنه يلزم عليه أن تكون المسالك أحد عشر فيحتاج إلى سلوك سبطين معا أو متعاقبا فى مسلك واحد أوسع من سائر المسالك أو مساو له ولا خفاء فى انه خلاف الظاهر والمأثور ، وأيضا يلزم أن يكون كل من الفرقين الأول والثانى عشر أعظم غلظا من كل من البواقى لما سمعت من الانضمام والظاهر تساويها فيه،وأيضا يلزم خروج الماء الملاصق للبر عما الأصل فيه من غير داع اليه،ويحتمل أن يكون الماء الواقع حذاء كل من الأول والثانى عشر من جهة البر مرتفعا بمعنى ذاهبا ويكون الفرقان المذكوران متصلين بالبر باعتبار أنهما متصلان بالمسلكين الظاهرين من تحت الماء الذاهب المتصلين بالبر .ويرد عليه بعض ماورد على سابقه وبقاء سبط من بنى اسرائيل أو سبطين بلا حاجب لهم عن فرعون وجنوده من الماء *

ويحتمل أن يكونا منفصلين عن البر بأن يبقى الماء المتصل به على حاله بحرا من غير ارتفاع وحينئذ يحتمل أن تكون المسالك ثلاثة عشر باعتبار انكشاف الأرض بين الفرق الأول والبحر الباقى على حاله المتصل

Marfat.com

بالبر فيكون هذا المسلك خارج الطود الأول وانكشافها بين الفرق الثانى عشر والبحر الباقى على حاله المتصل بالبر من الجانب الآخر فيكون هذا المسلك خارج الفرق الثانى عشر ، وعلى هذا الاحتمال يلزم تعطل أحد المسالك أو التزام سلوك من آمن من القبط فقط فيه ، ويحتمل أن تكون المسالك اثنى عشر كالفروق بأن يكون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقى على حالة المتصل بالبر من جهة فرعون وجنوده فقط أو يكون الانكشاف بين الفرق الثانى عشر والبحر الباقى على حاله من الجانب الآخر فقط ، وهذا بعيد لعظم هذا القوس المنكشف جدا وطول زمان قطعه، فالظاهر وقوع احتمال كون الانكشاف بين الفرق الأول والبحر الباقى على حاله من جهة فرعون ، وبالجملة احتمال انفصال الفرقين الأول والأخير وكون الانكشاف بين الأول والبحر مما يلى فرعون دون الأخير والبحر مما يلى الجانب الآخر واتحاد المسالك والفروق فى كون كل اثنى عشر هو الأقرب للوقوع اه *

ولا يخفى أنه يلزم عليه أن لا يكون جميع المسالك فى خلال الفروق فان لم يتعين القول بكون جميعها فيه إذ ليس فى الآثار أكثر من كون المسالك اثنى عشر مسلكا فلا بأس به ، وان استحسنت ماتقدم عن بعض الأجلة فى المراد بالفرق فاعتبره على تقدير كون الانفلاق قوسيا أيضا ، ثم إن ماذكر من كون الخروج من جهة الدخول لم أره فى غير ماينسب إلى كليات أبى البقاء وهو أوفق بالقول برجوع موسى عليه السلام وقومه إلى مصر بعد الخروج من البحر واغراق فرعون وجنوده فيه وتوقف ذلك على كون الانفلاق قوسيا لأنه لو كان خطيا يلزم أن يكون الرجوع فى طريق الدخول وهو ظاهر البطلان لأن الأعداء فى أثرهم ، واحتمال أن تكون المسالك الخطية ثلاثة عشر وأن بنى اسرائيل سلكوا اثنى عشر منها واتبعهم فيها فرعون وجنوده وخرجوا قبل أن يصلوا اليهم ودخلوا جميعا فى المسلك الثالث عشر من الجانب المخالف لجانب دخولهم متوجهين فيه إلى جانب دخولهم فلم يخرجوا حتى صار جميع أعدائهم فى تلك المسالك الاثنى عشر التى اتبعوهم فيها فخرجوا وغشى أعداءهم من اليم ماغشيهم لا يخفى مافيه ، والقول بالعود إلى مصر مع القول بأن الانفلاق كان خطيا يتوقف على هذا أو على الانفلاق مرة أخرى أو على العبور بالسفن أو سلوك طريق إلى مصر غير الطريق الذى سلكوه خارجين منها إلى البحر ه

والظاهر انه لم يكن شىء من ذلك ، ولا بأس على ماقيل بالقول بكون الانفلاق قوسيا سواء قلنا بالرجوع إلى مصر أم لا ، ومايقال عليه من أنه يلزم حينئذ أن تكون مداخل تلك المسالك ومخارجها فى جانب فرعون وجنوده وذلك مما يوجب خوف بنى اسرائيل من الدخول لاحتمال أن يدخل عليهم أعداؤهم من الطرف الآخر الذى هو محل الخروج فيلاقوهم فى الطريق على طرف الثمام كما لا يخفى على ذوى الأفهام ه

وجوز على القول بان الانفلاق كان قوسيا أن يكون دخول موسى عليه السلام وقومه من أحد طرفى القوس ودخول فرعون وجنوده من الطرف الآخر ليلاقوا موسى عليه السلام وقومه حتى إذا كمل الجمعان دخولا رجع موسى عليه السلام وقومه القهقرى حتى إذا خرجوا جميعا أغرق الله تعالى فرعون وجنوده أو حتى إذا كمل جمع موسى عليه السلام دخولا وبان لهم أول الداخلين لملاقاتهم رجعوا القهقرى حتى إذا خرجوا جميعا وقد كمل جمع فرعون دخولا أهلك الله تعالى عدوهم فغشيه من اليم ماغشيه وهو كما ترى ه

Marfat.com

والذى ذهب اليه أهل الكتاب أن الانفلاق كان خطيا وأن المسالك اثنى عشر مسلكا لكل سبط مسلك ولا تقبيب هناك وأنه قد فتحت لهم كوى ليرى القريب قريبه و يرى الرجل من سبط زوجته من سبط آخر وأنهم خرجوا من الجهة المقابلة لجهة دخولهم وتوجهوا إلى أرض الشام، وليس فى كتابنا ماهو نص فى تكذيبه بل فى الاخبار ما يشهد بصحة بعضه، واتحاد الفروق والمسالك فى العدد يحتاج إلى نقل صحيح يثبته ،والآية هنا لا تدل على أكثر من تعدد الفروق والله تعالى أعلم ، وحكى يعقوب عن بعض القراء أنه قرأ « كل فاق » باللام بدل الراء، قال الراغب: الفرق يقارب الفلق لكن الفاق يقال اعتبارا بالانشقاق والفرق يقال اعتبارا بالانفصال، ومنه الفرقة للجماعة المنفردة من الناس ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ عطف على (أوحينا) ،وقيل : على محذوف يقتضيه السياق والتقدير فادخلنا بنى اسرائيل فيما انفلق من البحر وأزلفنا ﴿ ثَمَّ ﴾ أى هنالك ﴿ الْآخَرِينَ ٦٤ ﴾ أى فرعون وجنوده أى قربناهم من قوم موسى عليه السلام حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم، وجوز أن يراد قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد •

أخرج ابن عبد الحكم عن مجاهد قال : كان جبريل عليه السلام بين الناس بين بنى اسرائيل وبين آل فرعون فجعل يقول لبنى اسرائيل: ليلحق آخركم باولكم ويستقبل آل فرعون فيقول: رويدكم ليلحقكم آخركم فقالت بنو اسرائيل: مارأينا سائقا أحسن سياقا من هذا وقال آل فرعون: مارأينا وازعا أحسن زعة من هذا ، وقرأ الحسن. وأبو حيوة . « وزلفنا » بدون همزة ، وقرأ أبى وابن عباس . وعبد الله بن الحرث (وأزلقنا) بالقاف عوض الفاء أى أزلقنا أقدامهم، والمعنى اذهبنا عزهم كقوله :

تدار كتما عبسا وقد ثل عرشها وذبيان اذ زلت باقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله تعالى طريقهم فى البحر على خلاف ماجعله لبنى اسرائيل يبسا فيزلقهم فيه •

هذا وقال صاحب اللوامح: قيل من قرأ بالقاف أراد بالآخرين فرعون وقومه ومن قرأ بالفاء أراد بهم موسى عليه السلام وأصحابه أى جمعنا شملهم وقربناهم بالنجاة . ولا يخفى أنه يبعد ارادة موسى عليه السلام وأصحابه من الآخرين قوله سبحانه ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥ ﴾ أى وانجيناهم من الهلاك فى أيدى أعدائهم ومن الغرق فى البحر بحفظه على تلك الهيئة إلى أن خرجوا إلى البر، وقيل : « ومن معه » الاشارة إلى أن انجاءهم كان ببركة مصاحبة موسى عليه السلام ومتابعته ، وقيل : لينتظم من آمن به عليه السلام من القبط إذ لو قيل وقومه لتبادر منه بنو اسرائيل وفيه بحث ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٦٦ ﴾ فرعون وجنوده باطباق البحر عليهم بعد خروج موسى عليه السلام ومن معه وكان له وجبة . روى عن ابن عباس أن بنى اسرائيل لما خرجوا سمعوا وجبة البحر فقالوا: ماهذا؟ فقال موسى عليه السلام: غرق فرعون وأصحابه فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل، والتعبير عن فرعون وجنوده بالآخرين للتحقير ، والظاهر ان « ثم » للتراخى الزمانى ،ولعل الاولى حملها على التراخى المعنوى لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ اشارة إلى ماذكر من القصة، وما فيه من معنى البعد لتعظيم شان المشار اليه، وقيل : لبعد المسافة بالنظر إلى مبدأ القصة ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لآية عظيمة توجب الايمان بموسى عليه السلام وتصديقه بما جاء به ، وأريد بها على ما قيل انقلاب العصا ثعبانا وخروج يده عليه

Marfat.com

السلام بيضاء للناظرين وانفلاق البحر وافردت لاتحاد المدلول *

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٧ ﴾ أى أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى عليه السلام أن ياتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم سوى مؤمن آل فرعون. وآسية امرأة فرعون، وبعض السحرة على القول بأن بعضهم من القبط لا كلهم كما عليه أهل الكتاب وهو الذى يقتضيه ظاهر كلام بعض منا .والعجوز التى دلت موسى على قبر يوسف عليهما السلام ليلة الخروج من مصر ليحمل عظامه معه ، وقيل: المراد بالآية ماكان فى البحر من انجاء موسى عليه السلام ومن معه واغراق الآخرين، وضمير «أكثرهم» للناس الموجودين بعد الاغراق والانجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا معه لعذر ومن بنى اسرائيل، والمراد بالايمان المنفى عنهم التصديق اليقينى الجازم الذى لا يقبل الزوال أصلا أى وماكان أكثر الناس الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مصدقين تصديقا يقينيا جازما لا يقبل الزوال فان الباقين فى مصر من القبط لم يؤمن أحد منهم مطلقا وأكثر بنى اسرائيل كانوا غير متيقنين ولذا سألوا بقرة يعبدونها وعبدوا العجل فلا يقال لهم مؤمنون بالمعنى المذكور، ويكفى فى إيمان البعض الذى يدل عليه المفهوم كون البعض المؤمن من بنى اسرائيل وحيث كان المراد وما كان أكثرهم بعد تحقق آيتى الأغراق والانجاء وظهورهما مؤمنين لا يصح جعل الضمير للقبط لابيان الاقل المؤمن والاكثر الكافر منهم بعد تحقق الآيتين، وماذكر فى بيان الاقل المؤمن منهم ليس كذلك إذ ايمان من ذكر كان فى ابتداء الرسالة على أن العجوز من بنى اسرائيل كما جاء فى حديث أخرجه الفريابى . وعبد بن حميد . وابن أبى حاتم . والحاكم وصححه عن أبى موسى مرفوعا بل أخرج ابن عبد الحكم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما (١) انها شارح ابنة أشير بن يعقوب عليه السلام فهى بنت أخى يوسف عليه السلام فتكون أقرب من موسى عليه السلام إلى اسرائيل *

وأجيب بان من يرجع الضمير على القبط لا يلزمه أن يفسر الآية بالاغراق والانجاء بل يقول: المراد بها المعجزات من العصا . واليد .وانفلاق البحر ويقول: إن إيمان الأقل بعد تحقق بعضها كاف لاتحاد مدلولها فى تحقق المفهوم ، وأما إرجاع الضمير على الناس الموجودين بعد الاغراق والانجاء من بنى اسرائيل وقوم فرعون الذين لم يخرجوا معه فخلاف الظاهر وكذا حمل الايمان على ما ذكر وجعل أكثر بنى اسرائيل المخصوصين بالانجاء غير مؤمنين وإن حصل منهم عند وقوع بعض الآيات ما لا ينبغى صدوره من المؤمنين فانهم لم يستمروا عليه. فقد أخرج الخطيب فى المتفق والمفترق عن أبى الدرداء جعل النبى ﷺ يصفق بيديه ويعجب من بنى اسرائيل وتعنتهم لما حضروا البحر وحضر عدوهم جاؤا موسى عليه السلام فقالوا: قد حضرنا العدو فماذا أمرت قال :ان أنزل هنا فاما أن يفتح لى ربى ويهزمهم وإما أن يفرق لى هذا البحر فانطلق نفر منهم حتى وقعوا فى البحر فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فتأطط كما يتاطط العرش ثم ضربه الثانية فمثل ذلك ثم ضربه الثالثة فانصدع فقالوا هذا عن غير سلطان موسى فجازوا البحر فلم يسمع بقوم أعظم ذنبا ولا أسرع توبة منهم *

ومتى حمل الايمان على ما ذكر وصح نفى الايمان عمن صدر منه ما يدل على عدم رسوخه جاز ارجاع الضمير

(١) وذكر بعضهم أن اسم هذه العجوز مريم بنت ياموشا اه منه

Marfat.com

على بنى اسرائيل خاصة فان أكثرهم لم يكونوا راسخين فيه. وظاهر عبارة بعضهم يوهم ارجاعه اليهم وليس ذاك بشىء، وقد سالك شيخ الاسلام فى تفسير الآية مسلكا تفرد فى سلوكه فيما أظن فقال: إن فى ذلك أى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال ومافعل بهم من العذاب والنكال لآية أى آية وآية عظيمة لاتكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى ﷺ بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك الهلكين ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله ﷺ كيلا يحل بهم ماحل بأولئك أو إن فيما فصل فى القصة من حيث حكايته عليه السلام إياها على ما هى عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله ﷺ وما كان أكثرهم أى أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام مؤمنين لابأن يقيسوا شانه ﷺ بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولابأن يتدبروا فى حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدى إلى الايمان قطعا، ومعنى (ماكان أكثرهم مؤمنين) ما أكثرهم مؤمنين على ان (كان) زائدة كما هو رأى سيبويه فيكون كقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد سماع الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من قوله تعالى (مايأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا) الخ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه *

ويجوز أن تجعل (كان) بمعنى صار كما فى قوله تعالى (وكان من الكافرين) فالمعنى وماصار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة الايمان بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وادعى إن هذا التفسير هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخر القصص السبع بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا. ثم قال: وأما ماقيل من أن ضمير (أكثرهم) لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم إلا ماسية ومؤمن آل فرعون والعجوز التى دلت على قبر يوسف عليه السلام وبنو اسرائيل بعد ماتجاوزوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» فبمعزل عن التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة فى السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ماشاهدوا مابايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ماهم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم لاسيما بعد الاخبار بهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا واخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم فى شىء مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله. ورجوع ضمير (أكثرهم) فى قصة ابراهيم

Marfat.com

عليه السلام إلى قومه مما لاسبيل اليه أيضا أصلا لظهور أنهم ما ازدادوا بماسمعوه منه إلا طغيانا و كفرا حتى اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوها به فكيف يعبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم وإنما مامن له لوط فنجاهما الله تعالى الى الشام فتدبر اه *

وتعقب بأن فيها محذورا من عدة أوجه .أما أولا فلأن حمل كان على الصلة مع ظهور الوجه الصحيح غير صحيح . وقد لزم هنا بعد هذا حمل الجملة الاسمية باعتبار الاستمرار على أنهم لا يكونون بعد نزول هذه الآية مؤمنين . وإن جعل بمعنى صار يلزم جعله مضارعا لكن عدل عنه للدلالة على كمال التحقق. وهذا أيضا مع إمكان المعنى العارى عن الاحتياج لذلك غير مناسب .وأما ثانيا فلأن إرجاع ضمير (أكثرهم) إلى قوم نبينا ﷺ صرف عن مرجعه المتقدم المذكور لفظا سيما فى القصص الآتية المصدرة بكذبت.وأما ثالثا فلأن قوله : لابان يقيسوا شانه عليه الصلاة والسلام بشان موسى عليه السلام الخ لا يخلو عن صعوبة إذ الأمر المشترك بينهما عليهما الصلاة والسلام ليس إلا أن كلا منهما نبى مؤيد بالمعجزات مطلقا .وأماان نظر إلى خصوصيات المعجزات فلا يخفى انه لا مشاركة بينهما.وكذا قياس حالهم على حال فرعون وقومه لا يخلو عنها على هذا القياس.وأما رابعافلأن قوله تعالى (إن فى ذلك لآية) الخ قد ذكر على هذا النسق فى سبعة مواضع ولا بد من تنسيق تفسيره على نظام واحد فيها مهما أمكن .ومن جملة ذلك ما فى قصة نبى الله تعالى لوط عليه السلام وقد ذكر فيها من حال قومه فعلهم الشنيع للمعهود ثم إهلاك جميعهم .ومافى قصة نبي الله تعالى شعيب عليه السلام وقد ذكر فيها من حال أصحاب الايكة عملهم المتعلق بالكيل والوزن ثم إهلاك جميعهم من غير تصريح بحيثية كفر كل قوم فلا يناسب فيهما أن يقال : إن فى ذلك لآية موجبة لايمان قريش بان يقيسوا حال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويحتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطون من المعاصى هذا على الطريق الاول . وأما الطريق الثانى ففيه أيضا عدة محذورات *

أما أولا وثانيا فلما ذكر أولا وثانيا. وأماثالثا فلأن كلا من كلتا القصتين ذكر هنا على وجه الاجمال وذكر مفصلا فى سورة أخرى وكل منهما ذكر محدث بحسب نزوله فلا وجاهة فى ان يقال :وما أكثرهم مؤمنين بك بأن يتدبروا فى حكايتك لقصتهم من غير أن تسمعها من أحد بناء على أنهم قد سمعوهامنه عليه الصلاة والسلام مفصلة قبل نزول هذه الآية مع أن كون حكايته صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك من غير أن يسمعه من أحد مما يؤدى إلى ايمانهم قطعا محل تردد ، وأما رابعا فلان آخر هذه القصة قوله تعالى : (وأنجينا . ثم أغرقنا) وكذا آخر قصة لوط عليه السلام قوله تعالى : (فنجيناه. ثم دمرنا. وأمطرنا) فالمتبادر أن تكون الاشارة إلى نفس المحكى المشتمل على الأفعال العجيبة الالهية لا إلى حكايتها .وأماماقاله فى تزييف ما قيل فليس بشىء أيضا لأن نسبة التكذيب إلى كل قوم من الأقوام الذين نسب اليهم إنما هى باعتبار الأكثر كما يرشد اليه قوله تعالى فى قصة قوم نوح عليه السلام حكاية عنهم بعد ان قال سبحانه : (كذبت قوم نوح المرسلين) (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقوله عز وجل بعد ذلك حكاية عن نوح عليه السلام ماقال فى جوابهم (وما أنا بطارد المؤمنين) فيكون ضمير (اكثرهم)راجعا إلى القوم غير ملاحظ فيهم ذلك .ومثله كثير فى الكلام ؛ويراد بالأكثر فى المواضع السبعة جمع موصوفون بزيادة الكثرة سواء كان البعض المؤمن واحدا او أكثر فلا يرد أنه كيف يعبر عن قوم ابراهيم عليه السلام بعدم إيمان أكثرهم وانما آمن

Marfat.com

له لوط عليه السلام فتأمل انتهى، ولايخفى ما فيه من الغث والسمين ه

وأنا أختار كما اختار شيخ الاسلام رجوع الضمير إلى قوم نبينا عليه الصلاة والسلام وأول السورة الكريمة وآخرها فى الحديث عنهم وتسليته ﷺ عما قالوه فى شأن كتابه الاكرم ونبيه صريحا واشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات وكل ذلك يقتضى اقتضاء لاريب فيه رجوع الضمير إلى قومه عليه الصلاة والسلام ويهون أمر عدم رجوعه إلى الأقرب لفظا ويكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى *

وأختاران الاشارة إلى ماتضمنته القصة وان المعنى ان فيما تضمنته هذه القصة لآية عظيمة دالة على مايجب على قومك الايمان به من شؤنه عز وجل وما كان أكثرهم مؤمنين بذلك و كذا يقال فى جميع مايأتى ان شاء الله تعالى وكل ذلك على نمط ما تقدم .و كذا الكلام فى (كان) وما يتعلق بالجملة *

والكلام فى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦٨ ﴾ كالكلام فيما تقدم أيضا، ولعل تخريج ما ذكر على هذا الوجه أحسن من تخريج شيخ الاسلام فتأمل والله تعالى أعلم بحقائق ما أنزله من الكلام *

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ عطف على المضمر العامل فى (إذنادى) الخ أى أذكر ذلك لقومك واتل عليهم ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٦٩ ﴾ أى خبره العظيم الشأن حسبما أوحى اليك ليتأكد عندك لعدم تأثرهم بمافيه العلم بشدة عنادهم. وتغيير الاسلوب لمزيد الاعتناء بامر هذه القصة لأن عدم الايمان بعد وقوفهم على ما تضمنته أقوى دليل على شدة شكيمتهم لما أن ابراهيم عليه السلام جدهم الذى يفتخرون بالانتساب اليه والتأسى به عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ منصوب على الظرفية لنبأ على ما ذهب اليه أبو البقاء أى نبأه وقت قوله ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أو على المفعولية لاتل على أنه بدل من نبأ على ما يقتضيه كلام الحوفى أى اتل عليهم وقت قوله لهم ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠ ﴾ على أن المتلو ما قاله عليه السلام لهم فى ذلك الوقت . وضمير (قومه) عائد على ابراهيم، وقيل : عائد على أبيه ليوافق قوله تعالى (إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) ويلزم عليه التفكيك *

وسألهم عليه السلام عما يعبدون ليبنى على جوابهم أن مايعبدونه بمعزل عن استحقاق العبادة بالكلية لا للاستعلام إذ ذلك معلوم مشاهد له عليه السلام ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ٧١ ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافى بأن يقولوا أصناما كما فى قوله تعالى (ماذا انزل ربكم قالوا خيرا . ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو) إلى غير ذلك بل أطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم مع أنه لم يسال عنه قصدا إلى ابراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك . وهو على ماقى الكشف من الأسلوب الأحمق ، والمراد بالظلول الدوام كما فى قولهم : لوظل الظالم هلك الناس. وتكون ظل على هذا تامة. وقد قال بمجيئها كذلك ابن مالك وأنكره بعض النحاة ، وقيل : فعل الشىء نهارا فقد كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل فتكون ظل على هذا ناقصة دالة على ثبوت خبرها لاسمها فى النهار *

واختار بعض الأجلة الأول لتبادر الدوام وكونه أبلغ مناسبا لمقام الابتهاج والافتخار ،واختار الزمخشرى الثانى لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضا لأنه يدل على اعلانهم الفعل لافتخارهم به .و(عاكفين) على الأول حال وعلى الثانى خبر والجار متعلق به. وايراد اللام دون على لافادة معنى زائد كأنهم قالوا نظل لأجلها

Marfat.com

مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها . وهذا أيضا على ماقيل من جملة إطنابهم ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ دخل فعل السماع على غير مسموع ، ومذهب الفارسى أنه حينئذ يتعدى إلى اثنين ولا بد أن يكون الثانى مما يدل على صوت فالكاف هنا عنده مفعول أول والمفعول الثانى محذوف والتقدير هل يسمعونكم تدعون وحذف لدلالة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ ٧٢﴾ عليه. ومذهب غيره أنه حينئذ متعد إلى واحد ، وإذا وقعت بعده جملة ملفوظه أو مقدرة فهى فى موضع الحال منه إن كان معرفة وفى موضع الصفة له إن كان نكرة ●

وجوز فيها البدلية أيضا. واذا دخل على مسموع تعدى إلى واحد اتفاقا ، ويجوز أن يكون ماهنا داخلا على ذلك على أن التقدير هل يسمعون دعاءكم فحذف المضاف لدلالة (إذ تدعون) أيضا عليه ، وقيل : السماع هنا بمعنى الاجابة كما فى قوله ﷺ « اللهم انى أعوذ بك من دعاء لا يسمع» ومنه قوله عز وجل (انك سميع الدعاء) أى هل يجيبونكم وحينئذ لانزاع فى أنه متعد لواحد ولا يحتاج الى تقدير مضاف .والأولى ابقاؤه على ظاهر معناه فانه أنسب بالمقام ، نعم ربما يقال: ان ماقيل أوفق بقراءة قتادة . ويحيى بن يعمر (يسمعونكم) بضم الياء وكسر الميم من أسمع والمفعول الثانى محذوف تقديره الجواب. و(اذ) ظرف لما مضى. وجىء بالمضارع لاستحضار الحال الماضية وحكايتها. واما كون هل تخلص المضارع للاستقبال فلا يضر هنا لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم وهو هنا كذلك لأن السماع بعد الدعاء ، وقال أبو حيان : لابد من التجوز فى (اذ) بان تجعل بمعنى اذا أو التجوز فى المضارع بأن يجعل بمعنى الماضى. واعتبار الاستحضار أبلغ فى التبكيت. وقرىء بادغام ذال (اذ) فى تاء (تدعون) وذلك بقلبها تاء وادغامها فى التاء ●

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ أى يضرونكم بترككم لعبادتهم إذ لابد للعبادة لاسيما عند كونها على ماوصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر. وترك المفعول للفاصلة. ويدل عليه ما قبله ، وقيل : المراد أو يضرون من أعرض عن عبادتهم كائنا من كان وهو خلاف الظاهر الذى يقتضيه العطف ●

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر اعترافا بما لاسبيل لهم إلى انكاره واضطروا إلى اظهار أن لاسند لهم سوى التقليد فكأنهم قالوا: لا يسمعون ولا ينفعوننا ولا يضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم .وتقديم المفعول المطلق للفاصلة ●

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٧٥﴾ أى أنظرتم فابصرتم أو تأملتم فعلمتم أى شىء استمررتم على عبادته أو أى شىء تعبدونه ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ٧٦﴾ والكلام انكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها وأن عبادتها ضلال قديم لا فائدة فى قدمه الاظهور بطلانه كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالاقدمين. وقوله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ قيل: تعليل لما يفهم من ذلك من إنى لا أعبدهم أو لا تصح عبادتهم ، وقيل : خبر لما كنتم إذ المعنى أفاخبرتم وأعلمتكم بمضمون هذا. واختار بعض الاجلة أنه بيان وتفسير لحال مايعبدونه التى لو أحاطوا بها علما لما عبدوه أى فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم تضرر الرجل من جهة عدوه فاطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ ●

Marfat.com

وجوز أن يكون من باب المجاز العقلى باطلاق وصف السبب على المسبب من حيث أن المغرى والحامل على عبادتهم هو الشيطان الذى هو عدو مبين للانسان والأول أظهر . والداعى للتاويل أن الأصنام لكونها جمادات لاتصلح للعداوة. وماقيل: إن الكلام على القلب والاصل فانى عدو لهم ليس بشىء

وقال النسفى: العدو اسم للمعادى والمعادى جميعا فلا يحتاج إلى تاويل ويكون كقوله (وتالله لا كيدن أصنامكم) وصور الامر فى نفسه تعريضا لهم كما فى قوله تعالى (ومالى لاأعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) ليكون أبلغ فى النصح وادعى للقبول . ومن هنا استعمل الأكابر التعريض فى النصح .ومنه مايحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أن رجلا واجهه بشىء فقال : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب.وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحجر فقال: ماهو بيتى ولا بيتكم. وضمير (إنهم) عائد على (ما) وجمع مراعاة لمعناها .وإفراد العدو مع أنه خبر عن الجمع إما لأنه مصدر فى الأصل فيطلق على الواحد المذكر وغيره أو لاتحاد الكل فى معنى العداوة أو لان الكلام بتقدير فان كلا منهم أو لأنه بمعنى النسب أى ذو كذا فيستوى فيه الواحد وغيره كما قيل *

وقوله سبحانه ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ استثناء منقطع من ضمير «إنهم» عند جماعة منهم الفراء.واختاره الزمخشرى أى لكن رب العالمين ليس كذلك فانه جل وعلا ولى من عبده فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل عليه بالمنافع

وقال الزجاج : هو استثناء متصل من ذلك الضمير العائد على (ماتعبدون) ويعتبر شمول لله عز وجل وفى آبائهم الأقدمين من عبد الله جل وعلا من غير شك أو يقال : إن المخاطبين كانوا مشركين وهم يعبدون الله تعالى والأصنام. وتخصيص الأصنام هنا بالذكر للرد لالأن عبادتهم مقصورة عليها ولو سلم أنه لذلك فهو باعتبار دوام العكوف وذلك لاينافى عبادتهم إياه عز وجل أحيانا ، وقال الجرجانى : إن الاستثناء من (ما كنتم تعبدون) و(إلا) بمعنى دون وسوى وفى الآية تقديم وتأخير والأصل أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين أى دون رب العالمين فانهم عدو لى ولايخفى ما فيه ﴿الَّذِى خَلَقَنِى﴾ صفة لرب العالمين. ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين زيادة فى الايضاح فى مقام الارشاد ، وقيل :تصريحا بالنعم الخاصة به عليه السلام وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى *

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾ عطف على الصلة أى فهو يهدينى وحده جل شأنه إلى كل مايهمنى ويصلحنى من أمور المعاش والمعاد هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبىء عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ماخلقه لما خلق له هداية متدرجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره إما طبعا وإما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث فى المشهور ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم ، وجوز الحوفى . وغيره كون الموصول مبتدأ وجملة (هو يهدينى) خبره ودخلت الفاء فى خبره لتضمنه معنى الشرط نحو الذى يأتينى فله درهم .

وتعقبه أبو حيان بأن الفاء انما يؤتى بها فى خبر الموصول لتضمنه معنى الشرط اذا كان عاما وهنا لايتخيل فيه العموم فليس مانحن فيه نظير المثال. وأيضا الفعل الذى هو خلق مما لايمكن فيه تجدد بالنسبة الى ابراهيم عليه السلام فلعل ذلك على مذهب الأخفش من جواز زيادة الفاء فى الخبر مطلقا نحو زيد فاضربه ، وأجيب بأن اشتراط

Marfat.com

العموم غير مسلم كما فصله الرضى وإنما هو أغلبي .وبأن مطلق الخلق مما يمكن فيه التجدد وهو ممكن الارادة وإن ظهر فى صورة المخصوص وتسبب الخالق للهداية بمقتضى الحكمة ، وقيل : إنه سبب للاخبار بها لتحققها وليس بشيء. ويلزم على الاعراب المذكور أن يكون الموصول فى قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩﴾ مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ماقبله عليه وكذا اللذان بعده .ولايخفى مافى ذلك لفظا ومعنى فاللائق بجزالة التنزيل الاعراب الأول وعليه يكون الموصول عطفا على الموصول الأول. وإنما كرر الموصول فى المواضع الثلاثة مع كفاية عطف مافى حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الأول للايذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم حقيق بأن تجرى عليه عز وجل بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها، والظاهر أن المراد إطعام الطعام المعروف وسقى الشراب المعهود وجيء بهو هنا دون الخلق لشيوع اسناد الاطعام والسقى الى غيره عز وجل بخلاف الخالق وعلى هذا القياس فيما جيء فيه بهو وماترك مما ياتى ان شاء الله تعالى.

وعن أبى بكر الوراق ان المعنى يطعمنى بلا طعام ويسقينى بلاشراب كما جاء «انى أبيت يطعمنى ربى ويسقين» وهو مشرب صوفى . وأتى بهذين الصفتين بعد ماتقدم لما أن دوام الحياة وبقاء نظام خلق الانسان بالغذاء والشراب ماسلك فيهما مسلك العدل وهو أشد احتياجا اليهما منه الى غيرهما ألا ترى أن أهل النار وهم فى النار لم يشغلهم ما هم فيه من العذاب عن طلبهما فقالوا .«أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» *

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ ﴾ عطف على «يطعمنى ويسقين» نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالبا

فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقالت الحكماء :لو قيل لأكثر الموتى ماسبب آجالكم لقالوا: التخم ونسبة المرض الذى هو نقمة الى نفسه والشفاء الذى هو نعمة الى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام : (فاردت أن أعيبها) وقال: «فاراد ربك أن يبلغا أشدهما» ولايرد اسناده الاماتة وهى أشد من المرض اليه عز وجل فى قوله :

﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١﴾ لامكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله عز وجل على سائر البشر وحكم عام لا يخص ولا كذلك المرض فكم من معافى منه الى أن يبغته الموت فالتأسى بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة فيسوغ الأدب نسبته اليه تعالى. وأما المرض فلما كان يخص به بعض البشر دون بعض كان نقمة محققة فاقتضى العلو فى الأدب أن ينسبه الانسان الى نفسه باعتبار السبب الذى لا يخلو منه *

ويؤيد ذلك أن كل ما ذكر مع غير المرض أخبر عن وقوعه بتا وجزما لانه أمر لابد منه وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا أورده مقرونا بشرط اذا فقال : (واذا مرضت) وكان يمكنه أن يقول : والذى أمرض فيشفينى كما قال فى غيره فما عدل عن المطابقة والمجانسة المأثورة الا لذلك كذا قاله ابن المنير *

وقال الزمخشرى : انما قال : مرضت دون أمرضنى لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك وكأنه انما عدل فى التعليل عن حسن الأدب لما رأى أنه عليه السلام أضاف الاماتة اليه عز وجل وهى أشد من المرض ولم يخطر له الفرق بما مر أو نحوه وغفل عن أن المعنى الذى أبداه فى المرض ينكسر بالموت أيضا فان المرض كما يكون بسبب تفريط

Marfat.com

الانسان فى المطعم وغيره كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذى يكون بتفريط الانسان وقد أضاف عليه السلام الاماتة مطلقا اليه عز شأنه *

وقال بعض الأجلة بعد التعليل بحسن الأدب فى وجه إسناد الاماتة اليه تعالى: إنها حيث كانت معظم خصائصه عز وجل كالاحياء بدءا وإعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله: (والذى يميتنى ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه السلام للحياة الأبدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه السلام انتهى ، وأولى من هذه العلاوة ما قيل: إن الموت لأهل الكمال وصلة الى نيل المحاب الأبدية التى يستحقر دونها الحياة الدنيوية .وفيه تخليص العاصى من اكتساب المعاصى ، ثم ان حمل المرض والشفاء على ما هو الظاهر منهما هو الذى ذهب اليه المفسرون . وعن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أن المعنى واذا مرضت بالذنوب فهو يشفينى بالتوبة ولعله لا يصح وإن صح فهو من باب الاشارة لا العبارة ، و(ثم) فى قوله (ثم يحيين) للتراخى الزمانى لأن المراد بالاحياء الاحياء للبعث وهو متراخ عن الاماتة فى الزمان فى نفس الأمر وإن كان كل آت قريب ، وأثبت ابن أبى إسحق ياء المتكلم فى (يهدينى) وما بعده وهى رواية عن نافع ﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ٨٢ ﴾ استعظم عليه السلام ما عسى يندر منه من فعل خلاف الاولى حتى سماه خطيئة . وقيل: أراد بها قوله: (إنى سقيم) وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله لسارة هى أختى، ويدل على أنه عليه السلام عدها من الخطايا ما ورد فى حديث الشفاعة من امتناعه عليه السلام من أن يشفع حياء من الله عز وجل لصدور ذلك عنه . وفيه أنه وإن صح عدها من الخطايا بالنظر اليه عليه السلام لما قالوا: ان حسنات الأبرار سيئات المقربين إلا أنه لا يصح إرادتها هنا لما أنها إنما صدرت عنه عليه السلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه . أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه السلام الى الشام ؛ وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام ، ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الأمر، وهذا أولى مما قيل: انها من المعاريض وهى لكونها فى صورة الكذب يمتنع لها من تصدر عنه من الشفاعة ولكونها ليست كذبا حقيقة لا تفتقر الى الاستغفار فلا يصح إرادتها هنا لأن ذلك الامتناع ليس إلا لعده إياها من الخطايا ومتى عدت منها افتقرت الى الاستغفار، وقيل: أراد بها ما صدر عنه عند رؤية الكوكب والقمر والشمس من قوله: (هذا ربى) وكان ذلك قبل هذه المقاولة كما لا يخفى، وقد تقدم أن ذلك ليس من الخطيئة فى شىء، وقيل: أراد بها ما عسى يندر منه من الصغائر وهو قريب مما تقدم، وقيل: أراد بها خطيئة من يؤمن به عليه السلام كما قيل نحوه فى قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، وهو كما ترى والطمع على ظاهره ولم يجزم عليه السلام لعلمه أن لا وجوب على الله عز وجل . وعن الحسن أن المراد به اليقين وليس بذاك .والظرفان متعلقان بيغفر* والاتيان بالاول للاشارة الى أن نفع مغفرته تعالى إنما يعود اليه عليه السلام.وتعليق المغفرة بيوم الدين مع أن الخطيئة إنما تغفر فى الدنيا لأن أثرها يتبين يومئذ ولأن فى ذلك تهويلا لذلك اليوم. وإشارة الى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر. وفى هذه الجملة من التلطف بأبيه وقومه فى الدعوة الى الايمان ما فيها وقرأ الحسن

Marfat.com

(خطايای) على الجمع ﴿ رَبِّ هَبْ لى حُكْماً ﴾ لما ذكر لهم من صفاته عز وجل مما يدل على كمال لطفه تعالى به ما ذكر حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد . والمرادبالحكم على ما اختاره الامام الحكمة التى هى كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لاجل العمل به .وقيل:الأولى أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شؤنه عز وجل وأحكامه التى يتعبد بها .وقيل:هى النبوة. وردبأنها كانت حاصلة له عليه السلام . فالمطلوب إما عين الحاصل وهو محال ضرورة امتناع تحصيل الحاصل أو غيره وهو محال أيضاً لأن الشخص الواحد لا يكون نبياً مرتين.وأجيب بمنع كونها حاصلة وقت الدعاء سلمنا ذلك إلا أنه لا محذور لجواز أن يكون المراد طلب كمالها ويكون بمزيد القرب والوقوف على الأسرار الالهية والانبياء عليهم السلام متفاوتون فى ذلك. وجوز أن يكون المراد طلب الثبات ولا يجب على الله تعالى شىء. والمراد بقوله ﴿ وَأَلْحِقْنى بالصَّالحينَ ٨٣ ﴾ طلب كمال القوة العملية بأن يكون موفقا لأعمال ترشحه للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها . وقدم الدعاء الأول على الثانى لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية لأنه يمكن أن يعلم الحق وان لم يعمل به وعكسه غير ممكن . ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن فكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل.وقيل:المراد بالحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل. والمراد بقوله:(وألحقنى)الخ طلب الكمال فى العمل.وذكره بعد ذلك تخصيص بعد تعميم اعتناء بالعمل من حيث انه النتيجة والثمرة للعلم.وقيل: المراد بالاول مايتعلق بالمعاش وبالثانى ما يتعلق بالمعاد . وقيل:المرادبالحكم رياسة الخلق وبالالحاق بالصالحين التوفيق للعدل فيما بينهم مع القيام بحقوقه تعالى.وقيل:المراد بهذا الجمع بينه عليه السلام وبين الصالحين فى الجنة .وأنت تعلم أنه لا يحسن بعد هذا الدعاء طلبه أن يكون من ورثة جنة النعيم.والأولى عندى أن يفسر الحكم بالحكمة بمعنى الكمال فى العلم والعمل والالحاق بالصالحين بجعل منزلته كمنزلتهم عنده عزوجل والمراد بطلب ذلك أن يكون علمه وعمله مقبولين إذ ما لم يقبلا لا يلحق صاحبهما بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم .وكأنه لذلك عدل عن قول : رب هب لى حكما وصلاحا أو رب هب لى حكما واجعلنى من الصالحين الى ما فى النظم الكريم فتأمل ولا تغفل ﴿ وَاجْعَلْ لّى لسَانَ صدْق فى الْآخرينَ ٨٤ ﴾ أى اجعل لنفعى ذكراً صادقا فى جميع الأمم الى يوم القيامة . وحاصله خلد صيتى وذكرى الجميل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة التى يقتدى بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون. فاللسان مجاز عن الذكر بعلاقة السببية واللام للنفع ومنه يستفاد الوصف بالجميل، وتعريف (الآخرين) للاستغراق والكلام مستلزم لطلب التوفيق للآثار الحسنة التى أشرنا اليها وكأنه المقصود بالطلب على أبلغ وجه ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ومدحه بما كان عليه عليه السلام فى زمانه ليكون الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى ورضائه كما ورد فى الحديث يحسن طلبه من الأكابر من هذه الجهة والقصد كل القصد هو الرضا ه

ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يبعث فيها نبى وأنه عليه السلام طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبى فيهم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم اليه من التوحيد معلما لهم أن ذلك ملة

Marfat.com

إبراهيم عليه السلام فكأنه طلب بعثة نبي كذلك فى آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة وليس ذلك إلا نبينا محمدا ﷺ وقد طلب بعثته عليها الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذكر أعنى قوله: (وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) الخ ، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا دعوة ابراهيم عليه السلام» *

وقيل اذا أريد ذلك فلابد من تقدير مضاف فى كلامه عليه السلام أى اجعل لى صاحب لسان صدق فى الآخرين أو جعل اللسان مجازاً عن الداعى باطلاق الجزء على الكل لأن الدعوة باللسان فكأنه قال: اجعل لى داعيا الى الحق صادقا فى الآخرين ، ولا يخفى أن فيما ذكرناه غنى عن ذلك كله. وفى تعليقات شيخ مشايخنا العلامة صبغة الله الحيدرى طاب ثراه على تفسير البيضاوى فى هذه الآية كلام ناشىء من قلة إمعان النظر فلا تغتر به *

واستدل الامام مالك بهـــذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ، وفائدة ذلك بعد الموت على ما قال بعض الأجلة انصراف الهمم الى ما به يحصل له عند الله تعالى زلفى وانه قد يصير سببا لاكتساب المثنى أو غيره نحو ما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» ولا يخفى عليك أن الامور بمقاصدها ﴿ وَٱجْعَلْنِى ﴾ فى الآخرة ﴿مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ قد مر معنى وراثة الجنة فتذكر. واستدل بدعائه عليه السلام بهذا بعد ما تقدم من الادعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة وكذا كون العبد ذا منزلة عند الله عز وجل والا لاستغنى عليه السلام بطلب الكمال فى العلم والعمل وكذا بطلب الالحاق بالصالحين ذوى الزلفى عنده تعالى عن طلب ذلك ، وأنت تعلم أنه تحسن الاطالة فى مقام الابتهال ولا يستغنى بما زوم عن لازم فى المقال فالاولى الاستدلال على ذلك بغير ما ذكر وهو كثير مشتهر ، هذا وفى بعض الآثار ما يدل على مزيد فضل هذه الادعية *

أخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر وابن مردويه من طريق الحسن عن سمرة بن جندب قال: «قال رسول الله ﷺ إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فاسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج بسم الله الذى خلقنى فهو يهدين هداه الله تعالى للصواب ـ ولفظ ابن مردويه ـ لصواب الاعمال والذى هو يطعمنى ويسقين أطعمه الله تعالى من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة وإذا مرضت فهو يشفين شفاه الله تعالى وجعل مرضه كفارة لذنوبه والذى يميتنى ثم يحيين أحياه الله تعالى حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء والذى أطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين غفر الله تعالى له خطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين وهب الله تعالى له حكما وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقى واجعل لى لسان صدق فى الآخرين كتب فى ورقة بيضاء أن فلان بن فلان من الصادقين ثم يوفقه الله تعالى بعد ذلك للصدق واجعلنى من ورثة جنة النعيم جعل الله تعالى له القصور والمنازل فى الجنة » وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يزيد فيه واغفر لوالدى كما ربيانى صغيرا وكأنه أخذ من قوله ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِى ﴾ قال ابن عباس كما أخرج عنه ابن أبى حاتم أى امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وحاصله وفقه للإيمان كما يلوح به تعليله بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ وهذا ظاهر إذا كان هذا الدعاء قبل موته وإن كان بعد الموت فالدعاء بالمغفرة على ظاهره وجاز الدعاء بها للمشرك والله تعالى لا يغفر ان يشرك به لأنه لم يوح اليه عليه السلام بذلك إذ ذاك والعقل لا يحكم بالامتناع ، وفى شرح مسلم للنووى (١)

(١) نقله الشهاب اه منه

Marfat.com

ان كونه عز وجل لايغفر الشرك مخصوص بهذه الامة وكان قبلهم قد يغفر وفيه بحث ، وقيل : لأنه كان يخفى الايمان تقية من نمروذ ولذلك وعده بالاستغفار فلما تبين عداوته للايمان فى الدنيا بالوحى أوفى الآخرة تبرأ منه.

وقوله على هذا: (من الضالين) بناء على ماظهر لغيره من حاله أومعناه من الضالين فى كتم إيمانه وعدم اعترافه بلسانه تقية من نمروذ، والكلام فى هذا المقام طويل وقد تقدم شئ منه فتذكر ﴿وَلَاتُخْزِنِى﴾ بتعذيب أبى أو ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان أو بمعاتبتى على مافرطت أو بنقص رتبتى عن بعض الوراث أو بتعذيبى. وحيث كانت العاقبة مجهولة وتعذيب من لاذنب له جائز عقلا صح هذا الطلب منه عليه السلام ، وقيل : يجوز أن يكون ذلك تعليما لغيره وهو من الخزى بمعنى الهوان أو من الخزاية بفتح الخاء بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٨٧﴾ أى الناس كافة، والاضمار وإن لم يسبق ذكرهم لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه ، وقيل : الضمير للضالين والكلام من تتمة الدعاء لابيه كأنه قال: لاتخزنى يوم يبعث الضالون وأبى فيهم، ولايخفى أنه يجوز على الاول أن يكون من تتمة الدعاء لابيه أيضا، واستظهر ذلك لأن الفصل بالدعاء لابيه بين الدعوات لنفسه خلاف الظاهر ، وعلى ماذكر يكون قد دعا لاشد الناس التصاقا به بعد ان فرغ من الدعاء لنفسه.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ بدل من (يوم يبعثون) جئ به تأكيدا لتهويل ذلك اليوم وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو إلى قوله تعالى (إن فى ذلك لآية) الخ من كلام ابراهيم عليه السلام، وابن عطية بعد أن أعرب الظرف بدلا من الظرف الأول قال: إن هذه الآيات عندى منقطعة عن كلام ابراهيم عليه السلام وهى اخبار من الله عز وجل تتعلق بصفة ذلك اليوم الذى طلب ابراهيم أن لايخزيه الله تعالى فيه ،ولايخفى عدم صحة ذلك مع البدلية، والمراد بالبنون معناه المتبادر ، وقيل : المراد بهم جميع الاعوان ، وقيل : المعنى يوم لاينفع شئ من محاسن الدنيا وزينتها، واقتصر على ذكر المال والبنين لانهما معظم المحاسن والزينة، وقوله تعالى :

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩﴾ استثناء من أعم المفاعيل، و(من) محل نصب أى يوم لاينفع مال وإن كان مصروفا فى الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحدا الامن أتى الله بقلب سليم عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان ،وفى هذا تأييد لكون استغفاره عليه السلام لابيه طلبا لهدايته إلى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه السلام بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة ، وقيل : هو استثناء من فاعل (ينفع) ومن فى محل رفع بدل منه والكلام على تقدير مضاف إلى من أى لا ينفع مال ولا بنون الامال وبنو من أتى الله بقلب سليم حيث أنفق ماله فى سبيل البر وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عبادا لله تعالى مطيعين شفعاء له يوم القيامة ، وقيل : هو استثناء معادل عليه المال والبنون دلالة الخاص على العام أعنى مطلق الغنى والكلام بتقدير مضاف أيضا كأنه قيل: يوم لاينفع غنى الاغنى من أتى الله بقلب سليم وغناه سلامة قلبه وهو من الغنى الدينى وقد أشير اليه فى بعض الاخبار.

أخرج أحمد. والترمذى. وابن ماجه عن ثوبان قال: لما نزلت (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ :لو علمنا أى المال خير اتخذناه فقال رسول الله ﷺ :«أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» وقيل : هو استثناء منقطع من (مال) والكلام أيضا على تقدير مضاف

Marfat.com

أى لاينفع مال ولا بنون الا حال من أتى الله بقلب سليم، والمراد بحاله سلامة قلبه، قال الزمخشرى: ولا بد من تقدير المضاف ولو لم يقدر لم يحصل للاستثناء معنى، ومنع ذلك أبو حيان بانه لو قدر مثلا لكن من أتى الله بقلب سليم يسلم أو ينتفع يستقيم المعنى. وأجاب عنه فى الكشف بأن المراد أنه على طريق الاستثناء من مال لا يتحصل المعنى بدون تقدير المضاف، وماذكره المانع استدراك من مجموع الجملة إلى جملة أخرى وليس من المبحث فى شىء، ولما لم يكن هذا مناسبا للمقام جعله الزمخشرى مفروغا عنه فلم يلم عليه بوجه، وقد جوز اتصال الاستثناء بتقدير الحال على جعل الكلام من باب ٭ تحية بينهم ضرب وجيع ٭

ومثاله أن يقال: هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب بدلا عن ذلك، هذا وكون المراد من القلب السليم القلب السليم عن مرض الكفر والنفاق هو المأثور عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة. وابن سيرين. وغيرهم، وقال الامام: هو الخالى عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها ويتبع ذلك الأعمال الصالحات إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها فى الجوارح، وقال سفيان: هو الذى ليس فيه غير الله عز وجل، وقال الجنيد قدس سره: هو اللديغ من خشية الله تعالى القلق المنزعج من مخافة القطيعة وشاع إطلاق السليم فى لسان العرب على اللديغ، وقيل: هو الذى سلم من الشرك والمعاصى وسلم نفسه لحكم الله تعالى وسالم أولياءه وحارب أعداءه وأسلم حيث نظر فعرف واستسلم وانقاد لله تعالى واذعن لعبادته سبحانه، والانسب بالمقام المعنى المأثور وما ذكر من تأويلات الصوفية، وقال فى الكشاف فيما نقل عن الجنيد قدس سره ومابعده: إنه من بدع التفاسير وصدقه أبو حيان بذلك فى شأن الأول٭

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠ ﴾ عطف على (لاينفع) وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على الاستمرار وهو متوجه إلى النفع فيدل الكلام على استمرار انتفاء النفع واستمراره حسبما يقتضيه مقام التهويل أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر، وقيل: عنه وعن سائر المعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشرون اليها ٭

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ ﴾ الضالين عن طريق الحق وهو التقوى والايمان أى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويتحسرون على أنهم المسوقون اليها، وفى اختلاف الفعلين على ما ذكره بعض المحققين ترجيح لجانب الوعد لأن التعبير بالازلاف وهو غاية التقريب يشير إلى قرب الدخول وتحققه ولذا قدم لسبق رحمته تعالى بخلاف الابراز وهو الاراءة ولو من بعد فانه مطمع فى النجاة كما قيل من العمود إلى العمود فرج، وقال ابن كمال: فى اختلاف الفعلين دلالة على أن أرض الحشر قريبة من الجحيم، وحاصله أن الجنة بعيدة من أرض المحشر بعدا مكانيا والنار قريبة منها قربا مكانيا فلذا أسند الازلاف أى التقريب إلى الجنة دون الجحيم، قيل: ولعله مبنى على أن الجنة فى السماء وأن النار تحت الارض وأن تبديل الأرض يوم القيامة بمدها واذهاب كريتها إذ حينئذ يظهر أمر البعد والقرب لكن لا يخفى أن كون الجنة فى السماء مما يعتقده أهل السنة وليس فى ذلك خلاف بينهم يعتد به وأما كون النار تحت الأرض ففيه توقف، قال الجلال السيوطى فى إتمام الدراية: نعتقد أن الجنة فى السماء ونقف عن النار ونقول: محلها حيث

Marfat.com

لا يعلمه إلا الله تعالى فلم يثبت عندى حديث أعتمده فى ذلك ، : وقيل تحت الأرض انتهى ، وكون تبديل الأرض بمدهـا وإذهاب كريتها قول لبعضهم ، واختـار الأمام القرطبي بعد أن نقـل فى التذكرة أحاديث كثيرة أن تبديل الارض بمعنى أن الله سبحانه يخلق أرضا أخرى بيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولاجرى فيها ظـلم قط ، والأولى ان يقال فى بعد الجنة وقرب النـار من أرض المحشر :إن الوصول إلى الجنة بالعبور على الصراط وهو منصوب على متن جهنم كما نطقت به الاخبار فالوصول إلى جهنم أولا وإلى الجنـة آخرا بواسطة العبور وهو ظاهر فى القرب والبعد ،ثم أن ظاهـر الآية يقتضى أن الجنة تنقـل عن مكانها اليوم يوم القيامة إذ التقريب يستدعى النقـل وليس فى الاحاديث على ما نعلم ما يدل عـلى ذلك نعم جاء فيها ما يدل على نقل النار *

فى التذكرة أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود قال :«قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، والظاهر أن معنى يؤتى بها يجاء بها من المحل الذى خلقها الله تعالى فيه وقد صرح بذلك فى التذكرة ، وقال أبو بكر الرازى فى أسئلته فان قيل : قال الله تعالى (وأزلفت الجنة المتقين) أى قربت والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحول قلنا:معناه وأزلفت المتقون إلى الجنة وهذا كما يقال الحاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا، وقيل : معناه أنها كانت محجوبة عنهم فلما رفعت الحجب بينها وبينهم كان ذلك تقريبا انتهى ، ويرد على الأخير أنه يمكن أن يقال مثله فى الجحيم وحينئذ يسئل عن وجه اختلاف الفعلين. ويرد على القول بأن الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلاف ظاهر الآية ولا يلزم لصحة القول به نقل حديث يدل على نقلها يومئذ فلا مانع من القول به وتفويض الـكيفية إلى علم من لا يعجزه شىء وهو بكل شىء عليم وإذا أريد التأويل فليكن ذلك بحمل التقريب على التقريب بحسب الرؤية وإن لم يكن هناك نقل فقد يرى الشىء قريبا وإن كان فى نفس الأمر فى غاية البعد كما يشاهد ذلك فى النجوم،وقد يقرب البعيد فى الرؤية بواسطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك وقد ينعكس الحال بواسطتها أيضا فيرى القريب بعيدا ومتى جاز وقوع ذلك بواسطة الآلات فى هذه النشأة جاز أن يقع فى النشأة الأخرى بما لا يعلمـــه إلا اللطيف الخبير فتامل والله تعالى أعلم *

وقرأ الأعمش (فبرزت) بالفاء ، وقرأ مالك بن دينار (وبرزت) بالفتح والتخفيف (والجحيم) بالرفع على الفاعلية ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ فى الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ ٩٢﴾ تستمرون على عبادته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى أين آلهتـكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع ماتشاهدون من الجحيم ومافيها من العذاب ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ ٩٣﴾ بدفع ذلك عن أنفسهم ،وهذا سؤال تقريع لا يتوقع له جواب ولذلك قيل : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا فى قعرها فالـكبـكبة تـكرير الـكب وهو مما ضوعف فيه الفاء كما قال الزجاج . وجمهور البصريين ، وذهب الـكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثانى فاصل كبـكب عندهم كبب فابدل من الباء الثانية كاف وضمير الجمع لما يعبدون من دون الله وهم الاصنام وأكد بالضمير المنفصل أعنى ﴿هُمْ﴾ وكلا الضميرين للعقلاء واستعملا

Marfat.com

فى الاصنام تهكما أو بناء على إعطائها الفهم والنطق أى كبكب فيها الاصنام ﴿وَالْغَاوُونَ ٩٤﴾ الذين عبدوها والتعبير عنهم بهذا العنوان دون العابدون للتسجيل عليهم بوصف الغواية، وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون فى الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالها فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم ٥

وعن السدى أن ضمير (كبكبوا) ومؤكده لمشركى العرب والغاوون سائر المشركين وقيل: الضمير للمشركين مطلقا ويراد بهم التبعة والغاوون هم القادة المتبعون، وقيل: الضمير لمشركى الانس مطلقا و(الغاوون) الشياطين والكل كما ترى ويبعد الاخير قوله تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ فان الظاهر أن المراد منه الشياطين وإنه عطف على ما قبله والعطف يقتضى المغايرة بالذات فى الأغلب ولاحاجة إلى تخريجه على الأقل وجعله من باب:

* إلى الملك الندب وابن الهمام *

وقيل: المراد بجنود إبليس متبعوه من عصاة الثقلين، واختار بعض الأجلة الأول وادعى أنه الوجه لأن السياق والسباق فى بيان سوء حال المشركين فى الجحيم وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين فلا وجاهة لذكر حال قوم آخرين فى هذا الحال بل لا وجود لهم فى القصة وذكر الشياطين مع المشركين لكونهم المسولين لهم عبادة الأصنام، ولا يخفى أن للتعميم وجها أيضا من حيث أن فيه مزيد تهويل لذلك اليوم، وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ ٩٥﴾ تأكيد للضمير وما عطف عليه ٥

وقوله سبحانه ﴿قَالُوا﴾ الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبله كأنه لما قيل كبكب الآلهة والغاوون عبدتها والشياطين الداعون اليها قيل: فماوقع؟ فقيل: قالوا أى العبدة الغاوون ﴿وَهُمْ﴾ أى الغاوون ﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦﴾ أى يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين، والجملة فى موضع الحال، والمراد قالوا معترفين بخطئهم وانهماكهم فى الضلالة متحسرين معيرين لأنفسهم والحال أنهم بصدد مخاصمة من معهم مخاطبين لآلهتهم حيث يجعلها الله تعالى أهلا للخطاب ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧﴾ (إن) مخففة من المثقلة واسمها على ما قيل ضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية كما ذهب اليه البصريون أى إنه أى الشأن كنا فى ضلال مبين، وذهب الكوفيون إلى أن ان نافية واللام بمعنى إلا أى ما كنا إلا فى ضلال واضح لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح للمبالغة فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصديرهم قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب على ماقيل ٥

وقوله سبحانه ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨﴾ ظرف لكونهم فى ضلال مبين، وقيل: لمحذوف دل عليه الكلام أى ضللنا، وقيل: للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث أن المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف، ويهون أمر ذلك كون المعمول ظرفا، وقيل: ظرف لمبين، وجوز أن تكون (إذ) تعليلية كما قيل به فى قوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون). وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أولا نا سوينا كم أيها الأصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٩٩﴾ الظاهر بناء على ماتقدم من أن الاختصام مع الأصنام والشياطين أن يكون المراد بالمجرمين الشياطين ليكون ذلك من الاختصام معهم وإن لم يورد على وجه الخطاب كما ان ماتقدم من الاختصام مع الأصنام، وكون

Marfat.com

المراد بهم ذلك مروى عن مقاتل ، وفى ارشاد العقل السليم انه بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم، والمراد بالمجرمين رؤساؤهم وكبراؤهم، وفى قوله تعالى (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) . وعن السدى هم الأولون الذين اقتدوا بهم ، وقيل : من دعاهم الى عبادة الأصنام من الجن والانس . وعن ابن جريح أنهم ابليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل والمعاصى، والقصر قيل بالنسبة الى الأصنام ، ولعلهم أرادوا بنفى الاضلال عنها اهانتها بأنها لاقدرة لها ؛ وفيه تأكيد لكونهم فى ضلال مبين ، ولعل الأولى كونه قصرا حقيقياً بادعاء أنهم الأوحديون فى سببية الاضلال حتى ان سببية غيرهم له كلا سببية، وهذا واضح فى الشياطين لأن اضلال غيرهم من الكبراء ونحوهم بواسطة اضلالهم لأنهم الذين يزينون الباطل المتبوع والتابع، ويمكن أن يعتبر فى غيرهم بضرب من التاويل وذلك اذا أريد بالمجرمين غيرهم ، ثم ان المشركين لايزالون فى حيرة يوم القيامة لا يدرون بم يتشبثون فلا يضر اسنادهم الاضلال تارة الى شىء وأخرى الى غيره على أن الاسناد الى كل باعتبار هذا *

وجوز أن يكون الاختصام بين العبدة بعضهم مع بعض ، والخطاب فى (نسويكم) للاصنام من غير التزام القول بجعلهم أهلا له بل هو كخطاب المضطر للحجر والشجر ، وفيه مبالغة فى التحسر والندامة ، والمعنى أن العبدة مع تخاصم بعضهم مع بعض بأن يقول أحدهم للآخر : أنت مبدأ ضلالى ولولا أنت لكنت مؤمنا اعترفوا بجرمهم وتعجبوا وبينوا سببه ، وجوز أيضا أن يكون من الأصنام ينطقهم الله تعالى فيخاصمون العبدة فضمير (هم) عائد عليهم ، والمعنى قال العبدة معترفين بضلالهم متعجبين منه مبينين سببه : ان كنا الخ والحال ان الأصنام يخاصمونهم قائلين : نحن جمادات متبرئون عن جميع المعاصى وأنتم اتخذتمونا آلهة فالقيتمونا فى هذه الورطة . وهذا كله على تقدير كون جملة (قالوا) مستأنفة كما هو الظاهر . وجوز أن يكون (جنود ابليس) مبتدأ وجملة (قالوا) الخ خبره وضمير (قالوا) وكذا ما بعده عائد عليه *

وأنت تعلم أنه مع كونه خلاف الظاهر لايتسنى على تقدير أن يراد بجنود ابليس الشياطين لما أن المقول المذكور لايصح أن يكون منهم واذا اريد بهم متبعوه من عصاة الثقلين عبدة الاصنام وغيرهم يرد أن المقول المذكور قول فرقة منهم وهى العبدة فاسناده الى الجميع خلاف الظاهر، ويبعد كل البعد بل لو قيل بفساده لم يبعد احتمال كون كل شخص سواء كان من عبدة الأصنام أو غيره يخاصم مع كل من يصادفه من غير صلاحية الآخر للاختصام ويقول ماذكر للأصنام لغاية الحيرة والضجرة ، نعم لو أريد بجنود ابليس على تقدير كونه مبتدأ ورجوع الضمائر اليه الغاوون بعينهم وتكون الاضافة للعهد ، والتعبير عنهم بهذا العنوان بعد التعبير عنهم بالعنوان السابق لتذليلهم لم يبعد جداً . ومن الناس من جوز الابتدائية والخبرية المذكورتين وفسر الجنود بالعصاة مطلقا . وجعل ضمير (قالوا) للغاوون وضمير (هم . ويختصمون) للجنود أو للأصنام وفيه مع خروج الآية عليه عن حسن الانتظام مالا يخفى على ذوى الأفهام *

وقوله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾ مرتب على ما اعترفوا به من عظم الجناية وظهور الضلالة . والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم فى التأسف حيث نفوا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته

Marfat.com

ونفوا ثانيا أن يكون لهم من يهمه أمرهم و يشفق عليهم ويتوجع لهم وان لم يخلصهم وأتى بالشافع فى سياق النفى جمعا وإن كان حكم هذا الجمع فى الاستغراق لمكان من الزائدة حكم المفرد بلاخلاف إنما الخلاف فيما إذا لم تزد من بعد النفى داخلة على الجمع رعاية لما كانوا يأتون به فى الاثبات من الجمع *

وقال فى الكشاف: جمع الشافع لكثرة الشفعاء. ووحد الصديق لقلته ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بارهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده رحمة له وحسبة ان لم تسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق الصادق فى ودادك الذى يهمه مايهمك فهو أعز من بيض الأنوق ، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع أى فانه يطلق عليه لما أنه على زنة المصدر بخلاف الشافع . وذكر البيضاوى فى توحيد الصديق وجها آخر أيضا ، وهو أن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، وحاصله أن الواحد فى معنى الجمع بحسب العادة فلذا اكتفى به لما فيه من المطابقة المعنوية كما قيل :

الناس ألف منهمو كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

وقال بعض الكملة: إن إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرد مصلحة الفاصلة، وأما إيراد الصديق مفردا فلأن المقام مقام المفرد ومصلحة الفاصلة حصلت قبله وهو كما ترى ، وقال سعد افندى: لا يبعد أن يكون جمع الأول وافراد الثانى إشارة إلى أنه لا فرق بين الاستغراقين ، وفيه أن إيثار صيغة لافادة مسئلة عربية ليس من دأب القرآن المجيد ، والذى أميل اليه أن الافراد على الاصل والجمع وإن أدى مؤداه على سنن ما كانوا يقولونه و عمونه فى الدنيا من تعدد الشفعاء ولا يضر فى ذلك كون المنفى هنا أعم من المثبت هناك من حيث شموله للاصنام. والكبراء . والملائكة. والانبياء عليهم السلام كما هو المتبادر إلى الفهم ، وأخرج ابن جرير . وابن المنذر عن عكرمة عن ابن جريج أن المعنى فما لنا من شافعين من أهل السماء ولا صديق حميم من أهل الأرض *

وزعم بعضهم أنهم عنوا بالشافعين هنا ما عنوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم وفرعوا النفى على قولهم (ما أضلنا إلا المجرمون) فكأنهم قالوا: سادتنا وكبراؤنا الذين أضلونا مجرمون معذبون مثلنا فلم يقدروا على السعى فى نفعنا والشفاعة لنا ، وفى الكشاف فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء فانه لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون قال تعالى (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم الأصدقاء من شياطين الانس أو أرادوا أنهم وقعوا فى مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفى ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم انتهى *

والظاهر على هذا الاخير أن الكلام كناية عن شدة الأمر بحيث لا ينفع فيه أحد ولو أدنى نفع وهو وجه وجيه ، والوجه الأول لا يكاد يتسنى على مذهب المعتزلة الذين لا يجوزون الشفاعة فى الخلاص من النار بعد دخولها أو قبله لأن الظاهر من قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين فمالنا من شافعين يخلصونا من النار كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين يخلصونهم منها فارتضاء الزمخشرى لهذا الوجه غريب اللهم إلا أن يقال : المراد التشبيه باعتبار مطلق الشفاعة والمعتزلة

Marfat.com

يجوزون بعض أصنافها كالشفاعة فى زيادة الدرجات فى الجنة لكن لا يخلو عن بعد والله تعالى أعلم، و(لو) فى قوله تعالى ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ مستعملة فى التمنى بدليل نصب قوله سبحانه ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢ ﴾ فى جوابها وأصلها لو الامتناعية وحيث أن التمنى يكون لما يمتنع أريد بها ذلك مجازا مرسلا أو استعارة تبعية ثم شاع حتى صارت كالحقيقة فى ذلك ، وقيل : هى حقيقة فيما ذكر ؛ وقيل : اصلها المصدرية وليس بشىء والمعنى فليت لنا رجعة إلى الدنيا فان نكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل مانحن فيه من العذاب الذى لاينفع فيه أحد، وجوز كون لو شرطية وجوابها محذوف والتقدير لفعلنا من الخيرات كيت وكيت أو لخلصنا من العذاب أو لكان لنا شفعاء وأصدقاء أو ما أضلنا المجرمون، والتقدير الأول أجزل، ويقدر المحذوف بعد (فنكون) الخ لأن المصدر المتحصل منه معطوف على (كرة) أى فلو أن لنا كرة فنكونا من المؤمنين لفعلنا الخ.

وتعقب شيخ الاسلام ذلك بانه إنما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معا من غير دلالة على استلزام الكرة للايمان أصلا مع أنه المقصود حتما ، وفى قوله: من غير دلالة الخ بحث على ما قيل حيث يمكن أن يقال : حاصل الآية إن تيسر لنا الرجعة والايمان المتعقب إياها لفعلنا من عبادات أهل الايمان مايقصر عنه العبارة، والتزام ثمرات الايمان التزام للايمان أولا ،ومقصودهم بيان استلزام الرجعة لفعل الخيرات كلها، وأما نفس الايمان بعد هذه المشاهدة فلا يحتاج إلى البيان .

وقال بعض الناس : ان قولهم (فنكون من المؤمنين) بمعنى فنكون من المقبول ايمانهم وقبول الله تعالى إيمانهم لايترتب على رجعتهم البتة بل يجوز أن يتخلف فلا بد أن يكون مرادهم ان تيسر لنا الرجعة وان قبل ايماننا لفعلنا الخ فليس المقصود الدلالة على استلزام الكرة للايمان كما زعم شيخ الاسلام ،ونوقش فيه بان تيسر الرجعة إنما يكون لرحمة الله تعالى وعفوه وهى تستلزم قبول ايمانهم ، والحق أنه لا ينبغى الالتفات الى احتمال شرطية لو والتكلف له مع جزالة المعنى الظاهر المتبادر، والكلام فى قوله تعالى .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠٤ ﴾ قد تقدم آنفا فلا حاجة الى اعادته وقد علمت مختارنا فى ذلك فتذكر فما فى العهد من قدم، ولشيخ الاسلام كلام فى هذه الآية لايخفى مافيه على المتأمل فتأمل ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ١٠٥ ﴾ القوم كما فى المصباح يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ولذا يصغر على قويمة ، وقيل: هو مذكر ولحقت فعله علامة التانيث على إرادة الأمة والجماعة منه وتكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لاتختلف باختلاف الأزمنة والاعصار ، وجوز أن يراد بالمرسلين نوح عليه السلام بجعل اللام للجنس فهو نظير قولك : فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة واحدة وبرد واحد، و(اذ) فى قوله تعالى : ﴿ اذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ماوقع من الجانبين الى تمام الامر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر منهم من حين ابتداء دعوته عليه السلام الى انتهائها ، وزعم بعضهم أن (اذ) للتعليل أى كذبت لأجل أن قال لهم : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ اى نسيبهم كما يقال : يا أخا العرب ويا أخا تميم، وعلى ذلك قوله :

Marfat.com

لا يسالون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ماقال برهانا

والضمير لقوم نوح ، وقيل : هو للمرسلين والأخوة المجانسة وهو خلاف الظاهر ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ ﴾ الله عز وجل حيث تعبدون غيره ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من الله تعالى أرسانى لمصلحتكم ﴿ أَمِينٌ ١٠٧ ﴾ مشهور بالامانة فيما بينكم ، وقيل : أمين على أداء رسالته جل شانه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى ، وقدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة لأن تقوى الله تعالى سبب لطاعته عليه السلام ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على ما أنا متصدله من الدعاء والنصح ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى ما أطلب منكم على ذلك أجرا أصلا لا مالا ولاغيره ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ فيما أتولاه ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ ﴾ فهو سبحانه الذى يؤجرنى فى ذلك تفضلا منه لاغيره ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠ ﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها من تنزهه عليه السلام من الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب مابعدها على كونه رسولا من الله تعالى بما فيه نفع الدارين مع أمانته ، والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا ، وقرئ (إن أجرى) بسكون الياء وهو والفتح لغتان مشهورتان فى مثل ذلك اختلف النحاة فى أيتهما الأصل ه

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١١١ ﴾ أى وقد اتبعك على أن الجملة فى موضع الحال وقد لازمة فيها إذا كان فعلها ماضيا وكثير من الاجلة لايوجب ذلك ، وقرأ عبد الله . وابن عباس . والاعمش . وأبو حيوة . والضحاك . وابن السميقع . وسعيد بن أبى سعيد الانصارى . وطلحة . ويعقوب . (وأتباعك) جمع تابع كصاحب وأصحاب ، وقيل : جمع تبيع كشريف واشراف ، وقيل : جمع تبع كبطل وابطال ، وهو مرفوع على الابتداء و(الارذلون) خبره ، والجملة فى موضع الحال أيضا ، وقيل : معطوف على الضمير المستتر فى (نؤمن) وحسن ذلك للفصل بلك و(الارذلون) صفته ، ولايخفى أنه ركيك معنى ، وعن اليمانى (واتباعك) بالجر عطفا على الضمير فى (لك) وهو قليل وقاسه الكوفيون و(الارذلون) رفع باضمارهم ، وهو جمع الارذل على الصحة والرذالة الخسة والدناءة ، والظاهر انهم إنما استرذلوا المؤمنين به عليه السلام لسوء أعمالهم يدل عليه قوله فى الجواب (١) :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٢ ﴾ أى ماوظيفتى الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التجسس والتفتيش عن البواطن ، وما استفهامية ، وقال الحوفى . والطبرسى : نافية ، وعليه يكون فى الكلام حذف أى وما علمى بما كانوا يعملون ثابت ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أى ما محاسبتهم على مايعملون ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ﴾ فاعتبار البواطن من شؤنه عز وجل وهو المطلع عليها ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣ ﴾ أى بشىء من الاشياء أولو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك لكنكم لستم كذلك فلذا قلتم ماقلتم ، وأل على هذا الوجه للجنس ، وقال جمع : إن استرذالهم إياهم لقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل : لكونهم من أهل الصناعات الدنيئة ، وقد كانوا كما روى عن عكرمة حاكة وأساكفة ، وقيل : لاتضاع نسبهم ، ومنشأ ذلك على الجميع سخافة عقولهم وقصور أنظارهم لأن الفقر ليس من الرذالة فى شىء ه

(١) فى الأصل قوله فى الجواب (وماعلمى) والتلاوة قال وماعلمى فصححناه

Marfat.com

قد يدرك المجد الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

وكذا خسة الصناعة لاتزرى بالشرف الاخروى ولاتلحق التقى نقيصة عندالله عز وجل، وقد أنشد أبو العتاهية

وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ومثلها صفة النسب فقد قيل :

أبى الاسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وما ذكره الفقهاء فى باب الكفاءة مبنى على عرف العامة لانتظام أمر المعاش ونحوه على أنه روى عن الامام مالك عدم اعتبار شىء من ذلك أصلا وأن المسلمين كيفما كانوا اكفاء بعضهم لبعض ، وأل على هذه الاقوال للعهد ٭

والجواب بماذكر عما أشاروا اليه بقولهم ذلك من أن إيمانهم لم يكن عن نظر وبصيرة وإنما كان لحظ نفسانى كحصول شوكة بالاجتماع ينتظمون بها فى سلك ذوى الشرف ويعدون بها فى عدادهم ، وحاصله وما وظيفتى الااعتبار الظواهر دون الشق عن القلوب والتفتيش عما فى السرائر فما يضرنى عدم اخلاصهم فى إيمانهم كما تزعمون ؛ وجوز أن يقال: إنهم لما قالوا (واتبعك الارذلون) وعنوا الذين لانصيب لهم من الدنيا أو الذين اتضعت انسابهم أوكانوا من أهل الصنائع الدنيئة تغابى عليه السلام عن مرادهم وخيل لهم أنهم عنوا بالارذلين من لااخلاص له فى العمل ولم يؤمن عن نظر وبصيرة فاجابهم بماذكر كأنه ماعرف من الارذلين الاذلك، ولو جعل هذا نوعا من الاسلوب الحكيم لم يبعد عندى ، وفيه من لطف الرد عليهم وتقبيح ماهم عليه مالايخفى ، وزعم بعضهم انهم عنوا بالارذلين نساءه عليه السلام وبنيه و كناته وبنى بنيه واسترذالهم لعضة النسب لايتصور فى جميعهم حقيقة كما لايخفى فلابد عليه من اعتبار التغليب ونحوه ، وقرأ الاعرج . وأبو زرعة . وعيسى بن عمر الهمدانى (يشعرون) بياء الغيبة وقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾ جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه، وقد نزلوا لذلك منزلة من يدعى أنه عليه السلام ممن يطرد المؤمنين وأنه ممن يشترك معه فيه فقدم المسند اليه وأولى حرف النفى لافادة أن ذلك ليس شأنه بل شأن المخاطبين ٭

وجوز أن يكون التقديم للتقوى وهو أقل مؤنة كما لايخفى ، وقيل : انهم طلبوا منه عليه السلام طردهم فاجابهم بذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ طرد من آمن به من الضعفاء فنزلت (ولاتطرد الذين يدعون ربهم) الآية، وقوله تعالى ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥﴾ كالعلة له أى ما أنا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين وزجرهم عما لايرضيه سبحانه وتعالى سواء كانوا من الاشرفين أو الارذلين فكيف يتسنى لى طرد من زعمتم أنهم أرذلون ٭ وحاصله انا مقصور على انذار المكلفين لاتعداه إلى طرد الارذلين منهم أو ما على إلا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وماعلى استرضاء بعضكم بطرد الآخرين ، وحاصله أنا مقصور على انذاركم لاتعداه إلى استرضائكم ٭

وقيل: إن مجموع الجملتين جواب وإن ايلاء الضمير حرف النفى يدل على أنهم زعموا أنه عليه السلام موصوف بصفتين، احداهما اتباع أهوائهم بطرد المؤمنين لاجل أن يؤمنوا ، وثانيتهما أنه نذير مبين فقصر الحكم على الثانى دون الأول ولايخلو عن بحث ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما أنت عليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾ أى المرميين بالحجارة كما روى عن قتادة، وهو توعد بالقتل كما روى عن الحسن ، وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى أن المعنى من المشتومين على أن الرجم مستعار للشتم كالطعن ، وفى ارشاد العقل السليم أنهم قاتلهم

Marfat.com

الله تعالى قالوا ذلك فى أواخر الامر، ومعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ١١٧ ﴾ استمروا على تكذيبى وأصروا عليه بعد مادعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الافرارا. وهذا ليس باخبار بالاستمرار على التكذيب لعلمه عليه السلام أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه اراد اظهار مايدعو عليهم لاجله وهو تكذيب الحق لاتخويفهم له واستخفافهم به فى قولهم (ائن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين) تلطفا فى فتح باب الاجابة ، وقيل : لدفع توهم الخلق فيه المتجاوز أوالحدة ، وقيل : إنه خبر لم يقصد منه الاعلام أصلا وإنما أورد لغرض التحزن والتفجع كما فى قوله :

قومى هم قتلوا أميم أخى فائن رميت يصيبنى سهمى

ويبعد ذلك فى الجملة تفريع الدعاء عليهم بقوله تعالى: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ على ذلك أى أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا من الفتاحة بمعنى الحكومة ، و(فتحا) مصدر ، وجوز أن يكون مفعولا به على أنه بمعنى مفتوحا وهذه حكاية إجمالية لدعائه عليه السلام المفصل فى سورة نوح ﴿ وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١١٨ ﴾ أى من قصدهم أو شؤم أعمالهم ، وفيه إشعار بحلول العذاب بهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ على حسب دعائه عليه السلام ﴿ فى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١١٩ ﴾ أى المملوء بهم وبما يحتاجون اليه حالا كالطعام أو مالا كالحيوان ، والفلك يستعمل واحدا وجمعا ، وحيث أتى فى القرآن الكريم فاصلة استعمل مفردا أو غير فاصلة استعمل جمعا كما فى البحر ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أى بعد انجائهم ، و (ثم) للتفاوت الرتبى ، ولذا قال سبحانه بعد بعد ﴿ الْبَاقِينَ ١٢٠ ﴾ أى من قومه *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٢٢ ﴾ الكلام فيه نظير الكلام فيما تقدم ، وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣ ﴾ بيد أن تأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد القبيلة وهو اسم أبيهم الأقصى ، وكثيرا مايعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة بالأب وقد يعبر عنها بنى أو بآل مضافا اليه فيقال : بنو فلان أو آل فلان ، وكذا الكلام فى قوله سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧ ﴾ وحكاية الأمر بالتقوى والاطاعة ونفى سؤال الأجر فى القصص الخمس وتصديرها بذلك للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والاعصار وانهم عليهم السلام منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية *

ولعله لم يسلك هذا المسلك فى قصتى موسى. وابراهيم عليهما السلام تفننا مع ذكر مايشعر بذلك ، وقيل : ان ما ذكر ثمة أهم وكانت منازل عاد بين عمان . وحضرموت وكانت أخصب البلاد وأعمرها فجعلها الله تعالى مفاوز ورمالا ، ويشير الى عمارتها قوله تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أى طريق كما روى عن ابن عباس . وقتادة ، وأخرج ابن جرير . وجماعة عن مجاهد أن الريع الفج بين الجبلين . وعن أبى صخر أنه الجبل والمكان

Marfat.com

المرتفع عن الأرض . وعن عطاء أنه عين الماء . والأكثرون على أنه المكان المرتفع وهو رواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ومنه ريع النبات وهو ارتفاعه بالزيادة والنماء *

وقرأ ابن أبى عبلة (ريع) بفتح الراء ﴿ءَايَةً﴾ أى علما كما روى عن الحبر رضى الله تعالى عنه ، وقيل : قصرا عاليا مشيدا كأنه علم واليه ذهب النقاش . وغيره واستظهره ابن المنير ، ويمكن حمل ماروى عن الحبر عليه وحينئذ فقوله تعالى: ﴿تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ على معنى تعبثون ببنائها لما أنهم لم يكونوا محتاجين اليها وانما بنوها للفخر بها والعبث مالا فائدة فيه حقيقة أو حكما ، وقد ذم رفع البناء لغير غرض شرعى فى شريعتنا أيضا ، وقيل: ان عبثهم فى ذلك من حيث أنهم بنوها ليهتدوا بها فى أسفارهم والنجوم تغنى عنها . واعترض بأن الحاجة تدعو لذلك لغيم مطبق أو ما يجرى مجراه . وأجيب بان الغيم نادر لاسيما فى ديار العرب مع أنه لو احتيج اليها لم يحتج الى أن تجعل فى كل ريع فيكون بناؤها كذلك عبثا *

وقال الفاضل اليمنى: إن أماكنها المرتفعة تغنى عنها فهى عبث ، وقيل : كانوا يبنون ذلك ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم : وروى ذلك عن الكلبى . والضحاك ، وعن مجاهد . وابن جبير أن الآية برج الحمام كانوا يبنون البروج فى كل ريع ليلعبوا بالحمام ويلهوا به ، وقيل: بيت العشار يبنونه بكل رأس طريق فيجلسون فيه ليعشروا مال من يمر بهم . وله نظير فى بلادنا اليوم ، ولا مستعان الا بالله العلى العظيم *

والجملة فى موضع الحال وهى حال مقدرة على بعض الأقوال ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أى تعملون ﴿مَصَانِعَ﴾ أى ماتخذ للماء ومجارى تحت الأرض كما روى عن قتادة ، وفى رواية أخرى عنه أنها برك الماء . وعن مجاهد أنها القصور المشيدة ، وقيل : الحصون المحكمة. وأنشدوا قول لبيد :

* وتبقى جبال بعدنا ومصانع *وليس بنص فى المدعى ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا او عاملين عمل من يرجو الخلود فيها فلعل على بابها من الرجاء ، وقيل :هى للتعليل وفى قراءة عبدالله (كى تخلدون)*

وقال ابن زيد: هى للاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم أى هل انتم تخلدون ، وكون لعل للاستفهام مذهب كوفى ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: المعنى كأنكم خالدون وقرئ بذلك كما روى عن قتادة ، وفى حرف أبى (كأنكم تخلدون) وظاهر ما ذكر أن لعل هنا للتشبيه ، وحكى ذلك صريحا الواقدى عن البغوى *

وفى البرهان هو معنى غريب لم يذكره النحاة . ووقع فى صحيح البخارى أن لعل فى الآية للتشبيه انتهى*

وقرأ قتادة (تخلدون) مبنيا للمفعول مخففا ويقال: خلد الشىء وأخلده غيره ، وقرأ أبى: وعلقمة (تخلدون) مبنيا للمفعول مشددا كما قال الشاعر :

وهل يعمن الا سعيد مخلد قليل هموم مايبيت بأوجال

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ أى أردتم البطش بسوط أو سيف ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ مسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة. وأول الشرط بما ذكر ليصح التسبب وتقييد الجزاء بالحال لا يصححه لأن المطلق ليس سببا للمقيد ، وقيل : لا يضر الاتحاد لقصد المبالغة ، وقيل : الجزائية باعتبار الاعلام والاخبار وهو كما ترى. ونظير الآية قوله *متى تبعثوها تبعثوها ذميمة *ودل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر على استيلاء حب

Marfat.com

الدنيا والكبر على قلوبهم حتى أخرجهم ذلك عن حد العبودية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا هذه الافعال ﴿وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ فيما أدعوكم اليه فانه أنفع لكم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢﴾ أى بالذى تعرفونه من النعم فما موصولة والعائد محذوف والعلم بمعنى المعرفة ، وقوله تعالى ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ١٣٣﴾ منزل منزلة بدل البعض كما ذكره غير واحد من أهل المعانى ، ووجهه عندهم أن المراد التنبيه على نعم الله تعالى والمقام يقتضى اعتناء بشأنه لكونه مطلوبا فى نفسه أو ذريعة إلى غيره من الشكر بالتقوى ، وقوله سبحانه (أمدكم بانعام) الخ أوفى بتأدية ذلك المراد لدلالته على النعم بالتفصيل من غير احالة على علم المخاطبين المعاندين فوزانه وزان ـ وجهه ـ فى أعجبنى زيد وجهه لدخول الثانى فى الأول لأن (ماتعلمون) يشمل الانعام ومابعدها من المعطوفات ، ولا يخفى ما فى التفصيل بعد الاجمال من المبالغة ، وفى البحر ان قوله تعالى (بانعام) على مذهب بعض النحويين بدل من قوله سبحانه (بما تعلمون) وأعيد العامل كقوله تعالى (اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً) والا كثرون لا يجعلون مثل هذا ابدالا وإنما هو عندهم من تكرار الجمل وإن كان المعنى واحدا ويسمى التتبيع ، وإنما يجوز أن يعاد العامل عندهم إذا كان حرف جر دون مايتعلق به نحو مررت بزيد بأخيك انتهى ٠

ونقل نحوه عن السفاقسى ، وقال أبو حيان : الجملة مفسرة لما قبلها ولا موضع لها ، وبدأ بذكر الانعام لانها تحصل بها الرياسة والقوة على العدو والغنى الذى لا تكمل اللذة بالبنين وغيرهم فى الاغلب الا به وهى أحب الاموال إلى العرب ثم بالبنين لأنهم معينوهم على الحفظ والقيام عليها ومن ذلك يعلم وجه قرنهما ، ووجه قرن الجنات والعيون فى قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ ظاهر وكذا وجه قرنهما مع الأنعام ، وقوله سبحانه : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ الخ فى موضع التعليل أى إنى أخاف عليكم إن لم تتقوا وتقوموا بشكر هذه النعم : ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾ فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وعلل بما ذكر دون استلزام التقوى للزيادة لأن زوال النعمة يحزن فوق ماتسر زيادتها ودرء المضار مقدم على جلب المنافع :

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ١٣٦﴾ فانا لا نرعوى عما نحن عليه قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به عليه السلام ، وعدلوا عن أم لم تعظ الذى يقتضيه الظاهر للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام لما فى كلامهم على ما فى النظم الجليل من استواء وعظه والعدم الصرف البليغ وهو عدم كونه من عداد الواعظين وجنسهم ، وقيل : فى وجه المبالغة افادة كان الاستمرار و(الواعظين) الكمال واعتبارهما بقرينة المقام بعد. النفى أى سواء علينا أوعظت أم استمر انتفاء كونك من زمرة من يعظ انتفاء كاملا بحيث لا يرجى منك نقيضه ، وقال فى البحر: إن المقابلة بما ذكر لاجل الفاصلة كما فى قوله تعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) وكثيرا مايحسن مع الفواصل مالا يحسن دونه وليس بشئ كما لا يخفى ٠ وروى عن أبى عمرو .والكسائى ادغام الظاء فى التاء فى (وعظت) وبالادغام قرأ ابن محيصن. والأعمش إلا أن الاعمش زاد ضمير المفعول فقرأ (أوعظتنا) وينبغى أن يكون اخفاء لأن الظاء مجهورة مطبقة والتاء مهموسة منفتحة فالظاء أقوى منها والادغام إنما يحسن فى المتماثلين أوفى المتقاربين إذا كان الأول انقص من الثانى ٠

Marfat.com

وأما ادغام الاقوى فى الاضعف فلا يحسن، وإذا جاء شىء من ذلك فى القرآن بنقل الثقات وجب قبوله وإن كان غيره أفصح وأقيس. وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هَٰذَا الَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ١٣٧ ﴾ تعليل لما ادعوه من المساواة أى ما هذا الذى جئتنا به الاعادة الاولين يلفقون مثله ويدعون اليه أو ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها أو ما هذا الذى نحن عليه من الدين الا عادة الاولين الذين تقدمونا من الآباء وغيرهم ونحن بهم مقتدون، وقرأ أبو قلابة. والاصمعى عن نافع (خلق) بضم الخاء وسكون اللام، والمعنى عليه كما تقدم وقرأ عبد الله. وعلقمة. والحسن. وأبو جعفر. وأبو عمرو. وابن كثير. والكسائى (خلق) بفتح الخاء وسكون اللام أى ما هذا الا اختلاق الاولين وكذبهم، ويؤيد هذا المعنى ما روى علقمة عن عبد الله انه قرأ (الا اختلاق الاولين) ويكون هذا كقول سائر الكفرة (أساطير الاولين) أو ما خلقنا هذا الا خلق الاولين نحيى كما حيوا ونموت كما ماتوا، ومرادهم إنكار البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب، ولعل قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ ﴾ أى على ما نحن عليه من الاعمال أصرح فى ذلك ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أى اصروا على تكذيبه عليه السلام ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسببه بريح صرصر

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ١٤١ ﴾ هو اسم عجمى عند بعض والاكثرون على أنه عربى وترك صرفه لأنه اسم قبيلة، وهو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذى لا مادة له ومنه قيل فلان مثمود ثمدته النساء أى قطعن مادة ماله لكثرة غشيانه لهن ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفد مادة ماله أو ما يبقى فى الجلد اوما يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف. وفى القاموس ثمود قبيلة ويصرف وتضم الثاء وقرئ به أيضا. وفى سبائك الذهب أنه فى الاصل اسم لابى القبيلة ثم نقل وجعل اسما لها، ووجه تأنيث الفعل هنا نظير ما تقدم فى قوله تعالى: « كذبت عاد » وكذا الكلام فى قوله سبحانه:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٤٥ ﴾ كالكلام فيما تقدم وقوله تعالى ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ١٤٦ ﴾ انكار لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة آمنين عن عذاب يوم عظيم فالاستفهام مثله فى قوله تعالى السابق: « أتبنون » وقوله تعالى اللاحق: (أتأتون) وكأن القوم اعتقدوا ذلك فأنكره عليه السلام عليهم، وجوز أن يكون الاستفهام للتقرير تذكيرا للنعمة فى تخليته تعالى اياهم وأسباب نفعهم آمنين من العدو ونحوه واستدعاء لشكر ذلك بالايمان. وفى الكشف أن هذا أوفق فى هذا المقام، و« ما » موصولة و« ههنا » اشارة إلى المكان الحاضر القريب أى اتتركون فى الذى استقر فى مكانكم هذا من النعمة، وقوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨ ﴾ بدل من ـ ما هنا ـ باعادة الجار كما قال أبو البقاء. وغيره، وفى الكلام اجمال وتفصيل نحو ما تقدم فى قصة عاد وجوز أن يكون ظرفا لآمنين الواقع حالا وليس بذاك، والهضيم الداخل بعضه فى بعض كأنه هضم أى شدخ. وسأل عنه نافع بن الازرق ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال له: المنضم بعضه إلى بعض فقال: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم أما سمعت قول امرىء القيس:

دار لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريا المعصم

Marfat.com

وقال الزهرى : هو اللطيف أول مايخرج ، وقال الزجاج : هو الذى رطبه بغير نوى وروى عن الحسن وقيل : هو المتدلى لكثرة ثمره ، وقيل : هو النضيج من الرطب وروى عن عكرمة ، وقيل : الرطب المذنب وروى عن يزيد بن ابى زياد، فوصف الطلع بالهضيم إما حقيقة أو مجاز وهو حقيقة وصف لثمره، وجعل بعضهم على بعض الأقوال الطلع مجازا عن الثمر لأوله اليه ، والنخل اسم جنس جمعى يذكر كما فى قوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل منقعر ويؤنث كما هنا، وليس ذلك لأن المراد به الاناث فانه معلوم بقرينة المقام ولو ذكر الضمير وافراده بالذكر مع دخوله فى الجنات لفضله على سائر أشجارها أو لأن المراد بها غيره من الاشجار

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ١٤٩ ﴾ أى أشرين بطرين كما روى عن ابن عباس. ومحمد بن العلاء ، وجاء فى روايه أخرى عن ابن عباس تفسيره بنشطين مهتمين ، وقال أبو صالح : أى حاذقين وبذلك فسره الراغب ه وقال ابن زيد : أى أقوياء ، وأنت تعلم ان هذه الجملة داخلة فى حيز الاستفهام السابق والأوفق به على القول الأول القول الأول وعلى القول الثانى كل من الاقوال الباقية وكلها سواء فى ذلك إلا أنه يفهم من كلام بعضهم أن الفراهة حقيقة فى النشاط مجاز فى غيره وعليه يترجح تفسيره بنشطين إذا أريد التذكير

وقرأ أبو حيوة . وعيسى . والحسن (تنحتون) بفتح الحاء . وقرىء (تنحاتون) بألف بعد الحاء إشباعا، وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه أنه قرأ (ينحتون) بالياء آخر الحروف وكسر الحاء ، وعن أبى حيوة . والحسن أيضا أنهما قرآ بالياء التحتية وفتح الحاء . وقرأ عبدالله . وابن عباس . وزيد بن على . والكوفيون . وابن عامر (فارهين) بالف بعد الفاء ، وقراءة الجمهور أبلغ لما ذكروا فى حاذر وحذر . وقرأ مجاهد (متفرهين)

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١ ﴾ كأنه عنى بالخطاب جمهور قومه وبالمسرفين كبراءهم وأعلامهم فى الكفر والاضلال وكانوا تسعة رهط. ونسبة الاطاعة إلى الامر مجاز وهى للآمر حقيقة وفى ذلك من المبالغة ما لا يخفى وكونه لا يناسب المقام فيه بحث. ويجوز أن تكون الاطاعة مستعارة للامتثال لما بينهما من الشبه فى الافضاء إلى فعل ماأمر به أو مجازا مرسلا عنه للزومه له. ويحتمل أن يكون هناك استعارة مكنية وتخييلية ، وجوز عليه أن يكون الأمر واحد الأمور وفيه من البعد ما فيه والاسراف تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الانسان وإن كان ذلك فى الانفاق أشهر ، والمراد به هنا زيادة الفساد وقد أوضح ذلك على ما قيل بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ ولعل المراد ذمهم بالضلال فى أنفسهم بالكفر والمعاصى وإضلالهم غيرهم بالدعوة لذلك ، وللايماء إلى عدم اختصاص شؤم فعلهم بهم حثا على امتثال النهى قيل (فى الأرض) والمراد بها أرض ثمود ، وقيل: الأرض كلها ولما كان (يفسدون) لا ينافى إصلاحهم احيانا أردف بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢ ﴾ لبيان كمال إنسادهم وأنه لم يخالطه إصلاح أصلا ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ أى الذين سحروا كثيرا حتى غلب على عقولهم ، وقيل : أى من ذوى السحر أى الرئة فهو كناية عن كونه من الاناسى فقوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ على هذا تأكيد له وعلى الأول هو مستأنف للتعليل أى أنت مسحور لأنك بشر مثلنا لا تميز لك علينا فدعواك إنما هى لخلل فى عقلك ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ أى بعلامة

Marfat.com

على صحه دعواك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤ ﴾ فيها ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أى بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه ٭ روى أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم تلد سقبا فقعد عليه السلام يتذكر فقال له: جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها فى العظم فعند ذلك قال لهم: هذه ناقة ﴿ لَهَا شِرْبٌ ﴾ أى نصيب مشروب من الماء كالسقى والقيت للنصيب من السقى والقوت وكان هذا الشرب من عين عندهم ٭

وفى مجمع البيان عن على كرم الله تعالى وجهه أن تلك العين أول عين نبعت فى الأرض وقد فجرها الله عزوجل لصالح عليه السلام ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ١٥٥ ﴾ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها ٭ وقرأ ابن أبى عبلة (شرب) بضم الشين فيهما ، واستدل بالآية على جواز قسمة ماء نحو الآبار على هذا الوجه ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ ﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم مايحل فيه وهو أبلغ من عظم العذاب وهذا من المجاز فى النسبة ، وجعل (عظيم) صفة (عذاب) والجر للمجاورة نحو هذا جحر ضب خرب ليس بشئ ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ نسب العقر اليهم كلهم مع أن عاقرها واحد منهم وهو قدار بن سالف وكان نساجا على ماذكره غير واحد ، وجاء فى رواية أن مسطعا ألجأها إلى مضيق فى شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار لما روى أن عاقرها قال : لا اعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقول : أترضين ؟ فتقول : نعم وكذلك الصبيان فرضوا جميعا ، وقيل : لأن العقر كان بأمرهم ومعاونتهم جميعا كما يفصح عنه قوله تعالى : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وفيه بحث ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧ ﴾ خوفا من حلول العذاب كما قال جمع ، وتعقب بأنه مردود بقوله تعالى : (وقالوا) أى بعد ماعقروها : (ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) ، وأجيب بأن قوله بعد ماعقروها فى حيز المنع إذ الواو لاتدل على الترتيب فيجوز أن يريدوا بما تعدنا من المعجزة أو الواو حالية أى والحال أنهم طلبوها من صالح ووعدوه الايمان بها عندظهورها مع أنه يجوز ندم بعض وقول بعض آخر ذلك باسناد ماصدر من البعض إلى الكل لعدم نهيهم عنه أو نحو ذلك أو ندموا كلهم أولا خوفا ثم قست قلوبهم وزال خوفهم أو على العكس ، وجوز أن يقال : إنهم ندموا على عقرها ندم توبة لكنه كان عندمعاينة العذاب وعند ذلك لاينفع الندم ، وقيل: لم ينفعهم ذلك لأنهم لم يتلافوا مافعلوا بالايمان المطلوب منهم ٭ وقيل : ندموا على ترك سقبها ولا يخفى بعده ، ومثله ماقيل : إنهم ندموا على عقرها لما فاتهم به من لبنها ، فقد روى أنه إذا كان يومها أصدرتهم لبنا ماشاءوا ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم وصب عليهم حجارة خلال ذلك ٭

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ وكانوا من أصهاره عليه السلام ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٤ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥ ﴾

Marfat.com

إنكار وتوبيخ . والاتيان كناية عن الوطء .و(الذكران) جمع ذكر مقابل الأنثى ، والظاهر أن (من العالمين) متصل به أى أتأتون الذكران من أولاد بنى آدم على قرط كثرتهم وتفارت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكرانهم كأن الاناث قد أعوزتكم فالمراد بالعالمين الناس لأن المأتى الذكور منهم خاصة والقرينة إيقاع الفعل والجمع بالواو والنون من غير نظر إلى تغليب .وأماخروج الملك والجن فمن الضرورة العقلية. ويجوز أن يكون متصلا بتأتون أى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لايشاركهم فيه غيركم فالمراد بالعالمين كل من يتأتى منه الاتيان. والعالم على هذا مايعلم به الخالق سبحانه . والجمع للتغليب وخروج غيره لما مر . ولا يضر كون الحمار . والخنزير يأتيان الذكور فى أمر الاختصاص للندرة أو لاسقاطهما عن حيز الاعتبار ،وجوز أن يراد بالعالمين على الوجه الثانى الناس أيضا ، وإذا قيل بشمولهم لمن تقدم من العالمين تفيد الآية أنهم أول من سن هذه السنة السيئة كما يفصح عنه قوله تعالى : (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) ٥

﴿وَتَذَرُونَ مَاخَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم ، وكلمة (من) فى قوله تعالى ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للبيان إن أريد بماجنس الاناث ، ولعل فى الكلام حينئذ مضافين محذوفين أى وتذرون اتيان فروج ماخلق لكم أو للتبعيض إن أريد بما العضو المباح من الأزواج . ويؤيده قراءة ابن مسعود(ماأصلح لكم ربكم من أزواجكم) وحينئذ يكتفى بتقدير مضاف واحد أى وتذرون اتيان ماخلق . ويكون فى الكلام على ماقيل تعريض بأنهم كانوا يأتون نساءهم أيضا فى محاشهن ولم يصرح بانكاره كما صرح بانكار اتيان الذكران لأنه دونه فى الاثم٥ وهو على المشهور عند أهل السنة حرام بل كبيرة ،وقيل : هو مباح ، وقد تقدم الكلام (١) فى ذلك مبسوطا عند الكلام فى قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وقيل : ليس فى الكلام مضاف محذوف أصلا ، والمراد ذمهم بترك ماخلق لهم وعدم الالتفات اليه بوجه من الوجوه فضلا عن الاتيان ،وأنت تعلم أن المعنى ظاهر على التقدير ،وقوله تعالى:﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ اضراب انتقالى والعادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد ومتعلقه مقدر وهو اما عام أوخاص أى بل أنتم قوم متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث زدتم على سائر الناس بل أكثر الحيوانات ٥ وقيل:متجاوزون الحد فى الظلم حيث ظلمتم باتيان مالم يخلق للاتيان وترك اتيان ماخلق له ، وفى البحر أن

(١) بيد انى وقفت عند كتابتى فى هذا الموضع على كلام العز بن عبد السلام فى اماليه فى هذا المبحث حاصله ان حرمة اتيان الزوجة فى المحل المكروه ليست اجماعية الا ان معظم اهل الاسلام على تحريمه كما قال الطرسوسى والخلاف فيه يسير جدا كالذى لاعبرة به.ويذكر ان ابن عبد الحكم نقل حله عن الشافعى وان الربيع قال: كذب والله ابن عبد الحكم.وقد نص الامام على تحريمه فى ست كتب ولم يحفظ عن مالك شىء فى اباحته البتة ونقله من كتاب السر غير صحيح بل فى كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الأندلسى النص على خلاف ذلك. ورواية الطحاوى عن ابى الفرج عن ابن القاسم حله لا يعول عليها ولا تصح.واما اباحة زيد بن اسلم .ونافع لذلك فلا يؤخذ بهما فنافع امام فى القراءات وليس معدودا فى الفقهاء اهل الحل والعقد ، واما زيد فصاحب تفسير لايعتد لخلافه فليحفظ اه منه

Marfat.com

تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيما لفعلهم وتنبيها على انهم مختصون بذلك كأنه قيل : بل أنتم قوم عادون لاغيركم ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ ﴾ عن توبيخنا وتقبيح أمرنا أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الايمـــان وإنكار ما أنكرته من أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ١٦٧ ﴾ أى من المنفيين من قريتنا المعهودين، وكأنهم كانوا يخرجون من غضبوا عليه بسبب من الأسباب ، وقيل : بسبب إنكار تلك الفاحشة من بينهم على عنف وسوء حال ، ولهذا هددوه عليه السلام بذلك ، وعدلوا عن لنخرجنك الأخصر إلى ماذكر ؛ ولا يخفى مافى الكلام من التاكيد *

﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ١٦٨ ﴾ أى من المبغضين غاية البغض ، قال الراغب : يقال قلاه ويقليه فمن جعله من الواو فهو من القلو أى الرمى من قولهم : قلت الناقة برا كبها قلوا وقلوت بالقلة إذا رميتها فكأن المقلو يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله .ومن جعله من الياء فهو من قليت السويق على المقلاة فكأن شدة البغض تقلى الفؤاد والكبد وتشويهما ، فقول أبى حيان : ان قلى بمعنى أبغض يائى ، والذى بمعنى طبخ وشوى واوى ناش من قلة الاطلاع ، والعدول عن قالى إلى مافى النظم الجليل لأنه أبلغ فانه إذا قيل : قالى لم يفد أكثر من تلبسه بالفعل بخلاف قوله (من القالين) إذ يفيد أنه مع تلبسه من قوم عرفوا واشتهروا به فيكون راسخ القدم عريق العرف فيه ، وقد صرح بذلك ابن جنى . وغيره، واللام فى «لعملكم» قيل للتبيين كما فى سقيالك فهو متعلق بمحذوف أعنى أعنى ، وقيل :هى للتقوية ومتعلقها عند من يرى تعلق حرف التقوية محذوف أى إنى من القالين لعملكم من القالين . وقيل : هى متعلقة بالقالين المذكور ويتوسع فى الظروف مالا يتوسع فى غيرها فتقدم حيث لايقدم غيرها ، والمراد بعملهم إما ماأنكره عليه السلام عليهم من اتيان الذكران وترك ما خلق ربهم سبحانه لهم وإما مايشمل ذلك وسائر مانهاهم عنه وأمرهم بضده من الأعمال القلبية والقالبية ،وقابل عليه السلام تهديدهم ذلك بمـــا ذكر تنبيها على عدم الاكتراث به وأنه راغب فى الخلاص من سوء جوارهم لشدة بغضه لعملهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلا : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩ ﴾ أى من شؤم عملهم أو الذى يعملونه وعذابه الدنيوى . وقيل : يحتمل أن يكون دعاء بالنجاة من التلبس بمثل عملهم وهو بالنسبة إلى الأهل دونه عليه السلام إذ لايخشى تلبسه بذلك لمكان العصمة . واعترض بان العذاب كذلك إذ لايعذب من لم يجن وفيه منع ظاهر . كيف وقد قال سبحانه : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) . وقيل : قد يدعو المعصوم بالحفظ عن الوقوع فيما عصم عنه كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وهو مسلم إلا أن الظاهر أن المراد النجاة مما يناله م بسبب عملهم من العذاب الدنيوى . ويؤيده ظاهر قوله تعالى ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ١٧١ ﴾ *

والظاهر أن المراد باهله أهل بيته . وجوز أن يكون المراد بهم من تبع دينه مجازاً فيشمل أهل بيته المؤمنين وسائر من آمن به . وقيل : لاحاجة إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلا أهل بيته . والمراد بهذه العجوز امرأته عليه السلام وكانت كافرة مائلة إلى القوم راضية بفعلهم . والتعبير عنها بالعجوز للايماء

Marfat.com

إلى أنه مما لا يشق أمر هلاكها على لوط عليه السلام وسائر أهله بمقتضى الطبيعة البشرية . وقيل: الايماء إلى أنها قد عسيت فى الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزا، والغابر الباقى بعد مضى من معه . وأنشد ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى ذلك قول عبيد بن الأبرص :

ذهبوا وخلفنى المخلف فيهم فكأننى فى الغابرين غريب

والمراد فنجيناه وأهله من العذاب باخراجهم من بينهم ليلا عند مشارفة حلوله بهم الا عجوزا مقدرة فى الباقين فى العذاب بعد سلامة من خرج . وإنما اعتبر البقاء فى العذاب دون البقاء فى الدار لما روى أنها خرجت مع لوط عليه السلام فاصابها حجر فى الطريق فهلكت، وقيل: المراد من الباقين فى الدار بناء على أنها هلاكها كأنها ممن بقى فيها أو أنها خرجت ثم رجعت فهلكت كما فى بعض الروايات أو أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام أصلا كما فى البعض الآخر منها . وقيل :الغابر طويل العمر وكأنه إنما أطلق عليه ذلك لبقائه مع مضى من كان معه . والمراد وصف العجوز بانها طاعنة فى السن . وقرأ عبد الله كما روى عنه مجاهد (وواعدنا أن نؤتيه أهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ١٧٢﴾ أهلكناهم اشد اهلاك وافظعه، وكان ذلك الائتفاك. والظاهر العطف على (نجينا) والتدمير متراخ عن التنجية من مطلق العذاب فلا حاجة إلى القول بأن المراد أردنا تنجيته أو حكمنا بها أو معنى (فنجيناه) فاستجبنا دعاءه فى تنجيته وكل ذلك خلاف الظاهر *

وجوز الطيبى كون (ثم) للتراخى فى الرتبة ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ أى نوعا من المطر غير معهود فقد كان حجارة من سجيل كما صرح به فى قوله تعالى: (ولما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل)*

وجمع الأمران لهم زيادة فى اهانتهم . وقيل : كان الائتفاك لطائفة والامطار لأخرى منهم . وكانت هذه على ما روى عن مقاتل للذين كانوا خارجين من القرية لبعض حوائجهم ولعله مراد قتادة بالشذاذ فيما روى عنه ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف اليه فاعل ساء بناء على أنها بمعنى بئس. والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم وإذا لم تكن ساء كذلك جاز كونها للعهد *

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٧٥ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ١٧٦﴾ الأيكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل . ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ ولم يقل أخوهم ، وقيل : (الأيكة) الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل ،وعلى القولين (أصحاب الأيكة) غير أهل مدين ، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحاب مدين *

وقرأ الحرميان . وابن عامر (ليكة) بلام مفتوحة بعدها ياء بغير الف ممنوع الصرف هنا ، وفى ص، قال أبو عبيدة : وجدنا فى بعض كتب التفسير أن (ليكة) اسم للقرية و(الأيكة) البلاد كلها كمكة. وبكة، ورأيتها فى الامام مصحف عثمان رضى الله تعالى عنه فى الحجر و(ق) (الأيكة) وفى (الشعراء وص)(ليكة) واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد ذلك ولم تختلف ، وفى الكشاف من قرأ بالنصب ، وزعم أن (ليكة) بوزن ليلة

Marfat.com

اسم بلد فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة هنا وفى (ص) بغير الف ، وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف الخط المصطلح عليه وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو الآن لان والأولى لولى لبيان لفظ المخفف .وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن (ليكة) اسم لا يعرف انتهى ، وتعقب بانه دعوى من غير ثبت وكفى ثبتا للمخالف ثبوت القراءة فى السبعة وهى متواترة كيف وقد انضم اليه ماسمعت عن بعض كتب التفسير .وإن لم تعول عليه فما روى البخارى فى صحيحه (الأيكة) واليكة الغيضة ،هذا وان الأسماء المرتجلة لامنع منها ، وفى البحر أن كون مادة ل ى ك مفقودة فى لسان العرب كما تشبث به من أنكر هذه القراءة المتواترة إن صح لايضر وتكون الكلمة عجمية ومواد كلام العجم مخالفة فى كثير مواد كلام العرب فيكون قد اجتمع على منع صرفها العلمية والعجمة والتأنيث ، وبالجملة إنكار الزمخشرى صحة هذه القراءة يقرب من الردة والعياذ بالله تعالى .وقد سبقه فى ذلك المبرد . وابن قتيبة . والزجاج . والفارسى . والنحاس ، وقرئ (ليكة) بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام والجر بالكسرة وتكتب على حكم لفظ اللافظ بدون همزة وعلى الأصل بالهمزة وكذا نظائرها ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨٠ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أى أتموه ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ١٨١ ﴾ أى حقوق الناس بالتطفيف ولعل المبالغة المستفادة من التركيب متوجهة إلى النهى أو أنه لايعتبر المفهوم لنحو ماقيل فى قوله تعالى :(لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) وأياما كان فنى النهى المذكور تأكيد للامر السابق عليه ﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ ﴾ أى بالميزان السوى ، وقيل: القسطاس القبان وروى ذلك عن الحسن ، وهو عند بعض معرب رومى الأصل ومعناه العدل وروى ذلك عن مجاهد .وعند آخرين عربى فقيل: هو من القسط ووزنه فعلاع بتكرير العين شذوذا إذ هى لاتكرر وحدها مع الفصل باللام ، وقيل . من قسطس وهو رباعى ووزنه فعلال ، والمراد الأمر بوفاء الوزن وإتمامه والنهى عن النقص دون النهى عن الزيادة ، والظاهر أنه لم ينه عنها ولم يؤمر بها فى الكيل والوزن ،وكأن ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن ومن لم يفعلها فلا عليه

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن معنى (وزنوا) الخ وعدلوا أمركم كلها بميزان العدل الذى جعله الله تعالى لعباده ، والظاهر إذ عادل سبحانه به (أوفوا الكيل) ماتقدم

وقرأ أكثر السبعة (بالقسطاس) بضم القاف ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم شيئا من حقوقهم أى حق كان فاضافة أشياء جنسية ويجوز أن تكون للاستغراق ، والمراد مقابلة الجمع بالجمع فيكون المعنى لا تبخسوا أحداً شيئا ، وجوز أن يكون الجمع للاشارة إلى الانواع فانهم كانوا يبخسون كل شىء جليلا كان أو حقيرا ، وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المراد بالذكر لغاية انهماكهم فيه ، وقيل : المراد بأشيائهم الدراهم والدنانير وبخسها بالقطع من أطرافها ولولاه لم يجمع .وبخس مما يتعدى إلى اثنين فالمنصوبان مفعولاه ، وقيل هو متعد لواحد فالثانى بدل اشتمال ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ونحو ذلك . والعثو الفساد أو أشده و«مفسدين» حال مؤكدة ، وجوز أن يكون المراد مفسدين

Marfat.com

آخر تكم فتكون حالا مؤسسة ﴿وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ أى وذوى الجبلة أى الخلقة والطبيعة أو والمجبولين على أحوالهم التى بنوا عليها وسبلهم التى قيضوا لسلوكها المتقدمين عليكم من الأمم، وجاء فى رواية عن ابن عباس أن الجبلة الجماعة إذا كانت عشرة آلاف كأنها شبهت على ما قيل بالقطعة العظيمة من الجبل ، وقيل: هى الجماعة الكثيرة مطلقا كأنها شبهت بما ذكر أيضا *

وقرأ أبو حصين . والأعمش . والحسن بخلاف عنه (الجبلة) بضم الجيم والباء وشد اللام . وقرأ السلمى (الجُبلة) بكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة ، وفى نسخة عنه بفتح الجيم وسكون الباء قيل وتشديد اللام فى القراءتين للمبالغة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ الكلام فيه نظير ما تقدم فى قصة ثمود بيد أنه أدخل الواو بين الجملتين هنا للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة فكيف إذا اجتمعا وأرادوا بذلك المبالغة فى التكذيب، ولم تدخل هناك حيث لم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشرا مثلهم كذا فى الكشاف ، وفى الكشف أن فيه ما يلوح إلى اختصاص كل بموضعه وإن الكلام هنالك فى كونه مثلهم غير ممتاز بما يوجب الفضيلة ولهذا عقبوه بقولهم: (فأت بآية) فدل على أنهم لم يجعلوا البشرية منافية للنبوة وإنما جعلوا الوصف تمهيداً للاشتراك وأنه أبدع فى دعواه ، وههنا ساقوا ذلك مساق ما ينافى النبوة فجعلوا كل واحد صفة مستقلة فى المنافاة ليكون أبلغ . وجعلوا إنكار النبوة أمرا مفروغا ولذا عقبوه بقولهم : (وإن نظنك) الخ ، وقال النيسابورى فى وجه الاختصاص إن صالحا عليه السلام قال فى الخطاب فقللوا فى الجواب وأكثر شعيب عليه السلام فى الخطاب ولهذا قيل له : خطيب الانبياء فأكثروا فى الجواب ، ولعله أراد أن شعيبا عليه السلام بالغ فى زجرهم فبالغوا فى تكذيبه ولا كذلك صالح عليه السلام مع قومه فتأمل ، و(إن) فى قوله سبحانه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ١٨٦﴾ هى المخففة من الثقيلة واللام فى (لمن) هى الفارقة ، وقال الكوفيون: إن نافية واللام بمعنى إلا وهو خلاف مشهور أى وإن الشأن نظنك من الكاذبين فى الدعوى أو ما نظنك إلا من الكاذبين فيها، ومرادهم أنه عليه السلام وحاشاه راسخ القدم فى الكذب فى دعواه الرسالة أو فيها وفى دعوى نزول العذاب الذى يشعر به الأمر بالتقوى من التهديد *

وظاهر حالهم إنهم عنوا بالظن الادراك الجازم، وقوله عز وجل ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٨٧﴾ من الاقتراح الذى تحته كل الانكار على نحو (إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء) ولعلهم قابلوا به ما أشعر به الأمر بالتقوى مما ذكرنا ، و« كسفا » أى قطعا كما روى عن ابن عباس. وقتادة جمع كسفة كقطعة *

وقرأ الاكثرون « كسفا » بكسر الكاف وسكون السين وهو أيضا جمع كسفة مثل سدرة وسدر ، وقيل: الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة، والمراد بالسماء اما المظلة وهو الظاهر وإما السحاب ، والظاهر أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لما قبله وتعلقه بأسقط فى غاية السقوط ، وجوز عليه أن يراد بالسماء جهة العلو، وجواب ان محذوف دل عليه فأسقط ، ومن جوز تقدم الجواب جعله الجواب *

﴿قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨﴾ أى هو تعالى أعلم باعمالكم من الكفر والمعاصى وبما تستوجبون عليها من العذاب

Marfat.com

فسينزله عليكم حسبما تستوجبون فى وقته المقدر له لامحالة ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فاستمروا على تكذيبه وكذبوه تكذيبا بعد تكذيب ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ وذلك على ماأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وأبن أبى حاتم . والحاكم عن ابن عباس أن الله تعالى بعث عليهم حرا شديدا فاخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هرابا إلى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فاظلتهم من الشمس وهى الظلة فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عز وجل عليهم نارا فأكلتهم جميعا . وجاء فى كثير من الروايات أن الله عز وجل سلط عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم كان ما كان من الخروج إلى البرية ومابعده وكان ذلك على نحو مااقترحوه لاسيما على القول بأنهم عنوا بالسماء السحاب ، وفى اضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها ايذان بأن لهم عذابا آخر غير عذاب الظلة وفى ترك بيانه تعظيم لأمره *

وقد أخرج ابن جرير . والحاكم . وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : من حدثك من العلماء ماعذاب يوم الظلة فكذبه ، وكأنه أراد بذلك مجموع عذاب الظلة الذى ذكر فى الخبر السابق والعذاب الآخر الذى آذنت به الاضافة إلى اليوم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾ أى فى الشدة والهول وفظاعة ماوقع فيه من الطامة والداهية التامة *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٩١ ﴾ هذا آخر القصص السبع التى سيقت لما علمته سابقا ، ولعل الاقتصار على هذا العدد على ماقيل لأنه عدد تام وأنا أفوض العلم بسر ذلك وكذا العلم بسر ترتيب القصص على هذا الوجه لحضرة علام الغيوب جل شأنه ، وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٩٢ ﴾ الخ عود لما فى مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن ، العظيم ، ورد ماقال المشركون فيه فالضمير راجع إلى القرآن ، وقيل : هو تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على اعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ فان الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون الا وحيا من الله عز وجل ، فالضمير لما ذكر من الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص المحكية ، وجوز أن يكون للقرآن الذى هى من جملته والاخبار عن ذلك بتنزيل للمبالغة . والمراد انه لمنزل من الله تعالى ووصفه سبحانه بربوبية العالمين للايذان بأن تنزيله من أحكام تربيته عز وجل ورأفته بالكل ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ أى أنزله على أن الباء للتعدية *

وقال أبو حيان . وابن عطية : هى للمصاحبة والجار والمجرور فى موضع الحال كما فى قوله تعالى (وقد دخلوا بالكفر) أى نزل مصاحبا له ﴿ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٩٣ ﴾ يعنى جبرائيل عليه السلام ، وعبر عنه بالروح لأنه يحيى به الخلق فى باب الدين أو لأنه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح ، ووصف عليه السلام بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده جل شأنه من غير تغيير وتحريف أصلا . وقرأ حمزة . والكسائى . وأبو بكر . وابن عامر (نزل به الروح الأمين) بتشديد الزاى ونصب (الروح . والأمين) أى جعل الله تعالى الروح الأمين نازلا به ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ متعلق بنزل لا بالأمين . والمراد بالقلب إما الروح وهو أحد اطلاقاته كما قال الراغب . وكون الانزال عليه على ماقال غير واحد لأنه المدرك والمكلف دون

Marfat.com

الجسد . وقد يقال: لما كان له ﷺ جهتان جهة ملكية يستفيض بها وجهة بشرية يفيض بها جعل الانزال على روحه ﷺ لأنها المتصفه بالصفات الملكية التى يستفيض بها من الروح الأمين ٥

وللاشارة إلى ذلك قيل «على قلبك» دون عليك الأخصر . وقيل : ان هذا الأن القرآن لم ينزل فى الصحف كغيره من الكتب ،وإما العضو المخصوص وهو الاطلاق المشهور . وتخصيصه بالانزال عليه قيل للاشارة إلى كمال تعقله ﷺ وفهمه ذلك المنزل حيث لم تعتبر واسطة فى وصوله إلى القلب الذى هو محل العقل كما يقتضيه ظاهر كثير من الآيات والأحاديث و يشهد له العقل على مالا يخفى على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وقد أطال فى الانتصار لذلك الامام فى تفسيره ٥

ورد على من ذهب إلى أن الدماغ محل العقل ، وقيل : للاشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام وتقدسه حيث كان منزلا لكلامه تعالى ليعلم منه حال سائر أجزائه ﷺ فان القلب رئيس جميع الأعضاء وملكها ومتى صلح الملك صلحت الرعية وفى الحديث « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»، وقد يقال : يجوز أن يكون التخصيص لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعا مخصوصا يسمع به ماينزل عليه من القرآن تمييزاً لشأنه على سائر مايسمعه ويعيه على حد ماقيل وذكره النووى فى شرح صحيح مسلم فى قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) من أن الله عز وجل جعل لفؤاده عليه الصلاة والسلام بصراً فرآه به سبحانه ليلة المعراج. وهذا كله على القول بأن جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنيه المحفوظة له بعد أن نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ. إلى بيت العزة أو التى يحفظها من اللوح عند الأمر بالانزال أو التى يوحى بها اليه أو التى يسمعها منه سبحانه على ما قاله بعض أجلة السلف عنده فيلقيها إلى النبى ﷺ على ماهى عليه من غير تغيير أصلا. وكذا على القول بأن جبرائيل عليه السلام ألقى عليه المعانى القرآنية وأنه عبر عنها بهذه الألفاظ العربية ثم نزل بها كذلك فالقاها إلى النبى ﷺ .وأما على القول بانه عليه السلام إنما نزل بالمعانى خاصة إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأنه عليه الصلاة والسلام علم تلك المعانى وعبر عنها بلغة العرب فقيل : إن القلب بمعنى العضو المخصوص لا غير وتخصيصه لأن المعانى إنما تدرك بالقوة المودعه فيه ، وقيل : يجوز أن يراد به الروح وروحه عليه الصلاة والسلام لغاية تقدسها وكمالها فى نفسها تدرك المعانى من غير توسط آلة. ومن الناس من ذهب إلى هذا القول وجعل الآية دليلا له وهو قول مرجوح. ومثله القول بأن جبرائيل عليه السلام القى عليه المعانى فعبر عنها بالفاظ فنزل بما عبر هو به . والقول الراجح أن الألفاظ منه عز وجل كالمعانى لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلا. وكان النبى ﷺ يسمعها ويعيها بقوى إلهية قدسية لا كسماع البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام وتنفعل عند ذلك قواه البشرية، ولهذا يظهر على جسده الشريف ﷺ مايظهر ويقال لذلك: برحاء الوحى حتى يظن فى بعض الاحايين أنه أغمى عليه عليه الصلاة والسلام. وقد يظن أنه ﷺ أغمى عليه

وعلى هذا يخرج ماروا مسلم عن أنس قال :«بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يارسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) ولا يحتاج من قال: إن الأشبه

Marfat.com

أن القرآن كله نزل فى اليقظة إلى تأويل هذا الخبر بأنه عليه الصلاة والسلام خطر له فى تلك الاغفاءة سورة الكوثر التى نزلت قبلها فى اليقظة أو عرض عليه الكوثر الذى أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم، ثم انه على ما قيل من أن بعض القرآن نزل عليه عليه الصلاة والسلام وهو نائم استدلالا بهذا الخبر يبقى ما قلناه من سماعه عليه الصلاة والسلام ماينزل اليه ﷺ ووعيه إياه بقوى إلهية قدسية ونومه عليه الصلاة والسلام لا يمنع من ذلك كيف وقد صح عنه ﷺ أنه قال: « تنام عينى ولا ينام قلبى » *

وقد ذكر بعض المتصدرين فى محافل الحكمة من المتأخرين فى بيان كيفية نزول الكلام وهبوط الوحى من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبى ﷺ أن الروح الانسانى إذا تجرد عن البدن، وخرج عن وثاقه من بيت قالبه وموطن طبعه مهاجرا إلى ربه سبحانه لمشاهدة آياته الكبرى وتطهر عن درن المعاصى واللذات والشهوات والوساوس العادية والمتعلقات لاح له نور المعرفة والايمان بالله تعالى وملكوته الاعلى وهذا النور إذا تأكد وتجوهر كان جوهرا قدسيا يسمى فى لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعال وفى لسان الشريعة النبوية بالروح القدسى وبهذا النور الشديد العقلى يتلألأ فيه أسرار مافى الأرض والسماء ويتراءى منه حقائق الاشياء كما يتراءى بالنور الحسى البصرى الاشباح المثالية فى قوة البصر إذا لم يمنع حجاب، والحجاب ههنا هو آثار الطبيعة وشواغل هذه الأولى فاذا عريت النفس عن دواعى الطبيعة والاشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحس والتخيل وتوجهت بوجهها شطر الحق وتلقاء عالم الملكوت الاعلى اتصلت بالسعادة القصوى فلاح لها سر الملكوت وانعكس عليها قدس اللاهوت ورأت عجائب آيات الله تعالى الكبرى، ثم ان هذه الروح إذا كانت قدسية شديدة القوى قوية الآثار لقوة اتصالها بما فوقها فلا يشغلها شأن عن شأن ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها فتضبط الطرفين وتسع قوتها الجانبين لشدة تمكنها فى الحد المشترك بين الملك والملكوت كالارواح الضعيفة التى إذا مالت إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن المشعر الآخر وإذا توجهت هذه الروح القدسية التى لا يشغلها شان عن شان ولا تصرفها نشأة عن نشأة وتلقت المعارف الالهية بلا تعلم بشرى بل من الله تعالى يتعدى تاثيرها إلى قواها ويتمثل لروحه البشرى صورة ما شاهده بروحه القدسى وتبرز منها إلى ظاهر الكون فتتمثل للحواس الظاهرة سيما السمع والبصر لكونهما أشرف الحواس الظاهرة فيرى ببصره شخصا محسوسا فى غاية الحسن والصباحة ويسمع بسمعه كلاما منظوما فى غاية الجودة والفصاحة، فالشخص هو الملك النازل باذن الله تعالى الحامل للوحى الالهى، والكلام هو كلام الله تعالى وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله تعالى، وهذا الامر المتمثل بما معه أو فيه ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها فى خارج الذهن والتخيل كما يقوله من لا حظ له من علم الباطن ولا قدم له فى أسرار الوحى والكتاب كبعض أتباع المشائين معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الانزال والتنزيل ثم قال: انارة قلبية واشارة عقلية عليك أن تعلم أن للملائكة ذوات حقيقية وذوات اضافية مضافة إلى مادونها اضافة النفس إلى البدن الكائن فى النشاة الآخرة فاما ذواتها الحقيقية فانما هى أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الاضافية فانما هى خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم اسرافيل عليه السلام وهؤلاء الملائكة اللوحية ياخذون الكلام الالهى والعلوم اللدنية من الملائكة القلمية ويثبتونها فى صحائف الواحهم القدرية الكتابية، وإنما كان

Marfat.com

يلاقى النبي ﷺ فى معراجه الصنف الأول من الملائكة ويشاهد روح القدس فى اليقظة فاذا اتصلت الروح النبوية بعالمهم عالم الوحى الربانى يسمع كلام الله تعالى وهو اعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقية وهى الافاضة والاستفاضة فى مقام قاب قوسين أو ادنى وهو مقام القرب ومقعد الصدق ومعدن الوحى والالهام ،وكذا إذا عاشر النبي الملائكة الاعلين يسمع صريف أقلامهم والقاء كلامهم وهو كلام الله تعالى النازل فى محل معرفتهم وهى ذواتهم وعقولهم لكونهم فى مقام القرب ،ثم إذا نزل عليه الصلاة والسلام إلى ساحة الملكوت السماوى يتمثل له صورة ماعقله وشاهده فى لوح نفسه الواقعة فى عالم الارواح القدرية السماوية ثم يتعدى منه الاثر إلى الظاهر ، وحينئذ يقع للحواس شبه دهش ونوم لما أن الروح القدسية لضبطها الجانبين تستعمل المشاعر الحسية لكن لافى الاغراض الحيوانية بل فى سبيل السلوك إلى الرب سبحانه فهى تشائع الروح فى سبيل معرفته تعالى وطاعته فلا جرم إذا خاطبه الله تعالى خطابا من غير حجاب خارجى سواء كان الخطاب بلا واسطة أو بواسطة الملك واطلع على الغيب فانطبع فى فص نفسه النبوية نقش الملكوت وصورة الجبروت تنجذب قوة الحس الظاهر إلى فوق ويتمثل لها صورة غير منفكة عن معناها وروحها الحقيقى لا كصورة الاحلام والخيالات العاطلة عن المعنى فيتمثل لها حقيقة الملك بصورته المحسوسة بحسب مايحتملها فيرى ملكا على غير صورته التى كانت له فى عالم الامر لأن الأمر إذا نزل صار خلقا مقدرا فيرى صورته الخلقية القدرية ويسمع كلاما مسموعا بعد ما كان وحيا معقولا أو يرى لوحا بيده مكتوبا فالوحى اليه يتصل بالملك أولا بروحه العقلى ويتلقى منه المعارف الالهية ويشاهد ببصره العقلى آيات ربه الكبرى ويسمع بسمعه العقلى كلام رب العالمين من الروح الاعظم ،ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الالهى يتمثل له الملك بصورة محسوسة بحسبه ثم ينحدر إلى حسه الظاهر ثم إلى الهواء وهكذا الكلام فى كلامه فيسمع أصواتا وحروفا منظومة مسموعة يختص هو بسماعها دون غيره فيكون كل من الملك وكلامه وكتابه قد تادى من غيبه إلى شهادته ومن باطن سره إلى مشاعره ،وهذه التادية ليست من قبيل الانتقال والحركة للملك الموحى من موطنه ومقامه إذ كل له مقام معلوم لايتعداه ولاينتقل عنه بل مرجع ذلك إلى انبعاث نفسى النبي عليه الصلاة والسلام من نشأة الغيب إلى نشأة الظهور ،ولهذا كان يعرض له شبه الدهش والغشى ثم يرى ويسمع ثم يقع منه الانباء والاخبار فهذا معنى تنزيل الكتاب وانزال الكلام من رب العالمين انتهى * وفيه ماتاباه الاصول الاسلامية مما لايخفى عليك. وقد صرح غير واحد من المحدثين والمفسرين وغيرهم بانتقال الملك وهو جسم عندهم ولم يؤول أحد منهم نزوله فيما نعلم، نعم أو لوا نزول القرآن وانزاله ه

قال الاصفهانى فى أوائل تفسيره : اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله تعالى منزل واختلفوا فى معنى الانزال، فمنهم من قال: اظهار القراءة ،ومنهم من قال: إن الله تعالى الهم كلامه جبريل عليه السلام وهو فى السماء وعلمه قراءته ثم جبريل أداه فى الأرض وهو يهبط فى المكان وفى ذلك طريقتان، احداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل عليه السلام ،وثانيتهما أن الملك انخلع إلى البشرية حتى ياخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منه، والاولى أصعب الحالين انتهى ؛ وقال الطيبي: لعل نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتلقفه الملك تلقفا روحانيا أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه *

Marfat.com

وقال القطب فى حواشى الكشاف. الانزال فى اللغة الايواء وبمعنى تحريك الشئ من علو إلى سفل وكلاهما لا يتحققان فى الكلام فهو مستعمل بمعنى مجازى فمن قال: القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فانزاله أن توجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها فى اللوح المحفوظ. ومن قال: القرآن هو الألفاظ الدالة على المعنى القائم بذاته تعالى فانزاله مجرد إثباته فى اللوح المحفوظ، وهذا المعنى مناسب لكونه مجازا عن أول المعنيين اللغويين ه

ويمكن أن يكون المراد بانزاله إثباته فى السماء الدنيا بعد الاثبات فى اللوح المحفوظ وهذا مناسب للمعنى الثانى، والمراد بانزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تعالى تلقفا روحانيا أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم انتهى وفيه بحث لا يخفى، وعندى أن إنزاله إظهاره فى عالم الشهادة بعد أن كان فى عالم الغيب، ثم إن ظاهر الآية يقتضى أن جميع القرآن نزل به الروح الأمين على قلبه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا ينافى ما قيل: إن آخر سورة البقرة كلمه الله تعالى بها ليلة المعراج حيث لا واسطة احتجاجا بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود «لما أسرى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى» الحديث وفيه «فاعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله تعالى شيئا المقحمات»، وأجيب بعد تسليم أن يكون ماذكر دليلا لذلك يجوز أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذكر أيضا تأكيدا وتقريرا أو نحو ذلك، وقد ثبت نزوله عليه السلام بالآية الواحدة مرتين لما ذكر، وجوز أن تكون الآية باعتبار الأغلب، واعتبر بعضهم كونها كذلك لأمر آخر وهو أن من القرآن ما نزل به إسرافيل عليه السلام وهو ما كان فى أول النبوة وفيه أن ذلك لم يثبت أصلا *

وفى الاتقان أخرج الامام أحمد فى تاريخه من طريق داود بن أبى هند عن الشعبى قال: أنزل على النبى ﷺ النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل عليه القرءان على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه فنزل عليه القرءان على لسانه عشر سنين انتهى، وهو صريح فى خلاف ذلك وإن كان فيه ما يخالف الصحيح المشهور من أن جبريل عليه السلام هو الذى نزل عليه عليه الصلاة والسلام بالوحى من أول الأمر إلا أنه نزل عليه ﷺ غيره عليه السلام من الملائكة أيضا ببعض الأمور، وكثيرا ما ينزلون لتشييع الآيات القرءانية مع جبريل عليه وعليهم السلام *

ومن الناس من اعتبر كونها باعتبار الأغلب لأن إنزال جبريل عليه السلام قد لا يكون على القلب بناء على ماذكره الشيخ محيى الدين قدس سره فى الباب الرابع عشر من الفتوحات من قوله: إعلم أن الملك يأتى النبى عليه الصلاة والسلام بالوحى على حالين تارة ينزل بالوحى على قلبه وتارة يأتيه فى صورة جسدية من خارج فيلقى ماجاء به إلى ذلك النبى على أذنه فيسمعه أو يلقيه على بصره فيبصره فيحصل له من النظر ما يحصل من السمع سواء ه

وتعقب بأنه لا حاجة إلى ماذكر، ومانقل عن محيى الدين قدس سره لا يدل على أن نزول الوحى إلى كل نبى يكون على هذين الحالين فيجوز أن يكون نزول الوحى إلى نبينا ﷺ على الحال الأولى فقط سلمنا دلالته على العموم وأن نزول الوحى إلى نبينا عليه الصلاة والسلام قد يكون بتمثل الملك بناء على بعض الأخبار الصحيحة فى ذلك لكن لا نسلم أنه يدل على أن نزول الوحى إذا كان الموحى قرآنا يكون على الحال الثانية سلمنا دلالته على ذلك لكن لا نسلم صحة جعله مبنى لتأويل الآية، وكيف يؤول كلام الله تعالى لكلام

Marfat.com

مناف لظاهره صدر من غير معصوم ، ويكفى محيي الدين قدس سره من علماء الشريعة أن يؤولوا كلامه ليوافق كلام الله عزوجل فيسلم من الطعن ، ولعل من يؤول فى مثل ذلك يحسن الظن بمحيي الدين قدس سره ويقول : إنه لم يقل ذلك إلا لدليل شرعى فقد قال قدس سره فى الكلام على الاذن من الفتوحات : اعلم انى لم أقرر بحمدالله تعالى فى كتابى هذا ولاغيره قط أمراً غير مشروع وماخرجت عن الكتاب والسنة فى شيء من تصانيفى ، وقال فى الباب السادس والستين وثلاثمائة من الكتاب المذكور جميع ما أتكلم به فى مجالسى وتأليفى انما هو من حضرة القرآن العظيم فانى أعطيت مفاتيح العلم فيه فلاأستمد قط فى علم من العلوم الامنه كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى فى مناجاته بكلامه أو بما تضمنه كلامه سبحانه الى غير ذلك فالداعى للتأويل فى الحقيقة ذلك الدليل لانفس كلامه قدس سره العزيز وهو اللائق بالمسلمين الكاملين *

وقوله تعالى ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٩٤﴾ متعلق بنزل أى نزل به لتنذرهم بمافى تضاعيفه من العقوبات الهائلة. وايثار مافى النظم الكريم للدلالة على انتظامه ﷺ فى سلك أولئك المنذرين المشهورين فى حقية الرسالة وتقرر العذاب المنذر به ، وكذا قوله سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ متعلق بنزل عند جمع من الأجلة ويكون حينئذ على ماقال الشهاب بدلا من (به) باعادة العامل، وتقديم (لتكون) الخ للاعتناء بأمر الانذار ولئلا يتوهم أن كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين المذكورين متوقف على كون الانزال بلسان عربى مبين ، واستحسن كون الباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير (به) أى نزل به ملتبسا بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول لئلا يبقى لهم عذر ، وقيل: بلغة مبينة لهم مايحتاجون اليه من أمور دينهم ودنياهم على أن (مبين) من أبان المتعدى، والأول أظهر *

وجوز أن تعلق الجار والمجرور بالمنذرين أى لتكون من الذين أنذروا بلغة العرب وهم هود . وصالح . واسمعيل . وشعيب . ومحمد ﷺ ، وزاد بعضهم خالد بن سنان . وصفوان بن حنظلة عليهما السلام. وتعقب بأنه يؤدى الى أن غاية الانذار كونه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود . وصالح . وشعيب عليهم السلام ، ولايخفى فساده كيف لا، والطامة الكبرى فى باب الانذار ما أنذره نوح . وموسى عليهما السلام، وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين ماأنذره ابراهيم عليه السلام لانتمائهم اليه وادعائهم أنهم على ملته عليه السلام ، وذكر بعضهم أن المراد على هذا الوجه أنك أنذرتهم كما أنذر آباؤهم الأولون وأنك لست بمبتدع بهذا فكيف كذبوك ، والحق أن الوجه المذكور دون الوجه السابق، وأما أنه فاسد معنى كما يقتضيه كلام المتعقب فلا *

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ أى وان ذكر القرآن لفى الكتب المتقدمة على أن الضمير للقرآن والكلام على حذف مضاف وهذا كما يقال : ان فلانا فى دفتر الأمير . وقيل : المراد وان معناه لفى الكتب المتقدمة وهو باعتبار الأغلب فان التوحيد وسائر مايتعلق بالذات والصفات وكثيرا من المواعظ والقصص مسطور فى الكتب السابقة فلايضران منه ماليس فى ذلك بحسب الظن الغالب كقصة الافك وما كان فى نكاح امرأة زيد وما تضمنه صدر سورة التحريم وغير ذلك . واشتهر عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أنه جوز قراءة القرءان بالفارسية والتركية والهندية وغير ذلك من اللغات مطلقا استدلالا بهذه الآية . وفى رواية

Marfat.com

تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية لخبر لسان أهل الجنة العربى والفارسى الدرى . وفى رواية أخرى أنها انما تجوز بالفارسية اذا كان ثناء كسورة الاخلاص أما اذا كان غيره فلا تجوز . وفى أخرى أنها انما تجوز بالفارسية فى الصلاة اذا كان المصلى عاجزا عن العربية وكان المقروء ذكرا وتنزيها أما القراءة بها فى غير الصلاة أو فى الصلاة وكان القارىء يحسن العربية أو فى الصلاة وكان القارىء عاجزا عن العربية لكن كان المقروء من القصص والأوامر والنواهى فانها لا تجوز ، وذكر ان هذا قول صاحبيه . وكان رضى الله تعالى عنه قد ذهب الى خلافه ثم رجع عنه اليه . وقد صحح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقا جمع من الثقات المحققين . وللعلامة حسن الشرنبلالى رسالة فى تحقيق هذه المسألة سماها النفحة القدسية فى أحكام قراءة القرءان وكتابته بالفارسية فمن أراد التحقيق فليرجع اليها . وكان رجوع الامام عليه الرحمة عما اشتهر عنه لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى على المتأمل *

وفى الكشف أن القرءان كان هو المنزل للاعجاز الى اخر ما يذكر فى معناه فلا شك أن الترجمة ليست بقرآن وان كان هو المعنى القائم بصاحبه فلا شك أنه غير ممكن القراءة ، فان قيل : هو المعنى المعبر عنه بأى لغة كان قلنا لا شك فى اختلاف الاسامى باختلاف اللغات وبما لا يسمى القرآن بالتوراة لا يسمى التوراة بالقرآن فالأسماء لخصوص العبارات فيها مدخل لا أنها لمجرد المعنى المشترك اه ، وفيه بحث فان قوله تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا) يستلزم تسميته قرآنا أيضا لو كان أعجميا فليس لخصوص العبارة العربية مدخل فى تسميته قرآنا ، والحق أن قرآنا المنكر لم يعهد فيه نقل عن المعنى اللغوى فيتناول كل مقروء ، أما القرآن باللام فالمفهوم منه العربى فى عرف الشرع فلخصوص العبارة مدخل فى التسمية نظراً اليه ، وقد جاء كذلك فى الآية الدالة على وجوب القراءة أعنى قوله سبحانه : «فاقرؤا ما تيسر من القرآن» وبذلك تم المقصود ، وجعل من فيه للتبعيض وإرادة المعنى من هذا البعض لا يخفى ما فيه ، وقيل : ضمير (إنه) عائد على رسول الله ﷺ وليس بواضح . وقرأ الأعمش «زبر» بسكون الباء *

﴿ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ الهمزة للتقرير أو للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل : أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين وإنه لفى زبر الأولين على أن (لهم) متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام أو بمحذوف هو حال من (آية) قدمت عليها لكونها نكرة و(آية) خبر للكون قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٩٧ ﴾ لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والعلم بمعنى المعرفة والضمير للقرآن أى ألم يكن لهم اية معرفة علماء بنى إسرائيل القرءان بنعوته المذكورة فى كتبهم ، وعن قتادة أن الضمير للنبى ﷺ ، وقيل : العلم على معناه المشهور والضمير للحكم السابق فى قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك) الخ وفيه بعد كما لا يخفى ، وذكر الثعلبى عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى احبار يثرب يسألونهم عن النبى فقالوا : هذا زمانه وذكروا نعته وخلطوا فى أمر محمد ﷺ فنزلت الآية فى ذلك ، وهو ظاهر فى أن الضمير له عليه الصلاة والسلام ويؤيده كون الآية مكية . وقال مقاتل : هى مدنية ، وعلماء بنى اسرائيل عبدالله بن سلام ونحوه كما روى عن ابن عباس . ومجاهد ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ونصوا على مواضع من التوراة والانجيل

Marfat.com

فيها ذكر الرسول ﷺ ، وقيل : علماؤهم من أسلم منهم ومن لم يسلم ،وقيل أنبياؤهم فانهم نبهوا على ذلك وهو خلاف الظاهر ، ولعل أظهر الأقوال كون المراد به معاصريه صلى الله تعالى عليه وسلم من علماء أهل الكتابين المسلمين وغيرهم *

وقرأ ابن عامر والجحدرى (تكن) بالتأنيث و «اية» بالرفع وجعلت اسم تكن و «أن يعلمه» خبرها وضعف بأن فيه الاخبار عن النكرة بالمعرفة، ولا يدفعه كون النكرة ذات حال بناء على أحد الاحتمالين فى «لهم» ،وجوز أن يكون «اية» الاسم و «لهم» متعلقا بمحذوف هو الخبر و «أن يعلمه» بدلا من الاسم أو خبر مبتدأ محذوف، وأن يكون الاسم ضمير القصة و «لهم اية» مبتدأ وخبر والجملة خبر تكن «وأن يعلمه» بدلا أو خبر مبتدأ محذوف. وأن يكون الاسم ضمير القصة و «اية» خبر «أن يعلمه» والجملة خبر تكن وأن تكون تكن تامة. و «اية» فاعلا و «أن يعلمه» بدلا أو خبرا لمحذوف و(لهم) إما حالا أو متعلقا بتكن . وقرأ ابن عباس (تكن) بالتأنيث و «اية» بالنصب كقراءة من قرأ «ثم لم تكن» بالتأنيث فتنتهم بالنصب «إلا أن قالوا» وكقول لبيد يصف العير والاتان :

فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هى عردت أقدامها

وذلك اما على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر، وإما لتأويل «أن يعلمه» بالمعرفة وتأويل أن قالوا بالمقالة وتأويل الاقدام بالمتقدمة، ودعوى اكتساب التأنيث فيه من المضاف اليه ليس بشىء لفقد شرطه المشهور *

وقرأ الجحدرى تعلمه بالتأنيث على أن المراد جماعة علماء بنى إسرائيل وكتب فى المصحف «علموا» بواو بين الميم والألف. ووجه ذلك بانه على لغة من يميل ألف علماء إلى الواو كما كتبوا الصلوة والزكوة والربو بالواو على تلك اللغة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أى القرءان كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ١٩٨﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية،وهو جمع أعجمى كما فى التحرير وغيره إلا أنه حذف ياء النسب منه تخفيفا. ومثله الاشعرين جمع أشعرى فى قول الكميت :

ولو جهزت قافية شرودا لقد دخلت بيوت الاشعرينا

وقد قرأه الحسن . وابن مقسم بياء النسب على الأصل ، وقال ابن عطية : هو جمع أعجم وهو الذى لا يفصح وإن كان عربى النسب والعجمى هو الذى نسبته فى العجم خلاف العرب وإن كان أفصح الناس انتهى *

واعترض بأن أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة ، وأجيب بأن الأعجم فى الأصل البهيمة العجماء لعدم نطقها ثم نقل أو تجوز به عما ذكر وهو بذلك المعنى ليس له مؤنث على فعلاء فلذلك جمع جمع السلامة ، وتعقب بانه قد صرح العلامة محمد بن أبى بكر الرازى فى كتابه غرائب القرآن بأن الأعجم هو الذى لا يفصح والأنثى العجماء ولو سلم أنه ليس له بذلك المعنى مؤنث فالأصل مراعاة أصله. وفيه أن كون ارتفاع المانع لعارض مجوزا مما صرح به النحاة. ثم إن كون أفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة مذهب البصريين . والفراء . وغيره من الكوفيين يجوزونه فلعل من قال : إنه جمع أعجم قاله بناء على ذلك. وظاهر الجمع المذكور يقتضى أن يكون المراد به العقلاء ، وعن بعضهم أنه جمع أعجم مرادا به مالا يعقل من الدواب العجم وجمع جمع العقلاء لأنه وصف بالتنزيل عليه وبالقراءة فى قوله تعالى : ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ فان الظاهر رجوع ضمير الفاعل إلى بعض الأعجمين وهما من صفات العقلاء ، والمراد بيان فرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى

Marfat.com

المكابرة كأنه قيل: ولو نزلناه بهذا النظم الرائق المعجز على من لا يقدر على التكلم بالعربية أو على ماليس من شأنه التكلم أصلا من الحيوانات العجم (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، وقيل: المراد بالأعجمين جمع أعجم أعم من أن يكون عاقلا أو غيره، ونقل ذلك الطبرسى عن عبد الله بن مطيع، وذكر أنه روى عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير فأشار اليه وقال: هذا من الأعجمين. والطبرى على ما فى البحر يروى نحو هذا عن ابن مطيع، والمراد أيضا بيان فرط عنادهم، وقيل: هو جمع أعجم مرادا به مالا يعقل وضمير الفاعل فى (قرأه) للنبى ﷺ وضمير (عليهم) لبعض الأعجمين وكذا ضمير (كانوا) والمعنى لو نزلنا هذا القرءان على بعض البهائم فقرأه محمد ﷺ على أولئك البهائم ما كانوا أى أولئك البهائم مؤمنين به فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا، ولا يخفى ما فيه، وقيل: المراد ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم ما فيه، وأخرج ذلك عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن جرير عن قتادة وهو بعيد عما يقتضيه مقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد واستند بعضهم بالآية عليه فى منع أخذ العربية فى مفهوم القرءان إذ لا يتصور على تقدير أخذها فيه تنزيله بلغة العجم إذ يستلزم ذلك كون الشىء الواحد عربيا وعجميا وهو محال *

وأجيب بأن ضمير نزلناه ليس راجعا إلى القرءان المخصوص المأخوذ فى مفهومه العربية بل إلى مطلق القرآن ويراد منه مايقرأ أعم من أن يكون عربيا أو غيره، وهذا نحو رجوع الضمير للعام فى ضمن الخاص فى قوله تعالى: (ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره) الآية فان ضمير عمره راجع إلى شخص بدون وصفه بمعمر إذ لا يتصور نقص عمر المعمر كما لا يخفى *

وقال بعضهم فى الجواب: إن الكلام على حذف مضاف، والمراد (ولو نزلنا) معناه بلغة العجم على بعض الأعجمين فتدبر؛ وفى لفظ (بعض) على كل الأقوال إشارة إلى كون ذلك المفروض تنزيله عليه واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان و(به) متعلق بمؤمنين، ولعل تقديمه عليه للاهتمام وتوافق رؤس الآى *

والضمير فى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ٢٠٠﴾ على مايقتضيه انتظام الضمائر السابقة واللاحقة فى سلك واحد للقرءان واليه ذهب الرمانى. وغيره، والمعنى على ماقيل مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه أى أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية وقد انضم اليه علم أهل الكتابين بشأنه وبشارة الكتب المنزلة بانزاله فقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يتأثرون بامثال تلك الأمور الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ماهم عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٢٠١﴾ الملجىء الى الايمان به وحينئذ لا ينفعهم ذلك *

والمراد بالمجرمين المشركون الذين عادت عليهم الضمائر من (لهم. وعليهم. وكانوا) وعدل عن ضميرهم الى ماذكر تأكيدا لذمهم، وقال الزمخشرى فى معنى ذلك: أى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها فكيف مافعل بهم وصنع، وعلى أى وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتبرءوا مما هم عليه من جحوده وانكاره كما قال سبحانه (ولو نزلنا

Marfat.com

عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بايديهم لقـــال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين » وموقع قوله تعالى «لا يؤمنون به » الخ مما قبله موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثباته مكذبا مجحودا فى قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد . ويجوز أن يكون حالا أى سلكناه فيها غير مؤمن به اه ه

وتعقب بان الأول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الايمان وتناجد مبادى الهداية والارشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية، وقد يقال : إن هذا التفسير أوفق بتسليته ﷺ التى هى كالمبنى لهذه السورة الكريمة وبها صدرت حيث قال سبحانه: « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » كأنه جل وعلا بعد أن ذكر فرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وهو تفسير واضح فى نفسه فهو عندى أولى مما تقدم ه

وفى المطلع أن الضمير للتكذيب والكفر المدلول عليه بقوله تعالى: « ما كانوا به مؤمنين » وبه قال يحيى بن سلام ، وروى عن ابن عباس . والحسن ، والمعنى وكذلك سلكنا التكذيب بالقرآن والكفر به فى قلوب مشركى مكة ومكناه فيها، وقوله تعالى «لا يؤمنون» الخ واقع موقع الايضاح لذلك ولا يظهر على هذا الوجه كونه حالا ولا أرى لهذا المعنى كثرة بعد عن قول من قال أى على مثل هذا السلك سلكنا القرآن وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فى قلوبهم ، وحاصل الاول كذلك سلكنا التكذيب بالقرآن فى قلوبهم ه

وحاصل هذا وكذلك سلكنا القرآن بصفة التكذيب به فى قلوبهم فتأمل، وجوز جعل الضمير للبرهان الدال عليه قوله تعالى :(أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل) وهو بعيد لفظا ومعنى، هذا وذهب بعضهم إلى أن المراد بالمجرمين غير الكفرة المتقدمين الذين عادت عليهم الضمائر وهم مشركو مكة من المعاصرين لهم وممن يأتى بعدهم وذلك اشارة إلى السلك فى قلوب أولئك المشركين أى مثل ذلك السلك فى قلوب مشركى مكة سلكناه فى قلوب المجرمين غيرهم لاشتراكهم فى الوصف، وقوله سبحانه: « لا يؤمنون به » الخ بيان لحال المشركين المتقدمين الذين اعتبروا فى جانب المشبه به أو إيضاح لحال المجرمين وبيان لما يقتضيه التشبيه وهو كما ترى ، ونقل فى البحر عن ابن عطية أنه أريد مجرمى كل أمة أى إن سنة الله تعالى فيهم انهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فلا ينفعهم الايمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش أى هؤلاء كذلك، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر انتهى، وكأنه جعل ضمير «سلكناه» لمطلق الكفر لا للكفر بالقرآن، وضمير «به» لله تعالى أو لما أمروا بالايمان به للقرآن والا فلا يكاد يتسنى ذلك، وعلى كل حال لا ينبغى أن يعول عليه ه

﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ أى العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أى فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٢٠٢﴾ أى باتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ أى تحسرا على ما فات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى ما فرطوه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾ أى مؤخرون، والفاء فى الموضعين عاطفة وهى كما يدل عليه كلام الكشاف للتعقيب الرتبى دون الوجودى كأنه قيل: حتى يكون رؤيتهم للعذاب الأليم فما هو أشد منها وهو مفاجأته فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة نظير ما فى قولك إن اسأت مقتك الصالحون فمقتك الله تعالى، فلا يرد أن البغت من غير شعور لا يصح تعقبه للرؤية فى الوجود ، وقال سرى الدين المصرى عليه الرحمة فى توجيه ما تدل عليه الفاء من التعقيب: إن رؤية العذاب تكون تارة بعد تقدم

Marfat.com

أماراته وظهور مقدماته ومشاهدة علاماته وأخرى بغتة لا يتقدمها شيء من ذلك فكانت رؤيتهم العذاب محتاجة إلى التفسير فعطف عليها بالفاء التفسيرية قوله تعالى: (يأتيهم بغتة) وصح بينهما معنى التعقيب لأن مرتبة المفسر فى الذكر أن يقع بعد المفسر كما فعل فى التفصيل بالقياس إلى الاجمال كما يستفاد من تحقيقات الشريف فى شرح المفتاح . ويمكن ان تكون الآية من باب القلب كما هو أحد الوجوه فى قوله تعالى: (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا) للمبالغة فى مفاجأة رؤيتهم العذاب حتى كأنهم رأوه قبل المفاجأة .والمعنى حتى يأتيهم العذاب الاليم بغتة فيروه انتهى. وجعلها بعضهم للتفصيل ، واعترض على ما قال صاحب الكشاف بأن العذاب الاليم منطو على شدة البغت فلا يصح الترتيب والتعقيب الرتبى وهو وهم كما لايخفى ، *

والظاهر أن جملة وهم لا يشعرون حال مؤكدة لما يفيده (بغتة) فانها كما قال الراغب مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب *

ثم ان هذه الرؤية وما بعدها إن كانت فى الدنيا كما قيل فاتيان العذاب الأليم فيها بغتة بالاخفاء فيه لأنه قد يفاجئهم فيها ما لم يكن يمر بخاطرهم على حين غفلة. وإن كانت فى الآخرة فوجه اتيانه فيها بغتة على ما زعمه بعضهم أن المراد به أن يأتيهم من غير استعداد له وانتظار فافهم ، واختار بعضهم أن ذلك أعم من أن يكون فى الدنيا أو فى الآخرة *

وقرأ الحسن . وعيسى (تأتيهم) بتاء التأنيث ، وخرج ذلك الزمخشرى على أن الضمير للساعة، وأبو حيان عن أنه للعذاب بتأويل العقوبة ، وقال أبو الفضل الرازى : للعذاب وأنث لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث وذلك لأنهم كانوا يسألون عذاب القيامة تكذيبا بها انتهى وهو فى غاية الغرابة وكأنه اعتبر إضافة العذاب إلى الساعة معنى بناء على أن المراد بزعمه حتى يروا عذاب الساعة الاليم ، وقال : باكتسائه التأنيث منها بسبب إضافته اليها لأن الاضافة إلى المؤنث قد تكسى المضاف المذكر التأنيث كما فى قوله : * كما شرقت صدر القناة من الدم * ولم أر أحداً سبقه إلى ذلك . وقرأ الحسن (بغتة) بالتحريك ،وفى حرف أبى رضى الله تعالى عنه (ويروه بغتة) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ٢٠٤﴾ أى يطلبونه قبل أوانه وذلك قولهم: أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .وقولهم: فائتنا بما تعدنا ونحوهما ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أى فاخبر ﴿إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ٢٠٥﴾ أى مدة من الزمان بطول الأعمار وطيب المعاش أو عمر الدنيا على ما روى عن عكرمة .وعبر عن ذلك بما ذكر إشارة إلى قلته ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ٢٠٦﴾ أى الذين كانوا يوعدونه من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أى أى شيء أو أى غناء أغنى عنهم ﴿مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ أى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية كما هو الأولى أو الذى كانوا يتمتعونه من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها .وأياما كان فالاستفهام للنفى والانكار *

وقيل : ماانافية أى لم يغن عنهم ذلك فى دفع العذاب او تخفيفه ،والأول أولى لكونه اوفق لصورة الاستخبار وادل على انتفاء الاغناء على ابلغ وجه وآكده وفى ربط النظم الكريم ثلاثة اوجه كما فى الكشاف، الأول أن قوله سبحانه (أفرأيت) الخ متصل بقوله تعالى: (هل نحن منظرون) وقوله جل وعلا : (أفبعذابنا يستعجلون) معترض للتبكيت والإنكار أن يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه النظرة والامهال طرفة عين فلا يجاب

Marfat.com

اليها، والمعنى على هذا كما فى الكشف أنه لما ذكر انهم لا يؤمنون دون مشاهدة العذاب قال سبحانه: إن هذا العذاب الموعود وإن تأخر أياما قلائل فهو لاحق بهم لامحالة وهنالك لاينفعهم ماكانوا فيه من الاغترار المثمر لعدم الايمان، وأصل النظم الكريم لا يؤمنون حتى يروا العذاب وكيت وكيت فان متعناهم سنين ثم جاءهم هذا العذاب الموعود فاى شىء أو فاى غناء يغنى عنهم تمتيعهم تلك الايام القلائل فجىء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون فى معنى أخبر افادة لمعنى التعجب والانكار وأن من حق هذه القصة أن يخبر بها كل أحد حتى يتعجب *

ووسط (أفبعذابنا يستعجلون) للتبكيت والهمزة فيه للانكار، وجىء بالفاء دلالة على ترتبه على السابق كأنه لما وصف العذاب قيل: أيستعجل هذا العذاب عاقل. وفى الارشاد اختيار أن قوله تعالى (أفرأيت) متصل بقوله سبحانه (هل نحن منظرون) وجعل الفاء لترتيب الاستخبار على ذلك القول وهى متقدمة على الهمزة معنى وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة وإن (أفبعذابنا يستعجلون) معترض للتوبيخ والتبكيت وجعل الفاء فيه للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى ما لا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ، وصاحب الكشف بعد أن قرر كما ذكرنا قال: إن العطف على مقدر فى هذا الوجه لا وجه له، ولعل المنصف يقول: لكل وجهة *

والثانى أن قوله تعالى (أفبعذابنا يستعجلون) كلام يوبخون به يوم القيامة عند قولهم فيه (هل نحن منظرون) حكى لنا لطفا (ويستعجلون) عليه فى معنى استعجلتم إذ كذلك يقال لهم ذلك اليوم، وكأن أمر الترتيب أو العطف على مقدر، وارتباط (أفرأيت) الخ بقولهم (هل نحن منظرون) على نحو ما تقدم فى الوجه السابق *

والثالث أن قوله تعالى (أفبعذابنا يستعجلون) متصل بما بعده غير مترتب على ماقبله وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون باعمار طوال فى سلامة وأمن فقال عز وجل: «أفبعذابنا يستعجلون» أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل ثم قال سبحانه: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فاذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم *

وعلى هذا يكون «فبعذابنا» الخ عطفا على مقدر بلا خلاف نحو أيستهزؤن «فبعذابنا يستعجلون» *

وقوله تعالى «أفرأيت» الخ تعجيب من حالهم مترتبا على الاستهزاء والاستعجال، والكلام نظير ما تقول لمخاطبك: هل تغتر بكثرة العشائر والاموال فاحسب أنها بلغت فوق ماتؤمل أليس بعده الموت وتركهما على حسرة *

وهذا الوجه أظهر من الوجه الذى قبله، وأياما كان فقوله سبحانه: «بعذابنا» متعلق بيستعجلون قدم عليه للايذان بأن مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه جل جلاله مع ما فيه على ما قيل من رعاية الفواصل. وقرىء «يمتعون» من الامتاع وفى الآية موعظة عظيمة لمن له قلب. روى عن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى المهلكة ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ٢٠٨﴾ قد أنذروا أهلها الزاما للحجة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبرا مقدما و(منذرون) مبتدأ، والجملة فى موضع الحال من (قرية) قاله أبو حيان ثم قال: الأعرب أن يكون (لها) فى موضع الحال وارتفع (منذرون) بالجار والمجرور أى الا كائنا لها منذرون فيكون من مجىء الحال مفردا لا جملة، ومجىء الحال من المنفى كقولك ما مررت بأحد

Marfat.com

إلا قائما فصيح انتهى، وفى الوجهين مجىء الحال من النكرة. وحسن ذلك على ما قيل عمومها لوقوعها فى حيز النفى مع زيادة من قبلها، وكأن هذا القائل جعل العموم مسوغا لمجىء الحال قياسا على جعلهم إياه مسوغا للابتداء بالنكرة لاشتراك العلة . وذهب الزمخشرى إلى أن «لها منذرون» جملة فى موضع الصفة لقرية ولم يجوز أبو حيان كون الجملة الواقعة بعد إلا صفة ثم قال : مذهب الجمهور إنه لا تجىء الصفة بعد إلا معتمدة على اداة الاستثناء نحو ما جاءنى أحد إلا راكب وإذا سمع خرج على البدل أى إلا رجل راكب. و يدل على صحة هذا المذهب أن العرب تقول : ما مررت باحد إلا قائما ولا يحفظ من كلامها ما مررت باحد إلا قائم فلو كانت الجملة فى موضع الصفة للنكرة اورد المفرد بعد إلا صفة لها فان كانت الصفة غير معتمدة على الاداة جاءت الصفة بعد إلا نحو ما جاءنى أحد إلا زيد خير من عمرو فان التقدير ما جاءنى أحد خير من عمرو إلا زيد انتهى فتذكر. وايا ما كان فضمير «لها» للقرية التى هى لما سمعت فى معنى الجمع فكأنه قيل وما أهلكنا القرى الا لها منذرون على معنى أن للكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر *

وقوله تعالى : ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ منصوب على الحال من الضمير فى (منذرون) عند الكسائى وعلى المصدر عند الزجاج فعلى الحال إما أن يقدر ذوى ذكرى أو يقدر مذكرين أو يبقى على ظاهره اعتبارا للمبالغة. وعلى المصدر فالعامل (منذرون) لأنه فى معنى مذكرون فكأنه قيل: مذكرون ذكرى أى تذكرة. وأجاز الزمخشرى أن يكون مفعولا له على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة . وأن يكون مرفوعا على أنه خبر مبتدا محذوف بمعنى هذه ذكرى، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى أو مذكرين أو جعلوا نفس الذكرى مبالغة لامعانهم فى التذكرة واطنابهم فيها، وجوز أيضا أن يكون متعلقا باهلكنا على أنه مفعول له . والمعنى ما أهلكنا من قرية ظالمين الا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ثم قال: وهذا هو الوجه المعول عليه. وبين ذلك فى الكشف بقوله: لأنه وعيد للمستهزئين وبانهم يستحقون أن يجعلوا نكالا وعبرة لغيرهم كالامم السوالف حيث فعلوا مثل فعلهم من الاستهزاء والتكذيب فجوزوا بما جوزوا وحينئذ يتلائم الكلام انتهى ، وتعقب بأن مذهب الجمهور ان ماقبل الا لا يعمل فيما بعدها إلا أن يكون مبتثنى أو مستثنى منه أو تابعا له غير معتمد على الاداة والمفعول له ليس واحدا من هذه الثلاثة فلا يجوز أن يتعلق باهلكنا. ويتخرج جواز ذلك على مذهب الكسائى. والاخفش وإن كانا لم ينصبا على المفعول له هنا وكان ذلك لما فى نصبه عليه من التكلف وأمر الالتئام سهل كما لا يخفى ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٠٩﴾ أى ليس شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ماهو فى صورة الظلم لو صدر من غيرنا بأن نهلك أحدا قبل انذاره أو بأن نعاقب من لم يظلم . ولا رادة نفى أن يكون ذلك من شأنه عز شأنه قال (وما كنا) دون وما نظلم ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠﴾ متعلق بقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) الخ وهو رد لقول مشركى قريش إن لمحمد ﷺ تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة وأن القرآن مما ألقاه اليه عليه الصلاة والسلام. والتعبير بالتفعيل لأن النزول لو وقع لكان بالاسترقاق التدريجى ، وقرأ الحسن . وابن السميقع (الشياطون) فقال أبو حاتم: هو غلط من الحسن أو عليه، وقال النحاس: هو غلط عند جميع النحويين . وقال المهدوى: هو غير جائز فى العربية، وقال الفراء: غلط الشيخ ظن انها النون التى على هجائين ، وقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج . ورؤبة فهلا جاز أن يحتج

Marfat.com

بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم انهما لم يقرآ به الاوقد سمعا فيه ، وقال يونس بن حبيب .سمعت اعرابيا يقول دخلت بساتين من ورائها بساتين فقلت: ماأشبه هذا بقراءة الحسن انتهى . ووجهت هذه القراءة بانه لما كان آخره كآخر يبرين وفلسطين وقد قيل فيهما يبرون وفلسطون أجرى فيه نحو ما أجرى فيهما فقيل الشياطون • وحقه على هذا على ما فى الكشاف أن يشتق من الشيطوطة وهى الهلاك: وفى البحر نقلا عن بعضهم ان كان اشتقاقه من شاط أى احترق يشيط شوطة كان لقراءتهما وجه .قيل: ووجهها أن بناء المبالغة منه شياط وجمعه الشياطون فخففا الياء وقد روى عنهما التشديد وقرأ به غيرهما ، وقال بعض: إنه جمع شياط مصدر شاط كخاط خياطا كأنهما ردا الوصف إلى المصدر بمعناه مبالغة ثم جمعا والكل كما ترى ، وقال صاحب الكشف. لا وجه لتصحيح هذه القراءة البتة .وقد أطنب ابن جنى فى تصحيحها ثم قال :وعلى كل حال فالشياطون غلط. وأبو حيان لا يرضى بكونه غلطا ويقول: قرأ به الحسن . وابن السميقع . والاعمش ولا يمكن أن يقال .غلطوا لانهم من العلم ونقل القرآن بمكان والله تعالى أعلم . والذى أراه أنه متى صح رفع هذه القراءة إلى هؤلاء الاجلة لزم توجيهها فانهم لا يقرؤن الا عن رواية كغيرهم من القراء فى جميع ما يقرؤنه عندنا ، وزعم المعتزلة أن بعض القراءات بالرأى •

﴿وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ﴾ أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١﴾ أى وما يقدرون على ذلك أصلا •

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أى الشياطين ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ لما يتكلم به الملائكة عليهم السلام فى السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ ٢١٢﴾ أى ممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين كما يدل عليه قوله تعالى(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) والمراد تعليل ما تقدم على أبلغ وجه لانهم إذا كانوا ممنوعين عن سماع ما تتكلم به الملائكة فى السماء كانوا ممنوعين من أخذ القرآن المجيد من اللوح المحفوظ أومن بيت العزة أومن سماعه إذ يظهره الله عز وجل لمن شاء فى سمائه من باب أولى ، وقيل: المعنى انهم لمعزولون عن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام لأنه مشروط بالمشاركة فى صفات الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن الكريم مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم السلام ، وتعقب بانه إن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام مطلقا مشروط بصفات هم متصفون بنقائضها فهو غير مسلم كيف وقد ثبت أن الشياطين كانوا يسترقون السمع وظاهر الآيات أنهم إلى اليوم يسترقونه ويخطفون الخطفة فيتبعهم شهاب ثاقب .وأيضا لو كان ماذكر شرطا للسمع وهو منتف فيهم فاى فائدة للحرس ومنعهم عن السمع بالرجوم •

وأيضا لو صح ماذكر لم يتأت لهم سماع القرآن العظيم من الملائكة عليهم السلام سواء كان مشتملا على الحقائق والمغيبات أم لا فما فائدة فى قوله :والقرآن مشتمل الخ إلى غير ذلك .وإن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام إذا كان وحيا منزلا على الانبياء عليهم السلام مشروط بما ذكر فهو مع كونه خلاف ظاهر الكلام غير مسلم أيضا كيف وقد ثبت ان جبريل عليه السلام حين ينزل بالقرآن ينزل معه رصد حفظا للوحى من الشيطان وقد قال عز وجل(لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وأيضا ظاهر العزل عن السمع يقتضى انهم كانوا ممكنين منه قبل ثم منعوا عنه فيلزم على ماذكر انهم كانوا يسمعون الوحى من قبل مع أن نفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات

Marfat.com

فيبطل كون المشاركة المذكورة شرطا للسمع ، فان ادعى أن الشرط كان موجودا إذ ذاك ثم فقد والتزم القول بجواز تغير ما بالذات فهو مما لم يقم عليه دليل وقياس جميع الشياطين على ابليس عليه اللعنة مما لا يخفى حاله فتدبر *

وبالجملة الذى أميل اليه فى معنى الآية ماذكرته أولا . وسيأتى قريبا إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك ، وجوز كون ضمير «انهم» للمشركين. والمراد أنهم لا يصغون للحق لعنادهم ، وفى الآية شمة من قوله تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » وهو بعيد جدا *

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ٢١٣ ﴾ خوطب به النبى ﷺ مع استحالة صدور المنهى عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا لازدياد الاخلاص فهو كناية عن اخلص فى التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه . وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه. وكأن الفاء فصيحة أى إذا علمت ماذكر فلا تدع مع الله الها آخر ﴿ وَأَنْذِرْ ﴾ العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ﴿ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢١٤ ﴾ أى ذوى القرابة القريبة أو الذين هم أكثر قربا اليك من غيرهم *

والعشيرة على ما قال الجوهرى : رهط الرجل الأدنون . وقال الراغب هم أهل الرجل الذين يتكثر بهم أى يصيرون له بمنزلة العدد الكامل وهو العشرة. واشتهر ان طبقات الانساب ست، الأولى الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد كعدنان، الثانية القبيلة وهى ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر. الثالثة العمارة بكسر العين وهى ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة. الرابعة البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة كبنى عبد مناف وبنى مخزوم. الخامسة الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبنى هاشم . وبنى أمية. السادسة الفصيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبنى العباس . وبنى عبد المطلب وليس دون الفصيلة إلا الرجل وولده *

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فأقام الفصيلة مقام العمارة فى ذكرها بعد القبيلة والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ ولم يحك مايخالفه ولم يذكر فى الترتيبين العشيرة ، وفى البحر أنها تحت الفخذ فوق الفصيلة ، والظاهر أن ذلك على الترتيب الأول *

وحكى بعضهم بعد أن نقل الترتيب المذكور عن النووى عليه الرحمة أنه قال فى تحرير التنبيه : وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة .ويفهم من كلام البعض أن العشيرة إذا وصفت بالأقرب اتحدت مع الفصيلة التى هى سادسة الطبقات ، وأنت تعلم أن الأقربية إذا كانت مأخوذة فى مفهومها كما يفهم من كلام الجوهرى تستغنى دعوى الاتحاد عن الوصف المذكور *

وفى كليات أبى البقاء كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون إلى اب مشهور بامر زائد فهو شعب كعدنان ودونه القبيلة وهى ما انقسمت فيها أنساب الشعب كربيعة . ومضر ، ثم العمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش. وكنانة ، ثم البطن وهى ما انقسمت فيها أنساب العمارة كبنى عبد مناف. وبنى مخزوم، ثم الفخذ وهى ما انقسمت فيها انساب البطن كبنى هاشم. وبنى أمية، ثم العشيرة وهى ما انقسمت فيها أنساب الفخذ كبنى العباس. وبنى أبى طالب . والحى يصدق على الكل لأنه للجماعة المتنازلين بمربع منهم انتهى * ولم يذكر فيه الفصيلة وكأنه يذهب إلى اتحادها بالعشيرة .ووجه تخصيص عشيرته صلى الله تعالى عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته

Marfat.com

عليه الصلاة والسلام دفع توهم المحاباة وأن الاهتمام بشأنهم أهم وأن البداءة تكون بمن يلى ثم من بعده كما قال سبحانه : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وفى كيفية الانذار أخبار كثيرة، منهاماأخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ماجربنا عليك إلاصدقا قال:فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب: تبالك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت (تبت يدا أبى لهب وتب ماأغنى عنه ماله وما كسب)»ومنها ماأخرجه أحمد . وجماعة عن أبى هريرة قال : «لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله ﷺ قريشا وعم وخص فقال : يامعشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فانى لاأملك لكم ضرا ولا نفعا يامعشر بنى كعب ابن لؤى انقذوا أنفسكم من النار فانى لاأملك لكم ضرا ولانفعا يامعشر بنى قصى انقذوا أنفسكم من النار فانى لاأملك لكم ضرا ولانفعايامعشر بنى عبدمناف انقذوا أنفسكم من النار فانى لاأملك لكم ضرا ولانفعا يامعشر بنى عبدالمطلب انقذوا أنفسكم من النار فانى لاأملك لكم ضرا ولانفعا يافاطمة بنت محمد انقذى نفسك من النار فانى لاأملك لك ضرا ولانفعا ألاأن لكم رحما وسأبلها ببلالها» *

وجاء فى بعض الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت الآية جمع عليه الصلاة والسلام بنى هاشم فاجلسهم على الباب وجمع نساءه وأهله فاجلسهم فى البيت ثم أطلع عليهم فانذرهم ، وجاء فى بعض ماخر منها أنه عليه الصلاة والسلام أمر عليا كرم الله تعالى وجهه أن يصنع طعاما ويجمع له بنى عبدالمطلب ففعل وجمعهم وهم يومئذ أربعون رجلا فبعد أن أكلوا أراد ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا ثم دعاهم من الغد إلى مثل ذلك ثم بدرهم بالكلام فقال : يابنى عبد المطلب إنى أنا النذير اليكم من الله تعالى والبشير قد جئتكم بمالم يجئ به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة فاسلموا تسلموا وأطيعوا تهتدوا إلى غير ذلك من الأخبار والروايات وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار

ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه فى أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع (وأنذر عشيرتك الأقربين) ورهطك منهم المخلصين ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢١٥ ﴾ أمر له صلى الله تعالى عليه وسلم بالتواضع على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية أو المجاز المرسل وعلاقته اللزوم، ويستعمل فى التكبر رفع الجناح وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك فى رفعه أجدلا

و(من) قيل : بيانية لأن من اتبع فى أصل معناه أعم ممن اتبع لدين أو غيره ففيه إبهام وبذكر المؤمنين المراد بهم المتبعون للدين زال ذلك ، وقيل : للتبعيض بناء على شيوع من اتبع فيمن اتبع للدين وحمل المؤمنين على من صدق باللسان ولو نفاقا ولا شك أن المتبعين للدين بعض المؤمنين بهذا المعنى ، وجوز أن يحمل على من شارف وإن لم يؤمن . ولا شك أيضا أن المتبعين المذكورين بعضهم وفى الآية على القولين أمر بالتواضع لمن اتبع للدين *

Marfat.com

وقال بعضهم : على تقدير كونها بيانية أن المؤمنين يراد بهم الذين لم يؤمنوا بعد وشارفوا لأن يؤمنوا كالمؤلفة مجاز باعتبار الأول وكان ـ من اتبعك ـ شائعا فى من آمن حقيقة . ومن آمن مجازا فبين بقوله تعالى : (من المؤمنين) ان المراد بهم المشارفون أى تواضع المشارفين استمالة وتأليفا ، وعلى تقدير كونها تبعيضية يراد بالمؤمنين الذين قالوا امنا وهم صنفان .صنف صدق واتبع .وصنف ماوجد منهم إلا التصديق فقيل :من المؤمنين وأريد بعض الذين صدقوا واتبعوا أى تواضع لبعض المؤمنين وهم الذين اتبعوك محبة ومودة. وعلى هذا يكون الذين أمر ﷺ بالتواضع لهم على تقدير البيان غير الذى أمر عليه الصلاة والسلام بالتواضع لهم على تقدير التبعيض.وقال بعض الاجلة.الاتباع والايمان توأمان اذا المتبادر من اتباعه عليه الصلاة والسلام اتباعه الدينى وكذا المتبادر من الايمان الايمان الحقيقى ،وذكر (من المؤمنين) لافادة التعميم كذكر (يطير بجناحيه) بعد طائر فى قوله تعالى « ولاطائر يطير بجناحيه » وتفيد الآية الأمر بالتواضع لكل من امن من عشيرته ﷺ وغيرهم

وقال الطيبي : الاجراء على أفانين البلاغة أن يحمل الكلام على أسلوب وضع المظهر موضع المضمر وان الأصل وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك منهم فعدل إلى المؤمنين ليعم ويؤذن أن صفة الايمان هى التى يستحق أن يكرم صاحبها ويتواضع لأجلها من اتصف بها سواء كان من عشيرتك أو غيرهم وليس هذا بالبعيد لكنى أختار كون من بيانية وان عموم من اتبعك باعتبار أصل معناه.وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» بدأ ﷺ بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك على المسلمين فانزل الله تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ٭

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢١٦﴾ الظاهر أن الضمير المرفوع فى «عصوك» عائد على من أنذر ﷺ بانذارهم وهم العشيرة أى فان عصوك ولم يتبعوك بعد انذارهم فقل: إنى برىء من عملكم أو الذى تعملونه من دعائكم مع الله تعالى إلها اخر ، وجوز أن يكون عائدا على الكفار المفهوم من السياق ، وقيل : هو عائد على من اتبع من المؤمنين أى فان عصوك يا محمد فى الأحكام وفروع الاسلام بعد تصديقك والايمان بك وتواضعك لهم فقل: إنى برىء مما تعملون من المعاصى أى أظهر عدم رضاك بذلك وانكاره عليهم.وذكر على هذا أنه ﷺ لو أمر بالبراءة منهم مابقى شفيعا للعصاة يوم القيامة ، والآية على غير هذا القول منسوخة ٭

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال: أمره سبحانه بهذا ثم نسخه فامره بجهادهم ، وفى البحر هذه موادعة نسختها اية السيف ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٢١٧﴾ فهو سبحانه يقهر من يعصيك منهم ومن غيرهم بعزته وينصرك برحمته، وتقديم وصف العزة قيل لأنه أوفق بمقام التسلى عن المشاق اللاحقة من القوم اليه ﷺ ، وجوز أن يكون ذلك لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل والرحمة كالعلة الداعية اليه ،وفسره غير واحد بتفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على أن ينفعه ويضره.وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله تعالى ، وذكر بعضهم أن هذا من أحط مراتب التوكل وأدناها ، ونقل عن بعض العارفين أنه فيما بين الناس على ثلاث درجات. الأولى التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى ، والثانية التوكل مع اسقاط الطلب وغض العين عن السبب اجتهادا فى تصحيح التوكل وقمع تشرف النفس تفرغا إلى حفظ الواجبات.والثالثة التوكل مع معرفة التوكل النازعة

Marfat.com

إلى الخلاص من علة التوكل . وذلك أن يعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهملا بل فرغ من الأشياء كلها وقدرها وشأنه سبحانه سوق المقادير إلى المواقيت ، فالمتوكل من أراح نفسه من كد النظر ومطالعة السبب سكونا إلى ماسبق من القسمة مع استواء الحالين وهو أن يعلم أن الطلب لاينفع والتوكل لا يمنع ومتى طالع بتوكله عوضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا واذا خاص من رق الأسباب ولم يلاحظ فى توكله سوى خالص حق الله تعالى كفاه الله تعالى كل مهم . وبين العلامة الطيبي ان فى قوله تعالى :«وتوكل»الخ اشارة الى المراتب الثلاث بما فيه خفاء .

وفى مصاحف أهل المدينة . والشام « فتوكل» بالفاء . وبه قرأ نافع . وابن عامر. وأبو جعفر . وشيبة. وخرج على الابدال من جواب الشرط . وجعل فى الكشاف الفاء للعطف ومابعده معطوفا على(نقل) أو (فلاتدع) وماذكر أولا أظهر ﴿الَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨﴾ أى الى الصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أى ويرى سبحانه تغيرك من حال كالجلوس والسجود الى ءاخر كالقيام ﴿فِى السَّاجِدِينَ ٢١٩﴾ أى فيما بين المصلين اذا أممتهم ، وعبر عنهم بالساجدين لأن السجود حالة مزيد قرب العبد من ربه عزوجل وهو أفضل الأركان على ما نص عليه جمع من الأئمة ، وتفسير هذه الجملة بماذكر مروى عن ابن عباس . وجماعة من المفسرين الا ان منهم من قال: المراد حين تقوم الى الصلاة بالناس جماعة ، وقيل : المعنى يراك حين تقوم للتهجد ويرى تقلبك أى ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجدين لتتصفح أحوالهم وتطلع عليهم من حيث لايشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر مايصنعون حرصا على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة . وعن مجاهد أن المراد بقوله سبحانه :« وتقلبك فى الساجدين » تقلب بصره عليه الصلاة والسلام فيمن يصلى خلفه فانه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرى من خلفه، فى صحيح البخارى عن أنس قال:« أقيمت الصلاة فاقبل علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بوجهه فقال: أقيموا صفوفكم وتراصوا فانى أراكم من وراء ظهرى »

وفى رواية أبى داود عن أبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول :« استووا استووا والذى نفسى بيده إنى لاراكم من خلفى كما أراكم من بين يدى» ولا يخفى بعد حمل مافى الآية على ماذكره

وقيل : المراد بالساجدين المؤمنون ، والمعنى يراك حين تقوم لأداء الرسالة ويرى تقلبك وترددك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلان أمر الله تعالى وإعلاء كلمته سبحانه، وتفسير الساجدين بالمؤمنين مروى عن ابن عباس . وقتادة إلا أن كون المعنى ماذكر لايخلو عن خفاء

وعن ابن جبير أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام، والمعنى ويرى تقلبك كما يتقلب غيرك من الأنبياء عليهم السلام فى تبليغ ماأمروا بتبليغه وهو كما ترى،وتفسير الساجدين بالأنبياء رواه جماعة منهم الطبرانى . والبزار . وأبو نعيم عن ابن عباس أيضا إلا أنه رضى الله تعالى عنه فسر التقلب فيهم بالتنقل فى أصلابهم حتى ولدته أمه عليه الصلاة والسلام ، وجوز على حمل التقلب على التنقل فى الأصلاب أن يراد بالساجدين

Marfat.com

المؤمنون ، واستدل بالآية على إيمان أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذهب اليه كثير من أجلة أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما رضى الله تعالى عنهما على رغم أنف على القارئ واضرابه بضد ذلك إلا أنى لا أقول بحجية الآية على هذا المطلب، ورؤية الله تعالى انكشاف لائق بشأنه عز شانه غير الانكشاف العلمى ويتعلق بالموجود والمعدوم الخارجى عند العارفين ، وقالوا: إن رؤية الله تعالى للمعدوم نظير رؤية الشخص القيامة ونحوها فى المنام و كثير من المتكلمين انكروا تعلقها بالمعدوم، ومنهم من أرجعها إلى صفة العلم وتحقيق ذلك فى محله ، وفى وصفه تعالى برؤيته حاله ﷺ التى بها يستأهل ولايته بعد وصفه بما تقدم تحقيق للتوكل وتوطين لقلبه الشريف عليه الصلاة والسلام عليه *

وقرأ جناح بن حبيش (ويقلبك) مضارع قلب مشددا. وخرج ذلك أبو حيان على العطف على يراك وجوز العطف على (تقوم) . وفى الكلام على هذه القراءة اشارة الى وقوع تقلبه ﷺ فى الساجدين على وجه الكمال وكمال التقلب فى الصلاة كونه بخشوع يغفل معه عما سوى الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ بكل مايصح تعلق السمع به ويندرج فيه مايقوله ﷺ ﴿الْعَلِيمُ ٢٢٠﴾ بكل مايصح تعلق العلم به ويندرج فيه مايعمله أو ينويه عليه الصلاة والسلام ، وفى الجملة الاسمية إشارة إلى أنه سبحانه متصف بما ذكر أزلا وأبدا ولا توقف لذلك على وجود المسموعات والمعلومات فى الخارج، والحصر فيها حقيقى أى هو تعالى كذلك لاغيره سبحانه وتعالى *

وكأن الجملة متعلقة بالجملتين الواقعتين فى حيز الجزاء جىء بها للتحريض على القول السابق والتوكل، وجوز أن تكون متعلقة بما فى حيز الصلة والمراد منها التحريض على ايقاع الأقوال والأفعال التى فى الصلاة على أكمل وجه فتأمل *

وقوله تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ٢٢١﴾ الخ مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ، وهذه الجملة وقوله تعالى :(وانه لتنزيل رب العالمين) الخ وقوله سبحانه : (وما تنزلت به الشياطين) الخ اخوات وفرق بينهن بآيات ليست فى معناهن ليرجع الى المجىء بهن وتطرية ذكر مافيهن كرة بعد كرة فيدل بذلك على أن المعنى الذى نزلن فيه من المعانى التى اشتدت عناية الله تعالى بها، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفى صدره اهتمام بشىء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع اليه ، والاستفهام للتقرير و(على من) متعلق بتنزل قدم عليه لصدارة المجرور وتقديم الجار لا يضر كما بين فى النحو ، وقال الزمخشرى فى ذلك: ان من متضمنة معنى الاستفهام وليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معا معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والأصل أهل كما قال :

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

فاذا أدخلت حرف الجر على من فقدر الهمزة قبل حرف الجر فى ضميرك كأنك تقول: أعلى من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت اه . وتعقبه صاحب الفرائد بقوله: يشكل ماذكر بقولهم : من أين أنت ومن أين جئت وقوله تعالى : (من أى شىء خلقه) وقوله فيم: وبم ومم وحتام ونحوها. وأجاب صاحب الكشف بأنه لاإشكال فى نحو من أين أنت ؟ لأن التقدير أمن البصرة أم من الكوفة مثلا ولا يخفى أنه

Marfat.com

لايحتاج على ماحققه النحاة الى جميع ذلك، وجملة (على من تنزل) الخ فى موضع نصب بأنبئكم لأنه معلق بالاستفهام وهى إما سادةمسد المفعول الثانى ان قدرت الفعل متعديا لاثنين ومسد مفعولين ان قدرته متعديا لثلاثة ، والمراد هل أعلمكم جواب هـذا الاستفهام ـ أعنى على من تنزل الشياطين ـ وأصل تنزل تتنزل فحذف أحدى التاءين. والكلام على معنى القول عند أبى حيان كأنه قيل: قل يامحمد هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أى كثير الافك وهو الكذب ﴿أَثِيمٍ ٢٢٢﴾ كثير الاثم، و(كل) للتكثير وجوز أن تكون للاحاطة ولا بعد فى تنزلها على كل كامل فى الافك والاثم كالكهنة نحو شق بن رهم بن نذير. وسطيح بن ربيعة ابن عدى ، والمراد بواسطة التخصيص فى معرض البيان أو السياق أو مفهوم المخالفة عند القائل به قصر تنزلهم على كل من اتصف بما ذكر من الصفات وتخصيص له بهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شىء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام ﴿يُلْقُونَ﴾ أى الأفاكون ﴿السَّمْعَ﴾ أى سمعهم إلى الشياطين، والقاء السمع مجاز عن شدة الاصغاء للتلقى فكأنه قيل: يصغون أشد إصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم ما يتلقون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أى الأفاكين ﴿كَاذِبُونَ ٢٢٣﴾ فيما يقولونه من الأقاويل، والأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فى أقوالهم وإنما هم فى أكثرها كاذبون وما له وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الاطلاق ويلتزم لذلك كون الاكثر بمعنى الكل ، وليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا ينافيه أن يصدق نادرا فى بعض الأحايين ، وجوز أن يكون السمع بمعنى المسموع والقاؤه مجاز عن ذكره أن يلقى الأفاكون إلى الناس المسموع من الشياطين وأكثرهم كاذبون فيما يحكون عن الشياطين ولم يرتضه بعضهم لبعده أو لقلة جدواه على ما قيل. واختلف فى سبب كون أكثر أقوالهم كاذبة فقيل: هو بعد البعثة كونهم يتلقون منهم ظنونا وأمارات إذ ليس لهم من علم الغيب نصيب وهم محجوبون عن خبر السماء ولعدم صفاء نفوسهم قلما تصدق ظنونهم ومع ذلك يضم الأفاكون اليها لعدم وفائها بمرادهم على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها الواقع ، وقبل البعثة إذ كانوا غير محجوبين عن خبر السماء وكانوا يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه من الأخبار الغيبية يحتمل أن يكون كثرة غلط الأفاكين فى الفهم لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضمهم إلى مايفهمونه من الحق أشياء من عند أنفسهم لايطابق أكثرها الواقع، ويحتمل أن يكون كثرة غلط الشياطين الذين يوحون إليهم فى الفهم عن الملائكة عليهم السلام لقصور فهمهم عنهم، ويحتمل أن يكون ضم الشياطين إلى ما يفهمونه من الحق من الملائكة عليهم السلام أشياء من عند أنفسهم لا يطابق أكثرها الواقع ، ويحتمل أن يكون مجموع ماذكر. وقيل: هو قبل البعثة يحتمل أن يكون أحد هـذه الأمور وأما بعد البعثة فهو كثرة خلطهم الكذب فيما تخطفه الشياطين عند استراقهم السمع من الملائكة ويلقونه إليهم ، فقد أخرج البخارى . ومسلم . وابن مردويه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: « سأل أناس النبى ﷺ عن الكهان فقال: إنهم ليسوا بشىء فقالوا : يارسول الله إنهم يحدثون أحيانا بالشىء يكون حقا قال تلك

Marfat.com

الكلمة من الحق (١) يحفظها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة، وقيل : هو قبل البعثة وبعدها كثرة خلط الأفاكين الكذب فيما يتلقونه من الشياطين، أما كثرته قبل البعثة فلظاهر الخبر المذكور ، وأما كثرته بعد البعثة فلما أخرجه عبدالرزاق .وعبد بن حميد. وابن جرير .وابن المنذر .وابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى هذه الآية : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتستمع ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرهم فتحدث الكهنة بما أنزلت به الشياطين من السمع وتخلط به الكهنة كذبا كثيرا فيحدثون به الناس فأما ماكان من سمع السماء فيكون حقا وأما ماخلطوه به من الكذب فيكون كذبا ، ولا يخفى أن القول بأن الشياطين بعد البعثة يلقون ما يسترقونه من السمع إلى الكهنة غير مجمع عليه، ومن القائلين به من يجوز أن يكون ضمير (يلقون) فى الآية راجعا إلى الشياطين، والمعنى يلقى الشياطين المسموع من الملأ الأعلى قبل أن يرجموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة عليهم السلام لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم، وقيل: المعنى عليه ينصت الشياطين ويستمعون إلى الملأ الاعلى قبل الرجم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إلى أوليائهم بعد لشرارتهم أو لأنهم لا يسمعون فى أنفسهم أو لا يسمعون أولياءهم بعد ذلك السمع كلام الملائكة عليهم السلام على وجهه ، وجملة (يلقون) على تقدير كون الضمير للافاكين صفة (لكل أفاك) لأنه فى معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء إلى الشياطين أو إلقاء المسموع إلى الناس ،وجوز أن تكون استئنافا اخبارا بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزل، واستظهر تقدير المبتدا على هذا ، وأن تكون استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل: مايفعلون عند تنزل الشياطين أو مايفعلون بعد تنزلهم ؟ فقيل: يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا مايوحون به إليهم أو يلقون مايسمعونه منهم إلى الناس، وجوز أن تكون حالا منتظرة على التقديرين أيضا *

وهى على تقدير كون الضمير للشياطين ، والمعنى ماسمعت أولا قيل : تحتمل أن تكون استئنافا مبينا للغرض من التنزل مبنيا على السؤال عنه كأنه قيل لم تنزل عليهم؟ فقيل: يلقون اليهم ماسمعوه، وأن تكون حالا منتظرة من ضمير الشياطين أى تنزل على كل أفاك أثيم ملقين مايسمعونه من الملأ الأعلى اليهم ؛ وعلى ذلك التقدير والمعنى ماسمعت ثانيا قيل: لايجوز أن تكون استئنافا نظير ماذكر آنفاً ولا أن تكون حالا أيضا لأن القاء السمع بمعنى الانصات مقدم على التنزل المذكور فكيف يكون غرضا منه أو حالا مقارنة أو منتظرة ويتعين كونها استئنافا للاخبار بحالهم *

وتعقب بأنه غير سديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل،ومن هنا قيل: ان جعل الضمير للشياطين وحمل القاء السمع على انصاتهم وتسمعهم إلى الملأ الأعلى مما لاسبيل اليه وفيه نظر ، وجملة (هم كاذبون) استئنافية أو تحتمل الاستئنافية والحالية، هذا واعلم أن ههنا اشكالا واردا على بعض الاحتمالات فى الآية لأنها عليه تفيد أن الشياطين يسمعون من الملائكة عليهم السلام مايسمعونه ويلقونه إلى الأفاكين : وقد تقدم ما يدل على منعهم عن السمع أعنى قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون)* وأجيب بان المراد بالسمع فيما تقدم السمع المعتد به وفيما ههنا السمع فى الجملة ويراد به

(١) ورواية من الجن بجيم ونون بدله رواية صحيحة اه منه بزيادة

Marfat.com

الخطفة المذكورة فى قوله سبحانه (إلا من خطف الخطفة) والكلمة المذكورة فى خبر الصحيحين .وابن مردويه السابق آنفا . واعترض بأن من خطف لا يبقى حيا إلى أن يوصل ماخطفه إلى وليه لظاهر قوله تعالى (إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب) فان ظاهره أنه يهلك بالشهاب الذى لحقه ٥

وأجيب بأن نفى بقائه حيا غير مسلم ، ولانسلم أن الآية ظاهرة فيماذكر إذ ليس فيها أكثر من اتباع الشهاب الثاقب اياه وهو يحتمل الزجر كما يحتمل الاهلاك فليرد اتباعه للزجر مع بقائه حيا فان الخبر المذكور يقتضى بقاءه كذلك . وجا عن ابن عباس أن الشياطين كانوا لايحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون باخبارها فيلقون إلى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب وهو الشعلة من النار فلا يخطئ أبداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه ومنهم من يخبله فيصير غولا يضل الناس فى البرارى، وقيل: إن المراد بالسمع فيما تقدم سمع الوحى وفيما هنا سمع المغيبات غيره وهم غير ممنوعين عنه قبل البعثة وبعدها ، وهذا مأخوذ من كلام عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمة تاريخه التى لم ينسج على منوالها وان كان للطعن فيها مجال قال : إن الآيات إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك، بل ربما يقال : ان فى كلامه بعد اشعاراً ما بأن المنع إنما كان بين يدى النبوة فقط لاقبل ذلك ولا بعده ٥

ولا يخفى أن الظواهر تشهد بمنعهم مطلقا الى يوم القيامة، بل قد يدعى ان فى الآيات مايدل على أن حفظ السماء بالكواكب لم يحدث وان خلقها لذلك وهو ظاهر فى انهم كانوا ممنوعين أيضا قبل ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم من خبر السماء، ويشكل هذا على ظاهر العزل الا أن يدعى أن المنع قبل لم يكن بمثابة المنع بعد فالعزل عما كان يجعل المنع شديدا بالنسبة اليه. وفى اليواقيت والجواهر فى عقائد الاكابر لمولانا عبد الوهاب الشعرانى عليه الرحمة الصحيح أن الشياطين ممنوعون من السمع منذ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى يوم القيامة وبتقدير استراقهم فلا يتوصلون الى الانس ليخبروهم بما استرقوه بل تحرقهم الشهب وتفنيهم انتهى ٥

قيل ويلزم القائلين بهذا حمل ما فى خبر الصحيحين على كهان كانوا قبل البعثة وقد أدركهم السائلون وهو الذى يقتضيه كلام القاضى أيضا . فقد نقل النووى عنه فى شرحه صحيح مسلم أنه قال : كانت الكهانة فى العرب ثلاثة أضرب ، أحدها أن يكون للانسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى ماخر ما قال . وهو ظاهر كلام البوصيرى حيث يقول :

بعث الله عند مبعثه الشهـ ـب حراسا وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمـ ـع كما يطرد الذئاب الرعاء
فمحت ماية الكهانة مايا ت من الوحى ما لهن انمحاء

وقد قيل فى الجواب عن الاشكال نحو هذا وهو أن تنزل الشياطين والقاءهم مايسمعونه من السماء إلى أوليائهم حسبما تفيده الآية المذكورة فى أحد محاملها إنما كان قبل البعثة حيث لم يكن حينئذ منع أو كان لكنه لم يكن شديدا . والمنع من السمع الذى يفيده قوله تعالى: (انهم عن السمع لمعزولون) إنما كان

Marfat.com

بعد البعثة وكان على أتم وجه ، وهذا مشكل عندى بابن الصياد وما كان منه فانهم عدوه من الكهان ، وقد صح انه قال للنبي عليه الصلاة والسلام حين سأله عن أمره: يأتينى صادق وكاذب وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم امتحنه فاضمر له ءاية الدخان وهى قوله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) وقال ﷺ : خبأت لك خبأ فقال ابن الصياد : هو الدخ أى الدخان وهى لغة فيه كما ذهب اليه الجمهور فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «اخسأ فلن تعدو قدرك» *

وقد قال القاضى كما نقل النووى عنه أيضا : أصح الاقول انه لم يهتد من الآية التى أضمرها النبي عليه الصلاة والسلام الا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان اذا ألقى الشيطان اليهم بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب ويدل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «اخسأ فان تعدو قدرك» أى القدر الذى يدركه الكهان من الاهتداء الى بعض الشىء وما لا يبين منه حقيقته ولا يصل به إلى بيان وتحقيق أمور الغيب ، وقد يقال فى دفع هذا الاشكال: إن ابن الصياد كان من الضرب الثانى من الكهان وهم الذين تخبرهم الشياطين بما يطرأ أو يكون فى أقطار الأرض وما خفى عنهم مما قرب أو بعد ، والصحيح جواز وجودهم بعد البعثة خلافا للمعتزلة وبعض المتكلمين حيث قالوا باستحالة وجود هذا الضرب ، وكذا الضرب السابق آنفا ، وأنه يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد أسر إلى بعض أصحابه الذين كانوا معه ما أضمره أو كانت سورة الدخان مكتوبة فى يده ﷺ أو كتب الآية وحدها فى يده عليه الصلاة والسلام ، وكلا القولين الأخيرين حكاهما الداودى عن بعض العلماء كما فى شرح صحيح مسلم

وأياما كان يكون ابن الصياد قد أخبر بامر طارىء تطلع عليه الشياطين بدون استراق السمع من السماء وليس ذلك من الاطلاع على ما فى القلب فى شىء ، ومع ذلك لم يخبر به تاما بل أخبر به على نحو إخبار الكهان السابقين على زمن البعثة الذين هم من الضرب الأول فى النقص *

ولعل مراد القاضى بقوله : إنه لم يهتد من الآية التى أضمرها ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان اذا ألقى الشيطان اليهم بقدر ما يخطف الخ تشبيه حاله مع أنه من الضرب الثانى بحال من تقدمه من الكهان الذين هم من الضرب الأول وإلا لاشكل كلامه هذا مع ما نقلناه عنه أولا كما لا يخفى ، وكأنه يقول برجم المسترقين للسمع قبل البعثة أيضا إلا أنه لم يكن بمثابة ما كان بعد البعثة ، وقد ذهب الى هذا جمع من المحدثين *

ومن الناس من قال: إن الشيطان إذا خطف الخطفه فاتبعه شهاب ثاقب ألقى ما يخطفه إلى من تحته قبل أن يدركه الشهاب ثم ان من تحته يوصل ذلك إلى الكاهن ولا يكاد يصح ذلك ، وقيل: إن ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة بعد البعثة هو ما يسمعونه من الملائكة عليهم السلام فى العنان وهو المراد بقوله تعالى (يلقون السمع) وما هم ممنوعون عنه هو السمع من الملائكة عليهم السلام فى السماء وهو المراد بقوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) واستدل لذلك بما أخرجه البخارى . وابن المنذر عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال « الملائكة تحدث فى العنان والعنان الغمام بالأمر فى الأرض فيسمع الشيطان الكلمة فيقرها فى أذن الكاهن كما يقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة ، ولا يخفى أنه ليس فى الخبر تعرض للسمع من الملائكة عليهم السلام فى السماء بالمعنى المعروف لانفيا ولا إثباتا ، وقد يختار القول بأن الشياطين انما منعوا بعد البعثة عن سمع ما يعتد به من علم الغيب من ملائكة السماء أو العنان ومن خطف خطفة يعتد بها من ذلك اتبعه الشهاب وأهلكه ولم يدعه يوصلها بوجه من الوجوه إلى الكهنة ، وأما سمع ما لا يعتد به فقد يقع

Marfat.com

لهم ويوصلونه إلى الكهنة فيخلطون به من الكذب ما يخلطون ، فحيث حكم عليهم بالعزل عن السمع أريد بالسمع السمع الكامل المعتد به وحيث حكم عليهم بالقاء السمع أريد بالسمع السمع فى الجملة وأدنى ما يصدق عليه أنه سمع، والظاهر أن ماحصل لابن الصياد كان من هذا السمع ولا يكاد يعدل عن ذلك، ويقال: إنه كان من الضرب الثانى للكهانة إلا إن ثبت أحد الشقوق الثلاثة وفى ثبوت ذلك كلام، نعم قوله ﷺ «خبأت» ظاهر فى أن هناك ما يخبأ فى كف أو كم أو نحوهما والآية مالم تكتب لا تكون كذلك، ولهذا احتاج القائلون بأنه ﷺ انما أضمر له الآية فى قلبه إلى تأويل خبأت بأضمرت. ويمكن أن يقال على بعد: ان الشياطين قد منعوا بعد البعثة عن السمع مطلقا بالشهب المحرقة لهم، وارجاع ضمير (يلقون) إلى الشياطين ضعيف لأن المقام فى بيان من يتنزلون عليه لا بيان حالهم أو إلقاء سمعهم بمعنى إصغائهم إلى الملأ الأعلى و(أكثرهم) بمعنى كلهم والتعبير به للاشارة إلى أن الأكثرية المذكورة كافية فى المقصود. والمراد يصغون ليسمعوا فلا يسمعون إلا أنه أقيم وأكثرهم كاذبون مقام لا يسمعون أو إلقاء السمع بمعنى إلقاء ما يسمعه الناس من الأفاكين إليهم ولا يلزم من ذلك أن يكونوا سمعوه من الملائكة عليهم السلام إذ يجوز أن يكونوا اخترعوه من عند أنفسهم ظنا وتخمينا وألقوه إلى أوليائهم ولا يبعد صدقهم فى بعضه. والأمر فى تسميته مسموعا هين. وما ورد فى حديث الصحيحين وابن مردويه محمول على ما كان قبل البعثة، ويقال: إنهم كانوا يسمعون فى الجملة وقد يحمل ما فى الآية على ذلك وإليه ذهب بعضهم، وحمل خطف الكلمة فيه على حدسها بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ونحو ذلك ليجوز اعتبار كونه بعد البعثة مما لا أظن أحدا يرتضيه، وليس فى قصة ابن الصياد ما هو نص فى أن ما قاله كان عن سمع من الملائكة عليهم السلام ألقاه الشيطان إليه. وكأنى بك تستبعد تحدث الملائكة عليهم السلام فى السماء بما أضمره صلى الله تعالى عليه وسلم وصعود الشياطين حين السؤال من غير ريث واستراقهم ونزولهم فى اسرع وقت بما أجاب به ابن الصياد وما هو الا ضرب من ضروب الكهانة *

ولتحقيق أمرها على ما ذكره الفاضل عبد الرحمن بن خلدون أن للنفس الانسانية استعداداً للانسلاخ عن البشرية إلى الروحانية التى فوقها ويحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الاتقياء بما فطروا عليه من ذلك ولا يحتاجون فيه إلى اكتساب ولا استعانة بشئ من المدارك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما أو حركة ولا بأمر من الامور ويعطى التقسيم العقلى إن ههنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة هذا الصنف نقصان الضد عن ضده الكامل وهو صنف من البشر مفطور على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند ما يتبعها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه فيتشبث لاعمال الحيلة بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان ويديم ذلك الاحساس والتخيل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى هى مبدأ فى هذا الصنف لذلك الادراك هى الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها الجزئيات أكثر من ادراكها الكليات وتكون مشتغلة بها غافلة عن الكليات ولذلك كثيرا ما تكون المتخيلة فيهم فى غاية القوة وتكون الجزئيات عندها حاضرة عتيدة وهى لها كالمرآة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال فى ادراك المعقولات لأن نقصانه فطرى ووحيه شيطانى ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة

Marfat.com

ليشتغل به عن الحواس ويقوى فى الجملة على ذلك الانسلاخ الناقص فيهجس فى قلبه من تلك الحركة والذى يشيعها من ذلك الاجنبي مايقذف على لسانه وربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتمم أمر نقصه بأجنبي عن ذات المدارك ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ويكون غير موثوق به وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويها على السائلين، ولما كان انسلاخ النبي عليه الصلاة والسلام عن البشرية واتصاله بالملأ الاعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي كان صادقا فى جميع مايأتى به وكان الصدق من خواص النبوة ، ولهذا قال ﷺ لابن الصياد حين سأله كاشفا عن حاله بقوله عليه الصلاة والسلام: «كيف يأتيك هذا الامر؟ فقال: يأتينى صادق وكاذب: خلط عليك الامر» يريد عليه الصلاة والسلام نفى النبوة عنه بالاشارة إلى أنها مما لا يعتبر فيه الكذب بحال، وإنما قيل: أرفع أحوال هذا الصنف السجع لأن معين السجع أخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعين على قرب ذلك الانسلاخ والاتصال والبعد فيه عن العجز فى الجملة ، ولا انحصار لعلوم الكهان فيما يكون من الشياطين بل كما تكون من الشياطين تكون من أنفسهم بانسلاخها انسلاخا غير تام واتصالها فى الجملة بواسطة بعض الاسباب بعالم لا تحجب عنه الحوادث المستقبلة وغيرها فانقطاع خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم إن سلم لا يدل على انقطاع الكهانة •

ثم ان هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ولا يصدهم عن الايمان ويدعوهم إلى العناد الاوساوس المطامع بحصول النبوة لهم كما وقع لامية ابن أبى الصلت فانه كان يطمع أن يكون نبيا وكذا وقع لابن الصياد• ومسيلمة• وغيرهما، وربما تنقطع تلك الاماني فيؤمنون أحسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدى• وقارب بن الاسود وكان لهما فى الفتوحات الاسلامية من الآثار ما يشهد بحسن الايمان ، وذكر فى بيان استعداد بعض الاشخاص أعم من أن يكونوا كهانا أو غيرهم للاخبار بالامور الغيبية قبل ظهورها كلاما طويلا، حاصله أن النفس الانسانية ذات روحانية ولها بذاتها الادراك من غير واسطة لكنها محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وشواغلها لأن الحواس أبدا جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه من الادراك الجسماني وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصة التى هى للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصة الموجودة فى بعض الاشخاص كالكهنة أهل السجع وأهل الطرق بالحصى والنوى والناظرين فى الاجسام الشفافة من المرايا والمياه وقلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وقد يلحق بهم المجانين أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية أو السحرية مثل أهل الكشف من الجوكية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الاعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود وتلك الذوات ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما قرر فى محله فيتجلى فيها شىء من تلك الصور وتقتبس منها علما، وربما وقعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها فى القوالب المتعادة ثم تراجع الحس بما أدركت اما مجردا أو فى قوالبه فتخبر به انتهى ، ولا يخفى أن فيه ذهابا إلى ما يقوله الفلاسفة فى الملأ الاعلى وكثيرا ما يسمونه عالم المجردات وقد يسمونه عالم العقول وهى محصورة فى المشهور عندهم فى عشرة ولا دليل لهم على هذا الحصر ولذا قال بعض متأخريهم بانها لا تكاد تحصى، وللمتكلمين والمحققين من السلف فى ذلك كلام لا يتسع هذا الموضع لذكره، وأنا أقول ولا ينكره الا جهول: لله عز وجل

Marfat.com

خواص فى الازمنة والامكنة والاشخاص ولا يبعد بعد انقطاع خبر السماء عن الشياطين بالرجم أن يجعل لبعض النفوس الانسانية خاصية التكلم بما يصدق كلا أو بعضا مع اطلاع وكشف يفيد العلم بما أخبر به او بدون ذلك بان ينطقه سبحانه بشئ فيتكلم به من غير علم بالمخبر به ويوافق الواقع *

وقد اتفق لى ذلك وعمرى نحو خمس سنين وذلك أنى رجعت من الكتاب إلى البيت وشرعت ألعب فيه على عادة الاطفال فنهتنى والدتى رحمها الله تعالى عن ذلك وأمرتنى بالنوم لاستيقظ صباحا فاذهب إلى الكتاب فقلت لها : غداً يقتل الوزير ولا أذهب إلى الكتاب وهو مما لا يكاد يمر بفكر فلم تلتفت إلى ذلك وأنامتنى فلما أصبحت تأهبت للذهاب فجاء ابن أخت لها وأسر اليها كلاما لم أسمعه فتغير حالها ومنعتنى عن الذهاب ولا أدرى لم ذلك فاردت الخروج إلى الدرب لألعب مع أمثالى فمنعتنى أيضا فقعدت وهى مضطربة البال تطلب أحداً يخبرها عن حال والدى عليه الرحمة حيث ذهب قبيل طلوع الشمس إلى المدرسة فخرجت إلى الدرب على حين غفلة منها فوجدت الناس بين راكض ومسرع يتحدثون بأن الوزير قتله بعض خدمه وهو فى صلاة الفجر فرجعت اليها مسرعا مسروراً بصدق كلامى وكنت قد أنسيته ولم يخطر ببالى حتى سمعت الناس يتحدثون بذلك . وفى اليواقيت والجواهر للشعرانى عليه الرحمة فى بحث الفرق بين المعجزة والكهانة أن الكهانة كلمات تجرى على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالف وفيه شمة مما ذكرنا هذا والله تعالى أعلم *

والظاهر على ما قيل أن قوله تعالى:(هل أنبئكم) الخ كلام مسوق منه تعالى لبيان تنزيه النبى ﷺ عن أن يكون وحاشاه ممن تنزل عليه الشياطين وإبطال لقولهم فى القرآن إنه من قبيل ما يلقى إلى الكهنة ، وفى البحر ما هو ظاهر فى أنه على معنى القول أى قل يامحمد هل أنبئكم الخ وهو مسوق للتنزيه والابطال المذكورين ، وقوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٢٢٤﴾ مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضا عن أن يكون وحاشاه من الشعراء وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر . والمتبادر منه الكلام المنظوم المقفى ولذلك قال كثير من المفسرين:إنهم رموه عليه الصلاة والسلام بكونه آتيا بشعر منظوم مقفى حتى تأولوا عليه ما جاء فى القرآن مما يكون موزونا بادنى تصرف كقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) ويكون بهذا الاعتبار شطرا من الطويل وكقوله سبحانه (إن قارون كان من قوم موسى)ويكون من (١) المديد،وكقوله عز وجل : (فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) ويكون من البسيط ، وقوله تبارك وتعالى : (ألا بعداً لعاد قوم هود) ويكون من الوافر ، وقوله جل وعلا(صلوا عليه وسلموا تسليما) ويكون من الكامل إلى غير ذلك مما استخرجوه منه من سائر البحور.وقد استخرجوا منه مايشبه البيت التام كقوله تعالى (ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) *

وتعقب ذلك بانهم لم يقصدوا هذا المقصد فيما رموه به ﷺ إذ لا يخفى على الاغبياء من العجم فضلا عن بلغاء العرب ان القرآن الذى جاء به ﷺ ليس على أساليب الشعر وهم ماقالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلا لما جاءهم بالقرآن واستخراج ماذكر ونحوه منه ليس الالمزيد فصاحته وسلاسته ولم يؤت به لقصد النظم . ولو اعتبر فى كون الكلام شعرا إمكان استخراج كلام منظوم منه لكان كثير من الاطفال شعراء فان كثيرا

(١) قوله من المديد كذا بخطه وهو من الخفيف كما لا يخفى اه

Marfat.com

من كلامهم يمكن فيه ذلك ، والظاهر أنهم إنما قصدوا رميه صلى الله تعالى عليه وسلم بانه وحاشاه ثم حاشاه يأتى بكلام مخيل لا حقيقة له، ولماكان ذلك غالبا فى الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعر وعماجاء به بالشعر،ومعنى الآية والشعراء يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون ومايذرون ولا يستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال والاقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه ،والحصر مستفاد من بناء (يتبعهم) الخ على الشعراء عند الزمخشرى كما قرره فى تفسير قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) وقوله سبحانه (والله يقدر الليل والنهار) ومن لا يرى الحصر فى مثل هذا التركيب يأخذه من الوصف المناسب أعنى أن الغواية جعلت علة للاتباع فاذا انتفت انتفى وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ استشهاد على أن الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقرير له.والخطاب لكل من تتاتى منه الرؤية للاشارة إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء .وضمير الجمع للشعراء أى ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى سباسب الغواية والسفاهة ويتيهون فى تيه الصلف والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض المحمية والقدح فى الانساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الافراط والتفريط فى المدح والهجاء ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦﴾ من الافاعيل غير مكترثين بما يستتبعه من اللوم فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ويلحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجايلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات السنية الانسية مستقراً على أقوم منهاج مستمراً على صراط مستقيم لا يرى له العقل السليم من هاج ناطقا بكل أمر رشيد داعيا إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد مؤيداً بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الباهرة مستقلة بنظم رائق وأسلوب فائق أعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر ، هذا وقد قيل فى تنزيهه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء :إن اتباع الشعراء الغاوون واتباعه عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك . وتعقب بأنه لا ريب فى أن تعليل عدم كونه صلى الله تعالى عليه وسلم منهم بكون اتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالى ، وقيل : ضمير الجمع للغاوين ، وتعقب بأن المحدث عنهم الشعراء ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الغاوين هم الرواة الذين يحفظون شعر الشعراء ويروونه عنهم مبتهجين به .وفى رواية أخرى عنه أنهم الذين يستحسنون اشعارهم وإن لم يحفظوها ، وعن مجاهد . وقتادة أنهم الشياطين .

وروى عن ابن عباس أيضا أن الآية نزلت فى شعراء المشركين عبدالله بن الزبعرى .وهبيرة بن وهب المخزومى . ومسافع بن عبد مناف . وأبو عزة الجمحى . وأمية بن أبى الصلت قالوا : نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع اليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وهم الغاوون الذين يتبعونهم. وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عنه أيضا أنه قال : تهاجى رجلان على عهد رسول

Marfat.com

الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فانزل الله تعالى (والشعراء) الآيات وفى القلب من صحة الخبر شىء ، والظاهر من السياق أنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا فى القرآن ماقالوا ٠

وقرأ عيسى بن عمرو (الشعراء) بالنصب على الاشتغال . وقرأ السلمى . والحسن بخلاف عنه (يتبعهم) مخففا . وقرأ الحسن. وعبدالوارث عن أبى عمرو (يتبعهم) بالتشديد وتسكين العين تخفيفا وقد قالوا: عضد بسكون الضاد فغيروا الضمة واقعة بعد الفتحة فلأن يغيروها واقعة بعد الكسرة أولى ، وروى هرون فتح العين عن بعضهم ، واستشكله أبو حيان ، وقيل : إنه للتخفيف أيضا ، واختياره على السكون لحصول الغرض به مع ان فيه مراعاة الأصل فى الجملة لما بين الحركتين من المشاركة الجنسية ولا كذلك مابين الضم والسكون وهو غريب كما لا يخفى ٠

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عزوجل ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى والحث على الطاعة والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترهيب عن الركون اليها والاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية والترغيب فيما عندالله تعالى ونشر محاسن رسوله ﷺ ومدحه وذكر معجزاته ليتغلغل حبه فى سويداء قلوب السامعين وتزداد رغباتهم فى اتباعه ونشر مدائح آله وأصحابه وصلحاء أمته لنحو ذلك ولووقع منهم فى بعض الأوقات هجووقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداء ولا زيادة كما يشير إليه قراءة بعضهم (وانتصروا بمثل ما ظلموا) ، وقيل : المراد بالمستثنين شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله ﷺ ويكافحون هجاة المشركين ، واستدل لذلك بما أخرج عبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن قتادة إن هذه الآية نزلت فى رهط من الأنصار هاجوا عن رسول الله ﷺ ،منهم كعب بن مالك . وعبد الله بن رواحة . وحسان بن ثابت . وعن السدى نحوه ، وبما أخرج جماعة عن أبى حسن سالم البراد أنه قال:لمانزلت (والشعراء) الآية جاء عبدالله بن رواحة . وحسان بن ثابت . وكعب بن مالك وهم يبكون فقالوا: يارسول الله لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله تعالى (إلا الذين آمنوا) الخ فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم ٠

وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وأخرج ابن مردويه : وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قرأ قوله تعالى: (إلا الذين آمنوا) إلى آخر الصفات فقال: هم أبو بكر . وعمر وعلى . وعبدالله بن رواحة ولعله من باب الاقتصار على بعض مايدل عليه اللفظ فقد جاء عنه فى بعض الروايات مايشعر بالعموم ، هذا واستدل بالآية على ذم الشعر والمبالغة فى المدح والهجو وغيرهما من فنونه وجوازه فى الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم انتصاراً كذا قيل.واعلم أن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفى الحديث «إن من الشعر لحكمة» وقد سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الشعر وأجاز عليه وقال عليه الصلاة والسلام لحسان رضى الله تعالى عنه:-اهجهم- يعنى المشركين فان روح القدس سيعينك ، وفى رواية «اهجهم وجبريل معك» ٠

Marfat.com

وأخرج ابن سعد عن ابن بريدة أن جبريل عليه السلام أعان حسانا على مدحته النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسبعين بيتا ، وأخرج أحمد . والبخارى فى التاريخ . وأبو يعلى . وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله تعالى أنزل فى الشعراء ماأنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسى بيده لكأن ماترمونهم به نضح النبل ، وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين «قال: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة وهم فى سفر أين حسان بن ثابت فقال: لبيك يارسول الله وسعديك قال: خذ فجعل ينشده ويصغى اليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لهذا أشد عليهم من وقع النبل ، ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد ينشد عليه الشعر . وأخرج الديلمى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه مرفوعا الشعراء الذين يموتون فى الاسلام يأمرهم الله تعالى أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهن فى الجنة والذين ماتوا فى الشرك يدعون بالويل والثبور فى النار ، وقد أنشد كل من الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين الشعر، وكذا كثير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فمن شعر أبى بكر رضى الله تعالى عنه :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ... أرقت وأمر فى العشيرة حادث
ترى من لؤى فرقة لايصدها ... عن الكفر تذكير ولابعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا ... عليه وقالوا لست فينا بماكث
ولما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهروا هرير المجحرات اللواهث
فكم قد مثلنا فيهم بقرابة ... وترك التقى شىء لهم غير كارث
فان يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فما طيبات الحل مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم ... فليس عذاب الله عنهم بلابث
ونحن أناس من ذؤابة غالب ... لنا العز منها فى الفروع الأثائث
فأولى برب الراقصات عشية ... حراجيج تخدى فى السريح الرثائث
كأدم ظباء حول مكة عكف ... يردن حياض البئر ذات النبائث
لئن لم يفيقوا عاجلا من ضلالهم ... ولست إذا اليت يوما بحانث
لتبتدرنهم غارة ذات مصدق ... تحرم أطهار النساء الطوامث
تغادر قتلى يعصب الطير حولهم ... ولاترأف الكفار رأف ابن حارث
فابلغ بنى سهم لديك رسالة ... وكل كفور يبتغى الشر باحث
فان تشعثوا عرضى على سوء رأيكم ... فانى من أعراضكم غير شاعث

ومن شعر عمر رضى الله تعالى عنه وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة :

توعدنى كعب ثلاثا يعدها ... ولاشك أن القول ماقاله كعب
ومابى خوف الموت إنى لميت ... ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

Marfat.com

وقوله ويروى للأعور الثنى :

هون عليك فان الأمور بكف الاله مقاديرها
فليس بآتيك منهيها ولا قاصر عنك مأمورها

ومنه وقد لبس بردا جديدا فنظر الناس اليه ، ويروى لورقة بن نوفل من أبيات :

لاشيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الاله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد حاوله عاد فما خلدوا
ولاسليمان إذ تجرى الرياح له والانس والجن فيما بينها ترد
حوض هنالك موروديلا كذب لابد من ورده يوما كما وردوا

ومن شعر عثمان رضى الله تعالى عنه :

غنى النفس يغنى النفس حتى يكفها وان عضها حتى يضر بها الفقر

ومن شعر على كرم الله تعالى وجهه وكان بجودا حتى قيل: إنه أشعر الخلفاء رضى الله تعالى عنهم يذكر همدان ونصرهم إياه فى صفين :

ولما رأيت الخيل تزحم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامى
وأعرض نقع فى السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاو بنى من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا الظاها واستطار واشرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقد جمعوا مانسب اليه رضى الله تعالى عنه من الشعر فى ديوان كبير ولا يصح منه إلا اليسير ، ومن شعر ابنه الحسن رضى الله تعالى عنهما وقد خرج على أصحابه مختضبا :

نسود أعلاها وتأبى أصولها فليت الذى يسود منها هو الأصل

ومن شعر الحسين رضى الله تعالى عنه وقد عاتبه أخوه الحسن رضى الله تعالى عنه فى امرأته :

لعمرك إننى لاحب دارا تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالى وليس للائمى عندى عتاب

ومن شعر فاطمة رضى الله تعالى عنها قالته يوم وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام :

ماذا على من شم تربة أحمد أن لايشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا

ومن شعر العباس رضى الله تعالى عنه يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

ألا هل أتى عرسى مكرى وموقفى بوادى حنين والاسنة تشرع
وقولى إذا ماالنفس جاشت لهاقرى وهام تدهدى والسواعد تقطع

Marfat.com

وكيف رددت الخيل وهى مغيرة بزوراء تعطى باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله فى الحرب سبعة وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

ومن شعر ابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرنى فى حاجة لم يجد لها سواى ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالى همه من مقامه وزايله هم طروق مسامر
وكان له فضل على بظنه بى الخير أنى للذى ظن شاكر

وهلم جرا إلى حيث شئت ،وليس من بنى عبد المطلب كما قيل رجالا ولا نساء من لم يقل الشعر حاشا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليكون ذلك أبلغ فى أمره عليه الصلاة والسلام ،ولأجلة التابعين ومن بعدهم من أئمة الدين وفقهاء المسلمين شعر كثير أيضا ،ومن ذلك قول الشافعى رضى الله تعالى عنه :

ومتعب العيس مرتاح إلى بلد والموت يطلبه فى ذلك البلد
وضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيبا مات من كمد
من كان لم يؤت علما فى بقاء غد فما (١) يفكر فى رزق لبعد غد

والاستقصاء فى هذا الباب يحتاج إلى افراده بكتاب وفيما ذكر كفاية ،وقد مدحه أيضا غير واحد من الأجلة فعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب ، وعن على كرم الله تعالى وجهه الشعر ميزان العقول ٭

وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فان الشعر ديوان العرب، وما أخرجه أحمد . وابن أبى شيبة عن أبى سعيد رضى الله تعالى عنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلىء شعراً »حمله الشافعى عليه الرحمة على الشعر المشتمل على الفحش، وروى نحوه عن عائشة رضى الله تعالى عنها، فقد أخرج الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أن أبا هريرة يروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم» الحديث فقالت :رحم الله تعالى أبا هريرة إنما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا» من الشعر الذى هجيت به يعنى نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك المرشدى فى فتاواه نقلا عن كتاب بستان الزاهدين، ولا يخفى أنه يبعد الحمل المذكور التعبير بيمتلىء فان الكثير والقليل مما فيه فحش أو هجو لسيد الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم سواء، وما أحسن قول الماوردى: الشعر فى كلام العرب مستحب ومباح ومحظور فالمستحب ماحذر من الدنيا ورغب فى الآخرة وحث على مكارم الأخلاق والمباح ما سلم من فحش أو كذب والمحظور نوعان كذب وفحش وهما جرح فى قائله وأما منشده فان حكاه اضطرارا لم يكن جرحا أو اختيارا جرح، وتبعه على ذلك الرويانى وجعل الرويانى مافيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أو كذب من المحظور أيضا، ووافقه جماعة إلا أن إثم الصادق أخف من إثم الكاذب كما قال القمولى. وإثم الحاكى

(١) فى نسخة ماذا يفكراه منه

Marfat.com

على ما قال الرافعى دون إثم المنشد ، وقال الأذرعى : ليس هذا على إطلاقه بل إذا استوى الحالى والمنشد أما إذا أنشده ولم يذعه فأذاعه الحالى فاثمه أشد بلا شك ،واحترز بقيد المسلم عما فيه الهجو لكافر فان فيه تفصيلاه

وفصل بعضهم ما فيه الهجو لمسلم أيضا وذلك أن كثيرا من العلماء أطلقوا جواز هجو الكافر استدلالا بأمره صلى الله تعالى عليه وسلم حسانا ونحوه بهجو المشركين ، وقال بعضهم: محل ذلك الكفار على العموم وكذا المعين الحربى ميتا كان أوحيا حيث لم يكن له قريب معصوم يتأذى به ،وأما الذمى أوالمعاهد أو الحربى الذى له قريب ذمى أو مسلم يتأذى به فلا يجوز هجوه كما قاله الأذرعى . وابن العماد . وغيرهما ،وقالوا: إن هجو حسان وإن كان فى معين لكنه فى حربى ،وعلى التنزل فهو ذب عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون من القرب فضلا عن المباحات ،وألحق الغزالى وتبعه جمع المبتدع بالحربى فيجوز هجوه ببدعته لكن لمقصد شرعى كالتحذير من جهته ، وجوز ابن العماد هجو المرتد دون تارك الصلاة والزانى المحصن ،وماقاله فى المرتد واضح لأنه كالحربى بل أقبح وفى الأخيرين محله حيث لم يتجاهر أما المتجاهر بفسقه فيجوز هجوه بما تجاهر به فقط لجواز غيبته بذلك فقط *

وقال البلقينى : الأرجح تحريم هجو المتجاهر المذكور لالقصد زجره لأنه قد يتوب وتبقى وصمة الشعر السائر عليه ولا كذلك الكافر إذا أسلم .ورد بأن مجاهرته بالمعصية وعدم مبالاته بالناس وكلامهم فيه صيراه غير محترم ولامراعى فهو المهدر لحرمة نفسه بالنسبة لما تجاهر به فلم يبال ببقاء تلك الوصمة عليه *

نعم لو قيل بحرمة إنشاده بعد التوبة إذا كان يتأذى به هو أو قريبه المسلم أو الذمى أو بعد موته إذا كان يتأذى به من ذكر لم يبعد ، وذكر جماعة أن من جملة المحظور أيضا مافيه تشبيب بغلام ولو غير معين مع ذكر أنه يعشقه أو بامرأة أجنبية معينة وإن لم يذكرها بفحش أو بامرأة مبهمة مع ذكرها بالفحش ولم يفرقوا بين إنشاء ذلك وإنشاده ،واعتبر بعضهم التعيين فى الغلام كالمرأة فلا يحرم التشبيب بمبهم ه

قال الأذرعى وهو الأقرب والأول ضعيف جـــدا ، وقال أيضا : يجب القطع بانه إذا شبب بحليلته ولم يذكر سوى المحبة والشوق أو ذكر شيئا من التشبيهات الظاهرة أنه لا يضر وكذا إذا ذكر امرأة مجهولة ولم يذكر سوءا *

وفى الاحياء فى حرمة التشبيب بنحو وصف الخدود والاصداغ وسائر أوصاف النساء نظر ،والصحيح أنه لا يحرم نظمه ولاانشاده بصوت وغيرصوت ،وعلى المستمع أن (١) ينزله على امرأة معينة فان نزله على حليلته جاز أوعلى غيرها فهو العاصى بالتنزيل ومن هذا وصفه فينبغى ان يجتنب السماع ،وذكر بعض الفضلاء أن ما يحرم انشاؤه قد لاتحرم روايته فان المغازى روى فيها قصائد الكفار الذين هاجوا فيها الصحابة رضى الله تعالى عنهم ولم ينكر ذلك أحد ،وقدروى أنه ﷺ اذن فى الشعر الذى تقاولت به الشعراء فى يومى بدر. وأحدوغيرهما الاقصيدة ابن أبى الصلت الحائية انتهى ، قال الاذرعى:ولاشك فى هذا إذا لم يكن فيه فحش ولاأذى لحى ولاميت من المسلمين ولم تدع حاجة اليه ،وقدذم العلماء جريرا .والفرزدق فى تهاجيهما ولم يذموا من استشهد بذلك على اعراب وغيره من علم اللسان ،ويجب حمل كلام الائمة على غير ذلك مما هو عادة أهل اللعب والبطالة وعلى انشاد شعر شعراء العصر إذا كان انشاؤه حراما إذ ليس فيه إلا أذى أو وقيعة فى الاحياء

(١) قوله ان ينزله الخ كذا بخطه ولعل المناسب ان لاينزله بحرف النفى اه

Marfat.com

او اساءة الاحياء فى امواتهم اوذكر مساوى الاموات وغير ذلك وليس مما يحتج به فى اللغة ولاغيرها فلم يبق الا اللعب بالاعراض،وزاد بعض حرمة شعر فيه تعريض وجعل التعريض فى الهجو كالتصريح وله وجه وجيه ه

وقال آخر:ان مافيه فخر مذموم وقليله ككثيره،والحق إن ذلك أن تضمن غرضا شرعيا فلا بأس به ،وللسلف شعر كثير من ذلك وقد تقدم لك بعض منه ،وحمل الاكثرون الخبر السابق على ما إذا غلب عليه الشعر وملك نفسه حتى اشتغل به عن القرآن والفقه ونحوهما ولذلك ذكر الامتلاء ، والحاصل أن المذموم امتلاء القلب من الشعر بحيث لا يتسع لغيره ولا يلتفت اليه .وليس فى الخبر ذم انشائه ولا انشاده لحاجة شرعية والا لوقع التعارض بينه وبين الاخبار الصحيحة الدالة على حل ذلك وهى اكثر من أن تحصى وابعد من أن تقبل التأويل كما لا يخفى*

وما روى عن الامام الشافعى من قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

محمول على نحو ماحمل الاكثرون الخبر عليه والا فما قاله شعر، وفى معناه قول شيخنا علاء الدين على افندى تغمده الله تعالى برحمته مخاطبا خاتمة الوزراء فى الزوراء داود باشا من ابيات ه

ولو لداعيه يرضى الشعر منقبة لقمت مابين منشيه ومنشده

هذا وسيأتى إن شاء الله تعالى كلام يتعلق بهذا البحث أيضا عند الكلام فى قوله تعالى : (وماعلمناه الشعر وماينبغى) له ومن اللطائف أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق:

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال له قد وجب عليك الحد فقال ياأمير المؤمنين: قد درأ الله تعالى عنى الحد بقوله سبحانه:(وانهم يقولون ما لا يفعلون) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لما فى (سيعلم) من تهويل متعلقه وفى (الذين ظلموا) من الاطلاق والتعميم،وقد كان السلف الصالح يتواعظون بها ،وختم بها أبو بكر رضى الله تعالى عنه وصيته حين عهد لعمر رضى الله تعالى عنه وذلك أنه أمر عثمان رضى الله تعالى عنه أن يكتب فى مرض موته حينئذ (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعهد به أبو بكر بن أبى قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر ويصدق فيها الكاذب انى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه وأن يجر ويبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)، وتفسير الظلم بالكفر وإن كان شائعا فى عدة مواضع من القرءان الكريم إلا أن الأنسب على ماقيل هنا الاطلاق لكان قوله تعالى (من بعد ما ظلموا) وقال الطيبى :سياق الآية بعد ذكر المشركين الذين ءاذوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وما لقى منهم من الشدائد كما مر من أول السورة يؤيد تفسير الظلم بالكفر ه

وروى محيي السنة الذين ظلموا أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقرأ ابن عباس . وابن أرقم عن الحسن (أى منفلت ينفلتون) بالفاء والتاء الفوقية من الانفلات بمعنى النجاة ، والمعنى إن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات (وسيعلم) هنا معلقة وأى استفهام مضاف إلى(منقلب) والناصب له(ينقلبون) ،والجملة سادة مسد المفعولين كذا فى البحر ه

Marfat.com

وقال أبو البقاء : أى منقلب مصدر نعت لمصدر محذوف والعامل (ينقلبون) أى ينقلبون انقلابا أى منقلب ولا يعمل فيه يعلم لأن الاستفهام لايعمل فيه ماقبله : وتعقب بأنه تخليط لأن أيا إذا وصف بهـا لم تكن استفهاما . وقد صرحوا بأن الموصوف بها قسيم الاستفهامية، وتحقيق انقسام -أى- يطلب من كتب النحو والله تعالى أعلم *

﴿وما قيل فى بعض الآيات من باب الاشارة﴾ (طسم) قال الجنيد: الطاء طرب التائبين فى ميدان الرحمة· والسين سرور العارفين فى ميدان الوصلة· والميم مقام المحبين فى ميدان القربة ، وقيل : الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التى تكشف فى مرايا البرهان· والميم مجده سبحانه الذى ظهر بوصف البهاء فى قلوب أهل العرفان . وقيل : الطاء طهارة قلب نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن تعلقات الكونين. والسين سيادته صلى الله تعالى عليه وسلم على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. والميم مشاهدته عليه الصلاة والسلام جمال رب العالمين ، وقيل : الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل غير ذلك (لعلك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين) الخ فيه اشارة إلى كمال شفقته ﷺ على أمته وان الحرص على ايمان الكافر لا يمنع سوابق الحكم (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) إلى ءاخر القصة فيه إشارة إلى حسن التعاضد فى المصالح الدينية والتلطف بالضال فى الزامه بالحجج القطعية وأنه لا ينبغى عدم الاحتفال بمن ربيته صغيرا ثم رأيته وقد منحه الله تعال ماءمنحه من فضله كبيرا ، وقال بعضهم :إن فيه إشارة إلى ماقى الأنفس وجعل موسى إشارة إلى موسى القلب وفرعون إشارة إلى فرعون النفس وقومه إشارة إلى الصفات النفسانية و بنى إسرائيل إشارة إلى الصفات الروحانية والفعلة إشارة إلى قتل قبطى الشهوة والعصا إشارة إلى عصا الذكر أعنى لاإله إلا الله واليد إشارة إلى يدالقدرة وكونها بيضاء إشارة إلى كونها مؤيدة بالتأييد الالهى والناظرين إشارة إلى أرباب الكشف الذين ينظرون بنور الله تعالى والسحرة إشارة إلى الأوصاف البشرية والأخلاق الردية والناس إشارة إلى الصفات الناسوتية والأجر إشارة إلى الحظوظ الحيوانية والحبال إشارة إلى حبال الحيل والعصى إشارة إلى عصى التمويهات والمخيلات والمدائن اشارة إلى أطوار النفس وهكذا *

وعلى هذا الطريق سلكوا فى الاشارة فى سائر القصص · فجعلوا ابراهيم إشارة الى القلب وأباه وقومه اشارة الى الروح وما يتولد منها والاصنام اشارة الى ما يلائم الطباع من العلويات والسفليات وهكذا مما لا يخفى على من له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، وللشيخ الأكبر قدس سره فى هذه القصص كلام عجيب من أراده فليطلبه فى كتبه وهو قدس سره ممن ذهب الى أن خطيئة ابراهيم عليه السلام التى أرادها بقوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) كانت اضافة المرض الى نفسه فى قوله (واذا مرضت فهو يشفين) وقد ذكر قدس سره إنه اجتمع مع ابراهيم عليه السلام فسأله عن مراده بها فاجابه بما ذكر· وقال فى باب أسرار الزكاة من الفتوحات إن قول الرسول (إن أجرى إلا على رب العالمين) لا يقدح فى كمال عبوديته فان قوله : ذلك لأن يعلم أن كل عمل خالص يطلب الاجر بذاته وذلك لا يخرج العبد عن أوصاف العبودية فان العبد فى صورة الاجير وليس باجير حقيقة إذ لا يستأجر السيد عبده بل يستاجر

Marfat.com

الأجنبي وإنما العمل نفسه يقتضى الأجرة وهو لا يأخذها وانما يأخذها العامل وهو العبد فهو قابض الأجرة من الله تعالى فاشبه الأجير فى قبض الأجرة وخالفه بالاستئجار اه *

وحقق أيضا ذلك فى الباب السادس عشر والثلاثمائة من الفتوحات، وذكر فى الباب السابع عشر والاربعمائة منها أن أجر كل نبي يكون على قدر ماناله من المشقة الحاصلة له من المخالفين (وماتنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ومايستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) فيه إشارة إلى أنه ليس للشيطان قوة حمل القرآن لأنه خلق من نار وليس لها قوة حمل النور ألا ترى أن نار الجحيم كيف تستغيث عند مرور المؤمن عليها وتقول: جز يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ولنحو ذلك ليس له قوة على سمعه ،وهذا بالنسبة إلى أول مراتب ظهوره فلا يرد أنه يلزم على ماذكر أن الشياطين لايسمعون آيات القرآن إذا تلوناها ولايحفظونها وليس كذلك، نعم ذكر أنهم لايقدرون أن يسمعوا آية الكرسى . وآخر البقرة وذلك لخاصية فيهما (وأنذر عشيرتك الأقربين) فيه إشارة إلى أن النسب إذا لم ينضم اليه الايمان لاينفع شيئا، ولما كان حجاب القرابة كثيفا أمر ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) هم أهل النسب المعنوى الذى هو أقرب من النسب الصورى كما أشار اليه ابن الفارض قدس سره بقوله :

نسب أقرب فى شرع الهوى بيننا من نسب من أبوى

وأنا أحمد الله تعالى كما هو أهله على أن جعلنى من الفائزين بالنسبين حيث وهب لى الايمان وجعلنى من ذرية سيد الكونين صلى الله تعالى عليه وسلم فها أنا من جهة أم أبى من ذرية الحسن ومن جهة أبى من ولد الحسين رضى الله تعالى عنهما *

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

والله عزوجل هو ولى الاحسان المتفضل بصنوف النعم على نوع الانسان والصلاة والسلام على سيد العالمين وآله وصحبه أجمعين *

﴿ سورة النمل ٢٧ ﴾

وتسمى أيضا كما فى الدر المنثور سورة سليمان، وهى مكية كما روى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ، وذهب بعضهم إلى مدنية بعض آياتها كما سيأتى إن شاء الله تعالى ،وعدد آياتها خمس وتسعون اية حجازى وأربع بصرى وشامى وثلاث كوفى ،ووجه اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود . وسليمان وبسط فيها قصة لوط عليه السلام أبسط مما هى قبل وقد وقع فيها (إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا) الخ وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل : (فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) وقد اشتمل كل من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك ، وروى عن ابن عباس . وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم طس ثم القصص *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * طس ﴾ قرئ بالامالة وعدمها ، والكلام فيه كالكلام فى نظائره من الفواتح *

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى السورة المذكورة ،وأداة البعد للاشارة إلى بعد المنزلة فى الفضل والشرف أو إلى

Marfat.com

الآيات التى تتلى بعد نظير الاشارة فى قوله تعالى : (الم ذلك الكتاب) أو الى مطاق الآيات، ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى : ﴿ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ﴾ والجملة مستأنفة أو خبر لقوله تعالى : (طس) وإضافة (آيات) إلى (القرءان) لتعظيم شأنها فان المراد به المنزل المبارك المصدق لما بين يديه الموصوف بالكمالات التى لانهاية لها، ويطلق على كل المنزل عليه ﷺ الاعجاز وعلى بعض منه، وجوز هنا إرادة كل من المعنيين وإذا أريد الثانى فالمراد بالبعض جميع المنزل عند نزول السورة ، وقوله تعالى : ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ١﴾ عطف على (القرآن) والمراد به القرآن وعطفه عليه مع اتحاده معه فى الصدق كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما فى قولهم : هذا فعل السخى والجواد الكريم ، وتنوينه للتفخيم، و(المبين) إما من أبان المتعدى أى مظهر مافى تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب أو سبيل الرشد والغى أو نحو ذلك ، والمشهور فى أمثال هذا الحذف أنه يفيد العموم. وأما من أبان اللازم بمعنى بان أى ظاهر الاعجاز أو ظاهر الصحة للاعجاز وهو على الاحتمالين صفة مادحة لكتاب. وكدة لما أفاده التنوين من الفخامة.

ولما كان فى التنكير نوع من الفخامة وفى التعريف نوع آخر وكان الغرض الجمع للاستيعاب الكامل عرف القرآن ونكر الكتاب وعكس فى الحجر ، وقدم المعرف فى الموضعين لزيادة التنويه ، ولما عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص ههنا قدم كونه قرآنا لأنه أدل على خصوص المنزل على محمـــد صلى الله تعالى عليه وسلم للاعجاز كذا فى الكشف .

وقال بعض الأجلة : قدم الوصف الأول ههنا نظرا إلى حال تقدم القرآنية على حال الكتابية وعكس هنالك لأن المراد تفخيمه من حيث اشتماله على كمال جنس الكتب الالهية حتى كأنه كلها ومن حيث كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه والاشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح لئلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله باوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة ، وفى هذا حمل أل على الجنس فى الكتاب ، والظاهر أنها فى (القرآن) للعهد فيختلف معناها فى الموضعين واليه يشير ظاهر كلام الكشاف كما قيل، واعتذر له بانه إذا رجع المعنيان إلى التفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف ، وجوز أن تكون فى الموضعين للعهد وأن تكون فيهما للجنس فتأمل ، وقيل : إن اختصاص كل من الموضعين بما اختص به من تعيين الطريق .

وجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ وابانته أنه خط فيه ماهو كائن إلى يوم القيامة فهو يبينه للناظرين فيه ، وتأخيره هنا عن القرآن باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه فى الحجر عليه باعتبار الوجود الخارجى فان القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخر عن اللوح المحفوظ ولا يخفى أن إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر . وقال بعضهم : لا يساعد إرادة اللوح منه ههنا إضافة الآيات اليه إذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إبانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه .

وقرأ ابن أبى عبلة (وكتاب مبين) برفعهما، وخرج على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه أى وآيات كتاب ، وقيل : يجوز عدم اعتبار الحذف والكتاب لكونه مصدراً فى الأصل يجوز الاخبار به عن المؤنث ، وقيل : رب شئ يجوز تبعا ولا يجوز استقلالا ألا ترى أنهم حظروا جاءتنى زيد وأجازوا جاءتنى

Marfat.com

هند وزيد ، وقوله تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾ فى حيز النصب على الحالية من (آيات) على إقامة المصدر مقام الفاعل فيه للمبالغة كأنها نفس الهدى والبشارة، والعامل معنى الاشارة وهو الذى سمته النحاة عاملا معنويا *

وجوز أبو البقاء على قراءة الرفع فى (كتاب) كون الحال منه ثم قال: ويضعف أن يكون من المجرور ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى (مبين) على القراءتين ، وجوز أبو حيان كون النصب على المصدرية أى تهدى هدى وتبشر بشرى أو الرفع على البدلية من (آيات)، واشتراط الكوفيين فى إبدال النكرة من المعرفة شرطين اتحاد اللفظ وأن تكون النكرة موصوفة نحو قوله تعالى (لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة) غير صحيح كما فى شرح التسهيل لشهادة السماع بخلافه أو على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى هدى وبشرى ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٢ ﴾ يحتمل أن يكون قيداً للهدى والبشرى معا ، ومعنى هداية الآيات لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال سبحانه: (فاما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله تعالى ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم كذا قيل ، وفى الحواشى الشهابية أن الهدى على هذا الاحتمال، إما بمعنى الاهتداء أو على ظاهره وتخصيص المؤمنين لأنهم المنتفعون به وإن كانت هدايتها عامة ، وجعل المؤمنين بمعنى الصائرين الايمان تكلف كحمل هداهم على زيادته، ويحتمل أن يكون قيداً للبشرى فقط ويبقى الهدى على العموم وهو بمعنى الدلالة والارشاد أى هدى لجميع المكلفين وبشرى للمؤمنين ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ صفة موضحة للمؤمنين، وكنى باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقا ، وخصا لأنهما على ما قيل أما العبادة البدنية والمالية ، والظاهر أنه حمل الزكاة على الزكاه المفروضة *

وتعقب بأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، وقيل كان فى مكة زكاة مفروضة إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة فلتحمل فى الآية عليها ، وقيل : الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الاخلاق وهو خلاف المشهور فى الزكاة المقرونة بالصلاة ويبعده تعليق الايتاء بها ، وقوله تعالى: ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٣ ﴾ يحتمل أن يكون معطوفا على جملة الصلة ، ويحتمل أن يكون فى موضع الحال من ضمير الموصول، ويحتمل أن يكون استئنافا جىء به للقصد إلى تأكيد ما وصف المؤمنون به من حيث أن الايقان بالآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف فلا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الاشارة المفيد لاكتساب الخلاقة بالحكم باعتبار السوابق فكأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، وسمى الزمخشرى هذا الاستئناف اعتراضا وكونه لا يكون إلا بين شيئين يتعلق أحدهما بالآخر كالمبتدأ والخبر غير مسلم عنده *

واختار هذا الاحتمال فقال: إنه الوجه ويدل عليه أنه عقد الكلام جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذى هو (هم) حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان إلا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق انتهى . وأنكر ابن المنير افادة نحو هذا التركيب الاختصاص وادعى أن تكرار الضمير للتطرية لمكان الفصل بين الضميرين بالجار والمجرور ، والحق أنه يفيد ذلك كما صرحوا به

Marfat.com

فى نحو هو عرف ،وكذا يفيد التأكيد لما فيه من تكرار الضمير ٥

وزعم أبو حيان أن فيما ذكره الزمخشرى دسيسة الاعتزال،ولايخفى أنه ليس فى كلامه أكثر من الاشارة إلى أن المؤمن العاصى لم يوقن بالآخرة حق الايقان ، ولعل جعل ذلك دسيسة مبنى على أنه بنى ذلك على مذهبه فى أصحاب الكبائر وقوله فيهم بالمنزلة بين المنزلتين . وأنت تعلم أن القول بما اختاره فى الآية لايتوقف على القول المذكور؛ وتغيير النظم الكريم على الوجهين الأولين لما لايخفى ، وتقديم (بالآخرة) فى جميع الأوجه لرعاية الفاصلة ، وجوز أن يكون للحصر الاضافى كما فى الحواشى الشهابية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد أحوال المؤمنين أى لايؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الاعمال السيئة حسبما ينطق به القرآن ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة بما ركبنا فيهم من الشهوات والأمانى حتى رأوها حسنة ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ويترددون والاستمرار فى الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها . والفاء لترتيب المسبب على السبب .ونسبة التزيين اليه عز وجل عند الجماعة حقيقة وكذا التزيين نفسه ، وذهب الزمخشرى إلى أن التزيين إما مستعار للتمتيع بطول العمر وسعة الرزق وإما حقيقة واسناده اليه سبحانه وتعالى مجاز وهو حقيقة للشيطان كما فى قوله تعالى (زين لهم الشيطان أعمالهم)٥ والمصحح لهذا المجاز إمهاله تعالى الشيطان وتخليته حتى يزين لهم .والداعى له إلى أحد الأمرين ايجاب رعاية الاصلح عليه عز وجل . ونسب الى الحسن أن المراد بالأعمال الاعمال الحسنة وتزيينها بيان حسنها فى أنفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا أى زينا لهم الأعمال الحسنة فهم يترددون فى الضلال والاعراض عنها ٥

والفاء عليه لترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك: وعظته فلم يتعظ ،وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم الأمور ، وتعقب هذا القول بأن التزيين قد ورد غالبا فى غير الخير نحو قوله تعالى :(زين للناس حب الشهوات-زين للذين كفروا الحياة الدنيا-زين لكثير من المشركين) الخ وروده فى الخير قليل نحو قوله تعالى : (حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم) ويبعد حمل الأعمال على الأعمال الحسنة إضافتها إلى ضميرهم وهم لم يعملوا حسنة أصلا. وكون إضافتها إلى ذلك باعتبار أمرهم بها،وإيجابها عليهم لا يدفع البعد ٥

وذكر الطيبى انه يؤيد ماذكر أولا أن وزان فاتحة هذه السورة إلى ههنا وزان فاتحة البقرة فقوله تعالى : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة » كقوله تعالى : « ان الذين كفروا » وقوله سبحانه « زينا لهم أعمالهم » كقوله جل وعلا « ختم الله على قلوبهم » ٥

وقد سبق بيان وجه دلالة ذلك على مذهب الجماعة هناك وان التركيب من باب تحقيق الخبر وان المعنى استمرارهم على الكفر وانهم بحيث لا يتوقع منهم الايمان ساعة فساعة أمارة لرقم الشقاء عليهم فى الازل والختم على قلوبهم وانه تعالى زين لهم سوء أعمالهم فهم لذلك فى تيه الضلال يترددون وفى بيداء الكفر يعمهون ، ودل على هذا التأويل ايقاع لفظ المضارع فى صلة الموصول والماضى فى خبره وترتيب قوله تعالى : (فهم يعمهون) بالفاء عليه ، واختصاص الخطاب بما يدل على الكبرياء والجبروت من باب تحقيق الخبر نحو قول الشاعر :

ان التى ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

Marfat.com

وفى الاخبار الصحيحة ما ينصر هـذا التاويل أيضـا ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ اشارة الى المذكورين الموصوفين بالكفر والعمه وهو مبتدأ خبره ﴿ الَّذِينَ لَهُـــمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ يحتمل ان يكون المراد لهم ذلك فى الدنيا بان يقتلوا أو يؤسروا أو تشدد عليهم سكرات الموت لقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ٥ ﴾ ويحتمل أن يكون المراد لهم ذلك فى الدارين وهو الذى استظهره ابو حيان ويـكون قوله تعالى : (وهم) الخ لبيان ان ما فى الآخرة أعظم العذابين بناء على ان (الاخسرين) أفعل تفضيل ، والتفضيل باعتبار حاليهم فى الدارين أى هم فى الآخرة أخسر منهم فى الدنيا لا غيرهم كما يدل عليه تعريف الجزأين على معنى ان خسرانهم فى الآخرة أعظم من خسرانهم فى الدنيا من حيث أن عذابهم فى الآخرة غير منقطع أصلا وعذابهم فى الدنيا منقطع ولا كـذلك غيرهم من عصاة المؤمنين لأن خسرانهم فى الآخرة ليس أعظم من خسرانهم فى الدنيا من هذه الحيثية فان عذابهم فى الآخرة ينقطع ويعقبه نعيم الابد حتى يـكادوا لا يخطر ببالهم أنهم عذبوا كـذا قيل ٥

وقال بعضهم : إن التفضيل باعتبار مافى الآخرة أى هم فى الآخرة أشد الناس خسرانا لاغيرهم لحرمانهم الثواب واستمرارهم فى العقاب بخلاف عصاة المؤمنين، ويلزم من ذلك كون عذابهم فى الآخرة أعظم من عذابهم فى الدنيا ويكفى هذا فى البيان ، وقال الـكرمانى : إن أفعل هنا للمبالغة لا للشركة، قال أبو حيان: كأنه يقول : ليس للمؤمن خسران البتة حتى يشركه فيه الـكافر ويزيد عليه ولم يتفطن لـكون المراد أن خسران الـكافر فى الآخرة أشد من خسرانه فى الدنيا فالاشتراك الذى يدل عليه أفعل إنما هو بين مافى الآخرة ومافى الدنيا اه كلامه . وكأنه يسلم أن ليس للمؤمن خسران البتة وفيه بحث لايخفى ، وتقديم (فى الآخرة) إما للفاصلة أو للحصر ، وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض شؤن القرآن الـكريم تمهيدا لما يعقبه من الأقاصيص، وتصديره بحرفى التا كيد لابراز كمال العناية بمضمونه وبنى الفعـل للمفعول وحذف الفاعل وهو جبريل عليه السلام للدلالة عليه فى قوله تعـالى: (نزل به الروح الأمين) ولقى المخفف يتعدى لواحد والمضاعف يتعدى لاثنين وهما هنا نائب الفـاعل والقرآن ، والمراد وإنك لتعطى القرآن تلقنه ﴿ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦ ﴾ أى أى حكيم وأى عليم ، وفى تفخيمهما تفخيم لشان القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق ، والحـكمة كما قال الراغب من الله عز وجل معرفة الأشياء وايجادها على غاية الاحكام ، ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخـيرات وجمع بينها وبين العلم مع أنه داخل فى معناها لغة كما سمعت لعمومه إذ هو يتعلق بالمعدومات ويكون بلا عمل ودلالة الحـكمة على أحكام العمل واتقانه وللاشعار بان مافى القرآن من العلوم منها ماهو حكمة كالشرائع ومنها ماهو ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية ٥

وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرءان الذى تلقاه ﷺ من لدنه عزوجل تقريراً لماقبله وتحقيقا له أى اذكر

Marfat.com

لهم وقت قول موسى عليه السلام لأهله ، وجوز أن تكون (إذ) ظرفا لعليم .وتعقبه فى البحر بان ذلك ليس بواضح إذ يصير الوصف مقيدا بالمعمول ، وقال فى الكشف : مايتوهم من دخل التقييد بوقت معين مندفع إذ ليس مفهوما معتبرا عند المعتبر ولأنه لما كان تمهيد القصة حسن أن يكون قيداً لها كانه قيل:ماأعلمه حيث فعل بموسى عليه السلام مافعل، ولما كان ذلك من دلائل العلم والحكمة على الاطلاق لم يضر التقييد بل نفع لرجوعه بالحقيقة إلى نوع من التعليل والتذكير اه . ولايخفى أن الظاهر مع هذا هو الوجه الأول ثم ان قول موسى عليه السلام.﴿إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كان فى أثناء سيره خارجا من مدين عند وادى طوى وكان عليه السلام قد حاد عن الطريق فى ليلة باردة مظلمة فقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار ، والمراد بالخبر الذى ياتيهم به من جهة النار الخبر عن حال الطريق لأن من يذهب لضوء نار على الطريق يكون كذلك،ولم يجرد الفعل عن السين إما للدلالة على بعد مسافة النار فى الجملة حتى لايستوحشوا إن أبطا عليه السلام عنهم أو لتاكيد الوعد بالاتيان فانها كما ذكره الزمخشرى تدخل فى الوعد لتأكيده وبيان أنه كائن لامحالة وإن تاخر ، وماقيل من أن السين للدلالة على تقريب المدة دفعا للاستيحاش إنما ينفع على ماقيل فى اختياره على سوف دون التجريد الذى يتبادر من الفعل معه الحال الذى هو أتم فى دفع الاستيحاش*

ولعل الاولى اعتبار كونه للتاكيد ، لايقال: انه عليه السلام لم يتكلم بالعربية وما ذكر من مباحثها لانا نقول: ما المانع من أن يكون فى غير اللغة العربية مايؤدى مؤداها بل حكاية القول عنه عليه السلام بهذه الالفاظ يقتضى انه تكلم فى لغته بما يؤدى ذلك ولابد، وجمع الضمير إن صح انه لم يكن معه عليه السلام غير امرأته للتعظيم وهو الوجه فى تسمية الله تعالى شأنه امرأة موسى عليه السلام بالأهل مع انه جماعة الأتباع ﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أى بشعلة نار مقبوسة اى ماخوذة من أصلها فقبس صفة شهاب أو بدل منه ، وهذه قراءة الكوفيين . ويعقوب ، وقرأ باقى السبعة . والحسن (بشهاب قبس) بالاضافة واختارها ابو الحسن وهى اضافة بيانية لما بينهما من العموم والخصوص كما فى ثوب خز فان الشهاب يكون قبسا وغير قبس ، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجى فى سورة طـــه فلا تدافع بين ما وقع هنا وما وقع هناك، والترديد للدلالة على انه عليه السلام ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله عز وجل انه لايكاد يجمع حرمانين على عبده*

وقيل: يجوز أن يقال الترديد لأن احتياجه عليه السلام الى احدهما لا لهما لانه كان فى حال الترحال وقد ضل عن الطريق فمقصوده أن يجد أحدا يهدى الى الطريق فيستمر فى سفره فان لم يجده يقتبس نارا ويوقدها ويدفع ضرر البرد فى الاقامة*

وتعقب بانه قد ورد فى القصة أنه عليه السلام كان قد ولد له عند الطور ابن فى ليلة شاتية وظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته فرأى النار فقال لأهله ماقال وهو يدل على احتياجه لهما معا لكنه تحرى عليه السلام الصدق فاتى باو ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧﴾ أى رجاء أو لأجل أن تستدفئوا بها،والصلاء بكسر الصاد والمد ويفتح بالقصر الدنو من النار لتسخين البدن وهو الدفؤ ويطلق على النار نفسها أو هو بالكسر الدفؤ

Marfat.com

وبالفتح النار ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أى النار التى قال فيها (إنى ءانست نارا) وقيل: الضمير للشجرة وهو كما ترى، وما ظنه داعيا ليس بداع لما أشرنا اليه ﴿نُودِىَ﴾ أى موسى عليه السلام من جانب الطور ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ معناه أى بورك على أن ان مفسرة لما فى النداء من معنى القول دون حروفه ٥

وجوز أن تكون أن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان ، ومنعه بعضهم لعدم الفصل بينها وبين الفعل بقد أو السين أو سوف أو حرف النفى وهو مما لابد منه إذا كانت مخففة ما فى الحجة لأبى على الفارسى أنها لما كانت لا يليها إلا الأسماء استقبحوا أن يليها الفعل من غير فاصل . وأجيب بأن ماذكر ليس على اطلاقه . فقد صرحوا بعدم اشتراط الفصل فى مواضع ،منها مايكون الفعل فيه دعاء فلعل من جوز كونها المخففة ههنا جعل (بورك) دعاء على أنه يجوز أن يدعى أن الفصل باحدى المذكورات فى غير ماستثنى أغلبى لقوله :

علموا أن يؤملون فجادوا قبل أن يسألوا باعظم سؤل

وجوز ان تكون المصدرية الناصبة للافعال و(بورك) حينئذ اما خبر أو انشاء للدعاء. وادعى الرضى أن بورك اذا جعل دعاء فان مفسرة لاغير لان المخففة لا يقع بعدها فعل انشائى اجماعا وكذا المصدرية وهو مخالف لماذكره النحاة ،ودعوى الاجماع ليست بصحيحة ،والقول بأنه يفوت معنى الطلب بعد التأويل بالمصدر قد تقدم ما فيه ، وفى الكشف يمنع عن جعلها مصدرية عدم سداد المعنى لأن (بورك) إذ ذاك ليس يصلح بشارة وقد قالوا : إن تصدير الخطاب بذلك بشارة لموسى عليه السلام بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر منه فى أرض الشأم كلها البركة وهذا بخلاف ما إذا كان (بورك) تفسيرا للشأن اه وفيه نظر ، وعلى الوجهين الكلام على حذف حرف الجر أى نودى بأن الخ ، والجار والمجرور متعلق بما عنده وليس نائب الفاعل بل نائب الفاعل ضمير موسى عليه السلام ، وقيل : هو نائب الفاعل ولاضمير *

وقال بعضهم فى الوجه الأول أيضا إن الضمير القائم مقام الفاعل ليس لموسى عليه السلام بل هو لمصدر الفعل أى نودى هو أى النداء ، وفسر النداء بما بعده ، والأظهر فى الضمير رجوعه لموسى وفى أن أنها مفسرة وفى (بورك) أنه خبر وهو من البركة وقد تقدم معناها ، وقيل : هنا المعنى قدس وطهر وزيد خيرا ﴿مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ذهب جماعة إلى أن فى الكلام مضافا مقدرا فى موضعين أى من فى مكان النار ومن حول مكانها قالوا: ومكانها البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى : (نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة) وتدل على ذلك قراءة أبى (تباركت الأرض ومن حولها) واستظهر عموم من لكل (من) فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم السلام وكفاتهم أحياء او أمواتا ولاسيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيها ٥

وقيل : من فى النار موسى عليه السلام ومن حولها الملائكة الحاضرون عليهم السلام ،وأيد بقراءة أبى فيما نقل أبو عمرو الدانى. وابن عباس . ومجاهد . وعكرمة (ومن حولها من الملائكة) وهى عند كثير تفسير لاقراءة لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه ، وقيل : الأول الملائكة والثانى موسى عليهم السلام ، واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازا عن القرب التام ،وذهب الى القول الثانى فى المراد

Marfat.com

بالموصولين ، وأيا ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى عليه السلام ، والمراد بقوله تعالى على ما قيل : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨﴾ تعجيب له عليه السلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤن ، ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين أو خبر له عليه السلام بتنزيهه سبحانه لئلا يتوهم من سماع كلامه تعالى التشبيه بما للبشر أو طلب منه عليه السلام لذلك ٥

وجوز أن يكون تعجبا صادرا منه عليه السلام بتقدير القول أى وقال سبحان الله الخ ، وقال السدى : هو من كلام موسى عليه السلام قاله لما سمع النداء من الشجرة تنزيها لله تعالى عن سمات المحدثين ، وكأنه على تقدير القول أيضا ، وجعل المقدر عطفا على (نودى) . وقال ابن شجرة: هو من كلام الله تعالى ومعناه وبورك من سبح الله تعالى رب العالمين ، وهذا بعيد من دلالة اللفظ جدا ، وقيل : هو خطاب لنبينا ﷺ مراد به التنزيه وجعل معترضا بين ما تقدم وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩﴾ فانه متصل معنى بذلك والضمير للشأن ، وقوله سبحانه (أنا الله) مبتدأ وخبر و (العزيز الحكيم) نعتان للاسم الجليل ممهدتان لما أريد اظهاره على يده من المعجزة أى أنا الله القوى القادر على ما لا تناله الأوهام من الأمور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين ، والجملة خبر ان مفسرة لضمير الشأن ٥

وجوز ان يكون الضمير راجعا الى ما دل عليه الكلام وهو المكلم المنادى و(أنا) خبر أى ان مكلمك المنادى لك أنا ، والاسم الجليل عطف بيان لانا ، وتجوز البدلية عند من جوز ابدال الظاهر من ضمير المتكلم بدل كل ، ويجوز ان يكون (أنا) توكيدا للضمير و (الله) الخبر . وتعقب أبو حيان ارجاع الضمير المكلم المنادى بانه اذا حذف الفاعل وبنى فعله للمفعول لا يجوز عود ضمير على ذلك المحذوف لأنه نقض للغرض من حذفه والعزم على أن لا يكون محدثا عنه ، وفيه انه لم يقل أحد انه عائد على الفاعل المحذوف بل على ما دل عليه الكلام ولو سلم فلا امتناع فى ذلك اذا كان فى جملة أخرى ، وأيضا قوله والعزم على ان لا يكون محدثا عنه غير صحيح لانه قد يكون محدثا عنه ويحذف للعلم به وعدم الحاجة الى ذكره ، ثم ان الحمل مفيد من غير رؤية لأنه عليه السلام علمه سبحانه علم اليقين بما وقر فى قلبه فكأنه رآه عز وجل ، هذا وفى قوله تعالى : (أن بورك من فى النار) الخ أقوال أخر ، الاول ان المراد بمن فى النار نور الله تعالى وبمن حولها الملائكة عليهم السلام وروى ذلك عن قتادة . والزجاج ٥

والثانى ان المراد بمن فى النار الشجرة التى جعلها الله محلا للكلام وبمن حولها الملائكة عليهم السلام أيضا ونقل هذا عن الجبائى وفى ماذكر أطلاق (من) على غير العالم *

والثالث ما اخرجه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس . قال فى قوله تعالى : (أن بورك من فى النار) يعنى تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين فى الشجرة ومن حولها يعنى الملائكة عليهم السلام ، واشتهر عنه كون المراد بمن فى النار نفسه تعالى وهو مروى أيضا عن الحسن . وابن جبير . وغيرهما كما فى البحر . وتعقب ذلك الامام بأنا نقطع بأن هذه الرواية عن ابن عباس موضوعة مختلقة ٥

وقال أبو حيان: اذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف أى بورك من قدرته وسلطانه فى النار ، وذهب الشيخ ابراهيم الكورانى فى رسالته تنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول

Marfat.com

الى صحة الخبر عن الحبر رضى الله تعالى عنه وعدم احتياجه الى التأويل المذكور فان الذى دعا المؤولين أو الحاكمين بالوضع إلى التأويل أو الحكم بالوضع ظن دلالته على الحلول المستحيل عليه تعالى وليس كذلك بل ما يدل عليه هو ظهوره سبحانه فى النار وتجليه فيها وليس ذلك من الحلول فى شىء فان كون الشىء مجلى لشئ ليس كونه محلا له فان الظاهر فى المرآة مثلا خارج عن المرآة بذاته قطعا بخلاف الحال فى محل فانه حاصل فيه ثم إن تجليه تعالى وظهوره فى المظاهر يجامع التنزيه .ومعنى الآية عنده فلما جاءها نودى أن بورك أى قدس أو نحو ذلك من تجلى وظهر فى صورة النار لما اقتضته الحكمة لكونها مطلوبة لموسى عليه السلام ومن حولها من الملائكة أو منهم ومن موسى عليهم السلام ، وقوله تعالى (وسبحان الله) دفع لما يتوهم التجلى فى مظهر النار من التشبيه أى وسبحان الله عن التقيد بالصورة والمكان والجهة وإن ظهر فيها بمقتضى الحكمة لكونه موصوفا بصفة رب العالمين الواسع القدوس الغنى عن العالمين ومن هو كذلك لا يتقيد بشئ من صفات المحدثات بل هو جل وعلا باق على إطلاقه حتى عن قيد الاطلاق فى حال تجليه وظهوره فيما شاء من المظاهر *

ولهذا ورد فى الحديث الصحيح «سبحانك حيث كنت» فاثبت له تعالى التجلى فى الحيث ونزهه عن أن يتقيد بذلك «ياموسى» إنه أى المنادى المتجلى فى النار (أنا الله العزيز) فلا أتقيد بمظهر للعزة الذاتية لكنى الحكيم ومقتضى الحكمة الظهور فى صورة مطلوبك. وذكر أن تقدير المضاف كما فعل بعض المفسرين عدول عن الظاهر لظن المحذور فيه.وقد تبين أن لا محذور فلا حاجة إلى العدول انتهى ، وكأنى بك تقول : هذا طور ما وراء طور العقول .ثم إنه لا مانع على أصول الصوفية أن يريدوا بمن حولها الله عز وجل أيضا إذ ليس فى الدار عندهم غيره سبحانه ديار. ولا بعد فى أن تكون الآية عند ابن عباس إن صح عنه ما ذكر من المتشابه والمذاهب فيه معلومة عندك. والأوفق بالعامة التأويل بأن يقال : المراد أن بورك من ظهر نوره فى النار *

ولعل فى خبر الحبر السابق ما يشير اليه .وإضافة النور اليه تعالى لتشريف المضاف وهو نور خاص كان مظهرا لعظيم قدرته تعالى وعظمته . وسمعت من بعض أجلة المشايخ يقول: إن هذا النور لم يكن عينا ولا غيراً على نحو قول الاشعرى فى صفاته عز وجل الذاتية وهو أيضا منزع صوفى يرجع بالآخرة إلى حديث التجلى والظهور كما لا يخفى فتأمل *

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على «بورك» منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن الق عصاك . ويدل عليه قوله تعالى: (وان الق عصاك) بعد قوله سبحانه: (أن يامومى إنى أنا الله) بتكرير أن فان القرآن يفسر بعضه بعضا وهذا مااختاره الزمخشرى .وأورد عليه أن تجديد النداء فى قوله تعالى (ياموسى) الخ يأباه. ورد بأنه ليس بتجديد نداء لأنه من جملة تفسير النداء المذكور ، وقيل : لا يأباه لأنه جملة معترضة وفيه بحث ، واعترض أيضا بأن «بورك» اخبار «والق» إنشاء ولا يعطف الانشاء على الاخبار ،ومن هنا قيل: إن العطف على ذلك بتقدير وقيل له : الق أو العطف على مقدر أى افعل ما آمرك والق ،وفيه إنه فى مثل هذا يجوز عطف الانشاء على الاخبار لكون النداء فى معنى القول بل أجاز سيبويه جاء زيد ومن عمرو بالعطف *

ولا يرد هذا أصلا على من يجعل «بورك» انشاء ،ويرد على من جعل العطف على أفعل محذوفا أن الظاهر حينئذ فالق بالفاء ، واختار أبو حيان كون العطف على جملة (إنه أنا الله العزيز الحكيم) ولم يبال باختلاف

Marfat.com

الجملتين اسمية وفعلية واخبارية وانشائية لما ذكر أن الصحيح عدم اشتراط تناسب الجملتين المتعاطفتين فى ذلك لما سمعت آنفا عن سيبويه ، والفا فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقه بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل: فالقاها فانقلبت حية فلما أبصرها تتحرك بشدة اضطراب، وجملة (تهتز) فى موضع الحال من مفعول رأى فانها بصرية كما أشرنا اليه لا علمية كما قيل *

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ فى موضع حال أخرى منه أو هو حال من ضمير (تهتز) على طريقة التداخل، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة شبهها سبحانه فى شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها بصغار الحيات السريعة الحركة فلا ينافى هذا قوله تعالى فى موضع آخر : (فاذا هى ثعبان مبين) *

وقيل : يجوز أن يكون الاخبار عنها بصفات مختلفة باعتبار تنقلها فيها ، وقرأ الحسن . والزهرى . وعمرو بن عبيد : (جأن) بهمزة مفتوحة هربا من التقاء الساكنين وإن كان على حده كما قيل : دابة وشأبة *

﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ أى انهزم ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى ولم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار قال الشاعر :

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

وهذا مروى عن مجاهد ، وقريب منه قول قتادة: أى لم يلتفت وهو الذى ذكره الراغب ، وكان ذلك منه عليه السلام لخوف لحقه ، قيل : لمقتضى البشرية فان الانسان إذا رأى أمرا هائلا جدا يخاف طبعا أو لما أنه ظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به ، ويدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ يَامُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ أى من غيرى أى مخلوق كان حية أو غيرها ثقة بى واعتمادا على أو لاتخف مطلقا على تنزيل الفعل منزلة اللازم، وهذا إما لمجرد الايناس دون إرادة حقيقة النهى وإما للنهى عن منشأ الخوف وهو الظن الذى سمعته ، وقوله تعالى :

﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ ١٠ ﴾ تعليل للنهى عن الخوف، وهو على ماقيل يؤيد أن الخوف كان للظن المذكور وأن المراد (لاتخف) مطلقا ، والمراد من (لدى) فى حضرة القرب منى وذلك حين الوحى * والمعنى أن الشأن لاينبغى للمرسلين أن يخافوا حين الوحى اليهم بل لايخطر ببالهم الخوف وإن وجد ما يخاف منه لفرط استغراقهم إلى تلقى الأوامر وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت، والتقييد بلدى لأن المرسلين فى سائر الأحيان أخوف الناس من الله عز وجل فقد قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولا أعلم منهم بالله تعالى شأنه ، وقيل : المعنى لاتخف من غيرى أو لاتخف مطلقا فان الذى ينبغى أن يخاف منه أمثالك المرسلون إنما هو سوء العاقبة وأن الشأن لايكون للمرسلين عندى سوء عاقبة ليخافوا منه * والمراد بسوء العاقبة مافى الآخرة لامافى الدنيا لئلا يرد قتل بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، والمراد بلدى على ماقال الخفاجى : عند لقائى وفى حكمى على ماقال ابن الشيخ ، وأياما كان يلزم مما ذكر أن المرسلين عليهم السلام لايخافون سوء العاقبة لأن الله تعالى آمنهم من ذلك فلو خافوا لزم أن لا يكونوا واثقين به عز وجل وهذا هو الصحيح كما فى الحواشى الشهابية عند الأشعرى، وظاهر الآثار يقتضى أنهم عليهم السلام كانوا يخافون ذلك ، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يكثر أن يقول: «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك

Marfat.com

فقالت له عائشة رضى الله تعالى عنها يوما : يارسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى ؟فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : وما يؤمننى ياعائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن إذا أراد يقلب قلب عبده» وظاهر بعض الآيات يقتضى ذلك أيضا مثل قوله تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وكون الله تعالى آمنهم من ذلك إن أريد به ماجاء فى ضمن تبشيرهم بالجنة فقد صح أن المبشرين بالجنة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يخافون من سوء العاقبة مع علمهم ببشارته تعالى إياهم بالجنة،ويعلم منه أن الخوف يجتمع مع البشارة، ولا يلزم من ذلك عدم الوثوق به عز وجل لأنه لاحتمال أن يكون هناك شرط لم يظهره الله تعالى لهم للابتلاء ونحوه من الحكم الالهية ،وإن أريد به ماكان بصريح امنتكم من سوء العاقبة كان هذا الاحتمال قائما أيضا فيه ويحصل الخوف من ذلك ،وإن أريد به ماقتضاه جعله تعالى إياهم معصومين من الكفر ونحوه ورد أن الملائكة عليهم السلام جعلهم الله تعالى معصومين من ذلك أيضا وهم يخافون *

فى الأثر لما مكر بابليس بكى جبرائيل . وميكائيل عليهما السلام فقال الله عزوجل لهما : مايبكيكما ؟قالا : يارب مانأمن مكرك فقال تعالى : هكذا كونا لاتأمنا مكرى ، ولعل ذلك لأن العصمة عندنا على مايقتضيه أصل استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء كما فى المواقف وشرحه الشريف أن لايخلق الله تعالى فى الشخص ذنبا ، وعند الحكماء بناء على ماذهبوا اليه من القول بالايجاب واعتبار استعداد القوابل ملكة تمنع الفجور وتحصل ابتداء بالعلم بمثالب المعاصى ومناقب الطاعات وتتأكد بتتابع الوحى بالأوامر والنواهى وهى بكلا المعنيين لاتقتضى استحالة الذنب ، أما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الأول فلأن عدم خلقه تعالى إياه ليس بواجب عليه سبحانه ليكون خلقه مستحيلا عليه تعالى ومتى لم يكن الخلق مستحيلا عليه تعالى فكيف يحصل الامن من المكر ، وأما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الثانى فلأن زوال تلك الملكة ممكن أيضا واقتضاء العلم بالمثالب والمناقب إياها ابتداء وتأكدها بتتابع الوحى ليس من الضرورات العقلية ومتى كان الأمر كذلك لا يحصل الامن بمجرد حصول الملكة ، نعم قال قوم : العصمة تكون خاصية فى نفس الشخص أو فى بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه ، وقد يستند اليه من يقول بالأمن ، ولايخفى أنه لو سلم تمام الاستدلال به على هذا المطلب فهو فى حد ذاته غير صحيح *

فى المواقف وشرحه أنه يكذب هذا القول أنه لو كان صدور الذنب ممتنعا لما استحق النبى عليه الصلاة والسلام المدح بترك الذنب إذ لامدح بترك ماهو ممتنع لأنه ليس بمقدور داخلا تحت الاختيار ، وأيضا فالاجماع على أن الأنبياء عليهم السلام مكلفون بترك الذنوب مثابون به ولو كان صدور الذنب ممتنعا عنهم لما كان الأمر كذلك ، وأيضا فقوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) يدل على مماثلتهم عليهم السلام لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحى فلايمتنح صدور الذنب عنهم كما لايمتنع صدوره عن سائر البشر اه ،وذكر الخفاجى فى شرح الشفاء عن ابن الهمام أنه قال فى التحرير :العصمة عدم القدرة على المعصية وخلق مانع عنها غير ملجىء ، ثم قال:وهو مناسب لقول الماتريدى العصمة لاتزيل المحنة أى الابتلاء المقتضى لبقاء الاختيار ، ومعناه كما فى الهداية أنها لاتجبره على الطاعة ولاتعجزه عن المعصية بل هى لطف من

Marfat.com

الله تعالى تحمله على فعله وتزجره عن الشر مع بقاء الاختيار وتحقيق للابتلاء ، وهو ظاهر على عدم الاستحالة الذاتية لصدور الذنب ، ولعل ما وقع فى كلام بعض الأجلة من استحالة وقوع الذنب منهم عليهم السلام محمول على الاستحالة الشرعية كما يؤذن به كلام العلامة ابن حجر فى شرح الهمزية ، وبالجملة الذى تقتضيه الظواهر ويشهد له العقل أن الأنبياء عليهم يخافون ولا يأمنون مكر الله تعالى لأنه وإن استحال صدور الذنب عنهم شرعا لكنه غير مستحيل عقلا بل هو من الممكنات التى يصح تعلق قدرة الله تعالى بها ومع ملاحظة امكانه الذاتى وأن الله تعالى لا يجب عليه شىء وقيام احتمال تقييد المطاق بما لم يصرح به لحكمة كالمشيئة لا يكاد يأمن معصوم من مكر الملك الحى القيوم فالأنبياء والملائكة كلهم خائفون ومن خشيته سبحانه عز وجل مشفقون ، وليس لك أن تخص خوفهم بخوف الاجلال إذ الظاهر العموم ولا دليل على الخصوص يعول عليه عند فحول الرجال ، نعم قد يقال بامكان حصول الامن من المكر وذلك بخلق الله تعالى علما ضروريا فى العبد بعدم تحقق ما يخاف منه فى وقت من الأوقات أصلا لعلم الله تعالى عدم تحققه كذلك وإن كان ممكنا ذاتيا ، ولعله يحصل لأهل الجنة لتتم لذتهم فيها فقد قيل :

فان شئت ان تحيا حياة هنية فلا تتخذ شيئا تخاف له فقدا

ولا يبعد حصوله لمن شاء الله تعالى من عباده يوم القيامة قبل دخولها أيضا ، ولم تقم أمارة عندى على حصوله فى هذه النشأة لأحد والله تعالى أعلم فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ، وروى الامام عن بعضهم أنه قال معنى الآية : إنى إذا أمرت المرسلين باظهار معجز فينبغى أن لا يخافوا فيما يتعلق باظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة ، وقوله تعالى :﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١﴾ الاستثناء فيه منقطع عند كثير إلا أنه روى عن الفراء . والزجاج . وغيرهما أن المراد بمن ظلم من أذنب من غير الأنبياء عليهم السلام ، قال صاحب المطلع : والمعنى عليه لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فانى أغفر له ، وقال جماعة : إن المراد به من فرطت منه صغيرة ما وصدر منه خلاف الأولى بالنسبة إلى شأنه من المرسلين عليهم السلام والمراد استدراك ما يختلج فى الصدر من نفى الخوف عن كلهم وفيهم من صدر منه ذلك ، والمعنى عليه لكن من صدر منهم ما هو فى صورة الظلم ثم تاب فانى أغفر له فلا ينبغى أن يخاف أيضا ، وهو شامل على ما قيل لمن فعل منهم شيئا من ذلك قبل رسالته ، وخصه بعضهم بمن صدر منه شىء من ذلك قبل النبوة وقال : يؤيده لفظة (ثم) فانها ظاهرة فى التراخى الزمانى ، ولعل الظاهر كونه خاصا بمن صدر منه بعد الرسالة لظهور المرسل فى المتلبس بالرسالة لا فيمن يتلبس بها بعد أو الأعم ، وكأن فيما ذكر على الوجهين الأولين تعريضا بما وقع من موسى عليه السلام من وكزه القبطى واستغفاره ، وتسميته ظلما مشاكلة لقوله عليه السلام ظلمت نفسى ، ولم يجعلوه على هذا متصلا مع دخول المستثنى فى المستثنى منه أعنى المرسلين مطلقا لأنه لو كان متصلا لزم إثبات الخوف لمن فرطت منه صغيرة ما منهم لاستثنائه من الحكم وهو نفى الخوف عنهم ونفى النفى إثبات وذلك خلاف المراد فلا يكون متصلا بل هو شروع فى حكم آخر *

ورجح الطيبى ما قاله الجماعة بأن مقام تلقى الرسالة وابتداء المكالمة مع الكليم يقتضى إزالة الخوف بالكلية وهو ظاهر على ما قالوه ، وروى عن الحسن . ومقاتل . وابن جريج . والضحاك ما يقتضى أنه استثناء متصل

Marfat.com

والظاهر أنهم أرادوا بمن من أراده الجماعة ؛ وفى اتصاله على ماسمعت خفاء .وربما يقال:إن من يطلق الاتصال عليه فى رأى الجماعة يكتفى فى الاتصال بمجرد كون المستثنى من جنس المستثنى منه فان كفى فذاك وإلا يلتزم إثبات الخوف ويجعل «بدل» عطفا على مستأنف محذوف كأنه قيل: إلا من فرطت منه صغيرة فانه يخاف فمن فرط ثم تاب غفر له فلا يخاف .وحاصله إلا من ظلم فانه يخاف أولا ويزول عنه الخوف بالتوبة آخراً ، وعن الفراء فى رواية أخرى عنه أنه استثناء متصل من جملة محذوفة والتقدير وإنما يخاف غيرهم إلا من ظلم.ورده النحاس بأن الاستثناء من محذوف لا يجوز ولو جاز هذا الجاز أن يقال : لا تضرب القوم إلا زيدا على معنى وإنما اضرب غيرهم إلا زيدا وهذا ضد البيان والمجىء بما لا يعرف معناه انتهى وهو كما قال.ولا يجدى نفعا القول باعتبار مفهوم المخالفة.وقالت فرقة: إن إلا بمعنى الواو والتقدير ولا من ظلم الخ ٭

وتعقبه فى البحر بأنه ليس بشئ للمباينة التامة بين إلا والواو فلا تقع أحداهما موقع الاخرى. وحسن الظن يجوز أنهم لم يصرحوا بكون إلا بمعنى الواو وإنما فهم من نسبه اليهم من تقديرهم وهو يحتمل أن يكون تقدير معنى لااعراب فلا تغفل ،والظاهر انقطاع الاستثناء ، ولعل الأوفق بشأن المرسلين أن يراد بمن ظلم من ارتكب ذنبا كبيراً أو صغيرا من غيرهم، و«ثم» يحتمل أن تكون للتراخى الزمانى فتفيد الآية المغفرة لمن بدل على الفور من باب أولى ،ويحتمل أن تكون للتراخى الرتبى وهو ظاهر بين الظلم والتبديل المذكور.والتبديل قد يتعدى إلى مفعولين بنفسه نحو (بدلناهم جلودا غيرها)وقد يتعدى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بالباء أو بمن وهو المذهوب به والمبدل منه نحو بدله بخوفه أو من خوفه أمنا وقد يتعدى إلى واحد نحو بدلت الشىء أى غيرته .«ومنه» فمن بدله بعدماسمعه والمعنى هنا على المتعدى الى مفعولين .وقد تعدى إلى أحدهما وهو المبدل منه بالباء أو بمن فكأنه قيل: ثم بدل بظلمه أو من ظلمه حسنا .ويشير اليه قوله تعالى: (بعدسوء) وحاصله ثم ترك الظلم وأتى بحسن ، والمراد به التوبة. فيكون المعنى فى الآخرة إلا من ظلم ثم تاب وعدل عنه إلى مافى النظم الجليل لأنه أوفق بمقام الايناس كذا قيل ، والظاهر عليه أن إسناد التبديل إلى من ظلم حقيقى، وقيل: ان المعنى ثم رفع الظلم والسوء ومحاه من صحيفة أعماله ووضع مكانه الحسن بسبب توبته نظير ما فى قوله تعالى: (يبدل الله سيآتهم حسنات) ،واسناد التبديل الى من ظلم على هذا مجازى لأنه سبب لتبديل الله تعالى له بتوبته، وكأنى بك تختار الأول،ومحل «من» على كل من تقديرى انقطاع الاستثنا.واتصاله ظاهر. والظاهر انها موصولة فى التقديرين. ولا يخفى إنها إذا اعتبرت منصوبة المحل على الاستثناء أو مرفوعته على البدل تكون جملة «فانى» الخ مستأنفة.ومن قدر فى الكلام محذوفا وعطف عليه «بدل»، وقال:التقدير من ظلم ثم بدل جعل الجملة خبر من ،وجوز بعضهم أن تكون شرطية وجملة «فانى» الخ جوابها فتأمل ولا تغفل . وقرأ أبو جعفر. وزيد بن أسلم (ألا من ظلم) بفتح الهمزة وتخفيف اللام على أن «ألا» حرف استفتاح .وجعل أبو حيان (من) على هذه القراءة شرطية ولا أراه واجبا . وقرأ محمد بن عيسى الاصبهانى «حسنى» على وزن فعلى ممنوع الصرف ٭ وقرأ ابن مقسم (حسنا) بضم الحاء والسين منونا ٭

وقرأ مجاهد . وأبو حيوة . وابن أبى على . والأعمش . وأبو عمرو فى رواية الجعفى . وعصمة . وعبد الوارث . وهرون . وعياش «حسنا» بفتح الحاء والسين مع التنوين ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أى جيب

Marfat.com

قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن لأنه مولد ، ولم يقل سبحانه: فى كمك لأنه عليه السلام كان لابسا إذ ذاك مدرعة من صوف لا كم لها ، وقيل : الجيب القميص نفسه لأنه يجاب أى يقطع فهو فعل بمعنى مفعول ، وقال السدى: (فى جيبك) أى تحت إبطك.

ولعل مراده أن المعنى أدخلها فى جيبك وضعها تحت ابطك، وكانت مدرعته عليه السلام على ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا أزرار لها ، وقد ورد فى بعض الآثار أن نبينا ﷺ كان مطلق القميص فى بعض الأوقات، ففى سنن أبى داود باب فى حل الأزرار ثم أخرج فيه من طريق معاوية بن قرة قال: حدثنى أبى قال : أتيت رسول الله ﷺ فى رهط من مزينة فبايعناه وان قميصه لمطلق ، وفى رواية البغوى فى معجم الصحابة لمطلق الأزرار قال: فبايعته ثم أدخلت يدى فى جيب قميصه فمسست الخاتم ، قال عروة فما رأيت معاوية ولا أباه قط إلا مطلقى أزرارهما، ولا يزرانها أبدا وجاء أيضا أنه عليه الصلاة والسلام أمر بزر الأزراره فقد أخرج الطبرانى عن زيد بن أبى أوفى «أن رسول الله ﷺ نظر إلى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فاذا أزراره محلولة فزرها رسول الله ﷺ بيده وقال: اجمع عطفى ردائك على نحرك» وفى هذين الأثرين ماهو ظاهر فى أن جيب القميص كان إذ ذاك على الصدر كما هو اليوم عند العرب .وهو يبطل القول بأنه خلاف السنة وأنه من شعائر اليهود ، وأمره تعالى إياه عليه السلام بادخال يده فى جيبه مع أنه سبحانه قادر على أن يجعلها بيضاء من غير إدخال للامتحان وله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء ، والظاهر أن قوله تعالى :

﴿ تَخْرُجْ ﴾ جواب الأمر لأن خروجها مترتب على ادخالها ، وقيل : فى الكلام حذف تقديره وأدخل يدك فى جيبك تدخل وأخرجها تخرج فحذف من الأول ماأثبت مقابله فى الثانى ومن الثانى ماأثبت مقابله فى الأول فيكون فى الكلام صنعة الاحتباك وهو تكلف لاحاجة اليه ، وقوله تعالى ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ حال وكذا قوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ وهو احتراس وقد تقدم الكلام فيه. وكذا قوله سبحانه ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَاتٍ ﴾ أى آية معدودة من جملة تسع ءايات أو معجزة لك معها على أن التسع هى الفلق.والطوفان.والجراد . والقمل. والضفادع.والدم.والطمسة وهى جعل أسبابهم حجارة.والجدب. فى بواديهم . والنقصان فى مزارعهم .ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الجدب والنقصان فى المزارع واحدا ولا يعد الفلق منها لأنه عليه السلام لم يبعث به الى فرعون وان تقدمه بيسير ،ومن عده يقول: يكفى معاينته له فى البعث به أو هو بعث به لمن ءامن من قومه ولمن تخلف من القبط ولم يؤمن ، وفى التقريب أن الطمسة . والجدب . والنقصان يرجع الى شئ واحد فالتسع هذا الواحد. والعصا.واليد.ومابقى من المذكورات .

وذهب صاحب الفرائد الى أن الجراد . والقمل واحد، والجدب . والنقصان واحد،وجوز أن يكون فى تسع منقطعا عماقبله متعلقا بمحذوف أى اذهب فى تسع ءايات.ويدل على ذلك قوله تعالى بعد : (فلما جاءتهم ءاياتنا) وفى بمعنى مع، ونظير هذا الحذف مافى قوله :

أتوا نارى فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
وقلت الى الطعام فقال منهم فريق يحسد الانس الطعاما

فان التقدير هلموا الى الطعام. ويتعلق بهذا المحذوف قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ وعلى ماتقدم يتعلق

Marfat.com

بمحذوف وقع حالا أى مبعوثا أو مرسلا إلى فرعون ، وأياما كان فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ١٢﴾ مستأنف استئنافا بيانيا كأنه قيل لم أرسلت اليهم بماذ كر؟ فقيل: إنهم الخ ، والمراد بالفسق إما الخروج عما ألزمهم الشرع اياه إن قلنا بأنهم قد أرسل قبل موسى عليه السلام من يازمهم اتباعه وهو يوسف عليه السلام ، وإما الخروج عما ألزمه العقل واقتضاء الفطرة ان قلنا بانه لم يرسل اليهم أحـــد قبله عليه السلام *

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ أى ظهرت لهم على يد موسى عليه السلام ، فالمجىء مجاز عن الظهور وإسناده إلى الآيات حقيق ، وقال بعض الأجلة : المجىء حقيقة واسناده إلى الآيات مجازى وهو حقيقة لموسى عليه السلام ولما بينهما من الملابسة لكونها معجزة له عليه السلام ساغ ذلك *

ولعل النكتة فى العدول عن- فلما جاءهم موسى بآياتنا- إلى ما فى النظم الجليل الاشارة إلى أن تلك الآيات خارجة عن طوقه عليه السلام كسائر المعجزات وأنه لم يكن له عليه السلام تصرف فى بعضها وكونه معجزة له لاخباره به ووقوعه بدعائه ونحوه ، ولا ينافى هذا الاسناد اليه لكونها جارية على يديه للاعجاز فى قوله سبحانه (فلما جاءهم موسى بآياتنا) فى محل ءاخر ، وقد بين بعضهم وجها لاختصاص كل منهما بمحله بأن ثمة ذكر مقاولته عليه السلام ومجادلتهم معه فناسب الاسناد اليه ، وهنا لما لم يكن كذلك ناسب الاسناد اليها لأن المقصود بيان جحودهم بها ، واضافة الآيات للعهد ، وفى اضافتها إلى ضمير العظمة مالا يخفى من تعظيم شأنها ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال من الآيات أى بينة واضحة ، وجعل الابصارلها وهو حقيقة لمتأمليها للملابسة بينها وبينهم لأنهم إنما يبصرون بسبب تاملهم فيها فالاسناد مجازى من باب الاسناد إلى السبب ، ويجوز أن يراد مبصرة كل من نظر اليها من العقلاء أو من فرعون وقومه لقوله تعالى: (واستيقنتها أنفسهم) أى جاعلته بصيرا من أبصره المتعدى بهمزة النقل من بصر والاسناد أيضا مجازى *

ويجوز أن تجعل الآيات كأنها تبصر فتهدى لأن العمى لا تقدر على الاهتداء فضلا أن تهدى غيرها فيكون فى الكلام استعارة مكنية تخييلية مرشحة ، قال فى الكشف : وهذا الوجه أبلغ ، وقيل . إن فاعلا أطلق للمفعول فالمجاز إما فى الطرف أوفى الاسناد فتأمل *

وقرأ قتادة . وعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهما (مبصرة) بفتح الميم والصاد على وزن مسبعة ، وأصل هذه الصيغة أن تصاغ فى الأكثر لمكان كثر فيه مبدأ الاشتقاق فلا يقال: مسبعة مثلا إلا لمكان يكثر فيه السباع لا لما فيه سبع واحد ثم تجوز بها عما هو سبب لكثرة الشىء وغلبته كقولهم : الولد مجبنة ومبخلة أى سبب لكثرة جبن الوالد وكثرة بخله وهو المراد هنا أى سببا لكثرة تبصر الناظرين فيها ، وقال أبو حيان: هو مصدر أقيم مقام الاسم وانتصب على الحال أيضا ﴿قَالُوا هَٰذَا﴾ أى الذى نراه أو نحوه ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ ١٣﴾ أى واضح سحريته على أن (مبين) من أبان اللازم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أى وكذبوا بها ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أى علمت علما يقينيا أنها ءايات من عند الله تعالى ، والاستيقان أبلغ من الايقان *

وفى البحر أن استفعل هنا بمعنى تفعل كاستكبر بمعنى تكبر ، والأبلغ أن تكون الواو للحال والجملة بعدها حالية إما بتقدير قد أو بدونها ﴿ظُلْمًا﴾ أى للآيات كقوله تعالى :(بما كانوا بآياتنا يظلمون) وقد ظلموا بها

Marfat.com

أى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا ، وقيل: ظلما لأنفسهم وليس بذاك ﴿وَعُلُوًّا﴾ أى ترفعا واستكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى: (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) وانتصابهما إما على العلية من (جحدوا) وهى على ماقيل باعتبار العاقبة والادعاء كما فى قوله :

* لدوا للموت وابنوا للخراب * واما على الحال من فاعله أى جحدوا بها ظالمين عالين ، ورجح الأول بانه أبلغ وأنسب بقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٤﴾ أى ماءال اليه فرعون وقومه من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للظالمين ، وإنما لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهود لدى كل بادو حاضر . وأدخل بعضهم فى العاقبة حالهم فى الآخرة من الاحراق والعذاب الأليم. وفى إقامة الظاهر مقام الضمير ذم لهم وتحذير لأمثالهم *

وقرأ عبدالله . وابن وثاب . والأعمش . وطلحة . وأبان بن تغلب (وعليا) بقلب الواو ياء وكسر العين واللام ، وأصله فعول لكنهم كسروا العين اتباعا ، وروى ضمها عن ابن وثاب . والأعمش . وطلحة *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه السلام تلقى القرآن من لدن حكيم عليم كقصة موسى عليه السلام، وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير ، وخصهما مقاتل بعلم القضاء ، وابن عطاء بالعلم بالله عز وجل ، ولعل الأولى ما ذكر أو علما سنيا غزيرا فالتنوين على الأول للتقليل وهو أوفق بكون القائل هو الله عز وجل فان كل علم عنده سبحانه قليل وعلى الثانى للتعظيم والتكثير ؛ وهو أوفق بامتنانه جل جلاله فانه سبحانه الملك العظيم فاللائق بشانه الامتنان بالعظيم الكثير فلكل وجهة ، وربما يرجح الثانى ، ومما ينبغى أن لا يلتفت اليه كون التنوين للنوعية أى نوعا من العلم والمراد به علم الكيمياء ﴿ وَقَالَا ﴾ أى قال كل منهما شكرا لما أوتيه من العلم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ١٥﴾ على أن عبارة كل منهما فضلنى إلا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازا ، وحكاية الاقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ، ومن ذلك قوله تعالى: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات) قيل وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو دون الفاء إذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمل كل منهما على إيتاء ما أوتى كل منهما لا على إيتاء ما أوتى نفسه فقط *

وتعقب بأنه إذا سلم ما ذكر فالعطف بالواو أيضا يتبادر معه كون حمد كل منهما على إيتاء ما أوتى كل منهما فما يمنع من ذلك مع الواو يمنع نحوه مع الفاء ، وقال العلامة الزمخشرى: عطف بالواو دون الفاء مع أن الظاهر العكس كما فى قولك: أعطيته فشكر إشعارا بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشىء من مواجبه فاضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال سبحانه :ولقد آتيناهما علما فعملا فيه وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا، وحاصله أن إيتاء العلم من جلائل النعم وفواضل المنح

Marfat.com

يستدعى إحداث الشكر أكثر مما ذكر فجىء بالواو لأنها تستدعى إضمارا فيضمر ما يقتضيه موجب الشكر من قوله: فعملا به وعلماه فانه شكرفعلى ،وقوله :وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة فانه شكر قلبي ، وبقوله تعالى (وقالا) الخ تتم أنواع الشكر لأنه شكر لسانى ،وفى الطى إيماء بأن المطوى جاوز حد الاحصاء ،ويعلم مما ذكر أن هذا الوجه لاختيار العطف بالواو أولى مما ذهب اليه السكاكى من تفويض الترتب إلى العقل لأن المقام يستدعى الشكر البالغ وهو ما يستوعب الانواع وعلى ماذهب اليه يكون بنوع القولى منهاوحده،وهو أولى مما قيل أيضا: إنه لم يعطف بالفاء لأن الحمد على نعم عظيمة من جملتها العلم ولو عطف بالفاء لكان الحمد عليه فقط لأن السياق ظاهر فى أن الحمد عليه لا على ما يدخل هو فى جملته ،وهل هناك على ما ذكره العلامة تقدير حقيقة أم لا قولان،ومن ذهب إلى الأول من يسمى هذه الواو الواو الفصيحة ، والظاهر أن المراد من الكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما عليهما السلام ، وقيل : ذاك ومن لم يؤت علما أصلا *

وتعقب بأنه يأباه تبيين الكثير بعباده تعالى المؤمنين فان خلوهم عن العلم بالمرة مما لايمكن، وفى تخصيصهما الكثير بالذكر إشارة إلى أن البعض مفضلون عليهما كذا قيل ،والمتبادرمن البعض القليل ، وفى الكشاف أن فى قوله تعالى (على كثير) أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير .وتعقب بأن فيه نظراً إذ يدل بالمفهوم على أنهما لم يفضلا على القليل فاما أن يفضل القليل عليهما أو يساوياه فلا بل يحتمل الأمرين *

ورده صاحب الكشف بأن الكثير لا يقابله القليل فى مثل هذا المقام بل يدل على أن حكم الأكثر بخلافه، ولما بعد تساوى الأكثر من حيث العادة لاسيما والأصل التفاوت حكم صاحب الكشاف بأنه يدل على أنه فضل عليهما أيضا كثيرعلى أن العرف طرح التساوى فى مثله عن الاعتبار وجعل التقابل بين المفضل والمفضل عليه ،ألا ترى أنهم إذا قالوا :لافضل من زيد فهم أنه أفضل من الكل انتهى *

وفى الآية أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن فى عباد الله تعالى من يفضلهم فى العلم ،ونعم ماقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حين نهى على المنبر عن التغالى فى المهور فاعترضت عليه عجوز بقوله تعالى : (وآتيتم إحداهن قنطارا) الآية: كل الناس أفقه من عمر، وفيه من جبر قلب العجوز وفتح باب الاجتهاد مافيه، وجعل الشيعة له من المثالب من أعظم المثالب وأعجب العجائب .ولعل فى الآية إشارة إلى جواز أن يقول العالم: أنا عالم . وقد قال ذلك جملة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم منهم أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه. وعبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وماشاع من حديث «من قال أنا عالم فهو جاهل» إنما يعرف من كلام يحيى ابن أبى كثير موقوفا عليه على ضعف فى إسناده،ويحيى هذا من صغار التابعين فانه رأى أنس بن مالك وحده، وقدوهم بعض الرواة فرفعه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،وتحقيقه فى أعذب المناهل للجلال السيوطى *

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أى قام مقامه فى النبوة والملك وصار نبيا ملكا بعد موت أبيه داود عليهما السلام فوراثته إياه مجاز عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته ، وقيل : المراد وراثة النبوة فقط ، وقيل : وراثة الملك فقط ، وعن الحسن ونسبه الطبرسى إلى أئمة أهل البيت أنها وراثة المال ، وتعقب بأنه قد صح «نحن

Marfat.com

معاشر الأنبياء لانورث» وقد ذكره الصديق والفاروق رضى الله تعالى عنهما بحضرة جمع من الصحابة وهم الذين لايخافون فى الله تعالى لومة لائم ولم ينكره أحد منهم عليهما ٠

وأخرج أبو داود . والترمذى عن أبى الدرداء قال: «سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: إن العلماء ورثة الأنبياء وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» وروى محمد بن يعقوب الرازى فى الكافى عن أبى البحترى عن أبى عبد الله جعفر الصادق أنه قال ذلك أيضا ، ومما يدل على أن هذه الوراثة ليست وراثة المال ماروى الكلينى عن أبى عبدالله أن سليمان ورث داود وأن محمدا ورث سليمان صلى الله تعالى عليه وسلم، وأيضا وراثة المال لاتختص بسليمان عليه السلام فانه كان لداود عدة أولاد غيره كما رواه الكلينى عنه أيضا، وذكر غيره أنه عليه السلام توفى عن تسعة عشر ابنا فالاخبار بها عن سليمان ليس فيه كثير نفع وان كان المراد الاخبار بما يلزمها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام فما الداعى للعدول عما يفيده من غير خفاء مثل وقال سليمان بعد موت أبيه داود «ياأيها الناس» الخ ٠

وأيضا السياق والسباق يأبيان أن يكون المراد وراثة المال كما لايخفى على منصف ، والظاهر أن الرواية عن الحسن غير ثابتة وكذا الرواية عن أئمة أهل البيت رضى الله تعالى عنهم ،فقد سمعت فى رواية الكلينى عن الصادق رضى الله تعالى عنه ماينافى ثبوتها ،ووراثة غير المال شائعة فى الكتاب الكريم فقد قال عز من قائل: (ثم أورثنا الكتاب) ، وقال سبحانه : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب) ولا يضر تفاوت القرينة فافهم٠

وكان عمره يوم توفى داود عليهما السلام اثنتى عشرة سنة أو ثلاث عشرة وكان داود قد أوصى له بالملك فلما توفى ،ملك وعمره ماذكر ، وقيل : ان داود عليه السلام ولاه على بنى اسرائيل فى حياته حكاه فى البحر ٠

﴿ وَقَالَ ﴾ تشهيرا لنعمة الله تعالى وتعظيما لقدرها ودعاء للناس الى التصديق بنبوته بذكر المعجزات الباهرات التى أوتيها لا افتخارا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الظاهر عمومه جميع الناس الذين يمكن عادة مخاطبتهم ٠

وقال بعض الأجلة : المراد به رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم ،والتعبير عنهم بما ذكر للتغليب ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى أنه قال: الناس عندنا أهل العلم ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أى نطقه وهو فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا أو مركبا ، وقد يطلق على كل مايصوت به على سبيل الاستعارة المصرحة ، ويجوز أن يعتبر تشبيه المصوت بالانسان ويكون هناك استعارة بالكناية واثبات النطق تخييلا ، وقيل يجوز أيضا أن يراد بالنطق مطلق الصوت على أنه مجاز مرسل وليس بذاك٠

ويحتمل الأوجه الثلاثة قوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وقد يطلق على ذلك للدشا كلة كما فى قولهم : الناطق والصامت للحيوان والجماد ، والذى علمه عليه السلام من منطق الطير هو على ما قيل مايفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ، ويحكى أنه عليه السلام مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون مايقول ؟ قالوا : الله تعالى ونبيه أعلم قال :يقول أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فاخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا ،وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان،وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله تعالى يامذنبون، وصاح طيطوى فقال: يقول كل حى ميت وكل جديد

Marfat.com

بال ، وصاح خطاف فقال : يقول قدموا خيرا تجدوه ، وصاحت رخمة فقال : تقول سبحان ربى الأعلى مل‌ء سمائه وأرضه ، وصاح قمرى فاخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى ، وقال الحدأ : يقول كل شىء هالك إلا الله تعالى ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء يقول : ويل لمن الدنيا همه ؛ والديك يقول : اذكروا الله تعالى ياغافلون . والنسر يقول : ياابن آدم عش ماشئت آخرك الموت . والعقاب يقول : فى البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . والقنبرة تقول : اللهم العن مبغض محمد وآل محمد ، والزرزور يقول : اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق . والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى انتهى . ونظم الضفدع فى سلك المذكورات من الطير ليس فى محله ، ومع هذا الله تعالى أعلم بصحة هذه الحكاية . وقيل : كانت الطير تكلمه عليه السلام معجزة له نحو ماوقع من الهدهد فى القصة الآتية . وقيل : علم عليه السلام ماتقصده الطير فى أصواتها فى سائر أحوالها فيفهم تسبيحها ووعظها وماتخاطبه به عليه السلام ومايخاطب به بعضها بعضا . وبالجملة علم من منطقها ماعلم الانسان من منطق بنى صنفه ، ولايستبعد أن يكون للطير نفوس ناطقة ولغات مخصوصة تؤدى بها مقاصدها كما فى نوع الانسان إلا أن النفوس الانسانية أقوى وأكمل ، ولا يبعد أن تكون متفاوتة تفاوت النفوس الانسانية الذى قال به من قال *

ويجوز أن يعلم الله تعالى منطقها من شاء من عباده ولايختص ذلك بالأنبياء عليهم السلام ، ويجرى ماذكرناه فى سائر الحيوانات . وذهب بعض الناس إلى أن سليمان عليه السلام علم منطقها أيضا إلا أنه نص على الطير لأنها كانت جنداً من جنوده يحتاج اليها فى التظليل من الشمس وفى البعث فى الأمور ، ولايخفى أن الآية لا تدل على ذلك فيحتاج القول به إلى نقل صحيح ، وزعم بعضهم أنه عليه السلام علم أيضا منطق النبات فكان يمر على الشجرة فتذكر له منافعها ومضارها . ولم أجد فى ذلك خبرا صحيحا . وكثير من الحكماء من يعرف خواص النبات بلونه وهيئته وطعمه وغير ذلك . ولايحتاج فى معرفتها إلى نطقه بلسان المقال . والضمير فى (علمنا . وأوتينا) قيل : له ولأبيه عليهما السلام وهو خلاف الظاهر . والأولى كونه له عليه السلام . ولما كان ملكا مطاعا خاطب رعيته على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة من التمهيد لما يراد من الرعية من الطاعة والانقياد فى الأوامر والنواهى ولم يكن ذلك تعاظما وتكبراً منه عليه السلام ، ومراعاة قواعد السياسة للتوصل بها إلى مافيه رضا الله عز وجل من الأمور المهمة *

وقد أمر نبينا ﷺ العباس بحبس أبى سفيان حتى تمر عليه الكتائب يوم الفتح لذلك ، و (كل) فى الأصل للاحاطة وترد للتكثير كثيراً نحو قولك : فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شىء وهى كناية فى ذلك أو مجاز مشهور . وهذا المعنى هو المراد هنا إذا جعلت (من) صلة وهو المناسب لمقام التحدث بالنعم ، وإن لم تجعل صلة فهى على أصلها فيما قيل . وأنت تعلم أنه لايتسنى ذلك إلا إذا أريد الكل المجموعى وهو كما ترى *

وفى البحر أن قوله تعالى (علمنا منطق الطير) اشارة الى النبوة . وقوله سبحانه : ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ﴾ اشارة الى الملك . والجملتان كالشرح للميراث . وعن مقاتل أنه أريد بما أوتيه النبوة . والملك . وتسخير الجن والانس والشياطين والريح . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو مايهمه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة . وقد يقال : إنه مايحتاجه الملك من آلات الحرب وغيرها ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ إشارة الى ماذكر من

Marfat.com

التعليم والايتاء ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ﴾ والاحسان من الله تعالى ﴿الْمُبِينُ ١٦﴾ الواضح الذى لا يخفى على أحد أو ان هذا الفضل الذى أوتيته لهو الفضل المبين . فيكون من كلامه عليه السلام قطعا ذيل به ماتقدم منه ليدل على أنه انما قال ما قال على سبيل الشكر كما قال ﷺ :«أنا سيد ولد آدم ولا فخر» بالراء المهملة آخره كما فى الرواية المشهورة أى أقول هذا القول شكراً لا فخرا. ويقرب من هذا المعنى ولا فخز بالزاى كما فى الرواية الغير المشهورة ●

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أى جمع له عساكره من الأماكن المختلفة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ بيان للجنود كما فى البحر وغيره . ولا يلزم من ذلك أن يكون الجنود المحشورون له عليه السلام جميع الجن وجميع الانس وجميع الطير اذ يأبى ذلك مع قطع النظر عن العقل قصة بلقيس الآتية بعد ، وكذا قصة الهدهد ●

ونقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كل صنف من الطير واحد وهو نص فى أن المحشور ليس جميع الطير . ولا يكاد يصح ارادة الجميع فى الجميع على ما ذكره الامام فى الآية أيضا وهو أن المعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده لأنه وان لم يستدع الحضور والاجتماع فى موضع واحد بل يكفى فيه مجرد الانقياد والدخول فى حيطة تصرفه والاتباع له حيث كانوا لا باء قصة بلقيس أيضا عنه فان المناسب الاخبار بهذا الجعل بعد الاخبار بدخولها ومن معها فى حيطة تصرفه ●

والظاهر ان هذا الحشر ليس الا جمع العساكر ليذهب بهم الى محاربة من لم يدخل فى ربقة طاعته عليه السلام . وكونه ليذهب بهم الى مكة شكرا على ماوفق له من بناء بيت المقدس خلاف الظاهر . لكن اذا صح فيه خبر قبل، وأن المجموع من الأنواع المذكورة مايليق بشأنه وأبهته وعظمته سواء جعلت (من) بيانية أو تبعيضية . وكونه عليه السلام أحد المؤمنين الذين ملكا المعمورة باسرها اذا سلمنا صحة الخبر الدال عليه وسلامته من المعارض وانه نص فى المطلوب لا يستدعى سوى دخول سكان المعمورة فى عداد رعيته وحيطة ملكته وليس ذلك دفعيا بل هو ان صح كان بحسب التدريج . وقد ذكر بعض المؤرخين أن بلقيس انما دخلت تحت طاعته فى السنة الخامسة والعشرين من ملكه ،وكانت مدة ملكه عليه السلام أربعين سنة وكذا كانت مدة ملك أبيه داود عليهما السلام ●

والظاهر ان الحاشر لكل نوع من الانواع الثلاثة اشخاص منهم فيكون من كل نوع أشخاص مأمورون بذلك معدون له. ولا تستبعد ذلك فى الطير اذا كنت من المؤمنين بقصة الهدهد، ولا يلزمك التزام ماقاله الامام من ان الله تعالى جعل للطير عقلا فى أيام سليمان عليه السلام ولم يجعل لها ذلك فى أيامنا فما عليك بأس اذا قلت بانها على حالة واحدة اليوم وذلك اليوم . ولا نعنى بعقلها الا ماتهتدى به لاغراضها ، ووجود ذلك اليوم فيها وكذا فى غيرها من سائر الحيوانات مما لا ينكره الا مكابر ،وما علينا ان نقول: ان عقولها من حيث هى كعقول الانسان من حيث هى . ولعل فيها من يهتدى الى مالا يهتدى اليه الكثير من بنى آدم كالنحل ، ولعمرى انها لو كانت خالية من العقل كما يقال وفرض وجود العقل فيها لا أظن انها تصنع بعد وجوده أحسن مما تصنعه اليوم .وهى خالية منه ولا يجب ان يكون كل عاقل مكلفا فلتكن الطيور كسائر العقلاء الذين لم يبعث اليهم نبى يأمرهم وينهاهم ، ويجوز أيضا أن تكون عارفة بربها مؤمنة به جل وعلا من غير أن يبعث اليها نبى كمن ينشأ بشاهق جبل وحده ويكون مؤمنا بربه سبحانه بل كونها مؤمنة

Marfat.com

بالله تعالى مسبحة له وكذا سائر الحيوانات مما تشهد له ظواهر الآيات والاخبار، وقد قدمنا بعضا من ذلك وليس عندنا ما يجب له التأويل ، وبالغ بعضهم فزعم أنها مكلفة وفيها و كذا فى غيرها من الحيوانات أنبياء لهم شرائع خاصة واستدل عليه بما استدل والمشهور ا كفار من زعم ذلك . وقد نص على اكفاره جمع من الفقهاء ، وتخصيص الانواع الثلاثة بالذكر ظاهر فى أنه عليه السلام لم يسخر له الوحش. وفى خبر أخرجه الحاكم عن محمد بن كعب ماهو ظاهز فى تسخيره له عليه السلام أيضا ، وسنذكره قريبا ان شاء الله تعالى لكنه لا يعول عليه ، وتقديم الجن للمسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزة سلطانه من أول الامر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير .ولم يقدم الطير على الانس مع ان تسخيرها اشق أيضا وأدل على قوة الملك وعزة السلطان لئلا يفصل بين الجن والانس المتقابلين والمشتركين فى كثير من الاحكام ٥

وقيل فى تقديم الجن: ان مقام التسخير لا يخلو من تحقير وهو مناسب لهـــم وليس بشىء لان التسخير للانبياء عليهم السلام شرف لانه فى الحقيقة لله عز وجل الذى سخر كل شىء.واذا اعتبر فى نفسه فالتعليل بذلك غير مناسب للمقام ويكفى هذا فى عدم قبوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧ ﴾ أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم احد وذلك للكثرة العظيمة ، ويجوز ان يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر والاول أولى وفيه مع الدلالة على الكثرة والاشعار بكمال مسارعتهم الى السير الدلالة على انهم كانوا مسوسين غير مهملين لا يتأذى أحد بهم .وأصل الوزع الكف والمنع، ومنه قول عثمان رضى الله تعالى عنه : ما يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن .وقول الحسن لا لا بد للقاضى من وزعة، وقول الشاعر :

ومن لم يزعه لبـــه وحياؤه فليس له من شيب فوديه وازع

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع ان التلاحق يحصل بذلك ايضا لأن فى ذلك شفقة على الطائفتين، أما الاوائل فمن جهة ان يستريحوا فى الجـــلة بالوقوف عن السير ،وأما الاواخر فمن جهة ان لا يجهدوا أنفسهم بسرعة السير ، وقيل: ان ذلك لما ان أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع ، وأخرج الطبرانى ، والطستى فى مسائله عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه يحبس اولهم على آخرهم حتى تنام الطير والله تعالى أعلم بصحة الخبر .والظاهر ان هذا الوزع اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو ، والاخبار فى قصته عليه السلام كثيرة ٥

فقد أخرج ابن ابى حاتم عن سعيد بن جبير قال . كان يوضع لسليمان ثلاثمائة ألف كرسى فيجلس مؤمنى الانس مما يليه ومؤمنى الجن من ورائهم ثم يأمر الطير فتظله ثم يأمر الريح فتحمله فيمرون على السنبلة فلا يحركونها ، واخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال . بلغنا ان سليمان عليه السلام كان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للانس . وخمسة وعشرون للجن .وخمسة وعشرون للوحش .وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به . وأوحى الله عز وجل اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدتك فى ملكك انه لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء الا جاءت به الريح اليك وألقته فى سمعك . ويروى ان الجن نسجت له

Marfat.com

عليه السلام بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ ومنبره فى وسطه من ذهب فيصعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فتقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ●

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد . وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : مر سليمان عليه السلام وهو فى ملكه وقد حملته الريح على رجل حراث من بنى اسرائيل فلما رآه قال : سبحان الله لقد أوتى آل داود ملكا فحملتها الريح فوضعتها فى أذنه فقال : ائتونى بالرجل قال : ماذا قلت ؟ فاخبره فقال سليمان : إنى خشيت عليك الفتنة لثواب سبحان الله عند الله يوم القيامة أعظم مما رأيت ال داود أوتوا فقال الحراث أذهب الله تعالى همك كما أذهبت همى . وفى بعض الروايات أنه عليه السلام نزل ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود، وأكثر الاخبار فى هذا الشأن لا يعول عليها فعليك بالايمان بما نطق به القرآن ودلت عليه الاخبار الصحيحة وإياك من الانتصار لما لا صحة له مما يذكره كثير من القصاص والمؤرخين مما فيه مبالغات شنيعة بمجرد أنها أمور ممكنة يصح تعلق قدرته عز وجل بها فتفتح بذلك باب السخرية بالدين والعياذ بالله تعالى، ولا يبعد أن يكون أكثر ماتضمن مثل ذلك من وضع الزنادقة يريدون به التنفير عن دين الاسلام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هى غاية لما قبلها وهى ههنا غاية لما ينبىء عنه قوله تعالى: (فهم يوزعون) من السير كأنه قيل: فساروا حتى إذا أتوا الخ ،ووادى النمل واد بأرض الشام كثير النمل على ماروى عن قتادة ومقاتل ، وقال كعب : هو وادى السدير من أرض الطائف ، وقيل:واد باقصى اليمن وهو معروف عند العرب مذكور فى أشعارها ، وقيل : هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وهذا عندى مما لا يلتفت اليه ●

وتعدية الفعل اليه بكلمة على مع أنه يتعدى بنفسه أو بالى إما لأن اتيانهم كان من جانب عال فعدى بها للدلالة على ذلك كما قال المتنبي :

ولشد ما جاوزت قدرك صاعدا ولشد ما قربت عليك الأنجم

لما كان قرب الانجم وإن أراد بها أبيات شعره من فوق ،وإما لأن المراد بالاتيان عليه قطعه وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشىء إذا انفده وبلغ آخره. ثم الاتيان عليه بمعنى قطعه مجـــاز عن إرادة ذلك وإلا لم يكن للتحذير من الحطم الآتى وجه إذ لا معنى له بعد قطع الوادى الذى فيه النمل ومجاوزته ،والظاهر على الوجهين أنهم أتوا عليه مشاة ، ويحتمل أنهم كانوا يسيرون فى الهواء فارادوا أن ينزلوا هناك فاحست النملة بنزولهم فانذرت النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ جواب إذا . والظاهر أنها صوتت بما فهم سليمان عليه السلام منه معنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ وهذا كما يفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفهم ،ولا يقدح فى ذلك أنه عليه السلام لم يعلم إلا منطق الطير اما لأنها كانت من الطير ذات جناحين كما أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى وهو . وعبد الرزاق . وعبد بن حميد .، وابن المنذر عن قتادة ، وكم رأينا نملة لها جناحان تطير بهما ،وكون ذلك لا يقتضى عدها من الطير محل نظر وإما لأن فهم ما ذكر وقع له عليه السلام هذه المرة فقط ولم يطرد كفهم أصوات الطير ،وليس فى الآية

Marfat.com

السابقة ولا فى الاخبار ما ينفى فهم ما يقصده غير الطير من الحيوانات بدون اطراد ، وقال ابن بحر : انها نطقت بذلك معجزة لسليمان عليه السلام كما نطق الضب والذراع لرسول الله ﷺ ، قال مقاتل : وقد سمع عليه السلام قولها من ثلاثة أميال،ويلزم على هذا انها أحست بنزولهم من هذه المسافة.والسمع من سليمان منها غير بعيد لأن الريح كما جاء فى الآثار توصل الصوت اليه أو لأن الله تعالى وهبه إذ ذاك قوة قدسية سمع بها الا أن احساس النملة من تلك المسافة بعيد، والمشهور عند العرب بالاحساس من بعيد القراد حتى ضربوا به المثل . وأنت تعلم أنه لا ضرر فى إنكار صحة هذا الخبر ، وقيل : انه عليه السلام لم يسمع صوتا أصلا وانما فهم ما فى نفس النملة الهاما من الله تعالى ، وقال الكلبي : أخبره ملك بذلك والى أنه لم يسمع صوتا يشير قول جرير :

لو كنت أوتيت كلام الحكل عـلم سليمان كلام النمـل

فانه أراد بالحكل مالا يسمع صوته، وقال بعضهم : كانها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت عنهم مخافة حطمهم فتبعها غيرها وصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة وماعداها من النمل مقولا له فيكون الكلام خارج مخرج الاستعارة التمثيلية ،ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية .

وأنت تعلم أنه لاضرورة تدعو إلى ذلك. ومن تتبع أحوال النمل لا يستبعد أن تكون له نفس ناطقة فانه يدخر فى الصيف مايقتات به فى الشتاء ويشق مايدخره من الحبوب نصفين مخافة أن يصيبه الندى فينبت إلا الكزبرة والعدس فانه يقطع الواحدة منهما أربع قطع ولا يكتفى بشقها نصفين لأنها تنبت كما تنبت إذا لم تشق.وهذا وأمثاله يحتاج إلى علم كلى استدلالى وهو يحتاج إلى نفس ناطقة .وقد برهن شيخ الأشراف على ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات.وظواهر الآيات والأخبار الصحيحة تقتضيه كما سمعت قديما وحديثا فلا حاجة بك إلى أن تقول : يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق فى النملة إذذاك النطق وفيما عداها من النمل العقل والفهم وأما اليوم فليس فى النمل ذلك.ثم إنه ينبغى أن يعلم أن الظاهر أن علم النملة بأن الآتى هو سليمان عليه السلام وجنوده كان عن الهام منه عز وجل وذلك كعلم الضب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين تكلم معه وشهد برسالته عليه الصلاة والسلام ، والظاهر أيضا أنها كانت كسائر النمل فى الجثة ،وفيه اليوم مايقرب من الذبابة ويسمى بالنمل الفارسى،وبالغ بعض القصاص فى كبرها ولا يصح له مستند .

وفى بعض الآثار أنها كانت عرجاء واسمها طاخية، وقيل: جرمى ، وفى البحر اختلف فى اسمها العلم مالفظه وليت شعرى من الذى وضع لها لفظا يخصها أبنو آدم أم النمل انتهى ، والذى يذهب إلى أن للحيوانات نفوسا ناطقة لا يمنع أن تكون لها أسماء وضعها بعضها لبعض لكن لا بألفاظ كألفاظنا بل بأصوات تؤدى على نحو مخصوص من الأداء ولعله يشتمل على أمور مختلفة كل منها يقوم مقام حرف من الحروف المالوفة لنا إذا أراد أن يترجم عنها من عرفها من ذوى النفوس القدسية ترجمها بما نعرف،ويقرب هذا لك أن بعض كلام الافرنج وأشباههم لا نسمع منه إلا كما نسمع من أصوات العصافير ونحوها واذا ترجم لنا بما نعرفه ظهر مشتملا على الحروف المالوفة ، والظاهر أن تاء (نملة) للوحدة فتانيث الفعل لمراعاة ظاهر التانيث فلا دليل فى ذلك على أن النملة كانت أنثى قاله بعضهم .

Marfat.com

وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم - وكان أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه حاضراً وهو غلام حدث - فقال : سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه فافحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت ؟ فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: (قالت نملة) ولو كان ذكرا لقال سبحانه قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى كذا فى الكشاف ، وتعقبه ابن المنير فقال: لاأدرى العجب منه أم من أبى حنيفة إن ثبت ذلك عنه ، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس فيقال : نملة ذكر ونملة أنثى كما يقولون : حمامة ذكر وحمامة انثى وشاة ذكر وشاة أنثى فلفظها مؤنث ومعناها محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر بل هذا هو الفصيح المستعمل ، ألا ترى قوله ﷺ : «لا يضحى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء» كيف أخرج عليه الصلاة والسلام هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعنى ﷺ الإناث من الأنعام خاصة فحينئذ قوله تعالى : قالت نملة روعى فيه تأنيث اللفظ وأما المعنى فيحتمل التذكير والتأنيث على حد سواء ، وكيف يسأل أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه بهذا ويفحم به قتادة مع غزارة علمه، والأشبه ان ذلك لا يصح عنهما اهـ

وقال ابن الحاجب عليه الرحمة : التانيث اللفظى هو أن لا يكون بازائه ذكر فى الحيوان كظلمة وعين ، ولا فرق بين أن يكون حيوانا أو غيره كدجاجة. وحمامة إذا قصد به مذكر فانه مؤنث لفظى ، ولذلك كان قول من زعم أن النملة فى قوله تعالى: (قالت نملة) أنثى لورود تاء التانيث فى (قالت) وهما لجواز أن يكون مذكرا فى الحقيقة ، وورود تاء التانيث كورودها فى الفعل المؤنث اللفظى نحو جاءت الظلمة . وأجاب بعض فضلاء ماوراء النهر وقال لعمرى: أنه قد تعسف ههنا ابن الحاجب وترك الواجب حيث اعترض على امام أهل الاسلام ، واعتراضه بقوله :وورود تاء التانيث كورودها الخ ليس بشىء إذ لو كان جائزا أن يؤتى بتاء التانيث فى الفعل لمجرد صورة التانيث فى الفاعل المذكر الحقيقى لكان ينبغى جواز أن يقال: جاءتنى طلحة مع أنه لا يجوز ، وجوابه عن ذلك فى شرحه بقوله: وليس ذلك كتانيث أسماء الأعلام فانها لا يعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ خلافا للكوفيين . والسر فيه هو أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلول ماخر فاعتبروا فيها المدلول الثانى ، ولو اعتبروا تانيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول فيفسد المعنى فلذلك لا يقال:أعجبتنى طلحة تناقض محض كأنه نسى ما أمضى فى صدر كتابه من قوله فان سمى به مذكر فشرطه الزيادة يعنى فان سمى بالمؤنث المعنوى فشرطه الزيادة على ثلاثة أحرف فلا يخفى على من له أدنى مسكة أن عقرب مع ان علامة التانيث فيه مقدرة العلمية لا تمنعها عن اعتبار تانيثها حتى تمنع من الصرف فكيف تمنع العلمية عن اعتبار التانيث فى طلحة مع أن علامة التانيث فيه لفظية فاذن ليس طرح التاء عن الفعل إلا لأن التاء إنما يجامبها علامة لتانيث الفاعل، والفاعل ههنا مذكر حقيقى فكذا النملة لو كان مذكرا لكان هو مع طلحة حذو القذة بالقذة .

وينصر قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه مانقل عن ابن السكيت هذا بطة ذكر وهذا حمامة ذكر وهذا شاة إذا عنيت كبشا وهذا بقرة إذا عنيت ثورا فان عنيت به أنثى قلت : هذه بقرة اهـ . وارتضاه الطيبي ثم قال فظهر أن القول ماقالت حذام والمذهب ماسلكه الامام . وفى الكشف

Marfat.com

ان التاء فى نملة للوحدة فهى فى حكم المؤنث اللفظى جاز أن تعامل معاملته كتمر وتمرة على مانص عليه فى المفصل ، ولا يشكل بنحو طلحة حيث لم يجز الحاق فعله التاء لأن أسماء الأعلام يعتبر فيها المعنى دون اللفظ خلافا للكوفيين إلى آخر ماذكره ابن الحاجب ، ولا نقض باعتبار التانيث فى عقرب ان سمى به مذكر ولافى طلحة نفسه باعتبار منع الصرف على ماظنه بعض فضلاء ماوراء النهر *

وصوبه شيخنا الطيبى لان اعتبار المعنى هو فيما يرجع الى المعنى لا فيما يرجع الى اللفظ ، والحاق العلامة باعتبار الفاعل إما للتأنيث الحقيقى واما لشبه التأنيث من الوحدة أو الجمعية ونحوها فاذا لم يبق المعنى أعنى التأنيث وشبه التأنيث فلا وجه للالحاق . وأما منع الصرف فلا نظر فيه الى معنى التأنيث بل الى هذه الزيادة لفظا أو تقديرا وذلك غير مختلف فى المنقول والمنقول عنه ، وكفاك دليلا لاعتبار اللفظ وحده فى هذا الحكم تفرقتهم فى سقر بين تسمية المذكر به والمؤنث دون عقرب فلو تأمل المناقض لكان ما أورده عليه لا له هذا ، وان الامام رضى الله تعالى عنه كوفى والقاعدة على أصله مهدومة انتهى . وهو كلام متين *

والحزم القول بعدم صحة هذه الحكاية فابو حنيفة رضى الله تعالى عنه من عرفت وان كان اذ ذاك غلاما حدثا . وقتادة بن دعامة السدوسى باجماع العارفين بالرجال كان بصيرا بالعربية فيبعد كل البعد وقوع ماذكر منهما والله تعالى أعلم *

والحطم الكسر والمراد به الاهلاك . والنهى فى الظاهر لسليمان عليه السلام وجنوده وهو فى الحقيقة نهى على طريق الكناية للنمل عن التوقف حتى تحطم لان الحطم غير مقدور لها نحو قولك : لا أرينك ههنا فانه فى الظاهر نهى للمتكلم عن رؤية المخاطب والمقصود نهى المخاطب عن الكون بحيث يراه المتكلم فالجملة استئناف أو بدل اشتمال من جملة (ادخلوا مساكنكم) ، وقول بعضهم : اذا كان المعنى النهى عن التوقف حتى تحطم يحصل الاتحاد بين الجملتين يقتضى انه بدل كل من كل بناء على ان الامر بالشىء عين النهى عن ضده وعلى ما ذكر لاحاجة اليه ؛ وبالجملة اعتراض أبى حيان على وجه الابدال باختلاف مدلولى الجملتين ليس فى محله ، وجوز الزمخشرى كون لايحطمنكم جوابا للامر ، أعنى ـ ادخلوا ـ و (لا) حينئذ نافية وتعقب بان دخول النون فى جواب الشرط مخصوص بضرورة الشعر كقوله :

مهما تشأ منه فزارة تعطه ومهما تشأ منه فزارة يمنعا

وفى الكتاب وهو قليل فى الشعر شبهوه بالنهى حيث كان مجزوما غير واجب . وأرادت النملة على مافى الكشاف لايحطمنكم جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ . ونحوه قوله * عجبت من نفسى ومن إشفاقها * حيث أراد عجبت من اشفاق نفسى فجاء بما هو أبلغ للاجمال والتفصيل . وتعقب ذلك فى البحر بان فيه القول بزيادة الأسماء وهى لاتجوز بل الظاهر اسناد الحطم اليه عليه السلام وإلى جنوده والكلام على حذف مضاف أى خيل سليمان وجنوده أونحو ذلك مما يصح تقديره وللبحث فيه مجال وجملة (وهم لايشعرون) حال من مجموع المتعاطفين والضمير لهما *

وجوز أن تكون حالا من الجنود والضمير لهم ، وأيا ماكان ففى تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم المشعر بانه لو شعروا بذلك لم يحطموا مايشعر بغاية أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده ، وليت من طعن فى أصحاب النبى ﷺ ورضى الله تعالى عنهم تأسى بها فكف عن ذلك وأحسن الأدب ، وروى أن سليمان

Marfat.com

عليه السلام لما سمع قول النملة: (ياأيها النمل)الخ قال ائتونى بها فاتوا بها فقال لم حذرت النمل ظلمى؟أما علمت انى نبي عدل فلم قلت:(لا يحطمنكم سليمان)وجنوده فقالت:أما سمعت قولى (وهم لا يشعرون) ومع ذلك انى لم أرد حطم النفوس وانما أردت حطم القلوب خشيت ان يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم فيقعوا فى كفران النعم فلا أقل من ان يشتغلوا بالنظر اليك عن التسبيح فقال لها سليمان عظينى فقالت أعلمت لم سمى أبوك داود؟قال : لا قالت : لانه داوى جراحة قلبه وهل تدرى لم سميت سليمان ؟ قال : لا قالت : لانك سليم القلب والصـــدر.ثم قالت:أتدوى لم سخر الله تعالى لك الريح؟ قال لا قالت أخبرك الله تعالى بذلك ان الدنيا كلها ريح فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح . وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى وفيه مايشبه كلام الصوفية والله تعالى أعلم بصحة ماروى من أنها أهدت اليه نبقة وانه عليه السلام دعا للنمل بالبركة

وجوز ان تكون جملة (هم لايشعرون) فى موضع الحال من النملة والضمير للجنود كالضمائر السابقة فى قوله تعالى : (فهم يوزعون) وقوله سبحانه : (حتى اذا أتوا) وهى من كلامه تعالى أى قالت ذلك فى حال كون الجنود لا يشعرون به وليس بشىء وقد يقرب منه ما قيل انه يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدر وهى من كلامه عز وجل كانه قيل: فهم سليمان ما قالت والجنود لا يشعرون بذلك . وقرأ الحسن . وطلحة ومعتمر بن سليمان . وأبو سليمان التيمى نملة بضم الميم كسمرة . وكذلك النمل كالرجل والرجل لغتان ، وعن أبى سليمان التيمى نملة ونمل بضم النون والميم . وقرأ شهر بن حوشب (مسكنكم)على الافراد. وعن ابى (ادخلن مساكنكن لايحطمنكن) مخففة النون التى قبل الكاف *

وقرأ الحسن . وأبو رجاء . وقتادة . وعيسى بن عمر الهمدانى الكوفى . ونوح القاضى بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون مضارع حطم مشددا . وعن الحسن بفتح الياء (١) واسكان الحاء وشد الطاء وعنه كذلك مع كسر الحاء واصله يحتطمنكم من الاحتطام . وقرأ ابن ابى اسحق . وطلحة . ويعقوب . وأبو عمرو فى رواية عبيد كقراءة الجمهور الا انهم سكنوا نون التأكيد ، وقرأ الاعمش بحذف النون وجزم الميم.ولا خلاف على هذه القراءة فى جواز أن يكون الفعل مجزوما فى جواب الامر ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تفريع على ما تقدم فلا حاجة الى تقدير معطوف عليه أى فسمعها فتبسم وجعل الفاء فصيحة كما قيل .ولعله عليه السلام انما تبسم من ذلك سرورا بما الهمت من حسن حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من ادراك ما هو همس بالنسبة الى البشر وفهم مرادها منه*

وجوز ان يكون ذلك تعجبا من حذرها وتحذيرها واهتدائها الى تدبير مصالح بنى نوعها: والاول أظهر مناسبة لما بعد من الدعاء .وانتصب (ضاحكا)على الحال أى شارعا فى الضحك أعنى قد تجاوز حد التبسم الى الضحك أو مقدر الضحك بناء على أنه حال مقدرة كما نقله الطيبى عن بعضهم .وقال أبو البقاء هو حال مؤكدة وهو يقتضى كون التبسم والضحك بمعنى والمعروف الفرق بينهما .قال ابن حجر . التبسم مبادىء الضحك من غير صوت والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الاسنان من السرور مع صوت خفى فان كان فيه صوت يسمع

(١) قوله واسكان الحاء كذا بخطه ولعله سبق قلم ففى الكشاف وقرىء (لايحطمنكم) بفتح الحاء وكسرها وأصله يحتطمنكم اه

Marfat.com

من بعيد فهو القهقهة ، وكان من ذهب الى اتحاد التبسم والضحك خص ذلك بما كان من الانبياء عليهم السلام فان ضحكهم تبسم،وقد قال البوصيرى فى مدح نبينا ﷺ : ٥

سيد ضحـــكه التبسم والمـ ـشى الهوينا ونومه الاغفاء

وروى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها انها قالت : مارأيته ﷺ مستجمعا قط ضاحكا أى مقبلا على الضحك بكليته انما كان يتبسم ،والذى يدل عليه مجموع الاحاديث ان تبسمه عليه الصلاة والسلام أكثر من ضحكه وربما ضحك حتى بدت نواجذه.وكونه ضحك كذلك مذكور فى حديث آخر أهل النار خروجا منها وأهل الجنة دخولا الجنة . وقد أخرجه البخارى .ومسلم.والترمذى.وكذا فى حديث أخرجه البخارى فى المواقع أهله فى رمضان ،وليس فى حديث عائشة السابق أكثر من نفيها رؤيتها اياه ﷺ مستجمعا ضاحكا وهو لا ينافى وقوع الضحك منه فى بعض الاوقات حيث لم تره ٥

وأول الزمخشرى ماروى من أنه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه بأن الغرض منه المبالغة فى وصف ماوجد منه عليه الصلاة والسلام من الضحك النبوى وليس هناك ظهور النواجذ وهى أواخر الاضراس حقيقة ، ولعله إنما لم يقل سبحانه :فتبسم من قولها بل جاء جل وعلا بضاحكا نصبا على الحال ليكون المقصود بالافادة التجاوز إلى الضحك بناء على أن المقصود من الكلام الذى فيه قيد افادة القيد نفيا أو اثباتا، وفيه اشعار بقوة تاثير قولها فيه عليه السلام حيث اداه ماعراه منه إلى أن تجاوز حد التبسم آخذاً فى الضحك ولم يكن حاله التبسم فقط ٥

وكانه لما لم يكن قول فضحك من قولها فى افادة ماذكرنا مثل مافى النظم الجليل لم يؤت به ، وفى البحر أنه لما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب كما يقولون: تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئ وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتى سبحانه بقوله تعالى(ضاحكا)لبيان أن التبسم لم يكن استهزاء ولاغضبا انتهى ٥

ولايخفى أن دعوى أن الضحك لايكون الا للسرور والفرح يكذبها قوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) فان هذا الضحك كان من مشركى قريش استهزاء بفقرائهم كعمار. وصهيب.وخباب.وغيرهم كما ذكره المفسرون ولم يكن للسرور والفرح.وكذا قوله تعالى:(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) كما هو الظاهر .وإن هرعت إلى التأويل قلنا الواقع يكذبها فان أنكرت ضحك منك أولوا الالباب،وفيه أيضا غير ذلك فتأمل والله تعالى الهادى إلى صوب الصواب ، وقرأ ابن السميقع (ضحكا) على أنه مصـــدر فى موضع الحال ، وجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول مطلق نحو شكرا فى قولك حمدشكرا ٥

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أى اجعلنى أزع شكر نعمتك أى اكفه وارتبطه لاينفلت عنى وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكانه قيل:رب اجعلنى مداوما على شكر نعمتك، وهمزة أوزع للتعدية، ولاحاجة إلى اعتبار التضمين. وكون التقدير رب يسر لى أن أشكر نعمتك وازعا اياه وعن ابن عباس أن المعنى اجعلنى أشكر . وقال ابن زيد: أى حرضنى . وقال أبو عبيدة أى أولعنى . وقال الزجاج فيما قيل أى ألهمنى.وتأويله فى اللغة كفنى عن الاشياء التى تباعدنى عنك .قال الطيبى فعلى هذا هو كناية تلويحية فانه طلب أن يكفه عما يؤدى إلى كفران النعمة بأن يلهمه مابه تقيد النعمة من الشكر . واضافة النعمة للاستغراق أى جميع نعمك . وقرئ

Marfat.com

(أوزعنى) بفتح الياء ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتَ ﴾ أى أنعمتها،وأصله أنعمت بها إلا أنه اعتبر الحذف والايصال لفقد شرط حذف العائد المجرور وهو أن يكون مجرورا بمثل ماجر به الموصول لفظا ومعنى ومتعلقا،ومن لا يقول باطراد ذلك لا يعتبر ماذكر ولاأرى فيه بأسا ﴿ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ أدرج ذكر والديه تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام عليه من وجه مستوجب للشكر أو تعميما لها فان النعمة عليه عليه السلام يرجع نفعها اليهما،والفرق بين الوجهين ظاهر ، واقتصر على الثانى فى الكشاف وهو أوفق بالشكر. وكون الدعاء المذكور بعد وفاة والديه عليهما السلام قطعا ،ورجح الأول بأنه أوفق بقوله تعالى (اعملوا آل داود شكرا) بعد قوله سبحانه (ولقد آتينا داود منا فضلا) الخ، وقوله تعالى (ولسليمان الريح)الخ فتدبر فانه دقيق ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا ﴾ عطف على (أن أشكر) فيكون عليه السلام قد طلب جعله مداوما على عمل العمل الصالح أيضا .وكانه عليه السلام أراد بالشكر الشكر باللسان المستلزم للشكر بالجنان وأردفه بما ذكر تتميما له لأن عمل الصالح شكر بالاركان ، وفى البحر أنه عليه السلام سأل أولا شيئا خاصا وهو شكر النعمة وثانيا شيئا عاما وهو عمل الصالح،وقوله تعالى : ﴿ تَرْضَاهُ ﴾ قيل صفة مؤكدة أومخصصة ان أريد به كمال الرضا ،واختير كونه صفة مخصصة.والمراد بالرضا القبول وهو ليس من لوازم العمل الصالح أصلا لا عقلا ولا شرعا ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩ ﴾ أى فى جملتهم والكلام عن الزمخشرى كناية عن جعله من أهل الجنة .وقدر بعضهم الجنة مفعولا ثانيا لأدخلنى،وعلى كونه كناية لاحاجة إلى التقدير، والداعى لأحد الامرين على ماقيل دفع التكرار مع ماقبل لأنه إذا عمل عملا صالحا كان من الصالحين البتة إذ لامعنى للصالح الا العامل عملا صالحا ،وأردف طلب المداومة على عمل الصالح بطلب ادخاله الجنة لعدم استلزام العمل الصالح بنفسه ادخال الجنة ،ففى الخبر «لن يدخل احدكم الجنة عمله قيل ولا أنت يارسول الله قال ولاانا إلا أن يتغمدنى الله تعالى برحمته» وكأن فى ذكر (برحمتك) فى هذا الدعاء اشارة إلى ذلك •

ولا يأبى ماذكر قوله تعالى (تلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) لان سببية العمل للايراث برحمة الله تعالى •

وقال الخفاجى: لك أن تقول انه عليه السلام عد نفسه غير صالح تواضعا أى فلا يحتاج إلى التقدير ولا إلى نظم الكلام فى سلك الكناية، ولايخفى أن هذا لايدفع السؤال باغناء الدعاء بالمداومة على عمل الصالح عنه •

وقيل : المراد أن يجعله سبحانه فى عداد الانبياء عليهم السلام ويثبت اسمه مع اسمائهم ولا يعزله عن منصب النبوة الذى هو منحة الهية لاتنال بالاعمال ولذا ذكر الرحمة فى البين ، ونقل الطبرسى عن ابن عباس مايلوح بهذا المعنى •

وقيل : المراد أدخلنى فى عداد الصالحين واجعلنى اذكر معهم إذا ذكروا ،وحاصله طلب الذكر الجميل الذى لا يستلزمه عمل الصالح إذ قد يتحقق من شخص فى نفس الأمر ولا يعده الناس فى عداد الصالحين.وفى هذا الدعاء شمة من دعاء ابراهيم عليه السلام (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ومقاصد الانبياء فى مثل ذلك أخروية ، وقيل : يحتمل أنه أراد بعمل الصالح القيام بحقوق الله عز وجل وأراد بالصلاح فى قوله (فى عبادك الصالحين) القيام بحقوقه تعالى وحقوق عباده فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص وتبيين ما هو الأولى من هذه الأقوال مفوض إلى فكرك والله تعالى الهادى ،وكان دعاؤه عليه السلام على ما فى بعض الآثار بعد

Marfat.com

أن دخل النمل مساكنهن ،قال فى الكشاف:روى أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فامر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أى أراد معرفة الموجود منها من غيره، وأصل التفقد معرفة الفقد ، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا لا سيما الضعفاء منها،قيل وكان ياتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد ، وقيل : كانت الطير تظله من الشمس وكان الهدهد يستر مكانه الايمن فمسته الشمس فنظر إلى مكان الهدهد فلم يره، وعن عبد الله بن سلام أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها وكان الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك فيأمر الجن فتسلخ الأرض عنه فى ساعة كما تسلخ الشاة فاحتاجوا إلى الماء فتفقد لذلك الطير فلم ير الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ وهو طائر معروف منتن يأكل الدم فيما قيل ويكنى بابى الاخبار . وأبى الربيع . وأبى ثمامة وبغير ذلك مما ذكره الدميرى، وتصغيره على القياس هديهد ، وزعم بعضهم أنه يقال فى تصغيره هداهد بقلب الياء الفا،وأنشدوا * كهداهد كسر الرماة جناحه * ونظير ذلك دوابه وشوابه فى دويبه وشويبه ٥

والظاهر أن قوله عليه السلام ذلك مبنى على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته أى عدم رؤيتى إياه مع حضوره لأى سبب الساتر أم لغيره ثم لاح له أنه غائب فاضرب عن ذلك وأخذ يقول: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ٢٠﴾ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له،فأم هى المنقطعة كما فى قولهم إنها لابل أم شاء ٥

وقال ابن عطية : مقصد الكلام الهدهد غاب ولكنه أخذ اللازم من مغيبه وهو أن لا يراه فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم وهذا ضرب من الايجاز ، والاستفهام الذى فى قوله (مالى)ناب مناب الهمزة التى تحتاجها أم انتهى٥

وظاهره أن أم متصلة والهمزة قائمة مقام همزة الاستفهام فالمعنى عنده أغاب عنى الآن فلم أره حال التفقد أم كان ممن غاب قبل ولم أشعر بغيبته والحق ماتقدم ، وقيل فى الكلام قلب والأصل ماللهدهد لا أراه،ولا يخفى أنه لا ضرورة إلى ادعاء ذلك، نعم قيل هو أوفق بكون التفقد للعناية،وذكر أن اسم هذا الهدهد يعفور، وكون الهدهد يرى الماء تحت الأرض رواه ابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم.والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ،وأخرج ابن أبى حاتم .وسعيد بن منصور عن يوسف بن ماهك أن ابن عباس حين قال ذلك اعترض عليه نافع بن الازرق كعادته بأنه كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ ويوضع فيه الحبة وتستر بالتراب فيصطاد فقال رضى الله تعالى عنه إن البصر ينفع ما لم يأت القدر فاذا جاء القدر حال دون البصر فقال ابن الازرق : لا أجادلك بعدها بشىء .ولامانع من أن يقال : يجوز أن يرى الحبة أيضا إلا أنه لا يعرف أن التقاطها من الفخ يوجب اصطياده ،وكثير من الطيور وسائر الحيوانات يصطاد بما يراه بنوع حيلة ٥

ويجوز أيضا ان يراها ويعرف المكيدة فى وضعها الا ان القدر يغلب عليه فيظن انه ينجو اذا التقطها باحد وجوه يتخيلها فيكون نظير من يخوض المهالك لظن النجاة مع مشاهدة هلاك الكثير ممن خاضها قبله واذا اراد الله تعالى بقوم امرا سلب من ذوى العقول عقولهم ،نعم ان رؤيته الماء تحت الارض وان جاز على ما تقتضيه أصول الاشاعرة امر يستبعده العقل جدا ولا جزم لى بصحة الخبر السابق ،وتصحيح الحاكم

Marfat.com

محكوم عليه عند المحدثين بما تعلم ، ومثله ما تقدم عن ابن سلام وكذا غيره من الاخبار التى وقفت عليها فى هذا الشان ، وليس فى الآية اشارة الى ذلك بل الظاهر بناء على ما يقتضيه حال سليمان عليه السلام ان التفقد كان منه عليه السلام عناية بامور ممـــالكه واهتماما بضعفاء جنده،وكانه عليه السلام أخرج كلامه كما حكاه النظم الجليل لغلبة ظنه انه لم يصبه ما أهلكه وليكون ذلك مع التفقد من باب الجمع بين صفتى الجمال والجلال وهو الاكمل فى شان الملوك ، ولعل ماوقع من حديث النملة كان كالحالة المذكرة له عليه السلام للتفقد ٠

وعلى ما تقدم عن ابن سلام أن الحالة المذكرة بل الداعية هى النزول فى المفازة التى لا ماء فيهـا ، وكون الهدهد قناقنه ، ويحكون فى ذلك أن سليمان عليه السلام حين تم له بناء بيت المقدس تجهز ليحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف بقرة وخمسة آلاف ناقة وعشرين ألف شاة وقال لأشراف من معه ان هذا مكان يخرج منه نبي عربى صفته كذا وكذا يعطى النصر على من عاداه وينصر بالرعب من مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء فى الحق لا تأخذه فى الله تعالى لومة لائم قالوا : فبأى دين يدين يانبى الله ؟ فقال : بدين الحنيفية فطوبى لمن آمن به وأدركه فقالوا : كم بيننا وبين خروجه؟قال: مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الأنبياء وخاتم الرسل عليهم السلام ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يوم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا أعجبته خضرتها فنزل ليتغذى ويصلى فلم يجدوا الماء فكان ما كان ٠

وفى بعض الآثار ما يعارض حكاية الحج ، فقد روى عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام سار من اصطخر يريد اليمن فمر على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام فقال :هذه دار هجرة نبي يكون آخر الزمان طوبى لمن اتبعه ، ولما وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناما تعبد فجاوزه فبكى البيت فاوحى الله تعـالى اليه ما يبكيك ؟ قال يارب أبكانى أن هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا على ولم يهبطوا ولم يصلوا عندى والأصنام تعبد حولى من دونك فاوحى الله تعالى اليه لا تبك فانى سوف أبكيك وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديداً وأبعث منك نبيا فى آخر الزمان أحب أنبيائى إلى واجعل فيك عمارا من خلقى يعبدوننى وأفرض عليهم فريضة يرفون اليك رفيف النسر إلى وكره ويحنون اليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان ، ثم مضى سليمان حتى أتى على وادى النمل،ولا يظهر الجمع بين الخبرين ، ولعل المقدار الذى يصح من الأخبار أنه عليه السلام لما تم له بناء بيت المقدس حج وأكثر من تقريب القرابين وبشر بالنبي ﷺ وقصد اليمن وتفقد الطير فلم ير الهدهد فتوعده بقوله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل بنتف ريشه وروى ذلك عن ابن عباس .ومجاهد . وابن جريج ٠

والظاهر أن المراد جميع ريشه ، وقال يزيد بن رومان بنتف ريش جناحيه ، وقال ابن وهب بنتف نصف ريشه . وزاد بعضهم مع النتف القاءه للنمل وآخر تركه فى الشمس ، وقيل : ذلك بطليه بالقطران وتشميسه وقيل بحبسه فى القفص ، وقيل بجمعه مع غير جنسه ، وقيل بابعاده من خـدمة سليمان عليه السلام ، وقيل بالتفريق بينه وبين الفه ، وقيل بالزامه خدمة أقرانه . وفى البحر الأجود أن يجعـل كل من الأقوال من باب التمثيل وهذا التعذيب للتاديب . ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة كما أباح سبحانه

Marfat.com

ذبح البهائم والطيور للاكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ماسخر من أجله إلا بالتاديب والسياسة جاز أن يباح له مايستصطلح به . وفى الاكليل للجلال السيوطى قد يستدل بالآية على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها فى المشى أو اسراعها أو نحو ذلك . وعلى جواز نتف ريش الحيوان لمصلحة بناء على أن المراد بالتعذيب المذكور نتف ريشه *

وذكر فيه أن ابن العربى استدل بها على أن العذاب على قدر الذنب لاعلى قدر الجسد . وعلى أن الطير كانوا مكلفين إذ لا يعاقب على ترك فعل إلا من كلف به اه فلا تغفل ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ كالترقى من الشديد إلى الأشد فان فى الذبح تجريع كاس المنية . وقد قيل: * كل شىء دون المنية سهل * ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٢١﴾ أى بحجة تبين عذره فى غيبته . وما ألطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا لما أن ماأتى به من العذر انجر إلى الاتيان ببلقيس وهى سلطان ، ثم ان هذا الشق وان قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه فى الحقيقة وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان وأدخل هذا فى سلكهما للتقابل . وهذا كما فى الكشف نوع من التغليب لطيف المسلك ، وما آل كلامه عليه السلام ليكونن أحد الأمور على معنى إن كان الاتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولاذبح وإن لم يكن كان أحدهما فاو فى الموضعين للترديد . وقيل: هى فى الأول للتخيير بين التعذيب والذبح . وفى الثانى للترديد بينهما وبين الاتيان بالسلطان وهو كما ترى *

وزعم بعضهم أنها فى الأول للتخيير وفى الثانى بمعنى إلا وفيه غفلة عن لام القسم ، وجوز أن تكون الأمور الثلاثة مقسما عليها حقيقة ، وصح قسمه عليه السلام على الاتيان المذكور لعلمه بالوحى أنه سيكون أو غلبة ظنه بذلك لأمر قام عنده يفيدها وإلا فالقسم على فعل الغير فى المستقبل من دون علم أو غلبة ظن به لا يكاد يسوغ فى شريعة من الشرائع . وتعقب بأن قوله (سننظر اصدقت أم كنت من الكاذبين) ينافى حصول العلم وما حاكاه له . ودفع المنافاة بانه يجوز أن ياتى بحجة لا يعلم سليمان عليه السلام ولا يظن صدقها وكذبها غير سديد اذ قوله (مبين) ياباه . وبالجملة الوجه ماذكر أولا فتامل . وقرأ عيسى بن عمر (ليأتين) بنون مشددة مفتوحة بغير ياء ، وكتب فى الامام (لأأذبحه) بزيادة ألف بين الذال والالف المتصلة باللام ولايعلم وجهه كاكثر ما جاء فيه مما يخالف الرسم المعروف ، وقيل . هو التنبيه على أن الذبح لم يقع *

وقال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه : ان الكتابة العربية كانت فى غاية الاتقان والجودة فى حمير ومنهم تعلمها مضر الا أنهم لم يكونوا مجيدين لبعدهم عن الحضارة وكان الخط العربى أول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاتقان والجودة وإلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش و بعدهم عن الصنائع وما وقع فى رسم المصحف من الصحابة رضى الله تعالى عنهم من الرسوم المخالفة لما اقتضته أقيسة رسوم الخط وصناعته عند أهلها كزيادة الألف فى (لأأذبحنه) من قلة الاجادة لصنعة الخط واقتفاء السلف رسمهم ذلك من باب التبرك . وتوجيه بعض المغفلين تلك المخالفة بما وجهه بها ليس بصحيح . والداعى له إلى ذلك تنزيه الصحابة عن النقص لما زعم أن الخط كمال ولم يتفطن لأن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية وذلك ليس بكمال فى حقهم إذ الكمال فى الصنائع إضافى وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ونحوه وإنما يعود على أسباب المعاش . وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام أميا وكان ذلك كمالا فى حقه وبالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام . ومثل الأمية تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران ولا يعد

Marfat.com

ذلك كما لا فى حقنا إذ هو ﷺ منقطع إلى ربه عز وجل ونحن متعاونون على الحياة الدنيا ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» انتهى ملخصا *

وأنت تعلم أن كون زيادة الألف فى (لاأذبحنه) لقلة اجادتهم رضى الله تعالى عنهم صنعة الكتابة فى غاية البعد ، وتعليل ذلك بما تقدم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك والا لزادوها فى (لاعذبنه) لأن التعذيب لم يقع أيضا . وما أشار اليه من أن الاجادة فى الخط ليس بكمال فى حقهم أن أراد به أن تحسين الخط واخراجه على صور متناسبة يستحسنها الناظر وتميل اليها النفوس كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمال فى حقهم ولا يضر بشأنهم فقده فمسلم لكن هذا شىء وما نحن فيه شىء ، وإن أراد به أن الاتيان بالخط على وجهه المعروف عند أهله من وصل ما يصلونه وفصل ما يفصلونه ورسم مايرسمونه وترك ما يتركونه ليس بكمال فهذا محل بحث ألا ترى أنه لا يعترض على العالم بقبح الخط وخروجه عن الصور الحسنة والهيآت المستحسنة ويعترض عليه بوصل مايفصل وفصل ما يوصل ورسم مالا يرسم وعدم رسم ما يرسم ونحو ذلك إن لم يكن ذلك لنكتة *

والظاهر ان الصحابة الذين كتبوا القرآن كانوا متقنين رسم الخط عارفين مايقتضى ان يكتب وما يقتضى أن لا يكتب . وما يقتضى ان يوصل . ومايقتضى أن لا يوصل الى غير ذلك لكن خالفوا القواعد فى بعض المواضع لحكمة ، ويستأنس لذلك بما أخرجه ابن الانبارى فى كتابه التكملة عن عبد الله بن فروخ قال : قلت لابن عباس يامعشر قريش أخبرونى عن هذا الكتاب العربى هل كنتم تكتبونه قبل ان يبعث الله تعالى محمدا ﷺ تجمعون منه مااجتمع وتفرقون منه ماافترق مثل الالف . واللام والنون ؟ قال: نعم قلت : وممن أخذتموه ؟ قال : من حرب بن أمية قلت : وممن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان قلت : وممن أخذه عبدالله بن جدعان ؟ قال : من أهل الانبار قلت : وممن اخذه أهل الانبار ؟ قال : من طار طرأ عليهم من أهل اليمن قلت : وممن اخذ ذلك الطارىء ؟ قال : من الخاجان بن القسم كاتب الوحى لهود النبى عليه السلام وهو الذى يقول :

فى كل عام سنة تحدثونها ورأى على غير الطريق يعبر
وللموت خير من حياة تسبنا بهاجرهم فيمن يسب وحمير

انتهى، وفى كتاب محاصرة الاوائل ومسامرة الاواخر أن اول من اشتهر بالكتابة فى الاسلام من الصحابة ابو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . وأبى بن كعب . وزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهم ، والظاهر أنهم لم يشتهروا فى ذلك الا لاصابتهم فيها . والقول بأن هؤلاء الاجلة وسائر الصحابة لم يعرفوا مخالفة رسم الالف هنا لما يقتضيه قوانين أهل الخط وكذا سائر ماوقع من المخالفة مما لا يقدم عليه من له أدنى أدب وانصاف *

ومثل هذا القول بأنه يحتمل أنه عرف ذلك من عرف منهم إلا أنه ترك تغييره إلى الموافق للقوانين أو وافقه على الغلط للتبرك ، ومن الناس من جوز أن يكون ماوقع من الصحابة من الرسم المخالف بسبب قلة مهارة من أخذوا عنه صنعة الخط فيكون هو الذى خالف فى مثل ذلك ولم يعلموا أنه خالف فالقصور إن كان ممن أخذوا عنه واما هم فلا قصور فيهم إذ لم يخلوا بالقواعد التى اخذوها واخلالهم بقواعد لم تصل اليهم ولم يعلموا بها

Marfat.com

لا يعد قصورا،وهذا قريب مما تقدم إلا أنه ليس فيه مافيه من البشاعة ،ثم ان الانصاف بعد كل كلام يقتضى الاقرار بقوة دعوى أن المخالفة لضعف صناعة الكتابة إذ ذاك إن صح أنها وقعت أيضا فى غير الامام من المكاتبات وغيرها ولعله لم يصح والالنقل فتأمل والله تعالى يتولى هداك ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ الظاهر ان الضمير للهدهد و(بعيد)صفة زمان والكلام بيان لمقدر كأنه قيل:مامضى من غيبته بعد التهديد؟فقيل:مكث غير بعيد أى مكث زمانا غير مديد ، ووصف زمان مكثه بذلك للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان عليه السلام وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ، وقيل : الضمير لسليمان وهو كما ترى ، وقيل :(بعيد)صفة مكان أى فمكث الهدهد فى مكان غير بعيد من سليمان، وجعله صفة الزمان أولى ، ويحكى أنه حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهداً واسمه فيما قيل عفير واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان وماسخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وذهبْ معه لينظر فما رجع الا بعد العصر ، وفى بعض الآثار أنه عليه السلام لما لم يره دعا عريف الطير وهو النسر فسأله فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله تعالى وقال: بحق الله الذى قواك وأقدرك على الارحمتنى فتركته وقالت: ثكلتك أمك إن نبى الله تعالى قد حلف ليعذبنك أو ليذبحنك قال:وما استثنى؟قالت: بلى قال:(أو ليأتينى بسلطان مبين) فقال:نجوت إذا فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له فلما دنا منه أخذ برأسه فمده اليه فقال: يانبى الله تعالى اذكر وقوفك بين يدى الله عز وجل فارتعد سليمان وعفا عنه، وعن عكرمة أنه إنما عفا عنه لأنه كان بارا بابويه يأتيهما بالطعام فيزقهما لكبرهما،ثم سأله :

﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته،وابتداء كلامه بذلك لترويحه عنده عليه السلام وترغيبه فى الاصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المنبىء عن أمر بديع أقبل وإلى تلقى ما لاتعلمه أميل، وأيد ذلك بقوله ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ٢٢ ﴾ حيث فسر ابهامه السابق نوع تفسير وأراه عليه السلام أنه كان بصدد اقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه ، وقال الزمخشرى:إن الله تعالى ألهم الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ماأوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بمالم يحط به ليتحاقر اليه نفسه ويصغر اليه علمه ويكون لطفا به فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة انتهى ، وتعقب بأن ماأحاط به من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولاالغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الاعلى مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وماذا صدر عنه عليه السلام مع ماحكى عنه ماحكى من الحمد والشكر والدعاء حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيهه عليه السلام على تركه ، واعترض بأن قوله: (أحطت)الخ ظاهر فى أنه كلام مدل بعلمه مصغر لما عند صاحبه وأن العلم بالامور المحسوسة وإن لم يكن فضيلة إلا أن فقده بالنسبة إلى سليمان عليه السلام وملكه والقاء الريح الاخبار فى سمعه يدل على مايدل ، وفى التنبيه المذكور تثبيت منه تعالى له عليه السلام على الحمد والشكر وهو مما يناسب دعاؤه السابق بقوله: (رب اوزعنى أن أشكر نعمتك)، ولعل الأولى والاظهر مع هذا ماذكر أولا . و(سبأ)منصرف على أنه لحى من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ،

Marfat.com

وفى حديث فروة وغيره عن رسول الله ﷺ أن سبأ اسم رجل ولد عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة والستة (١) حمير. وكندة. والازد. واشعر. وخثعم، والاربعة لخم. وجذام وعاملة. وغسان ؛ وقيل: سبأ لقب لابى هذا الحى من قحطان واسمه عبد شمس ، وقيل : عامر ، ولقب بذلك لأنه أول من سبى ٥

وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو (من سبأ) بفتح الهمزة غير مصروف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت به مارب سبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وجوز أن يراد به على الصرف الموضع المخصوص وعلى منع الصرف المدينة المخصوصة ، وأنشدوا على صرفه قوله :

الواردون وتيم فى ذرى سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ قنبل من طريق النبال باسكان الهمزة وخرج على اجراء الوصل مجرى الوقف ، وقال مكى: الاسكان فى الوصل بعيد غير مختار ولا قوى ، وقرأ الاعمش (من سبإ) بكسر الهمزة من غير تنوين حكاها عنه ابن خالويه. وابن عطية، وخرجت على أن الجر بالكسرة لرعاية ما نقل عنه فانه فى الاصل اسم الرجل أو مكان مخصوص وحذف التنوين لرعاية ما نقل اليه فانه جعل اسما للقبيلة أو للمدينة وهو كما ترى ، وقرأ ابن كثير فى رواية (من سبى) بتنوين الباء على وزن رحى جعله مقصورا مصروفا ، وذكر أبو معاذ أنه قرأ (من سبأى) بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة على وزن فعلى فهو ممنوع من الصرف للتأنيث اللازم ٥

وروى ابن حبيب عن اليزيدى (من سبأ) بألف ساكنة كما فى قولهم: تفرقوا أيدى سبا . وقرأت فرقة (بنبا) بالألف عوض الهمزة وكأنها قراءة من قرأ سبا بالألف لتتوازن الكلمتان كما توازنت فى قراءة من قرأهما بالهمزة المكسورة والتنوين ، وفى التحرير أن مثل (من سبا بنبا) يسمى تجنيس التصريف وهو أن تنفرد كل من الكلمتين بحرف كما فى قوله تعالى: (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) وحديث « الخيل معقود بنواصيها الخير » ٥

وقال الزمخشرى : إن قوله تعالى (من سبا بنبا) من جنس الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ بشرط أن يجىء مطبوعا أو يصيغه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى ألا ترى لو وضع مكان (بنبا) بخبر لكان المعنى صحيحا ، وهو كما جاء أصح لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال اه . وهذه الزيادة كون الخبر ذا شأن ، وكون النباء بمعنى الخبر الذى له شأن مما صرح به غير واحد من اللغويين . والظاهر أنه معنى وضعى له . وزعم بعضهم أنه ليس بوضعى وليس بشىء ، وقول المحدثين: أنبانا أحط درجة من أخبرنا غير وارد لأنه اصطلاح لهم . وقرأ الجمهور (فمكث) بضم الكاف ، والفتح قراءة عاصم. وأبى عمرو فى رواية الجعفى . وسهل. وروح. وقرأ أبى (فمكث ثم قال) . وعبد الله (فمكث فقال) ، وكلتا القراءتين فى الحقيقة على ما فى البحر تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف . وقرىء فى السبعة (أحطت) بادغام التاء فى الطاء مع بقاء صفة الاطباق وليس بادغام حقيقى ٥

---

(١) قوله والستة حمير الخ المذكور فى عبارته خمسة ويؤخذ السادس من حديث آخر أورده فى شرح القاموس وهو مدحج كمجلس ٥

Marfat.com

وقرأ ابن محيصن بادغام حقيقى .واعترض ابن الحاجب القراءة الاولى بأن الاطباق وهو رفع اللسان الى ما يحاذيه من الحنك للتصويت بصوت الحرف المخرج لايستقيم الا بنفس الحرف وهو الطاء هنا والادغام يقتضى ابدالها تاء وهو ينافى وجود ذلك لانه يقتضى أن تكون موجودة وغير موجودة وهو تناقض فالتحقيق ان نحو أحطت بالاطباق ليس فيه ادغام ولكنه لما أمكن النطق بالثانى مع الاول من غير ثقل على اللسان كان كالنطق بالمثل بعد المثل فاطلق عليه الادغام توسعا قاله الطيبي.وفى النشر أن التاء تدغم فى الطاء فى قوله تعالى: (أقم الصلاة طرفى النهار) وفى التسهيل انه اذا أدغم المطبق يجوز ابقاء الاطباق وعدمه.وقال سيبويه: كل كلام عربى كذا الحواشى الشهابية فتأمل *

وفى قوله تعالى (أحطت) الخ دليل باشارة النص والادماج على بطلان قول الرافضة: إن الامام ينبغى أن لا يخفى عليه شىء من الجزئيات، ولا يخفى أنهم إن عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الامام عالما على التفصيل باحكام جميع الحوادث الجزئية التى يمكن وقوعها وأن يكون مستحضراً الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه فبطلان كلامهم فى غاية الظهور ، وقد سئل على كرم الله تعالى وجهه وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال : لا أدرى فقال السائل :ليس مكانك هذا مكان من يقول: لا أدرى فقال الامام كرم الله تعالى وجهه: بلى والله هذا مكان من يقول لا أدرى وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له يعنى به الله عزوجل وإن عنوا أنه يجب أن يكون عالما بجميع القواعد الشرعية وبكثير من الفروع الجزئية لتلك القواعد بحيث لو حدثت حادثة ولا يعلم حكمها يكون متمكنا من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح فذاك حق وهو فى معنى قول الجماعة يجب أن يكون الامام مجتهداً.وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من محله.وقوله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أى تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد استئناف لبيان ما جاء به من النبا .وتفصيل له إثر إجمال وعنى بهذه المرأة بلقيس (١) بنت شراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قحطان ،ويقال: من نسل تبع الحميرى * وروى ابن عساكر عن الحسن أن اسم هذه المرأة ليلى وهو خلاف المشهور،وقيل :اسم أبيها السرح بن الهداهد * ويحكى أنه كان أبوها ملك أرض اليمن كلها وورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة.وفى بعض الآثار أنه لما مات أبوها طمعت فى الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فاطاعها قوم وأبى آخرون فملكوا عليهم رجلا يقال: إنه ابن عمها وكان خبيثا فاساء السيرة فى أهل مملكته حتى كان يفجر بنساء رعيته فارادوا خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت ذلك أدركتها الغيرة فارسلت اليه تعرض نفسها عليه فاجابها وقال: مامنعنى أن ابتدئك بالخطبة إلا اليأس منك قالت: لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم فاجمع رجال أهلى واخطبنى فجمعهم وخطبها فقالوا : لا نراها تفعل فقال : بلى إنها رغبت فى فذكروا لها ذلك فقالت : نعم فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت مع أناس كثير من حشمها وخدمها فلما خلت به سقته الخمر حتى سكر فقتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم ، وقالت : أما كان فيكم من يأنف من الفجور بكرائم عشيرته ثم أرتهم إياه قتيلا ، وقالت : اختاروا رجلا تملكوه عليكم فقالوا :لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعة منها واشتهر أن أمها جنية *

«١» بكسر الباء معرب وهو قبل التعريب بفتحها اه منه

Marfat.com

وقد أخرج ذلك ابن أبى شيبة . وابن المنذر عن مجاهد . والحكيم الترمذى . وابن مردويه عن عثمان بن حاضر أن أمها امرأة من الجن يقال لها بلقمة بنت شيصا . وابن أبى حاتم عن زهير بن محمد أن أمها فارعة الجنية . وفى التفسير الخازنى أن أباها شراحيل كان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤاً لى وأبى أن يتزوج فيهم فخطب الى الجن فزوجوه امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن وسبب وصوله الى الجن حتى خطب اليهم على ما قيل انه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صور الظباء فيخلى عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقا فخطب ابنته فزوجه اياها . وقيل: انه خرج متصيدا فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فافاقت فأطلقها فلما رجع إلى داره جلس وحده منفردا فاذا هو معه شاب جميل فخاف منه فقال : لاتخف أنا الحية البيضاء الذى أحييتنى والأسود الذى قتلته هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال : لا حاجة لى به ولكن إن كان لك بنت فزوجينها فزوجه أبنته فولدت له بلقيس انتهى ، وأخرج ابن جرير . وأبو الشيخ فى العظمة . وابن مردويه . وابن عساكر عن أبى هريرة قال : «قال رسول الله ﷺ أحد أبوى بلقيس كان جنيا» والذى ينبغى أن يعول عليه عدم صحة هذا الخبر ، وفى البحر قد طولوا فى قصصها يعنى بلقيس بما لم يثبت فى القرآن ولا الحديث الصحيح وأن ما ذكر من الحكايات أشبه شئ بالخرافات فان الظاهر على تقدير وقوع التناكح بين الأنس والجن الذى قيل يصفع السائل عنه لحماقته وجهله أن لا يكون توالد بينهما ، وقد ذكر عن الحسن فيما روى ابن عساكر أنه قيل بحضرته: إن ملكة سبأ أحد أبويها جنى فقال : لا يتوالدون أى أن المراة من الانس لاتلد من الجن والمرأة من الجن لاتلد من الانس . نعم روى عن مالك ما يقتضى صحة ذلك *

فى الاشباه والنظائر لابن نجيم روى أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدى قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا : إن ههنا رجلا من الجن زعم أنه يريد الحلال فقال : ما أرى بأسا فى الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها من زوجك؟ قالت: من الجن فيكثر الفساد فى الاسلام بذلك انتهى، ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يرد على تعليل الكراهة، ثم ليت شعرى إذا حملت الجنية من الانسى هل تبقى على لطافتها فلا ترى والحمل على كثافته فيرى أو يكون الحمل لطيفا مثلها فلا يريان فاذا تم أمره تكثف وظهر كسائر بنى آدم أو تكون متشكلة بشكل نساء بنى آدم مادام الحمل فى بطنها وهو فيه يتغذى وينمو بما يصل اليه من غذائها وكل من الشقوق لا يخلو عن استبعاد كما لايخفى، وإيثار (وجدت) على رأيت لما أشير اليه فيما سبق من الايذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بابراز نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام ، وقيل : للاشعار بأن ما ظفر به أمر غير معلوم أولا لأن الوجدان بعد الفقد وفيه رمز بغرابة الحال ، وضمير (تملكهم) لسبأ على أنه اسم للحى أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنها اسم لها . وليس فى الآية ما يدل على جواز أن تكون المرأة ملكة ولاحجة فى عمل قوم كفرة على مثل هذا المطلب . و فى صحيح البخارى من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» ونقل عن محمد بن جرير أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ولم يصح عنه . وفى الاشباه لا ينبغى أن تولى القضاء وإن صح منها بغير الحدود والقصاص ، وذكر أبو حيان أنه نقل عن أبى حنيفة عليه الرحمة أنها تقضى فيما تشهد فيه لا على الاطلاق

Marfat.com

ولا أن يكتب لها منشور بان فلانة مقدمة على الحكم وإنما ذلك على سبيل التحكيم لها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى من الاشياء التى تحتاج اليها الملوك بقرينة (تملكهم) ، وقد يقال: ليس الغرض إلا إفادة كثرة ما أوتيت ٭

والجملة تحتمل أن تكون عطفا على جملة (تملكهم) وأن تكون حالا من ضمير تملكهم المرفوع بتقدير قد أو بدونه ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٢٣ ﴾ قال ابن عباس كما أخرجه عنه ابن جرير . وابن المنذر أى سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالى الثمن ، وروى عنه أيضا أنه كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين ذراعا وكان طوله فى السماء ثلاثين ذراعا أيضا ، وقيل : كان طوله ثمانين فى ثمانين وارتفاعه ثمانين ٭

وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد أنه سرير من ذهب وصفحتاه مرصعتان بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعا فى عرض أربعين ذراعا ، وقيل : كان من ذهب مكللا بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق ، وقيل : غير ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وبالجملة فالظاهر أن المراد بالعرش السرير ، وقال أبو مسلم المراد به الملك ولا داعى اليه . واستعظام الهدهد لعرشها مع ماكان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك ، وجوز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك فانه قد يوجد لبعض امراء الاطراف شىء لا يكون للملك الذى هم تحت طاعته . وأياما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولا من ترغيبه عليه السلام فى الاصغاء إلى حديثه وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال: ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى . قال الحسن كانوا مجوسا يعبدون الانوار ، وقيل : كانوا زنادقة ٭

والظاهر أن هذه الجملة استئناف كلام وأن الوقف على (عظيم) قال صاحب المرشد ولا يوقف على عرش وقد زعم بعضهم جوازه وقال معناه عظيم عند الناس . وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيره من المتقدمين ونسبوا القائل به إلى الجهل ، وقول من قال معناه عظيم عبادتهم للشمس من دون الله تعالى قول ركيك لا يعتد به وليس فى الكلام مايدل عليه ، وفى الكشاف من نوى القصاص من وقف على (عرش) يريد عظيم إن وجدتها فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع فى عظيمة وهى نسخ كتاب الله تعالى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى ، والجملة تحتمل العطف على جملة (يسجدون) والحالية من الضمير على نحو مامر آنفا ﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ أى الشيطان ، وجوز كون الضمير للتزيين المفهوم من الفعل أى فصدهم تزيين الشيطان ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ٢٤ ﴾ اليه وقوله تعالى ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أى لئلا يسجدوا واللام للتعليل وهو متعلق بصدهم أو بزين . والفاء فى (فصدهم) لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية أى فصدهم عن ذلك لاجل أن لا يسجدوا لله عز وجل أو زين لهم ذلك لاجل أن لا يسجدوا له تعالى ، وجوز أن تكون أن ومابعدها فى تاويل مصدر وقع بدلا من أعمالهم ومابينهما اعتراض كأنه قيل وزين لهم الشيطان عدم السجود لله تعالى ، وتعقب بانه ظاهر فى عد عدم السجود من الاعمال وهو بعيد ، وجوز أن يكون ذلك بدلا من السبيل و(لا) زائدة مثلها فى قوله تعالى (لئلا يعلم أهل

Marfat.com

الكتاب) كأنه قيل فصدهم عن السجود لله تعالى ، وجوز أن يكون بتقدير إلى و (لا) زائدة أيضا والجار والمجرور متعلق بيهتدون كأنه قيل فهم لا يهتدون إلى السجود له عز وجل ، وأنت تعلم أن زيادة لا - وان وقعت فى الفصيح خلاف الظاهر ، وجوز أن لا يكون هناك تقدير والمصدر خبر مبتدا محذوف أى دأبهم عدم السجود ، وقيل: التقدير هى أى أعمالهم عدم السجود وفيه مامر آنفا ، وقرأ ابن عباس . وأبو جعفر . والزهرى . والسلمى. والحسن . وحميد . والكسائى (ألا) بالتخفيف على أنها للاستفتاح ويا حرف نداء والمنادى محذوف أى ألا ياقوم اسجدوا كما فى قوله * ألا يا أسلمى ذات الدمالج والعقد * ونظائره الكثيرة . وسقطت ألف يا وألف الوصل فى (اسجدوا) و كتبت الياء متصلة بالسين على خلاف القياس. ووقف الكسائى فى هذه القراءة على ياء وابتدأ باسجدوا وهو وقف اختيار، وفى البحر الذى أذهب اليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ليست يا فيه للنداء والمنادى محذوف لأن المنادى عندى لا يجوز حذفه لأنه قد حذف الفعل العامل فى النداء وانحذف فاعله لحذفه فلو حذفنا المنادى لكان فى ذلك حذف جملة النداء وحذف متعلقه وهو المنادى وإذا لم نحذفه كان دليلا على العامل فيه وهو جملة النداء وليس حرف الندا حرف جواب كنعم وبلى ولا وأجل فيجوز حذف الجملة بعده كما يجوز حذفها بعدهن لدلالة ماسبق من السؤال على الجملة المحذوفة. فيا عندى فى تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به (ألا) التى للتنبيه وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ولقصد المبالغة فى التوكيد . وإذا كان قد وجد التاكيد فى اجتماع الحرفين المختلفى اللفظ العاملين فى قوله ٥ فاصبحن لا يسألنى عن بمابه ٥ والمتفقى اللفظ العاملين أيضا فى قـــوله :

فلا والله لا يلفى لمابى ولا للما بهم أبدا دواء

وجاز ذلك وإن عدوه ضرورة أو قليلا فاجتماع غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزا. وليس يا فى قوله * يالعنة الله والاقوام كلهم * حرف نداء عندى بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدا وليس مما حذف فيه المنادى لما ذكرناه انتهى، وللبحث فيه مجال. وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام استئنافا من كلام الهدهد اما خطابا لقوم سليمان عليه السلام للحث على عبادة الله تعالى أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلة المخاطبين. ويحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام كما قيل وهو حينئذ بتقدير القول *

ولعل الأظهر احتمال كونه استئنافا من جهته عز وجل خاطب سبحانه به هذه الأمة. والجملة معترضة ويوقف على هذه القراءة على (يهتدون) استحسانا ويوجب ذلك زيادة عدة آيات هذه السورة على ما قالوه فيها عند بعض ، وقيل : لا يوجبها فان الآيات توقيفية ليس مدارها على الوقف وعدمه فتأمل . والفرق بين القراءتين معنى أن فى الآية على الاولى ذما على ترك السجود وفيها على الثانية أمرا بالسجود. وأياما كان فالسجود واجب عند قراءة الآية ، وزعم الزجاج وجوبه على القراءة الثانية وهو مخالف لما صرح به الفقهاء ولذا قال الزمخشرى إنه غير مرجوع اليه . وقرأ الأعمش : (هلا يسجدون) على التحضيض واسناد الفعل إلى ضمير الغائبين . وفى قراءة أبى (ألا تسجدون) على العرض واسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين ، وفى حرف عبدالله (ألا هل تسجدون) بالا الاستفتاحية وهل الاستفهامية . واسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين قاله ابن عطية. وفى الكشاف ما فيه مخالفة ماله والعالم بحقيقة الحال هو الله عز وجل *

Marfat.com

﴿ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى يظهر الشىء المخبوء فيهما كائنا ما كان فالخبء مصدر أريد به اسم المفعول. وفسره بعضهم هنا بالمطر والنبات ، وروى ذلك عن ابن زيد . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب أنه فسره بالماء والأولى التعميم كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ٭

(وفى السموات) متعلق بالخبء ، وعن الفراء أن (فى) بمعنى من فالجار والمجرور على هذا متعلق بيخرج والظاهر ما تقدم. واختيار هذا الوصف لما أنه أوفق بالقصة حيث تضمنت ما هو أشبه شىء باخراج الخبء وهو إظهار أمر بلقيس وما يتعلق به. وعلى هذا القياس اختيار ما ذكر بعد من صفاته عز وجل ، وقيل : إن تخصيص هذا الوصف بالذكر لما أن الهدهد أرسخ فى معرفته والاحاطة بأحكامه بمشاهدة ءاثاره التى من جملتها ما أودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض. وأنت تعلم أن كون الهدهد أودع فيه القدرة على ما ذكر مما لم يجىء فيه خبر يعول عليه، وأيضا التعليل المذكور لا يتسنى على قراءة ابن عباس والستة الذين معه (ألا يسجدوا) بالتخفيف إذا جعل الكلام استئنافا من جهته عز وجل أو من جهة سليمان عليه السلام. وقرأ أبى . وعيسى (الخب) بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة. وحكى ذلك سيبويه عن قوم من بنى تميم. وبنى أسد ٭

وقرأ عكرمة بألف بدل الهمزة فلزم فتح ما قبلها وهى قراءة عبد الله. ومالك بن دينار . وخرجت على لغة من يقول فى الوقف هذا الخبو ومررت بالخى ورأيت الخبا وأجرى الوصل مجرى الوقف. وأجاز الكوفيون أن يقال فى المرأة والكماة المراة والكماة بابدال الهمزة ألفا وفتح ما قبلها . وذكر أن هذا الابدال لغة ٭

وجوز أن يكون (الخبء) من ذلك ومنعه الزمخشرى مدعيا أن ذلك لغة ضعيفة مستزلة. وعلل بأن الهمزة اذا سكن ما قبلها فطريق تخفيفها الحذف لا القلب كما يقال فى الكمء كمه. وتعقبه فى الكشف فقال : تخريجه على الوقف فيه ضعفان لأن الوقف على ذلك الوجه ليس من لغة الفصحاء واجراء الوصل مجرى الوقف فيما لا يكثر استعماله كذلك . وأما تلك اللغة فعن الكوفيين انها قياس انتهى . وزعم أبو حاتم أن الخبا بالألف لا يجوز أصلا وهو من قصور العلم .قال المبرد: كان أبو حاتم دون أصحابه فى النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلق أعلم منه . وأشير بعطف قوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٢٥﴾ على (يخرج) إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها. وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الالهى كذا قيل. ويشعر كلام بعضهم بانه أشير بما تقدم إلى كمال قدرته تعالى وبهذا إلى كمال علمه عز وجل وانه استوى فيه الباطن والظاهر. وقدم (ما تخفون) لذلك مع مناسبته لما قبله من الخبء وقدم وصفه تعالى باخراج الخبء من السموات لأنه أشد ملاءمة للمقام، والخطاب على ما قيل اما للناس أو لقوم سليمان أو لقوم بلقيس. وفى الكلام التفات ٭

وقرأ الحرميان . والجمهور (مايخفون ومايعلنون) بياء الغيبة ، وفى الكشاف عن أبى أنه قرأ (ألا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون) ٭

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٢٦﴾ فى معنى التعليل لوصفه عز وجل بكمال القدرة وكمال العلم. و(العظيم) بالجر صفة العرش وهو نهاية الاجرام فلا جرم فوقه ، وفى الآثار من وصف عظمه مايبهر

Marfat.com

العقول ويكفى فى ذلك أن الكرسى الذى نطق الكتاب العزيز بأنه وسع السموات والأرض بالنسبة اليه كحلقة فى فلاة، وهو عند الفلاسفة محدد الجهات وذهبوا إلى أنه جسم كرى خال عن الكواكب محيط بسائر الأفلاك محرك لها قسرا من المشرق إلى المغرب ولا يكاد يعلم مقدار ثخنه إلا الله تعالى، وفى الأخبار الصحيحة ما يأبى بظاهره بعض ذلك. وأياما كان فبين عظمه وعظم عرش بلقيس بون عظيم ٥

وقرأ ابن محيصن. وجماعة (العظيم) بالرفع فاحتمل أن يكون صفة للعرش مقطوعة بتقديره وفتستوى القراءتان معنى. واحتمل أن يكون صفة للرب ﴿قَالَ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل: فماذا فعل سليمان عليه السلام عند قوله ذلك؟ فقيل قال: ﴿سَنَنْظُرُ﴾ أى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والتفكر، والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٢٧﴾ جملة معلق عنها الفعل للاستفهام. وكان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ما عليه النظم الكريم للايذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فان مساق هذه الأقاويل الملفقة مع ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لاسيما بين يدى نبى عظيم تخشى سطوته لا يكاد يصدر إلا عمن رسخت قدمه فى الكذب والافك وصار سجية له حتى لا يملك نفسه عنه فى أى موطن كان. وزعم بعضهم أن ذاك لمراعاة الفاصلة وليس بشىء أصلا، وفى الآية على ما فى الاكليل قبول الوالى عذر رعيته ودرء العقوبة عنهم وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه السلام بعد ما كتب كتابه فى ذلك المجلس أو بعده. فهذا إشارة إلى الحاضر وتخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة ولئلا يبقى له عذر أصلا، وفى الآية دليل على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الامام لابلاغ الدعوة والدعاء إلى الاسلام. وقد كتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى كسرى. وقيصر. وغيرهما من ملوك العرب، وقرئ فى السبعة «فألقه» بكسر الهاء. وياء بعدها وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء، وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى تنح. وحمل على ذلك لأن التولى بالكلية ينافى قوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٨﴾ إلا أن يحمل على القلب كما زعم ابن زيد. وأبو على وهو غير مناسب. وأمره عليه السلام إياه بالتنحى من باب تعليم الآداب مع الملوك كما روى عن وهب ●

والنظر بمعنى التأمل والتفكر و«ماذا» إما كلمة استفهام فى موضع المفعول ليرجعون ورجع تكون متعدية كما تكون لازمة أو مبتدا و جملة (يرجعون) خبره. وإما أن تكون «ما» الاستفهامية مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذى خبره وجملة «يرجعون» صلة الموصول والعائد محذوف. وأياما كان فالجملة معلق عنها فعل القلب فمحلها النصب على إسقاط الخافض، وقيل: النظر بمعنى الانتظار كما فى قوله تعالى: (انظرونا نقتبس من نوركم) فلا تعليق بل كلمة (ماذا) موصول فى موضع المفعول كذا قيل، والظاهر أنه بمعنى التأمل وأن المراد فتأمل وتعرف ماذا يرد بعضهم على بعض من القول. وهذا ظاهر فى أن الله تعالى أعطى الهدهد قوة يفهم بها ما يسمعه من

Marfat.com

كلامهم ، والتعبير بالالقاء لأن تبليغه لا يمكن بدونه . وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ مافيه لجميع القوم والكشف عن حالهم بعده ه

﴿ قَالَتْ ﴾ أى بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فالقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به، وإنما طوى ذكره ايذانا بكمال مسارعته إلى اقامة ما أمر به من الخدمة واشعارا بالاستغناء عن التصريح به لغاية ظهوره *

روى أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فذهب به فوجدها راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة و طرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية، وفى رواية بين ثدييها ، وقيل : نقرها فانتبهت فزعة ، وقيل : اتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فالقى الكتاب فى حجرها فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فقالت ما قالت ، وقيل : كانت فى البيت كوة تقع الشمس منها كل يوم فاذا نظرت اليها سجدت فجاء الهدهد فسدها بجناحيه فرأت ذلك وقامت اليه فالقى الكتاب اليها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل يعرب بن قحطان واشتهر أنها من نسل تبع الحميرى وكان الخط العربى فى غاية الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة وهو المسمى بالخط الحميرى وكان بحمير كتابة تسمى المسند حروفها مفصلة وكانوا يمنعون من تعليمها الا باذنهم ومن حمير تعلم مضر، وقد تقدم بعض الكلام فى ذلك *

واختار ابن خلدون القول بأنه تعلم الكتابة العربية من التبابعة وحمير أهل الحيرة وتعلمها منهم أهل الحجاز وظاهر كون بلقيس من العرب وأنها قرأت الكتاب يقتضى أن الكتاب كان عربيا ، ولعل سليمان عليه السلام كان يعرف العربى وإن لم يكن من العرب . ومن علم منطق الطير لا يبعد أن يعلم منطق العرب الذى هو أشرف منطق . ويحتمل أن يكون عنده من يعرف ذلك وكذا من يعرف غيره من اللغات كعادة الملوك يكون عندهم من يتكلم بعدة لغات ليترجم لهم ما يحتاجونه ، ويجوز أن يكون الكتاب غير عربى بل بلغة سليمان عليه السلام وقلمه وكان قلمه كما نقل عن الامام أحمد البونى كاهنيا وكان عند بلقيس من ترجمه لها وأعلمها بما فيه فجمعت أشراف قومها وأخبرتهم بذلك واستشارتهم كما حكى سبحانه عنها بقولها جل وعلا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ٢٩ ﴾ الخ، وأقدم سليمان عليه السلام على كتابة الكتاب اليها كذلك قول الهدهد (وأوتيت من كل شىء) والمترجم من الاشياء التى يحتاج اليها الملك وأن اللائق بشأنه وعظمته أن لا يترك لسانه ويتشبه بها فى لسانها، ويحتمل أنها كانت بنفسها تعرف تلك الكتابة فقرأت الكتاب لذلك، ورجح احتمال أن يكون الكتاب غير عربى بأن الكتابة لها بالعربية تستدعى الوقوف على حالها وهو عليه السلام ما وقف عليه بعد ه

وتعقب بأنه دله على كونها عربية قول الهدهد (جئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم) فانه عليه السلام ممن لايخفى عليه كون سبا من العرب والظاهر كون ملكتهم منهم ، ووصفت الكتاب بالكرم لكونه مختوما ففى الحديث « كرم الكتاب ختمه » ، وفى شرح أدب الكاتب يقال أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، وقال ابن المقنع: من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به، وقد فسر ابن عباس . وقتادة. وزهير بن محمد (الكريم) هنا بالمختوم، وفيه كما قيل استحباب ختم الكتاب لكرم مضمونه وشرفه أو لكرم

Marfat.com

مرسله وعلو منزلته وعلمت ذلك بالسماع أو بكون كتابه مختوما باسمه على عادة الملوك والعظماء أو بكون رسوله به الطير أو لبداءته باسم الله عز وجل أو لغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد ، وقيل : أن ذلك لظنها اياه بسبب أن الملقى له طير أنه كتاب سماوى وليس بشئ. وبناء (القى) للمفعول لعدم الاهتمام بالفاعل ، وقيل : لجهلها به أو لكونه حقيراً . وقال الشيخ الاكبر قدس سره فى الفصوص: من حكمة بلقيس كونها لم تذكر من القى اليها الكتاب وماذاك الا لتعلم أصحابها أن لها اتصالا إلى أو ر لا يعلمون طريقها . وفى ذلك سياسة منها أورثت الحذر منها فى أهل مملكتها وخواص مدبريها وبهذا استحقت التقديم عليهم انتهى . وتاكيد الجملة للاعتناء بشان الحكم، وأما التاكيد فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٣٠ ﴾ فلذاك أيضا أولوقوعه فى جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ممن هذا الكتاب وماذا مضمونه؟ فقيل: إنه من سليمان الخ، ويحسن التاكيد بان فى جواب السؤال ولا أرى فرقا فى ذلك بين المحقق والمقدر، ويعلم مما ذكر أن ضمير (إنه) الأول للكتاب وضمير (إنه) الثانى المضمون وإن لم يذكر، وليس فى الآية مايدل على أنه عليه السلام قدم اسمه على اسم الله عز وجل ، وعلمها بانه من سليمان يجوز أن يكون لكتابة اسمه بعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال : كتب سليمان بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان ابن داود إلى بلقيس ابنة ذى شرح وقومها -أن لاتعلوا- الخ ، وجوز أن يكون لكتابته فى ظاهر الكتاب وكان باطن الكتاب (بسم الله) الخ ، وقيل : ضمير (انه) الأول للعنوان وانه عليه السلام عنون الكتاب باسمه مقدما له فكتب من سليمان (بسم الله) الخ واستظهر هذا أبو حيان ثم قال: وقدم عليه السلام اسمه لاحتمال أن يبدر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل وهو كما ترى، وكتابة البسملة فى أوائل الكتب مما جرت به سنة نبينا ﷺ بعد نزول هذه الآية بلاخلاف ، وأما قبله فقد قيل إن كتبه عليه الصلاة والسلام لم تفتتح بها، فقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى قال: كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فكتب النبى ﷺ أول ما كتب باسمك اللهم حتى نزلت (بسم الله مجراها ومرساها) فكتب بسم الله ثم نزلت (ادعوا الله أوادعوا الرحمن) فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت آية النمل (إنه من سليمان) الآيه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم. وأخرج أبو داود فى مراسيله عن أبى مالك قال: كان النبى ﷺ يكتب باسمك اللهم فلما نزلت (إنه من سليمان) الآية كتب بسم الله الخ، وروى نحو ذلك عن ميمون بن مهران . وقتادة ، وهذا عندى مما لايكاد يتسنى مع القول بنزول البسملة قبل نزول هذه الآية وهذا القول مما لاينبغى أن يذهب إلى خلافه، فقد قال الجلال السيوطى فى اتقانه اختلف فى أول ما نزل من القرآن على أقوال، أحدها وهو الصحيح (اقرأ باسمك ربك) واحتج له بعده أخبار منها خبر الشيخين فى بدء الوحى وهو مشهور ، وثانيها (ياأيها المدثر) وثالثها سورة الفاتحة، ورابعها البسملة ثم قال وعندى أن هذا لايعد قولا برأسه فانه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهى أول آية نزلت على الاطلاق اه .

وهو يقوى ما قلناه فان البسملة إذا كانت أول آية نزلت كانت هى المفتتح لكتاب الله تعالى واذا كانت كذلك كان اللائق بشانه ﷺ ان يفتتح بها كتبه كما افتتح الله تعالى بها كتابه وجعلها أول المنزل منه والقول بانها نزلت قبل الا أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم مشروعيتها فى أوائل الكتب والرسائل حتى نزلت هذه الآية المتضمنة لكتابة سليمان عليه السلام إياها فى كتابه الى أهل سبا مما لا يقدم عليه الا جاهل

Marfat.com

بقدره عليه الصلاة والسلام ، وذكر بعض الآجلة أنها اذا كتبت فى الكتب والرسائل فالأولى أن تكتب سطرا وحدها ٠

وفى أدب الكتاب للصولى أنهم يختارون أن يبدأ الكاتب بالبسملة من حاشية القرطاس ثم يكتب الدعاء مساويالها ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلا بقليل ولا يكتبونها وسطا ويكون الدعاء فاضلا اه وماذكر من كتابة الدعاء بعدها لم يكن فى الصدر الأول وإنما كان فيه كتابة من فلان إلى فلان ٠ وتقديم اسم الكاتب على اسم المكتوب له مشروع وإن كان الأول مفضولا والثانى فاضلا، ففى البحر عن أنس ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله ﷺ وكان أصحابه إذا كتبوا اليه كتابا بدؤا بأنفسهم ٠

وقال أبو الليث فى البستان له: ولو بدأ بالمكتوب اليه جاز لأن الأمة قد اجمعت عليه وفعلوه انتهى ٠

وظاهر الآية أن البسملة ليست من الخصوصيات ، وقال بعضهم : إنها منها لكن باللفظ العربى والترتيب المخصوص، ومافى كتاب سليمان عليه السلام لم تكن باللفظ العربى وترجمت لنا به وليس ذلك ببعيد ٠

وقرأ عبد الله (وإنه من سليمان) بزياده واو، وخرجه أبو حيان على أنها عاطفة للجملة بعدها على جملة (إنى القى) ، وقيل : هى واو الحال والجملة حالية ، وقرأ عكرمة . وابن أبى عبلة (أنه من سليمان وأنه) بفتح همزة أن فى الموضعين، وخرج على الابدال من(كتاب) أى ألقى إلى أنه الخ أو على أن يكون التقدير لأنه الخ كانها عللت كرم الكتاب بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله عز وجل ، وقرأ أبى (أن من سليمان وأن بسم الله) بفتح الهمزة وسكون النون، وخرج على أن أن هى المفسرة لأنه قد تقدمت جملة فيها معنى القول أو على أنها المخففة من الثقيلة وحذفت الهاء٠ و(أن) فى قوله تعالى:﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة ولاناهية . ويحتمل أن تكون مصدرية ناصبة للفعل ولانافية ، وقيل : يجوز كونها ناهية أيضا، ومحل المصدر الرفع على أنه بدل من (كتاب) أوخبر لمبتدا مضمر يليق بالمقام أى مضمونه أن لاتعلوا على أى أن لاتتكبروا على كما يفعل جبابرة الملوك ، وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى رواية وهب بن منبه . والأشهب العقيلى (أن لاتغلوا) بالغين المعجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد أى أن لاتتجاوزا حدكم ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣١﴾ عطف على ماقبله فان كانت فيه لا ناهية فعطف الأمر عليه ظاهر وإن كانت نافية وأن مصدرية فعطفه عليه من عطف الانشاء على الأخبار والكلام فيه مشهور، والأكثرون على جوازه فى مثل هذا. والمراد بالاسلام الايمان أى وائتونى مؤمنين، وقيل : المراد به الانقياد أى ائتونى منقادين مستسلمين. والدعوة على الأول دعوة النبوة وعلى الثانى دعوة الملك واللائق بشأنه عليه السلام هو الأول ٠

وفى بعض الآثار كما ستعلم ان شاء الله تعالى مايؤيده٠ ولايرد أنه يلزم عليه أن يكون الأمر بالايمان قبل إقامة الحجة على رسالته فيكون استدعاء للتقليد لأن الدعوة المذكورة هى الدعوة الأولى التى لاتستدعى اظهار المعجزة وإقامة الحجة ، وعادة الأنبياء عليهم السلام الدعوة إلى الايمان أولا فاذا عورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة ، وفيما نحن فيه لم يصدر معارضة ، وقيل : إن الدعوة ما كانت الا مقرونة باقامة الحجة لأن القاء الكتاب اليها على تلك الحالة التى ذكرت فيما مر أولا معجزة باهرة دالة على رسالته عليه السلام دلالة بينة ٠ وتعقب بأن كون الالقاء المذكور معجزة غير واضح خصوصا وهى لم تقارن التحدى ، ورجح

Marfat.com

الثانى بأن قولها :(إن الملوك) الخ صريح فى دعوة الملك والسلطنة *

وأجيب بأن ذاك لعدم تيقنها رسالته عليه السلام حينئذ أو هو من باب الاحتيال لجلب القوم إلى الاجابة بادخال الروع عليهم من حيثية كونه عليه السلام ملكا وهذا كما ترى ، والظاهر أنه لم يكن فى الكتاب أكثر مما قص الله تعالى وهو أحدى الروايتين عن مجاهد ، وثانيتهما أن فيه السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين ، وفى بعض الآثار أن نسخة الكتاب من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى - إلى آخر ماذكر ، ولعلها على ماهو الظاهر عرفت أنهم المعنيون بالخطاب من قرائن الأحوال ، وقد تضمن ماقصه سبحانه البسملة التى هى فى الدلالة على صفاته تعالى صريحا والتزاما والنهى عن الترفع الذى هو أم الرذائل والأمر بالاسلام الجامع لأمهات الفضائل فياله كتاب فى غاية الايجاز ونهاية الاعجاز ، وعن قتادة كذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملا لا يطيلون ولا يكثرون *

هذا ولم أر فى الآثار مايشعر بانه عليه السلام كتب ذلك على الكاغد أو الرق أو غيرهما ، واشتهر على ألسنة الكتاب أن الكتاب كان من الكاغد المعروف وأن الهدهد أخذه من طرفه بمنقاره فابتل ذلك الطرف بريقه وذهب منه شىء وكان ذلك الزاوية اليمنى من جهة أسفل الكتاب ، وزعموا أن قطعهم شيئا من القرطاس من تلك الزاوية تشبيها لما يكتبونه بكتاب سليمان عليه السلام وهذا مما لا يعول عليه ولسائر أرباب الصنائع والحرف حكايات من هذا القبيل وهى عند العقلاء أحاديث خرافة *

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى﴾ كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزها، والافتاء على ما قالى صاحب المطلع الاشارة على المستفتى فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتى من الرأى والتدبير وهو إزالة ماحدث له من الاشكال كالاشكاء ازالة الشكوى ، وفى المغرب اشتقاق الفتوى من الفتى لأنها جواب فى حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل ، وأياما كان فالمعنى أشيروا على بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث لى وذكرت لكم خلاصته، وقصدت بما ذكرت استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها وأكدت ذلك بقولها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ٣٢﴾ أى ما أقطع أمرا من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم، والاتيان بكان للايذان بانها استمرت على ذلك أو لم يقع منها غيره فى الزمن الماضى فكذا فى هذا و(حتى تشهدون) غاية للقطع *

واستدل بالآية على استحباب المشاورة والاستعانة بالآراء فى الأمور المهمة ، وفى قراءة عبد الله (ما كنت قاضية أمرا) ﴿قَالُوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكايه قولها كأنه قيل : فماذا قالوا فى جوابها؟ فقيل قالوا : ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾ فى الاجساد والعدد ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب قيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلا كل واحد على عشرة آلاف ، وروى ذلك عن قتادة *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيل تحت يد كل قيل مائة ألف ، وقيل : كان تحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمائة ألف مقاتل

Marfat.com

ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد كل قائد تحت يده اثنا عشر ألف مقاتل، وهذه الأخبار الى الكذب أقرب منها إلى الصدق، ولعمرى ان أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذى تضمنه الخبران الأخيران، وليت شعرى ما مقدار عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هذا العسكر والقواد والوزراء لسياستهم وضبط أمورهم وتنظيم أحوالهم ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ تسليم للامر اليها بعد تقديم ما يدل على القوة والشجاعة حتى لا يتوهم أنه من العجز . والأمر بمعناه المعروف أو المعنى الشأن وهو مبتدأ (واليك) متعلق بمحذوف وقع خبرا له ويقدر مؤخرا ليفيد الحصر المقصود لفهمه من السياق أى والأمر اليك موكول *

﴿ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ٣٣ ﴾ من الصلح والمقاتلة نطعك ونتبع رأيك، وقيل : أرادوا نحن من أبناء الحرب لامن أبناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحرب والعدول عن السنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام حسبما تعتقده، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى على منهاج المقاتلة والحرب ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ بتخريب عماراتها واتلاف ما فيها من الاموال *

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بالقتل والأسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال، ولم يقل وأذلوا أعزة أهلها مع أنه أخصر للمبالغة فى التصيير والجعل ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٣٤ ﴾ تصديق لها من جهته عز وجل على ما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أو هو من كلامها جاءت به تاكيدا لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بان ذلك عادتهم المستمرة فالضمير للملوك، وقيل : هو لسليمان ومن معه فيكون تاسيسا لا تاكيدا . وتعقب بان التاكيد لازم على ذلك أيضا للاندراج تحت الكلية وكانها أرادت على ما قيل: ان سليمان ،ملك والملوك هذا شانهم وغلبتنا عليه غير محققة ولا اعتماد على العدد والعدة والشجاعة والنجدة فربما يغلبنا فيكون ما يكون فالصلح خير، وقيل : إنها غلب على ظنها غلبته حيث رأت أنه سخر له الطير فجعل يرسله بامر خاص إلى شخص خاص مغلق عليه الأبواب فاشارت لهم إلى أنه يغلب عليهم إذا قاتلوه فيفسد القرى ويذل الأعزة وأفسدت بذلك رأيهم وما أحسته منهم من الميل إلى مقاتلته عليه السلام وقررت رأيها بقولها: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ٣٥ ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال ، وهذا ظاهر فى أنها لم تثق بقبوله عليه السلام هديتها *

وروى أنها قالت لقومها : إن كان ملكا دنيويا أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك وإن كان نبيا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه ،والهدية اسم لما يهدى كالعطية اسم لما يعطى، والتنوين فيها للتعظيم؛ و(ناظرة) عطف على (مرسلة) و(بم) متعلق بيرجع. ووقع للحوفى أنه متعلق بناظرة وهو وهم فاحش كما فى البحر، والنظر معلق والجملة فى موضع المفعول به له والجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للايذان بانها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف *

واختلف فى هديتها فعن ابن عباس أنها كانت مائة وصيف ومائة وصيفة ، وقال وهب. وغيره : عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فالبست الجوارى لبس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان

Marfat.com

لباس الجوارى وجعلت فى أيديهم أساور الذهب وفى أعناقهم أطواق الذهب وفى آذانهم أقرطة وشنوفا مرصعة بأنواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجوهر وعليه أغشية الديباج وبعثت اليه لبنات من ذهب ولبنات من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود وعمدت الى حق فجعلت فيه درة عذراء وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معه كتابا تذكر فيه الهدية وقالت فيه : إن كنت نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وأخبر بما فى الحق قبل أن تفتحه ثم قالت للرسول : فان أخبر فقل له اثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل فى الخرزة خيطا من غير علاج انس ولا جن وقالت للغلمان : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت فان نظر اليك نظراً فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فانا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبي فتفهم منه قوله ورد الجواب فانطلق الرجل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا إلى سليمان فاخبره الخبر فأمر عليه السلام الجن أن يضربوا لبنا من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسع فراسخ وأن يفرشوا فيه لبن الذهب والفضة وأن يخلوا قدر تلك اللبنات التى معهم وأن يعملوا حول الميدان حائطا مشرفا من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال : أى دواب البر والبحر أحسن فقالوا: يانبى الله مارأينا أحسن من دواب فى البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص قال على بها الساعة فاتوه بها قال: شدوها عن يمين الميدان وشماله وقال للجن: على بأولادكم فاجتمع منهم خلق كثير فاقامهم على يمين لميدان وعلى شماله وأمر الجن . والانس .والشياطين .والوحوش . والسباع . والطير ثم قعد فى مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسى على يمينه وعلى شماله وأمر جميع الانس. والجن. والشياطين. والوحوش. والسباع. والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان عليه السلام ورأوا الدواب التى لم يروا مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تصاغرت اليهم أنفسهم وخبؤا ما كان معهم من الهدايا ، وقيل : إنهم لما رأوا ذلك الموضع الخالى من اللبنات خاليا خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا مامعهم من اللبن فيه ولما نظروا إلى الشياطين هالهم مارأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين : جوزوا لا بأس عليكم وكانوا يمرون على كراديس الجن. والوحش. والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم ملقى حسنا وسألهم عن حالهم فاخبره رئيس القوم بماجاءوا فيه وأعطاه الكتاب فنظر فيه وقال : أين الحق فاتى به فحركه فجاء جبريل عليه السلام فاخبره بمافيه فقال لهم : إن فيه درة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب قال الرسول: صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الجزعة فقال سليمن عليه السلام من لى بثقبها وسال الجن والانس فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سال الشياطين فقالوا نرسل الى الأرضة فلما جاءت أخذت شعرة بفيها ونفذت فى الدرة حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها : ماحاجتك ؟ قالت: تصير رزقى فى الشجر فقال : لك ذلك ثم قال: من لهذه الخرزة؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يانبى الله فاخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال: ماحاجتك؟ قالت: يكون رزقى فى الفواكه فقال: لك ذلك ثم ميز

Marfat.com

بين الغلمان والجوارى أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تاخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى وتغسل وجهها والغلام ياخذ الماء بيديه ويضرب به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعديها والغلام على ظاهره ثم رد سليمن عليه السلام الهدية كما أخبر الله تعالى ، وقيل : إنها أنفذت مع هداياها عصا كان يتوارثها ملوك حمير وقالت : أريد أن تعرفنى رأسها من أسفلها وبقدح ماء وقالت : تملؤه ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء فأرسل عليه السلام العصا إلى الهواء وقال أى الطرفين سبق إلى الأرض فهو أصلها وأمر بالخيل فاجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال: هذا ليس من ماء الأرض ولا من ماء السماء اه . وكل ذلك أخبار لا يدرى صحتها ولا كذبها ، ولعل فى بعضها ما يميل القلب إلى القول بكذبه والله تعالى أعلم ٠

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فى الكلام حذف أى فارسلت الهدية فلما جاء الخ، وضمير (جاء) للرسول؛ وجوز أن يكون لما أهدت اليه والأول أولى ، وقرأ عبد الله (فلما جاؤا) أى المرسلون ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطاب للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وإطلاقا للجمع على الاثنين ، وجوز أن يكون للرسول ومن معه وهو أوفق بقراءة عبد الله ، ورجح الأول لما فيه من تشديد الانكار والتوبيخ المستفادين من الهمزة على ما قيل وتعميمهما لبلقيس وقومها ، وأيد بمجىء قوله تعالى (ارجع اليهم) بالافراد؛ وتنكير (مال) للتحقير ٠

وقرأ جمهور السبعة (تمدونن) بنونين وأثبت بعض الياء . وقرأ حمزة بادغام نون الرفع فى نون الوقاية وإثبات ياء المتكلم . وقرأ المسيبى عن نافع بنون واحدة حفيفة والمحذوف نون الوقاية ، وجوز أن يكون الأولى فرفعه بعلامة مقدرة كما قيل فى قوله :

أبيت اسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

﴿فَمَا ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ﴾ أى من النبوة والملك الذى لاغاية وراءه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم﴾ أى من المال الذى من جملته ما جئتم به ، وقيل : عنى بما آتاه المال لأنه المناسب للمفضل عليه والأول أولى لأنه أبلغ، والجملة تعليل للانكار والكلام كناية عن عدم القبول لهديتهم ، وليس المراد منه الافتخار بما أوتيه فكأنه قيل : أتنكر امدادكم إياى بمال لأن ماعندى خير منه فلاحاجة لى إلى هديتكم ولاوقع لها عندى ، والظاهر أن الخطاب المذكور كان أول ماجاؤه كما يؤذن به قوله تعالى :(فلما جاء سليمان) الخ . ولعل ذلك لمزيد حرصه على ارشادهم إلى الحق ، وقيل : لعله عليه السلام قال لهم ماذكر بعد أن جرى بينهم وبينه ماجرى مما فى خبر وهب. وغيره، واستدل بالآية على استحباب رد هدايا المشركين ٠

والظاهر أن الأمر كذلك إذا كان فى الرد مصلحة دينية لاطلقاء وإنما لم يقل: وما آتانى الله خير مما آتاكم لتكون الجملة حالا لما أن مثل هذه الحال وهى الحال المقررة للاشكال يجب أن تكون معلومة بخلاف العلة وهى هنا ليست كذلك ، وقوله تعالى ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٣٦﴾ اضراب عما ذكر من انكار الامداد بالمال وتعليله إلى بيان ماحملهم عليه من قياس حاله عليه السلام على حالهم وهو تصور همتهم على الدنيا والزيادة فيها فالمعنى أنتم تفرحون بما يهدى إليكم لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها ، ففى ذلك من الحط عليهم ما لا يخفى ، والهدية مضافة إلى المهدى اليه وهى تضاف إلى ذلك كما تضاف إلى المهدى أو اضراب

Marfat.com

عن ذلك إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى أهدوها اليه عليه السلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها، وفائدة الاضراب التنبيه على أن امداده عليه السلام بالمال منكر قبيح ، وعد ذلك مع أنه لاقدر له عنده عليه السلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل، قيل: وينبىء عن اعتدادهم بتلك الهدية التنكير فى قول بلقيس: (وإنى مرسلة اليهم بهدية) بعد عدها إياه عليه السلام ملكا عظيما •

وكذا ما تقدم فى خبر وهب . وغيره من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك ، وقيل : فرحهم بما أهدوه اليه عليه السلام من حيث توقعهم به ماهو أزيد منه فان الهدايا للعظماء قد تفيد ماهو أزيد منها ما لا أو غيره كمنع تخريب ديارهم هنا ، وقيل : الكلام كناية عن الرد ، والمعنى أنتم من حقكم أن تفرحوا باخذ الهدية لاأنا فخذوها وافرحوا وهو معنى لطيف إلا أن فيه خفاء ﴿ارْجِعْ﴾ أمر للرسول ولم يجمع الضمير كما جمعه فيما تقدم من قوله: (أتمدوننى) الخ لاختصاص الرجوع به بخلاف الامداد ونحوه ، وقيل : هو أمر للهدهد محملا كتابا آخر وأخرج ذلك ابن أبى حاتم عن زهير بن زهير •

وتعقب بأنه ضعيف دراية ورواية. وقرأ عبدالله (ارجعوا) على أنه أمر للمرسلين والفعل هنا لازم أى انقلب وانصرف ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أى إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ أى فوالله لنأتينهم ﴿ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وأصل القبل المقابلة فجعل مجازاً أو كناية عن الطاقة والقدرة عليها . وقرأ عبد الله (بهم) ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ ﴾ عطف على جواب القسم ﴿مِنْهَا﴾ أى من سبا ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أى حال كونهم أذلة بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين، وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم، وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٣٧ ﴾ حال أخرى، والصغار وإن كان بمعنى الذل إلا ان المراد به هنا وقوعهم فى أسر واستعباد فيفيد الكلام أن إخراجهم بطريق الاسر لا بطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل : ارجع اليهم فليأتونى مسلمين وإلا فلنأتينهم الخ•

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣٨ ﴾ فى الكلام حذف أى فرجع الرسول اليها وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فتجهزت للمسير اليه إذ علمت أنه نبى ولا طاقة لها بقتاله، فروى أنها أمرت عند خروجها فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى جوف بعض فى آخر قصر من قصورها وغلقت الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه وتوجهت إلى سليمان فى أقيالها وأتباعهم وأرسلت إلى سليمان إنى قادمة عليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك، قال عبد الله بن شداد : فلما كانت على فرسخ من سليمان قال : أيكم يأتينى بعرشها •

وعن ابن عباس كان سليمان مهيبا لا يبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه فنظر ذات يوم رهجا قريبا منه فقال : ماهذا ؟ فقالوا: بلقيس فقال: أيكم الخ ، ومعنى مسلمين على ما روى عنه طائعين ،وقال بعضهم: هو بمعنى مؤمنين ، واختلفوا فى مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشها، فعن ابن عباس • وابن زيد أنه عليه السلام استدعى ذلك ليريها القدرة التى هى من عند الله تعالى وليغرب عليها، ومن هنا قال فى الكشاف : لعله

Marfat.com

أوحى اليه عليه للسلام باستيثاقها من عرشها فاراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمن عليه السلام ويصدقها انتهى؛ وتقييد الاتيان بقوله (قبل) الخ لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله عز وجل وصحة نبوته عليه السلام وليكون اطلاعها على بدائع المعجزات فى أول مجيئها ه

وقال الطبرى: أراد عليه السلام أن يختبر صدق الهدهد فى قوله (ولها عرش عظيم) واستبعد ذلك لعدم احتياجه عليه السلام إلى هذا الاختبار فان أمارة الصدق فى ذلك فى غاية الوضوح لديه عليه السلام لا سيما إذا صح ما روى عن وهب . وغيره . وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته ام تنكره اختباراً لعقلها ه

وقال قتادة .وابن جريج: إنه عليه السلام أراد اخذه قبل أن يعصمها وقومها الايمان ويمنع أخذ أموالهم. قال فى الكشف: فيه أن حل الغنائم مما اختص به نبينا ﷺ ، وقال فى التحقيق لا يناسب ردالهدية. وتعليله بقوله « فما آتانى الله خير مما آتاكم » . وأجيب بان هذا ليس من باب أخذ الغنائم وإنما هو من باب أخذ مال الحربى والتصرف بغير رضاه مع أن الظاهر أنه بوحى فيجوز أنه من خصوصياته لحكمة ولم يكن ذلك هدية لها حتى لا يناسب الرد السابق وفيه بحث ، ولعل الالصق بالقلب أن ذاك لينكره فيمتحنها اختباراً لعقلها مع اراءتها بعض خوارقه الدالة على صحة نبوته وعظيم قدرة الله عزوجل. ثم الظاهر أن هذا القول بعد رد الهدية وهو الذى عليه الجمهور ه

وفى رواية عن ابن عباس أنه عليه السلام قال ذلك حين ابتدأ النظر فى صدق الهدهد من كذبه لما قال (ولها عرش عظيم) ففى ترتيب القصص تقديم وتأخير وأظن أنه لا يصح هذا عن ابن عباس ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ أى خبيث مارد ﴿ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ بيان له إذ يقال للرجل الخبيث المنكر الذى يعفر أقرانه ، وقرأ أبو حيوة « عفريت » بفتح العين . وقرأ أبو رجاء. وأبو السمال. وعيسى ورويت عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه (عفرية) بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث ، وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى أثر عفرية مصوب فى سواد الليل منقضب

وقرأت فرقة (عفر) بلا ياء ولا تاء ويقال فى لغة طيء وتميم: عفراة بالف بعدها تاء التأنيث، وفيه لغة سادسة عفارية؛ وتاء عفريت زائدة للمبالغة فى المشهور. وفى النهاية الياء فى عفرية وعفارية للالحاق بشرذمة وعذافرة والهاء فيهما للمبالغة والتاء فى عفريت للالحاق بقنديل اه .واسم هذا العفريت على ما أخرج ابن جرير. وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن ابن عباس صخر ه

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن جرير عن شعيب الجبائى أن اسمه كوزن . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد ابن رومان أن اسمه كوزى. وقيل: اسمه ذكوان ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾ أى بعرشها، وآتى يحتمل أن يكون مضارعا وان يكون اسم فاعل. قيل : وهو الأنسب بمقام ادعاء الاتيان به فى المدة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أى من مجلسك الذى تجلس فيه للحكومة وكان عليه السلام يجلس من الصبح إلى الظهر فى كل يوم قاله قتادة . ومجاهد . ووهب . وزهير بن محمد. وقيل : أى قبل أن تستوى من جلوسك قائما ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ ﴾ لا يثقل على حمله. والقوة صفة تصدر عنها الأفعال الشاقة و يطيق بها من قامت

Marfat.com

به لتحمل الاجرام العظيمة ولذا اختير قوى على قادر هنا، وظاهر كلام بعضهم أن فى الكلام حذفا فمنهم من قال: أى على حمله ومنهم قال: أى على الاتيان به، ورجح الثانى بالتبادر نظرا إلى أول الكلام. والأول بانه أنسب بقوله لقوى ﴿ أَمِينٌ ٣٩ ﴾ لا أقتطع منه شيئا ولا أبدله ﴿ قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ فصله عما قبله للايذان بما بين القائلين ومقالتيهما وكيفيتى قدرتيهما على الاتيان به من كمال التباين أو لاسقاط الأول عن درجة الاعتبار . واختلف فى تعيين هذا القائل فالجمهور ومنهم ابن عباس . ويزيد بن رومان. والحسن على أنه آصف بن برخيا بن شمعيا بن منكيل، واسم أمه باطورا من بنى اسرائيل كان وزير سليمان على المشهور ، وفى مجمع البيان أنه وزيره وابن اخته وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم ، وقيل كان كاتبه *

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد أنه رجل اسمه اسطوم ، وقيل: اسطورس *

وأخرج ابن أبى حاتم عن زهير بن محمد أنه رجل يقال له ذو النور . وأخرج هو أيضا عن ابن لهيعة أنه الخضر عليه السلام ، وعن قتادة أن اسمه مليخا، وقيل: ملخ. وقيل : تمليخا. وقيل: هود. وقالت جماعة هو ضبة ابن أد جد بنى ضبة من العرب وكان فاضلا يخدم سليمان كان على قطعة من خيله ، وقال النخعى هو جبريل عليه السلام ، وقيل: هو ملك ما خر أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ، وقال الجبائى: هو سليمان نفسه عليه السلام *

ووجه الفصل عليه واضح فان الجملة حينئذ مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل : فما قال سليمان عليه السلام حين قال العفريت ذلك؟ فقيل : قال الخ ويكون التعبير عنه بما فى النظم الكريم للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه، ويكون الخطاب فى قوله: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ للعفريت وإنما لم يأت به أولا بل استفهم القوم بقوله (أيكم يأتينى بعرشها) ثم قال ما قال وأتى به قصدا لأن يريهم أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن فضلا عن غيرهم. وتخصيص الخطاب بالعفريت لأنه الذى تصدى لدعوى القدرة على الاتيان به من بينهم، وجعله لكل أحد كما فى قوله تعالى .(ذلك أدنى أن لا تعولوا) غير ظاهر بالنسبة إلى ما ذكر *

وآثر هذا القول الامام وقال انه اقرب لوجوه. الاول ان الموصول موضوع فى اللغة لشخص معين يضمون الصلة المعلومة عند المخاطب والشخص المعلوم بأن عنده علم الكتاب هو سليمان وقد تقدم فى هذه السورة ما يستأنس به لذلك فوجب ارادته وصرف اللفظ اليه وآصف وان شاركه فى مضمون الصلة لكن هو فيه أتم لانه نبى وهو أعلم بالكتاب من امته. الثانى ان احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لاحد من امته دونه لاقتضى تفضيل ذلك عليه عليه السلام وانه غير جائز. الثالث أنه لو افتقر فى احضاره الى أحد من أمته لاقتضى قصور حاله فى أعين الناس *

الرابع أن ظاهر قوله عليه السلام فيما بعد (هذا من فضل ربى) الخ يقتضى أن ذلك الخارق قد أظهره الله تعالى بدعائه عليه السلام اه . وللمناقشة فيه مجال . واعترض على هذا القول بعضهم بأن الخطاب فى (آتيك) يأباه فان حق الكلام عليه أن يقال: انا آتى به قبل أن يرتد إلى الشخص طرفه مثلا، وقد علمت دفعه . وبأن المناسب أن يقال فيما بعد- فلما أتى به- دون (فلما رآه) الخ. وأجيب عن هذا بأن قوله ذاك للاشارة إلى أنه لا حول ولا قوة له فيه ، ولعل الأظهر أن القائل أحد أتباعه. ولا يلزم من ذلك أنه عليه السلام لم يكن قادرا على الاتيان به

Marfat.com

كذلك فان عادة الملوك تكليف أتباعهم بمصالح لهم لا يعجزهم فعلها بأنفسهم فليكن مانحن فيه جاريا على هذه العادة ، ولا يضر فى ذلك كون الغرض مما يتم بالقول وهو الدعاء ولايحتاج إلى أعمال البدن واتعابه كما لايخفى ه

وفى فصوص الحكم كان ذلك على يدبعض أصحاب سليمان عليه السلام ليكون أعظم لسليمان فى نفوس الحاضرين ، وقال القيصرى : كان سليمان قطب وقته ومتصرفا وخليفة على العالم وكان آصف وزيره وكان كاملا وخوارق العادات قلما تصدر من الأقطاب والخلفاء بل من ورائهم وخلفائهم لقيامهم بالعبودية التامة واتصافهم بالفقر الكلى فلايتصرفون لأنفسهم فى شئ ، ومن منن الله تعالى عليهم أن يرزقهم صحبة العلماء الأمناء يحملون منهم أثقالهم وينفذون أحكامهم وأقوالهم اه ، ومافى الفصوص أقرب لمشرب أمثالنا على أن ما ذكر لايخلو عن بحث على مشرب القوم أيضا ه

وفى مجمع البيان روى العياشى باسناده قال : التقى موسى بن محمد بن على بن موسى . ويحيى بن أكثم فسأله عن مسائل منها : هل كان سليمان محتاجا إلى علم آصف ؟ فلم يجب حتى سأل أخاه على بن محمد فقال : اكتب له لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه عليه السلام أحب أن يعرف أمته من الجن والانس أنه الحجة من بعده ، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بامر الله ففهمه الله تعالى ذلك لئلا يختلف فى إمامته كما فهم سليمان فى حياة داود لتعرف امامته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق اه وهو كما ترى . والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة ؛ وقيل : اللوح المحفوظ ، وكون المراد به ذلك على جميع الأقوال السابقة فى الموصول بعيد جدا ، وقيل : المراد به الذى أرسل إلى بلقيس ، ومن ابتدائية وتنكير (علم) للتفخيم والرمز إلى أنه علم غير معهود ، قيل : كان ذلك العلم باسم الله تعالى الأعظم الذى إذا سئل به أجاب ، وقد دعا ذلك العالم به فحصل غرضه ، وهو ياحى ياقيوم ، وقيل ياذا الجلال والاكرام ، وقيل الله الرحمن وقيل : هو بالعبرانية آهيا شراهيا ه

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن الزهرى أنه دعا بقوله : يا الهنا وإله كل شىء الها واحدا لاإله إلا أنت ائتنى بعرشها ، والطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شىء ثم تجوز به عن النظر وارتداده انقطاعه بانضمام الأجفان ولكونه أمرا طبيعيا غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ، فالمعنى ءاتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعد فتحه ، وقيل : لاحاجة إلى اعتبار التجوز فى الطرف إذ المراد قبل ارتداد تحريك الأجفان بطبقها بعد فتحها وفيه نظر ، والكلام جار على حقيقته وليس من باب التمثيل للسرعة ، فقد روى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد طرفه فنظر نحو اليمن فقبل أن يرتد اليه حضر العرش عنده . وقيل : هو من باب التمثيل فيحتمل أن يكون قد أتى به فى مدة طلوع درجة أو درجتين أو نحو ذلك ه

وعن ابن جبير . وقتادة أن الطرف بمعنى المطروف أى من يقع اليه النظر ، وأن المعنى قبل أن يصل اليك من يقع طرفك عليه فى أبعد ماترى إذا نظرت أمامك وهو كما ترى ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ أى فلما

Marfat.com

رأى سليمان عليه السلام العرش سا كنا عنده قارا على حاله التى كان عليها ﴿قَالَ﴾ تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن اخوانه الأنبياء عليهم السلام وخلص عباد الله عز وجل ﴿هَذَا﴾ أى الاتيان بالعرش أو حضوره بين يدى فى هذه المدة القصيرة ، وقيل: أى التمكن من احضاره بالواسطة أو بالذات ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّى﴾ أى تفضله جل شأنه على من غير استحقاق ذاتى لى له ولا عمل منى يوجبه عليه سبحانه وتعالى ، وفى الكلام حذف أى فاتاه به فرآه فلما رآه الخ وحذف ماحذف للدلالة على كمال ظهوره واستغنائه عن الاخبار به واللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شىء ما أصلا ، وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده تاكيد لهذا المعنى لايهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان أيضا كأنه لم يزل موجودا عنده . فمستقرا منتصب على الحال و(عنده) متعلق به وهو على ما أشرنا اليه كون خاص ولذا ساغ ذكره . وظن بعضهم أنه كون عام فاشكل عليهم ذكره مع قول جمهور النحاة: إن متعلق الظرف إذا كان كونا عاما وجب حذفه فالتزم بعضهم لذلك كون الظرف متعلقا برماه لابه . ومنهم من ذهب كابن مالك إلى أن حذف ذلك أغلبى وانه قد يظهر كما فى هذه الآية. وقوله :

لك العز ان مولاك عز وإن يهن فانت لدى بحبوحة الهون كائن

وأنت تعلم أنه يمكن اعتبار ما فى البيت كونا خاصا كالذى فى الآية . وفى كيفية وصول العرش اليه عليه السلام حتى رآه مستقرا عنده خلاف. فاخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر. وابن عساكر عن ابن عباس أنه قال لم يجر عرش صاحبة سبا بين السماء والارض ولكن انشقت به الارض فجرى تحت الارض حتى ظهر بين يدى سليمان وإلى هذا ذهب مجاهد وابن سابط. وغيرهما. وقيل نزل بين يدى سليمان عليه السلام من السماء وكان عليه السلام اذ ذاك فى أرض الشام على ماقيل رجع اليها من صنعاء وبينها وبين مأرب محل العرش نحو من مسافة شهرين . وعلى القول بانه كان فى صنعاء فالمسافة بين محله ومحل العرش نحو ثلاثة أيام. وأيا ما كان فقطعه المسافة الطويلة فى الزمن القصير أمر ممكن وقد أخبر بوقوعه الصادق فيجب قبوله . وقد اتفق البر والفاجر على وقوع ما هو أعظم من ذلك وهو قطع الشمس فى طرفة عين آلافا من الفراسخ مع أن نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبة الذرة إلى الجبل ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره : إن آصف تصرف فى عين العرش فاعدمه فى موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحد بذلك إلا من عرف الخلق الجديد الحاصل فى كل آن وكان زمان وجوده عين زمان عدمه وكل منهما فى آن وكان عين قول آصف عين الفعل فى الزمان فان القول من الكامل بمنزلة كن من الله تعالى ه

ومسألة حصول العرش من أشكل المسائل إلا عند من عرف ماذكرناه من الايجاد والاعدام فما قطع العرش مسافة ولا زويت له أرض ولا خرقها اه ملخصا. وله تتمة ستأتى إن شاء الله تعالى. وما ذكره من أنه كان بالاعدام والايجاد مما يجوز عندى وإن لم أقل بتجدد الجواهر تجدد الأعراض عند الاشعرى إلا أنه خلاف ظاهر الآية . واستدل بها على ثبوت الكرامات ه

وأنت تعلم أن الاحتمال يسقط الاستدلال. وعلل عليه السلام تفضله تعالى بذلك عليه بقوله ﴿لِيَبْلُوَنِى﴾ أى ليعاملنى معاملة المبتلى أى المختبر ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ على ذلك بان اراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى

Marfat.com

ولا قوة وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بان أجد لنفسى مدخلا فى البين أو اقصر فى إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد ، وأخرج ابن المنذر . وابن جرير عن ابن جريج أن المعنى ليبلونى أأشكر إذا اتيت بالعرش أم اكفر إذا رأيت من هو أدنى منى فى الدنيا أعلم منى، ونقل مثله فى البحر عن ابن عباس والظاهر عدم صحته ، وأبعد منه عن الصحة ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنه قال لما رآه مستقراً عنده جزع وقال: رجل غيرى أقدر على ما عند الله عزوجل منى ، ولعل الحق الجزم بكذب ذلك، وجملة (أأشكر) الخ فى موضع نصب على أنها مفعول ثان لفعل البلوى وهو معلق بالهمزة عنها إجراء له مجرى العلم وإن لم يكن مرادفا له ٥

وقيل : محله النصب على البدل من الياء ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى لنفعها لأنه يربط به القيد، ويستجلب المزيد ويحط به عن ذمته عبء الواجب و يتخلص عن وصمة الكفران ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أى لم يشكر ﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ٤٠ ﴾ بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر أيضا، والظاهر أن من شرطية والجملة المقرونة بالفاء جواب الشرط ، وجوز أن يكون الجواب محذوفا دل عليه ماقبله من قسيمه والمذكور قائم مقامه أى ومن كفر فعلى نفسه أى نضرر كفرانه عليها . وتعقب بانه لا يناسب قوله (كريم) وجوز أيضا أن تكون من موصولة ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط ﴿ قَالَ ﴾ أى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولاحقا من كلامه عليه السلام تنبيها على مابين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله عز وجل والثانى أمر لخدمه ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أى اجعلوه بحيث لا يعرف ولا يكون ذلك إلا بتغييره عما كان عليه من الهيئة والشكل ، ولعل المراد التغيير فى الجملة . روى عن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك إنه كان بالزيادة فيه والنقص منه ،وقيل : بنزع ما عليه من الجواهر، وقيل: بجعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، ولام (لها) للبيان كما فى (هيت لك) فيدل على أنها المرادة خاصة بالتنكير ﴿ نَنْظُرْ ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ٥

وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف ﴿ أَتَهْتَدِى ﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام . وقيل: إلى الايمان بالله تعالى ورسوله عليه السلام إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب وحكاه الطبرسى عن الجبائى، وفيه أنه لا يظهر مدخلية التنكير فى الايمان ﴿ أَمْ تَكُونُ ﴾ أى بالنسبة إلى علمنا ﴿ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ ﴾ أى إلى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب اللائق بالمقام فان كونها فى نفس الأمر منهم وإن كان أمرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ ﴾ شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام أى فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش منكرا بين يديه ﴿ قِيلَ ﴾ أى من جهة سليمان بالذات أو بالواسطة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى أمثل هذا العرش الذى ترينه عرشك الذى تركتيه ببلادك، ولم يقل: أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من ابراز العرش فى معرض الاشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها وقد ذكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل ٥

Marfat.com

وفى بعض الآثار أن الجن خافوا من أن يتزوجها فيرزق منها ولدا يحوز فطنة الانس وخفة الجن حيث كانت لها نسبة اليهم فيضبطهم ضبطا قويا فرموها عنده بالجنون وأن رجليها كحوافر البهائم فلذا اختبرها بهذا وبما يكون سببا للكشف عن ساقيها ، ومن لم يقل بنسبتها إلى الجن : يقول لعلها رماها حاسد بذلك فاراد عليه السلام اختبارها ليقف على حقيقة الحال ، ومنهم من يقول : ليس ذاك إلا ليقابلها بمثل ما فعلت هى حيث نكرت الغلمان والجوارى وامتحنته عليه السلام بالدرة العذراء والجزعة المعوجة الثقب وكون ذلك فى عرشها الذى يبعد كل البعد احضاره مع بعد المسافة وشدة محافظتها له أتم وأقوى ويتضمن أيضا من اظهار المعجزة مالا يخفى ، وهذا عندى ألصق بالقلب من غيره ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أجابت بما انبأ عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تجزم بانه هو لاحتمال أن يكون مثله بل أتت بكأن الدالة كما قيل على غلبة الظن فى اتحاده معه مع الشك فى خلافه وليست كأن هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها *

وذكر ابن المنير فى الانتصاف مايدل على أنها تفيد قوة الشبه فقال : الحكمة فى عدول بلقيس فى الجواب عن هكذا هو المطابق للسؤال إلى (كأنه هو) أن (كأنه هو) عبارة من قوى عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين وكاد يقول هو هو وتلك حال بلقيس ، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لاغير فلا تطابق حالها فلذا عدلت عنها إلى ما فى النظم الجليل ه

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ ﴾ من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين كانها استشعرت بما شاهدته اختبار عقلها واظهار معجزة لها ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها ، ولما كان اظهار المعجزة دون ذلك فى الظهور ذكرت ما يتعلق بها اخرا وهو قولها : (وأوتينا) الخ وفيه دلالة على كمال عقلها أيضا ، ومعناه وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أومن قبل هذه الحالة بما شاهدناه من أمر الهدهد وما سمعناه من رسلنا اليك من الآيات الدالة على ذلك وكنا مؤمنين من ذلك الوقت فلا حاجة إلى اظهار هذه المعجزة ، ولك أن تجعله من تتمة ما يتعلق بالاختبار وحاصلة لاحاجة إلى الاختبار لأنى ءامنت قبل وهذا كاف فى الدلالة على كمال عقلى ه

وجوز أن يكون لبيان منشأ غلبة الظن بأنه عرشها والداعى إلى حسن الأدب فى محاورته عليه السلام أى وأوتينا العلم باتيانك بالعرش من قبل الرؤية أومن قبل هذه الحالة بالقرائن أو الاخبار وكنا من ذلك الوقت مؤمنين ، والتعبير بنون العظمة جار على سنن تعبيرات الملوك وفيه تعظيم لأمر اسلامها وليس ذاك لارادة نفسها ومن معها من قومها إذ يبعده قوله تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهو بيان من جهته عزوجل لما كان يمنعها من اظهار ماادعت من الاسلام إلى الآن أى صدها عن اظهار ذلك يوم أوتيت العلم الذى يقتضيه عبادتها القديمة للشمس ، فما مصدرية والمصدر فاعل صد ، وجوز كونها موصولة واقعة على الشمس وهى فاعل أيضا والاسناد مجازى على الوجهين *

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ٤٣ ﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى انها كانت من قوم راسخين فى الكفر فلذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهى بين ظهرانيهم إلى أن حضرت بين يدى

Marfat.com

سليمان عليه السلام . وقرأ سعيد بن جبير . وابن أبى عبلة (أنها) بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل أى لأنها أو جعل المصدر بدلا من فاعل صـــد بدل اشتمال . وقيل : قوله تعالى (وأوتينا) الخ من كلام قوم سليمان عليه السلام كأنهم لما سمعوها أجابت السؤال بقولها: (كأنه هو)قالوا. قد أصابت فى جوابها فطبقت المفصل وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام وعلمت قدرة الله عز وجل وصحة النبوة بالآيات التى تقدمت وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها وعطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبل علمها ولم نزل على دين الاسلام ، وكان هذا منهم شكراً لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها ، ويومىء إلى هذا المطوى جعل علمهم واسلامهم قبلها ، وقوله تعالى : (وصدها) الخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم *

ويحتمل أن يكون ابتداء اخبار من جهته عزوجل . وعن مجاهد . وزهير بن محمد أن (وأوتينا) من كلام سليمان عليه السلام ، وفى(وصدها) الخ عليه أيضا احتمال ، ولا يخفى ما فى جعل (وأوتينا) الخ من كلام القوم أو من كلام سليمن عليه السلام من البعد والتكلف وليس فى ذلك جهة حسن سوى اتساق الضمائر المؤنثة * وقيل : إن (وأوتينا) الخ من تتمة كلامها . وقوله تعالى (وصدها) الخ ابتداء اخبار من جهته تعالى لبيان حسن حالها وسلامة اسلامها عن شوب الشرك بجعل فاعل صدها ضميره عز وجل أو ضمير سليمان عليه السلام *

وما مصدرية أوموصولة قبلها حرف جر مقدر أى صدها الله تعالى أو سليمان عن عبادتها من دون الله أو عن الذى تعبده من دونه تعالى . ونقل ذلك أبو حيان عن الطبرى وتعقبه بقوله : وهو ضعيف لا يجوز إلا فى الشعر نحو قوله * تمرون الديار ولم تعوجوا * وليس من مواضع حذف حرف الجر *

وأنت تعلم أن المعنى مع هذا مما لا ينشرح له الصدر ، وأبعد بعضهم كل البعد فزعم أن قوله تعالى (وصدها) الخ متصل بقوله سبحانه (أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون) والواو فيه للحال وقد مضمرة . وفى البحر أنه قول مرغوب عنه لطول الفصل بينها ولأن التقديم والتأخير لا يذهب اليه إلا عند الضرورة . ولعمرى من انصف رأى أن ماذكر مما لا ينبغى أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد ، وأنا أقول بعد القيل والقال: ان وجه ربط هذه الجمل مما يحتاج إلى تدقيق النظر فليتامل والله تعالى الموفق *

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ﴾ استئناف بيانى كانه قيل فماذا قيل لها بعد الامتحان المذكور ؟فقيل (قيل لها ادخلى) الخ ولم يعطف على قوله تعالى (أهكذا عرشك) لئلا يفوت هذا المعنى . وجىء بلها هنا دون مامر لمكان أمرها ، و (الصرح) القصر وكل بناء عال . ومنه (ابن لى صرحا) وهو من التصريح وهو الاعلان البالغ وقال مجاهد (الصرح) هنا البركة . وقال ابن عيسى الصحن وصرحة الدار ساحتها . وروى أن سليمان عليه السلام أمر الجن قبل قدومها فبنوا له على طريقها قصرا من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره . وفى رواية أنهم بنوا له صرحا وجعلوا له طوابيق من قوارير كأنها الماء وجعلوا فى باطن الطوابيق كل مايكون من الدواب فى البحر ثم أطبقوه. وهذا أوفق بظاهر الآية. ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير . والجن . والانس وفعل ذلك امتحانا لها أيضا على ماقيل ، وقيل : ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته وثباتا على الدين ، وقيل لأن الجن قالوا له عليه السلام إنها شعراء

Marfat.com

الساقين ورجلها كحافر الحمار فاراد الكشف عن حقيقة الحال بذلك ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره ماحاصله إنه أراد أن ينبهها بالفعل على أنها صدقت فى قولها فى العرش « كأنه هو » حيث أنه انعدم فى سبأ ووجد مثله بين يديه فجعل لها صرحا فى غاية اللطف والصفاء كأنه ماء صاف وليس به ، وهذا غاية الانصاف منه عليه السلام ولا أظن الأمر كما قال والله تعالى أعلم . واستدل بالآية على القول بأن أمرها بدخول الصرح ليتوصل به إلى كشف حقيقة الحال على اباحة النظر قبل الخطبة وفيه تفصيل مذكور فى كتب الفقه *

﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ أى رأت صحته بناء على أن الصرح بمعنى القصر ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أى ظنته ماء كثيرا ﴿ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ لئلا تبتل أذيالها كما هو عادة من يريد الخوض فى الماء ، وقرأ ابن كثير برواية قنبل (سأقيها) بهمز ألف ساق حملا له على جمعه سؤق وأسؤق فانه يطرد فى الواو المضمومة هى أو ما قبلها قلبها همزة فانجر ذلك بالتبعية إلى المفرد الذى فى ضمنه *

وفى البحر حكى أبو على أن أباحية النميرى كان يهمز كل واو قبلها ضمة وأنشد : ٭ أحب المؤقدين إلى مؤسى ٭

وفى الكشف الظاهر أن الهمز لغة فى ساق ويشهد له هذه القراءة الثابتة فى السبعة . وتعقب بانه يأباه الاشتقاق . وأياما كان فقول من قال: ان هذه القراءة لاتصح لايصح ﴿ قَالَ ﴾ أى سليمان عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب ، وقيل : القائل هو الذى أمرها بدخول الصرح وهو خلاف الظاهر ﴿ إِنَّهُ ﴾ أى ماحسبته لجة ﴿ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ أى ملس ومنه الأمرد للشاب الذى لاشعر فى وجهه وشجرة مرداء لاورق عليها ورملة مرداء لاتنبت شيئا والمارد المتعرى من الخير ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ من الزجاج وهو جمع قارورة ٭

﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت هذا الأمر العظيم ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ أى بما كنت عليه من عبادة الشمس ، وقيل : بظنى السوء بسليمان عليه السلام حيث ظنت أنه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد . ومثله ما قيل أرادت ظلمت نفسى بامتحانى سليمان حتى امتحننى لذلك بما أوجب كشف ساقى بمرأى منه ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ تابعة له ٭ مقيدة به ، وما فى قوله تعالى :﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٤ ﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل لاظهار معرفتها بالوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس ، وكأن هذا القول تجديد لاسلامها على أتم وجه وقد أخرجته مخرجا لا أنانية فيه ولا كبر أصلا كما لايخفى . واختلف فى أمرها بعد الاسلام فقيل إنه عليه السلام تزوجها وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له *

وأخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربعى أنه عليه السلام أمهرها بعلبك ، وذكر غير واحد أنها حين كشفت عن ساقيها أبصر عليهما شعراً كثيراً فكره أن يتزوجها كذلك فدعا الأنس فقال : مايذهب بهذا ؟ فقالوا : يارسول الله المواسى فقال : المواسى تقطع ساق المرأة ، وفى رواية أنه قيل لها ذلك فقالت لم يمسنى الحديد قط فكره سليمان المواسى وقال : إنها تقطع ساقيها ثم دعا الجن فقالوا مثل ذلك ثم دعا الشياطين فوضعوا له النورة ، قال ابن عباس وكان ذلك اليوم أول يوم رؤيت فيه النورة ، وعن عكرمة أن أول من

Marfat.com

وضع النورة شياطين الانس وضعوها لبلقيس وهو خلاف المشهور، ويروى أن الحمام وضع يومئذ ٠ وفى تاريخ البخارى عن أبى موسى الاشعرى قال : « قال رسول صلى الله تعالى عليه وسلم أول من صنعت له الحمامات سليمان » وأخرج الطبرانى . وابن عدى فى الكامل . والبيهقى فى شعب الايمان عنه أيضا قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام « أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال أوه من عذاب الله تعالى » وروى عن وهب أنه قال : زعموا ان بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختارى رجلا من قومك أزوجكه فقالت : أمثلى يانبى الله تنكح الرجال وقد كان فى قومى من الملك والسلطان ما كان؟ قال : نعم إنه لا يكون فى الاسلام إلا ذلك وما ينبغى لك أن تحرمى ما أحل الله تعالى لك فقالت: زوجنى ان كان لابد من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردها إلى اليمن وساط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة أمير جن اليمن فقال اعمل لذى تبع ما استعملك فيه فلم يزل بها ملكا يعمل له فيها حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبين الجن موته عليه السلام أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان فى جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام . وقال عون بن عبد الله: سأل رجل عبدالله بن عتبة هل تزوج سليمان بلقيس فقال انتهى امرها إلى قولها:(أسلمت مع سليمان لله رب العالمين) قيل: يعنى لا علم لنا وراء ذلك ٠

والمشهور أنه عليه السلام تزوجها واليه ذهب جماعة من أهل الاخبار . وأخرج البيهقى فى الزهد عن الاوزاعى قال : كسر برج من أبراج تدمر فاصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كأن أعطافها طى الطوامير عليها عمامة طولها ثمانون ذراعا مكتوب على طرف العمامة بالذهب (بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود عليهما السلام ملكت من الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلى ولا يملكه أحد بعدى صار مصيرى إلى الموت فاقصروا ياطالبى الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر، وكم فى هذه القصة من اخبار الله تعالى أعلم بالصحيح منها ، والقصة فى نفسها عجيبة وقد اشتملت على أشياء خارقة للعادة بل يكاد العقل يحيلها فى أول وهلة ، ومما يستغرب ولله تعالى فيه سر خفى خفاء أمر بلقيس على سليمان عدة سنين كما قاله غير واحد مع أن المسافة بينه وبينها لم تكن فى غاية البعد وقد سخر الله تعالى له من الجن . والشياطين. والطير. والريح ما سخر وهذا أغرب من خفاء أمر يوسف على يعقوب عليهما السلام بمراقب، وسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات وفى الأرض ، وهذا وللصوفية فى تطبيق ما فى هذه هذه القصة على ما فى الانفس كلام طويل ، ولعل الأمر سهل على من له أدنى ذوق بعد الوقوف على بعض ما مر من تطبيقاتهم ما فى بعض القصص على ذلك والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ٠

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على قوله تعالى : (ولقد ءاتينا داود وسليمان علما) مسوق لما سيق هو له، واللام واقعة فى جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أرسلنا ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ وإنما أقسم على ذلك اعتناء بشأن الحكم، و(صالحا) بدل من(أخاهم) أو عطف بيانى، وأن فى قوله تعالى ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ مفسرة لما فى الارسال من معنى القول دون حروفه ٠

وجوز كونها مصدرية حذف منها حرف الجر أى بأن، وقيل لان ووصلها بالامر جائز لاضير فيه كما مر ٠

Marfat.com

وقرىء بضم النون اتباعا لها للباء ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ أى فاجأ ارسالنا تفرقهم واختصامهم فآمن فريق وكفر فريق وكان ماحكى الله تعالى فى محل آخر بقوله سبحانه «قال الملأ الذين استكبروا الذين استضعفوا لمن آمن منهم» الآية . فاذا فجائية والعامل فيها مقدر لا «يختصمون» خلافا لابى البقاء لانه صفة «فريقان» كما قال ومعمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، وقيل: هذا حيث لا يكون المعمول ظرفا، وضمير «يختصمون» لمجموع الفريقين ولم يقل يختصمان للمقابلة، ويوهم كلام بعضهم أن الجملة خبر ثان وهو كما ترى، و«هم» راجع الى ثمود لانه اسم للقبيلة، وقيل: الى هؤلاء المذكورين ليشمل صالحا عليه السلام والفريقان حينئذ أحدهما صالح وحده وثانيهما قومه والحامل على هذا كما ذكره ابن عادل العطف بالفاء فانها تؤذن أنهم عقيب الارسال بلا مهلة صاروا فريقين ولا يصير قومه عليه السلام فريقين الا بعد زمان . وفيه أنه يأباه قوله تعالى «اطيرنا بك وبمن معك» وتعقيب كل شىء بحسبه على انه يجوز كون الفاء لمجرد الترتيب . ولعل فريق الكفرة أكثر ولذا ناداهم بقوله ياقوم كما حكى عنه فى قوله تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ لجعله فى حكم الكل أى قال عليه السلام للفريق الكافر منهم بعد ماشاهد منهم ماشاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة الى ان قالوا له عليه السلام ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين متلطفا بهم ياقوم ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أى بالعقوبة التى تسوءكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أى التوبة فتؤخرونها إلى - حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع إبعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما نحن عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أى هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ بقبولها إذ سنة الله تعالى عدم القبول عند النزول. وقد خاطبهم عليه السلام على حسب تخمينهم وجهلهم فى ذلك بأن ما خمنوه من التوبة إذ ذاك فاسدة وأن استعجالهم ذلك خارج من المعقول. والتقابل بين السيئة والحسنة بالمعنى الذى سمعت حاصل من كون احدهما حسنا والآخر سيئاً ، وقيل : المراد بالسيئة تكذيبهم إياه عليه السلام وكفرهم به وبالحسنة تصديقهم وإيمانهم ، والمراد من قوله (لم تستعجلون) الخ لومهم على المسارعة إلى تكذيبهم إياه وكفرهم به وحضهم على التوبة من ذلك بترك التكذيب والايمان. وحاصله لومهم على إيقاع التكذيب عند الدعوة دون التصديق وحضهم على تلافى ذلك . وإيهام الكلام انتفاء اللوم على إيقاع التكذيب بعد التصديق مما لا يكاد يلتفت اليه . ولا يخفى بعد طى الكشح عن المناقشة فيما ذكر أن المناسب لما حكى الله تعالى عن القوم فى سورة الاعراف ولما جاء فى الآثار هو المعنى الأول. ومن هنا ضعف ما روى عن مجاهد من تفسير الحسنة برحمة الله تعالى لتقابل السيئة المفسرة بعقوبته عز وجل ويكون المراد من استعجالهم بالعقوبة قبل الرحمة طلبهم إياها دون الرحمة فتأمل ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ أصله تطيرنا وقرىء به فادغمت التاء فى الطاء وزيدت همزة الوصل ليتأتى الابتداء، والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا بان مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا وإن مر بارحا بان مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا لأنه لا يمكن للمار به كذلك أن يرميه حتى ينحرف فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته عز وجل أو من عمل العبد الذى هو سبب الرحمة والنعمة أى تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد - وقد كانوا قحطوا - ولم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم. وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع وأن يكون من كل من المتعاطفين .

Marfat.com

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ أى سببكم الذى منه ينالكم ماينالكم من الشر ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قدره سبحانه أوعملكم المكتوب عنده عز وجل ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ مايحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعى اليه أى بل أنتم قوم تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة ، وجاء (تفتنون) بتاء الخطاب على مراعاة (أنتم) وهو الكثير فى لسان العرب، ويجوز فى مثل هذا التركيب (يفتنون) بياء الغيبة على مراعاة لفظ (قوم) وهو قليل فى لسانهم ﴿وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ﴾ أى مدينة ثمود وقريتهم وهى الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو اسم جمع يطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب ؛ وفى الكشاف هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة ، وقيل: بل يقال إلى الأربعين وليس بمقبول، وأصله على ما نقل عن الكرمانى من الترهيط وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل ، وقد أضيف العدد اليه. وقد اختلف فى جواز اضافته إلى اسم الجمع فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس وماورد من الاضافة اليه فهو على سبيل الندور ، وقد صرح سيبويه أنه لايقال ثلاث غنم *

وذهب قوم إلى أنه يجوز ذلك وينقاس وهو مع ذلك قليل ، وفصل قوم بين أن يكون اسم الجميع للقليل كرهط ونفر وذود فيجوز أن يضاف اليه إجراء له مجرى جمع القلة أو للكثير أو يستعمل لهما فلايجوز اضافته اليه بل إذا أريد تمييزه به جىء به مقرونا بمن كخمسة من القوم ، وقال تعالى (فخذ أربعة من الطير) وهو قول المازنى . واختار غير واحد أن اضافة تسعة إلى رهط هنا باعتبار أن رهطا لكونه اسم جمع للقليل فى حكم أشخاص ونحوه من جموع القلة وهى يضاف اليها العدد كتسعة أشخاص وتسع أنفس وهذا معنى قولهم : إن وقوع رهط تمييزا التسعة باعتبار المعنى فكانه قيل تسعة أشخاص، وقيل أى تسعة أنفس. وتأنيث العدد لأن المذكور فى النظم الكريم (رهط) وهو مذكر فليس ذاك من غير الفصيح كقوله ثلاثة أنفس وثلاث ذود ، نعم تقدير ماتقدم أسلم من المناقشة ، وأما ماقيل أى تسعة رجال ففيه الغفلة عما أشرنا اليه، ثم انه ليس المراد أن الرهط بمعنى الشخص أو بمعنى النفس بل أن التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هى الرهط فليس المعدود بالتسعة مادل عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسع جماعات لا تسعة أفراد *

وقال الامام الأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم لالاختلاف النسب اه ،وقيل: كان هؤلاء التسعة رؤساء مع كل واحد منهم رهط ، ولذا قيل تسعة رهط وأسماؤهم عن وهب. الهذيل بن عبد رب. وغنم بن غنم . ودباب بن مهرج . وعمير بن كردية . وعاصم بن مخزمة . وسبيط بن صدقة . وسمعان بن صفى. وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح ومن أبناء أشرافهم ،وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن أسماءهم دعمى. ودعيم . وهرمى . وهريم . ودواب . وصواب . ودياب . ومسطح . وقدار وهو الذى عقر الناقة ﴿يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ﴾ لافى المدينة فقط افسادا بحتا لايخالطه شىء من الصلاح كما ينطق به قوله تعالى ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ أى لايفعلون شيئاً من الاصلاح أو لايصلحون شيئاً من الأشياء، والمراد أن عادتهم المستمرة ذلك الافساد كما يؤذن به المضارع ، والجملة فى موضع الصفة لرهط أو لتسعة *

﴿قَالُوا﴾ استئناف ببيان بعض مافعلوا من الفساد أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح

Marfat.com

عليه السلام . وكان ذلك على ماروى عن ابن عباس بعد أن عقروا الناقة أنذرهم بالعذاب، وقوله: (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) الخ ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمر من التقاسم أى التحالف وقع مقول القول وهو قول الجمهور ٥ وجوز أن يكون فعلا ماضيا بدلا من (قالوا) أو حالا من فاعله بتقدير قد أو بدونها أى قالوا متقاسمين ومقول القول ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ الخ ، وجوز أبو حيان على هذا أن يكون بالله من جملة المقول · والبيات مباغتة العدو ومفاجأته بالايقاع به ليلا وهو غافل. وأرادوا قتله عليه السلام وأهله ليلا وهم غافلون . وعن الاسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظفر ٥

وقرأ ابن أبى ليلى (تقسموا) بغير ألف وتشديد السين ، والمعنى كما فى قراءة الجمهور · وقرأ الحسن . وحمزة . والكسائى (لتبيتنه) بالتاء على خطاب بعضهم لبعض . وقرأ مجاهد . وابن وثاب. وطلحة . والأعمش (ليبيتنه) بياء الغيبة. و(تقاسموا) على هذه القراءة لا يصح إلا أن يكون خبرا بخلافه عن القراءتين الأوليين فانه يصح أن يكون خبراً كما يصح أن يكون أمراً . وذلك لأن الأمر خطاب والمقسم عليه بعده لو نظر إلى الخطاب وجب تاء الخطاب ولو نظر إلى صيغة قولهم عند الحلف وجب النون فاما ياء الغائب فلا وجه له . وإما إذا جعل خبرا فهو على الغائب كما تقول حلف ليفعلن ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أى لولى صالح . والمراد به طالب ثاره من ذوى قرابته إذا قتل . وقرأ (لتقولن) بالتاء من قرأ (لتبيتنه) كذلك . وقرأ (ليقولن) بياء الغيبة من قرأ بها فيما تقدم . وقرأ حميد بن قيس الأول بياء الغيبة وهذا بالنون. قيل: والمعنى على ذلك قالوا متقاسمين بالله ليبيتنه قوم منا ثم لنقولن جميعنا لوليه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أى ماحضرنا هلاكهم على أن (مهلك) مصدر كمرجع أو مكان هلاكهم على أنه للمكان أو زمان هلاكهم على أنه للزمان . والمراد نفى شهود الهلاك الواقع فيه . واختاروا نفى شهود مهلك أهله على نفى قتلهم إياهم قصداً للمبالغة كأنهم قالوا ماشهدنا ذلك فضلا عن أن نتولى اهلاكهم· ويعلم من ذلك نفى قتلهم صالحا عليه السلام أيضا لأن من لم يقتل اتباعه كيف يقتله ، وقيل فى الكلام حذف أى ماشهدنا مهلك أهله ومهلكه ، واستظهره أبو حيان ثم قال وحذف مثل هذا المعطوف جائز فى الفصيح كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد ، وقال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر الاليال قـــلائل

أى بين الخير وبينى اه وفيه مالا يخفى . وقيل: الضمير فى (أهله) يعود على الولى . والمراد باهل الولى صالح وأهله . واعترض بانه لو أريد أهل الولى لقيل أهلك أو أهله. ومنع بان ذلك غير لازم . فقد قرئ (قل للذين كفروا ستغلبون) بالخطاب والغيبة ووجه ذلك ظاهر· نعم رجوع الضمير الى الولى خلاف الظاهر كما لا يخفى . وقرأ الجمهور (مهلك) بضم الميم وفتح اللام من أهلك وفيه الاحتمالات الثلاث · وقرأ أبو بكر (مهلك) بفتحهما على أنه مصدر ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ عطف على (ماشهدنا) كما ذهب اليه الزجاج · والمعنى ونحلف وإنا لصادقون . وجوز أن تكون الواو للحال أى والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا واستشكل ادعاؤهم الصدق فى ذلك وهم عقلاء ينفرون عن الكذب ما أمكن. وأجيب بان حضور الأمر غير مباشرته فى العرف لأنه لا يقال لمن قتل رجلا أنه حضر قتله وإن كان الحضور لازما للمباشرة فحلفوا على المعنى العرفى على العادة فى الايمان وأوهموا الخصم

Marfat.com

أنهم أرادوا معناه اللغوى فهم صادقون غير حانثين ، وكونهم من أهل التعارف أيضا لا يضر بل يفيد فائدة تامة ، وقال الزمخشرى . كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ، ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما . وتعقب بأن من فعل أمرين وجحد أحدهما لم يكن فى كذبه شبهة وإنما تتم الحيلة لو فعلوا أمراً واحدا وادعى عليهم فعل أمرين فجحدوا المجموع . ولذا لم يختلف العلماء فى أن من حلف لأضرب زيدا فضرب زيداً وعمرا كان حانثا بخلاف من حلف لأضرب زيدا وعمرا ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما فانه محل خلاف للعلماء فى الحنث وعدمه ، والحق أن تبرئتهم من الكذب فيما ذكر غير لازمة حتى يتكلف لها وهم الذين كذبوا على الله تعالى ورسوله عليه السلام وارتكبوا ماهو أقبح من الكذب فيماذكر ، ومقصود الزمخشرى تأييد مايزعمه هو وقومه من قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل بموافقة قوم صالح عليها ولايكاد يتم له ذلك ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ بهذه المواضعة ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠ ﴾ أى أهلكناهم اهلاكا غير معهود أو جازينا مكرهم من حيث لايحتسبون ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ شروع فى بيان ماترتب على ما باشروه من المكر ، والظاهر أن (كيف) خبر مقدم لكان و (عاقبة) الاسم أى كان عاقبة مكرهم واقعة على وجه عجيب يعتبر به ، والجملة فى محل نصب على أنها مفعول انظر وهى معلقة لمكان الاستفهام ، والمراد تفكر فى ذلك *

وقوله تعالى ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ فى تأويل مصدر وقع بدلا من «عاقبة مكرهم» أو خبر مبتدأ محذوف هو ضمير العاقبة ، والجملة مبينة لما فى عاقبة مكرهم من الابهام أى هو أو هى تدميرنا واهلاكنا إياهم ﴿ وَقَوْمَهُمْ ﴾ الذين لم يكونوا منهم فى مباشرة التبييت ﴿ أَجْمَعِينَ ٥١ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ أو هو على تقدير الجار أى لتدميرنا إياهم أو بتدميرنا إياهم ويكون ذلك تعليلا لما ينبىء عنه الأمر بالنظر فى كيفية عاقبة أمرهم من الهول والفظاعة . وجوز بعضهم كونه بدلا من (كيف) ، وقال آخرون : لايجوز ذلك لأن البدل عن الاستفهام يلزم فيه إعادة حرفه كقولك كيف زيد أصحيح أم مريض ؟ *

وجوز أن يكون هو الخبر لكان وتكون (كيف) حينئذ حالا والعامل فيها كان أو مايدل عليه الكلام من معنى الفعل ، ويجوز أن تكون كان تامة و (كيف) عليه حال لاغير والاحتمالات الجائزة فى «أنا دمرناهم» لا تخفى *

وقرأ الأكثر (إنا) بكسر الهمزة فكيف خبر كان و (عاقبة) اسمها وجملة (إنا دمرناهم) استئناف لتفسير العاقبة ، وجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف . قال الخفاجى : الظاهر أنه الشأن أو ضميره لاشىء آخر مما يحتاج للعائد ليعترض عليه بعدم العائد . ولا يرد عليه أن ضمير الشأن المرفوع منع كثير من النحويين حذفه فانه غير مسلم ، ويجوز أن تكون (كان) تامة و (كيف) حال كما تقدم ولم يجوز الجمهور كونها ناقصة والخبر جملة (انا دمرناهم) لعدم الرابط ، وقيل : يجوز ويكفى للربط وجود مايرجع إلى متعلق المبتدأ إذ رجوعه اليه نفسه غير لازم وهو تكلف وإنما يتمشى على مذهب الأخفش القائل إذا قام بعض الجملة مقام مضاف إلى العائد اكتفى به وغيره من النحاة يأباه ، وجوز أبو حيان على كلتا القراءتين أن تكون « كان » زائدة و (عاقبة) مبتدأ و (كيف) خبر مقدم له *

Marfat.com

وقرأ أبى «أن دمرناهم» بان التى من شانها أن تنصب المضارع ويجرى فى المصدر الاحتمالات السابقة فيه على قراءة (أنا) بفتح الهمزة. هذا وفى كيفية التدمير خلاف. فروى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا مافعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه ، وقيل : جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم ، وقد أرسل الله تعالى ملائكة ملء دار صالح عليه السلام فرموهم بالحجارة يرونها ولا يرون رامياً وهلك سائر القوم بالصيحة وقيل: إنهم عزموا على تبييته عليه السلام وأهله فاخبر الله تعالى بذلك صالحا فخرج عنهم ثم أهلكهم بالصيحة وكان ذلك يوم الأحد ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ جملة مقررة لما قبلها. وقوله تعالى ﴿خَاوِيَةً﴾ أى خالية أو ساقطة متهدمة أعاليها على أسافلها كما روى عن ابن عباس ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى بسبب ظلمهم المذكور حال من «بيوتهم» والعامل فيها معنى الاشارة . وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هى خاوية أو خبر بعد خبر لتلك أو خبر لها و(بيوتهم) بدل و بيوتهم هذه هى التى قال فيها ﷺ لأصحابه عام تبوك «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين» الحديث. وهى بوادى القرى بين المدينة والشام ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ أى ما من شانه أن يعلم من الأشياء أو لقوم يتصفون بالعلم ، وقيل : لقوم يعلمون هذه القصة وليس بشىء ، وفى هذه الآية على ماقيل دلالة على الظلم يكون سببا لخراب الدور *

وروى عن ابن عباس أنه قال أجد فى كتاب الله تعالى أن الظلم يخرب البيوت وتلا هذه الآية، وفى التوراة ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك ، قيل وهو اشارة إلى هلاك الظالم إذ خراب بيته متعقب هلاكه ، ولا يخفى أن كون الظلم بمعنى الجور والتعدى على عباد الله تعالى سببا لخراب البيوت مما شوهد كثيرا فى هذه الأعصار ، وكونه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك. نعم لا يبعد أن يكون على الكفرة يوم تخرب فيه بيوتهم إن شاء الله تعالى ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صالحا ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٣﴾ من الكفر والمعاصى اتقاء مستمراً فلذا خصوا بالنجاة. روى أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت وحين دخلها مات ولذلك سميت بهذا الاسم وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها حاضورا، وقد تقدم الكلام فى ذلك فتذكر ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بمضمر معطوف على «أرسلنا» فى صدر قصة صالح عليه السلام داخل معه فى حيز القسم أى وأرسلنا لوطا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرف للارسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال . وجوز أن يكون منصوبا باضمار اذكر معطوفا على ماتقدم عطف قصة على قصة و(إذ) بدل منه بدل اشتمال وليس بذاك . وقيل: هو معطوف على «صالحا». وتعقب بانه غير مستقيم لأن صالحا بدل أو عطف بيان لأخيهم وقد قيد بقيد مقدم عليه وهو «إلى ثمود» فلو عطف عليه تقيد به ولا يصح لأن لوطا عليه السلام لم يرسل إلى ثمود وهو متعين إذا تقدم القيد بخلاف ما لو تاخر، وقيل إن تعينه غير مسلم إذ يجوز عطفه على مجموع القيد والمقيد لكنه خلاف المالوف فى الخطابيات وارتكاب مثله تعسف لا يليق، وجوز أن يكون عطفا على الذين ءامنوا

Marfat.com

وتعقب بانه لا يناسب أساليب سرد القصص من عطف احدى القصتين على الأخرى لا على تتمة الأولى وذيلها كما لا يخفى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أى أتفعلون الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة، والاستفهام انكارى ٭

وقوله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٥٤﴾ جملة حالية من فاعل (تأتون) مفيدة لتأكيد الانكار فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، و(تبصرون) من بصر القلب أى اتفعلونها والحال أنتم تعلمون علما يقينيا كونها كذلك ٭ ويجوز أن يكون من بصر العين أى وأنتم ترون وتشاهدون كونها فاحشة على تنزيل ذلك لظهوره منزلة المحسوس، وقيل: مفعول (تبصرون) من المحسوسات حقيقة أى وأنتم تبصرون آثار العصاة قبلكم أو وأنتم ينظر بعضكم بعضا لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم اكتراثكم به، ووجه إفادة الجملة على الاحتمالين تأكيد الانكار أيضا ظاهر، وقوله تعالى ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تثنية للانكار وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الابهام، وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للايذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال شناعته، وايراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح وبيان اختصاصه ببنى آدم، وتعليل الاتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح لما أنها ليست فى محلها، وفيه اشارة إلى أنهم مخطؤن فى محلها فعلا، وفى قوله تعالى ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى متجاوزين النساء اللاتى هن محال الشهوة إشارة إلى أنهم مخطئون فيه تركا، ويعلم مما ذكرنا أن (شهوة) مفعول له للاتيان، وجوز أن يكون حالا ٭

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ٥٥﴾ أى تفعلون فعل الجاهلين بقبح ذلك أو يجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون كذا فى الكشاف، وإياما كان فلا ينافى قوله تعالى: (وانتم تبصرون) ولم يرتض ذلك الطيبى وزعم أن كلمة الاضراب تأباه: ووجه الآية بأنه تعالى لما أنكر عليهم فعلهم على الاجمال وسماه فاحشة وقيده بالحال المقررة لجهة الاشكال تتميما للانكار بقوله تعالى: (وأنتم تبصرون) أراد مزيد ذلك التوبيخ والانكار فكشف عن حقيقة تلك الفاحشة وأشار سبحانه إلى ما أشار ثم اضرب عن الكل بقوله سبحانه: (بل أنتم) الخ أى كيف يقال لمن يرتكب هذه الفحشاء وأنتم تعلمون فأولى حرف الاضراب ضمير (أنتم) وجعلهم قوما جاهلين والتفت فى (تجهلون) موبخا معيرا اه وفيه نظر. والقول بالالتفات هنا مما قاله غيره أيضا وهو التفات من الغيبة التى فى (قوم) إلى الخطاب فى (تجهلون) وتعقبه الفاضل السالكوتى بانه وهم إذ ليس المراد بقوم قوم لوط حتى يكون المعبر عنه فى الأسلوبين واحدا كما هو شرط الالتفات بل معنى كلى حمل على قوم لوط عليه السلام ٭

وقال بعض الأجلة: إن الخطاب فيه مع أنه صفة لقوم وهو اسم ظاهر من قبيل الغائب لمراعاة المعنى لأنه متحد مع (أنتم) لحمله عليه، وجعله غير واحد مما غلب فيه الخطاب، وأورد عليه أن فى التغليب تجوزا ولا تجوز هنا. وأجيب بأن نحو (تجهلون) موضوع للخطاب مع جماعة لم يذكروا بلفظ غيبة وهنا ليس كذلك فكيف لا يكون فيه تجوز، وقيل قولهم إن فى التغليب تجوزا خارج مخرج الغالب، وقال الفاضل السالكوتى إن قوله تعالى: (بل أنتم) الخ من المجاز باعتبار ما كان فان المخاطب فى (تجهلون) باعتبار كون القوم مخاطبين فى التعبير بانتم فلا يرد أن اللفظ لم يستعمل فيه فى غير ما وضع له ولا الهيئة التركيبية ولم يسند الفعل الى غير ما هو له فيكون هناك مجاز فافهم

﴿تم الجزء التاسع عشر من تفسير روح المعانى ويليه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون وأوله فما كان جواب قومه﴾

Marfat.com

صفحة

٢ حكاية بعض من أقاويل الكفار الباطلة منها قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) وبيان بطلانها

٣ بيان أن الكفار تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان حيث كذبوا الرسول ولم ينقادوا لأوامره ونواهيه ولم يكترثوا بمعجزاته وءاياته

٤ بيان ما يلقونه عند مشاهدة الملائكة

٦ تفسير قوله تعالى (حجرا محجورا)

٧ بيان أن أعمال الكافرين تكون يوم القيامة كالهباء المنثور فى الحقارة وعدم الجدوى

٩ تفسير قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام)

٩ الكلام على نزول الملائكة

١٠ بيان أن السلطة القاهرة والاستيلاء الكلى ظاهرا وباطنا ثابت للرحمن يوم تشق السماء بالغمام

١١ تفسير قوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) وبيان من نزلت فيه

١٢ تمنى الظالم أنه لم يتخذ من أضله خليلا

١٣ شكوى الرسول إلى ربه من هجر الكفار للقرآن وفيه دليل على كراهة هجر المصحف

١٤ تسلية النبى ﷺ عن تكذيب قومه

١٤ حكاية نوع ءاخر من أباطيلهم وهو اقتراحهم نزول القرءان جملة واحدة والرد عليهم وبيان حكمة نزوله منجما

١٦ تفسير قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)

١٨ تسلية النبى ﷺ بحكاية ما جرى للانبياء مع أممهم وتخصيص سيدنا موسى بالذكر من بينهم

١٨ حكاية ما وقع لقوم نوح جزاء تكذيبهم

١٨ حكاية ما وقع لعاد وثمود وأصحاب الرس

٢١ توبيخ قريش على عدم الاعتبار بمشاهدة آثار من قبلهم

٢٢ استحقار قريش للرسول وادعاؤهم أنه كاد يضلهم عن ءالهتهم

٢٣ تفسير قوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه)

٢٥ بيان ان الكفار كالأنعام بل هم أضل سبيلا

صفحة

٢٥ بيان بعض دلائل التوحيد

٢٦ تعريف الظل

٢٧ تفسير قوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا)

٢٩ بيان بدائع ءاثار قدرته تعالى فى الليل والنوم والنهار

٢٩ بيان بدائع ءاثار قدرته فى الرياح والأمطار

٣٠ بيان فوائد المياه

٣١ تفسير قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) الخ

٣٢ أمر النبى بجهاد الكفار بالقرءان

٣٣ تفسير قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج)

٣٥ تفسير قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا).

٣٦ انكار اتخاذ ءالهة من دون الله لا تنفعهم ولا تضرهم

٣٧ أمر النبى بالتوكل على الله

٣٨ تفسير قوله تعالى (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا)

٣٩ استكبار الكفار عن السجود للرحمن وتجاهلهم به

٤٠ تعريف البروج وبيانها

٤٠ الكلام على البروج عند علماء الهيئة

٤٢ تفسير قوله تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر) الخ

٤٣ بيان أوصاف خاص عباد الله وأحوالهم الدنيوية والأخروية

٤٤ تاويل قوله تعالى « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »

٤٤ بيان ما وقع لابراهيم بن المهدى لانحرافه عن على رضى الله عنه

٤٥ بيان حال المؤمنين فى معاملاتهم مع ربهم

٤٥ بيان دعاء المؤمنين فى أعقاب صلواتهم

٤٦ بيان حالهم فى الانفاق

Marfat.com

صفحة

٤٦ بيان أن نفقة المؤمنين وسط بين الاسراف والتقتير
٤٧ من صفات المؤمنين عدم الاشراك بالله وعدم قتل النفس المحرمة الا بالحق وبيان جزاء من يفعل ذلك
٤٩ بيان أن من تاب وعمل صالحا يبدل الله سيئاتهم حسنات
٥١ بيان أن من صفات المؤمنين عدم شهادة الزور وتجنب اللغو
٥١ من صفاتهم أيضا سماع القرءان وطلبهم من الله توفيق ذريتهم للطاعة
٥٣ بيان جزاء المؤمنين الموصوفين بالصفات المتقدمة
٥٤ تفسير قوله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم) الخ
٥٥ ﴿ ومن باب الاشارة ﴾
٥٨ ﴿ سورة الشعراء ﴾
٥٨ الكلام على (طسم)
٥٩ تفسير قوله تعالى (لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين)
٥٩ بيان أن الله لو شاء أن ينزل على الكفار آية تقهرهم على الايمان لفعل لكنه خلاف مقتضى الحكمة وهى أن يكون الايمان بمحض الاختيار
٦٠ بيان شدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عن الكفر
٦١ بيان اعراضهم عن الآيات الكونية
٦١ بيان ما فى الأرض من الآيات الكونية الدالة على ما يجب عليهم الايمان به
٦٣ تسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن تكذيب قومه بما وقع لسيدنا موسى من تكذيب قومه
٦٤ بيان ماقاله موسى عليه السلام عند ما أمر بالتوجه إلى قومه
٦٥ طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هرون وخوفه من التبعة التى عليه لقومه
٦٧ ضمان الله لموسى وهرون الحفظ والمعونة
٦٨ بيان ما قاله فرعون لموسى وهرون عندما بلغاه رسالة ربهم

صفحة

٦٩ تفسير قوله تعالى (فال فعلتها إذا وأنا من الضالين)
٦٩ تفسير قوله تعالى (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل)
٧١ استفهام فرعون عن المرسل سبحانه
٧٢ عدول موسى عليه السلام عن جوابه إلى ذكر صفاته عزوجل على نهج الأسلوب الحكيم
٧٢ بقية المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون
٧٣ اختلاف العلماء هل كان فرعون يعلم أن للعالم ربنا هو الله تعالى أم لا
٧٤ تفسير قوله تعالى (قال أولو جئتك بشىء مبين)
٧٥ القاء موسى العصا وانقلابها حية وإخراج يده بيضاء من غير سوء وادعاء فرعون أن هذا سحر
٧٦ اجتماع السحرة عند فرعون وتحتيمهم عليه أن يعطيهم أجراً
٧٧ القاؤهم الحبال والعصى والقاء موسى العصا تلقف ما القوه وانقلاب السحرة ساجدين
٨٠ تهديد فرعون للسحرة واتهامه اياهم بمواطاة موسى عليه السلام
٨٠ تفسير قوله تعالى (أن كنا أول المؤمنين)
٨١ إيحاء الله تعالى الى موسى بالخروج من مصر وارسال فرعون فى أثرهم
٨٣ اخراج فرعون وجنوده من أموالهم وكنوزهم
٨٤ تفسير قوله تعالى (فاتبعوهم مشرقين)
٨٤ خشية أصحاب موسى أن يدركهم فرعون وقومه وتطمينه لهم
٨٦ انفلاق البحر بضربة موسى عليه السلام
٨٦ تفسير قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم)
٨٩ انجاء موسى ومن معه واغراق فرعون وجنوده
٩٠ بيان شدة تعنت بنى اسرائيل بعد ما رأوا المعجزات
٩٣ دعوة ابراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وامتناعهم وعكوفهم على عبادة الأصناء
٩٤ ابطال عبادة الأصنام
٩٥ عداء ابراهيم عليه السلام للاصنام
٩٥ بيان صفات الرب المقتضية للعبودية
٩٧ استعظام ابراهيم عليه السلام ما عسى أن

Marfat.com

صفحة

يصدر منه من خلاف الأولى
٩٩ بيان دعاء ابراهيم على نبينا وعليه افضل الصلاة السلام لأبيه
١٠٠ تفسير قوله تعالى (الا من أتى الله بقلب سليم)
١٠١ تفسير قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين)
١٠٢ بيان أحوال أهل النار
١٠٣ اعتراف الكفار يوم القيامة انهم كانوا على ضلال حيث سووا آلهتهم برب العالمين
١٠٤ تحسر الكفار على فقد شفيع يشفع لهم
١٠٦ تمنى الكفار أن يكون لهم كرة ليحققوا الايمان
١٠٦ قصة قوم نوح عليه السلام وما وقع بينه وبينهم من الحوار حينما دعاهم الى التوحيد
١٠٩ قصة عاد وبيان ماوقع لهم مع هود عليه السلام وبيان أن مبنى بعثة الرسل هو الدعاء الى معرفة الحق
١١٢ قصة ثمود وما وقع لهم مع صالح عليه السلام وفيها عبرة لمن اعتبر بما حل بأعداء الرســـل
١١٤ قصة قوم لوط عليه السلام
١١٧ اهلاك قوم لوط بالحجارة
١١٧ قصة شعيب عليه السلام
١١٧ تفسير قوله تعالى (كذب أصحاب الأيكة)
١٢٠ التنويه بشان القرآن ورد ما قاله المشركون وبيان معنى نزول القرءان على قلب الرسول
١٢١ بيان ما قاله بعض المتاخرين فى كيفية نزول الكلام وهبوط الوحى من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبى ﷺ
١٢٥ تفسير قوله تعالى (وانه لفى زبر الأولين)
١٢٦ تفسير قوله تعالى (أولم يكن لهم ءاية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل)
١٢٨ تفسير قوله تعالى (كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب

صفحة

الأليم)
١٣١ تفسير قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون)
١٣٢ الرد على المشركين فى ادعائهم أن للنبى ﷺ تابعا من الجن يخبره كما يخبر الكهنة وان القرءان مما القاه اليه
١٣٤ تفسير قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين)
١٣٥ أمر النبى ﷺ بخفض الجناح للمؤمنين
١٣٦ الكلام على التوكل و بيان حقيقته
١٣٨ بيان استحالة تنزل الشياطين على النبى ﷺ
١٣٩ تفسير قوله تعالى (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) وبيان استراق الشياطين السمع وهو مبحث نفيس جدا أطال المؤلف رحمه الله تعالى نفسه فيه فطالعه بدقة
١٤٥ تنزيه النبى ﷺ عن الشعر
١٤٦ بيان أن الشعراء يهيمون فى شعاب الوهم والخيال ومسالك الغى والضلال
١٤٧ استثناء الشعراء المؤمنين الصالحين
١٤٧ الدليل على جواز الشعر الحسن
١٤٨ نبذة من أشعار السلف الصالح رضى الله عنهم
١٥٠ بيان وجه الجمع بين الآثار الواردة فى ذم الشعر وفى مدحه
١٥٢ تفسير قوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)
١٥٣ ﴿ ومن باب الاشارة ﴾
١٥٤ ﴿ سورة النمل ﴾
١٥٥ تفسير قوله تعالى (تلك ءايات القرءان وكتاب مبين)
١٥٦ بيان صفات المؤمنين
١٥٧ تفسير قوله تعالى (ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون)
١٥٨ قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع اهله فى اثناء سيره بعد خروجه من مدين
١٦٠ تفسير قوله تعالى (فلما جاءها نودى ان بورك من فى النار ومن حولها)

Marfat.com

صفحة

١٦١ تفسير قوله تعالى (ياموسى انه أنا الله العزيز الحكيم)
١٦١ أقوال أخر فى تفسير الآيات
١٦٢ أمر موسى عليه السلام بالقاء العصى
١٦٣ اختلاف العلماء هل يخاف الأنبياء سوء العاقبة أم لا
١٦٥ تفسير قوله تعالى (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم)
١٦٦ ادخال موسى يده فى جيبه واخراجها بيضاء من غير سوء
١٦٨ ادعاء قوم فرعون أن الآيات التى جاء بها موسى سحر وجحودهم لها
١٦٩ تفسير قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) الخ
١٧٠ الكلام على وراثة الأنبياء
١٧١ بيان ما علمه سليمان من منطق الطير
١٧٣ تفسير قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير)
١٧٥ تفسير قوله تعالى (حتى اذا أتوا على وادى النمل) الخ
١٧٦ اختلاف العلماء هل للحيوانات نفس ناطقة أم لا
١٧٧ بيان ان انتماء فى النملة للوحدة وتفصيل الكلام فى ذلك
١٧٩ الفرق بين التبسم والضحك وبيان ضحكه ﷺ
١٨١ تفسير قوله تعالى (وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)
١٨٢ الكلام على تفقد سليمان عليه السلام للطير
١٨٣ تفسير قوله تعالى (لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين)
١٨٦ تفسير قوله تعالى (فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين)
١٨٦ الكلام على سبأ
١٨٧ تفصيل النبأ الذى جاء به الهدهد وبيان أنه ان يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة
١٩٠ بيان ان ملكة سبا وقومها كانوا يعبدون الشمس من دون الله
١٩٠ تفسير قوله تعالى « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء »
١٩٣ بيان ان نبى الله سليمان عليه السلام نظر فى نبأ الهدهد
١٩٣ بيان ان كيفية النظر هى ارسال الهدهد اليهم بكتاب
١٩٤ بيان ماقالته الملكة عند ما وصل اليها الكتاب
١٩٥ بيان أن كتابة البسملة فى أوائل الكتب مما جرت به سنة نبينا ﷺ بعد نزول قوله « وانه بسم الله الرحمن الرحيم »
١٩٦ تفسير قوله تعالى (ألا تعلوا على) الآية
١٩٧ استفتاء بلقيس قومها وبيان ما أجابوها به
١٩٨ أقوال المفسرين فى بيان هدية بلقيس
٢٠٠ جواب نبى الله سليمان عليه السلام حين جاءته الهدية
٢٠٢ تفسير قوله تعالى (قال عفريت من الجن) الاية وأقوال المفسرين فيه
٢٠٣ بيان أن سليمن عليه السلام لم يكن محتاجا إلى علم آصف حتى طلب منه احضار عرش بلقيس
٢٠٥ بيان كيفية وصول عرش بلقيس اليه واختلاف العلماء فى ذلك
٢٠٦ تفسير قوله تعالى « قال نكروا لها عرشها» الآية
٢٠٨ بيان سبب بناء الصرح
٢٠٩ اسلام بلقيس وما ورد فى ذلك من الأخبار
٢١٠ تفسير قوله تعالى « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا » الآية
٢١٢ بيان معنى الرهط لغة
٢١٢ بيان بعض ما فعل قوم صالح من الفساد
٢١٤ بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر
٢١٥ ذكر قصة لوط عليه السلام
٢١٦ تفسير قوله تعالى « بل أنتم قوم تجهلون» وبه يتم الجزء.

{ تم }

Marfat.com

رُوحُ المَعَانِي

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتى بغـــداد العـــلامة أبى الفضـــل
شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صيب الرحمة وأفاض عليـه سجال
الاحسان والنعمة آمـــين

الجزء العشرون

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وإمضاء علامة العراق
﴿ المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ﴾

إدارة الطباعة المنيرية
دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ ﴾ أى من اتبع دينه وإخراجه عليه السلام يعلم من باب أولى . وقال بعض المحققين : المراد بآل لوط هو عليه السلام ومن تبع دينه كما يراد من بنى آدم آدم وبنوه ، وأيآما كان فلا تدخل امرأته عليه السلام فيهم ، وقوله سبحانه : (إلا) الخ استثناء مفرغ واقع فى موقع اسم كان ، وقرأ الحسن . وابن أبى اسحق (جواب) بالرفع فيكون ذاك واقعا موقع الخبر ، وقدم تحقيق الكلام فى مثل هذا التركيب ، وفى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ باضافة القرية إلى ـ كم ـ تهوين لأمر الاخراج ، وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ ﴾ تعليل للامر على وجه يتضمن الاستهزاء أى إنهم أناس يزعمون التطهر والتنزه عن أفعالنا أو عن الاقذار ويعدون فعلنا قذراً وهم متكلفون باظهار ماليس فيهم ، والظاهر أن هذا الجواب صدر عنهم فى المرة الاخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالامر والنهى لأنه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى بعد إهلاك القوم فالفاء فصيحة ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا ﴾ أى قدرنا كونها ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ٥٧ ﴾ أى الباقين فى العذاب ، وقدر المضاف لأن التقدير يتعلق بالفعل لا بالذات ، وجاء فى آية أخرى مايقتضى ذلك ، وهو قوله تعالى : (قدرنا أنها لمن الغابرين) ٭

وقرأ أبو بكر (قدرناها) بتخفيف الدال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ غير معهود ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أى فبئس مطر المنذرين مطرهم ، وقد مر مثل هذا فارجع إلى ماذكرناه عنده ٭

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ إثر ماقص سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ قصص الانبياء المذكورين وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه سبحانه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم ، وقد بين على ألسنتهم صحة الاسلام والتوحيد وبطلان الكفر والاشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى ، وشرح صدره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم بمافى تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ، ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس ، وقرر بذلك نحو قوله تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ٭

أمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحمده بأتم وجه على تلك النعم ويسلم على كافة الأنبياء عليهم السلام الذين من جملتهم من قصت أخبارهم وشرحت آثارهم عرفانا لفضلهم وأداءا لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين ، فالمراد بالعباد المصطفين الانبياء عليهم السلام لدلالة المقام ، وقوله تعالى فى آية أخرى : (وسلام على المرسلين) وقيل : هذا أمر له صلى الله تعالى عليه وسلم بحمده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الامم ، والسلام على الانبياء وأتباعهم الناجين صلى الله تعالى عليهم وسلم ، والسلام على غير الانبياء عليهم السلام إذا لم يكن استقلالا مما لاخلاف فى جوازه ، ولعل المنصف لايرتاب فى جوازه على عباد الله تعالى المؤمنين مطلقا ، وقيل : أمر

Marfat.com

له عليه الصلاة والسلام بالحمد على ماخصه جل وعلا به من رفع عذاب الاستئصال عن أمته ومخالفتهم لمن قبلهم ممن ذكرت قصته من الامم المستأصلة بالعذاب ، وبالسلام على الانبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة ٥

فالمراد بالمصطفين الانبياء خاصة ، وأخرج عبد بن حميد . والبزار . وابن جرير . وغيرهم عن ابن عباس أنه قال فيهم : هم أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اصطفاهم الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ٥

وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن سفيان الثورى أنه قال فى (وسلام) الخ : نزلت فى أصحاب محمد ﷺ خاصة . وهذا ظاهر فى القول بجواز السلام على غير الانبياء استقلالا كما هو مذهب الحنابلة وغيرهم ، والكلام على جميع هذه الأقوال متصل بما قبله ، وجعله الزمخشرى من باب الاقتضاب كأنه خطبة مبتدأة حيث قال : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته تعالى وقدرته على كل شئ وحكمته أعنى قوله سبحانه : (آلله) الخ ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول مايلقى إلى السامعين وإصغائهم اليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسمع ، ولقد توارثت العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الادب فحمدوا الله تعالى وصلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل موعظة وتذكرة وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المتراسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن انتهى ، ولعل جعل ذلك تخاصا من قصص الانبياء عليهم السلام إلى ماجرى له صلى الله تعالى عليه وسلم مع المشركين أولى ، وأبعد الأقوال القول باتصاله بما قبله ، وجعل ذلك أمراً للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه ، وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك لعدم ملاءمته لمابعده واحتياجه إلى تقدير وقلنا له ، وعزا هذا القول ابن عطية للفراء ، وقال : هذه عجمة من الفراء ، والظاهر أن (سلام) مبتدأ ومابعده خبره ، والجملة معطوفة على (الحمد لله) داخلة معه فى حيز القول ٥

وقرأ أبو السمال (الحمد لله) بفتح اللام ﴿ آللهُ ﴾ بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفا والأصل أألله ٥

﴿ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والظاهر أن (ما) موصولة والعائد محذوف أى (آلله) الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم الذى يشركونه من الاصنام ، و (خير) أفعل تفضيل ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عز وجل وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض ، وقيل : (خير) ليست للتفضيل مثلها فى قولك : الصلاة خير تعنى خيراً من الخيور ، والمختار الاول ، واستظهره أبو حيان ، وقال : كثيراً مايجئ هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لاشركة هناك ، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على الخطأ ويقصد بالاستفهام فى مثل ذلك إلزامه الاقرار بحصر التفضيل فى جانب واحد وانتفائه عن الآخر ، واستظهر أيضاً كون المراد بالخيرية الخيرية فى الذات ، وقيل : الخيرية فيما يتعلق بها ، وفى الكلام حذف فى موضعين ، والتقدير أعبادة الله تعالى خير أم عبادة مايشركون ، وقيل : (ما) مصدرية والحذف فى موضع واحد ، والتقدير أتوحيد الله خير أم إشراكهم ولاداعى لجميع ذلك ، وأيا ما كان فضمير الغائب لقريش ونحوهم من المشركين ، وقيل : لأولئك المهلكين وليس بشئ ، وقرأ الأكثرون - تشركون - بالتاء الفوقانية على توجيه الخطاب لمن ذكرنا من الكفرة

Marfat.com

وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم ، وجعل أبو البقاء هذه الجملة من جملة القول المأمور به ، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى : (فأنبتنا) الخ فانه صريح فى أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات ، وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبادته كما فى قوله سبحانه : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) تعسف ظاهر من غير داع اليه ، وفى بعض الآثار أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ، و(أم) فى قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ ﴾ منقطعة لامتصلة كالسابقة ، وبل المقدرة على القراءة الأولى وهى قراءة الحسن . وقتادة . وعاصم . وأبى عمرو للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد ، وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الالزام كنظائرها الآتية ، والهمزة لحملهم على الاقرار بالحق الذى لامحيص لمن له أدنى تمييز عن الاقرار به ، ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزه تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الأول خلا ـ أن تشركون ـ المقدر ههنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً ، وهكذا فى المواضع الأربعة الآتية ، والمعنى أم من خلق قطرى العالم الجسمانى ومبدأى منافع مابينهما ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الاولى لتشديد التبكيت والالزام ، واللام تعليلية أى وأنزل لاجلكم ومنفعتكم ﴿ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً ﴾ أى نوعا منه وهو المطر ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ ﴾ بمقتضى الحكمة لأن الانبات موقوف عليه عقلا ، وقيل : أى أنبتنا عنده ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ جمع حديقة وهى كما فى البحر البستان سواء أحاط به جدار أم لا ، وهو ظاهر إطلاق تفسير ابن عباس حيث فسر الحدائق لابن الازرق بالبساتين ولم يقيد ، وقال الزمخشرى : هى البستان عليه حائط من الاحداق وهو الاحاطة ، وهو مروى عن الضحاك ، وقال الراغب : هى قطعة من الأرض ذات ماء سميت حديقة تشبيها بحدقة العين فى الهيئة وحصول الماء فيها ، ولعل الأظهر مافى البحر وكأن وجه تسمية البستان عليه حديقة أن من شأنها أن تحدق بالحيطان أو تصرف نحوها الاحداق وتنظر اليها ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أى ذات حسن ورونق يبتهج به الناظر ويسر ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ أى ماصح وماأمكن لكم ﴿ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ فضلا عن خلق ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ماتشركون ، وتقدير الخبر هكذا هو مااختاره الزمخشرى وتبعه غيره .

وقال ابن عطية : يقدر الخبر يكفر بنعمته ويشرك به ونحو هذا فى المعنى ، وقال أبو الفضل الرازى فى كتاب اللوامح له : ولابد من إضمار معادل وذلك المضمر كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه ، والتقدير أم من خلق السموات والارض كمن لم يخلق ، وكذلك يقدر فى أخواتها ، وقد أظهر فى غير هذا الموضع ماأضمر هنا كقوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لايخلق) انتهى ، ولعل الأولى مااختاره جار الله وكذا يقال فيما بعد .

وقرأ الأعمش (أمن) بالتخفيف على أن الهمزة للاستفهام ، ومن بدل من الاسم الجليل وتقديم صلتى الانزال على مفعوله لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر ، والالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى والايذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد أمر عظيم لايكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل ، ورشح ذلك بقوله تعالى : (ماكان لكم) الخ سواء كان صفة لحدائق أو حالا

Marfat.com

أو استئنافا، وتوحيد وصفها السابق أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة ، وهذا شائع فى جمع التكسير كقوله تعالى : (أزواج مطهرة) وكذا الحال فى ضمير شجرها *

وقرأ ابن أبى عبلة ذوات بالجمع بهجة بفتح الهاء ﴿ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أى أإله آخر كائن مع الله تعالى الذى ذكر بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة ، وهذا تبكيت لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به عز وجل فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فان أحداً ممن له أدنى تمييز مما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه عز وجل ، وكذا الحال فى المواقع الاربعة الآتية ، وقيل : المراد نفى أن يكون معه تعالى إله آخر فى الخلق ، وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفى فقط فانهم لا ينكرونه حسبما يدل عليه قوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) بل باشراكهم به تعالى ما يعترفون بعدم مشاركته له سبحانه فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل : أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية حتى يجعل شريكا له تعالى فى العبادة ، وقيل : المعنى أغيره يقرن به سبحانه ويجعل له شريكا فى العبادة مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين. فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفى كما فى الوجهين السابقين ، ورجح بأنه الأظهر الموافق لقوله تعالى : (وما كان معه من إله) والأوفى بحق المقام لافادته نفى وجود إله آخر معه تعالى رأسا لا نفى معيته فى الخلق وفروعه فقط *

وقرأ هشام عن ابن عامر آاله بتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين ، وقرأ أبو عمرو . ونافع. وابن كثير ألها بالنصب على إضمار فعل يناسب المقام مثل أتجعلون . أو أتدعون . أو أتشركون *

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠ ﴾ إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم و(يعدلون) من العدول بمعنى الانحراف أى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذى هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذى هو الاشراك ، وقيل : من العدل بمعنى المساواة أى يساوون به غيره تعالى من آلهتهم ، وروى ذلك عن ابن زيد ، والأول أنسب بما قبله ، وقيل : الكلام عليه خال عن الفائدة ء

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بارساء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما يدور عليه منافعهم - فقراراً - بمعنى مستقراً لا بمعنى قارة غير مضطربة كما زعم الطبرسى فان الفائدة على ذلك أتم ، والجعل إن كان تصييرياً فالمنصوبان مفعولان وإلا فالثانى حال مقدرة ، وجملة قوله تعالى: (أمن جعل) الخ على ما قيل : بدل من قوله سبحانه : (أمن خلق السموات) إلى آخر ما بعدها من الجمل الثلاث وحكم الكل واحد ، وقال بعض الأجلة : الأظهر أن كل واحدة منها إضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر داخل فى الالزام بجهة من الجهات ، وإلى الابدال ذهب صاحب الكشاف ، وسننقل إن شاء الله تعالى عن صاحب الكشف ما فيه الكشف عن وجهه ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ ﴾ أى أوساطها جمع خلل، وأصله الفرجة بين الشيئين فهو ظرف حل محل الحال من قوله تعالى : ﴿ أَنْهَٰرًا ﴾ وساغ ذلك مع كونه نكرة لتقدم الحال أو المفعول الثانى - لجعل - و(أنهاراً) هو المفعول الأول ، والمراد بالأنهار ما يجرى فيها لا المحل

Marfat.com

الذى هو الشق أى جعل خلالها أنهاراً جارية تنتفعون بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا ﴾ أى لصلاح أمرها ﴿ رَوَاسِىَ ﴾ أى جبالا ثوابت فان لها مدخلا عاديا اقتضته الحكمة فى انكشاف المسكون منها وانحفاظها عن الميد بأهلها ؛ وتكون المياه الممدة للانهار المفضية لنضارتها فى حضيضها إلى غير ذلك ، وذكر بعضهم فى منفعة الجبال تكون المعادن فيها ونبع المنابع من حضيضها ولم يتعرض لمنفعة منعها الارض عن الحركة والميلان ، وعلل ترك التعرض بأنه لو كان المقصود ذلك لذكر عقب جعل الارض قراراً ، ومن أنصف رأى أن منع الجبال الارض عن الحركة والميلان اللذين يخرجان الارض عن حيز الانتفاع ويجعلان وجودها كعدمها من أهم مايذكر هنا لأنه مما به صلاح أمرها ورفعة شأنها، وذكر (لها) دون فيها أو عليها ظاهر فى أن المراد ماهو من هذا القبيل من المنافع فتأمل.

وإرجاع ضمير (لها) للانهار ليكون المعنى وجعل لامدادها رواسى ينبع من حضيضها الماء فيمدها لايخفى مافيه ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أى العذب والملح - عن الضحاك - أو بحرى فارس والروم - عن الحسن - أو بحرى العراق والشام - عن السدى - أو بحرى السماء والارض - عن مجاهد - ﴿ حَاجِزًا ﴾ فاصلا يمنع من الممازجة ، وقد مر الكلام فى تحقيق ذلك فتذكر ﴿ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ فى الوجود أو فى إبداع هذه البدائع على مامر ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى شيئاً من الأشياء علما معتداً به ولذلك لايفهمون بطلان ماهم عليه من الشرك مع كمال ظهوره ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجاء والضراعة إلى الله عز وجل ، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة ، ويرجع إلى هذا تفسير ابن عباس له بالمجهود ، وتفسير السدى بالذى لاحول ولاقوة له ، وقيل : المراد بذلك المذنب إذا استغفر ، واللام فيه على ماقيل : للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر ولم من مضطر لايجاب.

وجوز حمله على الاستغراق لكن الاجابة مقيدة بالمشيئة كما وقع ذلك فى قوله تعالى : (فيكشف ماتدعون اليه إن شاء) ومع هذا كره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقول الشخص : اللهم اغفر لى إن شئت ؛ وقال عليه الصلاة والسلام : « إنه سبحانه لامكره له » ، والمعتزلة يقيدونها بالعلم بالمصلحة لايجابهم رعاية المصالح عليه جل وعلا ، وقال صاحب الفرائد : مامن مضطر دعا إلا أجيب وأعيد نفع دعائه اليه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة، وذلك أن الدعاء طلب شيء. فان لم يعط ذلك الشيء بعينه يعط ماهو أجل منه أو إن لم يعط هذا الوقت يعط بعده اهـ

وظاهره حمله على الاستغراق من دون تقييد الاجابة ، ولايخفى أنه إذا فسرت الاجابة باعطاء السائل ماسأله حسبما سأل لابقطع سؤاله سواء كان بالاعطاء المذكور أم بغيره لم يستقم ماذكره، وقال العلامة الطيبي : التعريف للعهد لأن سياق الكلام فى المشركين يدل عليه الخطاب بقوله تعالى : (ويجعلكم خلفاء) والمراد التنبيه على أنهم عند اضطرارهم فى نوازل الدهر وخطوب الزمان كانوا يلجأون إلى الله تعالى دون الشركاء والاصنام ، ويدل على التنبيه قوله تعالى : (أإله مع الله قليلا ماتذكرون) قال صاحب المفتاح : كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله تعالى دون أصنامهم ، فالمعنى إذا حزبكم أمر أو قارعة من قوارع الدهر إلى أن تصيروا آيسين من الحياة من يجيبكم إلى كشفها ويجعلكم بعد ذلك تتصرفون فى البلاد كالخلفاء (أإله مع الله) فلا يكون المضطر عاما ولا الدعاء فانه مخصوص بمثل قضية الفلك ، وقد أجيبوا اليه فى قوله تعالى: (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) الآية اهـ

Marfat.com

وأنت تعلم أنه بعيد غاية البعد، ولعل الاولى الحمل على الجنس والتقييد بالمشيئة وهو سبحانه لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، والدعاء بشىء من قبيل أحد الأسباب العادية له فافهم ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أى يرفع عن الانسان ما يعتريه من الأمر الذى يسوؤه ، وقيل : الكشف أعم من الدفع والرفع ، وعطف هذه الجملة على ما قبلها من قبيل عطف العام على الخاص ، وقيل : المعنى ويكشف سوءه أى المضطر ، أو ويكشف عنه السوء والعطف من قبيل عطف التفسير فان إجابة المضطر هى كشف السوء عنه الذى صار مضطراً بسببه وهو كما ترى ٠

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى خلفاء من قبلكم من الامم فى الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها بعدهم، وقيل : المراد بالخلافة الملك والتسلط ، وقرأ الحسن . ونجعلكم . بنون العظمة ﴿ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ الذى هذه شئونه ونعمه تعالى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾ أى تذكراً قليلا ، أو زمانا قليلا تتذكرون ـ فقليلا ـ نصب على المصدرية ، أو على الظرفية لأنه صفة مصدر أو ظرف مقدر ، و ـ ما ـ مزيدة على التقديرين لتأكيد معنى القلة التى أريد بها العدم ، أو ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى ، ومفعول (تذكرون) محذوف للفاصلة ، فقيل : التقدير تذكرون نعمه ، وقيل : تذكرون مضمون ماذكر من الكلام ، وقيل : تذكرون مامر لكم من البلاء والسرور ، ولعل الأولى نعمه المذكورة ، وللايذان بأن المتذكر فى غاية الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه اليه كان التذييل بنفى التذكر ، وقرأ الحسن . والاعمش . وأبو عمرو ـ يذكرون ـ بياء الغيبة ، وقرأ أبو حيوة ـ تتذكرون ـ بتاءين ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى يرشدكم فى ظلمات الليالى فى البر والبحر بالنجوم ونحوها من العلامات ، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر للملابسة وكونها فيهما، وجوز أن يراد بالظلمات الطرق المشبهات مجازاً فانها كالظلمات فى إيجاب الحيرة ٠

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ قد تقدم تفسير نظير هذه الجملة ﴿ ءَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ نفى لأن يكون معه سبحانه إله آخر ، وقوله تعالى : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣ ﴾ تقرير وتحقيق له ، وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم أى تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال ، المقتضية لكون جميع المخلوقات مقهورة تحت قدرته (عما يشركون) أى عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلهاً وشريكاله تعالى ، أو تعالى الله عن شركة أو مقارنة ما يشركونه به سبحانه ، ويجوز أن تكون ـ ما ـ مصدرية أى تعالى الله عن إشراكهم ، وقرئ (عما تشركون) بتاء الخطاب ٠

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ﴾ أى يوجده مبتدئاً له ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بكرر إيجاده ويرجعه كما كان ، وذلك بعد إهلاكه ضرورة أن الاعادة لا تعقل إلا بعده ، والظاهر أن المراد بهذا ما يكون من الاعادة بالبعث بعد الموت ، فأل فى الخلق ليست للاستغراق لأن منه ما لا يعاد بالاجماع ، ومنه ما فى إعادته خلاف بين المسلمين، وتفصيله فى محله ٠

واستشكل الحمل على الاعادة بالبعث بأن الكلام مع المشركين وأكثرهم منكرون لذلك فكيف يحمل الكلام عليه ويخاطبون به خطاب المعترف ؟ وأجيب بأن تلك الاعادة لوضوح براهينها جعلوا كأنهم معترفون بها لتمكنهم من معرفتها فلم يبق لهم عذر فى الانكار ؛ وقيل : إن منهم من اعترف بها ، والكلام بالنسبة اليه وليس بذاك ، وأما تجويز كون أل للجنس وأن المراد بالبدء والاعادة ما يشاهد فى عالم الكون والفساد من

Marfat.com

إنشاء بعض الأشياء وإهلاكها ، ثم إنشاء أمثالها وذلك مما لا ينكره المشركون المنكرون للاعادة بعد الموت فليس بشىء أصلا كما لا يخفى ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين ﴿ ءَإِلَٰهٌ ﴾ آخر موجود ﴿ مَعَ اللَّهِ ﴾ حتى يجعل شريكا له سبحانه فى العبادة ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت أى هاتوا برهانا عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه عز وجل إلها ، وقيل : أى هاتوا برهانا على أن غيره تعالى يقدر على شىء مما ذكر من أفعاله عز وجل ، وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها فى الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له ، وفى إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك ، وقيل : إن الاضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهانا يدل على ذلك وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوى العقول كذلك ، ومع هذا أنتم عاجزون عن الاتيان به ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦٤ ﴾ أى فى تلك الدعوى ، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم تنور بالبرهان *

هذا وفى الكشف أن مبنى هذه الآيات الترقى لأن الكلام فى إثبات أن لا خيرية فى الاصنام مع أن كل خير منه تبارك وتعالى ، فأجمل أولا بذكر اسمه سبحانه الجامع فى قوله تعالى : (أألله) ثم أخذ فى المفصل فجعل خلق السموات والارض تمهيداً لإنزال الماء وإنبات الحدائق لا بل للاخير ، يدل عليه الالتفات هنالك والتأكيد بقوله تعالى:(ما كان لكم أن تنبتوا) كأنه يذكر سبحانه ما فيها من المنافع الكثيرة لونا وطعما ورائحة واستراح ظل*

ولما أثبت أنه فعله الخاص أنكر أن يكون له شريك وجعلهم عادلين عن منهج الصواب أو عادلين به سبحانه من لا يستحق ، والأول أظهر ، ثم ترقى منه إلى ما هو أكثر لهم خيراً وأظهر فى نفعهم من جعل الارض قراراً وما عقبه، فذكر جل وعلا ما لا يتم الانبات المذكور إلا به مع منافع يتصاغر لديها منفعة الانبات ، وعقبه بجهلهم المطلق المنتج للعدول المذكور ، وأسوأ منه وأسوأ ، ثم بالغ فى الترقى فذكر ما هو لصيق بهم دون واسطة من دفع أو نفع فخص إجابتهم عند الاضطرار ، وعم بكشف السوء والمضار ، هذا فيما يرجع إلى دفع المحذور وإقامتهم خلفاء فى الأرض ينتفعون بها وبما فيها كما أحبوا ، وهذا أتم من الأولين وأعم وأجل موقعاً وأهم ، ولهذا فصل بعدم التذكر وبولغ فيه تلك المبالغات ، وأما ذكر الهداية فى ظلمات البر والبحر وذكر إرسال الرياح المبشرة استطراداً لمناسبة حديث الرياح مع الهداية فى البحر ، فمن متممات الخلافة وإجابة المضطر وكشف السوء فافهم*

ونبه على هذا بأنه فصل بقوله تعالى : (تعالى الله عما يشركون) ثم ختم ذلك كله بالإضراب عن هذا الاسلوب بتذكير نعمتى الايجاد والاعادة ، فكل نعمة دونهما لتوقف النعم الدنيوية والأخروية عليها ، وعقبه باجمال يتضمن جميع ما عدده أولا وزيادة أعنى رزقهم من السماء والارض ، وأدمج فى تأخيره أنه دون النعمتين ، ولهذا بكتهم بطلب البرهان فيما ليس (١) وسجل بكذبهم دلالة على تعلقه بالكل وأن هذه الخاتمة ختام مسكى ، والمعرض عن تشام نفحاته مسكى ، وعن هذا التقرير ظهر وجه الابدال مكشوف النقاب والحمد لله تعالى المنعم الوهاب اه *

(١) قوله : فيما ليس،وسجل الخ هكذا فى نسخه المؤلف اه

Marfat.com

وفى غرة التنزيل للراغب مايؤيده، وقد لخصه الطيبى فى شرح الكشاف ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه ٭

﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمَوٰتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ﴾ بعد ماتحقق تفرده تعالى بالألوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العامة عقب بذكر مالا ينفك عنه، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب تكميلا لماقبله وتمهيداً لمابعده من أمر البعث. وفى البحر قيل : سأل الكفار عن وقت القيامة - التى وعدوها - الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وألحوا عليه عليه الصلاة والسلام فنزل قوله : (قل لا يعلم) الآية ، فمناسبتها على هذا لماقبلها من قوله تعالى : (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) أتم مناسبة ، والظاهر المتبادر إلى الذهن أن من فاعل يعلم وهو موصول أوموصوف ، والغيب مفعوله ، والاسم الجليل مرفوع على البدلية من (من) والاستثناء على ماقيل : منقطع تحقيقاً متصل تأويلا على حد مافى قول الراجز :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

بناءاً على إدخال اليعافر فى الأنيس بضرب من التأويل فيفيد المبالغة فى نفى علم الغيب عمن فى السموات والارض بتعليق علمهم إياه بما هو بين الاستحالة من كونه تعالى منهم كأنه قيل : إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب يعنى أن استحالة علمهم الغيب كاستحالة أن يكون الله تعالى منهم ، ونظير هذا مما لااستثناء فيه قوله : ٭ تحية بينهم ضرب وجيع ٭ وقيل : هو منقطع على حد الاستثناء فى قوله :

عشية ماتغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم

يعنى أنه من اتباع أحد المتباينين الآخر نحو ماأتانى زيد إلا عمرو . وماأعانه إخوانكم إلا إخوانه، وقد ذكرهما سيبويه ، وذكر ابن مالك أن الاصل فيهما : ماأتانى أحد إلا عمرو ، وماأعانه أحد إلا إخوانه فجعل مكان أحد بعض مدلوله وهو زيد وإخوانكم ، ولولم يذكر الدخلاء فيمن نفى عنه الاتيان والاعانة ، ولكن ذكرا توكيداً لقسطهما من النفى دفعا لتوهم المخاطب أن المتكلم لم يخطر له هذا الذى أكد به ، فذكر تأكيداً ، وعليه يكون الأصل فى الآية لايعلم أحد الغيب إلا الله فحذف أحد وجعل مكانه بعض مدلوله وهو من فى السموات والأرض، والبعض الآخر من ليس فيهما ، ويكفى فى كونه مدلولا له صدقه عليه ولايجب فى ذلك وجوده فى الخارج، فقد صرحوا أن من الكلى مايمتنع وجود بعض أفراده أو كلها فى الخارج على أن من أجلة الاسلاميين من قال بوجود شىء غير الله عزوجل ، وليس فى السموات ولافى الارض وهو الروح الأمرية فانها الامكان لها عندهم على نحو العقول المجردة عند الفلاسفة ، وقال : إن شرط الاتباع فى هذا النوع أن يستقيم حذف المستثنى منه والاستغناء عنه بالمستثنى فان لم يوجد هذا الشرط تعين النصب عند التميمى . والحجازى كما فى قوله تعالى : (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) فان الاستغناء فيه بالمستثنى عما قبله ممتنع إلا بتكلف ، وزعم المازنى أن اتباع المنقطع من تغليب العاقل على غيره ، ويلزم عليه أن يختص بأحد وشبهه وهو فاسد - كما قال ابن خروف - لأن مايبدل منه فى هذا الباب غير ماذكر أكثر من أن يحصى اهـ ٭

وكلام الزمخشرى يوهم صدره أن الاستثناء هنا من قبيل الاستثناء فى المثالين اللذين ذكرهما سيبويه ، وفى البيت الذى ذكرناه قبيلهما ، ويفهم عجزه أنه من قبيل الاستثناء فى الرجز السابق ، وأن الداعى إلى اختيار المذهب التميمى نكتة المبالغة التى سمعتها ، وقد صرحوا أن إفادة تلك النكتة إنما تتأتى إذا جعل الاستثناء منقطعاً تحقيقاً متصلا تأويلا ، ولعل الحق أنه إذا أريد الدلالة على قوة النفى تعين جعل الاستثناء نحو الاستثناء فى قوله : (وبلدة)

Marfat.com

الخ ، وإذا أريد الدلالة على عموم النفى تعين جعله نحو الاستثناء فى قولهم : ماأعانه إخوانكم إلا إخوانه فتدبر ، وجوز كونه متصلا كما هو الأصل فى الاستثناء على أن المراد بمن فى السموات والارض من اطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما مجازاً مرسلا أواستعارة ، وأيّاما كان فهو معنى مجازى عام له تعالى شأنه ولذوى العلم من خلقه وهو المخلص من لزوم ارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف فى صحته كما فعله بعض القائلين بالاتصال ، وقيل : يعلق الجار والمجرور على ذلك التقدير بنحو يذكر من الافعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين لابنحو استقر مما لايصح نسبته اليه سبحانه على الحقيقة أى لايعلم من يذكر فى السموات والارض الغيب إلا الله ، ويجوز تعليقه باستقر أيضاً إلا أنه يجعل مسنداً إلى مضاف حذف وأقيم المضاف اليه مقامه أى لايعلم من استقر ذكره فى السموات والارض الغيب إلاالله فحذف الفعل والمضاف واستتر الضمير لكونه مرفوعا ، وهذا وماقبله كما ترى ، واعترض حديث الاتصال بأنه يلزم عليه التسوية بينه تعالى وبين غيره فى إطلاق لفظ واحد وهو أمر مذموم ، فقد أخرج مسلم . وأبو داود . والنسائى عن عدى بن حاتم أن رجلا خطب عند رسول الله ﷺ فقال : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله ﷺ : « بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله » . وأجيب بأن ذلك مما يذم إذا صدر من البشر أما إذا صدر منه تعالى فلا يذم على أن كونه مما يذم إذا صدر من البشر مطلقاً ممنوع ، فقد روى البخارى . ومسلم . والترمذى . والنسائى عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الايمان من كان الله تعالى ورسوله أحب اليه مما سواهما » الحديث ، ولعل مدار الذم والمدح تضمن ذلك نكتة لطيفة وعدم تضمنه إياها ، وقد قيل فى حديث أنس : النكتة فى تثنية الضمير الايماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، والنكتة فى إفراده فى حديث عدى الاشعار بأن كلا من العصيانين مستقل باستلزام الغواية ، وقد مر الكلام فى هذا المبحث فتذكر ، وجوز أن يعرب من مفعول - يعلم . والغيب - بدل اشتمال منه ، والاسم الجليل فاعل (يعلم) ويكون استثناء مفرغا أى لايعلم غيب من فى السموات والارض إلا الله ولا يخفى بعده ٥

والغيب فى الأصل مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين ، واستعمل فى الشىء الغائب الذى لم تنصب له قرينة وكون ذلك غيبا باعتباره بالناس ونحوهم لا بالله عز وجل فانه سبحانه لايغيب عنه تعالى شىء لكن لايجوز أن يقال : إنه جل وعلا لايعلم الغيب قصداً إلى أنه لاغيب بالنسبة اليه ليقال يعلمه ، وقد شنع الشيخ أحمد الفاروقى السرهندى المشهور بالامام الربانى فى مكتوباته - على من قال ذلك قاصداً ماذكر - أتم تشنيع كما هو عادته جزاه الله تعالى خيراً فيمن لم يتأدب بآداب الشريعة الغراء . والظاهر عموم الغيب ، وقيل : المراد به الساعة ، وقيل : مايضمره أهل السموات والارض فى قلوبهم ، وقيل : المراد جنس الغيب ، ويلزم من نفى علم جنسه عن غيره عز وجل نفى علم كل فرد من أفراده عن ذلك الغير ، ولا يضر فى ذلك أن الآية لاتدل حينئذ على ثبوت علم كل غيب له عز وجل بل قصارى ماتدل عليه ثبوت علم جنس الغيب له سبحانه لانه المنفى صريحا عن المستثنى منه ولايلزم من ثبوت علم هذا الجنس ثبوت علم كل فرد من أفراده لأنها لم تسق للاستدلال بها على ذلك ، وكم وكم من دليل عقلى ونقلى يدل عليه ، وتعقب بأن الغيب من حيث أنه غيب لايتفاوت فمتى ثبت العلم ببعض أفراده ثبت العلم بجميعها دفعاً للزوم الترجيح بلا مرجح فتأمل ٥

Marfat.com

واختار بعضهم الاستغراق أى لا يعلم من فى السموات والارض كل غيب إلا الله فانه سبحانه يعلم كل غيب لانه الأوفق بالمقام ، واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السموات والارض من يعلم بعض الغيوب ، وظاهر كلام كثير من الأجلة يأبى ذلك ، ويؤيده ما أخرجه الشيخان . والترمذى . والنسائى . وأحمد . وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : من زعم أن محمداً ﷺ يخبر الناس بما يكون فى غد - وفى بعض الروايات - يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله تعالى الفرية والله تعالى يقول : (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب إلا الله) ، وجوز بعضهم أن يكون منهم من يعلم بعض الغيوب ، ففى بيان قواطع الاسلام تأليف العلامة ابن حجر بعد الرد على من أكفر من قيل له : أتعلم الغيب ؟ فقال : نعم لأن فيما قاله تكذيب النص وهو قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ما نصه : وعلى كل فالخواص يجوز أن يعلموا الغيب فى قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر ، والذى اختص به تعالى إنما هو علم الجميع وعلم مفاتح الغيب المشار اليها بقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) الآية ، وينتج من هذا التقرير أن من ادعى علم الغيب فى قضية أو قضايا لا يكفر وهو محمل ما فى الروضة ، ومن ادعى علمه فى سائر القضايا يكفر وهو محمل ما فى أصلها إلا أن عبارته لما كانت مطلقة تشمل هذا وغيره ساغ للنووى الاعتراض عليه فان أطلق فلم يرد شيئاً ، فالأوجه ما اقتضاه كلام النووى من عدم الكفر انتهى *

ولعل الحق أن يقال : إن علم الغيب المنفى عن غيره جل وعلا هو ما كان للشخص لذاته أى بلا واسطة فى ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل لأحد من أهل السموات والأرض لمكان الامكان فيهم ذاتا وصفة وهو يأبى ثبوت شئ لهم بلا واسطة ، ولعل فى التعبير عن المستثنى منه بمن فى السموات والأرض إشارة إلى علة الحكم ، وما وقع للخواص ليس من هذا العلم المنفى فى شئ ضرورة أنه من الواجب عز وجل أفاضه عليهم بوجه من وجوه الافاضة فلا يقال : إنهم علموا الغيب بذلك المعنى ومن قاله كفر قطعا ، وإنما يقال : إنهم أظهروا أو اطلعوا - بالبناء للمفعول - على الغيب أو نحو ذلك مما يفهم الواسطة فى ثبوت العلم لهم ، ويؤيد ما ذكر أنه لم يجىء فى القرآن الكريم نسبة علم الغيب إلى غيره تعالى أصلا ، وجاء الاظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسول لا يقال : يجوز على هذا أن يقال : أعلم فلان الغيب بالبناء للمفعول أيضا على معنى أن الله تعالى أعلمه وعرفه ذلك بطريق من طرق الاعلام والتعريف ، ومتى جاز هذا جاز أن يقال : علم فلان الغيب بقصد نسبة علمه الحاصل من إعلامه اليه لأنا نقول : لا كلام فى جواز - أعلم - بالبناء للمفعول . وإنما الكلام فى قولك : ومتى جاز هذا جاز أن يقال الخ ، فنقول : إن أريد بالجواز فى تالى الشرطية الجواز معنى أى الصحة من حيث المعنى فمسلم لكن ليس كل ما جاز معنى بهذا المعنى جاز شرعا استعماله ، وإن أريد الجواز شرعا بمعنى عدم المنع من استعماله فهو ممنوع لما فيه من الايهام والمصادمة لظواهر الآيات كآية (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وغيرها ، وقد سمعت عن الامام الربانى قدس سره النورانى أنه حط كل الحط على من قال الله سبحانه : (لا يعلم الغيب) متأولا له بما تقدم لما فيه من المصادمة للنصوص القرآنية وغيرها ، وفى ذلك من سوء الأدب ما فيه ، وقد شنعوا أيضا على من قال : أكره الحق وأحب الفتنة وأفر من الرحمة مريداً بالحق الموت . وبالفتنة المال أو الولد . وبالرحمة المطر لما فى ظاهره من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى ،

Marfat.com

نعم لايكفر قائل ذلك بذلك القصد ويلزمه التعزير كيلا يعود إلى قوله ، ثم إن علم غير الغيب من المحسوسات والمعقولات وإن كان لا يثبت لشيء من الممكنات بلا واسطة فى الثبوت أيضا إلا أنه فى نسبته لشيء منها لم يعتبر إلا اتصافه به غير مقيد بنفى تلك الواسطة لما أنه لم يرد حصر ذلك العلم به عز وجل ونفيه عمن سواه جل وعلا بل صرح فى مواضع أكثر من أن تحصى بنسبته إلى غيره سبحانه ولو ورد فيه ماورد فى علم الغيب لاالتزم فيه ماالتزم فيه ، وعلى ما تقرر لايكون علم العقول بما لم يكن بعد من الحوادث على مايزعمه الفلاسفة من علم الغيب بل هو لو سلم علم حصل لهم من الفياض المطلق جل شأنه بطريق من الطرق التى تقتضيها الحكمة فلا ينبغى أن يقال فيهم : إنهم عالمون بالغيب ، وقائله إما كافر أو مسلم آثم ، وكذا يقال فى علم بعض المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرة الجوكية فان كل مايحصل لهم من ذلك فانما هو بطريق الفيض ومراتبه وأحواله لاتحصى ، والتأهل له قد يكون فطرياً ، وقد يكون كسبيا ، وطرق اكتسابه متشعبة لاتكاد تستقصى،وإفاضة ذلك على كفرة المرتاضين وإن أشبهت إفاضته على المؤمنين المتقين إلا أن بين الأمرين فرقا عظيما عند المحققين ، وقد ذكر بعض المتصوفة أنه مامن حق إلا وقد جعل له باطل يشبهه لأن الدار دار فتنة وأكثر مافيها محنة ، ويلحق بعلم المرتاضين من الجوكية علم بعض المتصوفة المنسوبين إلى الاسلام المهملين أكثر أحكامه الواجبة عليهم المنهمكين فى ارتكاب المحظورات فى نهارهم وليلهم ، فلا ينبغى اعتقاد أن ذلك كرامة بل هو نقمة مفضية إلى حسرة وندامة ، وأما علم النجومى بالحوادث الكونية حسبما يزعمه فليس من هذا القبيل لأن تلك الحوادث التى يخبر بها ليست من الغيب بالمعنى الذى ذكرناه إذ هى وإن كانت غائبة عنا إلا أنها على زعمه مما نصب لها قرينة من الأوضاع الفلكية والنسب النجومية من الاقتران . والتثليث . والتسديس . والمقابلة ونحو ذلك ، وعلمه بدلالة القرائن التى يزعمها ناشىء من التجربة وما تقتضيه طبائع النجوم والبروج التى دل عليها بزعمه اختلاف الآثار فى عالم الكون والفساد فلا أرى العلم بها إلا كعلم الطبيب الحاذق إذا رأى صفراويا مثلا علم رتبة مزاجه وحققها يأكل مقداراً معينا من العسل أنه يعتريه بعد ساعة أو ساعتين كذا وكذا من الألم ، وإطلاق علم الغيب على ذلك فيه مافيه ، وإن أبيت إلا تسمية ذلك غيبا فالعلم به لكونه بواسطة الاسباب لايكون من علم الغيب المنفى عن غيره تعالى فى شيء وكذا كل علم يخفى حصل بواسطة سبب من الاسباب كعلمنا بالله تعالى وصفاته العلية وعلمنا بالجنة والنار ونحو ذلك ، على أنك إذا أنصفت تعلم أن ماعند النجومى ونحوه ليس علما حقيقياً وإنما هو ظن وتخمين مبنى على ماهو أوهن من بيت العنكبوت كما سنحقق ذلك بما لامزيد عليه فى محله اللائق به إن شاء الله تعالى ٠

وأقوى ماعنده معرفة زمنى الكسوف والخسوف وأزمنة تحقق النسب المخصوصة بين الكواكب وهى ناشئة من معرفة مقادير الحركات للكواكب والافلاك الكلية والجزئية وهى أمور محسوسة تدرك بالارصاد والآلات المعمولة لذلك ، وبالجملة علم الغيب بلا واسطة كلا أو بعضا مخصوص بالله جل وعلا لايعلمه أحد من الخلق أصلا ، ومتى اعتبر فيه نفى الواسطة بالكلية تعين أن يكون من مقتضيات الذات فلا يتحقق فيه تفاوت بين غيب وغيب ، فلا بأس بحمل أل فى الغيب على الجنس ، ومتى حملت على الاستغراق فاللائق أن لايعتبر فى الآية سلب العموم بل يعتبر عموم السلب ، ويلتزم أن القاعدة أغلبية . وكذا يقال فى السلب والعموم فى جانب الفاعل فتأمل ؛ فهذا ماعندى ولعل ماعندك خير منه ؛ والله تعالى أعلم ٠

Marfat.com

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٦٥ ﴾ أى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لابد لهم منه ، ومن أهم الأمور عندهم ـ فأيان ـ اسم استفهام عن الزمان ، ولذا قيل : إن أصلها أىّ آن أى أىّ زمان ، وإن كان المعروف خلافه وهى معمولة ليبعثون ، والجملة فى موضع النصب ـ بيشعرون ـ وعلقت (يشعرون) لمكان الاستفهام، وضمير الجمع للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لئلا يلزم التفكيك بينه وبين مايذكر بعد من الضمائر الخاصة بهم قطعا، وقيل : الكل لمن وإسناد خواص الكفرة إلى الجميع من قبيل بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم ، وفيه بحث ٥

وقرأ السلمى ـ إيان ـ بكسر الهمزة وهى لغة بنى سليم ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ ﴾ إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره ، وأصل (ادارك) تدارك فأدغمت التاء فى الدال فسكنت فاجتلبت همزة الوصل وهو من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا فى الهلاك وهو مراد من فسر التدارك هنا بالاضمحلال والفناء ، وإلا فأصل التدارك التتابع والتلاحق مطلقا ، (وفى الآخرة) متعلق ـ بعلمهم ـ والعلم يتعدى بفى كما يتعدى بالباء ، وهى حينئذ بمعنى الباء كما نص عليه الفراء . وابن عطية . وغيرهما ، والمعنى بل تتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ماذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع وفنى ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعاً مع توفر أسبابه فهو ترق عن وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش، وليس تدارك علمهم بذلك على معنى أنه كان لهم علم به على الحقيقة فانتفى شيئاً فشيئا ، بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه، وإجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع ٥

وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أى ـ ادارك ـ أسباب علمهم ، والتدارك مجاز عما ذكر من التساقط ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ إضراب وانتقال عن عدم علمهم بها إلى ماهو أفحش منه على نحو مامر وهو حيرتهم فى ذلك أى بل هم فى شك عظيم من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير فى أمر لايجد عليه دليلا فضلا عن الأمور التى ستقع فيها ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾ إضراب وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكين إلى وصفهم بما هو أفظع منه وهو كونهم عمياً قد اختلت بصائرهم بالكلية بحيث لايكادون يدركون طريق العلم بها وهو الدلائل الدالة على أنها كائنة لامحالة ، فالمراد (عمون) عن دلائلها أو عمون عن كل مايوصلهم إلى الحق ويدخل فيه دلائلها دخولا أوليا ، و(منها) متعلق ـ بعمون ـ قدم عليه رعاية للفواصل ، ولعل تعديته بمن دون عن لجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه ، والكفر بالعاقبة والجزاء يدع الشخص عاكفاً على تحصيل مصالح بطنه وفرجه لايتدبر ولا يتبصر فيما عدا ذلك ٥

وجوز أن يكون (ادارك) بمعنى استحكم وتكامل ووصفهم باستحكام علمهم بذلك وتكامله من باب التهكم بهم كما تقول لأجهل الناس : ماأعلمك على سبيل الهزء ، وما آل التهكم المذكور نفى علمهم بذلك كما فى الوجه السابق لكن على الوجه الأبلغ ، والاضرابان من باب الترقى من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ماتقدم وهو وجه حسن ، ويشعر كلام بعض المحققين بترجيحه على ماذكرنا أولا ٥

وجوز أيضا أن يكون المراد ـ بالادراك ـ الاستحكام لكن على معنى استحكم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لامحالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون فى ذلك، وفيه

Marfat.com

أن دلالة النظم الكريم على إرادة وهم جاهلون، ليست بواضحة ٠

وقال الكرمانى : التدارك التتابع ، والمراد بالعلم هنا الحكم والقول ، والمعنى بل تتابع منهم القول والحكم فى الآخرة وكثر منهم الخوض فيها ، فنفاها بعضهم . وشك فيها بعضهم واستبعدها بعضهم وفيه مافيه ٠

وقيل : إن فى الآخرة متعلق ـ باداركـ واليه ذهب الزجاج . والطبرسى ، واقتضته بعض الآثار المروية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، والمعنى على هذا عند بعضهم بل استحكم فى الآخرة علمهم بما جهلوه فى الدنيا حيث رأوا ذلك عياناً ، وكان الظاهر يدارك بصيغة الاستقبال إلا أنه عبر بصيغة الماضى لتحقق الوقوع ٠

وقيل : التدارك عليه من تداركت أمر فلان إذا تلافيته، ومفعوله هنا محذوف أى بل تدارك فى الآخرة علمهم ماجهلوه فى الدنيا أى تلافاه ، وحاصل المعنى بل علموا ذلك فى الآخرة حين لم ينفعهم العلم ، والتعبير بصيغة الماضى على ماعلمت ، ولا يخفى أن فى وجه ترتيب الاضرابات الثلاث حسب ما فى النظم الكريم على هذين الوجهين خفاءاً فتدبر ٠

وقرأ أبىّ أم ـ تدارك ـ على الأصل وجعل ـ أم ـ بدل (بل) ، وقرأ سليمان بن يسار بل أدرك بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشد الدال بناءاً على وزنه افتعل ، فأدغم الدال وهى فاء الكلمة فى التاء بعد قلبها دالا فصار فيه قلب الثانى للاول كما فى قولهم : أثرد وأصله اثترد من الثرد ، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هى همزة الاستفهام أدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل ثم انحذفت هى وألقيت حركتها على لام بل، وقرأ أبو رجاء . والأعرج . وشيبة . وطلحة . وتوبة العنبرى كذلك إلا أنهم كسروا لام (بل) ، وروى ذلك عن ابن عياش . وعاصم . والأعمش ٠

وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو . وأبو جعفر . وأهل مكة ـ بل أدرك ـ على وزن أفعل بمعنى تفاعل، ورويت عن أبى بكر عن عاصم ، وقرأ عبد الله فى رواية . وابن عباس فى رواية أبى حيوة . وغيره عنه . والحسن . وقتادة . وابن محيصن ـ بل آدرك ـ بمدة بعد همزة الاستفهام ، وأصله أأدرك فقلبت الثانية ألفا تخفيفا كراهة الجمع بين همزتين ، وأنكر أبو بكر بن أبى العلاء هذه الرواية ، وقال أبو حاتم : لايجوز الاستفهام بعد (بل) لأن بل للايجاب ، والاستفهام فى هذا الموضع إنكار بمعنى لم يكن كما فى قوله تعالى : (أشهدوا خلقهم) أى لم يشهدوا خلقهم فلا يصح وقوعهما معا للتنافى الذى بين الإيجاب والإنكار اه ٠

وقد أجاز بعض المتأخرين ـ كما قال أبو حيان ـ الاستفهام بعد (بل) وشبهه بقول القائل : أخبزاً أكلت ، بل أماءاً شربت على ترك الكلام الأول والأخذ فى الثانى، وقرأ مجاهد ـ أم أدرك ـ جعل أم بدل (بل) وأدرك على وزن أفعل ، وقرأ ابن عباس فى رواية أيضا (بل أدارك) بهمزة داخلة على (اداراك) فتسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الادغام والنطق بالساكن ، وقرأ ابن مسعود أيضاً بل أأدرك بهمزتين همزة الاستفهام وهمزة أفعل ، وقرأ الحسن أيضاً . والأعرج ـ بل أدرك ـ بهمزة ، وادغام فاء الكلمة وهى الدال فى فاء افتعل بعد صيرورة التاء دالا ، وقرأ ورش فى رواية ـ بل ادرك ـ بحذف همزة أدرك ، ونقل حركتها إلى اللام ، وقرأ ابن عباس أيضاً ـ بلى أدرك ـ بحرف الايجاب الذى يوجب به المستفهم المنفى ، وقرأ ـ بل آأدارك ـ بألف بين الهمزتين ، فهذه عدة قراآت فما فيه منها استفهام صريح أو مضمن فهو إنكار ونفى ، ومافيه بلى فقد قال فيه أبو حاتم : إن كان بلى جوابا لكلام تقدم جاز أن يستأنف بعده كأن قوما أنكروا ماتقدم من القدرة

Marfat.com

فقيل لهم : بلى إيجابا لما نفوا ، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى : (بل هم فى شك منها) بمعنى أم هم فى شك منها لأن حروف العطف قد تتناوب، وكف عن الجملتين بقوله تعالى : (بل هم منها عمون) اه ، يعنى أن المعنى أأدرك علمهم بالآخرة أم شكوا؟ فبل بمعنى أم عودل بها الهمزة ، وتعقبه فى البحر بأن جعل بل بمعنى أم ومعادلتها لهمزة الاستفهام ضعيف جداً ، وقال بعض المحققين : مافيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسير له بالادراك على وجه التهكم الذى هو أبلغ وجوه النفى والانكار ومابعده من قوله تعالى : (بل هم فى شك) الخ إضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون فهو على منوال « تحية بينهم ضرب وجيع » أو رد وإنكار لشعورهم على أن الاضراب إبطالى فافهم ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ءَإِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ٧٦ ﴾ كالبيان لجهلهم بالآخرة وعماهم منها ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل الذى تضمنه مقول القول، و- إذا - ظرف لمحذوف دل عليه - مخرجون - أى أنخرج إذا كنا ترابا ولا مساغ لأن يكون ظرفا (لمخرجون) لأن كلا من الهمزة وإن واللام على ماقيل : مانعة من عمل مابعدها فيما قبلها فكيف بها إذا اجتمعت ، ولم يعتبر بعضهم اللام مانعة بناءاً على ماقرر فى النحو من جواز تقدم معمول خبر إن المقرون باللام عليه نحو إن زيداً لطعامك لآكل ، ويكفى حينئذ مانعان وأظن أن من قال : يتوسع فى الظروف مالا يتوسع فى غيرها لا يقول باطراد الحكم فى مثل هذا الموضع ومرادهم بالاخراج الاخراج من القبور ، وجوز أن يكون الاخراج من حال الفناء إلى الحياة ، والاول هو الظاهر، وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقاً وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه إلى الاخراج فى حالة منافية له بزعمهم ، وقوله سبحانه : (وآباؤنا) عطف على اسم كان واستغنى بالفصل بالخبر عن الفصل بالتأكيد، وتكرير الهمزة فى - أئنا - للمبالغة والتشديد فى الانكار ، وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم ، فان تقديم الهمزة لاصالتها فى الصدارة ، والضمير فى - أئنا - لهم ولآبائهم لان الكون ترابا قد تناولهم وآباءهم، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو - أئذا . وأئنا - بالجمع بين الاستفهامين، وقلب الثانية ياءاً وفصل بينهما بألف أبو عمرو «

وقرأ نافع - إذا - بهمزة واحدة مكسورة فهمزة الاستفهام مقدرة مع الفعل المقدر لأن المعنى ليس على الخبر ، و - آينا - بهمزة الاستفهام وقلب الثانية ياءاً وبينهما مدة ، وقرأ آخرون - أئذا - باستفهام ممدود أننا بنونين من غير استفهام ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا ﴾ أى الاخراج المذكور ﴿ نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل وعد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقديم الموعود على (نحن) هنا للدلالة على أنه هو الذى تعمد بالكلام وقصد به حتى كأن ماسواه مطرح وعلاوة له كما ينبىء عن ذلك ذكر ماصدر منهم أنفسهم مؤكداً مقرراً مكرراً؛ وتأخيره عنه فى آية سورة المؤمنين لرعاية الأصل ، ولا مقتضى للعدول إذ لم يذكر هناك سوى اتباعهم أسلافهم فى الكفر وإنكار البعث من غير نعى ذلك عليهم ، والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾ تقرير إثر تقرير «

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى الْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٦٩ ﴾ بسبب تكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام

Marfat.com

فيما دعوهم اليه من الإيمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم مافيه كفاية لأولى الأبصار ؛ وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين الأعم منه بحسب المفهوم لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم لما فيه من إرشادهم إلى أن الجرم مطلقا مبغوض لله عز وجل ﴿ وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لاصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلَاتَكُ فى ضَيْق ﴾ أى فى حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ٧٠ ﴾ أى من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس ٭

وقرأ ابن كثير (ضيق) بكسر الضاد وهو مصدر أيضا، وجوز أن يكون مفتوح الضاد مخففا من ضيق ، وقد قرىء كذلك أى لاتكن فى أمر ضيق، وكره أبو على كون ذلك مخففا مما ذكر لأنه يقتضى حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وليس من الصفات التى تقوم مقام الموصوف باطراد ، وفيه بحث ٭

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ أى العذاب العاجل الموعود ، وكأنهم فهموا وعدهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذبين ، ويعلم منه وجه للتعبير -بيقولون- وعدم إجرائه على سنن ماقبله أعنى وقال الذين كفروا وسؤالهم عن وقت إتيان هذا العذاب على سبيل الاستهزاء والانكار ، ولذا قالوا :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ ٧١ ﴾ عانين إن كنتم صادقين فى إخباركم باتيانه فبينوا لنا وقته ، والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ٧٢ ﴾ أصل معنى (ردف) تبع والمراد به هنا لحق ، ووصل وهو مما يتعدئ بنفسه وباللام كنصح ٭

وقيل : اللام مزيدة لتأكيد وصول الفعل إلى المفعول به كما زيدت الباء لذلك فى قوله تعالى : (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ، وقيل : إن اللام لتضمين (ردف) معنى دنا وهو يتعدى باللام كما يتعدى بمن وإلى كما فى الأساس ولتضمينه ذلك عدى بمن فى قوله :

فلما ردفنا من عمير وصحبه تولوا سراعا والمنية تعنق

وقيل : اللام داخلة على المفعول لأجله والمفعول به الذى يتعدى اليه الفعل بنفسه محذوف أى (ردف) الخلق لأجلكم ولايخفى ضعفه ، وقيل : إن الكلام تم عند (ردف) على أن فاعله ضمير يعود على الوعد ، ثم استأنف بقوله تعالى : (لكم بعض الذى تستعجلون) على أن (بعض) مبتدأ ، و(لكم) متعلق بمحذوف وقع خبراً له ، ولايخفى مافيه من التفكيك للكلام والخروج عن الظاهر لغير داع لفظى ولامعنوى ، والمعنى قل عسى أن يكون لحقكم ووصل إليكم بعض الذى تستعجلون حلوله وتطلبونه وقتا فوقتاً، والمراد بهذا البعض عذاب يوم بدر ، وقيل : عذاب القبر وليس بذاك، ونسبة استعجال ذلك إليهم بناءاً على مايقتضيه ماهم عليه من التكذيب والاستهزاء وإلا فلا استعجال منهم حقيقة ، والترجى المفهوم من عسى قيل : راجع إلى العباد ٭

وقال الزمخشرى : إن عسى . ولعل . وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وما لامجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لايعجلون بالانتقام لادلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لايفوتهم وأن الرمزة إلى الاغراض كافية من جهتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده سبحانه انتهى ٭

Marfat.com

وعليه ففى الكلام استعارة تمثيلية ولا يخفى حسن ذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال : عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد ، وقرأ ابن هرمز (ردف) بفتح الدال وهو لغة فيه *

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى لذو إفضال وإنعام كثير على كافة الناس ، ومن جملة إفضاله عز وجل وإنعامه تعالى تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٧٣ ﴾ أى لا يشكرونه جل وعلا على إفضاله سبحانه عليهم ومنهم هؤلاء ، وقيل : لا يعرفون حق فضله تعالى عليهم تعبيراً عن انتفاء معرفتهم ذلك بانتفاء ما يترتب عليها من الشكر ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى ما تخفيه من الاسرار التى من جملتها عداوتك ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٤ ﴾ أى وما يظهرونه من الأقوال والافعال التى من جملتها ما حكى عنهم فليس تأخير عقوبتهم لخفاء حالهم عليه سبحانه ، أو فيجازيهم على ذلك ، وفعل القلب إذا كان مثل الحب والبغض والتصديق والتكذيب . والعزم المصمم على طاعة . أو معصية فهو مما يجازى عليه ، وفى الآية إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم ، وتقديم الاكتنان ليظهر المراد من استواء الخفى والظاهر فى علمه جل وعلا ، أو لأن مضمرات الصدور سبب لما يظهر على الجوارح ، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التى هى المبدأ لسائر أفعالهم أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : وإن ربك ليعلم ما يكنون وما يعلنون *

وقرأ ابن محيصن . وحميد . وابن السميقع (تكن) بفتح التاء وضم الكاف من كننت الشىء ستره وأخفاه *

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى من شىء خفى ثابت الخفاء فيهما ؛ على أن (غائبة) صفة غلبت فى هذا المعنى فكثر عدم إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تنقل إلى الإسمية كمؤمن وكافر ، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحظ لها موصوف تجرى عليه كالراوية للرجل الكثير الرواية فهى تاء مبالغة ، ويجوز أن تكون صفة منقولة إلى الاسمية سمى بها ما يغيب ويخفى ، والتاء فيها للنقل كما فى الفاتحة ، والفرق بين المغلب والمنقول - على ما قال الخفاجى - إن الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكر بخلاف الثانى *

والظاهر عموم الغائبة أى ما من غائبة كائنة ما كانت ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٧٥ ﴾ أى بين ، أو مبين لما فيه لمن يطالعه وينظر فيه من الملائكة عليهم السلام وهو اللوح المحفوظ ، واشتماله على ذلك إن كان متناهيا لا إشكال فيه وإن كان غير متناه ففيه إشكال ظاهر ضرورة قيام الدليل على تناهى الابعاد واستحالة وجود ما لا يتناهى ، ولعل وجود الأشياء الغير المتناهية فى علم الله تعالى فى اللوح المحفوظ على نحو ما يزعمونه من وجود الحوادث فى الجفر الجامع وإن لم يكن ذلك حذو القذة بالقذة *

وقيل : المراد بالكتاب المبين علمه تعالى الازلى الذى هو مبدأ لإظهار الأشياء بالارادة والقدرة ، وقيل : حكمه سبحانه الأزلى وإطلاق الكتاب على ما ذكر من باب الاستعارة ولا يخفى ما فى ذلك *

وقيل : المراد به القرآن واشتماله على كل غائبة على نحو ما ذكرنا فى اشتمال اللوح المحفوظ عليه ، وقد ذكر أن بعض العارفين استخرج من الفاتحة أسماء السلاطين العثمانية ومدد سلطنتهم إلى آخر من يتسلطن منهم أدام الله تعالى ملكهم إلى يوم الدين ووفقهم لما فيه صلاح المسلمين *

وذكر بعضهم فى هذا الوجه أنه مناسب لما بعد من وصف القرآن وفيه ما فيه ، وقال الحسن : الغائبة هو

Marfat.com

يوم القيامة وأهوالها ، وقال صاحب الغنيان : الحوادث والنوازل ، وقيل : أعمال العباد ، وقيل : ما غاب من عذاب السماء والأرض ، والعموم أولى ، وروى ذلك عن ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : فى الآية يقول سبحانه : مامن شىء فى السماء والأرض سراً وعلانية إلا يعلمه سبحانه وتعالى ، وأخذ منه بعضهم حمل الكتاب على العلم الأزلى ، وفيه نظر لجواز أن يكون قد جعل كون ذلك فى كتاب مبين كناية عن علمه تعالى به *

وذهب أبو حيان إلى أنه رضى الله تعالى عنه اعتبر فى الآية حذف أحد المتقابلين اكتفاءاً بالآخر وكلامه رضى الله تعالى عنه محتمل لذلك ، ويحتمل أنه ذكر العلانية فى بيان المعنى لأن من علم السر علم العلانية من باب أولى ، ويحتمل أن ذلك لأنه مامن علانية إلا وهى غيب بالنسبة إلى بعض الأشخاص ، فيكون قد أشار رضى الله تعالى عنه ببيان المعنى وذكر السر والعلانية فيه إلى أن المراد - بغائبة - فى الآية مايشملهما وهو ما اتصف بالغيبة أعم من أن تكون مطلقة أو إضافية كذا قيل فتدبر *

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٧٦ ﴾ لما ذكر سبحانه مايتعلق بالمبدأ والمعاد ذكر تعالى مايتعلق بالنبوة فان القرآن اعظم ماتثبت به نبوة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر جل وعلا أنه يقص على بنى إسرائيل ، والمراد بهم - كما روى عن قتادة - اليهود . والنصارى أكثر ماتجدد واستمر اختلافهم فيه على وجه ويبين لهم حقيقة الأمر فيه وذلك مما يقتضى إسلامهم لو تأملوا وأنصفوا لكنهم لم يفعلوا وكابروا مثلكم أيها المشركون ، ومما اختلفوا فيه أمر المسيح عليه السلام ، فمن قائل : هو الله تعالى ، ومن قائل: ابن الله سبحانه ، ومن قائل : ثالث ثلاثة ، ومن قائل : هو نبى كغيره من الأنبياء عليهم السلام ، ومن قائل : هو - وحاشاه - كاذب فى دعواه النبوة وينسب مريم فيه إلى ماهى منزهة عنه رضى الله تعالى عنها وهم اليهود الذين كذبوه ، وأمر النبى المبشر به فى التوراة ، فمن قائل : هو يوشع عليه السلام ، ومن قائل : هو عيسى عليه السلام ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن وسيأتى آخر الزمان * ومما اختلفوا فيه أمر الخنزير فقالت اليهود : بحرمة أكله ، وقالت النصارى : بحله إلى غير ذلك *

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧ ﴾ على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى إسرائيل دخولا أولياً ، وتخصيص المؤمنين بهم كما فعل بعضهم خلاف الظاهر ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أنه رحمة للعالمين لانهم المنتفعون به ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ أى بين بنى إسرائيل الذين اختلفوا أو بين المؤمنين وبين الناس ﴿ بِحُكْمِهِۦ ﴾ قيل : أى بحكمته جل شأنه ، ويدل عليه قراءة جناح بن حبيش بحكمه - بكسر الحاء وفتح الكاف - جمع حكمة مضاف إلى ضميره تعالى ، وقيل : المراد بالحكم المحكوم به إطلاقا للمصدر على اسم المفعول ، والمراد بالمحكوم به الحق والعدل ، وعلى الوجهين لم يبق على المعنى المصدرى ، والداعى لذلك أن - يقضى - بمعنى يحكم فلو بقى الحكم على المعنى المصدرى لصار الكلام نحو قولك : زيد يضرب بضربه وهو لايقال مثله فى كلام عربى ، وأورد عليه أنه يصح أن يقال ذلك على معنى يضرب بضربه المعروف بالشدة مثلا ، فالمعنى هنا يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق ، أو يحكم بحكم نفسه تعالى لابحكم غيره عز شأنه كالبشر ، وقيل عليه : ليس المانع لصحة مثل هذا القول إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل فانه لاكلام فى صحته كاضافته إلى ضمير المفعول فى - سعى لها سعيها - إنما المانع دخول الباء على المصدر المؤكد ، ثم إن المعنى الأول يوهم أن له سبحانه حكما غير معروف

Marfat.com

بملابسة الحق ، والثانى إنما يظهر لو قدم بحكمه ، وفيه أنه على ماذكر ليس بمصدر مؤكد ، وعدم الجواز فى المصدر النوعى لاسيما إذا كان من غير لفظه ليس بمسلم ، وأيضاً الظاهر أن المانع بزعم المؤول لزوم اللغوية لو لم يؤول بماذكر ، والأولى إبقاؤه على المصدرية ، وجل الاضافة للعهد ، وكون المعنى كما قال المورد : يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق وأمر التوهم على طرف الثمام ؛ وأيآما كان فالضمير المجرور عائد على الرب سبحانه وعوده على القرآن على أن المعنى يحكم بالحكم الذى تضمنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحق وتعذيب المبطل وحينئذ لايحتاج إلى كثرة القيل والقال لايخفى مافيه من القيل والقال على من له أدنى تمييز بأساليب المقال ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ فلا يرد حكمه سبحانه وقضاؤه جل جلاله ﴿ العَلِيمُ ٧٨ ﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها مايقضى به ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ لترتيب الأمر على ماذكر من شئونه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه تعالى وداعية إلى الامر به ؛ وفى ذكره تعالى بالاسم الجامع تأييد لذلك أى فتوكل على الله الذى هذا شأنه فانه يوجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره اليه جل وعلا ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ ٧٩ ﴾ تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين. أو الفاصل بينه وبين الباطل . أو بين المحق والمبطل فان كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لامحالة ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ المَوْتَى ﴾ الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الامر اليه سبحانه والاعراض عن التشبث بما سواه ، وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه عز وجل بالحق وعزته وعلمه تبارك وتعالى ، وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه صلى الله تعالى عليه وسلم على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى إعانته تعالى وتأييده تعالى للمحق ، ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للاعراض عن التشبث بما سواه تعالى ، فان كونهم كالموتى . والصم . والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا ، وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى، وهو المعنى بالتوكل عليه جل شأنه ، وجوز أن يكون قوله تعالى : (إنك لاتسمع) الخ استئنافا بيانياً وقع جوابا لسؤال نشأ مما قبله ، أعنى إنك على الحق المبين كأنه قيل : مابالهم غير مؤمنين بمن هو على الحق المبين فقيل :(إنك لاتسمع الموتى) الخ ٥

وتعقب بأنه يأباه السياق ، واعترض بالمنع وإنما شبهوا بالموتى على ماقيل لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع ، وإطلاق الاسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشئ من المسموعات ، وقيل : لعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فان القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ، ثم بين بطلان مشعرى الأذن والعين كما فى قوله تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية وكأنه لهذا قال فى البحر : أى موتى القلوب ، أو شبهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يتلى عليهم فقدم احتمال نسبة الموت إلى قلوبهم ٥

وتعقب بأن ماذكر تخييل بارد لأن القلب يوصف بالفقه والفهم لا السمع ، وماذكر أولا من أنهم أنفسهم شبهوا بالموتى هو الظاهر ، ووجهه أنه على طريق التسليم والنظر لأحوالهم كأنه قيل : كيف تسمعهم الارشاد

Marfat.com

إلى طريق الحق وهم موتى وهذا بالنظر لأول الدعوة ولو أحييناهم لم يفد أيضاً لانهم صم ، وقد ولوا مدبرين وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه، ثم إنا لو أسمعناهم أيضاً فهم عمى لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون، وهذا خاتمة أمرهم ، ويعلم من هذا مافى ذلك من مزيد المزية الخالية عن التكلف *

وجوز أن يكون التشبيه لطوائف على مراتبهم فى الضلال ، فمنهم من هو كالميت . ومن هو كالأصم . ومن هو كالأعمى ، وهو وإن كان وجها خفيف المؤنة إلا أنه خلاف الظاهر أيضا ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ أى الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييد النفى بقوله تعالى : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ٨٠ ﴾ لتتميم التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، ولاريب فى أن الأصم لايسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريباً منه ، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه ، ومثله فى التتميم قول امرىء القيس :

حملت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

وقرأ ابن كثير - لا يسمع الصم الدعاء - بالياء التحتانية وفتح الميم ورفع الصم ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أى وما أنت بصارف العمى عن ضلالتهم هادياً لهم هداية موصلة إلى المطلوب لفقد الشرط العادى للاهتداء وهو البصر ، و (عن) متعلقة بالهداية باعتبار تضمنها معنى الصرف كما أشرنا اليه ، وجوز أبو البقاء أن تعلق بالعمى ويكون المعنى أن العمى صدر عن ضلالتهم وفيه بعد ، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية *

وقرأ يحيى بن الحرث . وأبو حيوة - بهاد - بالتنوين (العمى) بالنصب ، وقرأ الأعمش . وطلحة . وابن وثاب . وابن يعمر . وحمزة - تهدى - مضارع هدى (العمى) بالنصب ، وقرأ ابن مسعود - وما أن تهتدى - بزيادة أن بعد ما كما فى قول امرىء القيس :

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما أن من حديث ولا صال

و - تهتدى - مضارع اهتدى، و(العمى) بالرفع ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أى ماتسمع إسماعا يجدى السامع نفعاً * ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى من شأنهم الايمان بها وهم الذين ليسوا موتى . ولاصما . ولاعميا *

وقال بعض الأجلة : أى إلا من هو فى علم الله تعالى كذلك، واعترض بأن صيغة الاستقبال وإن صحت باعتبار تعلق العلم فيما لايزال إلا أن المناسب صيغة المضى ، واختار المعترض أن المعنى إلا الذين يصدقون أن القرآن كلام الله تعالى إذ حينئذ تثبت نبوته ﷺ فيقبل قوله ويجدى إسماعه نفعا ، وتعقب بأنه ينتقض الحصر بالمصدقين فى الاستقبال إن كانت الصيغة للحال وبالمصدقين فى الحال إن كانت للاستقبال ، وإذا دفع لزوم الانتقاض بجعلها لهما لزم استعمال المشترك فى معنييه معا أو الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وأجيب بأن المراد الحال ويدخل غيره فيه بدلالة النص من غير تكليف *

وقال بعض المحققين : قد يراد بالمضارع الاستقبال الشامل لجميع الأزمنة فان الاستقبال كما يكون بالنظر لزمان الحكم والتكلم على ماحقق فى الأصول يجوز أن يكون بالنظر إلى علم القائل أيضا فيشمل من يؤمن هنا من آمن حالا كما يشمل من يؤمن استقبالا فلا غبار فى المعنى الذى اختاره ذلك المعترض من هذه الحيثية ،

Marfat.com

نعم قيل : إن فيه شبه تحصيل الحاصل لأن التصديق بالقرآن هو استماعه النافع ، ولعل من عدل عنه إنما عدل لذلك ، ولم يعبأ بالمغايرة بين ذينك الأمرين الظاهرة بعد النظر الصحيح ، والحق أن ماذكر من شبه تحصيل الحاصل على طرف الثمام لظهور الفرق بين الأسماع المراد فى الآية والتصديق بأن القرآن كلام الله تعالى كما لايخفى ، وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التى أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط ، والايمان بها التصديق بكونها آيات الله تعالى وليست من السحر وإذا أريد بالاسماع النافع على هذا إسماع الآيات التنزيلية ليؤتى بما تضمنته من الاعتقادات والأعمال كان الكلام أبعد وأبعد من أن يكون فيه شبه تحصيل الحاصل إلا أن ذلك لايخلو عن شىء ، وفى إرشاد العقل السليم أن إيراد الاسماع فى النفى والاثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال : إن تهدى إلا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية فافهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ٨١ ﴾ قيل : تعليل لايمانهم بها كأنه قيل : فانهم منقادون للحق فى كل وقت ٠

وقيل : مخلصون لله تعالى من قوله تعالى: (بلى من أسلم وجهه لله) ، وقيل : هو تعليل لما يدل عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعا نافعا لهم ، وفى توحيد الضمير تارة . وجمعه أخرى رعاية للفظ من ومعناها ٠

واستدل بقوله سبحانه : (إنك لاتسمع الموتى) على أن الميت لايسمع كلام الناس مطلقا ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام فى ذلك فى سورة الروم على أتم وجه ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ بيان لما أشير إليه بقوله تعالى : (بعض الذى تستعجلون) من بقية مايستعجلونه من الساعة ومباديها ، والمراد بالقول مانطق من الآيات الكريمة بمجىء الساعة ومافيها من فنون الأهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقعها وتأثيرها ، وإسناده إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث أنها مصداق للقول الناطق بمجيئها ، وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى : (أتى أمر الله) ففيه مجاز المشارفة أى إذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه ٠

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ وذلك على ماأخرج ابن مردويه من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا ، وهو . وجماعة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما موقوفا «حين يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ٠

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : «أكثروا الطواف بالبيت من قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه . وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يرفع ، قيل : وكيف يرفع مافى صدور الرجال ؟ قال : يسرى عليهم ليلا فيصبحون منه فقراء وينسون قول لا إله إلا الله ويقعون فى قول الجاهلية وأشعارهم فذلك حين يقع القول عليهم» ، وهذا ظاهر فى أن خروج الدابة حين لايبقى فى الأرض خير ، ويقتضى ذلك أن يكون بعد موت عيسى والمهدى وأتباعهما عليهم السلام ، وسيأتى إن شاء الله تعالى من الأخبار ماهو ناطق بأنها تخرج وعيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون ٠

وأخرج نعيم بن حماد عن وهب بن منبه قال : أول الآيات الروم . والثانية الدجال . والثالثة يأجوج ومأجوج . والرابعة عيسى . والخامسة الدخان . والسادسة الدابة ، وصوب السفارينى أنها قبل الدخان ، والحق أنها تخرج وفى الناس مؤمن وكافر ، فالظاهر أن الخبر المذكور عن ابن مسعود غير صحيح ، ويدل على ماذكرنا

Marfat.com

من الحق ما أخرج أحمد . والطيالسى . ونعيم بن حماد . وعبد بن حميد . والترمذى وحسنه . وابن ماجه . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه . والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ : تخرج دابة الارض ومعها عصا موسى وخاتم سليمن عليهما السلام فتجلو (١) وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصا حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » وقد اختلفت الروايات فيها اختلافا كثيراً ، فحكى أبو حيان فى البحر . والدميرى فى حياة الحيوان رواية أنه يخرج فى كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها فى الأرض فليست دابة واحدة ، وعليه يراد بدابة الجنس الصادق بالمتعدد ، وأكثر الروايات أنها دابة واحدة وهو الصحيح ، فالتعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين الدال على التفخيم من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان مالا يخفى ، وعلى كونها واحدة اختلف فيها أيضاً فقيل : هى من الانس واستؤنس له بما روى محمد بن كعب القرظى قال : سئل على كرم الله تعالى وجهه عن الدابة فقال : أما والله إنها ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية ، وفى الميزان للذهبى عن جابر الجعفى - وهو كذاب - قال أبو حنيفة : ما لقيت أكذب منه أنه كان يقول : هى من الانس وأنها على نفسه كرم الله تعالى وجهه ؛ وعلى ذلك جمع من إخوانه الشيعة ولهم فى ذلك روايات : منها ما رواه على بن إبراهيم فى تفسيره عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه قال . قال رجل لعمار بن ياسر : يا أبا اليقظان آية فى كتاب الله تعالى أفسدت قلبى ، قال عمار : وأية آية هى ؟ ، فقال : قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم) الآية فأية دابة هذه ؟ قال عمار : والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه وهو يأكل تمراً وزبداً فقال . يا أبا اليقظان هلم فجلس عمار يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام عمار قال الرجل : سبحان الله حلفت أنك لا تجلس ولا تأكل ولا تشرب حتى ترينيها قال عمار . قد أريتكها إن كنت تعقل ، وروى العياشى هذه القصة بعينها عن أبى ذر أيضاً وكل ما يروونه فى ذلك كذب صريح ، وفيه القول بالرجعة التى لا ينتهض لهم عليها دليل .

وفى بعض الآثار ما يعارض ما ذكر ، فقد أخرج ابن أبى حاتم عن النزال بن سبرة قال : قيل لعلى كرم الله تعالى وجهه : إن ناسا يزعمون أنك دابة الارض ، فقال : والله إن لدابة الارض لريشا وزغبا ومالى ريش ولا زغب وأن لها لحافراً ومالى من حافر وأنها تخرج من حفز الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثالثها ، والمشهور - وهو الحق - أنها دابة ليست من نوع الانسان ، فقيل : هى الثعبان الذى كان فى جوف الكعبة واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم وأن العقاب التى اختطفته القته بالحجون فالتقمته الارض ، وذكر ذلك الدميرى عن ابن عباس ، والاكثرون على أنها غيرها .

أخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا - زاد ابن جرير - بذراع آدم عليه السلام .

ونقل السفارينى عن كعب أنه قال : صوتها صوت حمار ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال : الدابة مؤلفة ذات زغب وريش فيها من ألوان الدواب كلها وفيها من كل أمة سيما وسيماها من هذه الامة أنها تتكلم

---

(١) قوله : فتجلو الخ قال الطيبى : أهل الحديث يروونه بالحاء المهملة وفتح اللام والهمز من حلأت الاديم إذا قشرته ، وفى الكشاف . وكذا فى المطلع بالجيم من جلوت السيف إذا صقلته اه منه

Marfat.com

بلسان عربى مبين ، وعن أبى هريرة أنه قال : فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن لها عنقا مشرفا يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ولها وجه كوجه الانسان ومنقار كمنقار الطير ذات وبر وزغب ، وعن وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير ، وصرح فى بعض الروايات بأن لها جناحين ، وذكر بعضهم أن طولها ستون ذراعا ، واختلف فى محل خروجها فقيل : المسجد الحرام لما أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال : « ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال حذيفة : يارسول الله من أين تخرج ؟ قال : من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الارض من تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسجد فتخرج الدابة من الصفا أول مايبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمن وكافر : أما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن . وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب كافر » .

وأخرج ابن أبى شيبة . والخطيب فى تالى التلخيص عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من جبل جياد فى أيام التشريق والناس بمنى ، وأخرج ابن مردويه . والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض من جياد فيبلغ صدرها الركن ولم يخرج ذنبها بعد وهى دابة ذات وبر وقوائم » .

وأخرج البخارى فى تاريخه . وابن ماجه . وابن مردويه عن بريدة رضى الله تعالى عنها قال : « ذهب بى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة فاذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تخرج الدابة من هذا الموضع فاذا شبر فى شبر » .

وجاء فى بعض الروايات أنها تخرج من أقصى البادية ، وفى بعض من مدينة قوم لوط ، وفى بعض أن لها ثلاث خرجات فى الدهر : تخرج فى أول خرجة فى أقصى اليمن منتشرا ذكرها بالبادية ولايدخل ذكرها القرية يعنى مكة ، ثم تخرج خرجة أخرى فيعلو ذكرها فى البادية ويدخل القرية ، ثم بينما الناس فى أعظم المساجد حرمة لم يرعهم إلا وهى فى ناحية المسجد من الركن الأسود وباب بنى مخزوم فيرفض الناس عنها شتى وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله تعالى فتنفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية ، واختلف أيضاً فى أنها هل تخلق يوم تخرج أو هى مخلوقة الآن ؟ فقيل : إنها تخلق يوم تخرج ، وقيل : إنها مخلوقة الآن لكن لم تؤمر بالخروج .

واستدل بما روى عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم ، وقال : إن الدابة لتسمع قرع عصاى هذه ، وعليه من يقول : إنها الثعبان ، ومن يقول : إنها الجساسة التى تتجسس الأخبار للدجال كما هو المروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وزعم بعضهم أنها مخلوقة فى عهد الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ، فقد أخرج ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن الحسن « أن موسى عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب فى السماء لايرى واحد من طرفيها فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً فقال : يارب ردها فردها ، وجاء فى حديث اخرجه نعيم بن حماد فى الفتن . والحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود أنها إذا خرجت تقتل إبليس عليه اللعنة - وهو ساجد - وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها وتحقق هلاكه عنده ، والأخبار فى هذه الدابة كثيرة .

Marfat.com

وفى البحر أنهم اختلفوا ـ فى ماهيتها . وشكلها . ومحل خروجها . وعدد خروجها. ومقدار مايخرج منها وماتفعل بالناس . وماالذى تخرج به ـ اختلافا مضطربا معارضا بعضه بعضاً فاطرحنا ذكره لأن نقله تسويد للورق بما لايصح وتضييع لزمان نقله اه ، وهو كلام حق وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعا لشهوة من يحب الاطلاع على شئ من أخبارها صدقا كان أو كذبا ، وقد تصدى السفارينى فى كتابه البحور الزاخرة للجمع بين بعض هذه الأخبار المتعارضة ولاأظنه أتى بشئ *

ثم إن الأخبار المذكورة أقربها للقبول الخبر الذى حسنه الترمذى ، ومن الأخبار فى هذا الباب ماصححه الحاكم وتصحيحه محكوم عليه بين المحدثين بعدم الاعتبار ، وقصارى ماأقول فى هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الانسان أصلا يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض ، وفى تقييد إخراجها بقوله سبحانه : (من الأرض) نوع إشارة على ماقيل : إلى أن خلقها ليس بطريق التوالد بل هو بطريق التولد نحو خلق الحشرات *

وقيل : إنه للاشارة إلى تكونها فى جوف الأرض فيكون فى إخراجها من الأرض رمز إلى مايكون فى الساعة التى أخرجت هى بين يديها من تشقق الأرض وخروج الناس من جوفها أحياءاً كاملة خلقتهم ، وفى هذا وماقبله ذهاب الى تعلق (من الأرض) بـ(أخرجنا) وهو الظاهر الذى ينبغى أن يعول عليه دون كونه متعلقا بمحذوف وقع صفة لدابة أى دابة كائنة من الأرض *

﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢ ﴾ أى تكلمهم بأنهم كانوا لايتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجىء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التى من جملتها تلك الآيات، وقيل : بآياته التى من جملتها خروجها بين يدى الساعة وليس بذاك ، وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لالعين عبارتها *

وقيل : لأنها حكاية منها لقول الله عز وجل ، وقيل : لاختصاصها به تعالى وأثرتها عنده سبحانه كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا، وإنما الخيل والبلاد لمولاه ، وقيل : هناك مضاف محذوف أى بآيات ربنا *

والظاهر أن ضمير الجمع فى تكلمهم للكفرة المنكرين للبعث مطلقا لا للكفرة المحدث عنهم فيما سبق بخصوصهم ضرورة أنهم ليسوا موجودين عند إخراج الدابة لتكلمهم ، وتكليمها إياهم ـ وهم موتى ـ بعيد أو غير معقول، والرجعة التى يعتقدها الشيعة لانعتمدها ، والآية الآتية لاتدل كما يزعمون عليها. ويسهل أمر ذلك أنه ليس مدار الحديث عنهم سوى ماهم عليه من الشرك والكفر بالآيات وإنكار البعث وذلك موجود فيهم وفى الكفرة الموجودين عند إخراج الدابة ، ومثله ضميرا ـ عليهم . ولهم ـ والمراد بالناس الكفرة الماضون مطلقا لامشركو أهل مكة فقط ، والمراد بإخبارها إياهم بذلك التحسر على مافاتهم من الايقان بماقرب وقوعه وظهور بطلان ماعتقدوه فيه ومؤاخذتهم على التكذيب به أشد مؤاخذة، وفى ذلك استدعاء لامثالهم إلى ترك ماهم عليه مما شاركوهم به من التكذيب وإنكار البعث ، وجوز أن يراد بالناس مشركو أهل مكة وأمر الاخبار على حاله *

وقيل: يجوز أن تكون الضمائر للناس لا للكفرة منهم خاصة، ويراد بالناس إما الكفرة المنكرون للبعث، والمراد بالاخبار التنفير عما كانوا عليه من الانكار ليثبت المؤمن ويرتدع الكافر، وإما مشركو أهل مكة والمراد بالاخبار ذلك *

وقيل : المراد به التشنيع عليهم بين أحبائهم وأعدائهم وكان بلسان الدابة ليكون أبلغ لما فيه من ظهور خطئهم عند مالا يظن إدراكه له فضلا عن النطق به وإذاعته على سبيل التشنيع ، وكان بين يدى الساعة ليردفه

Marfat.com

بلا كثير فصل مايشبهه من شهادة الاعضاء عليهم وهى أبعد وقوعا مع تشنيع الدابة ، وفى وقوعها بعده مايشبه الترقى من العظيم إلى الاعظم ، وأيد كون الضمائر للناس على الاطلاق وأن المراد بالناس المذكور فى النظم الـكريم أهل مكة ماروى عن وهب أن الدابة تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد ﷺ والقرآن لا يوقنون وقيل : ضميرا ـ عليهم . ولهم ـ لمشركى أهل مكة المحدث عنهم فيما سبق ، ومعنى (لهم) لذمهم أو نحوه ، وضمير (تـكلمهم) للناس الموجودين عند الاخراج أو للـكفرة كذلك ، والمراد بالناس المذكور فى النظم الـكريم أولئك المشركون ، وقيل : غيرذلك ، ولايخفى عليك بأدنى تأمل ماهو الأولى والاظهر فى الآية من الأقوال ، وأيآما كان فوصف الناس بعدم الإيقان بالآيات مع أنهم كانوا جاحدين لها للايذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها ، وقد اتصفوا بنقيض ذلك وكون التـكليم من الـكلام هو الظاهر ، ويؤيده قراءة أبى ـ تنبؤهم ـ وقراءة يحيى بن سلام تحدثهم *

وقيل : هو من الـكلم بمعنى الجرح والتفعيل للتـكثير ، ويؤيده قراءة ابن عباس . ومجاهد . وابن جبير . وأبى زرعة . والجحدرى . وأبى حيوة . وابن أبى عبلة (تـكلمهم) بفتح التاء وسكون الـكاف وتخفيف اللام وقراءة بعضهم ـ تجرحهم ـ مكان تـكلمهم ، وكأنه أريد بالجرح ماهو مقابل التعديل ، ويرجع ذلك إلى معنى التشنيع ورجوع الضمائر عليه إلى الـكفرة المحدث عنهم فيما سبق مما لاغبار عليه ، وقوله تعالى : (أن الناس) الخ بتقدير بأن الناس ، والمعنى تشنع عليهم بهذا الـكلام ، ويراد بالناس فيه أولئك المشنع عليهم ، وظاهر الآية وقوعه فى كلامها بهذا اللفظ ، ولعل فهم السامعين كون المراد به مشركى مكة وقت التشنيع بمعونة قرينة تدل على ذلك إذ ذاك ، ويحتمل أن يكون الواقع فيه بدله مشركى مكة أو نحوه ، لـكن جاء فى الحـكاية بلفظ الناس ، والنـكتة فيه على ماقيل : الايماء الى كثرتهم *

وقيل : الرمز إلى مزيد قبح عدم الايقان منهم ، ويعلم مما ذكر وجه العدول عن ـ أنهم ـ إلى (أن الناس) وجوز أن يكون بتقدير حرف التعليل أى لأن الناس الخ ، وهو تعليل من جهته تعالى لجرحها إياهم ، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع كالضمائر السابقة إلى مشركى مكة ، وجوز أن تقدر الباب على أنها سببية *

ويجوز أيضا أن يكون المراد بالـكلم الجرح بمعنى الوسم ، فقد روى أنها تسم جبهة الـكافر ، وفى رواية أخرى أنها تحطم أنفه بعصا موسى عليه السلام التى معها ، واختار بعضهم كون المراد به ماذكر لما فى حديث أخرجه نعيم بن حماد . وابن مردويه عن عمر رضى الله تعالى عنه مرفوعا ليس ذلك بحديث ولا كلام ولـكنه سمة تسم من أمرها الله تعالى ، وسأل أبو الحوراء ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هل فى الآية تـكلمهم . أو تـكلمهم ؟ فقال كل ذلك تفعل تـكلم المؤمن وتـكلم الـكافر تجرحه ، والظاهر أن الضمائر على تقدير أن يراد بالكلم الجرح ، والوسم راجعة إلى الكفرة على الاطلاق دون المحدث عنهم فيما سبق إذ لامعنى لوسمها إياهم ، ويتعين أن يراد بالناس أولئك الكفرة الذين عادت عليهم الضمائر ، ولعل المعنى تسمهم لأنهم كانوا فى علمنا بآياتنا لايوقنون ، وقرأ ابن مسعود ـ بأن ـ وجعلت مؤيدة لـكون التـكليم من الـكلام وهو مبنى على الظاهر وإلا فالباء تحتمل أن تكون للسببية فتلائم كونه من الـكلم بمعنى الجرح ، وقرأ بعض السبعة ـ إن ـ بكسر الهمزة ، وخرج على إضمار القول . أو إجراء التكليم من الـكلام مجراه ، أو على أن الكلام استئناف مسوق من جهته سبحانه للتعليل فتدبر *

Marfat.com

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا ﴾ بيان إجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ، و(يوم) منصوب بفعل مضمر خوطب به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أى اذكر يوم ، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مراراً ، والمراد بهذا الحشر الحشر للتوبيخ والعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وهو المذكور فيما بعد من قوله تعالى : (ويوم ينفخ فى الصور) إلى آخره ، ولعل تقديم ماتضمن هذا على ماتضمن ذلك دون العكس مع أن الترتيب الوقوعى يقتضيه للايذان بأن كلا مما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر فى سورة البقرة مع أن الأنسب بذكر أن الكفرة لا يوقنون بالآيات المراد به أنهم يكذبون بها أن يذكر بعده ماتضمن التوبيخ منه عز وجل والتعذيب على ذلك التكذيب ، ومن الثانية بيانية جىء بها لبيان (فوجا) ، ومن الأولى تبعيضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب ، أى ويوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة مكذبة بآياتنا ﴿ فهم يوزعون ٨٣ ﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة ، وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم مالا يخفى ، وقيل : (من) الثانية تبعيضية كالأولى ، والمراد بالفوج جماعة من الرؤساء المتبوعين للكفرة ، وعن ابن عباس أبو جهل . والوليد بن المغيرة . وشعبة بن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة . وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار ، وهذه الآية من أشهر مااستدل بها الامامية على الرجعة .

قال الطبرسى فى تفسيره مجمع البيان : واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الامامية بأن قال : إن دخول (من) فى الكلام يوجب التبعيض فدل بذلك على أنه يحشر قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذى يقول فيه سبحانه (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدى قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض مايستحقونه من العقاب بالقتل على أيدى شيعته أو الذل والخزى بما يشاهدون من علو كلمته .

ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل فى نفسه وقد فعل الله تعالى ذلك فى الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك فى عدة مواضع مثل قصة عزير وغيره عليه السلام ، وصح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله : «سيكون فى أمتى كل ماكان فى بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه» ، و تأول جماعة من الإمامية ماورد من الأخبار فى الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهى دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات ، وأولوا الأخبار الواردة فى ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافى التكليف وليس كذلك لأنه ليس فيها مايلجىء إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح ، والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعبانا وماأشبه ذلك

Marfat.com

ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها ، وإنما المعول عليه فى ذلك إجماع الشيعة الامامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده انتهى ٥

وأقول : أول من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ ولكن خصها بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعه جابر الجعفى فى أول المائة الثانية فقال برجعة الأمير كرم الله تعالى وجهه أيضا لكن لم يوقتها بوقت ، ولما أتى القرن الثالث قرر أهله من الامامية رجعة الائمة كلهم وأعدائهم وعينوا لذلك وقت ظهور المهدى ، واستدلوا على ذلك بما رووه عن أئمة أهل البيت ، والزيدية كافة منكرون لهذه الدعوى إنكاراً شديداً ، وقد ردوها فى كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضاً تعارض روايات الامامية ، والآيات المذكورة هنا لاتدل على الرجعة حسبما يزعمون ولاأظن أن أحداً منهم يزعم دلالتها على ذلك ، بل قصارى مايقول : إنها تدل على رجعة المكذبين أو رؤسائهم فتكون دالة على أصل الرجعة وصحتها لاعلى الرجعة بالكيفية التى يذكرونها ، وفى كلام الطبرسى مايشير الى هذا ٥

وأنت تعلم أنه لايكاد يصح إرادة الرجعة إلى الدنيا من الآية لافادتها أن الحشر المذكور لتوبيخ المكذبين وتقريعهم من جهته عز وجل بل ظاهر مابعد يقتضى أنه تعالى بذاته يوبخهم ويقرعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه ، والمعروف من الآيات لمثل ذلك هو يوم القيامة مع أنها تفيد أيضاً وقوع العذاب عليهم واشتغالهم به عن الجواب ولم تفد موتهم ورجوعهم إلى ماهو أشد منه وأبقى وهو عذاب الآخرة الذى يقتضيه عظم جنايتهم ، فالظاهر استمرار حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر ، ولايتسنى ذلك إلا إذا كان حشر يوم القيامة ، وربما يقال أيضاً : ـ مما يأبى حمل الحشر المذكور على الرجعة ـ أن فيه راحة لهم فى الجملة حيث يفوت به ماكانوا فيه من عذاب البرزخ الذى هو للمكذبين كيفما كان أشد من عذاب الدنيا ، وفى ذلك إهمال لما يقتضيه عظم الجناية ، وأيضا كيف تصح إرادة الرجعة منها ، وفى الآيات مايأبى ذلك ، منه قوله تعالى : (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فان آخر الآية ظاهر فى عدم الرجعة مطلقاً وكون الاحياء بعد الاماتة والارجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عز وجل مما لاينتطح فيه كبشان إلا أن الكلام فى وقوعه وأهل السنة ومن وافقهم لايقولون به ويمنعون إرادته من الآية ويستندون فى ذلك إلى آيات كثيرة ، والأخبار التى روتها الامامية فى هذا الباب قد كفتنا الزيدية مؤنة ردها ، على أن الطبرسى أشار إلى أنها ليست أدلة وأن التعويل ليس عليها ، وإنما الدليل إجماع الامامية والتعويل ليس إلا عليه ، وأنت تعلم أن مدار حجية الاجماع على المختار عندهم حصول الجزم بموافقة المعصوم ولم يحصل للسنى هذا الجزم من إجماعهم هذا فلا ينتهض ذلك حجة عليه مع أن له إجماعا يخالفه وهو إجماع قومه على عدم الرجعة الكاشف عما عليه سيد المعصومين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكل ماتقوله الامامية فى هذا الاجماع يقول السنى مثله فى إجماعهم ، وماذكر من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «سيكون فى أمتى» الحديث لاتعلم صحته بهذا اللفظ بل الظاهر عدم صحته فانه كان فى بنى إسرائيل مالم يذكر أحد أنه يكون مثله فى هذه الأمة كنتق الجبل عليهم حين امتنعوا عن أخذ ماآتاهم الله تعالى من الكتاب والبقاء فى التيه أربعين سنة حين قالوا لموسى عليه السلام : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ونزول المن والسلوى عليهم فيه إلى غير ذلك ٥

Marfat.com

وبالجملة القول بالرجعة حسبما تزعم الامامية مما لاينهض عليه دليل ، وكم من آية فى القرآن الكريم تأباه غير قابلة للتأويل ، وكائن ظلمة بغضهم للصحابة رضى الله تعالى عنهم حالت بينهم وبين أن يحيطوا علما بتلك الآيات فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿قَالَ﴾ أى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب لاسائلا سبحانه وتعالى سؤال استفسار لاستحالته منه عز وجل ، وعدم وقوع الاستفسار عن الذنب يوم القيامة من غيره تعالى من الملائكة عليهم السلام وان كان ممكنا على مايدل عليه قوله تعالى : (لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان) على أحد التفسيرين ، والالتفات لتربية المهابة ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى ﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا ، وقوله تعالى : ﴿ ولم تحيطوا بها علما ٨٣ ﴾ جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ، ومؤكدة للانكار والتوبيخ أى أكذبتم بها بادى الرأى غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما ، وهذا على ماقيل : ظاهر فى أن المراد بالآيات فيما تقدم الآيات التنزيلية لأنها المنطوية على دلائل الصحة وشواهدها التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لانفس الساعة ومافيها ه

وقال بعض الأجلة : إن التكذيب يأبى بظاهره أن يراد بالآيات الآيات التكوينية كالمعجزات ونحوها إذ ليس فيها نسبة يتعلق بها ذلك ، وإرادة الأعم تستدعى اعتبار التغليب وكون التكذيب بمعنى نفى دلالتها على المراد منها كتصديق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المعجزات ونحوه فى نحوها من آيات الأنفس والآفاق خلاف الظاهر ، فالأولى إبقاؤه على الظاهر وحمل الآيات على الآيات التنزيلية ، وقيل : هو معطوف على ـ كذبتم ـ والهمزة لانكار الجمع والتوبيخ عليه كأنه قيل : أجمعتم بين التكذيب بآياتى وعدم التدبر فيها ه

﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨٤ ﴾ أى أم ماذا كنتم تعملون بها على أن المراد التبكيت وأنهم لم يعملوا إلا التكذيب وهو أحد وجهين ذكرهما الزمخشرى ، وقرره فى الكشف بأن (أم) متصلة ، والأصل أكذبتم بآياتى أم صدقتم ، والمعادلة بين الفعلين المتعلقين بالآيات لكن جىء بالأول بمجىء معلوم محقق ، وبالثانى لاعلى ذلك النهج تنبيها على انتفائه كأنه قيل: أهو ماعهد من التكذيب أم حدث حادث ، ووجه الدلالة أنه جعل العديل مردداً فيه فلم يجعل التصديق مثل التكذيب فى الاستفهام عن حاله بل إنما شك فى وجود معادل التكذيب لأن قوله تعالى : (أم ماذا كنتم تعملون) يشمل التكذيب المذكور أولا وعديله الحقيقى ، وهذه قرينة أنه لم يجأ بالاستفهام جهلا بالحال بل إنما أريد التبكيت والالزام على معنى قل لى ويحك إن حدث أمر آخر بتّاً بالقول بأنه لم يحدث مايضاد الأول وإشعاراً بأنه إذا سئل عن الذى عمله لم يجب إلا بما قدم أولا ، ثم قال : وهذا وجه لائح ، وإنما جاز دخول (أم) على (ما) الاستفهامية لهذه النكتة فانها خرجت عن حقيقة الاستفهام إلى البت بالحكم لا بالمعادل بل بالأول . وثانيهما أن المعنى ماكان لكم عمل فى الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى (أم ماذا كنتم تعملون) من غير ذلك ؛ وقرره فى الكشف أيضاً بأن (أم) على اتصالها ولكن المعادلة بين التكذيب وكل عمل غيره تعلق بالآيات أولا والايراد على صيغة الاستفهام للنكتة السابقة فدل على أنه لم يكن لهم عمل إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يخلقوا إلا لذلك فلأجله لم يعملوا غيره ، وجعل سائر أعمالهم

Marfat.com

لاستمرار الكفر بهم نفس الكفر أو كلا عمل ، ثم قال : وهذا وجه وجيه بالغ ، ومنه ظهر أن دخول (أم) على أسماء الاستفهام غير منكر إذا خرجت عن حقيقة الاستفهام وهو مقاس معنى وإن كانت مراعاة صورة الاستفهام أيضا منقاسة من حيث اللفظ لكنهم يرجحون فى نحوه جانب المعنى ولا يلتفتون لفت اللفظ اهـ

واختار أبو حيان كون (أم) منقطعة فتقدر ببل وحدها وهى للانتقال من توبيخ إلى توبيخ وليس فى ذلك شائبة من دخول الاستفهام على الاستفهام ، وماتقدم أبعد مغزى ، و(ماذا) تحتمل أن تكون بجملتها استفهاما منصوب المحل بخبر كان وهو (تعملون) أو مرفوعه على الابتداء والجملة بعده خبره والرابط محذوف أى تعملونه ، وتحتمل أن تكون (ما) فيها استفهاماً ، و(ذا) اسم موصول بمعنى الذى ، وهما مبتدأ وخبر والجملة بعد صلة الموصول والعائد اليه محذوف ٥

وقرأ أبو حيوة ـأما ذاـ بتخفيف الميم وفيها دخول الاستفهام على الاستفهام ، وقد سمعت وجهه ٥

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله وهو كبهم فى النار ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أى بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله تعالى ﴿ فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ٨٥ ﴾ بحجة لانتفائها عنهم بالكلية وابتلائهم بما حل بهم من العذاب الأليم ، وقيل : يختم على أفواههم فلا يقدرون على النطق بشئ أصلا ٥

وفى البحر أن انتفاء نطقهم يكون فى موطن من مواطن القيامة أو من فريق من الناس لأن القرآن الكريم ناطق بأنهم ينطقون فى بعض المواطن بأعذار ومايرجون به النجاة من النار ٥

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ الرؤية قلبية لابصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أى ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بمافيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم ، قال بعض الرجاز :

النوم راحة القوى الحسية من حركات والقوى النفسية

﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى ليبصروا بمافيه من الاضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم فبولغ حيث جعل الأبصار الذى هو حال الناس حالاله ووصفاً من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار ، والمشهور أن فى الآية صنعة الاحتباك والتقدير جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهار مبصرا لينتشروا فيه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٨٦ ﴾ فانه يدل على التوحيد وتجويز الحشر وبعث الرسل عليهم السلام لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لايكون إلا بقدرة قاهرة ليست لما أشركه المشركون ، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور فى مادة واحد قدر على إبدال الموت بالحياة فى مواد الأبدان ، وأن من جعل الليل والنهار سببين لمنافعهم ومصالحهم لعله لايخل بما هو مناط جميع مصالحهم فى معاشهم ومعادهم وهو بعثة الرسل عليهم السلام ٥

Marfat.com

وفى إرشاد العقل السليم لآيات عظيمة كثيرة لقوم يؤمنون دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وأن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار فى فهمها العقول ولايحيط بها إلا علم الله جل وعلا وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله تعالى يبعث من فى القبور قضاءاً متقناً وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى اه *

ولعل الأول أولى لاسيما إذا ضم إلى الاستدلال على جواز الحشر مشابهة النوم واليقظة للموت والحياة لما فى هذا من خفاء الدلالة ، وتخصيص المؤمنين بالذكر لما أنهم هم المنتفعون بالآيات ، ووجه ربط هذه الآية بما قبلها أنها كالدليل على صحة ماتضمنته من الحشر ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ﴾ إما معطوف على (يوم نحشر) منصوب بناصبه ، أو منصوب بضمر معطوف على ذلك الناصب ، والصور - على مافى التذكرة - قرن من نور ، وذكر البخارى عن مجاهد أنه كالبوق *

وأخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : «جاء أعرابى إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : «ماالصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه» ، والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام *

وذكر القرطبى أن الأمم مجمعة على ذلك وهو مخلوق اليوم ، فقد أخرج الترمذى وحسنه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ ؟ ! فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام لهم : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» وروى أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً «ماأطرق صاحب الصور مذ وكل به مستعداً بحذاء العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » *

وجاء عن أبى هريرة من حديث مرفوع «إن عظم دائرة فيه كعرض السموات والأرض» وهذا مما يؤمن به وتفوض كيفيته إلى علام الغيوب ، وقيل : إن الصور بسكون الواو بمعنى الصور بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة - وعليه أبو عبيدة - والكلام فى الوجهين على حقيقته ، وقيل : فى الكلام استعارة تمثيلية شبه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نودوا بالقيام بهيئة قيام جيش نفخ لهم فى المزمار المعروف وسيرهم إلى محل عين لهم ، والأول قول الأكثرين - وعليه المعول - لأن قوله تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى) ظاهر فى أن الصور ليس جمع صورة وإلا لقال سبحانه : فيها بدل فيه ، وارتكاب التأويل بجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر فى إنكار أن يكون هناك صور حقيقة ، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح ، وقد قال أبو الهيثم على مانقل عنه القرطبى فى تفسيره : من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو ممن أنكر العرش والصراط والميزان وطلب لها تأويلات ، وهذا النفخ قيل : المراد به النفحة الثانية ، واليه ذهب صاحب الغنيان ، واختاره العلامة أبو السعود وقال : الذى يستدعيه سياق النظم الكريم وسباقه ذلك ، وأن المراد بالفزع فى قوله تعالى :

Marfat.com

﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ ﴾ مايعترى الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق ، ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هى النفخة الأولى ، وبالفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم ،

وقيل : إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق التى أريدت بقوله تعالى : (ماينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وشنع على كلا القولين بما هو مذكور فى تفسيره ٥

وقال العلامة الطيبى الحق أن المراد بقوله تعالى : (ونفخ فى الصور ففزع) هو النفخة الأولى ، وقوله تعالى الآتى : (وكل) الخ إشارة إلى النفخة الثانية ، واعلم أنهم اختلفوا فى عدد النفخة فقيل : ثلاث : نفخة الصعق المذكورة فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) ، ونفخة البعث المذكورة فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، ونفخة الفزع المذكورة فى الآية المذكورة ههنا ، وهو اختيار ابن العربى ٥

وقيل : اثنتان ، ونفخة الفزع هى نفخة الصعق لأن الأمرين : الفزع بمعنى الخوف . والصعق بمعنى الموت لازمان لها ، قال القرطبى : والسنة كحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو طويل منه مع حذف ثم ينفخ فى الصور فأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم يصعق الناس ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . تدل على أن النفخ مرتين لا ثلاثة وهو الصحيح . ونفخ الفزع هو نفخ الصعق بعينه لاتحاد الاستثناء فى آيتيهما . وتعقب فى الرسالة المسماة بشرح العشر فى معشر الحشر المنسوبة لابن الكمال بأنه لادلالة فى الحديث على عدم النفخة الثالثة ، غايته أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكت عنها ، ولا يلزم من ذلك عدمها ، وكذا لا دلالة فى اتحاد الاستثناء فى الآيتين أن يكون المذكور فيهما نفخة واحدة ، وهذا ظاهر ٥ ثم قال : والصحيح عندى ما فى القول الأول ، من أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق . فإن حديث الصحيحين لاتخيرونى من بين الأنبياء ، فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا أنا بموسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلاأدرى أفاق قبلى أو جزى بصعقة الطور : صريح فى أن الصعق يوم القيامة ، وأن لا موت فيه فهو فزع بلا موت ، فمن قال : هى ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ثم نفخة الصعق وهو الموت ، ثم نفخة البعث فقد أصاب فى التفرقة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق . إلا أنه لم يصب فى زعمه أن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق . كيف وقد دل حديث الصحيحين المذكور على عموم حكم نفخة الفزع للانبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق أى الموت ، قال القاضى عياض : إن نفخة الفزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض ، فظهر أن النفخات ثلاث بل أربع : نفخة يميت الله تعالى جميع الخلق بها كما جاء فى الحديث وعند ذلك ينادى سبحانه : لمن الملك اليوم . وينادى على ذلك قوله تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) . ونفخة البعث كما نطق به قوله تعالى (ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ونفخة الصعق وهى نفخة الفزع بعينها وقد سمعت آيتيهما ، ونفخة للإفاقة كما قال تعالى بعد ذكر نفخة الصعق (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وقد عرفت ما فى زعم أن نفخة الصعق هى نفخة الفزع

Marfat.com

بعينها فتدبر انتهى ، وتعقبه بعضهم بأنه يلزم حينئذ على القول بالمغايرة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفخات خمسا ولم نسمع متنفسا يقول بذلك ، وأيضا فيه القول بأن نفخة الصعق بعد نفخة البعث ، ويأباه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أنا أول من تنشق عنه الأرض فأرفع رأسى فاذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش فما أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله تعالى » فان انشقاق الأرض عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نفخة البعث لامحالة فاذا عقبه رفع رأسه عليه الصلاة والسلام ومفاجأة كون موسى عليه السلام متعلقا بقائمة من قوائم العرش فأين نفخة الصعق . ولايخفى أن كون النفخات خمسا لم يسمع هو الغالب على الظن ويتوقف قبول ماذكره ثانيا على صحة ماذكره من الخبر ، ولعل القائل بما تقدم من وراء المنع ، وقيل : الأظهر أن النفخات ثلاث : الأولى نفخة الصعق بمعنى الموت بما هو أحد معنييه المدلول عليها بقوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض) ، والثانية نفخة البعث المدلول عليها بقوله تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وقوله سبحانه : (ونفخ فى الصور فاذاهم من الاجداث إلى ربهم ينسلون) والثالثة نفخة الفزع المدلول عليها بماهنا وهى على ماسمعت عن القاضى عياض بعد النشر حين تنشق السموات والارض ٠

وأصله بما قال الراغب انقباض ونفار يعترى الشخص من الشئ المخيف والمراد به الرعب الشديد، ولعل الصعق المذكور فى حديث الصحيحين هو غشى يترتب عليه بلا واسطة وعلى النفخ بواسطته وقد نص فى الأساس على هذا المعنى له قال يقال صعق الرجل إذا غشى عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه ويدل على أنه بمعنى الغشى قوله عليه الصلاة والسلام « فأكون أول من يفيق » لان الافاقة إنما تكون من الغشى دون الموت ولم يعبر هنا بالصعق مرادا به الغشى المذكور فى الحديث لئلا يتوهم ارادة معنى الموت منه لخلوه هنا عن القرينة التى فى الحديث واقترانه بما يلائم ذلك . وقد يختار ماهو المشهور من أن النفخة اثنتان ويجاب عما يشعر بالزيادة فالنفخة الاولى نفخة الصعق بمعنى الموت بحال هائلة فبها يموت من فى السموات والارض من الأحياء قبيل ذلك إلا من شاء الله تعالى ، ويدل عليها آية ونفخ فى الصور فصعق الخ ، والنفخة الثانية نفخة البعث المدلول عليها بآية (ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون) وبينهما فى المشهور أربعون سنة ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «أربعون» بدون ذكر التمييز فقيل أربعون يوما فقال ابو هريرة أبيت فقيل أربعون شهرا فقال أبيت فقيل أربعون سنة فقال أبيت ، ونفخة الفزع بمعنى الرعب والخوف هى هذه النفخة بعينها ووجه ذلك أنه ينفخ فى الصور للبعث فيبعث الخلق وينشرون فاذا تحققوا يوم القيامة وشاهدوا آثار عظمة الله تعالى فزعوا ورعبوا الا من شاء الله تعالى وترتب الفزع على النفخ بالفاء للاشارة إلى قلة الزمان الفاصل لسرعة تحققهم ومشاهدتهم ماذكر ، والاضافة فى قولنا نفخة البعث وقولنا نفخة الفزع من اضافة السبب إلى المسبب إلا أن سببية النفخ للبعث بلاواسطة وسببيته للفزع بواسطة ، وحديث الصحيحين « لاتخيرونى من بين الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامه» الخ ليس فيه سوى اثبات الصعق بمعنى الغشى كما يرشد اليه ذكر الافاقة للناس يوم القيامة ولاتعرض له لنفخ يترتب عليه ذلك ، نعم التعبير بالصعق على ماذكروا فى معناه يقتضى أن يكون هناك هدة أو صوت شديد يسمعه من يسمعه فيغشى عليه إلا أنه لا يعين النفخ لجواز أن يكون ذلك من صوت حادث من انشقاق السموات الكائن

Marfat.com

بعد البعث والفزع من يوم القيامة وماشاهدوا من أهواله *

ومنع بعضهم اقتضاءه ذلك لجواز أن يراد به الغشى لحدوث أمر عظيم من أمور يوم القيامه غير النفخ ، وقيل : هو من فروع النفخ للبعث وذلك أنه ينفخ فتبعث الخلائق فيتحققون مايتحققون ويشاهدون مايشاهدون فيفزعون فيغشى عليهم الا ماشاء الله تعالى ، وحديث الصحيحين مما لا يأبى ذلك واحتياج الافاقة لنفخة أخرى فى حيز المنع ؛ وقيل : فى بيان اتحاد نفخة البعث ونفخة الفزع أن المراد بالفزع الاجابة والاسراع للقيام لرب العالمين وقد صرحت الآيات باسراع الناس عند البعث فقال تعالى : (ونفخ فى الصور فاذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وقال سبحانه : (يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) ولا يخفى بعده واحتياج توجيه الاستثناء بعد عليه إلى تكلف فالاولى أن يوجه الاتحاد بما سبق فتأمل ، وايراد صيغة الماضى مع كون المعطوف أعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق الوقوع كما فى قوله تعالى : (فأوردهم النار) بعد قوله تعالى : (يقدم قومه) ووجه تأخير بيان الاحوال الواقعه فى ابتداء هذه النفخة عن بيان مايقع بعد من حشر المكذبين قد تقدم الكلام فيه فتذكر فما فى العهد من قدم ﴿ إِلَّا مَنْ شَآءَ اللَّهُ ﴾ استثناء متصل كما هو الظاهر من من ومفعول المشيئة محذوف أى الا من شاء الله تعالى أن لا يفزع ، والمراد بذلك على ماقيل : من جاء بالحسنة لقوله تعالى فيهم : (وهم من فزع يومئذ آمنون) وتعقب بان الفزع فى تلك الآية غير الفزع المراد من قوله سبحانه : (ففزع) الخ وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى ، واختلف الذين حملوا النفخ هنا على النفخة الاولى التى تكون للصعق - أى الموت - فى تعيينهم فقيل هم جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وروى ذلك عن مقاتل والسدى *

وقال الضحاك : هم الولدان والحور العين وخزنة الجنة وحملة العرش . وحكى بعضهم هذين القولين فى المراد بالمستثنى على تقدير أن يراد بالنفخ النفخة الثانية وبالفزع الخوف والرعب وأورد عليهما أن حملة العرش ليسوا من سكان السموات والأرض لأن السموات فى داخل الكرسى ونسبتها اليه نسبة حلقة فى فلاة ونسبة الكرسى إلى العرش كهذه النسبة أيضاً فكيف يكون حملته فى السموات وكذا الولدان والحور وخزنة الجنة لأن هؤلاء كلهم فى الجنة والجنان جميعها فوق السموات ودون العرش على ماأفصح عنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «سقف الجنة عرش الرحمن» فمافيها من الولدان والحور والخزنة لا يصح استثناؤهم ممن فى السموات والأرض وأما جبرائيل ومن معه من الملائكة المقربين عليهم السلام فهم من الصافين المسبحين حول العرش وإذا كان العرش فوق السموات لا يمكن أن يكون الاصطفاف حوله فى السموات ، وأجيب بأنه يجوز أن يراد بالسموات مايعم العرش والكرسى وغيرهما من الاجرام العلوية فانه الأليق بالمقام، وقد شاع استعمال من فى السموات والأرض عند إرادة الاحاطة والشمول *

وقيل : لا مانع من حمل السموات على السموات السبع والتزام كون الاستثناء على القولين المذكورين منقطعاً ولا يخفى مافيه ، وعد بعضهم ممن استثنى موسى عليه السلام ، وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إلا إذا أريد بالفزع الصعق يوم القيامة بعد النفخة الثانية ، أما إذا أريد به مايكون فى الدنيا عند النفخة الأولى فلا ، على أن

Marfat.com

عده عليه السلام ممن لا يصعق يوم القيامة بعد قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الصحيحين السابق فلا أدرى أفاق قبلى أو جزى بصعقة الطور يحتاج إلى خبر صحيح وارد بعد ذلك ه

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون وصححه القاضى أبو بكر بن العربى كما قال القرطبي وبه رد على من زعم أنه لم يرد فى تعيينهم خبر صحيح ، وإلى ذلك ذهب ابن جبير ولفظه هم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش وكذا ذهب اليه الحليمى وقال : هو مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ثم ضعف غيره من الأقوال . وقد ذكره غير واحد من المفسرين إلا أن بعضهم ذكره فى تفسير من شاء الله فى آية الصعق وبعض آخر ذكره فى تفسيره فى آية الفزع فتدبر ه

﴿ وَكُلٌّ ﴾ أى كل واحد من الفازعين المبعوثين عند النفخة ﴿ أَتَوْهُ ﴾ أى حضروا الموقف بين يد رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب ، وقيل : أى رجعوا إلى أمره تعالى وانقادوا . وضمير الجمع باعتبار معنى (كل) وقرأ قتادة أتاه فعلا ماضياً مسنداً لضمير (كل) على لفظها *

وقرأ أكثر السبعة آتوه اسم فاعل ﴿ دَاخِرِينَ ٨٠ ﴾ أى أذلاء ، وقرأ الحسن . والأعمش دخرين بغير ألف وهو على القراءتين نصب على الحال من ضمير (كل) وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ ﴾ عطف على ينفخ داخل فى حكم التذكير ، وترى من رؤية العين ، وقوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أى ثابتة فى أماكنها لا تتحرك حال من فاعل ترى أو من مفعوله ، وجوز أن يكون بدلا من سابقه ، وقوله عز وجل ه ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ حال من ضمير الجبال فى تحسبها ، وجوز أن يكون حالا من ضميرها فى جامدة ومنعه أبو البقاء لاستلزامه أن تكون جامدة ومارة فى وقت واحدة أى وترى الجبال رأى العين ساكنة والحال أنها تمر فى الجو مر السحاب التى تسيرها الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الاجرام المجتمعة المتكاثرة العدد على وجه الالتصاق إذا تحركت نحو سمت لاتكاد تبين حركتها ، وعليه قول النابغة الجعدى فى وصف جيش :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

وقيل : شبه مرها بمر السحاب فى كونها تسير سيراً وسطاً كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحائب لاريث ولاعجل

والمشهور فى وجه الشبه السرعة وإن منشأ الحسبان المذكور ماسمعت ، وقيل : إن حسبان الرائى إياها جامدة مع مرورها لهول ذلك اليوم فليس له ثبوت ذهن فى الفكر فى ذلك حتى يتحقق كونها جامدة وليس بذاك وقد أدمج فى التشبيه المذكور تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) واختلف فى وقت هذا ، ففى إرشاد العقل السليم أنه مما يقع بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق يبدل الله تعالى شأنه الأرض غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض انما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال

Marfat.com

فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً يومئذ يتبعون الداعى) ، وقوله سبحانه : (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) فان اتباع الداعى الذى هو إسرافيل وبروز الخلق لله تعالى لايكونان إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم) إن صيغة الماضى فى المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل :.وحشرناهم قبل ذلك اهـ

وقال بعضهم إنه مما يقع عند النفخة الاولى وذلك أنه ترجف الارض والجبال ثم تنفصل الجبال عن الارض وتسير فى الجو ثم تسقط فتصير كثيبا مهيلا ثم هباء منبثا ، ويرشد إلى أن هذه الصيرورة مما لا يترتب على الرجفة ولا تعقبها بلا مهلة العطف بالواو دون الفاء فى قوله تعالى : (يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) والتعبير بالماضى فى قوله تعالى : (وترى الارض بارزة وحشرناهم) لتحقق الوقوع كما مر آنفا واليوم فى قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال) الآية ، وقوله تعالى : (يوم تبدل الارض) الخ يجوز أن يجعل اسما للحين الواسع الذى يقع فيه مايكون عند النفخة الاولى من النسف والتبديل ومايكون عند النفخة الثانية من اتباع الداعى والبروز لله تعالى الواحد القهار ، وقد حمل اليوم على مايسع مايكون عند النفختين فى قوله تعالى: (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة يومئذ تعرضون) وهذا كما تقول جئته عام كذا وإنما مجيئك فى وقت من أوقاته وقد ذهب غير واحد إلى أن تبديل الارض كالبروز بعد النفخة الثانية لما فى صحيح مسلم عن عائشة « قلت يارسول الله أرأيت قول الله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض فأين يكون الناس؟ قال على الصراط » وجاء فى غير خبر مايدل على أنه قبل النفخة الأولى ، وجمع صاحب الافصاح بين الاخبار بان التبديل يقع مرتين مرة قبل النفخة الاولى وأخرى بعد النفخة الثانية ، وحكى فى البحر أن أول الصفات ارتجاجها ثم صيرورتها كالعهن المنفوش ثم كالهباء بان تتقطع بعد أن كانت كالعهن ثم نسفها بارسال الرياح عليها ثم تطييرها بالريح فى الجو كأنها غبار ثم كونها سرابا ، وهذا كله على مايقتضيه كلام السفارينى قبل النفخة الثانية ، ومن تتبع الاخبار وجدها ظاهرة فى ذلك ، والآية هنا تحتمل كون الرؤية المذكورة فيها قبل النفخة الثانية وكونها قبلها فتأمل ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ الظاهر أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة وهى جملة الحال والعامل فيه مادلت عليه من كون ذلك من صنعه تعالى فكأنه قيل : صنع الله تعالى ذلك صنعا وهذا نحو له على ألف عرفا ويسمى فى اصطلاحهم المؤكد لنفسه وإلى هذا ذهب الزجاج وأبو البقاء .

وقال بعض المحققين : مؤكد لمضمون ماقبله على أنه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور وماترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الافاعيل وتهويل أمرها والايذان بأنها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يكون فيه حكمة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التى لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادى الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أى أتقن خلقه وسواه على ماتقتضيه الحكمة اه ، وحسنه ظاهر . وقال الزمخشرى هو من المصادر المؤكدة إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى ويوم ينفخ فى الصور فكان كيت وكيت أثاب الله تعالى المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال سبحانه : صنع الله يريد

Marfat.com

عز وجل به الاثابه والمعاقبه إلى آخر ماقال، وهو يدل على أنه فرض اليوم ممتدا شاملا لزمان النفختين وما بعدهما وجعل المصدر مؤكدا لهذا المحذوف المدلول عليه بالتفصيل فى قوله تعالى الآتى : من جاء ومن جاء وباستدعاء يوم ينفخ ناصبا وفرع عليه مافرع وتعقبه أبو حيان بأن المصدر المؤكد لمضمون الجملة لايجوز حذف جملته لأنه منصوب بفعل من لفظه فيجتمع حذف الفعل الناصب وحذف الجملة التى أكد مضمونها بالمصدر وذلك حذف كثير مخل ومن تتبع مساق هذه المصادر التى تؤكد مضمون الجملة وجد الجل مصرحا بها لم يرد الحذف فى شئ منها إذ الاصل أن لايحذف المؤكد إذ الحذف ينافى التأكيد لأنه من حيث أكد معتنى به ومن حيث حذف غير معتنى به، وكأن الداعى له إلى العدول عن الظاهر على ماقيل أن الصنع المتقن لا يناسب تسيير الجبال ظاهرا وأنت تعلم أن هذا على طرف الثمام نعم الأحسن جعله مؤكدا لمضمون ما ذكر من النفخ فى الصور وما بعده وجىء به للتنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل على ما سمعته عن بعض المحققين . وقيل هو منصوب على الإغراء بمعنى انظروا صنع الله وهو كما ترى . واستدل بالآية على جواز إطلاق الصانع على الله عز وجل وهو مبنى على مذهب من يرى أن ورود الفعل كاف *

واستدل بعضهم على الجواز المذكور بالخبر الصحيح « إن الله صانع كل صانع وصنعته » وتعقب بأن الشرط أن لايكون الوارد على جهة المقابلة نحو (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) خلافا للحليمى على مايقتضيه قوله يستحب لمن ألقى بذرا فى أرض أن يقول الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ ، وما فى هذا الحديث من هذا القبيل وأيضا ما فى الخبر بالإضافة فلايدل على جواز الخالى عنها ألا ترى أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ياصاحب كل نجوى أنت الصاحب فى السفر لم يأخذوا منه أن الصاحب من غير قيد من أسمائه تعالى فتأمله ، ونحو هذا الاستدلال بخبر مسلم «ليعزم فى الدعاء فان الله تعالى صانع ما شاء لامكره له» فان مافيه من قبيل المضاف أو المقيد والأولى الاستدلال بما صح فى حديث الطبرانى والحاكم « اتقوا الله تعالى فان الله تعالى فاتح لكم وصانع » ولا فرق بين المعرف والمنكر عند الفقهاء لأن تعريف المنكر لايغير معناه ولذا يجوزون فى تكبيرة الاحرام : الله الأكبر *

واستدل القاضى عبد الجبار بعموم قوله سبحانه (أتقن كل شىء) على أن قبائح العبد ليست من خلقه سبحانه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة والاجماع مانع منه وأجيب بأن الآية مخصوصة بغير الأعراض لأن الاتقان بمعنى الاحكام وهو من أوصاف المركبات ولو سلم فوصف كل الأعراض به ممنوع فما من عام إلا وقد خص ولو سلم فالاجماع المذكور ممنوع بل هى متقنة أيضا بمعنى أن الحكمة إقتضتها ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ جعله بعض المحققين تعليلا لكون ما ذكر من النفخ فى الصور وما بعده صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعى إظهارها وبيان كيفياتها على ما هى عليه من الحسن والسوء وترتيب أخيريتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وتسيير الجبال حسبما نطق به التنزيل . وقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ بيانا لما أشير إليه باحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أخيريتها عليها . وقال العلامة الطيبى قوله تعالى إن الله الخ استئناف وقع جوابا لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع فقيل إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل ذلك بقوله سبحانه من جاء الخ . والخطاب فى (تفعلون) لجميع المكلفين وقرأ العربيان وابن كثير (يفعلون) بياء الغيبة . والمراد بالحسنة على ماروى عن ابن عباس . وابن مسعود . ومجاهد . والحسن

Marfat.com

والنخعى وأبى صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة شهادة أن لا إله إلا الله . وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن كعب بن عجرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسرها بذلك والمراد بهذه الشهادة التوحيد المقبول وقيل المراد بالحسنة ما يتحقق بما ذكر وغيره من الحسنات وهو الظاهر ، نظرا إلى أن اللام حقيقة فى الجنس . وقال بعضهم : الظاهر الأول ، لأن الظاهر حمل المطلق على الكامل وأكمل جنس الحسنة التوحيد ولو أريد العموم لكان الظاهر الاتيان بالنكرة ، ويكفى فى ترجيح الأول ذهاب أكثر السلف إليه وإذا صح الحديث فيه لايكاد يعدل عنه . وكان النخعى يحلف على ذلك ولايستثنى ، والظاهر أن خيرا للتفضيل وفضل الجزاء على الحسنة كائنة ماكانت . قيل باعتبار الأضعاف أو باعتبار الدوام . وزعم بعضهم أن الكلام بتقدير مضاف أى خير من قدرها وهو كما ترى . وقال بعض الأجلة ثواب المعرفة النظرية والتوحيد الحاصل فى الدنيا هى المعرفة الضرورية على أكمل الوجوه فى الآخرة والنظر إلى وجهه الكريم جل جلاله وذلك أشرف السعادات . وقيل إن خيرا ليس للتفضيل ومن لابتداء الغاية أى فله خير من الخيور مبدؤه ومنشؤه منها أى من جهة الحسنة . وروى ذلك عن ابن عباس . والحسن وقتادة ومجاهد وابن جريج وعكرمة ﴿وَهُمْ﴾ أى الذين جاءوا بالحسنة ﴿مِّنْ فَزَعٍ﴾ أى فزع عظيم هائل لايقادر قدره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف منصوب بقوله تعالى ﴿آمِنُونَ﴾ وبه أيضا يتعلق (من فزع) والأمن يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله (أفأمنوا مكر الله) ، وجوز أن يكون الظرف منصوبا بفزع وأن يكون منصوبا بمحذوف وقع صفة له أى من فزع كائن فى ذلك الوقت ، وقرأ العربيان . وابن كثير . واسمعيل بن جعفر ، عن نافع فزع يومئذ بإضافة فزع إلى يوم ، وكسر ميم يوم ، وقرأ نافع فى غير رواية إسمعيل كذلك إلا أنه فتح الميم فتح بناء لإضافة يوم إلى غير متمكن وتنوين إذ للتعويض عن جملة ، والأولى على مافى البحر أن تكون الجملة المحذوفة المعوض هو عنها ماقرب من الظرف أى يوم إذ جاء بالحسنة ، وجوز أن يكون التقدير يوم إذ ينفخ فى الصور لاسيما إذا أريد بذلك النفخ النفخة الثانية ، واقتصر عليه شيخ الاسلام ، وفسر الفزع بالفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذى فى قوله تعالى : (لايحزنهم الفزع الاكبر) وحكى عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وعن ابن جريج أنه حين يذبح الموت وينادى ياأهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت وهو كذلك فى قراءة التنوين وقراءة الإضافة ولايراد به فى القراءة الثانية جميع الأفزاع الحاصلة يومئذ ، ومدار الاضافة كون ذلك أعظم الأفزاع وأكبرها كأن ماعداه ليس بفزع بالنسبة اليه وقال تبعا لغيره إن الفزع المدلول عليه بقوله تعالى : (ففزع) الخ ليس الاالتهيب والرعب الحاصل فى ابتداء الاحساس بالشئ الهائل ولايكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمنا من لحاق الضرر به •

وقال أبو على : يجوز أن يراد بالفزع فى القراءتين فزع واحد وأن يراد به الكثرة لأنه مصدر فان أريد الكثرة شمل كل فزع يكون فى القيامة وإن أريد الواحد فهو الذى أشير اليه بقوله تعالى (لايحزنهم الفزع الاكبر) وسيأتى إن شاء الله تعالى قريبا تتمة للكلام فى الآية ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهو الشرك وبه فسرها من فسر الحسنة بشهادة ان لاإله إلا الله وقد علمت من هم ، وقيل : المراد بها مايعم الشرك وغيره من السيئات : ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ﴾ أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين ، فاسناد الكب إلى الوجوه مجازى لأنه

Marfat.com

يقال كبه وأكبه إذا نكسه ، وقيل : يجوز أن يراد بالوجوه الانفس كما أريدت بالايدى فى قوله تعالى :(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أى فكبت أنفسهم فى النار ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٠ ﴾ على الالتفات للتشديد أو على اضمار القول أى مقولا لهم ذلك فلا التفات فيه لأنه فى كلام آخر ومن شروط الالتفات اتحاد الكلامين كما حقق فى المعانى ، واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة بقوله تعالى : (من جاء بالحسنة) الخ على أن المؤمن العاصى لا يعذب يوم القيامة والالم يكن آمنا من فزع مشاهدة العذاب يومئذ وهو خلاف مادلت عليه الآية الكريمة ، وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصى فى عموم الآيه لأن المراد بالحسنة الحسنة الكاملة وهو الإيمان الذى لم تدنسه معصية ، وذلك غير متحقق فيه أو لأن المتبادر المجىء بالحسنة غير مشوبة بسيئة وهو أيضا غير متحقق فيه ومن تحقق فيه فهو آمن من ذلك الفزع بل لا يبعد أن يكون آمنا من كل فزع من أفزاع يوم القيامة وإن سلم الدخول قلنا المراد بالفزع الآمن منه من جاء بالحسنة مايكون حين يذبح الموت وينادى المنادى ياأهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النار خلود فلا موت كما سمعت عن ابن جريج أو حين تطبق جهنم على أهلها فيفزعون كما روى عن الكلبى وليس ذلك الا بعد تكامل أهل الجنة دخولا الجنة والعذاب الذى يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك والآية لا تدل على نفيه بوجه من الوجوه *

وأجاب بعضهم بأنه يجوز أن يكون المؤمن العاصى آمنا من فزع مشاهدة العذاب ، وأن عذب لعلمه بأنه لا يخلد فيعد عذابه كالمشاق التى يتكلفها المحب فى طريق وصال المحبوب وهذا فى غاية السقوط كما لا يخفى *

و استدل بعض المعتزلة بقوله تعالى : (من جاء بالسيئة) الخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصى لأن (من جاء بالسيئة) يعمهما وقد أثبت له الكب على الوجوه فى النار فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصى كذلك ، وأجيب بأن المراد بالسيئة الاشراك كما روى تفسيرها به عن أكثر سلف الأمة فلا يدخل المؤمن العاصى فيمن جاء بالسيئة ولو سلم دخوله بناءاً على القول بعموم السيئة فلا نسلم أن فى الآية دلالة على خلوده فى النار وكون الكب فى النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضى أن يكون بالنسبة اليه كذلك فكثيراً مايحكم على جماعة بأمر كلى ويكون الثابت لبعضهم نوعا وللبعض الآخر نوعا آخر منه وهذا مما لا ريب فيه ، ثم إن الآية من باب الوعيد فيجرى فيها على تقدير دخول المؤمن العاصى فى عموم من ماقاله الأشاعرة فى آيات الوعيد فافهم وتأمل *

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ استئناف بتقدير قل قبله وهو أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكفرة ذلك بعد مابين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إثارة لهممهم بألطف وجه إلى أن يشتغلوا بتدارك أحوالهم وتحصيل ماينفعهم والتوجه نحو التدبر فيما قرع أسماعهم من الآيات الباهرة الكافية فى إرشادهم والشافية لعللهم والبلدة على ماروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما هى مكة المعظمة ، وفى تاريخ مكة أنها منى قال حدثنا يحيى بن ميسرة عن خلاد بن يحيى عن سفيان أنه قال : البلدة منى والعرب تسميها بلدة إلى الآن *

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية تفسيرها بذلك أيضاً ، وذكر بعض الأجلة ان أكثر المفسرين على

Marfat.com

الأول وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم مع مافيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ومن الرمز إلى غاية شناعة مافعلوا فيها ألا ترى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الالحاد فيها قد استمروا فيها على تعاطى أفظع أفراد الفجور وأشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، ولا تعارض بين مافى الآية من نسبة تحريمها إليه عز وجل وما فى قوله عليه الصلاة والسلام «إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة وأنا حرمت المدينة» من نسبة تحريمها إلى إبراهيم عليه السلام لأن ما هنا باعتبار أنه هو المحرم فى الحقيقة ومافى الحديث باعتبار أن إبراهيم عليه السلام مظهر لحكمه عز شأنه *

وقرأ ابن عباس وابن مسعود التى صفة للبلدة وقراءة الجمهور أبلغ فى التعظيم، فى الكشف أن إجراء الوصف على الرب تعالى شأنه ، تعظيم لشأن الوصف ولشأن ما يتعلق به الوصف وزيادة اختصاص له بمن أجرى عليه الوصف على سبيل الادماج وجعل ذلك كالمسلم المبرهن ولا كذلك لو وصفت البلدة بوصف تخصيصا أو مدحا . وقوله تعالى ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أى خلقا وملكا وتصرفا ، من غير أن يشاركه سبحانه شىء فى شىء من ذلك تحقيق للحق ، وتنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة لما مر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات ، واستدل به بعض الناس لجوازما يقوله جهلة المتصوفة شىء لله ، لأنه فى معنى كل شىء لله عز وجل ، نحو تمرة خير من جرادة ، وأنت تعلم أنهم لا يأتون به لارادة ذلك بل يقولون : شىء لله يافلان لبعض الأكابر من أهل القبور ، إما على معنى أعطنى شيئا لوجه الله تعالى يافلان ، أو أنت شىء عظيم من آثار قدرة الله تعالى ، وقد وجهه بذلك من لم يكفرهم به وهو الحق وإن كان فى ظاهره على أول التوجيهين طلب شىء ممن لا قدرة له على شىء نعم الأولى صيانة اللسان عن أمثال هذه الكلمات .

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد أو الذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصة من قوله تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أى أواظب على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنيته الارشاد لكفايته فى الهداية إلى طريق الرشاد ، وقيل أى أواظب على قراءته لينكشف لى حقائقه الرائقة المخزونة فى تضاعيفه شيئا فشيئا فان المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الالهية والأسرار القدسية ، وقد حكى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى : (إن تعذبهم فانهم عبادك) فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر حتى طلع الفجر ، وقيل أتلو من تلاه إذا تبعه ، أى وأن أتبع القرآن ، وهو خلاف الظاهر ، ويؤيد ما ذكرناه أولا من المعنى ما فى حرف أبى كما أخرجه أبو عبيد . وابن المنذر عن هرون واتل عليهم القرآن وحكى عنه فى البحر أنه قرأ واتل هذا القرآن ، ولا تأييد فيه لما ذكرنا . وقرأ عبد الله وأن أتل بغير واو أمراً من تلا فجاز أن تكون أن مصدرية وصلت بالأمر ، وجاز أن تكون مفسرة على إضمار أمرت ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أى بالايمان بالقرآن والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام ، وقيل أي بالاتباع فيما

Marfat.com

ذكر من العبادة والاسلام ، وتلاوة القرآن أو اتباعه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾ أى فإنما منافع اهتدائه تعود إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر به والاعراض عنه ، وقيل بالمخالفة فيما ذكر ﴿فَقُلْ﴾ أى له ﴿إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ٩٢﴾ وقد خرجت عن عهدة الانذار فليس على من وبال ضلالك شئ وإنما هو عليك فقط ويعلم مما ذكرنا أن جواب الشرط جملة القول ومافى حيزه والرابط المشترط فى مثله محذوف وقدره بعضهم بعد المنذرين أى من المنذرين اياه ، وجوز أبو حيان كون الجواب محذوفا أى من ضل فوبال ضلاله مختص به وحذف ذلك لدلالة جواب مقابله عليه ، وجوز بعضهم كون الجملة بعد هى الجواب ولكونها كناية تعريضية عما قدره أبو حيان لم تحتج إلى رابط ثم أن ظاهر التصريح بقل هنا يقتضى أن يكون فمن اهتدى الخ من كلامه عز وجل عقب به أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول لهم ماقبله ، ولابعد فى كونه من مقول القول المقدر قبل قوله تعالى : (إنما أمرت) كما سمعت ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى على ماأفاض على من نعمائه التى من أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين النيرة ، وقوله تعالى : ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ من جملة الكلام المأمور به أى قل سيريكم آياته سبحانه : ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حيث لاتنفعكم المعرفة ، وقيل : أى سيريكم فى الدنيا والمراد بالآيات الدخان وماحل بهم من نقمات الله تعالى وعد منها قتل يوم بدر واعتراف المقتولين بذلك بالفعل واعتراف غيرهم بالقوة ، وقيل : هى خروج الدابة وسائر أشراط الساعة والخطاب لجنس الناس لالمن فى عهد النبوة ٭

وأخرج ابن أبى حاتم وجماعة عن مجاهد أن المراد بالآيات الآيات الانفسية والآفاقية فالآية كقوله تعالى: (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ، وقيل : المراد بها معجزات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واضافتها إلى ضميره تعالى لأنها فعله عز وجل أظهرها على يد رسوله عليه الصلاة والسلام للتصديق ، والمراد بالمعرفة مايجامع الجحود ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣﴾ كلام مسوق من جهته سبحانه بطريق التذييل مقرر لماقبله متضمن للوعد والوعيد مما ينبئ عنه إضافة الرب الى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا أى وماربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وماتعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازى كلامنكم بعمله لامحالة ، وقرأ الأكثر يعملون بياء الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وماربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته سبحانه عن أعمالهم الموجبة له ومن تأمل فى الآيات ظهر له أن هذه الخاتمة مما تدهش العقول وتحير الافهام ولله تعالى در التنزيل وماذا عسى يقال فى كلام الملك العلام ٭

﴿ ومن باب الإشارة فى الآيات ماقيل ﴾ وأنزل من السماء أى سماء القلب ماء هو ماء نظر الرحمة فأنبتنا به حدائق ذات بهجة من العلوم والمعانى والاسرار والحكم البالغة ، ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أى أصولها لما أن العلوم الآلهية غير اختيارية بل كل علم ليس باختيارى فى نفسه وإلا لزم تقدم الشىء على نفسه نعم هو اختيارى باعتبار الاسباب (أم من جعل الارض) أى أرض النفس قرارا فى الجسد (وجعل خلالها أنهارا) من

Marfat.com

دواعى البشرية (وجعل لها رواسى) من قوى البشرية والحواس (وجعل بين البحرين) بحر الروح وبحر النفس (حاجزا) وهو القلب (أم من يجيب المضطر) وهو المستعد لشىء من الاشياء (إذا دعاه) بلسان الاستعداد وطلب منه تعالى ما استعدله ، وقال بعضهم: المضطر المستغرق فى بحار شوقه تعالى (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة) وهى النفس الناطقة والروح الانسانى (من الأرض) أى أرض البشرية وعلى هذا النمط تكلموا فى سائر الآيات وساق الشيخ الاكبر قدس سره قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) دليلا على ما يدعيه من تجدد الجواهر كالأعراض عند الاشعرى وعدم بقائها زمانين ، ومبنى ذلك عنده القول بوحدة الوجود وأنه سبحانه كل يوم هو فى شأن ، والكلام فى صحة هذا المبنى واستلزامه للمدعى لايخفى على العارف ، وأما الاستدلال بهذه الآية لهذا المطلب فمن أمهات العجائب وأغرب الغرائب والله تعالى أعلم *

﴿ سورة القصص ٢٨ ﴾

مكية كلها على ماروى عن الحسن . وعطاء . وطاوس . وعكرمة ، وقال مقاتل : فيها من المدنى قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) إلى قوله تعالى : (لانبتغى الجاهلين) فقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشى الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد ،

وفى رواية عنه رضى الله تعالى عنه أن الآية المذكورة نزلت بالجحفة فى خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة ، وقيل : نزلت بين مكة والجحفة ، وقال المدائنى فى كتاب العدد حدثنى محمد ثنا عبد الله قال: حدثنى أبى قال: حدثنى على بن الحسين عن أحمد بن موسى عن يحيى بن سلام قال بلغنى أن النبى ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال أتشتاق يا محمد إلى بلدك التى ولدت فيها؟ قال: نعم قال أن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد الآية وهى ثمان وثمانون آية بالاتفاق ، ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام *

قال الجلال السيوطى إنه سبحانه لما حكى فى الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت إلى قول موسى عليه السلام (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) . ثم حكى سبحانه فى طس قول موسى عليه السلام لأهله (إنى آنست ناراً) إلى آخره الذى هو فى الوقوع بعد الفرار وكان الأمران على سبيل الاشارة والاجمال فبسط جل وعلا فى هذه السورة ما أوجزه سبحانه فى السورتين وفصل تعالى شأنه ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما فبدأ عز وجل بشرح تربية فرعون له مصدرا بسبب ذلك من علو فرعون وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح وبسط القصة فى تربيته وما وقع فيها إلى كبره إلى السبب الذى من أجله قتل القبطى إلى قتل القبطى وهى الفعلة التى فعل إلى النم عليه بذلك الموجب لفراره إلى مدين إلى ماوقع له مع شعيب عليه السلام وتزوجه بابنته إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور نارا فقال لاهله امكثوا إنى آنست نارا إلى ماوقع له فيها من المناجات لربه جل جلاله وبعثه تعالى إياه رسولا وما استتبع

Marfat.com

ذلك إلى آخر القصة فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل فى السورتين معا على الترتيب ، وبذلك عرف وجه الحكمة من تقديم طس على هذه وتأخيرها عن الشعراء فى الذكر فى المصحف وكذا فى النزول فقد روى عن ابن عباس . وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ، ثم طسم ، ثم القصص ، وأيضاً قد ذكر سبحانه فى السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يوم القيامة ماذكر ، وذكر جل شأنه فى هذه من ذلك ماهو أبسط وأكثر مما تقدم ، وأيضا ذكر عز وجل من أمر الليل والنهار هنا فوق ماذكره سبحانه منه هناك ، وقد يقال فى وجه المناسبة أيضاً : إنه تعالى فصل فى تلك السورة أحوال بعض المهلكين من قوم صالح . وقوم لوط . وأجمل هنا فى قوله تعالى : (وكم أهلكنا من قرية) الآيات ، وأيضاً بسط فى الجملة هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة وأوجز سبحانه هنا حيث قال تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) فلم يذكر عز وجل من حال الأولين أمنهم من الفزع ومن حال الآخرين كب وجوههم فى النار إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم ١ تلك ءايت الكتب المبين ٢ ﴾ قد مر مايتعلق به من الكلام فى أشباهه ﴿ نتلوا عليك ﴾ أى نقرأ بواسطة جبرائيل عليه السلام فالاسناد مجازى كما فى بنى الأمير المدينة . والتلاوة فى كلامهم على ما قال الراغب تختص باتباع كتب الله تعالى المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيه من أمر ونهى وترغيب وترهيب أو مايتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة ، ويجوز أن تكون التلاوة هنا مجازاً مرسلا عن التنزيل بعلاقة أن التنزيل لازم لها أو سببها فى الجملة وأن تكون استعارة له لما بينهما من المشابهة فان كلا منهما طريق للتبليغ فالمعنى ننزل عليك ﴿ من نبإ موسى وفرعون ﴾ أى من خبرهما العجيب الشأن ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول نتلو المحذوف أى نتلو شيئاً كائنا من نبئهما .

والظاهر أن (من) تبعيضية ، وجوز بعضهم كونها بيانية وكونها صلة على رأى الأخفش فنبأ مجرور ، لفظاً (١) مرفوع محلا مفعول نتلو ويوهم كلام بعضهم أن (من) هو المفعول كأنه قيل : نتلو بعض نبأ وفيه بحث ، وأياً ما كان فلا تجوز فى كون النبأ متلواً لما أنه نوع من اللفظ ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل نتلو أى نتلو ملتبسين (بالحق) أو مفعوله أى نتلو شيئاً من نبئهما ملتبساً بالحق أو وقع صفة لمصدر نتلو أى نتلو تلاوة ملتبسة بالحق ؛ وقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ٣ ﴾ متعلق بنتلو واللام للتعليل وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به ، وقد تقدم الكلام فى شمول (يؤمنون) للمؤمنين حالا واستقبالا فى السورة السابقة ، وقوله تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾ استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى (إن فرعون) تجبر وطغى فى أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أى فرقا يشيعونه فى كل مايريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضاً فى طاعته أو أصنافا فى استخدامه يستعمل

(١) قوله مرفوع محلا مفعول الخ هكذا بخط المؤلف ولعله سقط من قلمه رحمه الله ، او والأصل أو مفعول نتلو يعنى ويكون منصوب المحل اه مصححه .

Marfat.com

كل صنف فى عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يعمل ضرب عليه الجزية فيخدمه بأدائها أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل وعدهم من أهلها للتغليب أو لأنهم كانوا فيها زماناً طويلا ، والجملة اما استئناف نحوى أو بيانى فى جواب ماذا صنع بعد ذلك ، وإما حال من فاعل جعل أومن مفعوله . وأما صفة لشيعا والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، وقوله تعالى :

﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ بدل من الجملة قبلها بدل اشتمال أو تفسير أو حال من فاعل يستضعف أو صفة لطائفة أو حال منها لتخصصها بالوصف وكان ذلك منه لما أن كاهنا قال له يولد فى بنى إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده .

وقال السدى : إنه رأى فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل فسأل علماء قومه فقالوا: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده فأخذ يفعل مايفعل ولايخفى أنه من الحمق بمكان إذ لو صدق الكاهن أو الرؤيا فما فائدة القتل وإلافما وجهه ،وفى الآية دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك شريعة فرعونية .

وقرأ أبو حيوة وابن محيصن (يذبح) بفتح الياء وسكون الذال ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤ ﴾ أى الراسخين فى الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل من لاجنحة له من ذرارى الانبياء عليهم السلام لتخيل فاسد ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ أى نتفضل ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه ، وصيغة المضارع فى نريد لحكاية الحال الماضية وأما نمن فمستقبل بالنسبة للارادة فلا حاجة لتأويله وهو معطوف على قوله تعالى : (إن فرعون علا) الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبأ وهذا هو الظاهر .

وجوز أن تكون الجملة حالا من مفعول يستضعف بتقدير مبتدأ أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وقدر المبتدأ ليجوز التصدير بالواو ، وجوز أن يكون حالا من الفاعل بتقدير المبتدا أيضا وخلوها عن العائد عليه وما يقوم مقامه لايضر لأن الجملة الحالية إذا كانت اسمية يكفى فى ربطها الواو وضعف بأنه لاشبهة فى استهجان ذلك مع حذف المبتدأ ، وتعقب القول بصحة الحالية مطلقا بأن الاصل فى الحال المقارنة والمن بعد الاستضعاف بكثير ، وأجيب بأن الحال ليس المن بل ارادته وهى مقارنة وتعلقها إنما هو بوقوع المن فى الاستقبال فلا يلزم من مقارنتها مقارنته على أن من الله تعالى عليهم بالخلاص لما كان فى شرف الوقوع جاز أجراؤه مجرى الواقع المقارن للاستضعاف وإذا جعلت الحال مقدرة يرتفع القيل والمقال ، وجوز بعضهم عطف ذلك على نتلو ونستصعف ، وقال الزمخشرى : هو غير سديد ، ووجه ذلك فى الكشف بقوله أما الاول فلما يلزم أن يكون خارجا عن المنبأ به وهو أعظمه وأهمه ، وأما الثانى فلأنه إما حال عن ضمير جعل أو عن مفعوله أوصفة لشيعا أو كلام مستأنف وعلى الاولين ظاهر الامتناع وعلى الثالث أظهر إذ لامدخل لذلك فى الجواب عن السؤال الذى يعطيه قوله تعالى : (جعل أهلها شيعا) والعطف يقتضى الاشتراك لكن للعطف على يستضعف مساغ على تقدير الوصف والمعنى جعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ونريد أن نمن عليهم منهم أى على الطائفة من الشيع فأقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى الطائفة وحذف الراجع إلى الشيع للعلم كأنه قيل : يستضعفهم

Marfat.com

ونريد أن نقويهم مما زعم الزمخشرى فى الوجه الذى جعله حالا عن مفعول يستضعف والحاصل شيعا موصوفين باستضعاف طائفة وارادة المن على تلك الطائفة منهم بدفع الضعف *

﴿ فان قلت ﴾ يدفعه أن العلم بالصفة الثانية لم يكن حاصلا بخلاف الأولى قلنا كذلك لم يكن حاصلا باستضعاف مقيد بحال الارادة والحق أن الوجهين يضعفان لذلك وإنما أوردناه على الزمخشرى لتجويزه الحال انتهى. وأورد عليه أن للعطف عليه على تقدير كونه حالا مساغا أيضا بعين ماذكره فلا وجه للتخصيص بالوصفية وأن عدم حصول العلم بالصفة الثانية بعد تسليم اشتراط العلم بالصفة مطلقا غير مسلم فان سبب العلم بالاولى وهو الوحى أو خبر أهل الكتاب ، يجوز أن يكون سببا للعلم بالثانية ، وأيضا يجوز أن يخصص جواز حالية ونريد الخ باحتمال الاستئناف والحالية فى يستضعف دون الوصف فلا يكون مشترك الالزام ، وفيه أن احتمال الحالية من المفعول لم يذكره الزمخشرى فلذا لم يلتفت صاحب الكشف إلى أن للعطف عليه مساغا وأن اشتراط العلم بالصفة مما صرح به فى مواضع من الكشاف والكلام معه وأن العلم بصفة الاستضعاف لكونه مفسرا بالذبح والاستحياء وذلك معلوم بالمشاهدة وليس سبب العلم ماذكر من الوحى أو خبر أهل الكتاب وفى هذا نظر ، والانصاف أن قوله تعالى : (إن فرعون) الخ لا يظهر كونه بيانا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون معا على شئ من الاحتمالات ظهوره على احتمال العطف على إن فرعون وادخاله فى حيز البيان والا فالظاهر من إن فرعون الخ بدون هذا المعطوف أنه بيان لنبإ فرعون فقط فتأمل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقتدى بهم فى الدين والدنيا على مافى البحر ، وقال مجاهد دعاة إلى الخير . وقال قتادة ولاة كقوله تعالى : (وجعلكم ملوكا) وقال الضحاك أنبياء وأياما كان ففيه نسبة ما للبعض إلى الكل ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥ ﴾ لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه على أكمل وجه كما يومئ اليه التعريف وذلك بأن لا ينازعهم أحد فيه ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى فى أرض مصر ، وأصل التمكين أن يجعل الشئ مكانا يتمكن فيه (١) ثم استعير للتسليط واطلاق الامر وشاع فى ذلك حتى صار حقيقة لغوية فالمعنى نسلطهم على أرض مصر يتصرفون وينفذ أمرهم فيها كيفما يشاؤن ، وظاهر كلام بعضهم أن المراد بالارض مايعم مصر والشام مع أن المعهود هو أرض مصر لاغير وكأن ذلك لما أن الشام مقر بنى اسرائيل . وقرأ الاعمش ولنمكن بلام كى أى وأردنا ذلك لنمكن أو ولنمكن فعلنا ذلك *

﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أضافة الجنود إلى ضميرهما إما للتغليب أو لأنه كان لهاما ان جند مخصوصون به وإن كان وزيرا أو لأن جند السلطان جند الوزير ، ونرى من الرؤية البصرية على ماهو المناسب للبلاغة ، وجوز أن يكون من الرؤية القلبية التى هى بمعنى المعرفة ، وعلى الوجهين هو ناصب لمفعولين لكان الهمزة ففرعون وماعطف عليه مفعوله الأول ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى من أولئك المستضعفين متعلق به ، وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦ ﴾ أى يتوقون من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم مفعوله الثانى ، والرؤية على تقدير كونها بصرية لمقدمات ذلك وعلاماته فى الحقيقة لكنها جعلت له مبالغة ومثله مستفيض بينهم حتى يقال رأى موته بعينه وشاهد هلاكه وعليه قول بعض المتأخرين :

(١) قوله أن يجعل الشىء مكانا يتمكن الخ هكذا بخطه رحمه الله اه

Marfat.com

أبكانى البين حتى رأيت غسلى بعينى

وقيل : المراد رؤية وقت ذلك ، وليس بذاك ، والأمر على تقدير كونها بمعنى المعرفة ظاهر . لأنهم قد عرفوا ذهاب ملكهم وهلاكهم ، لما شاهدوه من ظهور أولئك المستضعفين عليهم ، وطلوع طلائعه من طرق خذلانهم . وفسر بعضهم الموصول بظهور موسى عليه السلام ، وهو خلاف الظاهر المؤيد بالآثار وكأن ذلك منه لخفاء وجه تعلق رؤية فرعون ومن معه بذهاب ملكهم وهلاكهم عليه وقد علمت وجهه ، وقرأ عبد الله . وحمزة . والكسائى - ويرى - بالياء مضارع رأى ، وفرعون بالرفع على الفاعلية ، وكذا ما عطف عليه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ قيل هى محيانة بنت يصهر بن لاوى ، وقيل يوخابذ (٢) وقيل يارخا وقيل يارخت ، وقيل غير ذلك . والظاهر أن الإيحاء اليها كان بارسال ملك ، ولا ينافى حكاية أبى حيان الإجماع على عدم نبوتها ، لما أن الملائكة عليهم السلام قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم ، وإلى هذا ذهب قطرب وجماعة . وقال مقاتل منهم : إن الملك المرسل اليها هو جبريل عليه السلام . وعن ابن عباس . وقتادة أنه كان إلهاما ، ولا يأباه قوله تعالى : (إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) نعم هو أوفق بالاول . وقال قوم : إنه كان رؤيا منام صادقة قص فيها أمره عليه السلام ، وأوقع الله تعالى فى قلبها اليقين . وحكى عن الجبائى أنها رأت فى ذلك رؤيا ، فقصتها على من تثق به من علماء بنى إسرائيل فعبرها لها . وقيل كان باخبار نبى فى عصرها إياها . والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة ، وفى الأخبار مايشهد له ، فيكون فى الكلام جملة محذوفة ، وكأن التقدير والله تعالى أعلم : ووضعت موسى أمه فى زمن الذبح فلم تدر ماتصنع فى أمره وأوحينا اليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وقيل : كان قبل الولادة ، وأن تفسيرية أو مصدرية ، والمراد أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه . وقرأ عمر بن عبد الواحد . وعمر بن عبد العزيز أن ارضعيه بكسر النون بعد حذف الهمزة على غير قياس لأن القياس فيه نقل حركتها وهى الفتحة إلى النون كما فى قراءة ورش ه

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء ، أو من الجيران ونحوهم أن ينموا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ﴾ أى فى البحر . والمراد به النيل ، ويسمى مثله بحراً ، وإن غلب فى غير العذب ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضيعة أو شدة من عدم رضاعه فى سن الرضاع ﴿وَلَا تَحْزَنِى﴾ من مفارقتك إياه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب بحيث تأمنين عليه ويومئ إلى القرب السياق . وقيل التعبير باسم الفاعل لأنه حقيقة فى الحال ويعتبر لذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا يضر تفاوت القربين ، والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن ، وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى إنا فاعلون ردّه ، وجعله من المرسلين لامحالة . واستفصح الأصمعى امرأة من العرب أنشدت شعرا فقالت : أبعد قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى) الآية فصاحة وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . والفاء فى قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحة والتقدير ففعلت ماأمرت به من إرضاعه والقائه فى اليم لما خافت عليه ، وحذف ما حذف تعويلا على دلالة الحال وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال ه

(٢) قوله يوخابذ هو هكذا فى نسخة المؤلف بالخاء المعجمة والباء وحرره اه

Marfat.com

روى أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بجبالى بنى إسرائيل فعالجتها ، فلما وقع موسى عليه السلام على الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها بحيث منعها من السعاية فقالت لأمه : احفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة وألقته فى تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يجدوا شيئا فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاما فأخذته ، فلما ألح فرعون فى طلب الولدان واجتهد العيون فى تفحصها أوحى الله تعالى اليها ما أوحى ، وأرضعته ثلاثة أشهر ، أوأربعة ، أوثمانية على اختلاف الروايات ، فلما خافت عليه عمدت إلى بردى فصنعت منه تابوتا أى صندوقا فطلته بالقار من داخله . وعن السدى أنها دعت نجارا ، فصنع لها تابوتاً ، وجعلت مفتاحه من داخل ، ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته فى النيل بين أحجارعند بيت فرعون ، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فأدخلنه اليها وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه رأته آسية ووقعت عليه رحمتها فأحبته ، وأراد فرعون قتله فلم تزل تكلمه حتى تركه لها . وروى عن ابن عباس وغيره أنه كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس اليه ، وكان بها برص شديد أعيا الأطباء ، وكان قد ذكر له أنها لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية وأقبلت بنته فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فكشف لها عن نور فى جوفه لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا صبى صغير فيه وله نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته عليه السلام فى قلبها وقلوب القوم وعمدت بنت فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعتها *

وقيل : لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون أنا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر خوفا منك فاقتله فهم أن يقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى إن شاء الله تعالى والأخبار فى هذه القصة كثيرة ، وقد قدمنا منها ماقدمنا ، وآل فرعون أتباعه وقولهم : إن الآل لا يستعمل إلا فيما فيه شرف مبنى على الغالب أو الشرف فيه أعم من الشرف الحقيقى والصورى ومعنى التقاطهم إياه عليه السلام أخذهم اياه عليه السلام أخذ اللقطة أى أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فيه استعارة تهكمية ضرورة أنه لم يدعهم للالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً وإنما دعاهم شىء آخر كالتبنى ونفعه إياهم إذا كبر .

وفى تحقيق ذلك أقوال الأول أن يشبه كونه عدوّاً وحزنا بالعلة الغائية كالتبنى والنفع تشبيها مضمراً فى النفس ولم يصرح بغير المشبه ويدل على ذلك بذكر مايخص المشبه به وهو لام التعليل فيكون هناك استعارة مكنية أصلية فى المجرور واللام على حقيقتها ، الثانى أن يشبه أولا ترتب غير العلة الغائية بترتب العلة الغائية أى يعتبر التشبيه بين الترتبين الكليين ليسرى فى جزئياتهما فيتحقق تبعاً تشبيه ترتب كونه عدواً وحزنا أعنى الترتب المخصوص على الالتقاط بترتب التبنى ونحوه مما هو علة غائية - أعنى الترتب المخصوص أيضاً عليه - ثم

Marfat.com

يستعمل فى المشبه اللام الموضوعة للدلالة على ترتب العلة الغائية الذى هو المشبه به فتكون الاستعارة أولا فى العلية والغرضية وتبعاً فى اللام فصار حكم اللام حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه العلة كما استعير الاسد لما يشبه الأسد بيد أن الاستعارة ههنا مكنية تبعية ، الثالث ما أفاده كلام الخطيب الدمشقى فى التلخيص والايضاح وهو أن يقدر التشبيه أولا لكونه عدواً وحزنا بالعلة الغائية ثم يسرى ذلك التشبيه إلى تشبيه ترتبه بترتب العلة الغائية فتستعار اللام الموضوعة لترتب العلة الغائية لترتب كونه عدواً وحزنا من غير استعارة فى المجرور وهذا التشبيه كتشبيه الربيع بالقادر المختار ثم إسناد الانبات إليه وهو مفاد كلام الكشاف ، واختار ذلك العلامة عبد الحكيم ، فقال : وهو الحق عندى لأن اللام لما كان معناها محتاجا إلى ذكر المجرور كان اللائق أن تكون الاستعارة والتشبيه فيها تابعا لتشبيه المجرور لا تابعا لتشبيه معنى كلى بمعنى كلى معنى الحرف من جزئياته كما ذهب اليه السكاكى وتبعه العلامة التفتازانى انتهى فتأمل ٥

واستشكل أصل تعليل الالتقاط بأن الالتقاط الوجدان من غير قصد والتعليل يقتضى حقيقة القصد وهو توهم لأن الوجدان من غير قصد لاينافى قصد أخذ ماوجد لغرض وقد علمت أن المعنى هنا فأخذه أخذ اللقطة أى أخذ اعتناء به آل فرعون ليكون الخ ؛ والتعليل فيه إنما هو للاخذ ولااشكال فيه ٥

وقال بعضهم : يحتمل تعلق اللام بمقدار أى قدرنا الالتقاط ليكون الخ ، وعليه لاتجوز فى الكلام إلا عند من يقول : إن افعال الله تعالى لاتعلل وهو أمر غير مانحن فيه ، ولا يخفى أن كلام الله سبحانه أجل وأعلى من أن يعتبر فيه مثل هذا الاحتمال ، وفى جعله عليه السلام نفس الحزن مالا يخفى من المبالغة ٥ وقرأ ابن وثاب . والاعمش . وحمزة . والكسائى . وابن سعدان . - حزنا - بضم الحاء وسكون الزاى ، وقراءة الجمهور بفتحتين لغة قريش ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ٨ ﴾ فى كل ما يأتون وما يذرون أو من شأنهم الخطأ فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفا لاجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون ، روى أنه ذبح فى طلبه عليه السلام تسعون ألف وليد . و(خاطئين) على هذا من الخطأ فى الرأى ، ويجوز أن يكون من خطئ بمعنى أذنب ، وفى الاساس يقال : خطئ خطأ إذا تعمد الذنب ، والمعنى وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم ، والجملة على الأول اعتراض بين المتعاطفين لتأكيد خطئهم المفهوم من قوله تعالى : (ليكون لهم عدوا وحزنا) فانه كما سمعت استعارة تهكمية وعلى الثانى ، اعتراض لتأكيد ذنبهم المفهوم من حاصل الكلام ، وقيل : يتعين عليه أن تكون اعتراضا لبيان الموجب لما ابتلوا به ويحتمل على هذا أن تكون استئنافا بيانيا إن أريد بما ابتلوا به كونه عدوا وحزنا وهو لاينافى الاعتراض عندهم ، وقرئ خاطين بغير همز فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحذفت وهو الظاهر ، وقيل : هو من خطا يخطو أى خاطين الصواب إلى ضده فهو مجاز ٥

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وعلى هذا لم تكن من بنى اسرائيل ، وقيل : كانت منهم من سبط موسى عليه السلام ، وحكى السهيلى أنها كانت عمته عليه السلام وهو قول غريب ، والمشهور القول الأول ٥ والجملة عطف على جملة فالتقطه آل فرعون أى وقالت امرأة فرعون له حين أخرجته من التابوت ٥

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ ﴾ أى هو قرة عين كائنة لى ولك على أن قرة خبر مبتدأ محذوف ، والظرف فى موضع

Marfat.com

الصفة له ويبعد كما فى البحر أن يكون مبتدأ خبره جملة قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ وقالت ذلك لما ألقى الله تعالى من محبته فى قلبها أو لما كشف لها فرأته من النور بين عينيه أو لما شاهدته من برء بنت فرعون من البرص بريقه أو بمجرد النظر إلى وجهه ، ولتفخيم شأن القرة عدلت عن لنا إلى لى ولك وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ فى ترغيبه بترك قتله ، فلا يقال ان الاظهر فى الترغيب بذلك العكس وقد يستأنس لكون مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه ما أخرجه النسائى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها حين قالت له ذلك قال لك لا لى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها ، وهذا أمر فرضى فلا ينافى ما ورد من أنه عليه اللعنة طبع كافرا ، والخطاب فى لا تقتلوه قيل : لفرعون واسناد الفعل اليه مجازى لأنه الآمر والجمع للتعظيم ، وكونه لا يوجد فى كلام العرب الموثوق بهم الا فى ضمير المتكلم كفعلنا مما تفرد به الرضى وقلده فيه من قلده وهو لا أصل له رواية ودراية قال أبو على الفارسى فى فقه اللغة من سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم انظروا فى امرى ، وهكذا فى سر الادب وخصائص ابن جنى وهو مجاز بليغ وفى القرآن الكريم منه ما التزام تأويله سفه ، وقيل : هو لفرعون وأعوانه الحاضرين ورجح بما روى ان غواة قومه قالوا وقت اخراجه هذا هو الصبى الذى كنا نحذر منه فاذن لنا فى قتله .

وقيل : هو له ولمن يخشى منه القتل وإن لم يحضر على التغليب ، واختار بعضهم كونه للمأمورين بقتل الصبيان كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى عليه السلام أمنت منه بادرة أمن جديد بقتله فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبل فنهتهم عن قتله معللة ذلك بقوله تعالى المحكى عنها :

﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وهو أوفق باختلاف الأسلوب حيث فصلت أولا فى قولها : لى ولك وأفردت ضمير خطاب فرعون ثم خاطبت وجمعت الضمير فى لا تقتلوه ثم تركت التفصيل فى (عسى أن ينفعنا) الخ ولم تأت به على طرز قرة عين لى ولك بأن تقول: عسى أن ينفعنى وينفعك مثلا فتأمل . ورجاء نفعه لما رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجابة :

فى المهد ينطق عن سعادة جده أثر النجابة ساطع البرهان

واتخاذه ولدا لأنه لائق لتبنى الملوك لما فيه من الأبهة وعطف هذا على ما قبله من عطف الخاص على العام أو تعتبر بينهما المغايرة وهو الأنسب بأو ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته له كيت وكيت ، وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا . وقال: قتادة لا يشعرون أنه الذى يفسد ملكهم على يده . وقال مجاهد انه عدو لهم . وقال محمد بن إسحق : أنى أفعل ما أريد لا ما يريدون والتقدير الأول أجمع ، وجوز كونه حالا من القائلة والمقول له معا . والمراد بالجمع اثنان على احتمال كون الخطاب فى لا تقتلوه لفرعون فقط وكونه حالا من القائلة فقط أى قالت امرأة فرعون له ذلك والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطاف قلبها عليه لئلا يغروه بقتله وعلى الاحتمالات الثلاثة هو من كلام الله تعالى، وجوز كونه حالا من أحد ضميرى نتخذه على أن الضمير للناس لا الذى الحال إذ يكفى الواو للربط أى نتخذه ولدا والناس لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنيناه فيكون من كلام آسية رضى الله تعالى عنها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أى صار خاليا من كل شىء غير ذكر موسى عليه السلام أخرجه

Marfat.com

الفريابى . وابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والحاكم . وصححه من طرق عن ابن عباس وروى ذلك أيضا عن ابن مسعود . والحسن . ومجاهد ، ونحوه عن عكرمة . وقالت : فرقة فارغا من الصبر وقال ابن زيد : فارغا من وعد الله تعالى ووحيه سبحانه اليها تناست ذلك من الهم وقال أبو عبيدة : فارغا من الهم إذ لم يغرق وسمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كما يقال فلان فارغ البال وقال بعضهم : فارغا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه فرعون كقوله تعالى (وأفئدتهم هواء) أى خلاء لاعقول فيها واعترض على القولين بأن الكلام عليهما لا يلائم مابعده وفيه نظر ، وقرأ أحمد بن موسى عن أبى عمرو - فواد - بالواو وقرأ - مؤسى - بهمزة بدل الواو ، وقرأ فضالة بن عبيد . والحسن . ويزيد ابن قطيب . وأبو زرعة بن عمرو بن جرير - فزعا - بالزاى والعين المهملة من الفزع وهو الخوف والقلق ، وابن عباس قرعا بالقاف وكسر الراء وإسكانها من قرع رأسه إذا انحسر شعره كأنه خلا من كل شىء إلا من ذكر موسى عليه السلام ، وقيل : قرعا بالسكون مصدر أى يقرع قرعا من القارعة وهو الهم العظيم . وقرأ بعض الصحابة فزغا (١) بفاء مكسورة وزاى ساكنة وغين معجمة ومعناه ذاهبا هدرا . والمراد هالكا من شدة الهم كأنه قتيل لاقود ولا دية فيه ، ومنه قول طليحة الأسدى فى أخيه حبال :

فان يك قبلى قد أصيبت نفوسهم * فلن يذهبوا فزغا بقتل حبال

وقرأ الخليل بن أحمد - فرغا - بضم الفاء والراء ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ﴾ أى أنها كادت الخ على أن إن هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة أو ما كادت إلا تبدى به على أن إن نافية واللام بمعنى إلا وهو قول كوفى والإبداء إظهار الشىء وتعديته بالباء لتضمينه معنى التصريح ، وقيل : المفعول محذوف والباء سببية أى تبدى حقيقة الحال بسببه أى بسبب ماعراها من فراقه ، وقيل : هى صلة أى تبديه وكلا القولين كما ترى ، والظاهر أن الضمير المجرور لموسى عليه السلام ، والمعنى أنها كادت تصرح به عليه السلام وتقول واابناه من شدة الغم والوجد رواه الجماعة عن ابن عباس ، وروى ذلك أيضا عن قتادة . والسدى . وعن مقاتل أنها كادت تصيح واابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج به شفقة عليه من الغرق ، وقيل : المعنى أنها كادت تظهر أمره من شدة الفرح بنجاته وتبنى فرعون إياه ، وقيل : الضمير للوحى إنها كادت تظهر الوحى وهو الوحى الذى كان فى شأنه عليه السلام المذكور فى قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وهو خلاف الظاهر ولا تساعد عليه الروايات ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أى بما أنزلنا عليه من السكينة والمراد لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها ، فالربط على القلب مجاز عن ذلك ، وجواب لولا محذوف دل عليه (إن كادت لتبدى به) أى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته ، وقيل : لكادت تبدى به ، وقوله تعالى : ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾ علة للربط على القلب ، والايمان بمعنى التصديق أى صبرناها وثبتنا قلبها لتكون راسخة فى التصديق بوعدنا بأنا رادوه اليها

(١) قوله فزغا هنا وفى البيت وقوله وزاى ساكنة الخ هكذا بخطه رحمه الله وفى الكشاف والشهاب فرغا بالراء المهملة والغين المعجمة والبيت أورده فى اللسان بالراء المهملة والغين أيضا ومع هذا فمادة فزغ بالزاى والغين المعجمة ليست موجودة فى كلامهم اه

Marfat.com

وجاعلوه من المرسلين ، ومن جعل الفراغ من الهم والحزن و كيدودة الابداء من الفرح بتبنيه عليه السلام الذى هو فرح مذموم جعل الإيمان بمعنى الوثوق كما فى قولهم على ماحكى أبو زيد ما آمنت أن أجد صحابة أى ماوثقت وحقيقته صرت ذا أمن أى ذا سكون وطمأنينة ، وقال المعنى لولا أن ربطنا على قلبها وسكنا قلقه الكائن من الابتهاج الفاسد لتكون من الواثقين بوعد الله تعالى المبتهجين بما يحق الابتهاج به ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ مريم وقيل: كلثمة وقيل: كلثوم . والتعبير عنها بأخوته دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر ﴿قُصِّيهِ﴾ أى اتبعى أثره وتتبعى خبره ، والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغا فان كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهر وإن كانت قد عرفته فتتبع الخبر ليعرف هل قتلوه أم لا ولينكشف ماهو عليه من الحال ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أى أبصرته والفاء فصيحة أى فقصت أثره فبصرت، وقرأ قتادة - فبصرت - بفتح الصاد وعيسى بكسرها ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أى عن بعد ، وقيل : أى عن شوق اليه حكاه أبو عمرو بن العلاء وقال هى لغة جذام يقولون جنبت اليك أى اشتقت ، وقال الكرمانى جنب صفة لموصوف محذوف أى عن مكان جنب أى بعيد وكأنه من الاضداد فانه يكون بمعنى القريب أيضا كالجار الجنب ، وقيل : أى عن جانب لأنها كانت تمشى على الشط ، وقيل : النظر عن جنب أن تنظر إلى الشئ كأنك لاتريده *

وقرأ قتادة . والحسن . وزيد بن على رضى الله تعالى عنه ، والاعرج عن جنب بفتح الجيم وسكون النون وعن قتادة أنه قرأ بفتحهما أيضا ، وعن الحسن أنه قرئ بضم الجيم واسكان النون ، وقرأ النعمان بن سالم - عن جانب - والكل على ماقيل : بمعنى واحد، وفى البحر الجنب والجانب والجنابة والجناب بمعنى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١١﴾ أنها تقصه وتتعرف حاله أو أنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ أى منعناه ذلك فالتحريم مجاز عن المنع فان من حرم عليه شىء فقد منعه ولا يصح ارادة التحريم الشرعى لأن الصبى ليس من أهل التكليف ولا دليل على الخصوصية ، والمراضع جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد وهى المرأة التى ترضع : وترك التاء إما لاختصاصه بالنساء أولانه بمعنى شخص مرضع ؛ أو جمع مرضع بفتح الميم على أنه مصدر ميمى بمعنى الرضاع وجمع لتعدد مراته أو اسم مكان أى موضع الرضاع وهو الثدى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبل قصها أو ابصارها أو وروده على من هو عنده، أو من قبل ذلك أى من أول امره وظاهر صنيع أبى حيان اختياره ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أى هل تريدون أن أدلكم ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أى يضمنونه ويقومون بتربيته لأجلكم ، والفاء فصيحة أى فدخلت عليهم فقالت ، وقولها : على أهل بيت دون امرأة اشارة إلى أن المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ١٢﴾ لايقصرون فى خدمته وتربيته ، وروى أن هامان لما سمع هذا منها قال انها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فخلصت بذلك من الشر الذى يجوز لمثله الكذب وأحسنت وليس ببدع لأنها من بيت النبوة فحقيق بها ذلك . واحتمال الضمير لأمرين مما لاتختص به اللغة العربية بل يكون فى جميع اللغات على أن الفراعنة من بقايا العمالقة وكانوا يتكلمون بالعربية فلعلها كلمت بلسانهم ويسمى هذا الاسلوب من الكلام الموجه *

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ الفاء فصيحة أى فقبلوا ذلك منها ودلتهم على أمه وكلموها فى ارضاعه فقبلت فرددناه

Marfat.com

اليها أو يقدر نحو ذلك ، وروى أن أخته لما قالت ماقالت أمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمه وموسى عليه السلام على يد فرعون يبكى وهو يعلله فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال: من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدى الا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى الا قبلنى فقرره فى يدها فرجعت به إلى بيتها من يومها وأمر أن يجرى عليها النفقة وليس أخذها ذلك من أخذ الاجرة على ارضاعها إياه ولو سلم فلا نسلم أنه كان حراما فيما تدين وكانت النفقة على ما فى البحر دينارا فى كل يوم ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بوصول ولدها اليها ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ لفراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ أى جميع ماوعده سبحانه من رده وجعله من المرسلين ﴿ حَقٌّ ﴾ لاخلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه وإلا فعلمها بحقية ذلك بالوحى حاصل قبل *

واستدل أبو حيان بالآية على ضعف قول من ذهب إلى أن الايحاء كان الهاما أو مناما لأن ذلك يبعد أن يقال فيه وعد ، وفيه نظر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣ ﴾ أى لا يعرفون وعده تعالى ولا حقيته أو لا يجزمون بما وعدهم جل وعلا لتجويزهم تخلفه وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، وقيل : لا يعلمون أن الغرض الاصلى من الرد عليها علمها بذلك وماسواه من قرة عينها وذهاب حزنها تبع ، وفيه أن الذى يفيده الكلام إنما هو كون كل من قرة العين والعلم كالغرض أو غرضا مستقلا ، وأما تبعية غير العلم له لاسيما مع تقدم الغير فلا ، وكون المفيد لذلك حذف حرف العلة من الأول لا يخفى حاله ، وفى قوله تعالى : (ولكن أكثر الناس) الخ قيل : تعريض بما فرط من أمه حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون من الخوف والحيرة وأنت تعلم ان ماعراها كان من مقتضيات الجبلة البشرية وهو يجامع العلم بعدم وقوع مايخاف منه ، ونفى العلم فى مثل ذلك إنما يكون بضرب من التأويل كما لا يخفى . ثم ان الاستدراك على ماإختاره مما وقع بعد العلم ، وجوز أن يكون من نفس العلم وذلك إذا كان المعنى لا يعلمون أن الغرض الأصلى من الرد عليها علمها بحقية وعد الله تعالى فتأمل *

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشؤه ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ أى كمل وتم تأكيد وتفسير لما قبله كذا قيل : وأختلف فى زمان بلوغ الاشد والاستواء فاخرج ابن أبى الدنيا من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال الاشد مابين الثمانى عشرة إلى الثلاثين والاستواء مابين الثلاثين إلى الاربعين فاذا زاد على الاربعين أخذ فى النقصان ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن ابى حاتم عن مجاهد أنه قال الاشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة وهى رواية عن ابن عباس ايضا وروى نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الاشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الاربعين واخرى هو مابين الثلاثين إلى الاربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأن ذلك لموافقته لقوله تعالى : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) لأنه يشعر بأنه منته إلى الاربعين وهى سن الوقوف فينبغى أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شىء والحق أن بلوغ الاشد فى الاصل هو الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت انتهاء النمو وغايته وهذا مما يختلف باختلاف الاقاليم والاعصار والاحوال ولذا وقع له تفاسير فى كتب اللغة والتفسير ، ولعل الأولى على ماقيل : أن يقال إن بلوغ الاشد عبارة عن بلوغ القدر الذى يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهى فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغى تعيين وقت لذلك فى حق موسى عليه السلام الا بخبر يعول عليه لما سمعت من أن ذاك مما يختلف باختلاف الاقاليم والاعصار والاحوال نعم اشتهر أن ذلك فى الاغلب يكون فى سن اربعين وعليه قول الشاعر :

Marfat.com

إذا المرء وافى الاربعين ولم يكن له دون مايهوى حياء ولاستر
فدعه ولاتنفس عليه الذى مضى وان جر أسباب الحياة له العمر

وفى قوله تعالى : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) ما يستأنس به لذلك . وقد مر طرف من الكلام فى الأشد فى سورة يوسف فتذكر ولاتغفل . ثم إن حاصل المعنى على ما قيل أخيرا : ولما قوى جسمه ، واعتدل عقله ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أى نبوة على ما روى عن السدى أو علما هو من خواص النبوة على ماتأول به بعضهم كلامه ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين والشريعة . وفى الكشاف العلم التوراة والحكم السنة وحكمة الأنبياء عليهم السلام سنتهم . قال الله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) وقيل آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث ، فكان عليه السلام لايفعل فعلا يستجهل فيه اه ، ورجح ما قيل بأنه أوفق لنظم القصة مما تقدم ، لأن استنباءه عليه السلام بعد وكز القبطى ، والهجرة إلى مدين ، ورجوعه منها ، وإيتاؤه التوراة كان بعد إغراق فرعون ، فهو بعد الوكز بكثير وبأن قوله تعالى : ﴿وَكَذٰلِكَ﴾ أى مثل ذلك الذى فعلناه بموسى وأمه عليهما السلام ﴿نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ١٤﴾ على إحسانهم يأبى حمل ماتقدم على النبوة لأنها لاتكون جزاء على العمل ، ومن ذهب إلى الأول جعل هذا بيانا إجماليا لانجاز الوعد بجعله من المرسلين بعد رده لأمه ، وما بعد تفصيل له ، والعطف بالواو لايقتضى الترتيب ، وكون ما فعل بموسى وأمه عليهما السلام جزاء على العمل باعتبار التغليب . وقد يقال : إن أصل النبوة وإن لم تكن جزاء على العمل إلا أن بعض مراتبها ، وهو ما فيه مزيد قرب من الله تعالى يكون باعتبار مزيد القرب جزاء عليه ويرجع ذلك إلى أن مزيد القرب هو الجزاء وتفاوت الأنبياء عليهم السلام فى القرب منه تعالى مما لا ينبغى أن يشك فيه ، ورجح ماتقدم بكونه أوفق بقوله تعالى : (ولتعلم أن وعد الله حق) واستلزامه حصول النبوة لكل محسن ليس بشىء أصلا ، ومن ذهب إلى أن هذا الإيتاء كان قبل الهجرة قال : يجوز أن يكون المعنى آتيناه رياسة بين قومه بنى إسرائيل بأن جعلناه ممتازا فيما بينهم ، يرجعون إليه فى مهامهم ، ويمتثلونه إذا أمرهم بشىء أو نهاهم عنه ، وعلما ينتفع به وينفع به غيره ، وذلك إما بمحض الإلهام ، أو بتوفيقه لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل اليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام من بنى إسرائيل ولا بدع فى أن يكون عليه السلام عالما بما كان عليه آباؤه الأنبياء منهم وبما كانوا يتدينون به من الشرائع بواسطة الإلهام أو بسماع ما يفيده العلم من الأخبار ، ولعل هذا أولى مما نقله فى الكشاف . وفى الكلام على أواخر سورة البقرة ماتنفعك مراجعته فليراجع .

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ قال ابن عباس على ما فى البحر : هى منف ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أى فى وقت لايعتاد دخولها ، أو لايتوقعونه فيه ، وكان على ما روى عن الحبر وقت القائلة . وفى رواية أخرى عنه بين العشاء والعتمة . وذلك أن فرعون ركب يوما وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى عليه السلام بركوبه فلحق بدخل المدينة فى ذلك الوقت . وقال ابن إسحق : هى مصر ، كان موسى عليه السلام قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وغاب ، فدخلها متنكرا . وقال ابن زيد : كان فرعون قد أخرجه منها فغاب سنين فنسى فجاء ودخلها وأهلها فى غفلة بنسيانهم له ، وبعد عهدهم به . وقيل : دخل فى يوم عيد

Marfat.com

وهم مشغولون بلهوهم . وقيل : خرج من قصر فرعون ودخل مصر وقت القيلولة أو بين العشاءين . وقيل : المدينة عين شمس . وقيل : قرية على فرسخين من مصر يقال لها : حابين . وقيل : هى الإسكندرية ، والأشهر أنها مصر ، ولعله هو الأظهر والمتبادر أن ـ على حين ـ متعلق بدخل ، وعليه فالظاهر أن على بمعنى فى مثلها فى قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان) على قول ٭

وقال أبو البقاء : هو فى موضع الحال من المدينة ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال من الفاعل أى مختلساً اه ولعل الذى دعاه إلى العدول عن المتبادر احتياجه إلى جعل على بمعنى فى وخفاء نكتة التعبير بها دونها أو الاكتفاء بالظرف وحده عليه والأمر ظاهر لمن له أدنى تأمل ، وقيل : إن الداعى إلى ذلك أن دخول المدينة فى حين غفلة من أهلها ليس نصا فى دخولها غافلا أهلها كما فى وجه الحالية من المدينة ولا فى دخولها مختلساً كما فى وجه الحالية من الضمير فان وقت الغفلة كوقت القائلة وما بين العشاءين قد لا يغفل فيه وفيه بحث ٭

و(من أهلها) فى موضع الصفة لغفلة وما فى النظم الكريم أبلغ من غفلة أهلها بالاضافة لما فى التنوين من إفادة التفخيم ، ولعله عدل عن ذلك إلى ماذكر لهذا فتدبر ، وقرأ أبو طالب القارئ ـ على حين ـ بفتح النون ووجه بأنه فتح لمجاورة الغين كما كسر فى بعض القرا آت الدال فى الحمد لله لمجاورة اللام أو بأنه أجرى المصدر مجرى الفعل كأنه قيل : على حين غفل أهلها فبنى حين كما يبنى إذا أضيف إلى الجملة المصدرة بفعل ماض نحو قوله :

٭ على حين عاتبت المشيب على الصبا ٭ وهو كما ترى ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى يتحاربان والجملة صفة لرجلين . وقال ابن عطية : فى موضع الحال وهو مبنى على مذهب سيبويه من جواز مجىء الحال من النكرة من غير شرط ، وقرأ نعيم بن ميسرة يقتلان بادغام التاء فى التاء ونقل فتحتها إلى القاف ، وقوله تعالى : ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى ممن شايعه وتابعه فى أمره ونهيه أو فى الدين على ماقاله جماعة وهم بنو إسرائيل قال فى الاتقان : هو السامرى ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ من مخالفيه فيما يريد أو فى الدين على ماقاله الجماعة وهم القبط واسمه كما فى الاتقان أيضاً قانون صفة بعد صفة لرجلين والاشارة بهذا واقعة على طريق الحكاية لما وقع وقت الوجدان كأن الرائى لهما يقوله لا فى المحكى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٭

وقال المبرد : العرب تشير بهذا إلى الغائب قال جرير :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ٭ لو شئت ساقكم إلىّ قطينا

وهذه الاشارة قائمة مقام الضمير فى الربط والعطف سابق على الوصفية ، واختلف فى سبب تقاتل هذين الرجلين ، فقيل : كان أمراً دينيا ، وقيل : كان أمراً دنيوياً ، روى أن القبطى كلف الاسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا لذلك ، وكان القبطى على ماأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير خبازاً لفرعون ٭ ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى فطلب غوثه ونصره إياه ﴿ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ولتضمين الفعل معنى النصر عدى بعلى ويؤيده قوله تعالى بعد : (استنصره بالأمس) ، ويجوز أن يكون تعديته بعلى لتضمينه معنى الاعانة ويؤيده أنه قرىء فاستعانه بالعين المهملة والنون بدل الثاء ، وقد نقل هذه القراءة ابن خالويه ، عن

Marfat.com

سيبويه . وأبو القاسم يوسف بن على بن جبارة عن ابن مقسم . والزعفرانى ، وقول ابن عطية أنه ذكرها الأخفش وهو تصحيف لاقراءة مما لاثبت له فيه ، وقد حذف من جملة الصلة صدرها أى الذى هومن شيعته والذى هو من عدوه ولولم يعتبر حذف ذلك صح ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ أى ضرب القبطى بجمع كفه أى بكفه المضمومة أصابعها على ما أخرجه غير واحد عن مجاهد ٠

وقال أبو حيان : الوكز الضرب باليد مجموعة أصابعها كعقد ثلاثة وسبعين وعلى القولين يكون عليه السلام قد ضربه باليد ؛ وأخرج ابن المنذر . وجماعة عن قتادة أنه عليه السلام ضربه بعصاه فكأنه يفسر الوكز بالدفع أو الطعن وذلك من جملة معانيه كما فى القاموس ولعله أراد بعصاه عصا كانت له فان عصاه المشهورة أعطاه إياها شعيب عليه السلام بعد هذه الحادثة كما هو مشهور ، وفى كتب التفاسير مسطور ٠

وقرأ عبد الله فلكزه باللام وعنه فنكزه بالنون واللكز على مافى القاموس الوكز والوجء فى الصدر والحنك والنكز على مافيه أيضاً الضرب والدفع ، وقيل : الوكز والنكز واللكز الدفع بأطراف الأصابع ، وقيل : الوكز على القلب واللكز على اللحى . روى أنه لما اشتد التناكر قال القبطى لموسى عليه السلام : لقد هممت أن أحمله يعنى الحطب عليك فاشتد غضب موسى عليه السلام ، وكان قد أوتى قوة فوكزه ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أى فقتله موسى وأصله أنهى حياته أى جعلها منتهية متقضية وهو بهذا المعنى يتعدى بعلى كما فى الأساس فلا حاجة إلى تأويله باوتم القضاء عليه ، وقد يتعدى الفعل بالى لتضمينه معنى الايحاء كما فى قوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر) وعود ضمير الفاعل فى قضى على موسى هو الظاهر ، وقيل : هو عائد على الله تعالى أى فقضى الله سبحانه عليه بالموت فقضى بمعنى حكم ، وقيل : يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكزه أى فقضى الوكز عليه أى أنهى حياته ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أى من تزيينه ٠

وقيل : من جنس عمله والأول أوفق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥ ﴾ أى ظاهر العداوة على أن مبين صفة ثانية لعدو ، وقيل : ظاهر العداوة والاضلال ، ووجه بأنه صفة لعدو الملاحظ معه وصف الاضلال أو بأنه متنازع فيه لعدو ومضل كل يطلبه صفة له وإياما كان فمبين من أبان اللازم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بوكز ترتب عليه القتل ﴿ فَاغْفِرْ لِي ﴾ ذنبى وإنما قال عليه السلام ماقال لأنه فعل مالم يؤذن له به وليس من سنن آبائه الانبياء عليهم السلام فى مثل هذه الحادثة التى شاهدها وقد أفضى إلى قتل نفس لم يشرع فى شريعة من الشرائع قتلها ، ولا يشكل ذلك على القول بأن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكبائر بعد النبوة وقبلها لأن أصل الوكز من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأ كما قاله كعب وغيره ، والخطأ وإن كان لا يخلو عن الاثم ، ولذا شرعت فيه الكفارة إلا أنه صغيرة أيضا بل قيل : لا يشكل أيضاً على القول بعصمتهم عن الكبائر والصغائر مطلقا لجواز أن يكون عليه السلام قد رأى أن فى الوكز دفع ظالم عن مظلوم ففعله غير قاصد به القتل ، وإنما وقع مترتبا عليه لاعن قصد وكون الخطأ لايخلو عن إثم فى شرائع الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كما فى شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم غير معلوم وكذا مشروعية الكفارة فيه وكأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ماوقع تأمل فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز وأنه لم يتثبت فى رأيه لما

Marfat.com

اعتراه من الغضب فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله فقال ماقال على عادة المقربين فى استعظامهم خلاف الأولى ، ثم إن هذا الفعل وقع منه عليه السلام قبل النبوة كما هو ظاهر قوله تعالى حكاية عنه فى فى سورة الشعراء : (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) وبذلك قال النقاش وغيره وروى عن كعب أنه عليه السلام كان إذذاك ابن اثنتى عشرة سنة ومن فسر الاستواء ببلوغ أربعين سنة وجعل ماذكر بعد بلوغ الاشد والاستواء وإيتاء الحكم والعلم بالمعنى الذى لا يقتضى النبوة يلزمه أن يقول كان عليه السلام إذ ذاك ابن أربعين سنة أو مافوقها بقليل *

وزعم بعضهم أنه عليه السلام أراد بقوله : (ظلمت نفسى) انى عرضتها للتلف بقتل هذا الكافر إذ لو عرف فرعون ذلك لقتلنى به وأراد بقوله : (فاغفر لى) فاستر على ذلك ، وجعله من عمل الشيطان لما فيه من الوقوع فى الوسوسة وترقب المحذور ، ولا يخفى مافيه ، ويأبى عنه قوله تعالى :

﴿ فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ ﴾ وترتيب غفر على ماقبله بالفاء يشعر بأن المراد غفر له لاستغفاره وجملة (إنه) الخ كالتعليل للعلية أى إنه تعالى هو المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم ، ولذا كان استغفاره سببا للمغفرة له وتوسيط قال بين كلاميه عليه السلام لما بينهما من المخالفة من حيث إن الثانى مناجاة ودعاء بخلاف الأول ، وأما توسيط قال فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ فوجهه ظاهر ، والباء فى بما للقسم ، وما مصدرية وجواب القسم محذوف أى أقسم بانعامك على لأمتنعن عن مثل هذا الفعل *

وقيل: لأتوبن ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ١٧ ﴾ عطف على الجواب ، ولعل المراد بانعامه تعالى عليه حفظه اياه من شر فرعون ورده إلى أمه وتمييزه على سائر بنى إسرائيل ونحو ذلك *

وقيل المراد به مغفرته له وهو غير بعيد ، ومعرفته عليه السلام أنه سبحانه غفر له إذا كان هذا القول قبل النبوة بالهام أو رؤيا ، والظهير المعين ، والمجرمين جمع مجرم والمراد به من أوقع غيره فى الجرم أو من أدت معاونته إلى جرم كالاسرائيلى الذى خاصمه القبطى فأدت معاونته إلى جرم فى نظر موسى عليه السلام فيكون فى المجرمين مجاز فى النسبة للاسناد إلى السبب ، وجوز أن يراد بذلك الكفار وعنى بهم من استغاثه ونحوه بناء على أنه لم يكن أسلم ، وقيل : أراد بالمجرمين فرعون وقومه ، والمعنى أقسم بانعامك على لأتوبن فلن أكون معينا للكفار بأن أصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون ولا يخفى أن ماتقدم أنسب بالمقام ، وجوز أن تكون الباء للقسم الاستعطافى على أنها متعلقة بفعل دعاء محذوف ، وجملة فلن أكون الخ متفرعة عليه ، والفاء واقعة فى جواب الدعاء أو الشرط المقدر أى بحق انعامك على اعصمنى فلم أكون الخ أو إن عصمتنى فلن أكون الخ والقسم الاستعطافى ماأكد به جملة طلبية نحو قولك بالله تعالى زرنى وغير الاستعطافى ماأكد به جملة خبرية نحو والله تعالى لأقومن ، وإلى هذا ذهب ابن الحاجب ، وقيل : القسم الاستعطافى ماكان المقسم به مشعرا بعطف ونحو بكرمك الشامل أنعم على وهو صادق على ماهنا ، وغير الاستعطافى ماكان المقسم به أعم من ذلك ، وعلى القولين هما قسمان من مطلق القسم ، وظاهر كلام الزمخشرى أن المتبادر من القسم مايؤكد به الكلام الخبرى . وينعقد منه يمين فما يكون المراد به الاستعطاف

Marfat.com

قسيم له وجعل بعضهم إطلاق القسم على الاستعطاف تجوزا ، ويبعد ارادة الاستعطاف هنا ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن موسى عليه السلام لم يستثن أى لم يقل إن شاء الله تعالى فابتلى به أى بالكون ظهيرا للمجرمين مرة أخرى وهو مافى قوله تعالى : (فاذا الذى استنصره) الخ لأن الاستثناء لا يناسب الاستعطاف لكون النفى معلقا بعصمة الله عز وجل ، وجوز أن تكون الباء سببية متعلقة بفعل مقدر يعطف عليه لن أكون الخ وما موصولة ، والمعنى بسبب الذى أنعمته على من القوة أشكرك فلن أستعملها الا فى مظاهرة أوليائك ولا أدع قبطيا يغلب اسرائيليا وهو الزام لنفسه بنصرة أوليائه عز وجل كالنذر وليس هناك قسم بوجه خلافا لمن توهم ذلك ولا يخفى أن هذا وأن لم يبعده الاثر لا يخلو عن بعد نظرا إلى السباق ، و(لن) على جميع الاوجه المذكورة للنفى وفى البحر قيل : إنها للدعاء (١) وحكى ابن هشام رده بأن فعل الدعاء لا يسند إلى المتكلم بل إلى المخاطب أو الغائب نحو يارب لاعذبت فلانا ، ويجوز لاعذب الله تعالى عمرا ثم قال ويرده قوله :

ثم لا زلـــت لكم خالداً خلود الجبال ، ولا يخفى عليك أن كونها للدعاء على الوجه الأخير فى الآية غير ظاهر وعلى الوجه الأول لا يخلو عن خفاء فلعل من جعلها للدعاء حمل بما أنعمت علىّ على الاستعطاف وعلق الجار والمجرور بنحو اعصمنى وجعل الفاء تفسيرية ولن أكون الخ تفسيرا لذلك المحذوف كما قيل : فى قوله تعالى : (استجبنا له فكشفنا) فليتدبر ، واحتج أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم *

أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن عبيد الله بن الوليد الرصافى أنه سأل عطاء بن أبى رباح عن أخ له كاتب فقال له : إن أخى ليس له من أمور السلطان شئ إلا أنه يكتب له بقلم مايدخل ومايخرج فان ترك قلمه صار عليه دين واحتاج وإن أخذ به كان له فيه غنى قال: لمن يكتب؟ قال: لخالد بن عبدالله القسرى قال : ألم تسمع إلى ماقال العبد الصالح (رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فلا يهتم أخوك بشىء وليرم بقلمه فان الله تعالى سيأتيه برزق ، وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى حنظلة جابر بن حنظلة الضبى الكاتب قال: قال رجل لعامر ياأباعمرو إنى رجل كاتب أكتب مايدخل ومايخرج آخذ رزقا أستغنى به أنا وعيالى قال: فلعلك تكتب فى دم يسفك قال: لا. قال: فلعلك تكتب فى مال يؤخذ قال: لا. قال: فلعلك تكتب فى دار تهدم قال: لا. قال: أسمعت بما قال موسى عليه السلام (رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) قال: أبلغت إلى ياأباعمرو والله عز وجل لا أخط لهم بقلم أبدا قال والله تعالى لا يدعك الله سبحانه بغير رزق أبدا . وقد كان السلف يجتنبون كل الاجتناب عن خدمتهم . أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال : اذهب بعطاء أهل بخارى فأعطهم فقال أعفنى فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه فقال له بعض أصحابه: ماعليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئا فقال لا أحب أن أعين الظلمة فى شىء من أمرهم وإذا صح حديث ينادى مناديوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة واعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى بهم فى جهنم فليبك من علم أنه من أعوانهم على نفسه وليقلع عما هو عليه قبل حلول رمسه ، ومما يقصم الظهر ماروى عن بعض الاكابر أن خياطا سأله فقال : أنا ممن يخيط للظلمة فهل أعد من أعوانهم؟ فقال : لا. أنت منهم والذى يبيعك الابرة من أعوانهم فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلى العظيم ، وياحسرتا على من باع

(١) قوله إنها للدعاء مجيئها للدعاء مذهب جماعة منهم ابن عصفور اه منه

Marfat.com

دينه بدنياه واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه . هذا وقد بلغ السيل الزبى وجرى الوادى فطم على القرى ٥

﴿ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ وقوع المكروه به ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يترصد ذلك أو الاخبار هل وقفوا على ماكان منه وكان عليه السلام فيما يروى قد دفن القبطى بعد أن مات فى الرمل ، وقيل : خائفا وقوع المكروه من فرعون يترقب نصرة ربه عزوجل ، وقيل : يترقب أن يسلمه قومه ، وقيل : يترقب هداية قومه ، وقيل: خائفا من ربه عز وجل يترقب المغفرة ، والكل كما ترى ، والمتبادر على ماقيل: أن فى المدينة متعلق بأصبح واسم أصبح ضمير موسى عليه السلام وخائفا خبرها وجملة يترقب خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى خائفا . وقال أبو البقاء : يترقب حال مبدلة من الحال الأولى أو تأكيد لها أو حال من الضمير فى خائفا اه . وفيه احتمال كون أصبح تامة واحتمال كونها ناقصة ، والخبر فى المدينة ولا يخفى عليك ماهو الأولى من ذلك ﴿ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ وهو الاسرائيلى الذى قتل عليه السلام القبطى بسببه ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أى يستغيثه من قبطى آخر برفع الصوت من الصراخ وهو فى الاصل الصياح ثم تجوز به عن الاستغاثة لعدم خلوها منه غالبا وشاع حتى صار حقيقة عرفية ، وقيل : معنى يستصرخه يطلب ازالة صراخه ، وإذا للمفاجأة ومابعدها مبتدأ وجملة يستصرخه الخبر ٥

وجوز أبو البقاء كون الجملة حالا والخبر إذا ، والمراد بالامس اليوم الذى قبل يوم الاستصراخ ، وفى الحواشى الشهابية إن كان دخوله عليه السلام المدينة بين العشاءين فالامس مجاز عن قرب الزمان وهو معرب لدخول أل عليه وذلك الشائع فيه عند دخولها ، وقد بنى معها على سبيل الندرة كما فى قوله :

وإنى حبست اليوم والامس قبله إلى الشمس حتى كادت الشمس تغرب

﴿ قَالَ ﴾ أى موسى عليه السلام ﴿ لَهُ مُوسَىٰٓ ﴾ أى للاسرائيلى الذى يستصرخه ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ ﴾ ضال ﴿ مُّبِينٌ ١٨ ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر أولان عادتك الجدال ، وأختار هذا بعض الأجلة وقال : إن الأول لا يناسب قوله تعالى : (فلما أن أراد) الخ لأن تذكر تسببه لما ذكر باعث الاحجام لا الاقدام . ورد بأن التذكر أمر محقق لقوله تعالى : (خائفا يترقب) والباعث له على ماذكر شفقته على من ظلم من قومه وغيرته لنصرة الحق ، وقيل: إن الضمير فى له والخطاب فى إنك للقبطى ، ودل عليه قوله (يستصرخه) وهو خلاف الظاهر ، ويبعده الاظهار فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ فان الظاهر على ذاك به بدل الذى ، والبطش الاخذ بصولة وسطوة ، والتنوين فى عدو للتفخيم أى عدو عظيم العداوة ولإرادة ذلك لم يضفه ، والمراد بالذى هو عدو لهما القبطى ، وقد كان القبط أعظم الناس عداوة لبنى اسرائيل وقيل : عداوته لهما لأنه لم يكن على دينهما ، وقرأ الحسن . وأبو جعفر (يبطش) بضم الطاء ٥

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ ﴾ قاله الاسرائيلى الذى يستصرخه على ما روى عن ابن عباس وأكثر المفسرين وكأنه توهم ارادة البطش به دون القبطى من تسمية موسى عليه السلام إياه غويا ، وقال الحسن : قاله القبطى الذى هو عدو لهما كأنه توهم من قوله للاسرائيلى إنك لغوى أنه الذى قتل القبطى بالامس له ولا بعد فيه لأن ماذكر إما اجمال للكلام يفهم منه ذلك أولان قوله ذلك لمظلوم انتصر به خلاف الظاهر فلا بعد للانتقال منه لذلك ، والذى فى التوراة التى بأيدى اليهود اليوم ماهو صريح فى أن هذين

Marfat.com

الرجلين كانا من بنى إسرائيل ، وأما الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيلى والآخر مصرى ، ووجه أمر العداوة على ذلك بأن هذا الذى أراد عليه السلام أن يبطش به كان ظالما لمن استصرخه فيكون عدواً له وعاصيا لله تعالى فيكون عدوا لموسى عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عداوته لهما لكونه مخالفا لما هما عليه من الدين وإن كان إسرائيليا وفيها أيضا ماهو صريح فى أن الظالم هو قائل ذلك ٠

وأنت تعلم أن هذه التوراة لا يلتفت اليها فيما يكذب القرآن أو السنة الصحيحة وهى فيما عدا ذلك كسائر أخبار بنى إسرائيل لا تصدق ولا تكذب . نعم قد يستأنس بها لبعض الأمور ثم إن مافيها من قصة موسى عليه السلام مخالف لما قصه الله تعالى منها هنا ، وفى سائر المواضع زيادة ونقصاً وهو ظاهر لمن وقف عليها ، ولا يخفى الحكم فى ذلك ، وقد خلت هنا عن ذكر مجىء مؤمن آل فرعون ونصحه لموسى عليه السلام وكذا عن ذكر مايدل على قوله : ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أى ماتريد ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِى الْأَرْضِ ﴾ وهو الذى يفعل كل مايريد من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب ، وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله تعالى وأصله على ماقيل : النخلة الطويلة فاستعير لما ذكر إما باعتبار تعاليه المعنوى أو تعظمه ٠

وأخرج ابن المنذر عن الشعبى أنه قال : من قتل رجلين أى بغير حق فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية ، وأخرج ابن أبى حاتم نحوه عن عكرمة ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٩ ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتى هى أحسن ، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملائه فهموا بقتل موسى عليه السلام فخرج مؤمن من آل فرعون هو ابن عم فرعون ليخبره بذلك وينصحه كما قال عز وجل :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ الآية ، واسمه قيل : شمعان ، وقيل : شمعون بن إسحق ، وقيل : حزقيل ، وقيل : غير ذلك وكون هذا الرجل الجائى مؤمن آل فرعون هو المشهور ، وقيل : هو غيره ، ويسعى بمعنى يسرع فى المشى وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه باخبار موسى عليه السلام ونصحه ، وقيل : يسعى بمعنى يقصد وجه الله تعالى كما فى قوله سبحانه : (وسعى لها سعيها) وهو وإن كان مجازاً يجوز الحمل عليه لشهرته والظاهر أن (من أقصى) صلة (جاء) وجملة (يسعى) صفة (رجل) ، وجوز أن يكون (من أقصى) فى موضع الصفة لرجل ، وجملة يسعى صفة بعد صفة ٠

وجوز أن تكون الجملة فى موضع الحال من رجل ، أما إذا جعل الجار والمجرور فى موضع الصفة منه فظاهر لأنه وإن كان نكرة ملحق بالمعارف فيسوغ أن يكون ذا حال ، وأما إذا كان متعلقا بجاء فمنع ذلك الجمهور وأجازه سيبويه ، وجوز أن يعلق الجار والمجرور بيسعى وهو كما ترى ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ ﴾ وهم وجوه أهل دولة فرعون ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون بسببك وإنما سمى التشاور ائتمارا لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ ﴾ اللام للبيان كما فى سقيا لك فيتعلق بمحذوف أعنى - أعنى - ولم يجوز الجمهور تعلقه بالناصحين لأن أل فيه اسم موصول ومعمول الصلة لا يتقدم الموصول ولا بمحذوف مقدم يفسره المذكور لأن مالا يعمل لا يفسر عاملا وعند من جوز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول أل خاصة لكونها على صورة الحرف ، أو إذا كان المتقدم

Marfat.com

ظرفا للتوسع فيه ، أو قال إن أل هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت يجوز أن يكون لك متعلقا بالناصحين أو بمحذوف يفسره ذلك *

واستدل القرطبي وغيره بالآية على جواز النميمة لمصلحة دينية ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أى من المدينة ممتثلا ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ أى صرف وجهه ﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى ما يقابل جانبها ، وتلقاء فى الأصل مصدر انتصب على الظرفية . ومدين قرية شعيب سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام ولم يكن فى سلطان فرعون ولذا توجه لقربه ، وقيل توجه اليها لمعرفته به ، وقيل لقرابته منه عليهما السلام ، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان *

﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢﴾ أى وسط الطريق المؤدى إلى النجاة ، وإنما قال عليه السلام ذلك توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه عز وجل ، وكان عليه السلام لا يعرف الطرق فعن ثلاث طرائق فأخذ فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الأخريين وقالوا : المريب لا يأخذ فى أعظم الطرق ولا يسلك إلا بنياتها فبقى ثمانى ليال وهو حاف لا يطعم إلا ورق الشجر . وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام لم يصل حتى سقط خف قدميه . وروى أنه عليه السلام أخذ يمشى من غير معرفة فهداه جبريل عليه السلام إلى مدين . وعن السدى أنه عليه السلام أخذ فى بنيات الطريق فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فلما رآه موسى عليه السلام سجدله أى خضع من الفرق ، فقال : لا تسجد لى ولكن اتبعنى فتبعه وانطلق حتى انتهى به إلى مدين ء

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى وصل اليه وورد . الورود بمعنى الدخول وبمعنى الشرب وليس شىء منهما مرادا والمراد بماء مدين بئر كانوا يسقون منها ، فهو مجاز من إطلاق الحال وإرادة المحل ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أى فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ أى جماعة كثيرة مختلفى الأصناف ، ويشعر بالقيد الأول التنوين ، وبالثانى من الناس لشموله للاصناف المختلفة وهى فائدة ذكره ، وقيل فائدته تحقير أولئك الجماعة وأنهم لئام لا يعرفون بغير جنسهم أو محتاجون إلى بيان أنهم من البشر ﴿يَسْقُونَ﴾ الظاهر أنهم كانوا يسقون مواشى مختلفة الأنواع بمعنى أن منهم من كان يسقى إبلا ومنهم من كان يسقى غنما وهكذا ، وتخصص سقيهم بنوع يحتاج إلى توقيف ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ أى فى مكان أسفل من مكانهم ، وقيل من قربهم أو من سواهم أو مما يلى جهته إذا قدم عليهم وإلى هذا الأخير ذهب ابن عطية حيث قال : المعنى ووجد من الجهة التى وصل اليها قبل أن يصل إلى الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ﴾ اسم إحداهما قيل ليا وقيل عبرا وقيل شرفا ، واسم الأخرى قيل صفوريا وقيل صفوراء وقيل صفيراء ، وفى الكشاف صفيراء اسم الصغرى واسم الكبرى صفراء ﴿تَذُودَانِ﴾ كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء قاله ابن عباس وغيره ، وقيل تمنعان غنمهما عن التقدم إلى البئر لئلا تختلط بغيرها . وحكى ذلك عن الزجاج . وقال قتادة : تمنعان الناس عن غنمهما . وقال الفراء : تحبسان غنمهما عن أن تتفرق ، وفى جميع هذه الاقوال تصريح بأن المذود كان غنما ، والظاهر أن ذلك عن توقيف ، وقيل تذودان عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وهذا كما ترى ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ * أى ما مخطوبكما

Marfat.com

ومطلوبكما مما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لاتباشران السقى كغيركما ؟ . وأصل الخطب مصدر خطب بمعنى طلب ثم استعمل بمعنى المفعول . وفى سؤاله عليه السلام إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعنى ه

وقرأ شمر (ما خطبكما) بكسر الخاء ، قال فى البحر : أى من زوجكما ؟ ولم لايسقى هو ؟ . وهذه قراءة شاذة نادرة اه . ولايخفى مافيه وإباء الجواب عنه . وقال بعضهم : الخطب فيها بمعنى المخطوب والمطلوب كما فى القراءة المتواترة ، ونظيره الحب بكسر الحاء المهملة بمعنى المحبوب *(قَالَتَا لاَ نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ)* أى عادتنا أن لانسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزا عن مساجلتهم لا أنا لانسقى اليوم إلى تلك الغاية . وقرأ ابن مصرف (لانسقى) نضم النون من الاسقاء . وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والحسن وقتادة ، والعربيان : ابن عامر ، وأبو عمرو (يصدر) بفتح الياء وضم الدال أى حتى يصدر الرعاة بأغنامهم . وسأل بعض الملوك عن الفرق بين القراءتين من حيث المعنى . فأجيب بأن قراءة يصدر بفتح الياء تدل على فرط حيائهما وتواريهما من الاختلاط بالاجانب . وقراءة يصدر بضم الياء تدل على إصدار الرعاة المواشى ولم يفهم منها صدورهم عن الماء . وقرئ بزاى خالصة وبحرف بين الصاد والزاى . وقرئ الرعاء بضم الراء والمعروف فى صيغ الجمع فعال بكسر الفاء كما فى قراءة الجمهور ، وأما فعال بالضم فعلى خلاف القياس لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنباح وصراخ ، واذا استعمل فى معنى الجمع كما فى القراءة الشاذة فقيل هواسم جمع لا جمع وقيل إنه جمع أصلى وقيل إنه جمع ولكن الأصل فيه الكسر ، والضم فيه بدل من الكسر كما أنه بدل من الفتح فى نحو سكارى ، والوارد منه فى كلام العرب ألفاظ محصورة ذكرها الخفاجى فى شرح درة الغواص والمشهور منها على ما قال ثمانية ، وقد نظمها صدر الأفاضل لا الزمخشرى على الاصح بقوله :

ماسمعنا كلما غير ثمان * هى جمع وهى فى الوزن فعال (١) فرباب وفرار وتؤام * وعرام وعراق ورخال
وظؤار (١) جمع ظئر وبساط جمع بسط هكذا فيما يقال

وذهب أبو حيان إلى أن الرعاء فى قراءة الجمهور ليس بقياس أيضا قال : لأنه جمع راع وقياس فاعل الصفة التى للعاقل أن تكسر على فعلة كقاض وقضاة وماسوى جمعه هذا فليس بقياس ، وقرأ عياش عن أبى عمرو الرعاء بفتح الراء وهو مصدر أقيم مقام الصفة فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه ، وجوز أن يكون مما حذف منه المضاف أى أهل الرعاء ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣ ﴾ ابداء منهما للعذر له عليه السلام فى توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا : إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لانقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم ومالنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ، وذكر بعضهم أنه عليه السلام أخرج السؤال على مايقتضيه كرمه ورحمته بالضعفاء حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخر والذود قصدا لأن يجاب بطلب المعونة إلا أنهما لجلالة قدرهما حملتا قوله على مايجاب عنه بالسبب

(١) الرباب جمع ربى الشاة الحديثة العهد بالنتاج . والفرار جمع فرير ولد البقرة الوحشية . والتؤام جمع توأم المولود مع قرينه . والعرام بالعين والراء المهملتين بمعنى العراق وهو جمع عرق العظم الذى عليه بقية لحم . والرخال جمع رخلة بالكسر وبهاء ، وكتف الأنثى من أولاد الضأن اه منه

(١) والظؤار جمع ظئر المرضع ، والبساط جمع بسط الناقة التى تخلى مع ولدها اه منه

Marfat.com

وفى ضمنه طلب المعونة لأن إظهارهما العجز ليس إلالذلك ، وقيل : ليس فى الـكلام مايدل على ضعفهما بل فيه أمارات على حيائهما وسترهما ولو أرادتا إظهار العجز لقالتا لانقدر على السقى ومعنى وأبونا شيخ كبير أنا مع حيائنا إنما تصدينا لهذا الامر لـكبره وضعفه وإلا كان عليه أن يتولاه ، ولعل الأولى أن يقال : إنهما أرادتا اظهار العجز عن المساجلة للضعف ولما جبلا عليه من الحياء ، والـكلام وإن لم يكن فيه مايدل على ضعفهما فيه مايشير اليه لمن له قلب ، ويفهم من بيان معنى جوابهما المار آنفا أن جملة أبونا شيخ كبير عطف على مقدر، وجوز أن تـكون حالا أى نترك السقى حتى يصدر الرعاء والحال أبونا شيخ كبير وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيب عليه السلام ٥

﴿ فان قيل ﴾ كيف ساغ لنبي الله تعالى أن يرضى لابنتيه بسقى الغنم . فالجواب : أن الامر فى نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك والعادات متباينة فيه وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصا إذا كانت الحال حال ضرورة ، وذهب جماعة إلى أنه ليس بشعيب عليه السلام فاخرج سعيد بن منصور . وابن أبى شيبة . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة أنه قال كان صاحب موسى عليه السلام اثرون بن أخى شعيب النبي عليه السلام ، وحكى هذا القول عنه أبو حيان أيضا إلا أنه ذكر هرون بدل أثرون وحكاه أيضا عن الحسن إلا أنه ذكر بدله مروان، وحكى الطبرسى عن وهب وسعيد بن جبير نحو ماحكاه أبو حيان عن أبى عبيدة ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال بلغنى أن أبا الامرأتين ابن أخى شعيب واسمه رعاويل وقد أخبرنى من أصدق ان اسمه فى الـكتاب يثرون كاهن مدين والـكاهن حبر ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال الذى استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين ، وجاء فى رواية أخرى عنه ان اسمه يثرون وهو موافق لما نقل عن الـكتاب من الاسم ولم يذكر فى هاتين الروايتين نسبته إلى شعيب عليه السلام فيحتمل أن المسمى بما فيها ابن أخيه ويحتمل أنه رجل أجنبي عنه فقد قيل : ان أباهما ليس ذا قرابة من شعيب عليه السلام وإنما هو رجل صالح ، وحكى الطبرسى عن بعضهم أن يثرون اسم شعيب وقد أخبرنى بعض أهل الـكتاب بذلك أيضا إلا أنه قال هو عندنا يثرو بدون نون فى آخره والذى رأيته أنا فى الفصل الثانى من السفر الثانى من توراتهم ماترجمته ولما سمع فرعون بهذا الخبر أى خبر القتل طلب أن يقتل موسى فهرب موسى من بين يديه وصار إلى بلد مدين وجلس على بئر ماء وكان لامام مدين سبع بنات فجاءت ودلت وملأت الاحواض لسقى غنم أبيهن فلما جاء الرعاة فطردوهن قام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن فلما جئن إلى رعوايل أبيهن قال ما بالـكن أسرعتن المجئ اليوم الخ ، وفى أول الفصل الثالث منه ماترجمته وكان موسى يرعى غنم يثرو حمية امام مدين الخ فلا تغفل ؛ وفى البحر عند الـكلام فى تفسير (إن أبى يدعوك) قيل : كان عمها صاحب الغنم وهو المزوج عبرت عنه بالأب إذ كان بمثابته والظاهر أن هذا القائل يقول : إنهما عنتا بالاب هنا العم ، وأنت تعلم أن هذا وأمثاله مما تقدم مما لا يقال من قبل الرأى فالمدار فى قبول شىء من ذلك خبر يعول عليه والاخبار التى وقفنا عليها فى هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ماهو الارجح فيما بينها وكأنى بك تعول على المشهور الذى عليه أكثر المفسرين وهو أن أباهما على الحقيقة شعيب عليه السلام إلى أن يظهر لك مايوجب العدول عنه والظاهر من قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ أنه عليه السلام

Marfat.com

سارع إلى السقى لهما رحمة عليهما ومنشأ الترحم كونهما على الذود وكون الامة من الناس على السقى ولهذا ذهب الشيخ عبدالقاهر وصاحب الكشاف إلى أن حذف المفعول فى يسقون وتذودان للقصد إلى نفس الفعل وتنزيله منزلة اللازم أى يصدر منهم السقى ومنهما الذود وقال : إن كون المسقى والمذود ابلا أوغنما خارج عن المقصود بل يوهم خلافه إذ لو قيل : أوقدر يسقون إبلهم وتذودان غنمهما لتوهم أن الترحم عليهما ليس من جهة أنهما على الذود والناس على السقى بل من جهة أن مذودهما غنم ومسقيهم ابل بناء على أن محط الفائدة فى الكلام البليغ هو القيد الاخير وخالفهما فى ذلك السكاكى فذهب إلى أن حذف المفعول من يسقون وتذودان لمجرد الاختصار والمراد يسقون مواشيهم وتذودان غنمهما وكذا سائر الافعال المذكورة فى هذه الآية ، واختاره العلامة الثانى فقال: إن هذا أقرب إلى التحقيق لأن الترحم لم يكن من جهة صدور الذود عنهما وصدور السقى من الناس بل من جهة ذودهما غنمهما وسقى الناس مواشيهم حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما بل مواشيهم وكان الناس يسقون غير مواشيهم بل غنمهما مثلا لم يصح الترحم ووافقه فى ذلك السيد السند وقال فى تحقيق المذهبين : إن الشيخين اعتبرا المفعول الذى نزل الفعلان بالنسبة اليه هو الابل والغنم مثلا أى النوعين من المواشى بدون الاضافة كما يدل عليه قولهما إن كون المسقى والمذود ابلا أو غنما الخ وكل منهما مقابل للآخر فى نفسه وجعلا ما يضاف اليه كل فى القول أو التقدير المفروض خارجا عن المفعول من حيث إنه مفعول غير ملحوظ معه فالمفعول عندهما ليس الا مطلق الابل والغنم فلو قدر المفعول لأدى إلى فساد المعنى فانهما لو كانتا تذودان ابلا لهما على سبيل الفرض لكان الترحم باقيا بحاله لأنه إنما كان لعدم قدرتهما على السقى ، والسكاكى نظر إلى أن المفعول هو الغنم المضافة اليهما والمواشى المضافة اليهم وكل واحد منهما يقابل الآخر من حيث إنه مضاف فلو لم يقدر المفعول يفسد المعنى وهذا أدق نظرا وأصح معنى انتهى ، وتعقبه المولى عبدالحكيم السالكوتى بقوله: وفيه بحث لأن عدم التقدير ان قصد به التعميم أى يسقون مواشيهم وغير مواشيهم وتذودان غنمهما وغير غنمهما يلزم الفساد أما إذا قصد به مجرد السقى والذود من غير ملاحظة التعلق بالمفعول كما فى قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فلا لأن كون طبيعة السقى والذود منشأ الترحم لا يقتضى أن يكون عند تعلقه بمفعول مخصوص كذلك حتى يلزم أن يكون سقى غير مواشيهم وذود غير غنمهم محلا للترحم فتدبر ، فان منشأ ماذكره السكاكى عدم الفرق بين الاطلاق والعموم انتهى ، ولا يخفى أنه ينبغى أن يضم إلى طبيعة السقى والذود بعض الحيثيات كحيثية تحقق طبيعة السقى من أقوياء متغلبين وتحقق طبيعة الذود من امرأتين ضعيفتين مستورتين فى موضع هو مجتمع الناس للسقى والا فالظاهر أن مجرد طبيعة السقى والذود لا تصلح منشأ الترحم *

وقال بعض الاجلة : ترك المفعول فى يسقون ويذودان لأن الغرض هو الفعل لا المفعول إذ هو يكفى فى البعث على سؤال موسى عليه السلام ومازاد على المقصود لكنة وفضول ، وأما البعث على المرحمة فليس هذا موضعه فان له قولهما : (لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) ومن لم يفرق بين البعثين قال ماقال ورد بأن منشأ السؤال هو المرحمة لحالهما كما صرحوا به فسؤاله عليه السلام للتوسل إلى إعانتهما وبرهما لتفرس ضعفهما وعجزهما ولولاه لم يكن للتكلم مع الأجنبية داع ، وقولهما : (لانسقى) الخ باعث لمزيد المرحمة لقبولها للزيادة والنقص ، وتعقب بأنه إنما يتم لو سلم أنه عليه السلام تفرس ضعفهما وعجزهما لأمور شاهدها ،

Marfat.com

وإلا فالذودلا يدل على ذلك إذ يتحقق للضعف ولغيره ، وقد نقل الخفاجى كلام جمع من الفضلاء فى هذا المقام منه ماذكرنا عن بعض الأجلة ورده واعترض بما اعترض ، ثم قال : وأما ماا عترض به على المرحمة فخيال فاسد ومحط كلامه عليه الرحمة الانتصار لما ذهب اليه الشيخان وقد انتصر لهما ، وقال بقولهما غير واحد ه

واعترض بعضهم على تقدير المفعول مضافا بأن الاضافة تشعر بالملك ولا ملك لأحد من الأمة والامرأتين فان الظاهر فى الامة أنهم كانوا رعاء والأغلب أن الرعاء لا يملكون ، والظاهر أن مافى يد الامرأتين كان ملكا لأبيهما ، ولا يخفى أن هذا الاعتراض على طرف التمام ، والله تعالى أعلم ، هذا والظاهر أنه عليه السلام سقى لهما من البئر التى عليها الناس ويدل عليه ماروى أنه عليه السلام دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما وكذا ماأخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم. والحاكم. وصححه عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين قال ماخطبكما فحدثتاه فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استسقى فلم يستسق إلا دلواً واحداً حتى رويت الغنم لكن هذا مخالف لما يقتضيه ظاهر الآية من أنه عليه السلام حين ورد ماء مدين وجد الأمة يسقون ووجد الامرأتين تذودان وهذا ظاهر فى مقارنة وجدانهما لوجدانهم وذودهما لسقيهم ولا يكاد يفهم منه أن وجدانهما بعد فراغهم من السقى كما يقتضيه الخبر فلعل الخبر غير صحيح ، وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار وكأن من يقول بصحته يمنع اقتضاء الآية كون وجدان الأمة يسقون ووجدان الامرأتين تذودان فى أول وقت الورود فانه يقال : لما ورد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وجب الصيام ووجبت الزكاة مثلا مع أن وجوب كل ليس فى أول وقت الورود فيجوز أن يكون عليه السلام قد وجد أمة يسقون أول وقت وروده وبعد أن فرغوا من السقى ووضعوا الصخرة على البئر وجد امرأتين تذودان فخاطبهما بما خطبكما فكان ما كان ويحمل ذودهما على منع غنمهما عن التقدم إلى البئر لعلمهما أنها قد أطبق عليها صخرة لا يقدرون على رفعها ويتكلف فى توجيه الجواب ما يتكلف أو يقول الآية على ظاهرها ويسلم اقتضاءه اتحاد الوجدانين والذود والسقى بالزمان ويمنع أن يكون فى الخبر ماينافى ذلك لجواز أن يكون المعنى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فلما فرغوا أعادوا الصخرة فاذا بالامرأتين حاضرتان عنده بين يديه فسألهما فحدثتاه الخ فما بعد الفراغ من السقى ليس وجدان الامرأتين تذودان وإنما هو حضورهما بين يديه والكل كما ترى وكانى بك تعتمد عدم صحة الخبر ه

وقيل : إنه عليه السلام سقى لهما من بئر أخرى ، فقد أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى خبر طويل أنه عليه السلام لما سأل الامرأتين وأجابتا قال : فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر قال فانطلقا فأريانيها فانطلقا معه فقال : بالصخرة بيده فنحاها ثم استقى لهما سجلا واحداً فسقى الغنم ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ الذى كان هناك وهو على ماروى عن ابن مسعود ظل شجرة قيل : كانت سمرة ، وقيل : هو ظل جدار لا سقف له ه

وقيل : إنه عليه السلام جعل ظهره يلى ما كان يلى وجهه من الشمس ، وهو المراد بقوله تعالى : (ثم تولى

Marfat.com

إلى الظل) وهو كما ترى ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ ﴾ أى لأى شىء تنزله من خزائن كرمك إلى * ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ جل أو قل ﴿ فَقِير ٢٤ ﴾ أى محتاج وهو خبر إن وبه يتعلق لما ، ولما أشرنا إليه من تضمنه معنى الاحتياج عدى باللام ، وجوز أن يكون مضمنا معنى الطلب واللام للتقوية ، وقيل: يجوز أن تكون للبيان فتتعلق بأعنى محذوفا ، و(ما) على جميع الأوجه نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صفتها، والرابط محذوف ، ومن خير بيان لها ، والتنوين فيه للشيوع ، والكلام تعريض لما يطعمه لما ناله من شدة الجوع ، والتعبير بالماضى بدل المضارع فى أنزلت للاستعطاف كالافتتاح برب ، وتأكيد الجملة للاعتناء ، ويدل على كون الكلام تعريضا لذلك ماأخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير إنه يومئذ فقير الى كف من تمر» *

وأخرج سيعد بن منصور . وابن أبى شيبة . وابن أبى حاتم . والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : «لقد قال موسى عليه السلام رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع » وفى رواية اخرى عنه « أنه عليه السلام سأل فلقا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين» وأنه كما روى أحمد فى الزهد وغيره عن الحبر ليترائى خضرة البقل من بطنه من الهزال وإلى كون الكلام تعريضا لذلك ذهب مجاهد، وابن جبير، وأكثر المفسرين ، وكان على كرم الله تعالى وجهه يقول : والله ماسأل الا خبزا يأكله ، وجوز أن تكون اللام للتعليل وما موصولة ومن للبيان والتنكير فى خير لافادة النوع والتعظيم ، وصلة فقير مقدرة أى إنى فقير إلى الطعام أو من الدنيا لاجل الذى أنزلته إلى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين فقد كان عليه السلام عند فرعون فى ملك وثروة وليس الغرض عليه التعريض لما يطعمه ولا التشكى والتضجر بل إظهار التبجح والشكر على ذلك ، ووجه التعبير بالماضى عليه ظاهر *

وأنت تعلم أن هذا خلاف المأثور الذى عليه الجمهور، ومثله فى ذلك ماروى عن الحسن أنه عليه السلام سأل الزيادة فى العلم والحكمة ولا يخلو أيضا عن بعد . وجاء عن ابن عباس أن الامرأتين سمعتا ماقال فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما فسألهما فاخبرتاه فقال لا حداهما : انطلقى فادعيه ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَيٰهُمَا ﴾ قيل هى الكبرى منهما وقيل الصغرى وكانتا على ما فى بعض الروايات توأمتين ولدت احداهما قبل الاخرى بنصف نهار . وقرأ ابن محيصن (حداهما) بحذف الهمزة تخفيفا على غير قياس مثل ويلمه فى ويل أمه ﴿ تَمْشِى ﴾ حال من فاعل جاءت . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى اسْتِحْيَآءٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشى أى جاءته ماشية كائنة على استحياء فمعناه أنها كانت على استحياء حالتى المشى والمجىء معا لا عند المجىء فقط، وتنكير استحياء للتفخيم . ومن هنا قيل جاءت متخفرة اى شديدة الحياء . وأخرج سعيد بن منصور . وابن جرير . وابن أبى حاتم من طريق عبد الله ابن أبى الهذيل عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال جاءت مستترة بكم درعها على وجهها وأخرجه ابن المنذر عن أبى الهذيل موقوفا عليه وفى رفعه الى عمر رواية أخرى صححها الحاكم بلفظ واضعة ثوبها على وجهها ﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه السلام كأنه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟

Marfat.com

فقيل قالت ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أى جزاء سقيك على أن ما مصدرية ولايجوز ان تكون موصولة لان ما يستحق عليه الاجر فعله لا ما سقاه اذ هو الماء المباح وأسندت الدعوة الى ابيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة . وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة مالا يخفى . روى انه عليه السلام أجابها فقام معها فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق فانى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك ففعلت . وفى رواية أنه قال لها كونى ورائى فانى رجل لا أنظر إلى أدبار النساء ودلينى على الطريق يمينا أو يسارا ، وروى عن ابن عباس . وقتادة . وابن زيد وغيرهم أنها مشت أولا أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليه السلام *

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أى ماجرى عليه من الخبر المقصوص ، فانه مصدر سمى به المفعول كالعلل ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٥﴾ يريد فرعون وقومه ، وقال ذلك لما أنه لا سلطان لفرعون بارضه، ويحتمل أنه قاله عن إلهام أو نحوه ، واختلف فى الداعى له عليه السلام إلى الاجابة فقيل الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر برأيه لاطمعا بما صرحت به من الاجر ، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال : لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذا هو بالعشاء فقال له شعيب : كل . قال موسى. أعوذ بالله تعالى . قال : ولم ألست بجائع ؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وإنا من أهل بيت لانبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا قال : لا والله ، ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل ، وقيل : الداعى له مابه من الحاجة وليس بمستنكر منه عليه السلام أن يقبل الاجر لإضرار الفقر والفاقة *

فقد أخرج الامام أحمد عن مطرف بن الشخير قال أما والله لو كان عند نبى الله تعالى شئ ماتبع مذقتها ولكن حمله على ذلك الجهد ، واستدل بعضهم على أن ذهابه عليه السلام رغبة بالجزاء بما روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بقوله (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) ليسمعهما ، ولذلك قيل : له ليجزيك الخ ، وأجيب بأنه ليس بنص لاحتمال أنه إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا إلى استيفاء الاجر ، ولا ضير فيما أرى أن يكون عليه السلام قد ذهب رغبة فى سد جوعته وفى الاستظهار برأى الشيخ ومعرفته ، ولا أقول ان الرغبة فى سد الجوعة رغبة فى استيفاء الاجر على عمل الآخرة أو مستلزمة لها ، ودعوى أن الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أنه عليه السلام إنما أجاب للتبرك والاستظهار بالرأى لاتخلو عن خفاء ، وعمله عليه السلام بقول امرأة لأنه من باب الرواية ، ويعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى إذا كان كذلك، ومماشاته امرأة أجنبية مما لا بأس به فى نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وهى التى استدعته إلى ابيها وهى التى زوجها من موسى عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أى لرعى الاغنام والقيام بأمرها ، وأصل الاستئجار كما قال الراغب طلب الشىء بالاجرة ثم عبر به عن تناوله بها وهو المراد هنا. وكذا فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ﴾ وهو تعليل جار مجرى الدليل على أنه عليه

Marfat.com

السلام حقيق بالاستئجار المفهوم من طلب استئجاره ، وبعضهم رتب من الآية قياسا من الشكل الأول هكذا هو قوى أمين وكل قوى أمين لائق بالاستئجار ينتج هو لائق بالاستئجار وهو المدعى المفهوم من الطلب ، وتعقب بأن هذا ظاهر لوكان خير خبرا وليس هو كذلك ، وأجيب بأن المعنى على ذلك إلا أنه جعل اسما للاهتمام بأمر الخيرية لأنها أم الكمال المبنى عليها غيرها . وفى الكشاف فان قيل : كيف جعل خير من استأجرت اسما لإن والقوى الأمين خبرا ؟ قلت : هو مثل قوله :

ألا إن خير الناس حيا وهالكا أسير ثقيف عندهم فى السلاسل

فى أن العناية هى سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق أن يكون خبراً اسما وأراد بذلك على ما قيل : أحقية كون خير خبرا من حيث الصناعة ، ووجه بأن خيراً مضاف إلى من وهى نكرة فكذا هو والإخبار عن النكرة بالمعرفة خلاف الظاهر ، وإن جوزوه فى اسمى التفضيل والاستفهام ، ولو جعلت موصولة فاضافة أفعل التفضيل لفظية لا تفيد تعريفا كما هو أحد قولين للنحاة فيها ، وعلى القول بافادتها التعريف يقال : المعرف باللام أعرف من الموصول وما أضيف اليه . وتعقب بأن تعريف القوى الامين للجنس وما فيه تعريف الجنس قد ينزل منزلة النكرة . وأجيب بأن الموصول إذا أريد به الجنس كذلك وهنا تصح هذه الارادة ليجىء التعدد الذى يقتضيه خير ، وحيث كان المضاف إلى شىء دونه يكون القوى الأمين أحق بالاسمية وخير أحق بالخبرية . وإذ قلت بأن أحقية الخبرية لأن سوق التعليل يقتضيها إلا أنه عدل إلى الاسمية للاهتمام خلصت من كثير من المناقشات . وقال لى الشيخ خليل افندى الآمدى يوم اجتمعت به وأنا شاب عند وروده إلى بغداد فجرى بحث فى هذه الآية الكريمة : إن القياس المأخوذ منها من الشكل الثانى هكذا موسى القوى الأمين وخير من استأجرت القوى الأمين ينتج موسى خير من استأجرت . فقلت : أظهر ما يرد على هذا أن شرط انتاج الشكل الثانى بحسب الكيفية اختلاف مقدمتيه بالإيجاب والسلب بأن تكون إحداهما موجبة والأخرى سالبة وهو منتف فيما ذكرت فسكت وأعرض عن البحث حذرا من الفضيحة .

وأنت تعلم أن أدلة القرآن لا يلزم فيها الترتيب الذى وضعه المنطقيون فذلك صناعة أغنى الله تعالى العرب عنها ، وما ذكر من أن جعل خير اسما للاهتمام هو ما اختاره غير واحد ، وجوز الطيبي أن يكون تقديمه وجعله اسما من باب القلب للمبالغة ، والظاهر أن أل فى القوى الأمين للجنس فيندرج موسى عليه السلام وهو وجه الاستدلال . وذكر الاستئجار بلفظ الماضى مع أن الظاهر ذكره بلفظ المضارع للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف . وجوز الطيبي أن يكون المراد بالقوى الامين موسى عليه السلام فكأنها قالت : إن خير من استأجرت موسى ، والاول أولى . ثم إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت الخصلتان أعنى الكفاية والامانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول : استأجره لقوته وأمانته ، ولعمرى أن مثل هذا المدح من المرأة للرجل أجمل من المدح الخاص وأبقى للحشمة وخصوصا إن كانت فهمت أن غرض أبيها أن يزوجها منه ، ومعرفتها قوته عليه السلام لما رأت من دفعه الناس عن الماء وحده حتى سقى لهما ، ومعرفتها أمانته من عدم تعرضه لها بقبيح قط مع وحدتها وضعفها . وروى أنها لما قالت ماقالت قال لها أبوها : ما أعلمك بقوته ؟

Marfat.com

فذكرت له أنه عليه السلام أقل صخرة على البئر لا يقلها كذا وكذا وقد مر فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه أنه لا يطيق رفعها الاعشرة رجال ، والنقل فى عدد من يقلها مضطرب فأقل ماقالوا فيه سبعة وأكثره مائة ، وقد مر ما يعلم منه حال الخبر فى أصل الاقلال ، وذكرت أنه نزع وحده بدلو لا ينزع بها الأربعون . وقال: ماأعلمك بأمانته ؟ فذكرت ما كان من أمره إياها بالمشى وراءه وأنه صوب رأسه حتى بلغته الرسالة ، وقدمت وصف القوة مع أن أمانة الاجير لحفظ المال أهم فى نظر المستأجر لتقدم علمها بقوته عليه السلام على علمها بأمانته أو ليكون ذكر وصف الامانة بعده من باب الترقى من المهم إلى الاهم ، واستدل بقولها استأجره على مشروعية الاجارة عندهم وكذا كانت فى كل ملة وهى من ضروريات الناس ومصلحة الخلطة خلافا لابن علية. والاصم. حيث كانا لايجيزانها وهذا مما انعقد عليه الاجماع وخلافهما خرق له فلا يلتفت اليه وهذا لعمرى غريب منهما إن كانا لايجيزان الاجارة مطلقا ، ورأيت فى الاكليل أن فى قوله تعالى : (أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى) الخ ردا على من منع الاجارة المتعلقة بالحيوان عشر سنين لأنه يتغير غالبا فلعل الاجارة التى لايجيزانها نحو هذه الاجارة والامر فى ذلك أهون من عدم اجازة الاجارة مطلقا كما لايخفى *

﴿ قَالَ انِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها؟ فقيل : قال إنى . وفى تأكيد الجملة اظهار لمزيد الرغبة فيما تضمنته الجملة ، وفى قوله (هاتين) ايماء إلى أنه كانت له بنات أخر غيرهما ، وقد أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن لهما أربع أخوات صغار ، وقال البقاعى : إن له سبع بنات كما فى التوراة وقد قدمنا نقل ذلك . وفى الكشاف فيه دليل على ذلك *

واعترض بأنه لادلالة فيه على ماذكر اذ يكفى فى الحاجة إلى الإشارة عدم علم المخاطب بأنه ماكانت له غيرهما . وتعقب بأنه على هذا تكفى الاضافة العهدية ولايحتاج إلى الاشارة فهذا يقتضى أن يكون للمخاطب علم بغيرهما معهود عنده أيضا ، وإنما الاشارة لدفع إرادة غيرهما من ابنتيه الأخريين المعلومتين له من بينهن ، ونعم ما قال الخفاجى لاوجه للمشاحة فى ذلك فان مثله زهرة لايحتمل الفرك *

وقرأ ورش . وأحمد بن موسى عن أبى عمرو (أنكحك احدى) بحذف الهمزة ، وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ﴾ فى موضع الحال من مفعول (أنكحك) أى مشروطا عليك أو واجبا أو نحو ذلك ، ويجوز أن يكون حالا من فاعله قاله أبو البقاء ، وتأجرنى من أجرته كنت له أجيرا كقولك أبوته كنت له أبا ، وهو بهذا المعنى يتعدى إلى مفعول واحد ، وقوله تعالى : ﴿ ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾ ظرف له ، ويجوز أن يكون تأجرنى بمعنى تثيبنى من أجره الله تعالى على مافعل أى أثابه فيتعدى إلى اثنين ثانيهما هنا ثمانى حجج . والكلام على حذف المضاف وإقامه المضاف اليه مقامه أى تثيبنى رعية ثمانى حجج أى تجعلها ثوابى وأجرى على الانكاح ويعنى بذلك المهر وجوز على هذا المعنى أن يكون ظرفا لتأجرنى أيضا بحذف المفعول أى تعوضنى خدمتك أو عملك فى ثمانى حجج ، ونقل عن المبرد أنه يقال : أجرت دارى ومملوكى غير ممدود وآجرت ممدوداً ، والأول أكثر فعلى هذا يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الثانى محذوف ، والمعنى على أن تأجرنى نفسك ، وقد يتعدى إلى واحد بنفسه ، والثانى بمن فيقال : أجرت الدار من عمرو ، وظاهر كلام الأكثرين أنه لافرق بين آجر بالمد

Marfat.com

وأجر بدونه ، وقال الراغب : يقال أجرت زيداً إذا اعتبر فعل أحدهما ، ويقال : آجرته إذا اعتبر فعلاهما وكلاهما يرجعان إلى معنى ، ويقال كما فى القاموس أجرته أجرا وآجرته إيجارا ومؤاجرة *

وفى تحفة المحتاج آجره بالمد إيجارا وبالقصر يأجره بكسر الجيم وضمها أجرا ، وفيها أن الاجارة بتثليث الهمزة والكسر أفصح لغة اسم للاجرة ثم اشتهرت فى العقد، والحجج جمع حجة بالكسر السنة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ فى الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أى فهو من عندك من طريق التفضل لامن عندى بطريق الالزام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بالزام إتمام العشر والمناقشة فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة وهى مايصعب تحمله من الشق بفتح الشين وهو فصل الشىء إلى شقين فان مايصعب عليك يشق عليك رأيك فى أمره لتردده فى تحمله وعدمه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراد شعيب عليه السلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لاتعليق صلاحه بمشيئته سبحانه بمعنى أنه إن شاء الله تعالى استعمل الصلاح وإن شاء عز وجل استعمل خلافه لأنه لايناسب المقام *

وقيل : لأن صلاحه عليه السلام متحقق فلا معنى للتعليق ، ونحوه قول الشافعى : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر أى ذلك الذى قلت وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لاأنا عما شرطت على ولاأنت عما شرطت على نفسك ، وقوله سبحانه : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أى أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أى وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيار أى لاعدوان كائن على بطلب الزيادة على ماقضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان بكلا الأجلين بصدد المشارطة مع تحقق عدم العدوان فى أطولهما رأسا للقصد إلى التسوية بينهما فى الانتفاء أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر لاأطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم كائن على كما لاإثم على فى قضاء الأطول لاإثم على فى قضاء الاقصر فقط *

وقرأ عبدالله (أى الاجلين ماقضيت) فما مزيدة لتأكيد القضاء أى أى الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتى له كما أنها فى القراءة الأولى مزيدة لتاكيد ابهام أى وشياعها ، وجعلها نافية لايخفى مافيه ؛ وقرأ الحسن ، والعباس عن أبى عمرو (أيما) بتسكين الياء من غير تشديد كما فى قول الفرزدق :

تنظرت نصراً والسماكين أيهما على من الغيث استهلت مواطره

وأصلها المشددة وحذفت الياء تخفيفا وهى مع عينه واو ولامه ياء ، ونص ابن جنى على أنها من باب أويت قياسا واشتقاقا وقد نقل كلامه فى بيان ذلك العلامة الطيبى فى شرح الكشاف فليرجع اليه من شاء *

وقرأ أبو حيوة . وابن قطيب (فلا عدوان) بكسر العين ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ ٢٨﴾ أى شهيد على ماروى عن ابن عباس ، وقال قتادة : حفيظ ، وفى البحر الوكيل الذى وكل اليه الامر ولما ضمن معنى شاهد ونحوه عدى بعلى ومن هنا قيل : أى شاهد حفيظ ، والمراد توثيق العهد وأنه لاسبيل لاحد منهما إلى الخروج عنه أصلا ، وهذا بيان لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه اجمالا من غير تعرض

Marfat.com

لبيان مواجب عقدى النكاح والاجارة فى تلك الشريعة تفصيلا . وقول شعيب عليه السلام : (إنى أريد أن أنكحك) الخ ظاهر فى أنه عرض لرأيه على موسى عليه السلام واستدعاء منه للعقد لا انشاء وتحقيق له بالفعل، ولم يجزم القائلون باتفاق الشريعتين فى ذلك بكيفية ماوقع ، فقيل لعل النكاح جرى على معينة بمهر غير الخدمة المذكورة وهى إنما ذكرت على طريق المعاهدة لا المعاقدة فكأنه قال : أريد أن أنكحك احدى ابنتى بمهر معين إذا أجرتنى ثمانى حجج بأجرة معلومة فما تقول فى ذلك فرضى فعقد له على معينة منهما ، فلا يرد أن الابهام فى المرأة المزوجة غير صحيح ، وعلى الخدمة ومنافع الحر عندنا أيضا خصوصا إذا قيل : إن مدتها غير معينة وهى أيضا ليست للزوجة بل لابيها فكيف صح كونها مهرا ، وقيل : يجوز أن يكون جرى على معينة بمهر الخدمة المذكورة ولا فساد فى جعل الرعية مهرا فانه جائز عند الشافعى عليه الرحمة وكذا عند الحنفية كما يفهم من الهداية ونقل عن صاحب المدارك أنه قال : التزوج على رعى الغنم جائز بالاجماع لأنه قيام بأمر الزوجية لا خدمة صرفة، وفى دعوى الاجماع ان أريد به اجماع الائمة مطلقا بحث ، ففى المحيط البرهانى لو تزوجها على أن يرعى غنمها سنة لم يجز على رواية الاصل ، وروى ابن سماعة عن محمد أنه يجوز فى الرعى ، وفى الانتصاف مذهب مالك فى ذلك على ثلاثة أقوال المنع والكراهة والجواز، ويقال على الجواز كانت الغنم للمزوجة لا لابيها وليس فى المدة ابهام إذ هى الحجج الثمان والزائدة قد وعد موسى عليه السلام الوفاء به إن تيسر له على أن الابهام فى المهر يجوز كما هو مبين فى الفروع ، وقال بعضهم : يجوز أن تكون الشرائع مختلفة فى أمر الانكاح فلعل إنكاح المبهمة جائز فى شريعة شعيب عليه السلام ويكون التعيين للولى أو للزوج ، وكذا جعل خدمة الولى صداقا ونحو ذلك مما لا يجوز فى شريعتنا ه

ولا يرد أن ما قص من الشرائع السالفة من غير إنكار فهو شرع لنا لأنه على الاطلاق غير مسلم . وفى الاكليل عن مكى أنه قال : فى الآية خصائص فى النكاح . منها أنه لم يعين الزوجة ، ولا حد أول المدة ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينفذ شيئا . والذى يميل اليه القلب اختلاف الشرائع فى مواجب النكاح وربما يستأنس له بما فى الفصل التاسع والعشرين من السفر الاول من التوراة أن يعقوب عليه السلام مضى إلى بلد أهل الشرق فاذا بئر فى الصحراء على فمها صخرة عظيمة وعندها ثلاثة قطعان من الغنم فقال لرعاتها : من اين انتم يا إخوة ؟ قالوا : من حران . فقال لهم : أتعرفون لابان بن ناحور ؟ فقالوا : نعم . فقال : أحى هو ؟ قالوا : نعم وهذه راحيل ابنته مع الغنم . ثم قال : ليس هذا وقت انضمام الماشية فاسقوا الغنم وامضوا بها فارعوها . قالوا : لا نطيق ذلك إلى أن تجتمع الرعاة ويدحرجوا الصخرة عن فم البئر فبينما هو يخاطبهم جاءت راحيل مع غنم ابيها فلما رأى ذلك تقدم ودحرج الصخرة وسقى غنم خاله لابان ثم قبل راحيل وبكى وأخبرها أنه ابن عمتها ربقا فأخبرت أباها فخرج للقائه فعانقه وقبله وأدخله إلى منزله ثم قال لابان له : أما أنت فعظمى ولحمى ومكث عنده شهراً فقال له لابان : أنت وان كنت ذا قرابة منى لا استحسن ان تخدمنى مجانا فاخبرنى بما تريد من الأجرة ؟ وكان له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل وعينا ليا حسنتان وراحيل حسنة الحلية والمنظر فأحبها يعقوب فقال : أخدمك سبع سنين براحيل فقال : لابان : اعطائى اياها لك أصلح من إعطائى إياها لرجل آخر فأقم عندى فخدمه براحيل سبع سنين ثم قال : أعطنى زوجتى فقد كملت أيامى فجمع

Marfat.com

لابان أهل الموضع وصنع لهم مجلسا فلما كان العشاء أخذ ليا بنته فزفها اليه ودخل عليها فأعطاها لابان أمته زلفا لتكون لها أمة فلما كانت الغداة فاذا هى ليا فقال للابان : ماذا صنعت بى اليس براحيل خدمتك ؟ قال : نعم لكن لا تزوج الصغرى قبل الكبرى فى بلدنا فأكمل أسبوع هذه وأعطيك اختها راحيل ايضا بالخدمة التى تخدمها عندى سبع سنين أخر فكمل يعقوب أسبوع ليا ثم أعطاه ابنته راحيل زوجة وأعطاها أمته بلها لتكون لها أمة ، فلما دخل عليها يعقوب أحبها أكثر من حبه ليا ثم خدمه سبع سنين أخر اه *

وأخبرنى بعض أهل الكتاب أنه يجوز أن تكون خدمة الأب مهرا لابنته ويلزم الأب إرضاؤها بشىء إذا كانت كبيرة وأن ما التزم من الخدمة لا يجب فعله قبل الدخول ويكفى الالتزام والتعهد ، وأن المهر عندهم كل شئ له قيمة أو ما فى حكمها ، وأن تسليم المرأة نفسها للزوج راضية بما يحصل لها منه من قضاء الوطر والانتفاع بدلا عن المهر قد يقوم مقام المهر ، وأن حل الجمع بين الأختين كان ليعقوب عليه السلام خاصة ، وهذا الاخير مما ذكره علماء الاسلام والله تعالى أعلم بصحة غيره مما ذكر من الكلام ، هذا وللعلماء فى الآية استدلالات

قال فى الاكليل : فيها استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها ، واعتبار الولى فى النكاح ، وأن العمى لا يقدح فى الولاية فانه عليه السلام كان أعمى ، واعتبار الايجاب والقبول فى النكاح وقال ابن الغرس : استدل مالك بهذه الآية على إنكاح الاب البكر البالغة بغير استئمار لأنه لم يذكر فيها استئمار . قال : واحتج بعضهم على جواز أن يكتب فى الصداق انكحه إياها خلافا لمن اختار انكحها إياه قائلا لأنه إنما يملك النكاح عليها لا عليه . وقال ابن العربى : استدل بها أصحاب الشافعى على أن النكاح موقوف على لفظ الانكاح والتزويج . قال : واستدل بها قوم على جواز الجمع بين نكاح وإجارة فى صفقة واحدة فعدوه إلى كل صفقة تجمع عقدين وقالوا بصحتها . قال : واستدل بها علماؤنا على أن اليسار لا يعتبر فى الكفاءة فان موسى عليه السلام لم يكن حينئذ موسرا . قال : وفى قوله : (والله على مانقول وكيل) اكتفاء بشهادة الله عز وجل إذ لم يشهد أحدا من الخلق فيدل على عدم اشتراط الاشهاد فى النكاح اه . واستدل بها الاوزاعية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك بألف نقدا أو ألفين نسيئة اه مافى الاكليل مع حذف قليل *

ولا يخفى ما فى هذه الاستدلالات من المقالات والمنازعات . ثم ان ماتقدم عن مكى من أنه عليه السلام دخل ولم ينفذ شيئا مما قاله غيره أيضا . وقد روى أيضا من طريق الامامية عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه ، وقيل : إنه عليه السلام لم يدخل حتى أتم الاجل ، وجاء فى بعض الآثار أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام : ادخل ذلك البيت فخذ عصى من العصى التى فيه وكان عنده عصى الانبياء عليهم السلام فدخل وأخذ العصا التى هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الانبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب فقال له شعيب : خذ غير هذه فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم أن له شأنا . وعن عكرمة أنه قال : خرج آدم عليه السلام بالعصا من الجنة فأخذها جبرائيل عليه السلام بعد موته وكانت معه حتى لقى بها موسى ليلا فدفعها اليه . وفى مجمع البيان عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه أنه قال : كانت عصا موسى تضيب آس من الجنة أتاه بها جبرائيل عليه السلام لما توجه تلقاء مدين . وقال السدى : كانت تلك العصا قد أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر ابنته أن تأتى بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فردها سبع مرات فلم يقع فى

Marfat.com

يدها غيرها فدفعها اليه ثم ندم لأنها وديعه فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع: فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام . وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا · وعن الكلبي الشجرة التى نودى منها شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ٭

وروى أنه لما شرع عليه السلام بالخدمة والرعى قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنينا أخشاه عليك وعلى الغنم ، فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ومشى على أثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فخاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب وجد الغنم ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بما كان ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له : إنى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى الله تعالى اليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع أو درعاء فوفى له شعيب بما قال ٭ وحكى يحيى بن سلام أنه جعل له كل سخلة تولد على خلاف شية أمها فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام فى المنام أن ألق عصاك فى الماء الذى تسقى منه الغنم ففعل فولدت كلها على خلاف شيتها . وأخرج ابن ماجه . والبزار . وابن المنذر . والطبرانى وغيرهم من حديث عتبة السلمى مرفوعا « أنه عليه السلام لما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة فأنمت وانثنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش أى واسعة الشخب ولا ضبوب أى طويلة الضرع تجره ولا غزور أى ضيقة الشخب ولا ثعول أى لا ضرع لها إلا كهيئة حلمتين ولا كشة تفوت الكف أى صغيرة الضرع لا يدرك الكف» وظاهر هذا الخبر أن الهبة كانت لزوجته عليه السلام وأنه كان ذلك لما أراد فراق شعيب عليهما السلام وهو خلاف مايقتضيه ظاهر ما تقدم ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أى أتم المدة المضروبة لما أراد شعيب منه والمراد به الاجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم عن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما . وأخرج البخارى وجماعة عن ابن عباس أنه سئل أى الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل . وأخرج ابن مردويه من طريق على بن عاصم عن أبى هرون عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا سأله أى الأجلين قضى موسى فقال : لا ادرى حتى اسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: لا أدرى حتى أسأل جبريل عليه السلام فسأل جبريل فقال : لا ادرى حتى أسأل ميكائيل عليه السلام فسأل ميكائيل فقال : لا أدرى حتى أسأل الرفيع فسأل الرفيع فقال :لا ادرى حتى أسأل اسرافيل عليه السلام فسأل اسرافيل فقال : لا ادرى حتى أسأل ذا العزة جل جلاله فنادى اسرافيل بصوته الاشد ياذا العزة أى الأجلين قضى موسى قال : (أتم الأجلين وأطيبهما عشر سنين) قال على بن عاصم : فكان أبو هرون اذا حدث بهذا الحديث يقول : حدثنى أبو سعيد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن

Marfat.com

الرفيع عن إسرافيل عن ذى العزة تبارك وتعالى «أن موسى قضى أتم الاجلين وأطيبهما عشر سنين» والفاء قيل: فصيحة أى فعقد العقدين وباشر موسى ماأريد منه فلما أتم الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قيل : نحو مصر باذن من شعيب عليه السلام لزيارة والدته وأخيه وأخته وذوى قرابته وكانه عليه السلام أقدمه على ذلك طول مدة الجناية وغلبة ظنه خفاء أمره ، وقيل : سار نحو بيت المقدس وهذا أبعد عن القيل والقال ﴿ ءانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ أى أبصر من الجهة التى تلى الطور لامن بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الايناس على ماقيل الاحساس فيكون أعم من الابصار ، وقال الزمخشرى : هو الابصار البين الذى لاشبهة فيه ومنه انسان العين لأنه يبين به الشىء والانس لظهورهم كما قيل : الجن لاستتارهم ، وقيل : هو ابصار مايؤنس به ، ﴿ نَارًا ﴾ استظهر بعضهم أن المبصر كان نورا حقيقة إلا أنه عبر عنه بالنار اعتبارا لاعتقاد موسى عليه السلام، وقال بعض العارفين : كان المبصر فى صورة النار الحقيقية وأما حقيقته فوراء طور العقل إلا أن موسى عليه السلام ظنه النار المعروفة ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ ﴾ أى أقيموا مكانكم وكان معه عليه السلام على قول امرأته وخادم ويخاطب الاثنان بصيغة الجمع ، وعلى قول آخر كان معه ولدان له أيضا اسم الاكبر جيرشوم واسم الاصغر اليعازر ولداله زمان إقامته عند شعيب وهذا مما يتسنى على القول بأنه عليه السلام دخل على زوجته قبل الشروع فيما اريد منه ، واما على القول بأنه لم يدخل عليها حتى أتم الاجل فلا يتسنى الا بالتزام أنه عليه السلام مكث بعد ذلك سنين ، وقد قيل به ، أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : قضى موسى عشر سنين ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى ، وعن وهب أنه عليه السلام ولد له ولد فى الطريق ليلة ايناس النار، وفى البحر أنه عليه السلام خرج بأهله وماله فى فصل الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل لايدرى أليلا تضع أم نهارا فسار فى البرية لايعرف طرقها فالجأه السير إلى جانب الطور الغربى الايمن فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، وقيل : كان لغيرته على حرمه يصحب الرفقة ليلا ويفارقهم نهارا فأضل الطريق يوما حتى ادركه الليل فأخذ امراته الطلق فقدح زنده فأصلد فنظر فاذا نار تلوح من بعد فقال امكثوا ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى بخبر الطريق بأن أجد عندها من يخبرنى به وقد كانوا كما سمعت ضلوا الطريق ، والجملة استئناف فى معنى التعليل للامر ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ أى عود غليظ سواء كان فى رأسه نار كما فى قوله :

وألقى على قيس من النار جذوة شديدا عليها جرها والتهابها

أو لم تكن كما فى قوله :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذا غير خوار ولادعر

ولذا بينت كما قال بعض المحققين بقوله تعالى : ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ وجعلها نفس النار للمبالغة كأنها لتشبث النار بها استحالت نارا ، وقال الراغب : الجذوة مايبقى من الحطب بعد الالتهاب ، وفى معناه قول أبى حيان: عود فيه نار بلا لهب ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : هى عود من حطب فيه النار .

Marfat.com

وأخرج هو وجماعة عن قتادة أنها أصل شجرة فى طرفها النار ، قيل : فتكون من على هذا للابتداء ، والمراد بالنار هى التى آنسها ه

وقرأ الأكثر (جذوة) بكسر الجيم . والأعمش . وطلحة . وأبو حيوة . وحمزة بضمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون وتتسخنون بها ، وفيه دليل على أنهم أصابهم برد ﴿فَلَمَّا أَتَيٰهَا﴾ أى النار التى آنسها ﴿نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِى ٱلْأَيْمَنِ﴾ أى أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام فى مسيره فالأيمن صفة الشاطئ وهو ضد الأيسر ، وجوز أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليمن والبركة ضد الأشأم ، وعليه فيجوز كونه صفة للشاطئ أو الوادى ، و(من) على مااختاره جمع لابتداء الغاية متعلقة بما عندها ، وجوز أن تتعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير موسى عليه السلام المستتر فى نودى أى نودى قريبا من شاطئ الوادى ، وجوز على الحالية أن تكون - من - بمعنى فى كما فى قوله تعالى : (ماذا خلقوا من الارض) أى نودى كائنا فى شاطئ الوادى ، وقوله تعالى : ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ فى موضع الحال من الشاطئ أو صلة لنودى ، والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التى إلى جنبها وتفتح باؤها كما فى القاموس ، وبذلك قرأ الأشهب العقيلى . ومسلمة . ووصفت بالبركة لما خصت به من آيات الله عز وجل وأنواره ه

وقيل : لما حوت من الارزاق والثمار الطيبة وليس بذاك ، وقوله سبحانه : ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله تعالى : (من شاطئ) أو الشجرة فيه بدل من شاطئ وأعيد الجار لأن البدل على تكرار العامل وهو بدل اشتمال فان الشاطئ كان مشتملا على الشجرة إذ كانت نابتة فيه ، و(من) هنا لاتحتمل أن تكون بمعنى فى كما سمعت فى من الأولى ، نعم جوز فيها أن تكون للتعليل كما فى قوله تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا) متعلقة بالمباركة أى البقعة المباركة لأجل الشجرة ، وقيل : يجوز تعلقها بالمباركة مع بقائها للابتداء على معنى أن ابتداء بركتها من الشجرة ، وكانت هذه الشجرة على ماروى عن ابن عباس عناباً ، وعلى ماروى عن ابن مسعود سمرة ، وعلى ماروى عن ابن جريج . والكلبى . ووهب عوسجة . وعلى ماروى عن قتادة . ومقاتل عليقة وهو المذكور فى التوراة اليوم ، وأن فى قوله تعالى : ﴿أَنْ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ تحتمل أن تكون تفسيرية وأن تكون مخففة من الثقيلة والأصل بأنه ، والجار متعلق بنودى ، والنداء قد يوصل بحرف الجر أنشد أبو على :

ناديت باسم ربيعة بن مكدم أن المنوه باسمه الموثوق

والضمير للشان وفسر الشان بقوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٣٠﴾ وقرأت فرقة (أنى) بفتح الهمز ، واستشكل بأن أن إن كانت تفسيرية ينبغى كسر إن وهو ظاهر وإن كانت مصدرية واسمها ضمير الشأن ، فكذلك إذ على الفتح تسبك مع مابعدها بمفرد وهو لايكون خبرا عن ضمير الشأن وخرجت على أن أن تفسيرية وأنى الخ فى تأويل مصدر معمول لفعل محذوف ، والتقدير أى ياموسى اعلم أنى أنا الله الخ ، وجاء فى سورة طه (نودى ياموسى إنى انا ربك) وفى سورة النمل (نودى أن بورك من فى النار) وماهنا غير ذلك بل مافى كل غير مافى الآخر فاستشكل ذلك ه

Marfat.com

وأجيب بأن المغايرة إنما هى فى اللفظ ، وأما فى المعنى المراد فلا مغايرة ، وذهب الامام إلى أنه تعالى حكى فى كل من هذه السور بعض مااشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين مافى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف ما والظاهر أن النداء منه عز وجل من غير توسيط ملك ، وقد سمع موسى عليه السلام على ما تدل عليه الآثار كلاما لفظيا قيل : خلقه الله تعالى فى الشجرة بلا اتحاد وحلول ، وقيل : خلقه فى الهواء كذلك وسمعه موسى عليه السلام من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات ، وأنا وإن كان كل أحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه *

وذهب الشيخ الاشعرى . والامام الغزالى إلى أنه عليه السلام سمع كلامه تعالى النفسى القديم بلاصوت ولا حرف ، وهذا كما ترى ذاته عز وجل بلا كيف ولا كم ، وذكر بعض العارفين أنه إنما سمع كلامه تعالى اللفظى بصوت وكان ذلك بعد ظهوره عزوجل بماشاء من المظاهر التى تقتضيها الحكمة وهو سبحانه مع ظهوره تعالى كذلك باق على إطلاقه حتى عن قيد الاطلاق ، وقد جاء فى الصحيح أنه تعالى يتجلى لعباده يوم القيامة فى صورة ، فيقول : أنا ربكم فينكرونه ثم يتجلى لهم بأخرى فيعرفونه ، والله تعالى وصفاته من وراء حجب العزة والعظمة والجلال فلايحدثن الفكر نفسه بأن يكون له وقوف على الحقيقة بحال من الأحوال *

مرام شط مرمى العقل فيه ودون مداه بيد لاتبيد

وذكر بعض السلفيين أنه عليه السلام إنما سمع كلامه تعالى اللفظى بصوت منكر الظهور فى المظاهر عادا القول به من أعظم المناكر ، ولابن القيم كلام طويل فى تحقيق ذلك ، وقد قدمنا لك فى المقدمات مايتعلق بهذا المقام فتذكر والله تعالى ولى الافهام ، وقال الحسن : إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداء الوحى لا نداء الكلام ولم يرتض ذلك العلماء الأعلام لما فيه من مخالفة الظاهر وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الانبياء عليهم السلام ، ووجه الاختصاص على القول بأنه سمع كلامه تعالى الازلى بلا حرف ولاصوت ظاهر ، وكذا على القول بأنه عليه السلام سمع صوتا دالا على كلامه تعالى بلا واسطة ملك أو كتاب سواء كان من جانب واحد لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ماهو شان سماعنا أو من جميع الجهات لما فى كل من خرق العادة ، وأما وجهه عند القائلين بأن السماع كان بعد التجلى فى المظهر فكذلك أيضا ان قالوا بأن هذا التجلى لم يقع لأحد من الانبياء عليهم السلام سوى موسى . ثم ان علمه عليه السلام بأن الذى ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقا منه سبحانه فيه ، وقيل : بالمعجزة ، وأوجب المعتزلة أن يكون حصوله بها فمنهم من عينها ومنهم من لم يعينها زعما منهم أن حصول العلم الضرورى ينافى التكليف ، وفيه بحث *

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على أن ياموسى والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصيحة مفصحة عن جمل حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فألقاها فصارت حية فاهتزت فلما رآها تهتز وتتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ هى حية لخلاء العين لا تؤذى كثيرة فى الدور ، والتشبيه بها باعتبار سرعة حركتها وخفتها لا فى هيئتها وجثتها . فلا يقال : إنه عليه السلام لما ألقاها صارت ثعبانا عظيما فكيف يصح تشبيهها بالجان ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون المراد تشبيهها بها فى الهيئة والجثة ولاضير فى ذلك لأن

Marfat.com

لها أحوالا مختلفة تدق فيها وتغاظ ، وقيل : الجان يطلق على ماعظم من الحيات فيراد عند تشبيهها بها فى ذلك والاولى ماذكر أولا ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا ﴾ منهزما من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى ولم يرجع ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ أى نودى أو قيل : ياموسى ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ٣١ ﴾ من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ﴾ أى أدخلها ﴿ فِى جَيْبِكَ ﴾ هو فتح الجبة من حيث يخرج الرأس ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أى عيب ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أى من أجل المخافة ، قال مجاهد . وابن زيد . أمره سبحانه بضم عضده وذراعه وهو الجناح إلى جنبه ليخف بذلك فزعه ومن شان الانسان إذا فعل ذلك فى وقت فزعه أن يقوى قلبه ، وقال الثورى : خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوء فامره سبحانه أن يعيد يده إلى جنبه لتعود إلى حالتها الأولى فيعلم أنه لم يكن ذلك سوءاً بل آية من الله عز وجل ، وقريب منه ماقيل : المعنى إذا هالك أمر لما يغلب من شعاعها فاضممها اليك يسكن خوفك . وفى الكشاف فيه معنيان : أحدهما أن موسى عليه السلام لما قلب الله تعالى العصاحية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشىء فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فادخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران : اجتناب ماهو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد بالجناح اليد لأن يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه ، والثانى أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصاحية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان اليه مشمران . ومعنى من الرهب من أجل الرهب أى إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك ، جعل الرهب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه اليه ، ومعنى (واضمم اليك جناحك) وقوله تعالى: (اسلك يدك فى جيبك) على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى اخفاء الرعب اه ، وضم الجناح على الثانى كناية عن التجلد والضبط نحو قوله :

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيك

وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف ، وهو فى الاصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة ثم كثر استعماله فى التجلد وضبط النفس حتى صار مثلا فيه وكناية عنه ، وعليه يكون تتميما لمعنى (إنك من الآمنين) وهذا مأخوذ من كلام أبى على الفارسى فانه قال : هذا أمر منه سبحانه بالعزم على ماأراده منه وحض على الجد فيه لئلا يمنعه الجد الذى يغشاه فى بعض الاحوال عما أمر بالمضى فيه . وليس المراد بالضم الضم المزيل للفرجة بين الشيئين وهو أبعد عن المناقشة مما ذكره الزمخشرى . ومثله فى البعد عن المناقشة ماقاله البقاعى :من أنه أريد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه عند خروج يده بيضاء حتى لايحذر ولايضطرب من الخوف . وأراد باحد التفسيرين الوجه الاول لأن المعنى عليه أدخل يدك اليمنى تحت عضدك اليسرى ، وقال بعضهم: إن المعنى اضمم يديك المبسوطتين بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن أو بادخالهما فى

Marfat.com

الجيب . وظاهره أنه أريد بالجناح الجناحان ، وقد صرح الطبرسى بذلك فى نحو ماذكر وقال : إنه قد جاء المفرد مرادا به التثنية كما فى قوله :

يداك يد احداهما الجود كله وراحتك اليسرى طعان تغامره

فان المعنى يداك يدان بدلالة قوله إحداهما . وفى الكشاف أيضا من بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير . وأنهم يقولون : أعطنى ما فى رهبك ، وليت شعرى كيف صحته فى اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات التى ترضى عربيتهم ؟ ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل؟على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمين لها اه . وما أشار اليه من أن ذاك لا يطابق بلاغة التنزيل مما لا ريب فيه فان الذاهبين اليه قالوا : المعنى عليه واضمم اليك يدك مخرجة من الكم لأن يده كانت فى الكم ؛ وهو معنى كما ترى ولفظه أقصر منه فى الافادة . وأما أمر سماعه عن الأثبات فقد تعقبه فى البحر بأنه مروى عن الأصمعى وهو ثقة ثبت . وقال الطيبى : قال محيى السنة : قال الأصمعى : سمعت بعض الأعراب يقول : أعطنى ما فى رهبك أى ما فى كمك . وزعم بعضهم أن استعمال الرهب فى الكم لغة بنى حنيفة أيضا وهو عندهم وكذا عند حمير بفتح الراء والهاء . والحزم عندى عدم الجزم بثبوت هذه اللغة . وعلى تقدير الثبوت لاينبغى حمل ما فى التنزيل الكريم عليها . والظاهر أن من الرهب متعلق باضمم وقال أبو البقاء : هو متعلق بولى . وقيل بمدبرا . وقيل بمحذوف : أى تسكن من الرهب . وقيل باضمم . ولا يخفى ما فى تعلقه بسوى اضمم وإن أشار إلى تعلقه بولى أو مدبرا كلام ابن جريج على ما أخرجه عنه ابن المنذر حيث جعل الآية من التقديم والتأخير . والمراد ولى مدبرا من الرهب . وقرأ الحرميان : (من الرهب) بفتح الراء والهاء ، وأكثر السبعة بضم الراء وإسكان الهاء . وقرأ قتادة ، والحسن ، وعيسى ، والجحدرى بضمهما والكل لغات ﴿فَذَانِكَ﴾ أى العصا واليد والتذكير لمراعاة الخبر وهو قوله تعالى : ﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ وقيل : الاشارة إلى انقلاب العصا حية بعد إلقائها وخروج اليد بيضاء بعد إدخالها فى الجيب فأمر التذكير ظاهر ، والبرهان الحجة النيرة وهو فعلان لقولهم : ابره الرجل إذا جاء بالبرهان من بره الرجل اذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء : برهاء وبرهرهة .

وقال بعضهم : هو فعلان من البره بمعنى القطع فيفسر بالحجة القاطعة ، وقيل: هو فعلال لقولهم برهن ونقل عن الأكثر أن برهن مولد بنوه من لفظ البرهان، وقرأ أبو عمرو وابن كثير (فذانك) بتشديد النون وهى لغة فيه، فقيل: إنه عوض من الألف المحذوفة من ذا حال التثنية لألفها نون وأدغمت ، وقال المبرد : إنه بدل من لام ذلك كأنهم أدخلوها بعد نون التثنية ، ثم قلبت اللام نونا لقرب المخرج وأدغمت وكان القياس قلب الأولى لكنه حوفظ على علامة التثنية ، وقرأ ابن مسعود . وعيسى . وأبو نوفل . وابن هرمز . وشبل . فذانيك بياء بعد النون المكسورة وهى لغة هذيل ، وقيل: بل لغة تميم . ورواها شبل عن ابن كثير ، وعنه أيضا فذانيك بفتح النون قبل الياء على لغة من فتح نون التثنية نحو قوله :

على أحوذيين استقلت عشية فما هى إلا لمحة وتغيب

Marfat.com

وعن ابن مسعود أنه قرأ بتشديد النون مكسورة بعدها ياء ، قيل وهى لغة هذيل ، وقال المهدوى: بل لغتهم تخفيفها و(من) فى قوله تعالى : ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان من ربك و(إلى) فى قوله سبحانه : ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ متعلق بمحذوف أيضاً هو على مايقتضيه ظاهر كلام بعضهم صفة بعد صفة له أى واصلان اليهم ، وعلى مايقتضيه ظاهر كلام آخرين حال منه أى مرسلا أنت بهما اليهم ٥

وفى البحر أنه متعلق بمحذوف دل عليه المعنى تقديره اذهب إلى فرعون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى فرعون وملأه ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك بهاتين المعجزتين الباهرتين اليهم ، والكلام فى كانوا يعلم مما تقدم فى نظائره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ﴾ لذلك ﴿أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلتها ، والمراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد لابلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء من الارسال ، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استعفى ربه سبحانه من ذلك . وفى التوراة التى بأيديهم اليوم أنه قال يارب ابعث من أنت باعثه وأكد طلب التأييد بقوله :

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى عونا كما روى عن قتادة واليه ذهب أبو عبيدة وقال : يقال ردأته على عدوه أعنته . وقال أبو حيان : الردء المعين الذى يشتد به الأمر فعل بمعنى مفعول فهو اسم لما يعان به كما أن الدفء اسم لما يتدفأ به قال سلامة بن جندل :

وردّنى كل أبيض مشرفى ٥ شديد الحد عضب ذى فلول

ويقال : ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشبة لئلا يسقط . وفى قوله : (أفصح منى) دلالة على أن فيه عليه السلام فصاحة ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته ، وقرأ أبو جعفر . ونافع . والمدنيان رداً بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الدال . والمشهور عن أبى جعفر أنه قرأ بالنقل ولاهمز ولاتنوين . ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف . وجوز فى ردا على قراءه التخفيف كونه منقوصا بمعنى زيادة من رديت عليه إذا زدت ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ أى يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار ، فالتصديق مجاز عن التلخيص المذكور الجالب للتصديق لأنه كالشاهد لقوله ، وإسناده إلى هرون حقيقة ، ويرشد إلى ذلك وأخى هرون الخ لأن فضل الفصاحة إنما يحتاج اليه لمثل ما ذكر لا لقوله صدقت أو أخى موسى صادق فان سحبان وباقلا فيه سواء ، أو يصل جناح كلامى بالبيان حتى يصدقنى القوم الذين أخاف تكذيبهم فالتصديق على حقيقته وإنما أسند إلى هرون عليه السلام لأنه ببيانه جلب تصديق القوم ، ويؤيد هذا قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ لدلالته على أن التصديق على الحقيقة . وقيل : تصديق الغير بمعنى إظهار صدقه ، وهو كما يكون بقول هو صادق يكون بتأييده بالحجج ونحوها كتصديق الله تعالى للانبياء عليهم السلام بالمعجزات . والمراد به هنا ما يكون بالتأييد بالحجج ، فالمعنى يظهر صدقى بتقرير الحجج وتزييف الشبه إنى أخاف أن يكذبون ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة . وعليه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فى الطرف أو فى الاسناد . وتعقب بانه لا يخفى أن صدقه معناه إما قال : إنه صادق أو قال له : صدقت ، فاطلاقه على غيره الظاهر أنه مجاز ، وجملة

Marfat.com

يصدقنى تحتمل أن تكون صفة لردءا ، وأن تكون حالا ، وأن تكون استئنافا . وقرأ أكثر السبعة (يصدقنى) بالجزم على أنه جواب الامر ه

وزعم بعضهم أن الجواب على قراءة الرفع محذوف . ويرد عليه أن الامر لا يلزم أن يكون له جواب فلا حاجة إلى دعوى الحذف ، وقرأ أبى . وزيد بن على رضى الله تعالى عنهم (يصدقونى) بضمير الجمع وهو عائد على فرعون وملئه لا على هرون والجمع للتعظيم كما قيل ، والفعل على ما نقل عن ابن خالويه مجزوم فقد جعل هذه القراءة شاهدا لمن جزم من السبعة يصدقنى وقال لأنه لو كان رفعا لقيل يصدقوننى ، وذكر أبو حيان بعد نقله أن الجزم على جواب الامر والمعنى فى يصدقون أرج تصديقهم أياى فتأمل ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ اجابة لمطلوبه وهو على ما قيل راجع لقوله (أرسله معى) الخ والمعنى سنقويك به ونعينك على ان شد عضده كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشتد بشدة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والجملة تشتد بشدة اليد ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول بأخيك فيما جعل كناية أو على أن ذلك خارج مخرج الاستعارة التمثيلية شبه حال موسى عليه السلام فى تقويته بأخيه بحال اليد فى تقويتها بعضد شديد ، وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب اطلاق السبب على المسبب بمرتبتين بأن يكون الاصل سنقويك به ثم سنؤيدك ثم سنشد عضدك به ، وقرأ زيد بن على ، والحسن عضدك بضمتين ، وعن الحسن أنه قرأ بضم العين واسكان الضاد ، وقرأ عيسى بفتحهما ، وبعضهم بفتح العين وكسر الضاد ، ويقال فيه عضد بفتح العين وسكون الضاد ولم أعلم أحدا قرأ بذلك ، وقوله تعالى: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى تسلطا عظيما وغلبة راجع على ما قيل أيضا لقوله (إنى أخاف أن يكذبون) وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ تفريع على ما حصل من مراده أى لا يصلون اليكما باستيلاء أو محاجة ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع أخر أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطكما بآياتنا أو بسلطانا لما فيه من معنى التسلط والغلبة أو بمعنى لا يصلون أى تمتنعون منهم بها أو بحرف النفى على قول بعضهم بجواز تعلق الجار به ، وقال الزمخشرى: يجوز أن يكون قسما جوابه لا يصلون مقدما عليه أو هو من القسم الذى يتوسط الكلام ويقحم فيه لمجرد التأكيد فلا يحتاج إلى جواب أصلا ، ويرد على الاول أن جواب القسم لا يتقدمه ولا يقترن بالفاء أيضا فلعله أراد ان ذلك دال على الجواب وأما هو فمحذوف إلا أنه تساهل فى التعبير ، وجوز أن يكون صلة لمحذوف يفسره الغالبون فى قوله سبحانه : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ٣٥ ﴾ أو صلة له واللام فيه للتعريف لا بمعنى الذى أو بمعناه على رأى من يجوز تقديم ما فى حيز الصلة على الموصول إما مطلقا أو إذا كان المقدم ظرفا وتقديمه إما للفاصلة أو للحصر ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أى واضحات الدلالة على صحة رسالته عليه السلام منه عزوجل ، والظاهر أن المراد بالآيات العصا واليد اذهما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك وقد تقدم فى سورة طه سر التعبير عنهما بصيغة الجمع ﴿ قَالُوا مَا هَـٰذَآ ﴾ الذى جئت به ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أى سحر تختلقه لم يفعل قبله مثله فالافتراء بمعنى الاختلاق لا بمعنى الكذب أو سحر تتعلمه من غيرك ثم تنسبه إلى الله تعالى كذبا فالافتراء بمعنى الكذب لا بمعنى الاختلاق والصفة على هذين الوجهين مخصصة ، وقيل : المراد بالافتراء

Marfat.com

التمويه أى هو سحر مموه لاحقيقة له كسائر أنواع السحر . وعليه تكون الصفة مؤكدة والافتراء ليس على حقيقته كما فى الوجه الاول . والحق أن من انواع السحر ماله حقيقة فتكون الصفة مخصصة أيضا ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى نوع السحر أو ماصدر من موسى عليه السلام على أن الكلام على تقدير مضاف أى بمثل هذا أو الاشارة إلى ادعاء النبوة ونفيهم السماع بذلك تعمد للكذب فقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبل بالبينات وما بالعهد من قدم . ويحتمل أنهم ارادوا نفى سماع ادعاء النبوة على وجه الصدق عندهم وكانوا ينكرون أصل النبوات ولا يقولون بصحة شىء منها كالبراهمة وكثير من الافرنج ومن لحس من فضلاتهم اليوم . والباء كما فى مجمع البيان إما على أصلها أو زائدة أى ماسمعنا هذا ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٣٦﴾ أى واقعا فى أيامهم ، فالجار والمجرور فى موضع الحال من هذا بتقدير مضاف والعامل فيه سمعنا .

وجوز أن يكون بهذا على تقدير بوقوع هذا ، ويكون الجار متعلقا بذلك المقدر ، وأشاروا بوصف آبائهم بالأولين إلى انتفاء ذلك منذ زمان طويل ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يريد عليه السلام بالموصول نفسه ، وقرأ ابن كثير (قال) بغير واو لأنه جواب لقولهم : إنه سحر والجواب لا يعطف بواو ولا غيرها ، ووجه العطف فى قراءة باقى السبعة أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر المحكى له بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للانسان بها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله تعالى وكرمه ، ووجه إرادة العاقبة المحمودة من مطلق العاقبة إنها هى التى دعا الله تعالى اليها عباده ، وركب فيهم عقولا ترشدهم إليها ومكنهم منها وأزاح عللهم ووفر دواعيهم وحضهم عليها فكأنها لذلك هى المرادة من جميع العباد والغرض من خلقهم ، وهذا ما اختاره ابن المنير موافقا لما عليه الجماعة ، وحكى أن بعضهم قال له : مايمنعك أن تقول فهم عاقبة الخير من إضافة العاقبة إلى ذويها باللام كما فى هذه الآية ، وقوله تعالى : (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) ، وقوله سبحانه : (والعاقبة للمتقين) إذ عاقبة الخير هى التى تكون لهم ، وأما عاقبة السوء فعليهم لالهم فقال له : لقد كان لى فى ذلك مقال لولا وروده مثل أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ، ولم يقل وعليهم فاستعمال اللام مكان على دليل على الغاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير ، وقد يقال : إن اللام ظاهرة فى النفع ويكفى ذلك فى انفهام كون المراد بالعاقبة عاقبة الخير ، ويلتزم فى نحو الآية التى أوردها ابن المنير كونها من باب التهكم ، وهذا نظير ماقالوا : إن البشارة فى الخير ، وبشرهم بعذاب أليم من باب التهكم .

وقال الطيبى انتصاراً للبعض أيضا : قلت : الآية غير مانعة عن ذلك فان قرينة اللعنة والسوء مانعة عن إرادة الخير وإنما أتى بلهم ليؤذن بأنهما حقان ثابتان لهم لازمان إياهم ، ويعضده التقديم المفيد للاختصاص فتدبر وقرأ حمزة ، والكسائى . (يكون) بالياء التحتية ، لأن المرفوع مجازى التأنيث ومفصول عن رافعه .

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٣٧﴾ أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور ، وحاصل كلام موسى عليه السلام ربى أعلم منكم بحال من أهله سبحانه للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى ، ولو كان كما تزعمون كاذبا ساحرا مفتريا لما أهله لذلك لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء الساحرين

Marfat.com

ولا يفلح عنده الظالمون ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قاله اللعين بعدما جمع السحرة وتصدى للمعارضة ، والظاهر أنه أراد حقيقة مايدل عليه كلامه وهو نفى علمه بأله غيره دون وجوده فان عدم العلم بالشئ لايدل على عدمه ، ولم يجزم بالعدم بأن يقول : ليس لكم إله غيرى مع أن كلا من هنا وماقاله كذب ، لأن ظاهر قول موسى عليه السلام له لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر يقتضى أنه كان عالما بأن إلههم غيره ، وماتركه أوفق ظاهرا بما قصده من تبعيد قومه عن اتباع موسى عليه السلام اختيارا لدسيسة شيطانية وهو إظهار أنه منصف فى الجملة ليتوصل بذلك إلى قبولهم مايقوله لهم بعد فى أمر الإله وتسليمهم إياه له اعتماداً على مارأوا من إنصافه فكأنه قال ماعلمت فى الأزمنة الماضية لكم إلها غيرى كما يقول موسى ، والأمر محتمل وسأحقق لكم ذلك .

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أى اصنع لى آجرا ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أى بناء مكشوفا عاليا من صرح الشىء إذا ظهر ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾ أى أطلع وأصعد فأفتعل بمعنى الفعل المجرد كما فى البحر وغيره ، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الذى يذكر أنه إلهه وإله العالمين ، كأنه يوهم قومه أنه تعالى لو كان كما يقول موسى لكان جسما فى السماء كون الأجسام فيها يمكن الرقى اليه ثم قال : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما يذكر تأكيدا لما أراد وإعلاما بأن ترجيه الصعود إلى إله موسى عليه السلام ليس لأنه جازم بأنه هناك ، والأمر بجعل الصرح وبنائه لايدل على أنه بنى ، وقد اختلف فى ذلك فقيل بناه وذكر من وصفه ما الله عز وجل أعلم به ، وقيل لم يبن وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمره للتلبيس على قومه وإيهامه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر ، ويكون ما ذكر ذكراً لأحد طرق التحقيق فيتمكن من أن يقول بعده حققت الامر بطريق آخر فعلمت أن ليس لكم إله غيرى وأن موسى كاذب فيما يقول ، وعلى الاول يحتمل أن يكون صعد الصرح وحده أو مع من يأمنه على سره وبقى مابقى ثم نزل اليهم فقال لهم : صعدت إلى إله موسى وحققت إن ليس الامر كما يقول وعلمت أن ليس لكم إله غيرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : لما بنى له الصرح ارتقى فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت اليه وهى متلطخة دماً فقال قتلت إله موسى ، وهذا إن صح من باب التهكم بالفعل ولا أظنه يصح . وأيا ما كان فالقوم كانوا فى غاية الغباوة والجهل وإفراط العماية والبلادة وإلا لما نفق عليهم مثل هذا الهذيان . ولله تعالى خواص فى الازمنة والامكنة والاشخاص . ولا يبعد أن يقال كان فيهم من ذوى العقول من يعلم تمويهه وتلبيسه ويعتقد هذيانه فيما يقول إلا أنه نظم نفسه فى سلك الجهال ولم يظهر خلافا لما عليه اللعين بحال من الاحوال وذلك إما للرغبة فيما لديه أو للرهبة من سطوته واعتدائه عليه وكم رأينا عاقلا وعالما فاضلا يوافق لذلك الظلمة الجبابرة ويصدقهم فيما يقولون وإن كان مستحيلا أو كفراً بالآخرة .

وكان قول اللعين لموسى عليه السلام لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين بعد هذا القول المحكى ههنا بأن يكون قاله وأردفه باخبارهم على البت أن لا إله لهم غيره ، ثم هدد موسى بالسجن إن بدا منه مايشعر بخلافه ، وهذا وجه فى الآية لايخلو عن لطف وإن كان فيه نوع خفاء وفيها أوجه أخر . الأول أنه أراد بقوله : (ماعلمت لكم من إله غيرى) نفى العلم دون الوجود كما فى ذلك الوجه إلا أنه لم ينف الوجود لأنه لم

Marfat.com

يكن عنده مايقتضى الجزم بالعدم وأراد بقوله إنى لأظنه من الكاذبين إنى لأظنه كاذبا فى دعوى الرسالة من الله تعالى ، وأراد بقوله : ياهامان أوقدلى على الطين الخ اعلام الناس بفساد دعواه تلك بناء على توهمه أنه تعالى ان كان كان فى السماء بأنه لو كان رسولا منه تعالى فهو ممن يصل إليه ، وذلك بالصعود اليه وهو مما لايقوى عليه الانسان فيكون من نوع المحال بالنسبة اليه فما بنى عليه وهى الرسالة منه تعالى مثله ، فقوله : (فاجعل لى صرحا) لاظهار عدم إمكان الصعود الموقوف عليه صحة دعوى الرسالة فى زعمه ولعل للتهكم *

الثانى أنه أراد أيضا نفى العلم بالوجود دون الوجود نفسه لكنه كان فى نفى العلم ملبسا على قومه كاذبا فيه حيث كان يعلم أن لهم إلها غيره هو إله الخلق أجمعين ، وهو الله عز وجل وأراد بقوله : (وإنى) الخ انى لأظنه كاذبا فى دعوى الرسالة كما فى سابقه ، وأراد بقوله ياهامان الخ طلب أن يجعل له مايزيل به شكه فى الرسالة ، وذلك بأن يبنى له رصداً فى موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب الدالة على الحوادث الكونية بزعمه فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله تعالى اياه *

وتعقب بأنه لايناسب قوله (فأطلع إلى إله موسى) إلا أن يراد فأطلع على حكم إله موسى باوضاع الكواكب والنظر فيها هل أرسل موسى كما يقول أم لا ؟ فيكون الكلام على تقدير مضاف و(إلى) فيه بمعنى على ، وجوز على هذا الوجه أن يكون قد أراد باله موسى الكواكب فكأنه قال لعلى أصعد الى الكواكب التى هى إله موسى فأنظر هل فيها مايدل على إرسالها إياه أو لعلى أطلع على حكم الكواكب التى هى إله موسى فى أمر رسالته وهو كما ترى ، وبالجملة هذا الوجه مما لاينبغى أن يلتفت اليه . الثالث أنه أراد بنفى علمه باله غيره نفى وجوده وبظنه كاذبا ظنه كاذبا فى إثباته الها غيره ويفسر الظن باليقين كما فى قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرد

فاثبات الظن المذكور لايدفع إرادة ذلك النفى ، وجوز بعضهم إبقاءه على ظاهره ، وقال فى دفع المنافاة : يمكن أن يقال : الظاهر أن كلامه الأول كان تمويها وتلبيسا على القوم ، والثانى كان مواضعة مع صاحب سره هامان فاثبات الظن فى الثانى لايدفع أن يكون العلم فى الأول لنفى المعلوم ، وفيه أنه يأبى ذلك سوق الآية ، والفاء فى فأوقدلى وطلبه بناء الصرح راجيا الصعود إلى إله موسى عليه السلام أراد به التهكم كأنه نسب إلى موسى عليه السلام القول بأن الهه فى السماء فقال : (ياهامان اجعل لى صرحا) لأصعد إلى إله موسى متهكما به ، وهذا نظير ماإذا أخبرك شخص بحياة زيد وأنه فى داره ، وأنت تعلم خلاف ذلك فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكما به ياغلام أسرج لى الدابة لعلى أذهب إلى فلان وأستأنس به بل ما قاله فرعون أظهر فى التهكم مما ذكر فطلبه بناء الصرح بناء على هذا لايكون منافيا لما ادعاه أولا وآخراً من العلم واليقين *

وقال بعضهم فى دفع ماقيل : من المنافاة : إنها إنما تكون لو لم يكن قوله : لعلى أطلع الخ على طريق التسليم والتنزل ، وقال آخر فى ذلك : إن اللعين كان مشركا يعتقد أن من ملك قطراً كان الهه ومعبود أهله فما أثبته فى قوله : (لعلى أطلع) الخ الإله لغير مملكته ومانفاه الهها كما يشير اليه قوله لكم ولايخلو عن بحث *

وفى الكشاف القول بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادعاه من العلم واليقين إلا أنه قال قد خفيت على قومه

Marfat.com

لغباوتهم وبلههم أولم تخف عليهم ولـكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإذا فتح هذا الباب جاز ابقاء الظن على ظاهره من غير حاجة إلى دفع التناقض، والاولى عندى السعى فى دفع التناقض فاذا لم يمكن استندفى ارتـكاب المخذول إياه إلى جهله أوسفهه وعدم مبالاته بالقوم لغباوتهم أو خوفهم منه أونحو ذلك ، واعترض القول بأنه أراد بنفى علمه باله غيره نفى وجوده فقال فى التحقيق : وذكره غيره أيضا إنه غير سديد فان عدم العلم بالشىء لا يدل على عدمه لاسيما عدم علم شخص واحد . وقال القاضى البيضاوى : هذا فى العلوم الفعلية صحيح لانها لازمة لتحقق معلو ماتها فيلزم من انتفائها انتفاؤها ولا كذلك العلوم الانفعالية ورد بأن غرض قائل ذلك أن عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود فى الجملة ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب لأن بينهما ملازمة كلية على أنه لما كان من أقوى اسباب عدم العلم لأنه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود إذ لا يشترط فى فن البلاغة اللزوم العقلى بل العادى والعرفى كاف أيضا وقد يقول أحدمنا لا أعلم ذلك أى لو كان موجودا لعلمته إذا قامت قرينة وهذا الاستعمال شائع فى عرفى العرب والعجم عند العامة والخاصة ومنه قول المزكى : إذا سئل عن عدالة الشهود لا أعلم كيف ، وكان المخذول يدعى الالهية ، ثم الظاهر أن الـكلام على تقدير إرادة نفى الوجود كناية لا مجاز، وبالجملة ماذكر وجه وجيه وتعيين الاوجه مفوض إلى ذهنك والله تعالى الموفق *

واستدل بعض من يقول : إن الله تعالى فى السماء بالمعنى الذى أراده سبحانه فى قوله عز وجل: (أأمنتم من فى السماء) حسبما يقول السلف بهذه الآية ، ووجه ذلك بأن فرعون لو لم يسمع من موسى عليه السلام أن الهه فى السماء لما قال : فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى اله موسى فقوله ذلك دليل السماع إلا أنه اخطأ فى فهم المراد بما سمعه فزعم ان كونه تعالى فى السماء بطريق المظروفية والتمكن ونحوهما مما يكون للاجسام ، وأنت تعلم أن هذا الاستدلال فى غاية الضعف واثبات مذهب السلف لا يحتاج إلى أن يتمسك له بمثل ذلك وفى قول المخذول : أوقد لى على الطين والمراد به اللبن دون اصنع لى آجرا اشارة إلى أنه لم يكن لهامان علم بصنعة الآجر فأمره باتخاذه على وجه يتضمن التعليم ، وفى الآثار مايؤيد ذلك ، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال فرعون أول من أمر بصنعة الآجر وبنائه ، وأخرج هو وجماعة عن قتادة قال بلغنى أن فرعون أول من طبخ الآجر وصنع له الصرح . وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال ماعلمت ان احدا بنى بالآجر غير فرعون وفى أمره اياه وهو وزيره وردفه بعمل السفلة من الايقاد على الطين مناديا له باسمه دون تـكنية وتلقيب بيا دون مايدل على القرب فى وسط الـكلام دون أوله من الدلالة على تجبره وتعظمه مالا يخفى *

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ أى رأوا كل من سواهم حقيرا بالاضافة اليهم ولم يروا العظمة والـكبرياء الا لأنفسهم فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الاكثرون على أن المراد فى أرض مصر ، وقيل : المراد بها الجرم المعروف المقابل للسماء ، وفى التقييد بها تشنيع عليهم حيث استكبروا فيما هو أسفل الاجرام وكان اللائق بهم أن ينظروا إلى محلهم وتسفله فلا يستكبروا ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أى بغير الاستحقاق لما أن رؤيتهم تلك باطلة ولا تـكون رؤية الـكل حقيرا بالاضافة إلى الرائى ورؤية العظمة والـكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره حقا الا من الله عز وجل ، ومن هنا قال الزمخشرى : الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وكل مستكبر سواه

Marfat.com

عز وجل فاستكباره بغير الحق ، وفى الحديث القدسى « الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار » ﴿ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ ﴾ بالبعث للجزاء ، والظن قيل : إما على ظاهره أو عبر عن اعتقادهم به تحقيرا لهم وتمهيلا ، وقرأ حمزة . والكسائى . ونافع (لا يرجعون) بفتح الياء وكسر الجيم ه ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أى ألقيناهم وأغرقناهم فيه، وقد مر تفصيل ذلك ، وفى التعبير بالنبذ وهو إلقاء الشىء الحقير وطرحه لقلة الاعتداد به ولذلك قال الشاعر :

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا من نعالك باليا

استحقارا لهم ، وفى الكلام على ما قيل استعارة مكنية وتخييلية وذلك أنهم شبهوا فى الحقارة بنعال بالية واستعير لهم اسم النعال ثم حذف المستعار وبقى المستعار له وجعل النبذ قرينة على أنه حقيقة والمجاز فى التعلق على نحو ماقيل فى أظفار المنية نشبت بفلان ، وقال بعضهم : الاخذ وهو حقيقة فى التناول مجاز عن خلق الداعية لهم إلى السير إلى البحر ، والنبذ مجاز عن خلق الداعية لهم إلى دخوله ، وفى البحر أنه كناية عن ادخالهم فيه والأولى أن يكون الكلام من باب التمثيل كأنه عز وجل فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى اليم ، والظاهر أن الفاء الاولى سببية وليست لمجرد التعقيب وأما الثانية فللتعقيب إذا أبقى الاخذ على معنى التناول أو أريد به خلق الداعية إلى السير أونحوه أما إذا أريد به الاهلاك فهى للتفسير كما فى فاستجبنا له فنجيناه ونحوه ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ وبينها للناس ليعتبروا بها ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أى خلقناهم ﴿ أَئِمَّةً ﴾ قدوة للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال كما يؤذن بذلك قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أى إلى موجباتها من الكفر والمعاصى على أن النار مجاز عن ذلك أو على تقدير مضاف والمراد جعلهم ضالين مضلين والجعل هنا مثله فى قوله تعالى : (جعل الظلمات والنار) والآية ظاهرة فى مذهب أهل السنة من أن الخير والشر مخلوقان لله عز وجل وأولها المعتزلة تارة بأن الجعل فيها بمعنى التسمية مثله فى قوله تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) أى وسميناهم فيما بين الامم بعدهم دعاة إلى النار، وتارة بأن جعلهم كذلك بمعنى خذلانهم ومنعهم من اللطف والتوفيق للهداية والاول محكى عن الجبائى والثانى عن الكعبى ، وعن أبى مسلم أن المراد صيرناهم بتعجيل العذاب لهم أئمة أى متقدمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار وهذا فى غاية التعسف كما لايخفى ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ﴿ وَأُتْبِعْنَٰهُمْ ﴾ ﴿ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ﴾ التى فتنتهم ﴿ لَعْنَةً ﴾ طردا وابعادا أو لعنا من اللاعنين حيث لاتزال الملائكة عليهم السلام تلعنهم وكذا المؤمنون خلفا عن سلف وذلك إما بدخولهم فى عموم من يلعنونهم من الظالمين وإما بالتنصيص عليهم نحو لعن الله تعالى فرعون وجنوده ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ من المطرودين المبعدين يقال : قبحه الله تعالى بالتخفيف أى نحاه وأبعده عن كل خير كما قال الليث ، ولايتكرر مع اللعنة المذكورة قيل : لأن معناها الطرد أيضاً لان ذلك فى الدنيا وهذا فى الآخرة أو ذاك طرد عن رحمته التى فى الدنيا وهذا طرد عن الجنة أو على هذا يراد باللعنة فيما تقدم ماتأخر مع أن من المطرودين معناه أنهم من الزمرة المعروفين بذلك وهو أبلغ وأخص ، وقال أبو عبيدة . والاخفش . من المقبوحين أى من المهلكين ، وعن ابن عباس أى من المشوهين فى

Marfat.com

الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون وهذا المعنى هو المتبادر إلا أن فيه أن فعل قبح عليه لازم فبناء اسم المفعول منه غير ظاهر ، وقد يقال : إذا صح هذا التفسير عن ابن عباس التزم القول بأنه سمع أيضا ، وجوز أن يكون ذلك تفسيرا بما هو لازم فى الجملة ، ويوم القيامة متعلق بالمقبوحين أو بمحذوف يفسره ذلك على ما علمت آنفا فى نظيره ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ، وعبد بن حميد عن قتادة ما هو ظاهر فى أنه معطوف على هذه الدنيا وهو عطف على المحل والمروى عن ابن جريج أظهر فى ذلك وكلاهما فى الدر المنثور ، والظاهر ما سمعته أولا ●

وهذه الآية أظهر دليل على عدم نجاة فرعون يوم القيامة وأنه ملعون مبعد عن رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة فان ضمائر جمع الغائب فيها راجعة إلى فرعون وجنوده ويكاد ينتظم من التزم ارجاعها إلى الجنود فى الجنود ، وفى الفتاوى الحديثية للعلامة ابن حجر روى عدى ، والطبرانى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال «خلق الله تعالى يحيي بن زكريا فى بطن أمه مؤمنا وخلق فرعون فى بطن أمه كافر» ●

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أى التوراة وهو على ما قال أبو حيان أول كتاب فصلت فيه الاحكام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للاشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة اليها تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فان إهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار ، ومن غفل عن هذا قال : الأولى أن تفسر القرون الاولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السلام ويقابلها الثانية وهى من آمن به عليه السلام ، وقيل : المراد بها ما يعم من لم يؤمن بموسى من فرعون وجنوده والامم المهلكة من قبل ، وليس بذاك ، وما مصدرية أى آتيناه ذلك بعد إهلاكنا القرون الاولى ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أى أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والادراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر ويطلق على نفس العين ويجمع على أبصار والاول يجمع على بصائر ، والمراد بالناس قيل أمته عليه السلام ، وقيل ما يعمهم ومن بعدهم ، وكون التوراة بصائر لمن بعث اليه نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لتضمنها ما يرشدهم إلى حقية بعثته عليه الصلاة والسلام ، أو يزيدهم علما إلى علمهم . وتعقب بأنه يلزم على هذا الحض على مطالعة التوراة والعلم بما فيها ، وقد صح أن عمر رضى الله تعالى عنه استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جوامع كتبها من التوراة ليقرأها ويزداد علما إلى علمه فغضب صلى الله تعالى عليه وسلم حتى عرف فى وجهه ثم قال : «لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى» فرمى بها عمر رضى الله تعالى عنه من يده وندم على ذلك ●

وأجيب بأن غضبه صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك لما أن التوراة التى بأيدى اليهود إذ ذاك كانت محرفة وفيها الزيادة والنقص وليست عين التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام وكان الناس حديثى عهد بكفر فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتها فى ذلك الزمان لأدى إلى فساد عظيم فالنهى عن قراءتها حيث الاسلام حديث والخروج عن الكفر جديد لا يدل على أنها ليست فى نفسها بصائر مشتملة على ما يرشد إلى حقية بعثته

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم ويزيد علما بصحة ماجاء به . ومما يدل على حل الرجوع اليها فى الجملة قوله تعالى : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . وكعب الاحبار ينقلون منها ما ينقلون من الاخبار ولم ينكر ذلك ولا سماعه أحد من أساطين الاسلام ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأخذه منها وقد رجع اليها غير واحد من العلماء فى إلزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض عباراتها فى إثبات حقية بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم ، والذى أميل اليه كون المراد بالناس بنى إسرائيل فانه الذى يقتضيه المقام *

وأما مطالعة التوراة فالبحث فيها طويل ، وفى تحفة المحتاج للمولى العلامة ابن حجر عليه الرحمة يحرم على غير عالم متبحر مطالعة نحو توراة علم تبدلها أو شك فيه وهو أقرب إلى التحقيق ومن سبر التوراة التى بأيدى اليهود اليوم رأى أكثرها مبدلا لاتوافق بينه وبين مافى القرآن العظيم أصلا وهو المعول عليه ﴿ وَهُدًى ﴾ أى إلى الشرائع التى هى الطرق الموصلة إلى الله عز وجل ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: بمقتضى وعده سبحانه فعموم رحمته بهذا المعنى لا ينافى أن من الناس من هو كافر بها وهو غير مرحوم ، وانتصاب المتعاطفات على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أى ذا بصائر الخ ، وجوز أبو البقاء انتصابها على العلة أى آتيناه الكتاب لبصائر وهدى ورحمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣ ﴾ أى كى يتذكروا بناء على أن لعل للتعليل ؛ فقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق السدى عن أبى مالك قال لعل فى القرآن بمعنى كى غير آية فى الشعراء (لعلكم تخلدون) وحكى الواقدى عن البغوى أنه قال جميع مافى القرآن من لعل للتعليل الا (لعلكم تخلدون) فانها فيه للتشبيه ، والمشهور أنها للترجى . ولما كان محالا عليه عز وجل جعل بعضهم الكلام من باب التمثيل والمراد آتيناه ذلك ليكونوا على حالة قابلة للتذكر كحال من يرجى منه الخير ، وبعض آخر صرف الترجى إلى المخاطبين فهو منهم لا منه تعالى ، وجعل الزمخشرى فى ذلك استعارة تبعية حيث شبه الارادة بالترجى ليكون كل منهما طلب الوقوع ، ورد بأن فيه لزوم تخلف مراد الله تعالى عن ارادته لعدم تذكر الكل إلا أن يكون من قبيل اسناد ما للبعض إلى الكل ، وأنت تعلم أن الارادة عند المعتزلة قسمان: تفويضية ، وهى قد يتخلف المراد عنها ، وقسرية وهى لا يتخلف المراد عنها أصلا ، فمتى أريد القسم الأول منها هنا زال الاشكال إلا أن التقسيم المذكور خلاف المذهب الحق ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ شروع فى بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع زمان مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة متضمنا تحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله تعالى ببيان أن الوقوف على مافصل من الاحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لامحالة كذا قيل : ولا يخفى أن تعين كونه بوحى لا يتم الا بنفى كونه بالاستفاضة وكونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب المعاصرين له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال المشركون: (إنما يعلمه بشر) ولعله إنما لم يتعرض لنفى ذلك وتعرض لنفى ماهو أظهر انتفاء منه للاشارة إلى ظهور انتفاء ذلك والمبالغة فى دعوى ذلك حيث آذن بأن المحتاج إلى الاخبار بانتفائه ذانك الامران (١) دونه على أنه عز وجل قد نفى فى

(١) هكذا الاصل تنبه *

Marfat.com

موضع آخر كونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب ولعله يعلم منه انتفاء كونه بالاستفاضة وإن قلنا: إنه لا يعلم فدليله ظاهر جدا ، ولذا لم يتشبث بكون الوقوف بها أحد من المشركين فتدبر، والمعنى على ماذهب اليه بعضهم وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله تعالى فيه ألواح التوراة لموسى عليه السلام ، والكلام على هذا من باب حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه وهو عند قوم من باب اضافة الموصوف إلى الصفة التى جوزها الكوفيون كما فى مسجد الجامع ، والاصل فى الجانب الغربى فيتحد الجانب والغربى على هذا الوجه وهو بعض من الغربى على الوجه الاول ٭

﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أى عهدنا اليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإيتاء التوراة

﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى من جملة الحاضرين للوحى اليه أو الشاهدين على الوحى اليه عليه السلام وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ماجرى من أمر موسى فى ميقاته فتخبر به الناس ، فالشاهد من الشهادة إما بمعنى الحضور أو بمعناها المعروف واستشكل إرادة المعنى الاول بلزوم التكرار فانه قد نفى الحضور أولا فى قوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربى) وكذا إرادة المعنى الثانى بلزوم نحو ذلك لما أن نفى الحضور يستدعى نفى كونه من الشاهدين بذلك المعنى ، ومن هنا قيل : المراد من الأول نفى كونه ﷺ حاضرا بنفسه لغرض من الأغراض ، ومن الثانى نفى كونه عليه الصلاة والسلام من جماعة جىء بهم ليحضروا فيطلعوا على مايقع هناك لموسى عليه السلام لأن المراد بالشاهدين جماعة معهودون كان حالهم ذلك ٭

وقيل : المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام فقد جاء الشاهد اسما للملك كما فى القاموس فكأنه قيل: ما كنت حاضرا بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى أمر نبوته بالوحى وما كنت من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه عليهم السلام ولهم من الاطلاع على الحوادث ماليس لغيرهم من البشر حتى يكون لك علم بما وقع لموسى عليه السلام فتخبر به الناس ٭

وقال ابن عباس كما فى التفسير الكبير والبحر : التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت لماشاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى ، وقيل : وهو مختار أبى حيان إن المعنى وما كنت من الشاهدين بجميع ماأعلمناك به فهو نفى لشهادته عليه الصلاة والسلام جميع ماجرى لموسى عليه السلام فكان عموما بعد خصوص ، وقيل : المراد وما كنت من الشاهدين ذلك الزمان فيكون نفيا لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان أعم من أن يكون بجانب الغربى أو بغيره ، وحاصله نفى الوجود العينى إذذاك فيكون ترقيا فى النفى ٭

وقيل : المراد (وما كنت) إذ ذاك منتظما فى سلك من يتصف بالشهادة وهم الموجودون بالوجود العينى أينما كانوا وما آل له كما آل ماقبله وإن اختلفا فى طريق الإرادة وتعين كون الشهادة فيما قبله بمعنى الحضور ، ولعل ماقبله أظهر منه بل إذا ادعى مدع كونه أظهر من جميع ماقيل لم يبعد هذا ولا يخفى عليك حال تلك الأقوال ومافيها من القيل والقال ، وفى القلب من صحة نسبة ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اليه مافيه فتدبر جميع ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ﴿وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الانباء

Marfat.com

لاسيما على آخرهم الذين أنت فيهم فاقتضت الحكمة التشريع الجديد وقص الانباء على ماهى عليه فأوحينا اليك وقصصنا الأنباء عليك فحذف المستدرك أعنى أوحينا اكتفاء بذكر مايوجبه ويدل عليه من إنشاء القرون وتطاول الأمد ، وخلاصة المعنى لم تكن حاضراً لتعلم ذلك ولكن علمته بالوحى والسبب فيه تطاول الزمن حتى تغيرت الشرائع وعميت الانباء ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً ﴾ اى مقيما ﴿ فى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهم شعيب عليه السلام والمؤمنون نفى لاحتمال كون معرفته صلى الله تعالى عليه وسلم لبعض ماتقدم من القصة بالسماع ممن شاهد ذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم الدرس على معلمه ﴿ آيَـٰتِنَا ﴾ الناطقة بما كان لموسى عليه السلام بينهم وبما كان لهم معه إما حال من المستكن فى ثاويا أو خبر ثان لكنت ﴿ وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ لك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها والاستدراك كالاستدراك السابق إلا أنه لاحذف فيه ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أى وقت ندائنا موسى إنى أنا الله رب العالمين واستنبائنا إياه وارسالنا له إلى فرعون ﴿ وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وغيره لرحمة كائنة منالك وللناس *

وقيل أى علمناك رحمة ولعل الرحمة عليه مفعول ثان لعلم والمراد بها القرآن و ليست مفعولا له والمفعول الثانى ماذكر من القصة لما ستعرفه قريبا ان شاء الله تعالى ، وأما جعلها منصوبة على المصدرية لفعل محذوف فحاله غنى عن البيان والالتفات الى اسم الرب للاشعار بأن ذلك من آثار الربوبية وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالأضافة وقد اكتفى ههنا عن ذكر المستدرك بذكر ما يوجبه من جهته تعالي كما اكتفى فى الأول بذكر مايوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا على ماهو المقصود وإشعاراً بأنه المراد فيهما أيضا والله تعالى در شأن التنزيل وقوله سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متعلق بالفعل المعلل بالرحمة وهو يستدعى أن يكون الارسال بالقرآن أومافى معناه كتعليم القرآن دون تعليم ماذكر من القصة اذ لا يظهر حسن تعليله بالانذار ، وجوز أن يتعلق بالمستدركات الثلاث على التنازع *

وقرأ عيسى ، وأبو حيوة (رحمة) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والتقدير ولكن هو أوهذا أوهى أوهذه رحمة والضمير أو الاشارة قيل للارسال المفهوم من الكلام والتذكير والتأنيث باعتبار المرجع والخبر والخلاف فى الاولى مشهور ، وجوز أبو حيان أن يكون التقدير ولكن أنت رحمة ولتنذر على هذه القراءة متعلق بماهو صفة لرحمة وقوله جل وعلا: ﴿ مَا أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ صفة لقوما و(من) الاولى مزيدة للتأكيد وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦ ﴾ أى يتعظون بانذارك تعليل للانذار على القول بأن لعل للتعليل وأما على القول بأنها للترجى حقيقة أو مجازا فقيل هو فى موضع الصفة بتقدير القول أى لتنذر قوما مقولا فيهم لعلهم يتذكرون والمراد بهؤلاء القوم قيل العرب ، وظاهر الآية أنهم لم يبعث اليهم رسول قبل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أصلا وليس بمراد للاتفاق على أن اسمعيل عليه السلام كان مرسلا اليهم وكأنه لتطاول الامد بين بعثته عليه السلام وبعثة نبينا عليه الصلاة والسلام اذ بينهما أكثر من ألفى سنة (١) بكثير واندراس شرعه وعدم وقوف

(١) قوله أكثر من ألفى سنة الخ فى الحاوى للسيوطى مايدل على أن بينهما نحوا من ثلاثة ألاف سنة اه منه

Marfat.com

الاكثرين فى أغلب هذه المدة على حقيقته قيل : ذلك ، وقيل : إن ذلك لما صرحوا به من أن حكم بعثة اسمعيل عليه السلام قد انقطع بموته وأنه لم يرسل اليهم بعده نبي سوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال العلامة ابن حجر فى المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل اليهم رسول بعد اسمعيل عليه الصلاة والسلام وأن اسمعيل انتهت رسالته بموته وادعى قبيل هذا الاتفاق على أن ابراهيم عليه السلام ومن بعده أى سوى اسمعيل عليه السلام لم يرسلوا للعرب ورسالة اسمعيل اليهم انتهت بموته اه ، فكأنه لقلة لبث اسمعيل عليه السلام فيهم وانقطاع حكم رسالته بعد وفاته فيما بينهم وبقائهم الامد الطويل بغير رسول مبعوث فيهم نفى اتيان النذير إياهم من قبله ﷺ *

وذكر العلامة ابن حجر فى المنح أيضا مايفيد أن كل رسول ممن عدا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تنقطع رسالته بموته وليس ذلك خاصا باسمعيل عليه السلام ، ويفهم من كلام العز بن عبد السلام فى أماليه أن هذا الانقطاع ليس على إطلاقه فقد قال : (فائدة) كل نبي إنما أرسل إلى قومه الا سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فعلى هذا يكون ماعدا قوم كل نبي من أهل الفترة الاذرية النبي السابق عليه فانهم مخاطبون ببعثة السابق إلا أن تدرس شريعة السابق فيصير الكل من أهل الفترة اه * وهو وكذا مانقلناه عن العلامة ابن حجر عندى الآن على اعراف الرد والقبول ، ولعل الله تعالى يشرح صدرى بعد لتحقيق الحق فى ذلك ، وقيل : إن موسى . وعيسى عليهما السلام كما أرسلا لبنى إسرائيل أرسلا للعرب فالمراد بنفى هذا الاتيان الفترة التى بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام ، وزمنها على ماروى البخارى عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ستمائة سنة وفى كثير من الكتب أنه خمسمائة وخمسون سنة ، ونفى اتيان نبى بين زمانى إتيان نبينا واتيان عيسى عليهما الصلاة والسلام هو ماصححه جمع من العلماء لحديث لانبي بينى وبين عيسى وقال بعضهم : إن بينهما أربعة أنبياء ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان ، وقيل : غير ذلك ، واختار البعض أن المراد بهؤلاء القوم العرب المعاصرون له صلى الله تعالى عليه وسلم إذ هم الذين يتصور انذاره عليه الصلاة والسلام إياهم دون أسلافهم الماضين ولعله الاظهر ، وعدم اتيان نذير إياهم من قبله صلى الله تعالى عليه وسلم على القول بانتهاء حكم رسالة الرسول سوى نبينا عليه الصلاة والسلام بموته ظاهر ، وأما إذا قيل : بعدم انتهائه بذلك وبقائه حكما لرسالة الرسول يجب على من علمه من ذرارى المرسل اليهم الاخذ به من حيث إنه حكم من أحكام ذلك الرسول إلى أن يأتى رسول آخر فيؤخذ به من حيث إنه حكم من أحكامه أو على الوجه الذى يأمر به فيه من النسبة اليه أو من نسبته إلى من قبله أو يترك إن جاء الثانى ناسخا له فالمراد بعدم اتيان النذير إياهم عدم وصول ماأتى به على الحقيقة اليهم ولا يمكن أن يراد بهؤلاء القوم العرب مطلقا ويقال : بأنهم لم يرسل اليهم قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أصلا لظهور بطلانه ومنافاته لقوله تعالى (وأن من أمة الا خلا فيها نذير) والعرب أعظم أمة وكذا لقوله تعالى: (لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم) بناء على أن ـ ما ـ فيه ليست نافية وهو على القول بأن مافيه نافية مؤول بحمل الآباء على الآباء الاقربين ، ولايكاد يجوز فى ماهنا ماجاز فيها من الاحتمال فى آية يس بل المتعين فيها النفى ليس غير ، وتكلف غيره مما لا ينبغى فى كتاب الله تعالى ؛ والنذير بمعنى المنذر ، واحتمال كونه مصدرا بمعنى الانذار مما لا ينبغى أن يلتفت اليه وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر بمعنى احكام أمر نبوة موسى عليه السلام بالوحى وايتاء التوراة وثوائه عليه السلام فى أهل مدين المشار اليه بقوله تعالى: (وما كنت ثاويا فى أهل مدين) والنداء

Marfat.com

للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو روعى الترتيب الوقوعى ، ونفى أولا الثواء فى أهل مدين ونفى ثانيا الحضور عند النداء ونفى ثالثا الحضور عند قضاء الامر لربما توهم أن الكل دليل واحد على ماذكر كما مر فى قصة البقرة ، ومن الناس من فسر قضاء الامر بالاستنباء والنداء بالنداء لأخذ التوراة بقوله تعالى : (خذ الكتاب بقوة) رعاية للترتيب الوقوعى بينهما وتعقب بأنه يفوت عليه التنبيه المذكور مع أنه بهذا القدر لا يرتفع تغيير الترتيب الوقوعى بالكلية بين المتعاطفات لأن الثواء فى أهل مدين متقدم على القضاء والنداء فى الواقع ، وقد وسط فى النظم الكريم بينهما ، وأيضا ماتقدم من تفسير كل من القضاء والنداء بما فسر أنسب بما يلى كلا من الاستدراك ، ومما يستغرب ان بعض من فسر ماذكر بما يوافق الترتيب الوقوعى فسر الشاهدين بالسبعين المختارين للميقات ولا يكاد يتسنى ذلك عليه لانهم إنما كانوا مع موسى عليه السلام لما أعطى التوراة فكان عليه أن يفسره بغير ذلك وقد تقدم لك عدة تفاسير لا يأبى شئ منها تفسيره ماذكر بما يوافق الترتيب الوقوعى ، وجوز على التفسير بما يوافق كون المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام الذين كانوا حول النار فان الآثار ناطقة بحضورهم حولها عند ماأتاها موسى عليه السلام وكذا قوله تعالى (أن بورك من فى النار ومن حولها) فى قول ، هذا وفى الآيات تفسيرات أخر فقال الفراء فى قوله تعالى: (وماكنت ثاويا) الخ أى وماكنت مقيما فى أهل مدين مع موسى عليه السلام فتراه وتسمع كلامه وهاأنت تتلو عليهم أى على امتك آياتنا فهو منقطع اه ، ونحوه ماروى عن مقاتل فيه وهو أن المعنى لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ولكنا أرسلناك إلى اهل مكة وأنزلنا اليك هذه الاخبار ولولا ذلك ماعلمت، وقال الضحاك : يقول سبحانه إنك يامحمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم آيات الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا إلى أهل مدين شعيبا وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الانبياء اه . ولا يخفى أن ماقدمنا أولى بالاعتبار . وذهب جمع إلى أن النداء فى قوله تعالى : (وما كنت بجانب الطور اذ ناديتا) كان نداء فيما يتعلق بهذه الامة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية وذكروا عدة آثار تدل على ذلك *

أخرج الفريابى. والنسائى. وابن جرير. وابن أبى حاتم. والحاكم وصححه. وابن مردويه. وأبو نعيم. والبيهقى معا فى الدلائل عن أبى هريرة قال فى ذلك نودوا ياأمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى وأستجبت لكم قبل أن تدعونى . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعا ، وأخرج هو أيضا. وأبو نعيم فى الدلائل. وأبو نصر السجزى فى الابانة . والديلمى عن عمرو بن عيينة قال سألت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى (وما كنت بجانب الطور إذ ناديتا ولكن رحمة من ربك) ماكان النداء وما كانت الرحمة؟ قال كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفى عام ثم وضعه على عرشه ثم نادى ياأمة محمد سبقت رحمتى غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى فمن لقينى منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدى ورسولى صادقا أدخلته الجنة *

وأخرج الخلعى فى الديباج عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعا مثله ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء نجيا قال : أى رب هل أجد أكرم عليك منى ؟ قربتنى نجيا وكلمتنى تكليما قال : نعم . محمد عليه الصلاة والسلام أكرم على منك *

Marfat.com

قال : فان كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أكرم عليك منى فهل أمة محمد أكرم من بنى إسرائيل ؟ فلقت البحر لهم وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى . قال : نعم . أمة محمد عليه الصلاة والسلام أكرم على من بنى إسرائيل . قال : إلهى أرنيهم . قال : إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم . قال : نعم إلهى . فنادى ربنا أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أجيبوا ربكم . قال : فأجابوا وهم فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا . قال : صدقتم أنا ربكم حقا وأنتم عبيدى حقا قد عفوت عنكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى فمن لقينى منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة » قال ابن عباس فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يمن عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته فقال يا محمد : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، . واستشكل ذلك بأنه معنى لا يناسب المقام ولا تكاد ترتبط الآيات عليه ، ولا بد لصحة هذه الأخبار من دليل ، وتصحيح الحاكم لا يخفى حاله

وقال بعض: يمكن أن يقال على تقدير صحة الأخبار إن المراد وما كنت حاضرا مع موسى عليه السلام بجانب الطور لتقف على أحواله فتخبر بها الناس ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بذلك وبغيره رحمة منا لك وللناس ، والتوقيت بنداء أمته ليس لكون المخبر به ما كان من ذلك بل لإدخال المسرة عليه عليه الصلاة والسلام فيما يعود اليه وإلى أمته وفيه تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون من أمة الدعوة من الكفر به عليه الصلاة والسلام والاباء عن شريعته وتلويح ما إلى مضمون (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وحينئذ ترتبط الآيات بعضها ببعض ارتباطا ظاهرا فتأمل ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أى عقوبة وهى على ما نقل عن أبى مسلم عذاب الدنيا والآخرة ، وقيل : عذاب الاستئصال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى ويعبر عن كل الأعمال وإن لم تصدر عن الأيدى باجتراح الأيدى وتقديم الأيدى لما أن أكثر الأعمال تزاول بها ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولا مؤيدا من عندك بالآيات ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ الظاهرة على يده ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧ ﴾ بما جاء به ، ولولا الثانية تحضيضية كما أشرنا اليه ، وقوله تعالى : (فنتبع) جوابها ولكون التحضيض طلبا كالأمر أجيبت على نحو ما يجاب ، وأما الأولى فامتناعية وجوابها محذوف ثقة بدلالة الحال عليه ، والتقدير لما أرسلناك ، والفاء فى (فيقولوا) عاطفة ليقول على تصيبهم ، والمقصود بالسببية لانتفاء الجواب والركن الأصيل فيها قولهم ذلك إذا أصابتهم مصيبة ، فالمعنى لولا قولهم إذا عوقبوا بما اقترفوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبعه ونكون من المؤمنين لما أرسلناك اليهم ، وحاصله سببية القول المذكور لارساله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم قطعا لمعاذيرهم بالكلية ولكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت كأنها سبب الارسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجىء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ، ونكتة إيثار هذا الأسلوب وعدم جعل العقوبة قيداً مجردا أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا ، وإنما السبب فى قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الايمان بخالقهم ، وفى هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى :

Marfat.com

(ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) هذا ماأراده صاحب الكشاف ، وليس فى الكلام عليه تقدير مضاف كما هو الظاهر ٠

وذهب بعضهم إلى أن الكلام على تقدير مضاف أى كراهة أن تصيبهم الخ ، فالسبب للارسال إنما هو كراهة ذلك لما فيه من إلزام الحجة ولله تعالى الحجة البالغة ، وهذه الكراهة مما لاريب فى تحققها الذى تقتضيه لولا ودفعوا بهذا التقدير لزوم تحقق الاصابة والقول المذكور وانتفاء عدم الارسال كما هو مقتضى لولا، وفى ذلك مافيه ، وقال ابن المنير : التحقيق عندى أن لولا ليست كما قال النحاة تدل على أن مابعدها موجود أو أن جوابها ممتنع والتحرير فى معناها أنها تدل على أن مابعدها مانع من جوابها عكس لو ، ثم المانع قد يكون موجودا وقد يكون مفروضا ومافى الآية من الثانى فلا إشكال فيها ، واستدل بالآية على أن قول من لم يرسل اليه رسول ان عذب : ربى لولا أرسلت إلى رسولا مما يصلح للاحتجاج وإلا لما صلح لأن يكون سببا للارسال وفى ذلك دلالة على أن العقل لا يغنى عن الرسول ، والبحث فى ذلك شهير ، والكلام فيه كثير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ أى أولئك القوم ، والمراد بهم هنا أهل مكة الموجودون عند البعثة وضمائر الجمع الآتية كلها راجعة اليهم ٠ ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أى الأمر الحق وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا﴾ تعنتا واقتراحا ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ يعنونه عليه الصلاة والسلام ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام من الكتاب المنزل جملة وقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ رد عليهم وإظهار لكون ماقالوه تعنتا محضا لاطلبا لما يرشدهم إلى الحق (ومن قبل) متعلق بيكفروا وتعلقه بأوتى لايظهر له وجه لائح إذ هو تقييد بلا فائدة لأنه معلوم أن ماأوتى موسى عليه السلام من قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو من قبل هؤلاء الكفرة . نعم أمر الرد عليه على حاله أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى عليه السلام كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى : ﴿سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدا محذوف أى هما يعنون ما أوتى نبينا وما أوتى موسى عليهما الصلاة والسلام سحران ﴿تَظَاهَرَا﴾ أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وتأييده إياه ، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك . وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أى بكل واحد من الكتابين ﴿كَافِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان . وقرأ الاكثرون (ساحران) وأراد الكفرة بهما نبينا وموسى عليهما الصلاة والسلام ٠

وقرأ طلحة . والأعمش (اظاهرا) بهمزة الوصل وشد الظاء و كذا هى فى حرف عبدالله وأصله تظاهرا فلما قلبت التاء ظاء وأدغمت سكنت فاجتلبت همزة الوصل ليبتدأ بالساكن . وقرأ محبوب عن الحسن . ويحيى ابن الحرث الذمارى . وأبو حيوة . وأبو خلاد عن اليزيدى تظاهرا بالتاء وتشديد الظاء . قال ابن خالويه : وتشديده لحن لأنه فعل ماض وانما يشدد فى المضارع . وقال صاحب اللوامح : لا أعرف وجهه . وقال صاحب الكامل فى القراآت لامعنى له . وخرج ذلك أبو حيان على أنه مضارع حذفت منه النون بدون ناصب

Marfat.com

أو جازم ، وجاء حذفها كذلك فى قليل من الكلام وفى الشعر، و(ساحران) خبر لمبتدأ محذوف ، وأصل الكلام أنتما ساحران تتظاهران فحذف أنتما وأدغمت التاء فى الظاء وحذفت النون وروعى الخطاب ولو قرئ يظاهرا بالياء حملا على مراعاة ساحران أو على تقديرهما لكان له وجه وكأنهم خاطبوا النبى ﷺ بذلك وأرادوه وموسى عليهما الصلاة والسلام بأنتما على سبيل التغليب ، هذا وتفسير الآية بما ذكر مما لا تكلف فيه ولعله هو الذى يستدعيه جزالة النظم الجليل ويقتضيه اقتضاء ظاهر قوله تعالى :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ أى بما أوتياه من القرآن والتوراة ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ أى إن تأتوا به أتبعه فالفعل مجزوم بجواب الامر ومثل هذا الشرط يأتى به من يدل بوضوح حجته لأن الاتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والالزام وايراد كلمة (إن) فى قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٩ ﴾ أى فى أنهما سحران مختلقان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم ، وقرأ زيد بن على أتبعه بالرفع على الاستئناف أى أنا أتبعه. وقال الزمخشرى : الحق الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات يعنى أن المقام مقام أن يقال فلما جاءهم أى الرسول أو فلما جاءهم الرسول لكن عدل عن ذلك لافادة تلك المعانى وما أوتى موسى بما هو أعم من الكتاب المنزل جملة واحدة واليد والعصا وغيرهما من آياته عليه السلام ، وتعقب بأنه لا تعلق للمعجزات من اليد ونحوها بالمقام وكذا لا تعلق لغير القرآن من معجزات نبينا ﷺ به ويرشد إلى ذلك ظاهر قوله تعالى (قل فأتوا) الخ *

وجوز أن يكون ضميرا (جاءهم وقالوا) راجعين إلى أهل مكة الموجودين وضمير (يكفروا) وكذا ضمير (قالوا) فى الموضعين راجع إلى جنس الكفرة المعلوم من السياق والمراد بهم الكفرة الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام (ومن قبل) متعلق بيكفروا لا بأوتى لعدم ظهور الفائدة والمراد بسحرين أو ساحران موسى وهرون عليهما السلام كما روى عن مجاهد ، واطلاق سحرين عليهما للمبالغة أو هو بتقدير ذوا سحرين، والمعنى أولم يكفر أبناء جنسهم من قبلهم بما أوتى موسى عليه السلام كما كفروا هم بما أوتيته وقال أولئك الكفرة هما أى موسى وهرون سحران أو ساحران تظاهرا ، وقيل : يجوز أن تكون الضمائر راجعة إلى الموجودين والكفر والقول المذكور لأولئك السابقين حقيقة واسنادهما إلى الموجودين مجازى لما بين الطائفتين من الملابسة *

وقيل بناء على ما روى عن الحسن: من أنه كان للعرب أصل فى أيام موسى عليه السلام إن المعنى أولم يكفر آباؤهم من قبل أن يرسل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بما أوتى موسى قالوا هما أى موسى وهرون سحران أو ساحران تظاهرا فهو على أسلوب (وإذ نجينا كم من آل فرعون) ونحوه ويفيد الكلام عليه أن قدمهم فى الكفر من الرسوخ بمكان ، ولهم فى العناد عرق أصيل وكون العرب لهم أصل فى أيام موسى عليه السلام مما لا شبهة فيه حتى قيل : إن فرعون كان عربيا من أولاد عاد لكن فى حسن تخريج الآية على ذلك كلام ، وأنت تعلم أن كل هذه الأوجه ليست مما ينشرح له الصدر وفيها من التكلف ما فيها *

وادعى أبو حيان ظهور رجوع ضمير يكفروا وكذا ضمير قالوا الى قريش الذين قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى وأن نسبة ذلك اليهم لما أن تكذيبهم لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم تكذيب لموسى عليه السلام ونسبتهم السحر للرسول نسبتهم اياه لموسى وهرون عليهما السلام إذ الانبياء عليهم السلام من

Marfat.com

واد واحد فمن نسب إلى أحد منهم مالايليق كان ناسبا ذلك إلى جميعهم فلا يحتاج إلى توسيط حكاية الرهط فى أمر النسبة ، وعليه يجوز أن يراد بكل كل واحد من الأنبياء عليهم السلام ، ولايخفى أن ماادعاه من ظهور رجوع الضمير الى ماذكر أمر مقبول عند منصفى ذوى العقول ، لكن توجيه نسبة الكفر والقول المبين لكيفيته مما ذكر مما يبعد قبوله ، وكأنه إنما احتاج إليه لعدم ثبوت حكاية الرهط عنده ، وعن قتادة أنه فسر السحران بالقرآن والانجيل ، والساحران بمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام وجعل ذلك القول قول أعداء الله تعالى اليهود ، وتفسير الساحرين بذلك مروى عن الحسن ، وروى عنه ايضا أنه فسرهما بموسى وعيسى عليهما السلام والكل كما ترى ، وتفسيرهما بمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام مارواه البخارى فى تاريخه وجماعة عن ابن عباس ٥

وأخرج ابن أبى حاتم عن عاصم الجحدرى أنه كان يقرأ سحران ويقول هما كتابان الفرقان والتوراة ألاتراه سبحانه يقول: (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أى فان لم يفعلوا ما كلفتهم به من الاتيان بكتاب أهدى منهما ، وإنما عبر عنه بالاستجابة إيذانا بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره ، كان امره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه ٥

وقيل : المراد فان لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الايمان بعد ماوضح لهم من المعجزات التى تضمنها كتابك الذى جاءهم فالاستجابة على ظاهرها لأن الايمان أمر يريد ﷺ حقيقة وقوعه منهم وهى كما فى البحر بمعنى الاجابة وتتعدى إلى الداعى باللام كما فى هذه الآية ، وقوله تعالى : (فاستجاب له ربه)، وقوله سبحانه : (فاستجبنا له) وبنفسها كما فى بيت الكتاب :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال الزمخشرى : هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعى باللام وبحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعى فى الغالب فيقال: استجاب الله تعالى دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه ، وقوله فى البيت فلم يستجبه على حذف مضاف أى فلم يستجب دعاءه انتهى ، ولو جعل ضمير يستجبه للدعاء المفهوم من داع لم يحتج إلى تقدير ، وجعل المفعول هنا محذوفا لذكر الداعى ، ووجهه على ماقيل : أنه مع ذكر الداعى والاستجابة يتعين أن المفعول الدعاء فيصير ذكره عبثا ، وجوز كون الحذف للعلم به من فعله لا لأنه ذكر الداعى ، وهذا حكم الاستجابة دون الاجابة لقوله تعالى : (أجيبوا داعى الله) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا إذا لوكان لهم ذلك لأتوا به ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام إنكارى للنفى أى لاأضل ممن اتبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أى هو أضل من كل ضال وإن كان ظاهر السبك لنفى الأضل لالنفى المساوى كما مر فى نظائره مرارا ، وقوله تعالى : (بغير هدى) فى موضع الحال من فاعل اتبع ، وتقييد الاتباع بذلك لزيادة التقرير والاشباع فى التشنيع والتضليل وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة ، وقيل : للاحتراز عما يكون فيه هدى منه تعالى فان الانسان قد يتبع هواه ويوافق الحق ، وفيه بحث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فانهمكوا فى اتباع الهوى والاعراض

Marfat.com

عن الآيات الهادية إلى الحق المبين ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ الضمير لأهل مكة ، وأصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها ببعض قال الشاعر :

فقل لبنى مروان مانال ذمتى بحبل ضعيف لايزال يوصل

والمعنى ولقد أنزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة أو متتابعا وعداووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ونصائح ، وقيل : جعلناه أوصالا أى أنواعا مختلفة وعداووعيدا الخ ، وقيل : المعنى وصلنا لهم خبر الآخرة بخبر الدنيا حتى كأنهم عاينوا الآخرة وعن الاخفش أتممنالهم القول ، وقرأ الحسن (وصلنا) بتخفيف الصاد والتضعيف فى قراءة الجمهور للتكثير ومن هنا قال الراغب فى تفسير مافى الآية عليها أى أكثرنا لهم القول موصولا بعضه ببعض ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ ﴾ فيؤمنون بما فيه *

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ من قَبْلِهِ ﴾ قبل القرآن على أن الضمير للقول مرادا به القرآن أو للقرآن المفهوم منه وأيا ماكان فالمراد من قبل ايتائه ﴿ هُم ﴾ لاهؤلاء الذين ذكرت أحوالهم ﴿ به ﴾ أى بالقرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ٥٢ ﴾ وقيل : الضميران للنبى ﷺ ، والمراد بالموصول على مارورى عن ابن عباس مؤمنو أهل الكتاب مطلقا ، وقيل : هم أبو رفاعة فى عشرة من اليهود آمنوا فأوذوا ، وأخرج ابن مردويه بسند جيد وجماعة عن رفاعة القرظى مايؤيده وقيل : أربعون من أهل الانجيل كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قبل مبعثه اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبى طالب وثمانية قدموا من الشام بحيرا وابرهة واشرف وعامر وايمن وادريس ونافع وتميم ، وقيل : ابن سلام. وتميم الدارى . والجارود العبدى . وسلمان الفارسى. ونسب إلى قتادة واستظهر أبو حيان الاطلاق وأن ماذكر من باب التمثيل لمن آمن من أهل الكتاب *

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أى القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ أى بأنه كلام الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَآ ﴾ أى الحق الذى كنا نعرف حقيته ، وهو استئناف لبيان ماأوجب إيمانهم به ، وجوز أن تكون الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا من قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ بيان لكون إيمانهم به امرأ متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن ويكفى فى كونهم على دين الاسلام قبل نزوله ايمانهم به اجمالا. وفى الكشاف والبحر أن الاسلام صفة كل موحد مصدق بالوحى والظاهر عليه أن الاسلام ليس من خصوصيات هذه الأمة من بين الامم .وذهب السيوطى عليه الرحمة إلى كونه من الخصوصيات وألف فى ذلك كراسة وقال فى ذيلها : لما فرغت من تأليف هذه الكراسة واضطجعت على الفراش للنوم ورد على قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) الآية فكأنما ألقى على جبل لما أن ظاهرها الدلالة للقول بعدم الخصوصية وقد أفكرت فيها ساعة ولم يتجه لى فيها شئ فلجأت إلى الله تعالى ورجوت أن يفتح بالجواب عنها فلما استيقظت وقت السحر إذا بالجواب قد فتح فظهر عنها ثلاثة أجوبة : الأول أن مسلمين اسم فاعل مراد به الاستقبال كما هو حقيقة فيه دون الحال والماضى والتمسك بالحقيقة هو الاصل وتقدير الآية إنا كنا من قبل مجيئه عازمين على الاسلام به إذا جاء لما كنا نجده فى كتبنا من بعثه ووصفه ويرشح هذا أن السياق يرشد إلى أن قصدهم الاخبار بحقية القرآن وأنهم كانوا على قصد الاسلام به إذا جاء به النبى ﷺ وليس

Marfat.com

قصدهم الثناء على أنفسهم فى حد ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الاسلام أولا لنبو المقام عنه كما لايخفى ، الثانى أن يقدر فى الآية إنا كنا من قبله مسلمين به فوصف الاسلام سببه القرآن لا التوراة والانجيل ويرشح ذلك ذكر الصلة فيما قبل حيث قال سبحانه: (هم به يؤمنون) فانه يدل على أن الصلة مرادة هنا أيضا إلا أنها حذفت كراهة التكرار . الثالث أن هذا الوصف منهم بناء على ماهو مذهب الاشعرى من أن من كتب الله تعالى أن يموت مؤمنا فهو يسمى عنده تعالى مؤمنا ولو كان فى حال الكفر وإنما لم نطلق نحن هذا الوصف عليه لعدم علمنا بماعنده تعالى ، فهؤلاء لما ختم الله تعالى لهم بالدخول فى الاسلام أخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا متصفين به قبل لأن العبرة فى هذا الوصف بالخاتمة ووصفهم بذلك أولى من وصف الكافر الذى يعلم الله تعالى أنه يموت على الاسلام به لأنهم كانوا على دين حق وهذا معنى دقيق استفدناه فى هذه الآية من قواعد علم الكلام انتهى ه

ولايخفى ضعف هذا الجواب وكذا الجواب الأول وأما الجواب الثانى فهو بمعنى ماذكرناه فى الآية وقد ذكره البيضاوى وغيره وجوز أن يراد بالاسلام الانقياد أى إنا كنا من قبل نزوله منقادين لأحكام الله تعالى الناطق بها كتابه المنزل الينا ومنها وجوب الإيمان به فنحن مؤمنون به قبل نزوله ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين ﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ أى يدفعون ﴿ بِالْحَسَنَةِ ﴾ أى بالطاعة ﴿ السَّيِّئَةَ ﴾ أى المعصية فان الحسنة تمحو السيئة قال صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وقيل : أى يدفعون بالحلم الاذى وقال ابن جبير: بالمعروف المنكر وقال ابن زيد : بالخير الشر وقال ابن سلام : بالعلم الجهل وبالكظم الغيظ وقال ابن مسعود : بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٥٤ ﴾ أى فى سبيل الخير كما يقتضيه مقام المدح ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ سقط القول وقال مجاهد: الاذى والسب وقال الضحاك : الشرك وقال ابن زيد: ماغيرته اليهود من وصف الرسول ﷺ ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى عن اللغو تكرما كقوله تعالى:(وإذا مروا باللغو مروا كراما) ﴿ وَقَالُوا ﴾ لهم (١) أى للاغين المفهوم من ذكر اللغو ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ متاركة لهم كقوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ قالوه توديعا لهم لاتحية اوهو للمتاركة أيضا كما فى قوله تعالى: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وأياما كان فلا دليل فى الآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام كما زعم الجصاص إذ ليس الغرض من ذلك إلا المتاركة أو التوديع . وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الكفار «لا تبدءوهم بالسلام وإذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» . نعم روى عن ابن عباس جواز أن يقال للكافر ابتداء السلام عليك على معنى الله تعالى عليك فيكون دعاء عليه وهو ضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ بيان للداعى للمتاركة والتوديع أى لا تطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى ﴾ هداية موصلة إلى

(١) قوله لهم أى للاغين الخ وقع فى خط المؤلف كتابة لفظ لهم بالحمرة ظنا منه رحمه الله أنها من القرآن ولذلك قال أى للاغين المفهوم الخ

Marfat.com

البغية لامحالة ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى كل من احببته طبعا من الناس قومك وغيرهم ولاتقدر أن تدخله فى الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معهود ، وقيل : من احببت هدايته ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته فيدخله فى الاسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء سبحانه هدايتهم ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب، وأفعل للمبالغة فى علمه تعالى وقيل : يجوز أن يكون على ظاهره ، وأفاد كلام بعضهم أن المراد أنه تعالى أعلم بالمهتدى دون غيره عز وجل ، وحيث قرنت هداية الله تعالى بعلمه سبحانه بالمهتدى وأنه جل وعلا العالم به دون غيره دل على أن المراد بالمهتدى المستعد دون المتصف بالفعل فيلزم أن تكون هدايته إياه بمعنى القدرة عليها ، وحيث كانت هدايته تعالى لذلك بهذا المعنى ، وجىء بلكن متوسطة بينها وبين الهداية المنفية عنه صلى الله تعالى عليه وسلم لزم أن تكون تلك الهداية أيضا بمعنى القدرة عليها لتقع لكن فى موضعها ، ولذا قيل : المعنى إنك لاتقدر أن تدخل فى الاسلام كل من أحببت لأنك عبد لاتعلم المطبوع على قلبه من غيره ولكن الله تعالى يقدر على أن يدخل من يشاء إدخاله وهو الذى علم سبحانه أنه غير مطبوع على قلبه ، وللبحث فيه مجال ، وظاهر عبارة الكشاف حمل نفى الهداية فى قوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت) على نفى القدرة على الادخال فى الاسلام وإثباتها فى قوله سبحانه (ولكن الله يهدى من يشاء) على وقوع الادخال فى الاسلام بالفعل . وهذا مااعتمدناه فى تفسير الآية، ووجهه أن مساق الآية لتسليته صلى الله تعالى عليه وسلم حيث لم ينجع فى قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص انذاره عليه الصلاة والسلام إياهم وماجاء به اليهم من الحق بل أصروا على ماهم عليه ، وقالوا : (لولا أوتى مثل ماأوتى موسى) ثم كفروا به وبموسى عليهما الصلاة السلام فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم حيث آمنوا بما جاء به من الحق وقالوا : إنه الحق من ربنا ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاءهم به أيضا فلو لم يحمل إنك لاتهدى من أحببت على نفى القدرة على إدخال من أحبه عليه الصلاة والسلام فى الإسلام بل حمل على نفى وقوع ادخاله صلى الله تعالى عليه وسلم إياه فيه لبعد الكلام عن التسلية وقرب الى العتاب فانه على طرز قولك لمن له أحباب لاينفعهم إنك لاتنفع أحبابك وهو إذا لم يؤول بأنك لاتقدر على نفع أحبابك فانما يقال على سبيل العتاب أو التوبيخ أو نحوه دون سبيل التسلية ، ولما كان لهدايته تعالى أولئك الذين أوتوا الكتاب مدخلا فيما يستدعى التسلية كان المناسب إبقاء (ولكن الله يهدى من يشاء) على ظاهره من وقوع الهداية بالفعل دون القدرة على الهداية وإثبات ذلك له تعالى فرع إثبات القدرة ففى اثباته اثباتها لامحالة فيصادف الاستدراك المحز ، وحمل المهتدين على المستعدين للهداية لايستدعى حمل يهدى على يقدر على الهداية فماذكر من اللزوم ممنوع ؛ ويجوز أن يراد بالمهتدين المتصفون بالهداية بالفعل ، والمراد بعلمه تعالى بهم مجازاته سبحانه على اهتدائهم فكأنه قيل : وهو تعالى أعلم بالمهتدين كأولئك الذين ذكروا من أهل الكتاب فيجازيهم على اهتدائهم بأجر أو بأجرين فتأمل ، والآية على مانطقت به كثير من الأخبار نزلت فى أبى طالب .

أخرج عبد بن حميد . ومسلم . والترمذى . وابن أبى حاتم . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ياعماه قل لاإله إلا الله

Marfat.com

أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال : لولا أن يعيرونى قريش يقولون: ماحمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت) الآية ٠

وأخرج البخارى . ومسلم . وأحمد . والنسائى . وغيرهم ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه نحو ذلك ، وأخرج أبو سهل السرى بن سهل من طريق عبد القدوس عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : (انك لا تهدى من أحببت) الخ نزلت فى أبى طالب ألح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسلم فأبى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد روى نزولها فيه عنه أيضا ابن مردويه، ومسألة إسلامه خلافية، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسريهم إلى إسلامه وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك وان أكثر قصائده تشهد له بذلك ، وكأن من يدعى إجماع المسلمين لا يعتد بخلاف الشيعة ولا يعول على رواياتهم ، ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغى سبه والتكلم فيه بفضول الكلام فان ذلك مما يتأذى به العلويون بل لا يبعد أن يكون مما يتأذى به النبى عليه الصلاة والسلام الذى نطقت الآية بناءا على هذه الروايات بحبه إياه ، والاحتياط لا يخفى على ذى فهم ٠

٠ ولأجل عين ألف عين تكرم ٠ ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أى نخرج من بلادنا ومقرنا ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة فاستعير لما ذكر، والآية نزلت فى الحرث بن عثمان ابن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله تعالى عليهم خوف التخطف بقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أى ألم نعصمهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمن بحرمة البيت الذى فيه تتاجر العرب حوله وهم آمنون فيه ، فالعطف على محذوف و(نمكن) مضمن معنى الجعل ، ولذا نصب حرما وآمنا للنسب كلابن وتامر ، وجعل أبو حيان الإسناد فيه مجازيا لأن الآمن حقيقة ساكنوه فيستغنى عن جعله للنسب وهو وجه حسن ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ﴾ أى يحمل اليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى ثمرات أشياء كثيرة على أن كل للتكثير وأصل معناه الاحاطة وليست بمرادة قطعا ، والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم إن اتبعوا الهدى بانقطاع الميرة ، وقوله تعالى : ﴿ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ نصب عن المصدر من معنى يجبى لأن ما له يرزقون ، أو الحال من ثمرات بمعنى مرزوقا وصح مجىء الحال من النكرة عند من لا يراه لتخصصها بالاضافة هنا ، أو على أنه مفعول له بتقدير نسوق اليه ذلك رزقا . وحاصل الرد أنه لا وجه لخوف من التخطف إن أمنوا فانهم لا يخافون منه وهم عبدة أصنام فكيف يخافون إذا أمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧ ﴾ جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون ليعلموا ذلك فهو متعلق بقوله تعالى : (أو لم نمكن) الخ ٠

وقيل : هو متعلق بقوله سبحانه : من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله عزوجل إذ لو علموا لما خافوا غيره، والأول أظهر، والكلام عليه أبلغ فى الذم ، وقرأ المنقرى (نتخطف) بالرفع كما قرئ فى قوله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت) برفع يدرك وخرج بأنه بتقدير فنحن نتخطف وهو تخريج شذوذ ٠

Marfat.com

وقرأ نافع وجماعة عن يعقوب. وأبو حاتم عن عاصم (تجبى) بتاء التأنيث ، وقرئ (تجنى) بالنون من الجنى وهو قطع الثمرة وتعديته بالى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة(١) وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم (ثمرات) بضم الثاء والميم، وقرأ بعضهم (ثمرات) بفتح الثاء واسكان الميم ، ثم إنه تعالى بعد أن رد عليهم خوفهم من الناس بين أنهم أحقاء بالخوف من بأس الله تعالى بقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أى و كثيرا من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الامن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ التى تمرون عليها فى أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا حال كونها ﴿ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد تدميرهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى الا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم أو الا سكنا قليلا وقلته باعتبار قلة الساكنين فكأنه قيل : لم يسكنها من بعدهم الا قليل من الناس .

وجوز أن يكون الاستثناء من المساكن أى الا قليلا منها سكن وفيه بعد ، ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ٥٨ ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات أيديهم ، وفى الكشاف أى تركناها على حال لا يسكنها أحد او خربناها وسويناها بالارض وهو مشير إلى أن الوراثة اما مجرد انتقالها من أصحابها واما الحاقها بما خلقه الله تعالى فى البدء فكأنه رجع إلى أصله ودخل فى عداد خالص ملك الله تعالى على ما كان أولا وهذا معنى الإرث ، وانتصاب معيشتها على التمييز على مذهب الكوفيين، أو مشبه بالمفعول به على مذهب بعضهم ، أو مفعول به على تضمين بطرت معنى فعل متعد أى كفرت معيشتها ولم ترع حقها على مذهب أكثر البصريين أو على اسقاط (فى) أى فى معيشتها على مذهب الاخفش ، أو على الظرف نحو جئت خفوق النجم على قول الزجاج ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ بيان للعناية الربانية اثر بيان اهلاك القرى المذكورة أى وما صح وما استقام أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار بل كانت سنته عز وجل أن لا يهلكها ﴿ حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا ﴾ أى فى أصلها وكبيرتها التى ترجع تلك القرى اليها ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب ، وإنما لم يهلكهم سبحانه حتى يبعث اليهم رسولا لإلزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ، وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهل البلدة الكبيرة و كرسى المملكة ومحل الاحكام فطنة و كيسا فهم أقبل للدعوة وأشرف .

وأخرج عبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن قتادة أن أم القرى مكة والرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فالمراد بالقرى القرى التى كانت فى عصره عليه الصلاة والسلام والأولى أولى ، والالتفات إلى نون العظمة فى آياتنا لتربية المهابة وادخال الروعة وقرئ (فى إمها) بكسر الهمزة اتباعا للميم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى ﴾ عطف على (ما كان ربك مهلك القرى) ﴿ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أى أى شىء أصبتموه من

(١) قوله إلى الخافة هى خريطة من أدم يشار فيها العسل انتهى منه

Marfat.com

أمور الدنيا وأسبابها ﴿ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ فهو شىء شأنه أن يتمتع به و يتزين به أياما قلائل و يشعر بالقلة لفظ المتاع وكذا ذكر (أبقى) فى المقابل وفى لفظ الدنيا أشارة إلى القلة والخسة ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فى الجنة وهو الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ فى نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ لأنه أبدى وأين المتناهى من غير المتناهى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦١ ﴾ أى ألا تتفكرون فلا تفعلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وتخافون على ذهاب ماأصبتموه من متاع الحياة الدنيا وتمتنعون عن اتباع الهدى المفضى إلى ماعند الله تعالى لذلك فكأن هذا رد عليهم فى منع خوف التخطف اياهم من اتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم على تقدير تحقق وقوع ما يخافونه . وقرأ أبو عمرو يعقلون بياء الغيبة على الالتفات وهو أبلغ فى الموعظة لاشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب ، فالالتفات هنا لعدم الالتفات زجرا لهم وقرىء (فمتاعا الحياة الدنيا) أى فتتمتعون به فى الحياة الدنيا فنصب متاعا على المصدرية والحياة على الظرفية ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أى وعدا بالجنة وما فيها من النعيم الصرف الدائم فان حسن الوعد بحسن الموعود ﴿ فَهُوَ لَـٰقِيهِ ﴾ أى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جىء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الذى هو مشوب بالانقطاع منغص بالاكدار مستتبع بالتحسر على الانقطاع ، ومعنى الفاء الأولى ترتيب انكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ٦٢ ﴾ عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه مقوله كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أوأحضرناه يوم القيامة للنار أو العذاب وغلب لفظ المحضر فى المحضر لذلك والعدول إلى الجملة الاسمية قيل للدلالة على التحقق حتما ولا يضر كون خبرها ظرفا مع العدول وحصول الدلالة على التحقق لو قيل أحضرناه لا ينافى ذلك ، وقد يقال : إن فيما ذكر فى النظم الجليل شىء آخر غير الدلالة على التحقيق ليس فى قولك ثم أحضرناه يوم القيامة كالدلالة على التقوى أو الحصر والدلالة على التهويل والايقاع فى حيرة ، ولمجموع ذلك جىء بالجملة الاسمية ، ويوم متعلق بالمحضرين المذكور ، وقدم عليه للفاصلة أو هو متعلق بمحذوف وقد مر الكلام فى مثل ذلك ، وثم للتراخى فى الرتبة دون الزمان وان صح وكان فيه إبقاء اللفظ على حقيقته لانه أنسب بالسياق وهو أبلغ وأكثر إفادة وأرباب البلاغة يعدلون الى المجاز ماأمكن لتضمنه لطائف النكات .

وقرأ طلحة (أمن وعدناه) بغير فاء ، وقرأ قالون. والكسائى (ثم هو) بسكون الهاء كما قيل: عضد وعضد تشبيها للمنفصل وهو الميم الاخير من ثم بالمتصل، والآية نزلت على ماأخرج ابن جرير عن مجاهد فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت فى حمزة وأبى جهل ، وقيل : نزلت فى على كرم الله تعالى وجهه وأبى جهل ونسب إلى محمد بن كعب. والسدى ، وقيل : فى عمار رضى الله تعالى عنه. والوليد بن المغيرة،

Marfat.com

وقيل : نزلت فى المؤمن والكافر ملطقا ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ عطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا أو منصوب باضمار اذكر ونداؤه تعالى إياهم يحتمل أن يكون بواسطة وأن يكون بدونها وهو نداء اهانة وتوبيخ ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٦٣﴾ أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فان زعم مما يتعدى إلى مفعولين كقوله :

وأن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

وحذف هنا المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما نحو من يسمع يخل . وفى الكشاف يجوز حذف المفعولين فى باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما ، وادعى بعضهم أن عدم صحة الاقتصار هو الأصح وأنه الذى ذهب اليه الاكثرون . وقال الاخفش : إذا دخلت هذه الافعال ظن وأخواتها على أن نحو ظننت أنك قائم فالمفعول الثانى منهما محذوف والتقدير ظننت قيامك كائنا لأن المفتوحة بتأويل المفرد. وسيبويه يرى فى ذلك أن أن مع مابعدها سدت مسد المفعولين ، وأجاز الكوفيون الاقتصار على الاول إذا سد شىء مسد الثانى كما فى باب المبتدا نحو أقائم أخواك فيقولون هل ظننت قائما أخواك ؟ وقال أبو حيان : إذا دل دليل على أحدهما جاز حذفه كقوله :

كأن لم يكن بين إذا كان بعده * تلاق ولكن لا اخال تلاقيا

أى لا اخال بعد البين تلاقيا وقال صاحب التحفة : يجوز الاقتصار فى باب كسوت على أحد المفعولين بدليل وبغير دليل لأن الاول فيهما غير الثانى وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معنى نحو قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا معجزين) أى ولا يحسبن الذين كفروا إياهم أى أنفسهم معجزين، وقال الطيبى: فى عدم الحذف فيما عدا ماذكر. وجواز الحذف فيه لعل السر أن هذه الافعال قيود للمضامين تدخل على الجمل الاسمية لبيان ماهى عليه لأن النسبة قد تكون عن علم وقد تكون عن ظن فلو اقتصر على أحد طرفى الجملة لقيام قرينة توهم أن الذى سيق له الكلام والذى هو مهتم بشأنه الطرف المذكور وليس غير المذكور مما يعتنى به ، نعم إذا كان الفاعل والمفعول لشىء واحد يهون الخطب ، وذكر عن صاحب الاقليد مايؤيده وقد أطال طيب الله تعالى مرقده الكلام فى هذا المقام ، وادعى ابن هشام أن الاولى أن يقدر هنا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائى لأنه لم يقع الزعم فى التنزيل على المفعولين الصريحين بل على أن وصلتها كقوله تعالى: (الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) وفيه نظر . والظاهر أن المراد بالشركاء من عبد من دون الله تعالى من ملك أو جن أو انس أو كوكب أو صنم أو غير ذلك ﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل : فماذا كان بعد هذا السؤال فقيل قال :

﴿ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أى ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى: (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وغيره من آيات الوعيد، والمراد بالموصول الشركاء الذين كانوا يزعمونهم شركاء من الشياطين ورؤساء الكفر، وتخصيصهم بما فى حيز الصلة مع شمول مضمونها الاتباع أيضا لأصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، والتعبير عنهم بذلك دون الذين زعموهم شركاء لاخراج مثل عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام لشمول الشركاء على ماسمعت له ، ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة لتفطنهم إن السؤال منهم سؤال توبيخ

Marfat.com

واهانة وهو يستدعى استحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا ، وقيل : يجوز أن يكون العبدة قد أجابوا معتذرين بقولهم هؤلاء أضلونا ثم قال الشركاء ماقص الله تعالى ردا لقولهم ذلك إلا أنه لم يحك ايجازاً لظهوره ﴿ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ تمهيد للجواب والاشارة إلى العبدة لبيان أنهم يقولون مايقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده و(هؤلاء) مبتدأ خبره الموصول بعده ، وجملة أغوينا صلة الموصول والعائد محذوف للتصريح به فيما بعد أى الذين أغويناهم، وقوله تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ هو الجواب حقيقة أى ماأكرهناهم على الغى وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والالجاء فغووا باختيارهم غيامثل غينا باختيارنا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة اسم الاشارة والخبر جملة أغويناهم كماغوينا ومنع ذلك أبو على فى التذكرة بأنه يؤدى إلى أن الخبر لايكون فيه فائدة زائدة لأن اغواءهم أياهم قد علم من الوصف. ورد بأن التشبيه دل على أنهم غووا باختيار لا أن الاغواء إلجاء وقوله : إن كماغوينا فضلة فلا تصير ذاك أصلا فى الجملة ليس بشىء لأن الفضلات قد تلزم فى بعض المواضع نحو زيد عمرو قائم فى داره وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين (كما غوينا) بكسر الواو، قال ابن خالوية : وليس ذلك مختارا لان كلام العرب غويت من الضلالة وغويت بالكسر من البشم ﴿ تَبَرَّأْنَا ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى من أنفسهم موجهين التبرؤ ومهيئين له ﴿ إِلَيْكَ ﴾ والجملة تقرير لماقبلها لان الاقرار بالغواية تبرؤ فى الحقيقة ولذا لم تعطف عليه وكذا قوله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ٦٣ ﴾ أى ماكانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون فى نفس الأمر والمآل أهواءهم ، وقيل: مامصدرية متصلة بقوله تعالى: (تبرأنا) وهناك جار مقدر أى تبرأنا من عبادتهم اياانا وجعلها نافية على أن المعنى ماكانوا يعبدوننا باستحقاق وحجة ليس بشىء وأياما كان فايانا مفعول يعبدون قدم للفاصلة ﴿ وَقِيلَ ﴾ تقريعا لهم وتهكما بهم ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الذين زعمتم ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ لفرط الحيرة والافليس هناك طلب حقيقة للدعاء ، وقيل : دعوهم لضرورة الامتثال على أن هناك طلبا، والغرض من طلب ذلك منهم تفضيحهم على رءوس الاشهاد بدعاء من لانفع له لنفسه قيل : والظاهر من تعقيب صيغة الامر بالفاء فى قوله تعالى (فدعوهم) أنها لطلب الدعاء وإيجابه والأول أبلغ فى تهويل أمر أولئك الكفرة والاشارة إلى سوء حالهم وأمر التعقيب بالفاء سهل ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ، وجوز أن يكون المراد فلم يجيبوهم لانهم فى شغل شاغل عنهم ولعلهم ختم على أفواههم إذ ذاك ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ الظاهر أن الضمير للداعين وقال الضحاك : هو للداعين والمدعوين جميعا ، وقيل : هو للمدعوين فقط وليس بشىء والظاهر أن الرؤية بصرية ورؤية العذاب إما على معنى رؤية مباديه أو على معنى رؤيته نفسه بتنزيله منزلة المشاهد ،وجوز أن تكون علمية والمفعول الثانى محذوف أى رأوا العذاب متصلا بهم أو غاشيا لهم أو نحو ذلك . وأنت تعلم أن حذف أحد مفعولى أفعال القلوب مختلف فى جوازه وتقدم آنفا عن البعض أن الاكثرين على المنع فمن منع وقال فى بيان المعنى ورأوا العذاب متصلا بهم جعل متصلا حالا من العذاب ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ٦٤ ﴾ لو شرطية وجوابها محذوف أى لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب أولو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين مؤمنين لما راوا العذاب ٥

Marfat.com

واعترض بأن الدال على المحذرف رأوا العذاب وهو مثبت فلا يقدر المحذوف منفيا وهو غير وارد لأن الالتفات إلى المعنى وإذا جاز الحذف لمجرد دلالة الحال فاذا أنضم إليها شهادة المقال كان أولى وأولى، وجوزأن تكون (لو) للتمنى أى تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين فلا تحتاج إلى الجواب وقال صاحب التقريب : فيه نظر إذ حقه أن يقال لو كنا إلا أن يكون على الحكاية كاقسم ليضربن أوعلى تأويل رأوا متمنين هدايتهم وجوز على تقدير كونها للتمنى أن يكون قد وضع لو أنهم كانوا مهتدين موضع تحيروا لرؤيته كان كل أحد يتمنى لهم الهداية عند ذلك الهول والتحير ترحما عليهم أو هو من الله تعالى شأنه على المجاز كما قيل : فى قوله تعالى : (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) ، وجعل الطيبي وضعه موضعه من إطلاق المسبب على السبب لأن تحيرهم سبب حامل على هذا القول *

وقال عليه الرحمة : إن النظم على هذا الوجه ينطبق ، واختار الامام الرازى أنها شرطية إلا أنه لم يرتض ماقالوه فى تقدير الجواب فقال بعد نقل ماقالوه : وعندى أن الجواب غير محذوف ، وفى تقريره وجوه أحدها أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله سبحانه : (ادعوا شركاءكم) فهناك يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شىء كالسدر والدوار فيصيرون بحيث لا يبصرون شيئا ، فقال سبحانه : ورأوا العذب لو أنهم كانوا يبصرون شيئا على معنى أنهم لم يروا العذاب لأنهم صاروا بحيث لا يبصرون شيئا ، وثانيها أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الأصنام إنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم: (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء المهتدين ، ولكنها ليست كذلك ، والاتيان بضمير العقلاء على حسب اعتقاد القوم بهم، وثالثها أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقية هذا العذاب لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك نظم الآية اه ولعمرى أنه لم يأت بشىء ومايرد عليه أظهر من أن يخفى على من له أدنى تميز بين الحى واللى *

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ٦٤ ﴾ عطف على الأول سئلوا أولا عن إشراكهم لأنه المقصود من (أين شركائى الذين زعمتم) ، وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك *

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أصله فعموا عن الانباء أى لم يهتدوا إليها ، وفيه استعارة تصريحية تبعية حيث استعير العمى لعدم الاهتداء ثم قلب للمبالغة فجعل الانباء لا تهتدى اليهم وضمن العمى معنى الخفاء فعدى بعلى ولولاه لتعدى بعن ولم يتعلق بالانباء لانها مسموعة لا مبصرة ، وفى هذا القلب دلالة على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل اليه من الخارج ونفس الأمر اما ابتداء وإما بواسطة تذكر الصورة الواردة منه بامارتها الخارجية فاذا أخطأ الذهن الخارج بأن لم يصل اليه لانسداد الطريق بينه وبينه بعمى ونحوه لم يمكنه إحضار ولا استحضار ، وذلك لأنه لما جعل الانباء الواردة عليهم من الخارج عميا لا تهتدى دل على أنهم عمى لا يهتدون بالطريق الأولى لأن اهتداءهم بها فاذا كانت هى فى نفسها لا تهتدى فما بالك بمن يهتدى بها كذا قيل : فليتدبر ، وجوز أن يكون فى الكلام استعارة مكنية تخيلية أى فصارت الانباء كالعمى عليهم لا تهتدى اليهم ، والمراد بالانباء إما ماطلب منهم مما أجابوا به الرسل عليهم السلام أو مايعمها وكل مايمكن الجواب به ، وإذا كانت الرسل عليهم السلام يتتعتعون فى الجواب عن مثل ذلك فى ذلك المقام الهائل ويفوضون العلم إلى

Marfat.com

علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم ٥

وقرأ الأعمش . وجناح بن حبيش . وأبو زرعة بن عمرو بن جرير (فعميت) بضم العين وتشديد الميم ٥ ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى لايسأل بعضهم بعضا لفرط الدهشة أوالعلم بأن الكل سواء فى الجهل ، والفاء إما تفصيلية أو تفريعية لأن سبب العمى فرط الدهشة ٥

وقرأ طلحة (لايساءلون) بادغام التاء فى السين ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من الشرك ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى جمع بين الايمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى الفائزين بالمطلوب عنده عز وجل الناجين عن المهروب و (عسى) للتحقيق على عادة الكرام أوللترجى من قبل التائب المذكور بمعنى فليتوقع أن يفلح ، وقوله تعالى : (فأما) قيل لتفصيل المجمل الواقع فى ذهن السامع من بيان مايؤول اليه حال المشركين ، وهو أن حال من تاب منهم كيف يكون ، والدلالة على ترتب الاخبار به على ماقبله فالآية متعلقة بما عندها ٥

وقال الطيبي : هى متعلقة بقوله تعالى : (أفمن وعدناه وعدا حسنا) والحديث عن الشركاء مستطرد لذكر الاحضار ، وتعقبه فى الكشف بأن الظاهر أنه ليس متعلقا به بل لما ذكر سبحانه حال من حق عليه القول من التابع والمتبوع قال تعالى شأنه حثا لهم على الاقلاع : (فأما من تاب منهم وآمن) فكأنه قيل: ماذكر لمصيرهم فأما من تاب فكلا ٥

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ خلقه من الاعيان والأعراض ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ عطف على يخلق ، والمعنى على ما قيل يخلق مايشاؤه باختياره فلا يخلق شيئا بلا اختيار، وهذا مما لم يفهم مما يشاء فليس فى الآية شائبة تكرار، وقيل فى دفع ما يتوهم من ذلك غير ماذكر مما نقله ورده الخفاجى ولم يتعرض للقدح فى هذا الوجه ، وأراه لا يخلو عن بعد ولى وجه فى الآية سأذكره بعد إن شاء الله تعالى ٥ ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ ٥ أى التخير كالطيرة بمعنى التطير وهما والاختيار بمعنى ، وظاهر الآية نفى الاختيار عن العبد رأسا كما يقوله الجبرية ، ومن أثبت للعبد اختيارا قال : إنه لكونه بالدواعى التى لو لم يخلقها الله تعالى فيه لم يكن كان فى حيز العدم، وهذا مذهب الاشعرى على ماحققه العلامة الدوانى قال : الذى أثبته الاشعرى هو تعلق قدرة العبد وإرادته الذى هو سبب عادى لخلق الله تعالى الفعل فيه ، وإذا فتشنا عن مبادى الفعل وجدنا الارادة منبعثة عن شوق له وتصور أنه ملائم وغير ذلك من أمور ليس شىء منها بقدرة العبد واختياره ، وحقق العلامة الكورانى فى بعض رسائله المؤلفة فى هذه المسألة أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة باذن الله تعالى وأن له اختيارا لكنه مجبور باختياره وأدعى أن ذلك هو مذهب الاشعرى دون ماشاع من أن له قدرة غير مؤثرة أصلا بل هى كاليد الشلاء ونفى الاختيار عنه على هذا نحوه على مامر فانه حيث كان مجبورا به كان وجوده كالعدم ، وقيل: إن الآية أفادت نفى ملكهم للاختيار ويصدق على المجبور باختياره بأنه غير مالك للاختيار إذ لا يتصرف فيه كما يشاء تصرف المالك فى ملكه ، وقيل : المراد لايليق ولا ينبغى لهم أن يختاروا عليه تعالى أى لا ينبغى لهم التحكم عليه سبحانه بأن يقولوا لم لم يفعل الله تعالى كذا ٥

ويؤيده أن الآية نزلت حين قال الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أو حين قال اليهود لو كان الرسول الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غير جبريل عليه السلام لآمنا به على ماقيل، والجملة

Marfat.com

على هذا الوجه مؤكدة لما قبلها أو مفسرة له اذ معنى ذلك يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء أن يختاره لا ما يختاره العباد عليه ولذا خلت عن العاطف وهى على ما تقدم مستأنفة فى جواب سؤال تقديره فما حال العباد أو هل لهم اختيار أو نحوه ؟ فقيل : إنهم ليس لهم اختيار ، وضعف هذا الوجه بأنه لا دلالة على هذا المعنى فى النظم الجليل وفيه حذف المتعلق وهو على الله تعالى من غير قرينة دالة عليه ، وكون سبب النزول ماذكر ممنوع ، والقول الثانى فيه يستدعى بظاهره أن يكون ضمير لهم لليهود وفيه من البعد ما فيه ، وقيل : (ما) موصولة مفعول يختار والعائد محذوف ، والوقف على يشاء لا نافية ، والوقف على يختار كما نص عليه الزجاج . وعلى بن سليمان . والنحاس كما فى الوجهين السابقين أى ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح ، واختياره تعالى ذلك بطريق التفضل والكرم عندنا وبطريق الوجوب عند المعتزلة ، وإلى موصولية ما وكونها مفعول يختار ذهب الطبرى إلا أنه قال فى بيان المعنى عليه : أى ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس ، وأنكر أن تكون نافية لئلا يكون المعنى أنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل ، وادعى أبو حيان أنه روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما معنى ما ذهب اليه ، واعترض بأن اللغة لا تساعده لأن المعروف فيها أن الخيرة بمعنى الاختيار لا بمعنى الخير وبأنه لا يناسب ما بعده من تعالى قوله : (سبحان الله) الخ ، وكذا لا يناسب ما قبله من قوله سبحانه : (يخلق مايشاء) ، وضعفه بعضهم بأن فيه حذف العائد ولا يخفى أن حذفه كثير. وأجيب عما اعترض به الطبرى بأنه يجوز أن يكون المراد بمعونة المقام استمرار النفى ، أو يكون المراد ما كان لهم فى علم الله. تعالى ذلك ، وهذا بعد تسليم لزوم كون المعنى ما ذكره لو أبقى الكلام على ظاهره . وقال ابن عطية : يتجه عندى أن يكون ما مفعول يختار إذا قدرنا كان تامة أى إن الله تعالى يختار كل كائن ولا يكون شىء إلا باذنه وقوله تعالى : (لهم الخيرة) جملة مستأنفة معناها تعديد النعمة عليهم فى اختيار الله سبحانه لهم لو قبلوا وفهموا اه يعنى والله تعالى أعلم أن المراد خيرة الله تعالى لهم أى اختياره لمصلحتهم . وللفاضل سعدى جلبي نحو هذا إلا أنه قال فى قوله تعالى : (لهم الخيرة) إنه فى معنى ألهم الخيرة بهمزة الاستفهام الانكارى ، وذكر أن هذا المعنى يناسبه ما بعد من قوله سبحانه : (سبحان الله) الخ فانه إما تعجيب عن إثبات الاختيار لغيره تعالى أو تنزيه له عزوجل عنه ، ولا يخفى ضعف ما قالاه لما فيه من مخالفة الظاهر من وجوه . ويظهر لى فى الآية غير ماذكر من الاوجه ، وهو أن يكون يختار معطوفا على يخلق والوقف عليه تام كما نص عليه غير واحد وهو من الاختيار بمعنى الانتقاء والاصطفاء وكذا الخيرة بمعنى الاختيار بهذا المعنى والفعل متعد حذف مفعوله ثقة بدلالة ما قبله عليه أى ويختار ما يشاء ، وتقديم المسند اليه فى كل من جانبي المعطوف والمعطوف عليه لافادة الحصر ، وجملة ما كان لهم الخيرة مؤكدة لما قبلها حيث تكفل الحصر بافادة النفى الذى تضمنته ، والكلام مسوق لتجهيل المشركين فى اختيارهم ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة مما يرمز اليه (ادعوا شركاءكم) وللتعبير - بما - وجه ظاهر ، والمعنى وربك لا غيره يخلق مايشاء خلقه وهو سبحانه دون غيره ينتقى ويصطفى ما يشاء انتقاءه واصطفاءه فيصطفى مما يخلقه شفعاء ويختارهم للشفاعة ويميز بعض مخلوقاته جل جلاله على بعض ويفضله عليه بما شاء ما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاءوا ويميزوا بعض مخلوقاته تعالى على بعض ويجعلوه مقدما عنده عز وجل على غيره لأن ذلك يستدعى القدرة

Marfat.com

الكاملة وعدم كون فاعله محجورا عليه أصلا وأنى لهم ذلك فليس لهم الا اتباع اصطفاء الله تعالى وهو جل وعلا لم يصطف شركاءهم الذين اصطفوهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذى اصطفوهم عليه فما هم الا جهال ضلال صدوا عما يلزمهم وتصدوا لما ليس لهم بحال من الاحوال ، وإن شئت فنزل الفعل منزلة اللازم وقل المعنى وربك لاغيره يخلق مايشاء خلقه وهو سبحانه لاغيره يفعل الاختيار والاصطفاء فيصطفى بعض مخلوقاته لكذا وبعضا آخر لكذا ويميز بعضا منها على بعض ويجعله مقدما عنده تعالى عليه فانه سبحانه قادر حكيم لايسأل عما يفعل وهو جل وعلا أعظم من أن يعترض عليه وأجل ، ويدخل فى الغير المنفى عنه ذلك المشركون فليس لهم أن يفعلوا ذلك فيصطفوا بعض مخلوقاته للشفاعة ويختاروهم للعبادة ويجعلوهم شركاء له عز وجل ويدخل فى الاختيار المنفى عنهم ماتضمنه قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان فيه انتقاء غيره ﷺ من الوليد ابن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى وتمييزه بأهلية تنزيل القرآن عليه فان صح ماقيل : فى سبب نزول هذه الآية من أنه القول المذكور كان فيهارد ذلك عليهم أيضا الا أنها لتضمنها تجهيلهم باختيارهم الشركاء واصطفائهم أياهم آلهة وشفعاء كتضمنها الرد المذكور جئ بها هنا متعلقة بذكر الشركاء وتقريع المشركين على شركهم ، وربما يقال : إنها لما تضمنت تجهيلهم فيما له نوع تعلق به تعالى كاتخاذ الشركاء له سبحانه وفيما له نوع تعلق بخاتم رسله عليه الصلاة والسلام كتمييزهم غيره عليه الصلاة والسلام بأهلية الارسال اليه وتنزيل القرآن عليه جئ بها بعد ذكر سؤال المشركين عن اشراكهم وسؤالهم عن جوابهم للمرسلين الناهين لهم عنه الذين عين أعيانهم وقلب صدر ديوانهم رسوله الخاتم لهم صلى الله تعالى عليه وسلم فلها تعلق بكلا الامرين إلا أن تعلقها بالامر الاول أظهر وأتم وخاتمتها تقتضيه على أكمل وجه وأحكم . وربما يقال أيضا : إن لها تعلقا بجميع ماقبلها ، أما تعلقها بالامرين المذكورين فكما سمعت ، وأما تعلقها بذكر حال التائب فمن حيث أن انتظامه فى سلك المفلحين يستدعى اختيار الله تعالى إياه واصطفاءه له وتمييزه على من عداه ، ولذا جئ بها بعد الامور الثلاثة وذكر انحصار الخلق فيه تعالى وتقديمه على انحصار الاختيار والاصطفاء مع أن مبنى التجهيل والرد إنما هو الثانى للاشارة إلى أن انحصار الاختيار من توابع انحصار الخلق ، وفى ذكره تعالى بعنوان الربوبية إشارة إلى أن خلقه عز وجل ماشاء على وفق المصلحة والحكمة وإضافة الرب اليه صلى الله تعالى عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام وهى فى غاية الحسن إن صح ماتقدم عن الوليد سبب النزول ، ويخطر فى الباب احتمالات أخر فى الآية فتأمل فانى لاأقول ماأبديته هو المختار كيف وربك جل شأنه يخلق مايشاء ويختار ﴿ سُبْحَـٰنَ اللَّهِ ﴾ أى تنزه تعالى بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره عز شأنه ﴿ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨ ﴾ أى عن اشراكهم على أن ما مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة بتقدير مضاف أى عن مشاركة مايشركونه به كذا قيل ، وجعل بعضهم (سبحان الله) تعجيبا من اشراكهم من يضرهم بمن يريد لهم كل خير تبارك وتعالى وهو على احتمال كون (ما) فيما تقدم موصولة مفعول يختار ، والمعنى ويختار ماكان لهم فيه الخير والصلاح ، ويجوز أن يكون تعجيبا أيضا من اختيارهم شركاءهم الذين أعدوهم للشفاعة واقدامهم على مالم يكن لهم وذلك بناء على ماظهر لنا وظاهر كلام كثير أن الآية ليست من باب الإعمال ، وجوز أن تكون منه بأن يكون كل من سبحان وتعالى طالبا عما يشركون والأفيد على ماقيل أن لاتكون منه •

Marfat.com

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أى ما يكنون ويخفون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩ ﴾ ومايظهرونه من الافعال الشنيعة والطعن فيه عليه الصلاة والسلام وغيرذلك ، ولعله للمبالغة فى خباثة باطنهم لأن مافيه مبدأ لمايكون فى الظاهر من القبائح لم يقل مايكنون كما قيل : مايعلنون ٠

وقرأ ابن محيصن (تكن) بفتح التاء وضم الكاف ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ أى وهو تعالى المستأثر بالألوهية المختص بها ، وقوله سبحانه : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تقرير لذلك كقولك : الكعبة القبلة لاقبلة إلاهى ٠

﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾ أى له تعالى ذلك دون غيره سبحانه لأنه جل جلاله المعطى لجميع النعم بالذات وماسواه وسائط ، والمراد بالحمد هنا ماوقع فى مقابلة النعم بقرينة ذكرهابعده بقوله تعالى : (قل أرأيتم) الخ ٠

وزعم بعضهم أن الحمد هنا أعم من الشكر ، واعتبر الحصر بالنسبة إلى مجموع حمدى الدارين زاعما أن الحمد فى الدنيا وإن شاركه فيه غيره تعالى لكن الحمد فى الآخرة لايكون إلا له تعالى ، وفيه أن الحمد مطلقا مختص به تعالى لأن الفضائل والأوصاف الجميلة كلها بخلقه تعالى فيرجع الحمدعليها فى الآخرة له تعالى لأنه جل وعلا مبديها ومبدعها ، ولو نظر إلي الظاهر لم يكن حمدالآخرة مختصابه سبحانه أيضا فان نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يحمده الأولون والآخرون عند الشفاعة الكبرى ، وفسر غير واحد حمده تعالى فى الآخرة بقول المؤمنين : (الحمد لله الذى صدقناوعده) وقولهم : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ، وقولهم : (الحمد لله رب العالمين) ، وقالوا : التحميد هناك على وجه اللذة لاالكلفة ، وفى حديث رواه مسلم . وأبو داود ، عن جابر فى وصف أهل الجنة يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفس ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره تعالى ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أى له الحكم بين عباده تعالى فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره ٠

﴿ تُرْجَعُونَ ٧٠ ﴾ بالبعث ﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لماذكر ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى أخبرونى ، وقرأ الكسائى (أريتم) بحذف الهمزة ﴿ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أى دائما وهوعند البعض من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة لدلالة الاشتقاق عليه فوزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص ، يقال : درع دلاص أى ملساء لينة ٠

واختار بعض النحاة أن الميم أصلية فوزنه فعلل لأن الميم لا تنقاس زيادتها فى الوسط ، ونصبه إما على أنه مفعول ثان لجعل أو على أنه حال من الليل ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ إما متعلق بسرمدا أو بجعل ، وجوز أبو البقاء أيضا تعلقه بمحذوف وقع صفة لسرمدا وجعله تعالى كذلك باسكان الشمس تحت الأرض مثلا وقوله تعالى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقوله سبحانه : ﴿ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ صفة لإله ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض) وقوله سبحانه : (فمن يأتيكم بماء معين) ونظائرهما خلا إنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ، ولم

Marfat.com

يؤت بهل التى هى لطلب التصديق المناسب بحسب الظاهر للمقام ، وأتى بمن التى هى لطلب التعيين المقتضى لأصل الوجود لايراد التبكيت والالزام على زعمهم فانه أبلغ كما لا يخفى، وجملة (من إله) الخ قال أبو حيان : فى موضع المفعول الثانى لأرأيتم وجعل الليل مما تنازع فيه أرأيتم وجعل وقال : إنه أعمل فيه الثانى فيكون المفعول الأول للاول محذوفا ، وحيث جعلت تلك الجملة فى موضع مفعوله الثانى لابد من تقدير العائد فيها أى من إله غيره يأتيكم بضياء بدله مثلا، وجواب إن محذوف دل عليه ماقبله ، وكذا يقال فى الآية بعد ، وعن ابن كثير أنه قرأ (بضآء) بهمزتين ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول الدلائل الباهرة والنصوص المتظاهرة لتعرفوا أن غير الله تعالى لا يقدر على ذلك ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ باسكان الشمس فى وسط السماء مثلا ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحة من متاعب الاشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة لتقفوا على أن غير الله تعالى لا قدرة له على ذلك ، ويعلم مما ذكرنا أن كلا من جملتى أفلا تسمعون وأفلا تبصرون تذييل للتوبيخ الذى يعطيه قوله تعالى : (أرأيتم إن جعل الله عليكم) الخ قبله ، وأفاد الزمخشرى أن ظاهر التقابل يقتضى ذكر النهار والتصرف فيه إلا أن العدول عن ذلك إلى الضياء وهو ضوء الشمس للدلالة على أنه يتضمن منافع كثيرة منها التصرف فلو أتى بالنهار لاستدعى القصر على تلك المنفعة من ضرورة التقابل ولأن المنافع للضياء لا للنهار على أن النهار أيضا من منافعه، ثم استشعر أن يقال : فلم لم يؤت بالظلام بدل الليل فى الآية الثانية لتتم المقابلة من هذا الوجه ؟ وأجاب بأنه ليس بتلك المنزلة فلا هو مقصود فى ذاته كالضياء ولا أن المنافع من روادفه مع مافيهما من الاستئناس والاشمئزاز ، بل لو تأمل حق التأمل وجد حكم بأن الليل من منافع الضياء أيضا والظلام من ضرورات كون الشمس المضيئة تحت الارض وإلقاء ظل الليل ، ثم أفاد أن التفصلة وهو التذييل المذكور فيها إرشاد إلى هذه النكتة فان قوله تعالى : (أفلا تسمعون) يدل على أن التوبيخ بعدم التأمل فى الضياء أكثر من حيث إن مدرك السمع أكثر . والمراد ما يدركه العقل بواسطة السمع فلا يرد أن مدركه الاصوات وحدها ومدرك البصر أكثر من ذلك ، وذلك أن ما لا يدرك بحس أصلا يدرك بواسطة السمع إذا عبر عنه المعبر بعبارة مفهمة ، وأما ما يدرك بالبصر فمن مشاهدة المبصرات وهى قليلة ، وأما المطالعة من الكتب فانها أضيق مجالا من السمع وقرعه كذا فى الكشف ، والعلامة الطيبى قرر عبارة الكشاف بما قرر ثم قال : الابعد من التكلف أن يجعل أفلا تسمعون تذييلا للتوبيخ المستفاد من أرأيتم الخ قبله وكذا (أفلا تبصرون) على ما فى المعالم أفلا تسمعون سماع فهم وقبول أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ ليجتمع لهم الصمم والعمى من الإعراض عن سماع البراهين والاغماض عن رؤية الشواهد .

ولما كانت استدامة الليل أشق من استدامة النهار لأن النوم الذى هو أجل الغرض فيه شبيه الموت والابتغاء من فضل الله تعالى الذى هو بعض فوائد النهار شبيه بالحياة قيل فى الاول أفلا تسمعون أى سماع فهم وفى الثانى أفلا تبصرون أى ماأنتم عليه من الخطأ ليطابق كل من التذييلين الكلام السابق من التشديد والتوبيخ ، وذكر فى حاصل المعنى ماذكرناه أولا ثم قال : وفيه أن دلالة النص أولى وأقدم من العقل ، وصاحب الكشف قرر

Marfat.com

العبارة بماسمعت وذكر أن ذلك لاينافى مافى المعالم بل يؤكده ويبين فائدة التوبيخين ، ونقل الطيبي عن الراغب فى غرة التنزيل أنه قال: إن نسخ الليل بالنير الاعظم أبلغ فى المنافع وأضمن للمصالح من نسخ النهار بالليل، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم لاليل معه لاستغناء أهلها عن الاستراحة فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذى هو أجدى من تفاريق العصا ومنافع ضوء شمسه أكثر من أن تحصى أحق وأولى، ومعنى قوله تعالى : (أفلا تسمعون) أفلا تسمعون سماع من يتدبر المسموع ليستدرك منه قصد القائل ويحيط بأكثر ما جعل الله تعالى فى النهار من المنافع فان عقيب السماع استدراك المراد بالمسموع إذا كان هناك تدبر وتفكر فيه ومعنى (أفلا تبصرون) أتستدركون من ذلك مايجب استدراكه انتهى ٭

وفى الكشف أنه مؤيد لماذكره صاحب الكشاف ، وربما يقال ذكر سبحانه أولا فرضية جعل الليل سرمدا وثانيا فرضية جعل النهار كذلك لأن الليل كما قالوا مقدم على النهار شرعا وعرفا وأيضا ذلك أوفق بقوله تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم ومايعلنون) فنى المثل الليل أخفى للويل وكذا بقوله تعالى سبحانه (له الحمد فى الاولى والآخرة) فنى الاثر كان الخلق فى ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره ، ولعله لاعتبار الاولية والآخرية ذيلت الآية الأولى بقوله تعالى: (أفلا تسمعون) بناء على أن المعنى أفلا تسمعون ممن سلف من آبائكم أو مما سلف منا أن آلهتكم لاتقدر على مثل ذلك والثانية بقوله سبحانه: (أفلا تبصرون) بناء على أن المعنى أفلا تبصرون أنتم عجزها عن مثل ذلك وجئ بالضياء غير موصوف فى الآية الاولى وبالليل موصوفا فى الثانية لماافاده الزمخشرى وقيل فى وجه تذييل الآية الاولى بقوله تعالى: (أفلا تسمعون) دون قوله سبحانه: (أفلا تبصرون) أن المفروض لو تحقق بقى معه السمع دون الابصار إذ ظلمة الليل لاتحجب السمع وتحجب البصر، وفى وجه تذييل الثانية بقوله تعالى (أفلا تبصرون) دون (أفلا تسمعون) أن تحقق المفروض وعدمه سيان فى أمر السمع دون الابصار إذ لضياء النهار مدخل فى الابصار وليس له مدخل فى السمع أصلا وهو كما ترى ﴿واعلم﴾ أن ههنا اشكالا وهو أن جعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة أن تحقق لم يتصور الاتيان بضياء أصلا وكذا جعل النهار سرمدا إلى يوم القيامة إن تحقق لم يتصور الاتيان بليل كذلك، أما من غيره تعالى فظاهر لأنه معدن العجز عن كل شىء ، وأما منه عز وجل فلا ستلزامه اجتماع الليل والنهار إذا لولم يجتمعا لم يتحقق الليل مستمرا إلى يوم القيامة وكذا جعل النهار كذلك وهو خلاف المفروض واجتماعهما محال والمحال لاصلاحية له لتعلق القدرة فلا يراد ٭

وأجيب بأن المراد إن اراد سبحانه ذلك فمن اله غيره تعالى يأتيكم بخلاف مراده سبحانه بأن يقطع الاستمرار فيأتى بنهار بعد ليل وليل بعد نهار ، واعترض بأنه يفهم من الآية حينئذ أنه جل وعلا هو الذى إن اراد ذلك يأتيهم بخلاف مراده تعالى فيقطع الاستمرار وهو مشكل أيضا لأن اتيانه تعالى بخلاف مراده جل وعلا مستلزم لتخلف المراد عن الارادة وهو محال فاذا اراد الله تبارك وتعالى شيأ على وجه ارادة لاتعليق فيها لايمكن أن يريده على خلاف ذلك الوجه ، وأجيب بأنه يجوز أن يكون المراد إن أراد الله تعالى ذلك غير معلق له على ارادته عز شأنه خلافه لايأتيكم بخلافه غيره عز وجل ولم يصرح بالقيد لدلالة العقل الصريح على أن الارادة غير المعلقة لايمكن الاتيان بخلاف موجبها أصلا، ومن الناس من ذهب إلى أنه سبحانه لايبت ارادته لجميع مايريده جل شأنه معلق ، وقيل : الأولى أن يقال: ليس المراد سوى أن آلهتهم لايقدرون على الاتيان بنهار

Marfat.com

بعد ليل وليل بعد نهار إذا أراد الله تعالى شأنه استمرار أحدهما ، وإنما القادر على الاتيان بذلك هو الله سبحانه وحده من غير نظر إلى كون ذلك الاتيان مقيدا بتلك الارادة فتدبر ﴿ وَمِن رَّحْمَتِه ﴾ أى بسبب رحمته جل شأنه ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فيه ﴾ أى فى الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه ﴾ أى فى النهار بالسعى بانواع المكاسب ففى الآية مايقال له اللف والنشر ويسمى أيضا التفسير كقول ابن حيوش :

ومقرطق يغنى النديم بوجهه عن كأسه الملأى وعن ابريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

وضمير فضله لله تعالى ، وجوز أبو حيان كونه للنهار على الاسناد المجازى وهو خلاف الظاهر ، وفيها إشارة إلى مدح السعى فى طلب الرزق وقد ورد «الكاسب حبيب الله» وهو لا ينافى التوكل وأن مايحصل للعبد بواسطته فضل من الله عز وجل وليس مما يجب عليه سبحانه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٣ ﴾ أى ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل مافعل أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ منصوب باذكر ٭

﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ٧٤ ﴾ تقريع إثر تقريع للاشعار بأنه لاشىء أجلب لغضب الله تعالى من الاشراك كالاشىء أدخل فى مرضاته من توحيده عز وجل ، أو أن الأول لبيان فساد رأيهم كما يشير اليه قوله تعالى هناك : (حق عليهم القول) ، وهذا لبيان أن إشراكهم لم يكن عن سند بل عن محض هوى كما يشير اليه قوله تعالى بعد (هاتوا برهانكم) أو الاول إحضار للشركاء بعدم الصلوح لقوله سبحانه بعده : (ادعوا شركاءكم فدعوهم) وهذا تحسير بأنهم لم يكونوا فى شىء من اتخاذهم ألا ترى قوله تعالى : (وضل عنهم ماكانوا يفترون) ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه والالتفات إلى نون العظمة لابراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله أى أخرجنا بسرعة ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ شَهِيدًا ﴾ شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبى تلك الأمة كما روى عن مجاهد ، وقتادة ، ويؤيده قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) وهذا فى موقف من مواقف يوم القيامة فلا يضر كون الشهيد فى موقف آخر غير الأنبياء عليهم السلام وهم أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أو الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى : (وجىء بالنبيين والشهداء) فانه دال فى الظاهر على مغايرة الشهداء للانبياء عليهم السلام ٭

وقيل : يجوز اتحاد الموقف والدلالة على المغايرة غير مسلمة ولو سلمت فشهادة الأنبياء عليهم السلام لاتنافى شهادة غيرهم معهم ، وقوله تعالى : (من كل أمة) وإفراد شهيد ظاهر فيما تقدم ، ومن هنا قال فى البحر قيل : أى عدولا وخيارا ، والشهيد عليه اسم جنس ﴿ فَقُلْنَا ﴾ لكل من تلك الأمم ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ٭ ﴿ فَعَلِمُوا ﴾ ٭ يومئذ ٭ ﴿ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ ٭ فى الألوهية لايشاركه سبحانه فيها أحد ٭ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ اى وغاب عنهم غيبة الشىء الضائع فضل مستعار لمعنى غاب استعارة تبعية ٭ ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٧٥ ﴾ ٭ فى الدنيا من الباطل ٭ ﴿ إِنَّ قَارُونَ ﴾ ٭ اسم أعجمى منع الصرف للعلمية والعجمة

Marfat.com

(كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) أى من بنى إسرائيل كما هو الظاهر ، وحكى ابن عطية الاجماع عليه ، واختلف فى جهة قرابته من موسى عليه السلام فروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وابن جريج . وقتادة . وإبراهيم أنه ابن عم موسى عليه السلام فموسى بن عمران بن قاهث بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة ابن لاوى بالقصر ابن يعقوب عليه السلام وهو ابن يصهر بياء تحتية مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة ابن قاهث الخ *

وفى مجمع البيان عن عطاء عن ابن عباس أنه ابن خالة موسى عليه السلام ، وروى ذلك عن أبى عبد الله رضى الله تعالى عنه *

وحكى عن محمد بن إسحق أنه عم موسى عليه السلام وهو ظاهر على قول من قال : إن موسى عليه السلام ابن عمران بن يصهر بن قاهث وهو ابن يصهر بن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة وأقرأهم لكنه نافق كما نافق السامرى ؛ وقال : إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى ؟ وروى أنه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة لهرون يقرب القربان ويكون رأسا فيهم وكان القربان إلى موسى عليه السلام فجعله لأخيه هرون وجد قارون فى نفسه فحسدهما فقال لموسى الأمر لكما ولست على شىء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال والله تعالى لاأصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجىء كل واحد بعصاه فجزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون : ماهو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو تكبر عليهم وعد من تكبره أنه زاد فى ثيابه شبراً أو ظلمهم وطلب ما ليس حقه قيل : وذلك حين ملكه فرعون على بنى إسرائيل *

وقيل : حسدهم وطلب زوال نعمهم ، وذلك ماذكر منه فى حق موسى وهرون عليهما السلام ، والفاء فصيحة أى ضل فبغى ، وجوز أن تكون على ظاهرها لأن القرابة كثيرا ماتدعو الى البغى ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أى الاموال المدخرة فهو مجاز بجعل المدخر كالمدفون ان كان الكنز مخصوصا به ، وحكى فى البحر أنه سميت أمواله كنوزا لانها لم تؤد منها الزكاة وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى وهو من أسباب عداوته اياه ، وقيل : الكنوز هنا الاموال المدفونة وكان كما روى عن عطاء قد أظفره الله تعالى بكنز عظيم من كنوز يوسف عليه السلام ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أى مفاتح صناديقه فهو على تقدير مضاف أو الاضافة لأدنى ملابسة وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به *

وقال السدى : أى خزائنه وفى معناه قول الضحاك أى ظروفه وأوعيته ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس ، والحسن وقياس واحده على هذا المفتح بالفتح لأنه اسم مكان ، ويؤيد ماتقدم قراءة الأعمش مفاتيحه بياء جمع مفتاح و(ما) موصولة ثانى مفعولى آتى ومفاتحه اسم إن وقوله تعالى : ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ ﴾ خبرها والجملة صلة ما والعائد الضمير المجرور ، ومنع الكوفيون جواز كون الجملة المصدرة بان صلة للموصول ، قال النحاس : سمعت على بن سليمان - يعنى الاخفش الصغير - يقول ماأقبح مايقوله الكوفيون فى الصلات أنه لايجوز أن تكون صلة

Marfat.com

الذى إن وماعملت فيه وفى القرآن ماإن مفاتحه انتهى ، ولايخفى أن المانع من ذلك إن كان عدم السماع فالرد عليهم لايتم الا بشاهد لايحتمل غير ذلك و(ما) فى الآية تحتمل أن تكون نكرة موصوفة وإن كان المانع كون إن تقع فى ابتداء الكلام فلاترتبط الجملة المصدرة بها بما قبلها فالرد بالآية المذكورة عليهم تام لأن المانع المذكور كما يمنع كون الجملة صلة يمنع كونها صفة فتدبر، و(تنوء) من ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله فالباء للتعدية كما فى ذهبت به ، والعصبة الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ماذكره الراغب ، ومن أهل اللغة من عين لها مقدارا واختلفوا فيه فقيل من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى هنا عن مجاهد ، وقيل : مابين الخمسة عشر إلى الاربعين وروى ذلك عن الكلبي ، وقيل : مابين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من عشرة إلى أربعين وروى هذا عن قتادة وقيل : أربعون ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : سبعون ، وروى ذلك عن أبى صالح مولى أم هانىء وقال الخفاجى: قديقال إن أصل معناها الجماعة مطلقا كما هو مقتضى الاشتقاق ثم أن العرف خصها بعدد واختلف فيه أو اختلف بحسب موارده ، وقال أبو زيد : تنوء من نؤت بالحمل إذا نهضت به قال الشاعر :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها وتمشى الهوينا عن قريب فتبهر

وفى الآية على هذا قلب عند أبى عبيدة ومن تبعه والاصل تنوء العصبة بها أى تنهض ، وقيل: يجوز أن لايكون هناك قلب لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة اذا نهضت العصبة بها، والأولى ماقدمناه أولا وهو منقول عن الخليل. وسيبويه. والفراء. واختاره النحاس، وروى معناه عن ابن عباس . وأبى صالح . والسدى، وقرأ بديل بن ميسرة (لينوء) بالباء التحتية، وخرج ذلك أبو حيان على تقدير مضاف مذكر يرجع اليه الضمير أى ما إن حمل مفاتحه أو مقدارها أو نحو ذلك، وقال ابن جنى : ذهب بالتذكير الى ذلك القدر والمبلغ فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ونحوه ، قول الراجز ٭ مثل الفراخ نتفت حواصله ٭ أى حواصل ذلك أو حواصل ماذكرنا، وقال الزمخشرى : وجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ويعطيها حكم ما أضيفت اليه للملابسة والاتصال كقولك ذهبت أهل اليمامة انتهى ، وإنما فسر المفاتح بالخزائن دون مايفتح به ليتم الاتصال فان اتصال الخزائن بالمخزون فوق اتصال المفاتيح به بل لااتصال للثانى وحينئذ يكتسى التذكير من المضاف اليه كما اكتسى التأنيث من عكسه كالمثال الذى ذكره ، وما تقدم عن غيره أولى . قال فى الكشف لأن تفسير المفاتح بالخزائن ضعيف جدا لفوات المبالغة ، وقيل : إن المفاتح بذلك المعنى غير معروف وقد سمعت أنه تفسير مأثور فاذا صح ذلك فلا يلتفت الى ماذكر من هذا وكلام الكشف، وذكر أبو عمرو الدانى أن بديل بن ميسرة قرأ (ما إن مفتاحه) على الافراد فلاتحتاج قراءته (لينوء) بالياء الى تأويل ، وقد بولغ فى كثرة مفاتيحه فروى عن خيثمة أنها كانت وقر ستين بغلا أغر محجلا مايزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز ، وفى رواية أخرى عنه كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح على خزانة على حدة فاذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلا أغر محجلا ٭ وفى البحر ذكروا من كثرة مفاتحه ماهو كذب أو يقارب الكذب فلم أكتبه ، ومما لامبالغة فيه ماروى عن ابن عباس من أن المفاتح الخزائن وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف وعليه فأمثال قارون فى الناس أكثر من خزائنه ، ولعل الآية تشير الى ما أوتيه فوق ذلك ، ولاأظن الامر كما روى عن خيثمة ، وأبعد أبو مسلم فى تفسير الآية فقال : المراد من المفاتح العلم والاحاطة

Marfat.com

كما فى قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) والمراد وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ قال الزمخشرى: هو متعلق بتنوء وضعف بأن اثقال المفاتح العصبة ليس مقيدا بوقت قول قومه ، وقال ابن عطية : يبغى ، وضعف بنحو ذلك ، وقال أبو البقاء : بآتينا ، ويجوز أن يكون ظرفا لمحذوف دل عليه الكلام أى بغى عليهم إذ قال ، وفى كل منهما ماسبق ، وقال الحوفى منصوب باذكر محذوفا ، وجوز كونه متعلقا بما بعده من قوله تعالى: (قال إنما أوتيته) والجملة مقررة لبغيه ورجح تعلقه بمحذوف والتقدير أظهر التفاخر والفرح بما أوتى إذ قال له قومه ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ لاتبطر والفرح بالدنيا لذاتها مذموم لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فان العلم بأن مافيها من اللذة مفارقة لامحالة يوجب الترح حتما كما قال أبو الطيب :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وقال ابن شمس الخلافة :

وإذا نظرت فان بؤسا زائلا للمرء خير من نعيم زائل

ولذلك قال عزوجل : (ولا تفرحوا بما آتاكم) والعرب تمدح بترك الفرح عند اقبال الخير قال الشاعر :

ولست بمفراح إذ الدهر سرنى ولاجازع من صرفه المتقلب

وقال آخر: إن تلاق منفسا لاتلقنا فرح الخير ولانكبو لضر

وعلل سبحانه النهى ههنا بكون الفرح مانعا من محبته عز وجل فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ٦٧ ﴾ فهو دليل إنى على كون الفرح بالدنيا مذموما شرعا، وإنما قلنا. إن الفرح بها لذاتها مذموم لأن الفرح بها لكونها وسيلة إلى أمر من أمور الآخرة غير مذموم ، ومحبه الله تعالى عند كثير صفة فعل أى أنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا ينعم جل شأنه عليهم ولا يقربهم عز وجل ، والمراد أنه تعالى يبغضهم ويهينهم ويبعدهم عن حضرته سبحانه ، وقال بعضهم : إن فى نفى محبته تعالى أياهم تنبيها على أن عدم محبته تعالى كاف فى الزجر عما نهى عنه فما بالك بالبغض والعقاب وهو حسن ، وحكى عيسى بن سليمان الحجازى أنه قرىء (الفارحين) *

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ من الكنوز والغنى ﴿ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أى ثوابها أى ثواب الله تعالى فيها بصرف ذلك إلى مايكون وسيلة اليه و(فى) إما ظرفية على معنى ابتغ متقلبا ومتصرفا فيه أو سببية على معنى ابتغ بصرف ماأتاك الله تعالى ذلك وقرىء (اتبع) ﴿ وَلَا تَنْسَ ﴾ أى ولا تترك ترك المنسى ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أى حظك منها وهو كما أخرج الفريابى . وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن تعمل فيها لآخرتك ، وروى ذلك عن مجاهد *

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة هو أن تاخذ من الدنيا ماأحل الله تعالى لك ، وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن منصور قال: ليس هو عرض من عرض الدنيا ولكن نصيبك عمرك أن تقدم فيه لآخرتك ، وأخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن أنه قال فى الآية : قدم الفضل وأمسك مايبلغك، وقال مالك: هو الاكل والشرب بلا سرف ، وقيل : ارادوا بنصيبه من الدنيا الكفن كما قال الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تلوى فيهما وحنوط

Marfat.com

وفى نهيهم إياه عن نسيان ذلك حض عظيم له على التزود من ماله للآخرة فان من يكون نصيبه من دنياه وجميع ما يملكه الكفن لا ينبغى له ترك التزود من ماله وتقديم ماينفعه فى آخرته ﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى عباد الله عز وجل ﴿ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أى مثل إحسانه تعالى إليك فيما أنعم به عليك،والتشبيه فى مطاق الاحسان أو لاجل إحسانه سبحانه إليك على أن الكاف للتعليل *

وقيل : المعنى وأحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله تعالى عليك بالإنعام ، والكاف عليه أيضا تحتمل التشبيه والتعليل ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ نهى عن الاستمرار على ماهو عليه من الظلم والبغى * ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ٧٧ ﴾ الكلام فيه كالكلام فى قوله سبحانه : (إن الله لا يحب الفرحين) وهذه الموعظة بأسرها كانت من مؤمنى قومه كما هوظاهر الآية ، وقيل : إنها كانت من موسى عليه السلام ﴿قَالَ﴾ مجيبا لمن نصحه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ كأنه يريد الرد على قولهم : كما أحسن الله اليك لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله ، وحاصله دعوى استحقاقه لما أوتيه لما هو عليه من العلم ، وقوله (على علم) عند أكثر المعربين فى موضع الحال من مرفوع أوتيته قيد به العامل إشارة الى علة الايتاء ووجه استحقاقه له أى إنما أوتيته كائنا على علم ، وجوز كون على تعليلية والجار والمجرور متعلق بأوتيت على أنه ظرف لغو كأنه قيل أوتيته لاجل علم ، و(عندى) فى موضع الصفة لعلم والمراد لعلم مختص بى دونكم ، وجوز كونه متعلقا بأوتيت ، ومعناه فى ظنى ورأيى كما فى قولك : حكم كذا الحل عند أبى حنيفة عليه الرحمة ، وفى الكشاف ماهو ظاهر فى أن عندى اذا كان بمعنى فى ظنى ورأيى كان خبر مبتدا محذوف أى هو فى ظنى ورأيى هكذا ، والجملة عليه مستأنفة تقرر أن ماذكره رأى مستقر هو عليه ، قال فى الكشف : وهذا هو الوجه ، والمراد بهذا العلم قيل علم التوراة فانه كان أعلم بنى اسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الدارانى :علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقال ابن المسيب : علم الكيمياء ، وكان موسى عليه السلام يعلم ذلك فأفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا ، وقيل: علم الله تعالى موسى عليه السلام علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون ، وروى عن ابن عباس تخصيصه بعلم صنعة الذهب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وعن ابن زيد أن المراد بالعلم علم الله تعالى وأن المعنى أوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص من لدنه سبحانه قصدنى به ، و(عندى) عليه بمعنى فى ظنى ورأيى، وقيل: العلم بمعنى المعلوم مثله فى قوله تعالى: (ولا يحيطون بشىء من علمه) والى ذلك يشير ماروى عن مقاتل أنه قال أى على خير علمه الله تعالى عندى وتفسيره بعلم الكيمياء شائع فيما بين أهلها، وفى مجمع البيان حكايته عن الكلبى أيضا ، وأنكره الزجاج وقال: إنه لا يصح لان علم الكيمياء باطل لاحقيقة له ، وتعقبه الطيبى بأنه لعله كان من قبيل المعجز، وتعقب بأنه ليس بسديد وإلا لما تمكن قارون منه ، وانكار الكيمياء وهو لفظ يونانى معناه الحيلة أو عبرانى وأصله كيم به بمعنى أنه من الله تعالى أوفارسى وأصله كى ميا بمعنى متى يجىء على سبيل الاستبعاد غلب على تحصيل النقدين

Marfat.com

بطريق مخصوص مما لم يختص بالزجاج بل أنكرها جماعة أجلة وقالوا بعدم إمكانها، وذهب آخرون الى خلاف ذلك ٠ وإذا أردت نبذة من الكلام فى ذلك فاستمع لما يتلى عليك . ذكر بعض المحققين أن مبنى الكلام فى هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهى الذهب والفضة والرصاص والقزدير(١) والنحاس والحديد والخارصينى هل هى مختلفات بالفصول فيكون كل منها نوعا غير النوع الآخر أو هى مختلفات بالخواص والكيفيات فقط فتكون كلها أصنافا لنوع واحد فالذى ذهب اليه المعلم أبو نصر الفارابى وتابعه عليه حكماء الاندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد وهى كلها أصناف لذلك النوع الواحد وبنى على ذلك امكان انقلاب بعضها الى بعض بتبدل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة . وقد حكى أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه فى بعض تصانيفه عن المعلم المذكور أنه قال : قد بين أرسطو فى كتبه فى المعادن أن صناعة الكيمياء داخلة تحت الامكان إلا أنها من الممكن الذى يعسر وجوده بالفعل اللهم إلا أن يتفق قرائن يسهل بها الوجود وذلك أنه فحص عنها أولا على طريق الجدل فأثبتها بقياس وأبطلها بقياس على عادته فيما يكثر عناده من الاوضاع ثم أثبتها أخيرا بقياس ألفه من مقدمتين بينهما فى أول الكتاب ، الأولى أن الفلزات واحدة بالنوع والاختلاف الذى بينها ليس فى ماهياتها وإنما هو فى أعراضها فبعضه فى أعراضها الذاتية وبعضه فى أعراضها العرضيه ، والثانية أن كل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فانه يمكن انتقال كل منهما الى الآخر فان كان العرض ذاتيا عسر الانتقال وإن كان مفارقا سهل الانتقال والعسر فى هذه الصناعة إنما هو لاختلاف أكثر هذه الجواهر فى أعراضها الذاتية ويشبه أن يكون الاختلاف الذى بين الذهب والفضة يسيرا جدا اهـ ، والذى ذهب اليه الشيخ أبو على بن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة وبنى على ذلك انكار هذه الصناعة واستحالة وجودها لأن الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وإنما يخلقه خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عزوجل ، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه ، وقال الامام فى المباحث المشرقية فى الفصل الثامن من القسم الرابع منها : الشيخ سلم امكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وأن يزال عن الرصاص أكثر مافيه من النقص ، فاما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسى ؛ قال : فلم يظهر لى امكانه بعد ، إذ هذه الأمور المحسوسة تشبه أن لا تكون الفصول التى بها تصير هذه الأجساد أنواعا بل هى أعراض ولوازم وفصولها مجهولة وإذا كان الشىء مجهولا كيف يمكن قصد ايجاده وافنائه اهـ ٠

وغلطه الطغرائى وهو من أكابر أهل هذه الصناعة وله فيها عدة كتب ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس فى تخليق الفصل وابداعه وإنما هو فى اعداد المادة لقبول خاصة والفصل يأتى من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه جل شأنه وعظمت قدرته كما يفيض سبحانه النور على الاجسام بالصقل ولا حاجة بنا فى ذلك إلى تصوره ومعرفته ، وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مثل العقرب من التراب والتبن ، والحية من الشعر وغير ذلك فما المانع من العثور على مثل ذلك فى المعادن وهذا كله بالصناعة وهى إنما موضوعها المادة فيعدها التدبير

(١) فى نسخة والقصدير

Marfat.com

والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر ، فنحن نحاول مثل ذلك فى الذهب والفضة فنتخذ مادة نصفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلهما اه بمعناه وهو رد صحيح فيما يظهر، وقال الامام بعد ذكره ماسمعت من كلام الشيخ : هو ليس بقوى لأنا نشاهد من الترياق آثارا وأفعالا مخصوصة فاما أن لا تثبت له صورة ترياقية بل نقول إن الافعال الترياقية حاصلة من ذلك المزاج لا من صورة أخرى جاز أيضاً أن يقال صفرة الذهب ورزانته حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورة مقومة فحينئذ لا يكون للذهب فصل منوع الا مجرد الصفرة والرزانة ولكنهما معلومتان فأمكن أن تقصد ازالتهما واتخاذهما فبطل ماقاله الشيخ . وأما إذا أثبتنا صورة مقومة له فنقول لاشك بأنا لا نعقل من تلك الصورة إلا أنها حقيقة تقتضى الافعال المخصوصة الصادرة عن الترياق فاما أن يكون هذا القدر من العلم يكفى فى قصد الايجاد والابطال أو لا يكفى فان لم يكف وجب أن لا يمكننا اتخاذ الترياق وإن كفى فهو فى مسألتنا أيضا حاصل لانا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهية تقتضى الذوب والصفرة والرزانة ، ويجاب أيضا بأنا وان كنا لا نعلم الصورة المقومة على التفصيل إلا أنا نعلم الأعراض التى تلائمها والتى لا تلائمها ونعلم أن العرض الغير الملائم إذا اشتد فى المادة بطلت الصورة مثل الصورة المائية فانا نعلم أن الحرارة لا تلائمها وإن كنا لا نعلم ماهيتها على التفصيل فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائية وأن نكسبها ، أما الابطال فبتسخين الماء وأما الاكتساب فبتبريد الهواء فكذلك فى مسألتنا ﴿واحتج قوم من الفلاسفة﴾ على امتناعها بأمور: أولها، أن الطبيعة إنما تعمل هذه الاجساد من عناصر مجهولة عندنا ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا أيضا ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة وهى مجهولة عندنا ولتمام الفعل والانفعال زمان معين مجهول عندنا ، ومع الجهل بكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الاجساد ، وثانيها : أن الجوهر الصابغ اما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو يتساويان فان كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه وأن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ وإن تساويا فى الصبر على النار فهما من نوع واحد لاستوائهما فى الصبر على النار فليس أحدهما بالصابغية والآخر بالمصبوغية أولى من العكس ، وثالثها: أنه لو كان بالصناعة مثلا لما كان بالطبيعة لكن التالى باطل، اما أولا: فلأنا لم نجد له شبيها، وأما ثانيا: فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة مايحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة مايحصل بالصناعة حتى يوجد سيف أو سرير بالطبيعة ، ولما ثبت امتناع التالى ثبت امتناع المقدم ، ورابعها : أن لهذه الاجساد أماكن طبيعية هى معادنها وهى لها بمنزلة الارحام للحيوان فمن جوز تولدها فى غير تلك المعادن كان كمن جوز تولد الحيوانات فى غير الارحام . وأجاب الامام عن الأول بأنه منقوض بصناعة الطب .

وعن الثانى بأنه لا يلزم من استواء الصابغ والمصبوغ فى الصبر على النار استواؤهما فى الماهية لأن المختلفين قد يشتركان فى بعض الصفات ، وعن الثالث بأنه قد يوجد بالصناعة مثل مايوجد بالطبيعة مثل النار الحاصلة بالقدح، والنوشادر قد يتخذ من الشعير وكذلك كثير من الزاجات ثم بتقدير أن لا نجد له مثالا لا يلزم الجزم بنفيه ولا يلزم من إمكان حصول الأمر الطبيعى بالصناعة امكان عكسه بل الأمر فيه موقوف على الدليل ، وعن الرابع بأن من أراد أن يقلب النحاس فضة فهو لا يكون كالمحدث للشيء بل كالمعالج للمريض ، فان

Marfat.com

النحاس من جوهر الفضة إلا أن فيه عللا وأمراضا وكما يمكن المعالجة لافى موضع التكون فكذلك فى هذا الموضع ، على أن حاصل الدليل أن الذى يتكون فى الجبال لايمكن تكونه بالصناعة ، وفيه وقع النزاع ، وابن خلدون بعد أن ذكر كلام ابن سينا ورد الطغرائى عليه قال: لنا فى الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان زعمهم أجمعين، وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون فى تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم فى المعدن حتى أحالته ذهبا أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم فى زمان أقصر لأنه تبين فى موضعه ان مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه فى معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت القوى والكيفيات فى العلاج كان زمان كونه أقصر من ذلك ضرورة على ماقلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ماحصل لها من الانتفاش والهشاشة ليحسن هضمه فى المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء فتفعل تلك الصورة الافاعيل المطلوبة ، وذلك هو الاكسير ، واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية لابد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة فى النسبة لما حصل امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ، ولابد فى كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هى الفاعلة لكونها الحافظة لصورته ثم كل متكون فى زمان لابد من اختلاف أطواره وانتقاله فى زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهى إلى غايته ، وانظر شأن الانسان فى تطوره نطفة ثم علقة ثم وثم الى نهايته ونسب الاجزاء فى كل طور مختلف مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور الأول بعينه هو الآخر ، وكذا الحرارة المقدرة الغريزية فى كل طور مخالفة لما فى الطور الآخر، فانظر إلى الذهب مايكون فى معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين ، ومايتنقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة فى المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ، ومن شرط الصناعة مطلقا تصور مايقصد إليه بها ، فمن الأمثال السائرة فى ذلك للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب فى أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة فى كل طور ومايتوب عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذى بذلك فعل الطبيعة فى المعدن أو يعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل فى هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها *

وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط وهو علمه عزوجل ، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك ، وإنما حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة من يدعى صنعة تخليق الانسان من المنى ونحن اذا سلمنا الاحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره وكيفية تخليقه فى رحمه وعلم ذلك علما محصلا لتفاصيله حتى لا يشذ من ذلك شىء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان وأنى له ذلك . والحاصل أن الفعل الصناعى على ما يقتضيه كلامهم مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التى تقصد مساواتها ومحاذاتها ، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل وتلك الاحوال لانهاية لها والعلم البشرى عاجز عما دونها ، فقصد تصيير النحاس ذهبا كقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات، وهذا أوثق ماعلمته من البراهين الدالة على الاستحالة ، وليست

Marfat.com

الاستحالة فيه من جهة الفصول ولا من جهة الطبيعة وإنما هى من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها ، وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك، ولذلك وجه آخر فى الاستحالة من جهة غايته وهو أن حكمة الله تعالى فى الحجرين وندرتهما أنهما عمدتا مكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى فى ذلك إذ يكثر وجودهما حتى لايحصل أحد من اقتنائهما على شىء ، وآخر أيضا وهو أن الطبيعة لاتترك أقرب الطرق فى افعالها وترتكب الأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعى الذى يزعمون صحته وأنه أقرب من طريق الطبيعة فى معدنها وأقل زمانا صحيحا لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذى سلكته فى تكوين الذهب والفضة وتخليصهما ، وأما تشبيه الطغرائى هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله فى الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما فأمر صحيح فى ذلك أدى عليه العثور كما زعم ، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه ولده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل فى الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ الينا أو إلى غيرنا، وأما قولهم : إن الاكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب يحيل ماحصل فيه ويقلبه إلى ذاته فليس بشىء ، لأن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد فى المواد سهل يقع بايسر شىء من الأفعال والطبائع ، والمطلوب من الاكسير قلب المعدن إلى ماهو أشرف منه وأعلى فهو تكوين والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير على الخميرة ، ثم قال: وتحقيق الامر فى ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما يزعم الحكماء المتكلمون فيها فليس من باب الصنائع الطبيعية ولا يتم بأمر صناعى وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم فى الامور السحرية وسائر الخوارق ، وقد ذكر مسلمة المجريطى فى كتابه الغاية مايشبه ذلك وكلامه فيها فى كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى ، وكذا كلام جابر فى رسائله ه

وبالجملة أن نيلها إن كان صحيحا فهو واقع مما وراء الصنائع والطبائع فهى إنما تكون بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشى على الماء وتخليق الطير فليست الا معجزة أو كرامة أو سحرا ، ولهذا كان كلام الحكماء فيها الغازا لا يظفر بتحقيقه الا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس فى عالم الطبيعة ، وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها اه . وإلى إمكانها ذهب الامام الرازى فقال الحق أمكانها لأن الاجساد السبعة مشتركة فى أنها اجساد ذائبة صابرة على النار منطرقة وأن الذهب لم يتميز عن غيره الا بالصفرة والرزانة أو الصورة الذهبية المفيدة لهذين العرضين إن ثبت ذلك ، ومابه الاختلاف لا يكون لازما لمابه الاشتراك، فاذن يمكن أن تتصف جسمية النحاس بصفرة الذهب ورزانته وذلك هو المطلوب ، والحق أن الكيمياء ممكنة وأنها من الصنائع الطبيعية لكن العلم بها من أقاصى العلوم الصعبة التى لا يطلع عليها الا من أهله الله تعالى لها واختصه سبحانه من عباده وأوليائه بها وهو علم تاهت فى طلبه العقول وطاشت الاحلام ، وأصله من الوحى الالهى وحصل لبعض بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة ووصل إلى من ليس أهلا للوحى ولم يتعاط ماتعاطاه البعض بالتعلم ممن من الله تعالى به عليه ، وقال ارس : وهو من أجلة أهل هذا العلم كان أوله وحيا من الله تعالى ثم درس وباد فاستخرجه من استخرجه من الكتب وقد جرت سنة الله تعالى فيمن ظهر به بكتمه الا على من شاء الله تعالى وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله بل قيل : ان الله تعالى أخذ على العقول فى فطرتها المواثيق

Marfat.com

بكتمانه وصيانته والاحتراس من إذاعته واضاعته ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهاية الالغاز وأغمضوه غاية الاغماض حتى عد كلامهم من لم يعرف مرامهم حديث خرافة وحكم على قائله بالسفه والسخافة وبهذا الكتم حفظت حكمة الله تعالى التى زعمها ابن خلدون فى النقدين وسقط استدلاله الذى سمعته فيما مر *

وقد نص جابر بن حيان وهو امام فى هذه الصنعة وإنكار أنه كان موجوداً حمق فى كتابه سر الأسرار على ماقلنا حيث قال : كل حكيم وضع رمزه وكتابه على معنى مبهم من وضع الحل والاصعاد والغسل على أربع طبائع وسماها الأجساد الثقال ووصف التدابير على لفظ ومعنى مشتبه ، فهو عند الحكيم مفتوح ، وعند الجهلة مغلق ، وربما تعدوا الى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها ، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل وإنما عمارة الدنيا بالدراهم والدنانير وأن الناس الصناع والمقاتلة لا يعملون إلا لرغبة أو رهبة فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السر حتى يعلمه كل أحد لم يتم أمر الدنيا وخربت ، ولم يعمل أحد لأحد فخرجوا من ذلك وكتموه اه . ثم لا يخفى أن ماذكره ابن خلدون أولا من أن الاستحالة لعدم الاحاطة اذا ثبت أنها كانت عن وحى ليس بشىء على أن فيه مافيه وإن لم يثبت ذلك ، ومثل ذلك ماذكره من أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق فى أفعالها وترتكب الأبعد ، لأنا نقول مايحصل من الطبائع أيضا ، فيكون لها طريقان بعيد اقتضت الحكمة أن تسلكه غالبا وقريب اقتضت الحكمة أيضا أن تسلكه نادرا بواسطة من شاء الله تعالى من عباده ، وكون المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبط عشواء إن أراد بهم أئمة هذه الصناعة كهرمس وسقراط وإفلاطون واغاريمون وفيثاغورس ، وهرقل ، وفرفوريوس ، ومارية ، وذوسيموس وارس ، وذومقراط ، ونسفيدوس ، وبلیناس ، ومهراريس ، وجابر بن حيان ، والمجريطى ، وأبو بكر بن وحشية ، ومحمد بن زكريا الرازى وغيرهم مما لايحصون كثرة فهم لم يخبطوا ، ودون اثبات خبطهم خرط القتاد ، والغازهم لنكتة صرحوا بها لايدل على خبطهم ، وإن أراد بهم من يتعاطاها من المشاقين فى عصره وفى هذه الأعصار ، فما ذكره مسلم فى أكثرهم وهو لا يطعن فى إمكانها . وقد ذم الطغرائى هذا الصنف من الناس فقال فى كتابه تراكيب الأنوار : إن المعلم الناصح موجود فى كل صنعة إلا فى هذا الفن ، وكيف يرجى النصح عند قوم يسمون فيما بينهم بالحسدة وتحالفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً لاسيما فى هذا الزمان الذى قد باد فيه هذا العلم جملة وصار المتعرض له والباحث عنه عند الناس مسخرة وقد عنيت برهة من الزمان أبحث عن كل من يظن أن عنده طرفا من هذا العلم فما وجدت أحداً شم له رائحة ولا عرف منه شطر كلمة ، ووجدت منتحلى هذه الصنعة الشريفة بين خادع يبيع دينه ومروءته بعرض من الدنيا قليل ويتلف أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل ، وبين مخدوع مأخوذ عن رشده بالأمل الخائب والطمع الكاذب والتشاغل بالباطل عن طلب المعاش الجميل والتعويل على الأمانى والأكاذيب . فصارى أحدهم أن ينظر فى كتب جابر وأضرابه فيأخذ بظواهر كلامهم ، ويغتر بجلايا دعاويهم دون حقائق معانيهم وهم وجميع من مضى من حكماء هذه الصنعة يحذرون الناس من الاغترار بظواهر كتبهم ، وينادون على أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون ولا يلتفت الى قولهم ولا يصدقون الى آخر ماقال . وقد تفاقم الأمر فى زماننا الى مالا تتسع العبارة لشرحه ، وكون الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارق العادات فلا تكون إلا معجزة أو

Marfat.com

كرامة أو سحرا ليس بشيء بل هى بأسباب عادية لكنها خفية على أكثر الناس لادخل لتأثير النفوس فيها أصلا . نعم قد يكون من النبي أو الولى مايكون من الكيماوى من غير معاطاة تلك الأسباب فيكون ذلك كرامة أو معجزة ، وكون منحى كلام بعض الحكماء فيها منحى كلامهم فى الأمور السحرية لايدل على أنها من أنواع السحر أو توابعه فان ذلك من الغازهم لأمرها ، وقد تفننوا فى الألغاز لها وسلكوا فى ذلك كل مسلك ، فوضع بلياس كتابه فيها على الأفلاك والكواكب ، ومنهم من تكلم عليها بالأمثال ومنهم من تكلم عليها بالحكايات التى هى أشبه شيء بالخرافات الى غير ذلك . وبالجملة هى صنعة قل من يعرفها جدا ، وأعد الاشتغال بها والتصدى لمعرفتها من كتبها من غير حكيم عارف برموزها كما يفعله جهلة المنتحلين لها اليوم محض جنون ، وكون أصلها الوحى الالهى أو نحو ذلك هو الذى يغلب على الظن ، وقد أورد الطغرائى فى كتبه كجامع الاسرار وغيره مايدل على ذلك ، فذكر أنه روى عن هرمس أنه قال : إن الله عز وجل أوحى الى شيث بن آدم عليهما السلام أن ازرع الذهب فى الأرض البيضاء النقية واسقه ماء الحياة ، وقالت مارية : إنى لست أقول لكم من تلقاء نفسى ، ولكنى أقول لكم ماأمر الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام وأعلمه أن الحجر النسطريس هو الذى يمسك الصبغ وقال بنسبتها الي موسى عليه السلام ذوسيموس وارس ، وذكر ارس أن العمل بها كان طوع اليهود بمصر ، وكان يوسف عليه السلام وهو أول من دخل مصر من بنى اسرائيل يعرف ذلك فأكرمه فرعون لحكمته التى آتاه الله تعالى إياها ، وذكر أيضا فصلا مرموزاً فيها نسبه الى سليمان عليه السلام *

وقال الطرسوسى فى كتابه : إن الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوضه علم كل شيء وكان علم الصنعة مما علمه ، وانتقل من قوم إلى قوم كما انتقلت العلوم الأخر إلى أيام هرمس الأول ، وقال أيضا : حدثونا عن محمد بن جرير الطبرى باسناد له متصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وأعطيت الكبريت الابيض والأحمر» *

وروى جابر عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فى ذلك روايات كثيرة حتى أنه أسند اليه عدة من كتبه ولاأحقق قوله ولاأكذبه وأجله لموضعه من العلم والعمل عن الافتراء على الأئمة ، وروى عن أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه أنه سئل فقيل : له ماتقول فيما خاض الناس فيه من علم الكيمياء ؟ فأطرق مليا ثم رفع رأسه ثم قال : سألتمونى عن أخت النبوة وتوأم المروة لقد كان وانه لكائن ومامن شجرة ولامدرة ولاشيء إلا وفيه أصل وفرع أو أصل أو فرع قيل : ياأمير المؤمنين أماتعلمه ؟ قال : والله تعالى أنا أعلم به من العالمين له لأنهم يتكلمون بالعلم على ظاهره دون باطنه وأنا أعلم العلم ظاهره وباطنه ، قيل : فاذكر لنا منه شيئا نأخذه منك ، قال : والله تعالى لولاأن النفس أمارة بالسوء لقلت ، قيل : فما كان تقول ؟ قال : إنى أعلم أن فى الزئبق الرجراج والذهب الوهاج والحديد المزعفر ونجار النحاس الأخضر لكنوزاً لايؤتى على آخرها يلقح بعضها ببعض فتفتر عن ذهب كامن ، قيل : ياأمير المؤمنين مانعلم هذا ، قال : هو ماء جامد وهواء راكد ونار حائلة وأرض سائلة قالوا مانفقه هذا ، قال : لو حل للمؤمنين من أهل الحكمة أن يكلموا الناس على غير هذا لعلمه الصبيان فى المكاتب اه كلام الطغرائى باختصار *

Marfat.com

وذكر فى كتابه مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة عن ستين نبياً وحكيما أنهم قالوا بحقية هذا العلم، وفى القلب من صحة هذه الأخبار شىء ، والأغلب على الظن أنه لو كان فى الكيمياء خبر مقبول عند المحدثين لشاع ولما أنكرها من هو من أجلتهم كشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية فانه كان ينكر ثبوتها وألف رسالة فى إنكارها ، ولعل رد الشيخ نجم الدين ابن أبى الذر البغدادى وتزييفه ماقاله فيها كما زعم الصفدى إنما كان فيما هو من باب الاستدلالات العقلية فان الزجل فى باب النقليات مما لايجاريه نجم الدين المذكور وأمثاله وهو فى باب العقليات وإن كان جليلا أيضا إلا أنه دونه فى النقليات ، والمطلب دقيق حتى ان بعض من تعقد عليه الخناصر اضطرب فى أمرها فأنكرها تارة وأقربها أخرى ، فهذا شيخ الحكماء ورئيسهم أبو على بن سينا سمعت مانقل عنه أولا ، وحكى عنه الرجوع عنه ، وعلى جودة ذهنه وعلو كعبه فى الحكمة بأقسامها لم يقف على حقيقة عملها حتى قال الطغرائى فى تراكيب الأنوار ماينقضى عجبى من أبى على بن سينا كيف استجاز وضع رسالة فى هذا الفن فضح بها نفسه وخالف الأصول التى عنده وقصر فيها عن كثير من الحشوية الطغام المظلمة الأذهان الكليلة الأفهام *

وقال فى جامع الأسرار : إن الشيخ أبا على بن سينا لفرط شغفه بهذا العلم وحدسه القوى بأنه حق صنف رسالة فيه فأحسن فيما يتعلق بأصول الطبيعيات ولخفاء طريق القوم واستعمائها دونه لم يذكر فى التدابير المختصة بعلمنا لفظة صحيحة ولا أشار إلى ذكر المزاج الحق والأوزان والتراكيب المكتومة والنيران وطبقاتها والآلة التى لا يتم العمل إلا بها وهى أحد الشرائط العشرة ، ولم يتجاوز ماعند الحشوية من تدابير الزوابق والكباريت والدفن فى زبل الخيل والتشاغل بهذه القاذورات ولولا آفة الإعجاب وحسن ظن الانسان بعلمه وحرصه على أن لا يشذ عنه شىء من المعارف لكان من الواجب على مثله مع غزارة علمه وعلو طبقته فى الابحاث الحقيقية أن يكتفى بما عنده ، ولا يتعرض لما لا يعلمه ، وقد تأدى إلينا من تدابيره عن أصحابه الذين شاهدوها أنه لم يكن يعرف حقيقة علمنا ، وقد رأينا بخطه من التعاليق الملتقطة من كلام جابر بن حيان ، وخالد بن يزيد مايدل أيضا على ذلك اه ملخصا ، والكلام فى هذا المطلب طويل وفيما ذكرنا كفاية لمن أحب الاطلاع على شىء مما قيل فى ذلك ، والله تعالى الموفق ، ثم إن القول بأن المراد بالعلم فى الآية علم استخراج الكنوز والدفائن يستدعى ثبوت هذا العلم ، وأهل علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به ولهم فى ذلك كلام طويل والعقل يجوز ثبوته ، والله تعالى أعلم بثبوته فى نفس الأمر *

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ تقرير لعلمه ذلك وتنبيه على خطئه فى اغتراره وعلمه بذلك من التوراة أو من موسى عليه السلام أو من كتب التواريخ أو من القصاص ، والقوة تحتمل القوة الحسية والمعنوية ، والجمع يحتمل جمع المال وجمع الرجال ، والمعنى ألم يقف على مايفيده العلم ولم يعلم مافعل الله تعالى بمن هو أشد منه قوة حسا أو معنى وأكثر مالا أو جماعة يحوطونه ويخدمونه حتى لا يغتر بما اغتر به ، ويحتمل أن تكون الهمزة للانكار داخلة على مقدر ، وجملة ولم يعلم حالية مقررة للانكار ودالة على انتفاء مادخلت عليه كما فى قولك : أتدعى الفقه وأنت لا تعرف شروط الصلاة ، والمراد رد ادعائه العلم والتعظم به بنفى هذا العلم عنه أى أعلم ماادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ، وقيل : إن (لم

Marfat.com

يعلم) عطف على ذلك المقدر ونفى العلم عنه لعدم جريه على موجبه ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ٧٨ ﴾ الظاهر أن هذا فى الآخرة وأن ضمير ذنوبهم للجرمين ، وفاعل السؤال إما الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام ، والمراد بالسؤال المنفى هنا ، وكذا فى قوله تعالى : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) على ماقيل : سؤال الاستعلام ، ونفى ذلك بالنسبة اليه عز وجل ظاهر ، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطلعون على صحائفهم أو عارفون إياهم بسيماهم كما قال سبحانه: (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام)٠

والمراد بالسؤال المثبت فى قوله عز وجل: (فوربك لنسألنهم أجمعين) سؤال التوبيخ والتقريع فلا تناقض بين الآيتين ، وجوز أن يكون السؤال فى الموضعين بمعنى والنفى والاثبات باعتبار موضعين أو زمانين ، والمواقف يوم القيامة كثيرة واليوم طويل فلا تناقض أيضاً ، والظاهر أن الجملة غير داخلة فى حيز العلم ، ولعل وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى لما هدد قارون بذكر اهلاك من قبله من أضرابه فى الدنيا أردف ذلك بما فيه تهديد كافة المجرمين بما هو أشنع واشنع من عذاب الآخرة فان عدم سؤال المذنب مع شدة الغضب عليه يؤذن بالايقاع به لامحالة ، وجعل الزمخشرى الجملة تذييلا لما قبلها ، وقيل : إن ذلك فى الدنيا *

والمراد أنه تعالى أهلك من أهلك من القرون عن علم منه سبحانه بذنوبهم فلم يحتج عز وجل إلى مسألتهم عنها ، وقيل : إن ضمير ذنوبهم لمن هو أشد قوة وهو المهلك من القرون ، والافراد والجمع باعتبار اللفظ والمعنى ، والمعنى ولا يسأل عن ذنوب أولئك المهلكين غيرهم ممن أجرم ، ويعلم أنه لا يسأل عن ذنوبهم من لم يجرم بالاولى لما بين الصنفين من العداوة فمآل المعنى لا يسأل عن ذنوب المهلكين غيرهم ممن أجرم وممن لم يجرم ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وكلا القولين كما ترى ، وربما يختلج فى ذهنك عطف هذه الجملة على جملة الاستفهام أو جعلها حالا من فاعل أهلك أو من مفعوله ؛ لكن إذا تأملت أدنى تأمل أخرجته من ذهنك وأبيت حمل كلام الله تعالى الجليل على ذلك ٠

وقرأ أبو جعفر فى رواية (ولا تسأل) بتاء الخطاب والجزم (المجرمين) بالنصب ، وقرأ أبو العالية. وابن سيرين (ولا تسأل) كذلك ولم ندر أنصبا المجرمين كأبى جعفر أم رفعاه كما هو فى قراءة الجمهور ، والظاهر الأول ، وجوز صاحب اللوامح الثانى ، وذكر له وجهين : الأول أن يكون ضمير ذنوبهم للمهلكين من القرون وارتفاع المجرمين باضمار المبتدا أى هم المجرمون ٠ والثانى أن يكون المجرمون بدلا من ضمير ذنوبهم باعتبار أن أصله الرفع لأن اضافة ذنوب اليه بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل وأورد على هذا أن ذنوب جمع فان كان جمع مصدر ففى إعماله خلاف *

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ عطف على قال ومابينهما اعتراض ، وقوله تعالى : ﴿ فى زِينَتِهِۦ ﴾ إما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أى فخرج عليهم كائنا فى زينته . قال قتادة : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء وعلى دوابهم قطائف الأرجوان ٠ وقال السدى : خرج فى جوار بيض على سروج من ذهب على قطف أرجوان وهن على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلى ذهب ، وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلثمائة غلام وعلى يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج *

Marfat.com

وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أنه خرج فى سبعين ألفا عليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم فى الأرض رؤيت المعصفرات فيه ، وقيل غير ذلك من الكيفيات ، وكان ذلك الخروج على ماقيل يوم السبت ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ قيل كانوا جماعة من المؤمنين، وقالوا ذلك جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار . وعن قتادة أنهم تمنوا ذلك ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه فى سبيل الخير ، ولعل ارادتهم الحياة الدنيا ليتوصلوا بها للآخرة لا لذاتها فان إرادتها لذاتها ليست من شأن المؤمنين ، وقيل : كانوا كفارا ومنافقين ، وتمنيهم مثل ماأوتى دونه نفسه من باب الغبط ولا ضرر فيه على المشهور، وقيل: ضرره دون ضرر الحسد «فقد قيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل يضر الغبط؟ فقال: لا إلا كما يضر العضاه الخبط» وفى الكشف الظاهر أنه نفى للضرر على أبلغ وجه فان الشجر ربما ينتفع بالخبط فضلا عن التضرر ، وفيه أنه قد يفضى الى الضرر إشارة الى متعلق الغبط من دينى أو دنيوى ، وقائل ذلك إن كان الكفرة ففيه من ذم الحسد مافيه ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال الضحاك : أى درجة عظيمة ، وقيل نصيب كثير من الدنيا، والحظ البخت والسعد، ويقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ ، والجملة تعليل لتمنيهم وتأكيد له ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أى باحوال الدنيا والآخرة كما ينبغى ومنهم يوشع عليه السلام ، وإنما لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم باحوال النشأتين يقتضى الاعراض عن الأولى والاقبال على الأخرى حتما ، وأن تمنى المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغى .

وقيل المراد بالعلم : معرفة الثواب والعقاب ، وقيل : معرفة التوكل، وقيل: معرفة الأخبار، وماتقدم أولى ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك بحسب الأصل ثم شاع استعماله فى الزجر عما لايرتضى ، والمراد به هنا الزجر عن التمنى وهو منصوب على المصدرية لفعل من معناه ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ فى الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما تتمنونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه عز وجل، هذا على القول بأن المتمنين كانوا مؤمنين أو فآمنوا لتفوزوا بثوابه تعالى الذى هو خير من ذلك ، وتقدير المفضل عليه ماتتمنوه لاقتضاء المقام إياه ، ويجوز أن يقدر عاما ويدخل فيه ماذكر دخولا أوليا أى خير من الدنيا وما فيها ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أى هذه المقالة أو الكلمة التى تكلم بها العلماء ، والمراد بها المعنى اللغوى أو الثواب ، والتأنيث باعتبار أنه بمعنى المثوبة أو الجنة المفهومة من الثواب ، وقيل : الايمان والعمل الصالح ، والتأنيث والافراد باعتبار أنهما بمعنى السيرة أو الطريقة ، ومعنى تلقيها إما فهمها أو التوفيق للعمل بها ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصى والشهوات ، ولعل المراد بالصابرين على القول الأخير فى مرجع الضمير المتصفون بالصبر فى علم الله تعالى فتدبر ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ .

روى ابن أبى شيبة فى المصنف . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والحاكم . وصححه . وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل فى ذلك حتى بغى على موسى عليه السلام وحسده، فقال موسى: إن الله تعالى أمرنى أن آخذ الزكاة فأبى

Marfat.com

فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم ، قالوا : لانحتمل فما ترى؟ فقال لهم : أرى أن أرسل الابغى من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا اليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجربك . قالت : نعم . فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك . قال : نعم فجمعهم فقالوا له : بما أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا الله تعالى ولاتشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ، وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم . قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال: نعم . قالوا: فانك قد زنيت . قال: أنا فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ماتشهدين على موسى عليه السلام؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدك بالله تعالى إلا ماصدقت . فقالت : أما إذ أنشدتنى بالله تعالى فانهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد أنك برىء وأنك رسول الله فخر موسى عليه السلام ساجدا يبكى فأوحى الله تعالى اليه ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها تطعك فرفع رأسه فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم . فجعلوا يقولون: ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال: خذيهم فغيبتهم فأوحى الله تعالى ياموسى سألك عبادى وتضرعوا اليك فلم تجبهم وعزتى لو أنهم دعونى لأجبتهم وفى بعض الروايات أنه جعل للبغى ألف دينار ، وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهبا ، وفى بعض أنه عليه السلام قال فى سجوده : يارب إن كنت رسولك فاغضب لى فاوحى الله تعالى اليه مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك ، فقال : يابنى اسرائيل إن الله تعالى بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين . ثم قال: ياأرض خذيهم فاخذتهم إلى الركب ثم إلى الاوساط ثم إلى الاعناق وهم يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه الرحم وهو عليه السلام لا يلتفت إلى قولهم لشدة غضبه ويقول خذيهم حتى انطبقت عليهم فاوحى الله تعالى ياموسى ماأفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم أما وعزتى لو اياى دعوا مرة واحدة لوجدونى قريبا مجيبا ، وفى رواية أن الله سبحانه أوحى اليه ما أشد قلبك وعزتى وجلالى لو بى استغاث لأغثته ، فقال عليه السلام: رب غضبا لك فعلت ۞

ثم إن بنى اسرائيل قالوا: إنما فعل موسى عليه السلام به ذلك ليرثه ، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله . وفى بعض الاخبار أن الخسف به وبداره كان فى زمان واحد ، وكانت داره فيما قيل : من صفائح الذهب وجاء فى عدة آثار أنه يخسف به كل يوم قامة وأنه يتجلجل فى الأرض لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة والله تعالى أعلم بصحة ذلك ، بل هو مشكل إن صح ماقاله الفلاسفة فى مقدار قطر الارض ولم يقل بأن لها حركة أصلا ، وأما الخسف فلاشك فى امكانه الذاتى والوقوعى وسببه العادى مبين فى محله ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ من فئة ﴾ أى جماعة معينة مشتقة من فأوت قلبه إذا ميلته ، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض؛ وهو محذوف اللام ووزنه فعة ، وقال الراغب: إنه محذوف العين فوزنه فلة وأنه من الفئ وهو الرجوع لأن بعض الجماعة يرجع إلى بعض و(من) صلة أى فما كان له فئة ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ أى بنفسه ﴿مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أى الممتنعين عن عذابه عزوجل، يقال؛ نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع ، ويحتمل أن يكون المعنى وما كان من المنتصرين بأعوانه فذكر ذلك للتأكيد ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ ﴾ أى مثل

Marfat.com

مكانه ومنزلته لما تقدم من قولهم مثل ماأوتى ، وجوز كون هذا على ظاهره و(مثل) هناك مقحمة وليس بذاك ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب وهو مجاز شائع ، وجوز حمله على الحقيقة والجار والمجرور متعلق بتمنوا أو بمكانه ، قيل : والعطف بالفاء التى تقتضى التعقيب فى (فخسفنا) يدل عليه ٠

وفى البحر دل أصبح إذا حمل على ظاهره على أن الخسف به وبداره كان ليلا وهو أفظع العـــذاب إذ الليل مقر الراحة والسكون ، وقال بعضهم : هى بمعنى صار أى صار المتمنون ٠

﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يفعل كل واحد من البسط والقدر أى التضييق والقتر لالكرامة توجب البسط ولالهوان يوجب التضييق ، ووى عند الخليل وسيبويه اسم فعل ومعناها أعجب وتكون للتحسر والتندم أيضا كما صرحوا به ، وعن الخليل أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ماسلف منهم (وى) وكل من ندم وأراد اظهار ندمه قال (وى) ، ولعل الاظهر ارادة التعجب بأن يكونوا تعجبوا أولا مما وقع وقالوا ثانيا كأن الخ وكأن فيه عارية عن معنى التشبيه جىء بها للتحقيق كما قيل ذلك فى قوله :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

وأنشد أبو عـــلى :

كأنى حين أمسى لاتكلمنى متيم يشتهى ماليس موجودا

وقيل : هى غير عارية عن ذلك ، والمراد تشبيه الحال المطلق بما فى حيزها اشارة إلى أنه لتحققه وشهرته يصلح أن يشبه به كل شىء وهو كما ترى وزعم الهمدانى أن الخليل ذهب إلى أن (وى) للتندم و كأن للتعجب والمعنى ندموا متعجبين فى أن الله تعالى يبسط الخ ،وفيه أن كون كأن للتعجب مما لم يعهد ، وأياما كان فالوقف كما فى البحر على (وى) والقياس كتابتها مفصولة و كتبت متصلة بالكاف لكثرة الاستعمال وقد كتبت على القياس فى قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وى كأن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال الاخفش: الكاف متصلة بها وهى اسم فعل بمعنى أعجب ، والكاف حرف خطاب لاموضع لها من الاعراب كما قالوا فى ذلك ونحوه ، والوقف على ويك ، وعلى ذلك جاء قول عنترة :

ولقد شفا نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

و(أن) عنده مفتوحة الهمزة بتقدير العلم أى أعلم أن الله الخ ، وذهب الكسائى. ويونس. وأبو حاتم وغيرهم إلى أن أصله ويلك فخفف بحذف اللام فبقى ويك ، وهى للردع والزجر والبعث على ترك مالا يرضى، وقال أبو حيان: هى كلمة تحزن وأنشد فى التحقيق قوله :

ألاويك المضرة لاتدوم ولايبقى على البؤس النعيم

والكاف على هذا فى موضع جر بالاضافة ، والعامل فى أن فعل العلم المقدر كما سمعت أو هو بتقدير لأن على أنه بيان للسبب الذى قيل لاجله ويك ، وحكى ابن قتيبة عن بعض أهل العلم أن معنى ويك رحمة لك بلغة حمير ، وقال الفراء : ويك فى كلام العرب كقول الرجل: ألا ترى إلى صنع الله تعالى شأنه ، وقال أبو زيد وفرقة

Marfat.com

معه : وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ويكأن حرف واحد بجملته وهو بمعنى ألم تر*

﴿ لَوْلَآ أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بعدم اعطائه تعالى ماتمنيناه من اعطائنا مثل ماأعطاه قارون ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أى الارض كما خسف به أو لولا أن من الله تعالى علينا بالتجاوز عن تقصيرنا فى تمنينا ذلك لخسف بنا جزاء ذلك كما خسف به جزاء ماكان عليه . وقرأ الأعمش (لولا من) بحذف (أن) وهى مرادة ، وروى عنه من الله برفع من والاضافة *

وقرأ الأكثر (لخسف بنا) على البناء للمفعول و(بنا) هو القائم مقام الفاعل ، وجوز أن يكون ضمير المصدر أى لخسف هو أى الخسف بنا على معنى لفعل الخسف بنا ، وقرأ ابن مسعود . وطلحة . والأعمش (لانخسف بنا) على البناء للمفعول أيضا و(بنا) أو ضمير المصدر قائم مقام الفاعل، وعنه أيضا (لتخسف) بتاء وشد السين مبنيا للمفعول ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله عليهم السلام وبما وعدوا من ثواب الآخرة ، والكلام فى ـ ويكأن ـ هنا كما تقدم بيد أنه جوز هنا أن يكون لأن على بعض الاحتمالات تعليلا لمحذوف بقرينة السياق أى لأنه لايفلح الكافرون فعل ذلك أى الخسف بقارون ، واعتبار نظيره فيما سبق دون اعتبار هذا هنا، وضمير ويكأنه للشأن *

هذا وفى مجمع البيان أن قصة قارون متصلة بقوله تعالى : (نتلو عليك من نبأ موسى) عليه السلام ، وقيل : هى متصلة بقوله سبحانه : (فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وماعند الله خير وأبقى) ، وقيل : لما تقدم خزى الكفار وافتضاحهم يوم القيامة ذكر تعالى عقيبه أن قارون من جملتهم وأنه يفتضح يوم القيامة كما افتضح فى الدنيا ، ولما ذكر سبحانه فيما تقدم قول أهل العلم (ثواب الله خير) ذكر محل ذلك الثواب بقوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ ﴾ مشيرا إشارة تعظيم وتفخيم إلى مانزل لشهرته منزلة المحسوس المشاهد كأنه قيل : تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها ، و(الدار) صفة لاسم الاشارة الواقع مبتدأ وهو يوصف بالجامد ولاحاجة إلى تقدير مضاف أى نعيم الدار كما يوهمه كلام البحر، و(الآخرة) صفة للدار، والمراد بها الجنة وخبر المبتدأ قوله تعالى : ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى غلبة وتسلطا ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أى ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون ، وليس الموصول مخصوصا بهما ، وفى إعادة (لا) إشارة إلى أن كلا من العلو والفساد مقصود بالنفى ، وفى تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما *

وأخرج عبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن عكرمة أنه قال : العلو فى الأرض التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند سلاطينها وملوكها والفساد العمل بالمعاصى وأخذ المال بغير حقه *

وعن الكلبى العلو الاستكبار عن الايمان والفساد الدعاء إلى عبادة غير الله تعالى ، وروى عن مقاتل تفسير العلو بما روى عن الكلبى ، وأخرج ابن مردويه . وابن عساكر عن على كرم الله تعالى وجهه أنه كان يمشى فى الأسواق وحده وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبقال والبياع فيفتتح عليه القرآن ويقرأ تلك الدار الآخرة إلى آخرها ، ويقول : نزلت هذه الآية (تلك الدار الآخرة) الخ ، فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس *

Marfat.com

وأخرج ابن مردويه عن عدى بن حاتم أنه لما دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض ، فقال عليه الصلاة والسلام أشهد أنك لا تبغى علوا فى الأرض ولا فسادا فأسلم رضى الله تعالى عنه ، وعن الفضيل أنه قرأ الآية ثم قال : ذهبت الأمانى ههنا ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض . وأخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أجود من شسع نعل صاحبه فيدخل فى هذه الآية *

ولعل هذا إذا أحب ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينه والا فقد روى أبو داود عن أبى هريرة أن رجلا أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان جميلا فقال : يارسول الله إنى رجل حبب إلى الجمال وأعطيت منه ماترى حتى ماأحب أن يفوقنى أحد إما قال بشراك نعل وإما قال بشسع نعل أفمن الكبر ذلك؟ قال لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس *

وروى مسلم . وأبو داود . والترمذى عن ابن مسعود «أن النبى ﷺ قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنا قال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس» واستدل بعض المعتزلة بالآية بناء على عموم العلو والفساد فيها على تخليد مرتكب الكبيرة فى النار، وفى الكشاف ماهو ظاهر فى ذلك ، والتزم بعضهم فى الجواب تفسير العلو والفساد بما فسرهما به الكلبي وآخر أن المراد بهما مايكون مثل العلو والفساد اللذين كانا من فرعون وقارون . ورد بأن التذييل بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يدل على أن العمدة هى التقوى ولا يكفى ترك العلو والفساد المقيدين * وأجيب بأن المتقى ههنا هو المتقى من علو فرعون وفساد قارون أو من لم يكن من المؤمنين مثل فرعون فى الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثال أوامره والارتداع عن زواجره ولم يكن مثل قارون فى ارادة الفساد فى الأرض واخراج كل شىء من كونه منتفعا به لاسيما نفسه فان غاية افسادها الامتناع من عبادة ربها لأنها خلقت للعبادة فاذا امتنع عنها خرجت عن كونها منتفعا بها وليس معنى المتقى إلا ذلك . وتعقبه صاحب الكشف بأن الاول تقييد بلا دليل والثانى هو الذى يسعى له المعتزلى، وقال الفاضل الخفاجى: إما أن يراد بالعاقبة العاقبة المحمودة على وجه الكمال أو يراد بالمتقى المتقى مالا يرضاه الله تعالى مثل حال قارون بقرينة المقام ، والنصوص الدالة على أن غير الكفار لا يخلد فى النار فلا وجه للقول بأن ذلك تقييد بلا دليل مع أن مبنى الاستدلال على أن اللام للتخصيص وهو ممنوع ، وقال بعض فى الجواب على تقدير ارادة العموم فى علوا وفسادا: إن المراد من جعل الجنة للذين لا يريدون شيأ منهما تمكينهم منها أتم تمكين نحو قولك : جعل السلطان بلد كذا لفلان وذلك لاينافى أن يدخلها غيرهم من مرتكب الكبيرة ويكون فيها بمنزلة دون منزلتهم ، ولعله إنما دخلها بشفاعة بعض منهم ، وقريب منه ماقيل : إن جعلها لهم باعتبار أنهم أهلها الاولون وملوكها السابقون وغيرهم إنما يرد عليهم وينزل بهم ؛ ويقال فى قوله تعالى: (والعاقبة للمتقين) نحو مامر آنفا عن الخفاجى . بقى فى الآية كلام آخر، وهو ان بعضهم استدل بها على عدم وجود الجنة اليوم بناء على أن معنى (نجعلها للذين لا يريدون) الخ نخلقها فى المستقبل لأجلهم ، وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الجعل متعديا إلى مفعولين ثانيهما (للذين لا يريدون) الخ فيصير المعنى نجعلها كائنة وحاصلة لهم فى الزمان المستقبل فتفيد الآية أن جعلها كائنة لهم غير حاصل الآن لا جعلها نفسها

Marfat.com

وهو محل النزاع ، ودفع بأن المتبادر من جعل الدار كائنة لزيد تمكينه وعدم منعه من التمكن فيها سواء حصل له التمكن فيها أولم يحصل، فمعنى (نجعلها للذين) الخ نمكنهم فى الاستقبال من التمكن فيها ، ولا يخفى ركاكته لأن التمكين من التمكن فيها لازم لوجودها غير منفك عنها على مايدل عليه قوله تعالى: (أعدت للمتقين) فلا يمكن أن تكون نفس الجنة الآن ويكون جعلها كائنة لهم فى الاستقبال ، وحمل الجعل على التمكن بالفعل والتمكين من التمكن وإن كان لازما لوجود الجنة لكن التمكن فيها بالفعل غير لازم بل يكون فيما سيجئ عدول عن المتبادر فان المتبادر من قولك : جعلت الدار لزيد تمكينه من التمكن فيها لا جعل زيد متمكنا فيها بالفعل فتدبر ذلك كله ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ ﴾ بمقابلتها ﴿ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ذاتا ووصفا وقدرا على ماقيل ، وجوز كون (خير) واحد الخيور وليس بأفعل التفضيل و(من) سببية أى فله خير بسبب فعلها وهو خلاف الظاهر، وقد تقدم الكلام فى ذلك ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حال المسيئين بتكرير اسناد السيئة اليهم ، وفى جمع السيئات دون الحسنة قيل اشارة إلى قلة المحسنين وكثرة المسيئين ، وقد يقال: إنه اشارة إلى أن ضم السيئة إلى السيئة لا يزيد جزاءها بل جزاؤها إذا انفردت مثل جزائها إذا انضم اليها غيرها وأن عدم ضم الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر فى مقابلتها بما هو خير منها ، ولعل قلة المحسنين يفهم من عدم اعتبار الجمعية فى (من) فى قوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله خير منها) وكثرة المسيئين تفهم من اعتبار الجمعية فيها إذ الموصول قائم مقام ضميرها فى قوله تعالى: (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ماكانوا يعملون مبالغة فى المماثلة ، وهذا لطف منه عز وجل إذ ضاعف الحسنة ولم يرض بزيادة جزاء السيئة مقدار ذرة ، وقيل : لا حاجة الى اعتبار المضاف فان أعمالهم أنفسها تظهر يوم القيامة فى صورة مايعذبون به ، ولا يخفى مافيه، و فى ذكر عملوا ثانيا دون جاؤا اشارة إلى أن مايجزون عليه ماكان عن قصد لأن العمل يخصه كما قال الراغب ، وفى التفسير الكبير للامام الرازى فى اثناء الكلام على تفسير قوله تعالى : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) الآية أن فى التعبير بجاء دون عمل بأن يقال: من عمل الحسنة فله خير منها ومن عمل السيئة الخ دلالة على أن استحقاق الثواب أى والعقاب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل ، ويؤكد ذلك أنه لو مضى عمره فى الكفر ثم اسلم فى آخر الامر كان من أهل الثواب وبالضد ، ولا يخلو عن حسن ، ولعل نكتة التعبير بعملوا ثانيا تتأتى عليه أيضا. وفى قوله تعالى : (فلا يجزى) الخ دون فللذين عملوا السيئات ماكانوا يعملون أو فما للذين عملوا السيئات الا ماكانوا يعملون اشارة إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب ، ولله تعالى در التنزيل ما اكثر أسراره ، واستشكل ماتدل عليه الآية من أن جزاء السيئة مثلها بأن من كفر فمات على الكفر يعذب عذاب الابد ، وأين هو من كفر ساعة ؟ وأجيب بأن أمر المماثلة مجهول لنا لاسيما على القول بنفى الحسن والقبح العقليين للافعال ، وقصارى مانعلم أن الله تعالى جعل لكل ذنب جزاء أخبر عز وجل أنه مماثل له ، وقد أخبر سبحانه أن جزاء الكفر عذاب الابد فنؤمن به وبأنه مما تقتضيه الحكمة وماعلينا إذا لم نعلم جهة المماثلة ووجه الحكمة فيه ، وكذا يقال فى الذنوب التى شرع الله تعالى لها حدودا فى الدنيا كالزنا وشرب الخمر وقذف المحصن وحدودها التى شرعها جل شأنه لها

Marfat.com

فانا لانعلم وجه تخصيص كل ذنب منها بحد مخصوص من تلك الحدود المختلفة لـكنا نجزم بان ذلك لايخلو عن الحـكمة ، وأجاب الامام عن مسألة الـكفر وعذاب الأبد بأن ذلك لأن الـكافر كان عازما أنه لو عاش إلى الأبد لبقى على ذلك الـكفر ، وقيل : فى وجه تعذيب الـكافر أبد الآباد إن جزاء المعصية يتفاوت حسب تفاوت عظمة المعصى فـكلما كان المعصى أعظم كان الجزاء أعظم ، فحيث كان الـكفر معصية من لاتتناهى عظمته جل شأنه كان جزاؤه غير متناه ، وقياس ذلك أن يكون جزاء كل معصية كذلك إلا أنه لم يكن كذلك فيما عدا الـكفر فضلا منه تعالى شأنه لمـكان الايمان ، وقيل أيضا : إن كل كفر قولا كان أو فعلا يعود إلى نسبة النقص اليه عزوجل المنافى لوجوب الوجود المقتضى لوجوده سبحانه أزلا وأبدا وإذا توهم هناك زمان ممتد كان غير متناه فحيث كان الـكفر مستلزما نفى وجوده تعالى شأنه فيما لايتناهى كان جزاؤه غير متناه ولا كذلك سائر المعاصى فتدبر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ ﴾ أى أوجب عليك العمل به كما روى عن عطاء . وعن مجاهد أى أعطاكه ، وعن مقاتل واليه ذهب الفراء . وأبو عبيدة أى أنزله عليك والمعول عليه ماتقدم .

﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى إلى محل عظيم القدر اعتدت به وألفته على أنه من العادة لامن العود ، وهو كما فى صحيح البخارى ، وأخرجه ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . والنسائى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس مكة ، وروى ذلك أيضا عن مجاهد . والضحاك . وجوز أن يكون من العود ، والمراد به مكة أيضا بناء على ما فى مجمع البيان عن القتيبى أن معاد الرجل بلده لأنه يتصرف فى البلاد ثم يعود اليه ، وقد يقال : أطلق المعاد على مكة لأن العرب كانت تعود اليها فى كل سنة لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه عز وجل لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمكة أنه عليه الصلاة والسلام يهاجر منها ويعود اليها ، وروى عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة مهاجرا واشتاق اليها ، ووجه ارتباطها بما تقدمها تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الدنيا كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الآخرة .

وقيل : إنه تعالى لما ذكر من قصة موسى عليه السلام وقومه مع قارون وبعيه واستطالته عليهم وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه ماذكر ذكر جل شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأصحابه مع قومه واستطالتهم عليه وإخراجهم إياه من مسقط رأسه ثم اعزازه عليه الصلاة والسلام بالاعادة إلى مكة وفتحه إياها منصورا مكرما ووسط سبحانه بينهما ماهو كالتخلص من الأول إلى الثانى .

وأخرج الحاكم فى التاريخ . والديلمى عن على كرم الله تعالى وجهه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فسر المعاد بالجنة ، وأخرج تفسيره بها ابن أبى شيبة . والبخارى فى تاريخه . وأبو يعلى . وابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى . وأخرجه ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه عن ابن عباس ، والتنكير عليه للتعظيم أيضا ، ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتصريح ببعض ماتضمنه ذلك .

واستشكل رده عليه الصلاة والسلام إلى الجنة من حيث إنه يقتضى سابقية كونه صلى الله تعالى عليه وسلم فيها مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيها .

Marfat.com

وأجيب بالتزام السابقية المذكورة ويكفى فيها كونه صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بالقوة إذ كان فى ظهر آدم عليهما الصلاة والسلام حين كان فيها ، وقيل : انه صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان مستعدا لها من قبل كان كأنه كان فيها فالسابقية باعتبار ذلك الاستعداد على نحو ماقيل فى قوله تعالى فى الكفار: (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) ولايخفى مافى كلا القولين من البعد ، وقريب منهما ماقيل : إن ذلك باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام دخلها ليلة المعراج ، وقد يقال : ان تفسيره بالجنة بيان لبعض مايشعر به المعاد بأن يكون عبارة عن المحشر فقد صار كالحقيقة فيه لأنه ابتداء العود إلى الحياة التى كان المعاد عليها وجعله عظيما كما يشعر به التنوين لعظمة ماله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ومنه الجنة ، فالمعاد بواسطة تنوينه الدال على التعظيم يشعر بالجنة لأنها الحاوية مما أعد له ﷺ من الأمور العظيمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقريب من تفسيره بالمحشر تفسيره بالآخرة كما أخرج ذلك عبد بن حميد . وابن مردويه ، عن أبى سعيد الخدرى ، وتفسيره بيوم القيامة كما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس . وعبد بن حميد عن عكرمة إلا أنه على ماذكر اسم زمان ، وعلى ماتقدم اسم مكان ه

ومما يشعر بأنه ليس المراد مجرد الرد إلى المحشر أو الآخرة أو يوم القيامة ما أخرجه الفريابى . وعبد ابن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال فى الآية : إن له معادا يبعثه الله تعالى يوم القيامة ثم يدخله الجنة . ويتخرج على نحو ما قلنا تفسيره بالمقام المحمود وهو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة ه

وجاء فى رواية أخرى رواها عبد بن حميد . وابن مردويه عن ابن عباس . وأبى سعيد الخدرى أيضا تفسيره بالموت ، ورواها معهما عن الحبر . الفريابى . وابن أبى حاتم . والطبرانى ، وكونه معادا لقوله تعالى: (وكنتم أمواتا فأحياكم) ولعل تعظيمه باعتبار أنه باب لوصوله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى ما أعد الله عز وجل له من المقام المحمود والمنزلة العليا فى الجنة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجل المقصود ما أشعر به التعظيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن نعيم القارى أنه فسره ببيت المقدس . وكأن إطلاق المعاد عليه باعتبار أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أسرى به اليه ليلة المعراج ، والوعد برده عليه الصلاة والسلام اليه وعد له بالإسراء اليه مرة أخرى أو باعتبار أن أرضه أرض المحشر فالمراد بالرد اليه الرد إلى المحشر ، وهذا غاية ما يقال فى توجيه ذلك . فان قبل فذاك وإلا فالأمر اليك ؛ وكأنى بك تختار مافى صحيح البخارى ورواه الجماعة الذين تقدم ذكرهم عن ابن عباس من أنه مكة . وربما يخطر بالبال أن يراد بالمعاد الأمر المحبوب بنوع تجوز ويجعل بحيث يشمل مكة والجنة وغيرهما مما هو محبوب لديه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويراد برده عليه الصلاة والسلام إلى الأمر المحبوب إيصاله اليه مرة بعد أخرى فالرد هنا مثله فى قوله تعالى: (فردوا أيديهم فى أفواههم) وعليه يهون أمر اختلاف الروايات التى سمعتها فى ذلك فتدبر ●

﴿ قُلْ رَبِّىٓ أَعْلَمُ مَنْ جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ يريد بذلك نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم وبقوله سبحانه :

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ ٨٥﴾ المشركين الذين بعث اليهم صلى الله تعالى عليه وسلم و(من) منتصب بفعل يدل عليه أعلم لا بأعلم لأن أفعل لاينصب المفعول به فى المشهور أى يعلم من جاء الخ ، وأجاز بعضهم أن يكون

Marfat.com

منصوبا بأعلم على أنه بمعنى عالم ، والمراد أنه عز وجل يجازى كلا ممن جاء بالهدى ومن هو فى ضلال على عمله ، والجملة تقرير لقوله تعالى: (إن الذى فرض عليك القرآن) الخ . وفى معالم التنزيل هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم إنك فى ضلال ، ولعله لهذا وكون السبب فيه مجيئه عليه الصلاة والسلام اليهم بالهدى قيل : فى جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم من جاء بالهدى وفى جانبهم من هو فى ضلال مبين ، ولم يؤت بهما على طرز واحد ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ تقرير لذلك أيضا أى سيردك إلى معاد كما أنزل اليك القرآن العظيم الشأن وما كنت ترجوه ، وقال أبو حيان . والطبرسى : هو تذكير لنعمته عز وجل عليه عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ على ماذهب اليه الفراء وجماعة استثناء منقطع أى ولكن ألقاه تعالى اليك رحمة منه عز وجل ، وجوز أن يكون استثناء متصلا من أعم العلل أو من أعم الاحوال على أن المراد نفى الالقاء على أبلغ وجه ، فيكون المعنى ماألقى اليك الكتاب لأجل شئ من الاشياء الا لأجل الترحم أو فى حال من الاحوال إلا فى حال الترحم ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ٨٦ ﴾ أى معينا لهم على دينهم ، قال مقاتل : إن كفار مكة دعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ماهم عليه ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أى الكافرون ﴿ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أى قراءتها والعمل بها * ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أى بعد وقت انزالها وايحائها اليك المقتضى لنبوتك ومزيد شرفك ، وقرأ يعقوب (يصدنك) بالنون الخفيفة وقرئ (يصدنك) مضارع أصد بمعنى صد حكاه أبو زيد عن رجل من كلب قال: وهى لغة قومه وقال الشاعر :

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواقى عن أنوف الحوائم

﴿ وَٱدْعُ ﴾ الناس ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى عبادته جل وعلا وتوحيده سبحانه ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٨٧ ﴾ بمظاهرتهم ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أى ولا تعبد معه تعالى غيره عز وجل ، وهذا وماقبله للتهييج والالهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم وإظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يتصور وقوعه منه أصلا ، وروى محيى السنة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : الخطاب فى الظاهر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والمراد به أهل دينه وهو فى معنى ماحكى عنه الطبرسى أن هذا وأمثاله من باب * إياك أعنى واسمعى ياجاره * ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده ﴿ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ أى موجود مطلقا ﴿ هَالِكٌ ﴾ أى معدوم محض ، والمراد كونه كالمعدوم وفى حكمه ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أى إلا ذاته عز وجل وذلك لأن وجود ماسواه سبحانه لكونه ليس ذاتيا بل هو مستند إلى الواجب تعالى فى كل آن قابل للعدم وعرضة له فهو كلا وجود وهذا مااختاره غير واحد من الاجلة ، والكلام عليه من قبيل التشبيه البليغ ، والوجه بمعنى الذات مجاز مرسل وهو مجاز شائع وقد يختص بما شرف من الذوات ، وقد يعتبر ذلك هنا ، ويجعل نكتة للعدول عن إلا إياه إلى مافى النظم الجليل *

وفى الآية بناء على ما هو الاصل من اتصال الاستثناء دليل على صحة إطلاق الشىء عليه جل وعلا ،

Marfat.com

وقريب من هذا ماقيل : المعنى كل مايطاق عليه الموجود معدوم فى حد ذاته إلا ذاته تعالى ، وقيل : الوجه بمعنى الذات إلا أن المراد ذات الشيء ، وإضافته إلى ضميره تعالى باعتبار أنه مخلوق له سبحانه نظير ما قيل فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) من أن المراد بالنفس الثانى نفس عيسى عليه السلام وإضافته اليه تعالى باعتبار أنه مخلوق له جل وعلا ، والمعنى كل شيء قابل للهلاك والعدم إلا الذات من حيث استقبالها لربها ووقوفها فى محراب قربها فانها من تلك الحيثية لا تقبل العدم ، وقيل : الوجه بمعنى الجهة التى تقصد ويتوجه اليها ، والمعنى كل شيء معدوم فى حد ذاته إلا الجهة المنسوبة اليه تعالى وهو الوجود الذى صار به موجودا ، وحاصله أن كل جهات الموجود من ذاته وصفاته وأحواله هالكة معدومة فى حد ذاتها إلا الوجود الذى هو النور الإلهى ، ومن الناس من جعل ضمير وجهه للشيء وفسر الشيء بالموجود بمعنى ما له نسبة إلى حضرة الوجود الحقيقى القائم بذاته وهو عين الواجب سبحانه ، وفسر الوجه بهذا الوجود لأن الموجود يتوجه اليه وينسب ، والمعنى كل منسوب إلى الوجود معدوم إلا وجهه الذى قصده وتوجه اليه وهو الوجود الحقيقى القائم بذاته الذى هو عين الواجب جل وعلا ، ولا يخفى الغث والسمين من هذه الاقوال ، وعليها كلها يدخل العرش والكرسى والسموات والأرض والجنة والنار ، ونحو ذلك فى العموم ●

وقال غير واحد : المراد بالهلاك خروج الشيء عن الانتفاع به المقصود منه إما بتفرق أجزائه أو نحوه ، والمعنى كل شيء سيهلك ويخرج عن الانتفاع به المقصود منه إلا ذاته عز وجل ، والظاهر أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط فيؤول المعنى إلى قولنا: كل موجود فى وقت من الاوقات سيهلك بعد وجوده إلا ذاته تعالى، فيدل ظاهر الآية على هلاك العرش والجنة والنار والذى دل عليه الدليل عدم هلاك الاخيرين ●

وجاء فى الخبر أن الجنة سقفها عرش الرحمن ، ولهذا اعترض بهذه الآية على القائلين بوجود الجنة والنار الآن والمنكرين له القائلين بأنهما سيوجدان يوم الجزاء ويستمران أبد الآباد ، واختلفوا فى الجواب عن ذلك فمنهم من قال : إن كلا ليست للاحاطة بل للتكثير كما فى قولك: كل الناس جاء إلا زيدا إذا جاء أكثرهم دون زيد ، وأيد بما روى عن الضحاك أنه قال فى الآية : كل شيء هالك إلا الله عز وجل والعرش والجنة والنار ، ومنهم من قال : إن المراد بالهلاك الموت والعموم باعتبار الإحياء الموجودين فى الدنيا، وأيد بما روى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية : كل حى ميت إلا وجهه ●

وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال : لما نزلت (كل نفس ذائقة الموت) قيل يارسول الله فما بال الملائكة؟ فنزلت (كل شيء هالك إلا وجهه) فبين فى هذه الآية فناء الملائكة والثقلين من الجن والإنس وسائر عالم الله تعالى وبريته من الطير والوحوش والسباع والأنعام وكل ذى روح أنه هالك ميت ، وأنت تعلم أن تخصيص الشيء بالحى الموجود فى الدنيا لابد له من قرينة فان اعتبر كونه محكوما عليه بالهلاك حيث شاع استعماله فى الموت وهو إنما يكون فى الدنيا قرينة فذاك وإلا فهو كما ترى ، ومن الناس من التزم مايقتضيه ظاهر العموم من أنه كل مايوجد فى وقت من الأوقات فى الدنيا والأخرى يصير هالكا بعد وجوده بناء على تجدد الجواهر وعدم بقاء شيء منها زمانين كالاعراض عند الأشعرى ، ولايخفى بطلانه ، وإن ذهب إلى ذلك بعض أكابر الصوفية قدست أسرارهم ●

Marfat.com

وقال سفيان الثورى : وجهه تعالى العمل الصالح الذى توجه به اليه عزوجل ، فقيل : فى توجيه الاستثناء إن العمل المذكور قد كان فى حيز العدم فلما فعله العبد ممتثلا أمره تعالى أبقاه جل شأنه له إلى أن يجازيه عليه أو أنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق ، وروى عن أبى عبد الله الرضا رضى الله تعالى عنه أنه ارتضى نحو ذلك ، وقال المعنى كل شئ من أعمال العباد هالك وباطل إلا ماأريد به وجهه تعالى ، وزعم الخفاجى أن هذا كلام ظاهرى *

وقال أبو عبيدة : المراد بالوجه جاهه تعالى الذى جعله فى الناس وهو كما ترى لا وجه له ، والسلف يقولون الوجه صفة نثبتها لله تعالى ولا نشتغل بكيفيتها ولا بتأويلها بعد تنزيهه عز وجل عن الجارحة ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أى القضاء النافذ فى الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ عز وجل ﴿ تُرْجَعُونَ ٨٨ ﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل لا إلى غيره تعالى ورجوع العباد اليه تعالى عند الصوفية أهل الوحدة بمعنى ماوراء طور العقل *

وقيل : ضمير اليه للحكم ، وقرأ عيسى (ترجعون) مبنيا للفاعل ، هذا والكلام من باب الإشارة فى آيات هذه السورة أكثره فيما وقفنا عليه من باب تطبيق مافى الآفاق على مافى الأنفس ولعله يعلم بأدنى تأمل فيما مر بنا فى نظائرها فتأمل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل وهو جل وعلا حسبنا ونعم الوكيل *

﴿ سورة العنكبوت ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحو ذلك ، وروى القول بأنها مكية عن الحسن وجابر . وعكرمة ، وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة . وفى البحر عن الحبر . وقتادة أنها مدنية ، وقال يحيى ابن سلام : هى مكية إلا من أولها إلى قوله (وليعلمن المنافقين) وذكر ذلك الجلال السيوطى فى الاتقان ولم يعزه ، وأنه لما أخرجه ابن جرير فى سبب نزولها ثم قال : قلت ويضم إلى ذلك (وكأين من دابة) الآية لما أخرجه ابن أبى حاتم فى سبب نزولها وسيأتى ان شاء الله تعالى الكلام فى ذلك وهى تسع وستون آية بالاجماع كما قال الدانى والطبرسى ، وذكر الجلال فى وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى أخبر فى أول السورة السابقة عن فرعون أنه (علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) وافتتح هذه بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الايمان بعذاب دون ماعذب به فرعون بنى إسرائيل بكثير تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم وحثا على الصبر ، ولذا قيل هنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) وأيضا لما كان فى خاتمة الأولى الاشارة إلى هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أى فى قوله تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) على بعض الأقوال ، وفى خاتمة هذه الاشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى : (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة) ناسب تتاليهما *

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ ١ ﴾ سبق الكلام فيه وفى نظائره ولم يجوز بعضهم هنا ارتباط مابعده به ارتباطا اعرابيا لأن الاستفهام مانع منه وبحث فيه بأن اللازم فى الاستفهام تصدره فى جملته وهو لاينافى وقوع

Marfat.com

تلك الجملة خبراً ونحوه كقولك : زيد هل قام أبوه؟ فلو قيل هنا المعنى المتلو عليك ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾ إلى آخر السورة صح فلا يقال أيضا إن المانع منه عدم صحة ارتباطه بما قبله معنى. نعم الارتباط خلاف الظاهر، والاستفهام للانكار، والحسبان مصدر كالغفران مما يتعلق بمضامين الجمل لأنه من الافعال الداخلة على المبتدأ والخبر وذلك للدلالة على وجه ثبوتها فى الذهن أو فى الخارج من كونها مظنونة أو متيقنة فتقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر أو مايسد مسدهما وقد سد مسدهما هنا على ماقاله الحوفى. وابن عطية. وأبو البقاء : قوله تعالى: ﴿ أَن يُتْرَكُوٓا ﴾ وسد أن المصدرية الناصبة للفعل مع مدخولها مسد الجزأين ماقاله ابن مالك ، ونقله عنه الدمامينى فى شرح التسهيل ، وزعم بعضهم ان ذلك إنما هو فى أن المفتوحة مشددة ومثقلة مع مدخولها، والترك هنا على ماذكره الزمخشرى بمعنى التصيير المتعدى لمفعولين كما فى قوله تعالى: (تركهم فى ظلمات لا يبصرون) وقول الشاعر :

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن قلة رأسه والمعصم

فضمير الجمع نائب مفعول أول والمفعول الثانى متروك بدلالة الحال الآتية أى كاهم أو على ماهم عليه كما فى قوله تعالى: (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا) على ماقدره الزمخشرى فيه وقوله سبحانه : ﴿ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ بمعنى لأن يقولوا متعلق بيتركوا على أنه غير مستقر ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ ﴾ فى موضع الحال من ضمير يتركوا ، ويجوز أن لا يعتبر كون المفعول الثانى ليتركوا متروكا بل تجعل هذه الجملة الحالية سادة مسده ، ألا ترى أنك لو قلت : علمت ضربى زيداً قائما صح ، على أن ترك ليس كافعال القلوب فى جميع الأحكام ، بل القياس أن يجوز الاكتفاء فيه بالحال من غير نظر إلى أنه قائم مقام الثانى لأن قولك : تركته وهو جزر السباع كلام صحيح كما تقول أبقيته على هذه الحالة ، وهو نظير سمعته يتحدث فى أنه يتم بالحال بعده أو الوصف ، وههنا زاد أنه يتم أيضا بما يجرى مجرى الخبر ، وجوز أن تكون هذه الجملة هى المفعول الثانى لاسادة مسده وتوسط الواو بين المفعولين جائز كما فى قوله :

وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل

وقد نص شارح أبيات المفصل على أنه حكى عن الأخفش أنه كان يجوز كان زيد وأبوه قائم على نقصان كان وجعل الجملة خبراً مع الواو تشبيها لخبر كان بالحال فمتى جاز فى الخبر عنده فليجز فى المفعول الثانى وهو كما نرى ، واستظهر الطيبى كون الترك هنا متعديا لواحد على أنه بمعنى التخلية وليس بذاك ، وجوز الحوفى. وأبو البقاء أن يكون (أن يقولوا) بدلا من أن يتركوا وجوز أن يكون (أن يتركوا) هو المفعول الأول لحسب و(هم لا يفتنون) فى موضع الحال من الضمير (وان يقولوا) بتقدير اللام هو المفعول الثانى، وكونه علة لا ينافى ذلك كما فى قولك : حسبت ضربه للتأديب ، والتقدير أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم : آمنا ، والمفعول الثانى ليتركوا متروك بدلالة الحال ، واعترضه صاحب التقريب بما حاصله أن الحسبان لتعلقه بمضامين الجمل إذا أنكر يكون باعتبار المفعول الثانى ، فاذا قلت : أحسبته قائما؟ فالمنكر حسبان قيامه ، كذلك إذا قيل : أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا أفاد إنكار حسبان أن الترك غير مفتونين لهذه العلة بل إنما هو لعلة أخرى ولا يلائم سبب النزول ولا مقصود الآية *

واختار أن يكون (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين و(أن يقولوا) علة للحسبان أى أحسبوا لقولهم آمنا

Marfat.com

أن يتركوا غير مفتونين ، وأجيب بأن أصل الكلام ألا يفتنون لقولهم آمنا على إنكار أن يكون سبباً لعدم الفتن ، ثم قيل : أيتركون غير مفتونين لقولهم آمنا مبالغة فى إنكار أن يبقوا من غير فتن لذلك ثم أدخل على حسبان الترك مبالغة على مبالغة ، وإنما يرد ماأورد اذا لم يلاحظ أصل الكلام ويجعل مصب الانكار الحسبان من أول الأمر *

وقيل : إنما يازم ماذكر لو لم يقدر أحسبوا تركهم غير مفتونين بمجرد قولهم : آمنا دون إخلاص وعمل صالح أما لو قدر ذلك استقام كما صرح به الزجاج ، على أن ذلك مبنى على اعتبار المفهوم ، واعترض ذلك بعضهم من حيث اللفظ بأن فيه الفصل بين الحال وذيها بثانى مفعولى حسب وهو اجنبى ؛ وأجيب بأن الفصل غير ممتنع بل الأحسن أن لا يقع فصل إلا إذا اعترض مايوجبه ، وههنا الاهتمام بشأن الخبر حسن التقديم لأن مصب الانكار ذلك ، ولا يخفى أنه يحتاج إلى مثل هذا الجواب على مايقتضيه الظاهر من جعل (أن يتركوا) فى تأويل مصدر وقع مفعولا أولا (وأن يقولوا) فى تأويل مصدر أيضا مجرور بلام مقدرة والجار والمجرور فى موقع المفعول الثانى ، وأما على ماذكره بعض المحققين من أنهما لم يجعلا كذلك وإنما جعل (أن يقولوا) معمولا ليتركوا بتقدير اللام وجعل (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين واقتضى المعنى أن يقال أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا بجعل تركهم مفعولا أولا ولقولهم مفعولا ثانيا فلا يحتاج اليه لأنه إن جرينا مع اللفظ كان (أن يتركوا) سادا مسد المفعولين فلا يكون فيه مفعول ثان فاصل بين الحال وذيها وإن جرينا مع المعنى واعتبرنا الكلام مجردا عن أن المصدرية وجىء به كما سمعت كانت الحال متصلة بذيها ، وقيل : يجوز أن يكون المفعول الأول لحسب محذوفا أى أحسب الناس أنفسهم و(أن يتركوا) فى موضع المفعول الثانى على أنه فى تأويل مصدر وهو فى تأويل اسم المفعول أى متروكين وهم لا يفتنون فى موضع الحال كما تقدم وأن يؤمنوا بتقدير لأن يؤمنوا متعلق بيتركوا فكأنه قيل : أحسب الناس انفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا ، وقيل: إن هذا المعنى حاصل على تقدير سد (أن يتركوا) مسد المفعولين فتأمل فيه وفيما قبله ، ولعل الابعد عن التكلف ماذكرناه أولا ، والمراد إنكار حسبانهم أن يتركوا غير مفتونين بمجرد أن يقولوا آمنا واستبعاد له وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل بما يقتضيه ويجازيهم سبحانه بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد الايمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار ه

وذكر بعضهم أنه سبحانه لو أثاب المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه فى الدنيا لقال الكافر المعذب : ربى لو أنك كنت فتنته فى الدنيا لكفر مثلى فايمانه الذى تثيبه عليه مما لا يستحق الثواب له فبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ويعوض المؤمن بدلها ما يعوض بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت والآية على ماأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن الشعبى نزلت فى أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم اقرار ولا اسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الاية فكتبوا اليهم أنزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فان اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم

Marfat.com

فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى فيهم (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) *

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل على عمار درعا من حديد فى اليوم الصائف وطعن فى فرج أمه برمح فنى ذلك نزلت (أحسب الناس) الخ ، وقيل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب قتل ببدر فجزع عليه أبواه وامرأته «وقال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة» ، وقيل : نزلت فى عياش أخى أبى جهل غدر وعذب ليرتد كما سيأتى خبره إن شاء الله تعالى، وفسر الناس بمن نزلت فيهم الآية ، وقال الحسن الناس هنا المنافقون *

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حال من الناس أو من ضمير يفتنون ، وعلى الأول يكون علة لإنكار الحسبان أى أحسبوا ذلك وقد علموا أن سنة الله تعالى على خلافه ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلا ، وعلى الثانى بيانا لأنه لا وجه لتخصيصهم بعدم الافتتان ، وحاصله أنه على الأول تنبيه على الخطأ ، وعلى الثانى تخطئة ، والمراد بالذين من قبلهم المؤمنون أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما أصابهم فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ كما يعرب عنه قوله تعالى : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) الآيات *

وروى البخارى . وأبو داود . والنسائى عن خباب بن الارت قال : «شكونا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولقد لقينا من المشركين شدة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى فى قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فى ذلك ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان ، واللام واقعة فى جواب القسم ، والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة ، وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير ، ويتوهم من الآية حدوث علمه تعالى بالحوادث وهو باطل . وأجيب بأن الحادث تعلق علمه تعالى بالمعدوم بعد حدوثه ، وقال ابن المنير : الحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقا على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء فكأنه قيل : فوالله ليعلمن بما يشبه الامتحان والاختبار الذين صدقوا فى الإيمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب فليجازين كلا بحسب علمه فيه ، وفى معناه ما قاله ابن جنى : من أنه من إقامة السبب مقام المسبب ، والغرض فيه ليكافئن الله تعالى الذين صدقوا وليكافئن الكاذبين وذلك أن المكافأة على الشىء إنما هى مسببة عن علم ، وقال محيى السنة : أى فليظهرن الله تعالى الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلوما لأن الله تعالى عالم بهم قبل الاختبار *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وجعفر بن محمد . والزهرى رضى الله تعالى عنهم (فليعلمن) بضم الياء وكسر اللام على أنه مضارع أعلم المنقولة بهمزة التعدية من علم المتعدية إلى واحد وهى التى بمعنى عرف فيكون

Marfat.com

الفعل على هذه القراءة متعدياً لاثنين والثانى هنا محذوف أى فليعلمن الله الذين صدقوا منازلهم من الثواب وليعلمن الكاذبين منازلهم من العقاب وذلك فى الآخرة، او الأول محذوف أى فليعلمن الله الناس الذين صدقوا وليعلمنهم الكاذبين أى يشهدهم هؤلاء فى الخير وهؤلاء فى الشر ، والظاهر أن ذلك فى الآخرة أيضا ، وقال أبوحيان : فى الدنيا والآخرة ، وجوز أن يكون ذلك من الاعلام وهو وضع العلامة والسمة فيتعدى لواحد أى يسمهم بعلامة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها ، وقيل : يسمهم سبحانه بعلامة يعرفون بها فى الدنيا كقوله عليه الصلاة والسلام : « من أسر سريرة ألبسه الله تعالى رداءها »

وقرأ الزهرى الفعل الأول كما قرأ الجماعة ، والفعل الثانى كما قرأ على كرم الله تعالى وجهه . وجعفر . والزهرى رضى الله تعالى عنهم ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔـٰتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ قال مجاهد : أى يعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم وأصل السبق الفوت ، ثم أريد منه ماذكر . وقيل : أى يعجلونا محتوم القضاء ، والأول أولى .

وفسر قتادة على ماأخرجه عنه عبد بن حميد . وابن جرير (السيئات) بالشرك والجمع باعتبار تعدد المتصفين به وإطلاق العمل على الشرك سواء قلنا إنه ما كان عن فكر وروية كما قيل : أو عن قصد كما قال الراغب : أم لا لا ضير فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرها ، وقيل : المراد بالسيئات المعاصى غير الكفر فالآية فى المؤمنين قطعاً ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم فى ذلك لكن نزل جريهم على غير موجب العلم وهو غفلتهم وإصرارهم على المعاصى منزلة من لم يتيقن الجزاء ، ويحسب أنه يفوت الله عزوجل .

وعمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصى ، وتعليق العمل بها بناء على تسليم تخصيصه بما سمعت يحتمل أن يكون باعتبار التغليب ، وظاهر الآثار يدل على أن هذه الآية نزلت فى شأن الكفرة ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة. وأباجهل. والأسود . والعاصى بن هشام . وشيبة . وعتبة . والوليد بن عتبة . وعتبة بن أبى معيط . وحنظلة بن وائل وأنظارهم من صناديد قريش ، وفى البحر أن الآية وإن نزلت على سبب فهى تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم ، والظاهر أن (أم) منقطعة بمعنى بل التى للاضراب بمعنى الانتقال وهو انتقال من إنكار حسبان عدم الفتن لمجرد الايمان إلى إنكار حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات .

وقال ابن عطية : (أم) معادلة للهمزة فى قوله تعالى : (أحسب) وكأنه سبحانه قرر الفريقين ، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لايفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات فى تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله تعالى ويعجزونه انتهى . ورد بأنها لو كانت معادلة للهمزة لكانت متصلة والتالى باطل لأن شرط المتصلة أن يكون مابعدها مفرداً نحو أزيد قائم أم عمرو أو ماهو فى تقدير المفرد نحو أقام زيد أم قعد وجوابها تعيين أحد الشيئين أو الأشياء وبعدها هنا جملة ، ولايمكن الجواب هنا أيضا بأحد الشيئين فالحق أنها منقطعة والاستفهام الذى تشعر به إنكارى لايحتاج للجواب كما لايخفى ، والظاهر أن الحسبان متعد إلى مفعولين وأن (أن يسبقونا) ساد مسدهما .

وجوز الزمخشرى هنا أن يضمن معنى التقدير فيكون متعديا لواحد وإن يسبقونا هو ذلك الواحد ،

Marfat.com

وتعقبه أبو حيان بأن التضمين ليس بقياس ولا يصار اليه إلا عند الحاجة وهنا لا حاجة اليه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤﴾ أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك على أن ساء بمعنى بئس و(ما) موصولة و(يحكمون) صلتها ، والعائد محذوف وهى فاعل ساء ، والمخصوص بالذم محذوف أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك على أن ما موصوفة ويحكمون صفتها والرابط محذوف وهى تمييز وفاعل ساء ضمير مفسر بالتمييز والمخصوص محذوف أيضا *

وقال ابن كيسان : (ما) مصدرية ، والمصدر المؤول مخصوص بالذم فالتمييز محذوف ، وجوز كون ساء بمعنى قبح وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، والمضارع للاستمرار إشارة إلى أن دأبهم ذلك أو هو واقع موقع الماضى لرعاية الفاصلة وكلا الوجهين حكاهما فى البحر ، والأول أولى ، وعندى أن مثل هذا لا يقال : إلا فى حق الكفرة ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال : أى من كان يخشى البعث فى الآخرة فالرجاء بمعنى الخوف كما فى قول الهذلى فى وصف عسال :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عوامل

ولعل إرادة البعث من لقائه عزوجل لأنه من مباديه ، وقيل : لعله جعل لقاء الله تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة إلا أنه لما كان البعث من أعظم ما يتوقف ذلك عليه خصه بالذكر ، وفى الكشاف أن لقاء الله تعالى مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ؛ وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر فاما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضى من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فمعنى (من كان) الخ من كان يأمل تلك الحال وإن يلقى فيها الكرامة من الله تعالى والبشرى ، فالكلام عنده من باب التمثيل والرجاء بمعنى الأمل والتوقع *

وجوز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف اى من كان يتوقع ملاقاة جزاء الله تعالى ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه عزوجل يوم القيامة وأن يكون بمعنى الخوف ، والمضاف محذوف أيضاً أى من كان يخاف ملاقاة عقاب الله تعالى ، وأن يكون بمعنى ظن حصول ما فيه مسرة وتوقعه كما هو المشهور ، والمضاف كذلك أيضا ، أى من كان يرجو ملاقاة ثواب الله تعالى ، ويجوز أن لا يقدر مضاف ، ويجعل لقاء الله تعالى مجازاً عن الثواب لما أنه لازم له *

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهور وأن لقاء الله تعالى مشاهدته سبحانه على الوجه اللائق به عز وجل كما يقوله أهل السنة والجماعة إذ لا حاجة للخروج عن الظاهر من غير ضرورة وما حسبه المعتزلى منها فليس منها كما بين فى علم الكلام أى من كان يتوقع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التى لا نعيم يعدلها ويلزمها الفوز بكل خير ونعيم ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الأجل غاية لزمان ممتد عينت لأمر من الامور ، وقد يطلق على كل ذلك الزمان ، والاول أشهر فى الاستعمال أى فان الوقت الذى عينه جل شأنه لذلك ﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن اجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما ، ومجىء ذلك الوقت كناية عن إتيان ما فيه ووقوعه ، والجملة الاسمية قائمة مقام جواب الشرط وهى فى الحقيقة دليل الجواب المحذوف أى فليبادر ما ينفقه من امتثال الأوامر واجتناب المناهى أو فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو نحو ذلك مما يلائم الشرط فتدبره

Marfat.com

وقيل : يجوز أن تكون هى الجواب على أن المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذكر ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ جل شأنه لأقوال العباد ﴿ ٱلْعَلِيمُ ٥ ﴾ بأحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة ، والجملة تذييل لتحقيق حصول المرجو والمخوف وعداً ووعيدا ﴿ وَمَنْ جَـٰهَدَ ﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لعود المنفعة من الثواب المعد لذلك اليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٦ ﴾ فلاحاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم سبحانه بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته ٥

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الكفر الاصلى أو العارضى بالايمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٧ ﴾ أى أحسن جزاء اعمالهم والجزاء الحسن أن يجازى بحسنة حسنة ، وأحسن الجزاء أن تجازى الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة ، وقيل : لو قدر لنجزينهم بأحسن اعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم لاخراج المباح جاز ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أى أمرناه بتعهدهما ومراعاتهما ، وانتصب حسنا على أنه وصف لمصدر محذوف أى ايصاء حسنا أى ذا حسن أو هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: (وقولوا للناس حسنا) وهذا ما اختاره أبو حيان ولا يخلو عن حسن : وقال الزمخشرى حسنا مفعول به لمصدر محذوف مضاف إلى والديه أى وصيناه بايتاء والديه أو بايلاء والديه حسنا، وفيه إعمال المصدر محذوفا وإبقاء عمله وهو لا يجوز عند البصريين ، وجوز أن يكون حسنا مصدرا لفعل محذوف أى أحسن حسنا ، والجملة فى موضع المفعول لوصى لتضمنه معنى القول ، وهذا على مذهب الكوفيين القائلين بأن ما يتضمن معنى القول يجوز أن يعمل فى الجمل من غير تقدير للقول ، وعند البصريين يقدر القول فى مثل ذلك وعليه يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف والجملة مقول القول وجملة القول مفسرة للتوصية أى قلنا أو لهما أو افعل بهما حسنا ، وعلى هذا يحسن الوقف على بوالديه لاستئناف الجملة بعده ، ورجح تقدير الامر بأنه أوفق لما بعده من الخطاب والنهى الذى هو أخوه لكن ضعف ما فيه كثرة تقدير بكثرة التقدير ، ونقل ابن عطية عن الكوفيين أنهم يجعلون حسنا مفعولا لفعل محذوف ويقدرون أن يفعل حسنا ، وفيه حذف أن وصلتها وإبقاء المعمول وهو لا يجوز عند البصريين ، وقيل : إن حسنا منصوب بنزع الخافض وبوالديه متعلق بوصينا والباء فيه بمعنى فى أى وصينا الانسان فى أمر والديه بحسن وهو كما ترى ، وقرأ عيسى. والجحدرى (حسنا) بفتحتين وفى مصحف أبى احسانا ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ عطف على ما قبله ولا بد من اضمار القول إن لم يضمر قبل أى وقلنا : ان جاهداك الخ لئلا يلزم عطف الانشاء على الخبر لأن الجملة الشرطية إذا كان جوابها انشاء فهى انشائية كما صرحوا به فاذا لم يضمر القول لا يليق عطفها على وصينا لما ذكر ولا على ما عمل فيه لكونه فى معنى القول وهو أحسن وإن توافقا فى الانشائية لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه منهى عن مطاوعتهما، وأما عطفه على قلنا المفسر للتوصية فلا يضر لما فيه من تقييدها بعدم الافضاء إلى المعصية ما لا فكأنه قيل : أحسن اليهما وأطعهما مالم يأمراك بمعصية فتأمل ، والظاهر الذى يقتضيه المقام أن (ما) عام لما سواه تعالى شأنه وقوله سبحانه : (به) على حذف مضاف أى ما ليس لك بالهيته علم، وتنكير علم للتحقير ٥

والمراد لتشرك بى شيئاً لا يصح أن يكون الها ولا يستقيم، وفى العدول عنه إلى ما فى النظم الجليل ايذان

Marfat.com

بأن مالا يعلم صحته ولو اجمالا كما فى التقليد لايجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم على أتم وجه بطلانه ، وجعل العلامة الطيبي نفى العلم كناية عن نفى المعلوم، وعلل ذلك بأن هذا الاسلوب يستعمل غالبا فى حق الله تعالى نحو(أتعلمون الله بما لا يعلم) ثم قال: وفيه اشارة إلى أن نفى الشرك من العلوم الضرورية وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه على ماورد «كل مولود يولد على الفطرة» وذلك أن المخاطب بقوله تعالى: (ووصينا الانسان) جنس الانسان انتهى ، وفيه بحث . ومتعلق تطعهما محذوف لوضوح دلالة الكلام عليه أى وإن استفرغا جهدهما فى تكليفك لتشرك بى غيرى مما لا الهية له فلا تطعهما فى ذلك فانه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكليف اشعار بأن موجب النهى فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية وكذا موجبه فى مجاهدة أحدهما ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى مرجع من آمن منكم - ومن أشرك - ومن بر - ومن عق والجملة مقررة لما قبلها ولذا لم تعطف ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه رضى الله تعالى عنه حين أسلم قالت أمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس: ياسعد بلغنى أنك صبأت فوالله تعالى لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح وأن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكان أحب ولدها اليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشكا اليه فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان والتى فى الاحقاف فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالاحسان ه

وروى أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما متوافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بنى تميم من بنى حنظلة فنزلا بعياش وقالا له: ان من دين محمد صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك وهى أشد حبا لك منا فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب فاستشار عمر رضى الله تعالى عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فمازالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله تعالى عنه فقال عمر رضى الله تعالى عنه : أما اذ عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهم ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتى قد كلت فاحملنى معك ، قال: نعم . فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه ، فقالت : لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت ه

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩﴾ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح الكاملين فيه ، والصلاح ضد الفساد وهو جامع لكل خير ؛ وله مراتب غير متناهية ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا ، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ويحتمل أن يكون الكلام بتقدير مضاف أى فى مدخل الصالحين وهى الجنة ، والموصول مبتدأ ولندخلنهم الخبر على ما ذكره أبو البقاء ، وجوز أن يكون فى موضع نصب على تقدير لندخلن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أى بعضهم ﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أى لأجله عز وجل على أن فى للسببية ، أو المراد فى سبيل الله تعالى بأن عذبهم المشركون على الايمان به تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أى

Marfat.com

نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أى منزلة عذابه تعالى فى الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به عز وجل ٥

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بأن حصل للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام الثانية وحذف ضمير الجمع لالتقاء الساكنين، وهذا الضمير عائد إلى من والجمع بالنظر إلى معناها، كما أن إفراد الضمائر العائدة اليها فيما سبق بالنظر إلى لفظها، وحكى أبو معاذ النحوى أنه قرئ (ليقولن) بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سبق ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أى مشايعين لكم فى الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة، وقيل: أى مقاتلين معكم ناصرين لكم فالمراد الصحبة فى القتال. ورد بأنها غير واقعة، والآية نزلت فى ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين وبذلك يكونون منافقين، ولذا قال ابن زيد. والسدى: إن الآية فى المنافقين فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه:

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ وهو فى الظاهر عطف على مقدر أى أيخفى حالهم وليس الخ أو أليس المتفرسون الذين ينظرون بنور الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس الخ، و (أعلم) إما على أصله أى أليس هو عز وجل أعلم من العالمين بما فى صدور العالمين من الأخلاق والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة أو هو بمعنى عالم. وقال قتادة: نزلت فيمن هاجر فردهم المشركون إلى مكة، وقيل: نزلت فى ناس مؤمنين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا وهم الذين قال الله تعالى فيهم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية، وما تقدم هو الأوفق لما سبق من الآية ومالحق من قوله سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالاخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بأذية أو لا، والمراد بالعلم المجازاة أى ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق، وكأن تلوين الخطاب فى الذين آمنوا والمنافقين لرعاية الفواصل، والظاهر أن الآية بناء على أن النفاق ظهر فى المدينة مدنية، وهو يؤيد ما تقدم من عدها من المستثنيات، ولعل من يقول إنها مكية لظاهر إطلاق جمع القول بمكية السورة، وأن تعذيب الكفرة المسلمين إنما كان فى الأغلب بمكة يمنع ذلك أو يذهب إلى أنها من الاخبار بالغيب فتدبر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بيان لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد، ووصفهم بالكفر ههنا دون ماسبق لما أن مساق الكلام لبيان جنايتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه، واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين، عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أى إذا كان ذلك الاتباع خطيئة يؤاخذ عليها يوم القيامة كما تقولون أو ولنحمل ماعليكم من الخطايا إن كان بعث ومؤاخذة، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على الأمر بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع، فكأن أصل الكلام اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم بجزم نحمل على أنه جواب الأمر، فيكون المعنى إن تتبعوا نحمل فعدل عنه إلى ما فى النظم الجليل للمبالغة المذكورة، ومنشؤها الاشارة إلى أن الحمل لتحققه كأنه أمر واجب أمروا به من آمر مطاع، والتعليق على الشرط الذى

Marfat.com

تضمنه الأمر كما فى قولهم : أكرمنى أنفعك لا يفيد ذلك ، والداعى لهم إلى المبالغة التشجيع على الاتباع ، والحمل هنا مجاز ، وفى البحر شبه القيام بما يتحصل من عواقب الاثم بالحمل على الظهر والخطايا بالمحمول ، وقال مجاهد : الحمل هنا من الحمالة لا من الحمل انتهى *

والآية على ما اخرج جماعة عن مجاهد نزلت فى كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا فان كان عليكم شيء فعلينا . وأخرج ابن أبى شيبة . وابن المنذر عن ابن الحنفية قال كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسلمون يقولون : إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ، وقيل : قائل ذلك أبو سفيان بن حرب . وأمية بن خلف قالا لعمر رضى الله تعالى عنه : إن كان فى الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عنك *

وقيل : قائله الوليد بن المغيرة ، ونسبة ما صدر عن الواحد للجمع شائعة ، وقد تقدم الكلام غير مرة فى وجه ذلك ، وقرأ الحسن . وعيسى . ونوح القارىء (ولنحمل) بكسر لام الأمر ، ورويت عن على كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَمَاهُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ نفى مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التى التزموا حملها ، فالباء زائدة لتأكيد النفى والاستمرار الذى تفيده الجملة الاسمية معتبر بعد النفى ، ومن الأولى للبيان وهو مقدم من تأخير ، ومن الثانية مزيدة لتأكيد الاستغراق ، وهذه الجملة اعتراض أو حال *

وقرأ داود بن أبى هند فيما ذكر أبو الفضل الرازى (من خطيئتهم) على التوحيد قال: ومعناه الجنس ، ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة ، وذكر ابن خالويه . وأبو عمرو الدانى أن داود هذا قرأ (من خطيئاتهم) جمع خطيئة جمع السلامة بالألف والتاء ، وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ من (خطيهم) بفتح الطاء وكسر الياء ، وينبغى أن يحمل كسر الياء على أنها همزة سهلت بين بين فاشبهت الياء لأن قياس تسهيلها هو ذلك ؛ وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٢ ﴾ استئناف مقرر للنفى السابق ، والكذب قيل راجع إلى تعليق الحمل بالاتباع فانه اخبار لا إلى الامر السابق لأنه إنشاء ولا يجرى الكذب فيه ، وتعقب بأن التعليق لا يلزمه أن يكون اخبار بل هو ضمان معلق أى إنشاء الضمان عند وجود الصفة ، ولذا قال الزمخشرى : إن ضامن مالا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه فى الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ، وجعل هذا سؤالا عن وجه التعبير بكاذبون ، وأجاب عن ذلك بوجهين ، ثانيهما على ما فى الكشف هو الوجه ، وحاصله أن الكذب ليس راجعا إلى أنهم غير حاملين ليقال : إن الضامن لا يسمى كاذبا بل أخبر الله تعالى أنهم عجز عما ضمنوه ومع ذلك هم كاذبون فى وعد إنشاء الضمان عند وجود الوصف ، والمحصل أن من وعد الضمان إن ضمن ولم يحقق لا يسمى كاذبا وإن لم يضمن سمى كاذبا ، وأولهما أنه شبه الله تعالى حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده سبحانه لا على ما هو عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه *

وقال بعض المحققين : الكذب راجع إلى الخبر الذى فى ضمن وعدهم بالحمل وهم أنهم قادرون على إنجاز

Marfat.com

ماوعدوا ، والـكذب كما يتطرق إلى الـكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار مايلزم مدلوله ، وفى الانتصاف أن فى قوله تعالى : (إنهم لـكاذبون) نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجىء الأمر بمعنى الخبر فان من الناس من أنـكره والتزم تخريج جميع ماورد فى ذلك على أصل الامر ولم يتم له ذلك فى هذه الآية لأنه سبحانه أردف قولهم (ولنحمل خطاياكم) على صيغة الامر بقوله تعالى : (إنهم لكاذبون) والتـكذيب إنمـا يتطرق إلى الأخبار انتهى ، ويعلم منه وجه كونهم كاذبين فى قولهم ذلك مع إخراجهم له مخرج الامر إلا أن فى كون الآية دليلا على ماذكره نظرا كما لايخفى *

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا ، والتعبير عن الخطايا بالأثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة ، واللام واقعة فى جواب قسم محذوف أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿ وَأَثْقَالاً ﴾ أخر ﴿ مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهى أثقال ما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شىء ما . فقد أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن الحسن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال . «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من اجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليهـا وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أو زارهم شيئاً» قال عون : وكان الحسن يقرأ عليها وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وللاشارة إلى استقلال أثقال أنفسهم وأنها نهضتهم واستفرغت جهدهم وأن الأثقال الأخر كالعلاوة عليها اختير مافى النظم الجليل على أن يقال وليحملن أثقالا مع أثقالهم *

﴿ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ ﴾ سؤال تقريع وتبـكيت ﴿ عَمَّـا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١٣ ﴾ أى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والأباطيل التى من جملتها كذبهم هذا *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ شروع فى بيان إفتتان الانبياء عليهم السلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الـكفار تأكيدا للانـكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فان الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المـكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى ، والظاهر أن الواو للعطف وهو من عطف القصة على القصة . قال ابن عطية : والقسم فيها بعيد يعنى أن يكون المقسم به قد حذف وبقى حرفه وجوابه فان فيه حذف المجرور وإبقاء الجار ، وهم قالوا : لابد من ذكر المجرور ، والفاء للتعقيب فالمتبادر أنه عليه السلام لبث فى قومه عقيب الارسال المدة المذكورة وقد جاء مصرحا به فى بعض الآثار *

أخرج ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه . والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث الله تعالى نوحا عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا ، وعلى هذه الرواية يكون عمره عليه السلام ألف سنة وخمسين سنة ، وقيل : إنه عليه السلام عمر أكثر من ذلك ، أخرج ابن جرير عن عون بن أبى شداد قال : إن الله تعالى أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين

Marfat.com

عاما ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة فيكون عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان عمر نوح عليه السلام قبل أن يبعث إلى قومه وبعدما بعث ألفا وسبعمائة سنة، وعن وهب أنه عليه السلام عاش ألفا وأربعمائة سنة، وفى جامع الاصول كانت مدة نبوته تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الغرق خمسين سنة ، وقيل : مائتى سنة وكانت مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء *

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ماذكر الله عز وجل مدة إقامته عليه السلام من لدن مولده إلى غرق قومه، وقيل : يحتمل أن يكون ذلك جميع عمره عليه السلام ، ولا يخفى أن المتبادر من الفاء التعقيبية ماتقدم ، وجاء فى بعض الآثار أنه عليه السلام أطول الانبياء عليهم السلام عمرا ، أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليهما السلام فقال: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل بيتا له بابان فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر، ولعل ما عليه النظم الكريم فى بيان مدة لبثه عليه السلام للدلالة على كمال العدد وكونه متعينا نصا دون تجوز فان تسعمائة وخمسين قد يطلق على مايقرب منه ولما فى ذكر الالف من تخييل طول المدة لأنها أول ماتقرع السمع فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ماينالاه من الكفرة وإظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء ، واختلاف المميزين لما فى التكرير فى مثل هذا الكلام من البشاعة، والنكتة فى اختيار السنة أولا أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذى قاسى عليه السلام فيه ماقاسى من قومه ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ أى عقيب تمام المدة المذكورة ، والطوفان قد يطلق على كل مايطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام قال العجاج :

حتى إذا ما يومها تصبصبا وغم طوفان الظلام الاثأبا (١)

وقد غلب على طوفان الماء وهو المراد هنا ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى والحال هم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة المتمادية ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ أى نوحا عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه ، وكانوا ثمانين ، وقيل : ثمانية وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ، وعن محمد ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة ، وروى مرفوعا كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة أى مع أهليهم ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ أى السفينة ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ عبرة وعظة لهم لبقائها زمانا طويلا على الجودى يشاهدها المارة ولا شتهارها فيما بين الناس، ويجوز كون الضمير للحادثة والقصة المفهومة مما قبل وهى عبرة للعالمين لاشتهارها فيما بينهم ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب باضمار اذكر معطوفا على ماقبله عطف القصة على القصة فلا ضير فى اختلافهما خبرا وانشاءاً وإذ فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل اشتمال منه لأن الاحيان تشتمل على مافيها ، وقد جوز ذلك الزمخشرى. وابن عطية ، وتعقب ذلك أبو حيان بأن إذ لا تتصرف فلا تكون مفعولا به والبدلية تقتضى ذلك . ثم ذكر أن إذ ان كانت ظرفا لما مضى لا يصح أن تكون معمولة لاذكر لأن المستقبل

(١) قوله الاثأبا هو شجر الاثل اه منه

Marfat.com

لا يقع فى الماضى فلا يجوز قم أمس ، وإذا خلعت من الظرفية الماضوية وتصرف فيها جاز أن تكون مفعولا به ومعمولا لاذكر، وجوز غير واحد أن يكون نصبا بالعطف على نوحا فكأنه قيل : وأرسلنا إبراهيم فاذ حينئذ ظرف للارسال ، والمعنى على ماقيل أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق إلى طريق الحق ، وهذا على ماقاله بعض المحققين لما أن القول المذكور فى حيز إذ إنما كان منه عليه السلام بعد ماراهق قبل الارسال، وأنت تعلم أن قوله تعالى: (وإن تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وماعلى الرسول الا البلاغ المبين) الخ إذا كان من قوله عليه السلام لقومه كالنص فى أن القول المحكى عنه عليه السلام كان بعد الارسال ؛ وفى الحواشى السعدية أن ذلك اشارة إلى دفع ماعسى أن يقال : الدعوة تكون بعد الارسال والمفهوم من الآية تقدمها عليه، وحاصله أنه ليس المراد من الدعوة ماهو نتيجة الارسال بل ماهو نتيجة كمال العقل وتمام النظر، مع أن دلالة الآية على تقدمها غير مسلمة فنى الوقت سعة، ويجوز أن يكون القصد هو الدلالة على مبادرته عليه السلام للامتثال اه فتدبر ٭

وجوز أبو البقاء ، وابن عطية أن يكون نصبا بالعطف على مفعول أنجيناه وهو كما ترى ، والاوفق بما يأتى إن شاء الله تعالى من قوله تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيبا) أن يكون النصب بالعطف على نوحا. وقرأ أبو حنيفة، والنخعى. وأبو جعفر. وإبراهيم بالرفع على أن التقدير ومن المرسلين إبراهيم، وقيل: التقدير ومما ينبغى ذكره ابراهيم، وقيل : التقدير وممن أنجينا ابراهيم، وعلى الأول المعول لدلالة ماقبل ومابعد عليه ، ويتعلق بذلك المحذوف (إذ قال لقومه) ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أن تشركوا به سبحانه شيئاً ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى ماذكر من العبادة والتقوى ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من كل شئ فيه خيرية أو مما أنتم عليه على تقدير الخيرية فيه على زعمكم، ويجوز كون خير صفة لا اسم تفضيل ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦ ﴾ أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو أن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق ، أى ما تعبدون من دونه تعالى الا أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه ؛ أو تعملونها وتنحتونها للافك والكذب ، واللام لام العاقبة والا فهم لم يعملوها لأجل الكذب ، وجوز أن يكون ذلك من باب التهكم . وقال بعض الافاضل: الاظهر كون إفكا مفعولا به والمراد به نفس الاوثان وجعلها كذبا مبالغة ، أو الافك بمعنى المأفوك وهو المصروف عما هو عليه ، وإطلاقه على الاوثان لأنها مصنوعة وهم يجعلونها صانعا . وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والسلمى . وعون العقيلى . وعبادة . وابن أبى ليلى . وزيد بن على رضى الله تعالى عنهما (تخلقون) بفتح التاء والخاء واللام مشددة ، قال ابن مجاهد : ورويت عن ابن الزبير وأصله تتخلقون فحذفت إحدى التاءين وهو من تخلق بمعنى تكذب وصيغة التكلف للمبالغة . وزعم بعضهم جواز أن يكون تفعل بمعنى فعل . وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما أيضا (تخلقون) من خلق بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء . وقرأ ابن الزبير

Marfat.com

وفضيل بن زرقان (أفكا) بفتح الهمزة وكسر الفاء على أنه مصدر كالكذب واللعب أو وصف كالحذر وقع صفة لمصدر مقدر أى خلقاً أفكا أى ذا أفك ﴿ انَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ من دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ بيان لشريته مايعبدونه من حيث انه لا يكاد يجديهم نفعا، و(رزقا) يحتمل أن يكون مصدراً مفعولا به ليملكون ، والمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق، وأن يكون بمعنى المرزوق أى لا يستطيعون إيتاء شىء من الرزق وجوز على المصدرية أن يكون مفعولا مطلقاً ليملكون من معناه أو لمحذوف والاصل لا يملكون أن يرزقوكم رزقا وهو كما ترى ونكر كما قال بعض الاجلة : للتحقير والتقليل مبالغة فى النفى، وخص الرزق لمكانته من الخلق ﴿ فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ أى كله على أن تعريف الرزق للاستغراق . قال الطيبى : هذا من المواضع التى ليست المعرفة المعادة عين الاول فيها، وجوز أن تكون عين الأول بناء على أن كلا منهما مستغرق ﴿ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ عز وجل وحده ﴿ وَٱشْكُرُوا لَهُ ﴾ على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بشكره تعالى للعتيد ومستجلبين به للمزيد ، فالجملتان ناظرتان لما قبلهما ، وجوز أن يكونا ناظرتين لقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ ﴾ كأنه قيل :استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر فانه اليه ترجعون ، وجوز بعض المحققين أن تكون هذه الجملة تذييلا لجملة ما سبق مما حكى عن ابراهيم عليه السلام أو لأوله ، والمعنى اليه تعالى لا إلى غيره سبحانه ترجعون بالموت ثم بالبعث فافعلوا ما أمرتكم به وما بينهما اعتراض لتقرير الشريعة كما سمعت . وقرىء (ترجعون) بفتح التاء من رجع رجوعا ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ عطف على مقدر تقديره فان تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين وان تكذبوا أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم اليه تعالى ترجعون بالبعث ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ من قَبْلِكُمْ ﴾ وهذا تعليل للجواب فى الحقيقة ، والاصل فلا تضرونى بتكذيبكم فانه قد كذب أمم قبلكم رسلهم وهم شيث . وادريس. ونوح . وهود . وصالح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم اياى ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا

وهذه الآية أعنى (وإن تكذبوا) الخ على ماذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام وكذا مابعد على ماقيل إلى قوله تعالى : (فما كان جواب قومه) وجوز أن يكون ذلك اعتراضا بذكر شأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفى القصة من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، قالوا : وفى (وإن تكذبوا) اعتراضية ، والخطاب منه تعالى أو من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على معنى وقل لقريش (إن تكذبوا) الخ •

وذهب بعض المحققين إلى أن قوله تعالى : (إن تكذبوا) الخ من كلام إبراهيم عليه السلام ، وقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله ، والهمزة لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها ، والواو للعطف على

Marfat.com

مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك ٠

وقرأ حمزة . والكسائى . وأبو بكر بخلاف عنه (ألم تروا) بتاء الخطاب ، وهو على ماقال هذا البعض لتشديد الانكار وتأكيده ولايحتاج عليه إلى تقدير قول ، ومن لم يجعل ذلك كلاما مستأنفاً مسوقا من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث قال : إن الخطاب على تقدير القول أى قال لهم رسلهم :(ألم تروا)، ووجه ذلك بأنه جعل ضمير (أو لم يروا) على قراءة الغيبة لأمم فى قوله تعالى : (أمم من قبلكم) فيجعل فى قراءة الخطاب له أيضا ليتحد معنى القراءتين ، وحينئذ يحتاج لتقدير القول ليحكى خطاب رسلهم معهم إذ لا مجال للخطاب بدونه ٠

وقيل : إن ذاك لأنه لايجوز أن يكون الخطاب لمنكرى الاعادة من أمة إبراهيم أو نبينا عليهما الصلاة والسلام وهم المخاطبون بقوله تعالى : (وإن تكذبوا) لأن الاستفهام للانكار أى قد رأوا فلا يلائم قوله تعالى : (قل سيروا) الخ لأن المخاطبين فيها هم المخاطبون أولا ، يعنى ان كانت الرؤية علمية فالامر بالسير والنظر لا يناسب لمن حصل له العلم بكيفية الخلق ، والقول بأن الأول دليل أنفسى ، والثانى آفاقى مخالف للظاهر من وجوه اه فتدبر ، ولعل الأظهر والأبعد عن القيل والقال فى نظم الآيات مانقلناه عن بعض المحققين ٠

وقرأ الزبيرى . وعيسى . وأبو عمرو بخلاف عنه (كيف يبدا) على أنه مضارع بدأ الثلاثى مع إبدال الهمزة ألفا كما ذكره الهمدانى ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ عطف على (أولم يروا) لا على يبدئ لأن الرؤية إن كانت بصرية فهى واقعة على الابداء دون الاعادة فلو عطف عليه لم يصح وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لاثباته فلو كان معلوما لهم كان تحصيلا للحاصل ٠

وجوز العطف عليه بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ماأنشأه سبحانه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه على ماقيل من غير ريب ، وعن مقاتل أن الخلق هنا الليل والنهار وليس بشىء ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من الاعادة ، وجوز أن يكون المشار اليه ماذكر من الامرين ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لايحتاج فعله تعالى الى شىء خارج عن ذاته عز وجل ٠

﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أمر لابراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحققين ، وكذا جعله من جعل جميع ماتقدم من قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن جعل قوله تعالى : (وان تكذبوا) الى قوله تعالى : (فما كان جواب قومه) اعتراضا جعل هذا أمراً لنبينا ﷺ أن يقول ذلك لقريش ٠

وجوز أن يجعل نظم الآيات السابقة على مانقل عن بعض المحققين ويجعل هذا أمرا للنبى عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم فانهم مثل قوم إبراهيم عليه السلام والامم الذين من قبلهم فى التكذيب بالبعث والانكار له ، ومافى حيز هذا القول متضمن مايدل على صحته ، وعدم اتحاده مع ماسبق لايضر . وأياما كان فاضافة الرحمة إلى ضمير المتكلم فيما يأتى إن شاء الله تعالى لما أن ذلك حكاية كلامه عز وجل على وجهه ومثله فى القرآن الكريم كثير ، والسير كما قال الراغب : المضى فى الأرض ، وعليه يكون فى الآية تجريد ، والظاهر أن المراد به المضى بالجسم ، وجوز أن يراد به اجالة الفكر . وحمل على ذلك فيما يروى فى وصف الانبياء عليهم السلام أبدانهم فى الارض سائرة وقلوبهم فى الملكوت جائلة ، ومنهم من حمل ذلك على الجد فى العبادة المتوصل

Marfat.com

بها الى الثواب ، والمعنى على ما قلنا أولا امضوا فى الارض وسيحوا فيها ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ الله تعالى ﴿ الْخَلْقَ ﴾ أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى ، فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها ، وعلى هذا تتغاير الكيفية فى الآية السابقة والكيفية فى هذه الآية لما أن الاولى كما علمت باعتبار المادة وعدمها وهذه باعتبار تغاير الاحوال . ولعل التعبير فى الآية الاولى بالمضارع أعنى (يبدأ) دون الماضى كما هنا لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخاق على أطوار مختلفة على معنى أن خلق الاشياء أغرب من جعل أطوارها مختلفة ، وأنت إذا لاحظت أن خلق الاشياء يعود فى الآخرة الى ايجادها من كتم العدم من غير سبق مادة دفعا للتسلسل وأن جعل أطوارها مختلفة انما هو بعد سبق المادة ولو سبقا ذاتيا وهو ما قام به الاختلاف أعنى ذوات الأشياء لا تشك فى أن الأول أغرب من الثانى ،ولذا ترى التمدح بأصل الخلق فى القرآن العظيم أكثر من التمدح بالجعل المذكور . وقد وافق الصيغة فى الاشعار بالغرابة بناء الفعل من باب الافعال فانه غير مستعمل ولذا قالوا : أنه مخل بالفصاحة لولا وقوعه مع (يعيد) ، ومما يقرب من هذا السر ما قيل فى وجه حذف الياء من يسر فى قوله تعالى : (والليل إذا يسر) من أن ذلك لان الليل يسرى فيه لا يسرى أى ليدل مخالفة الظاهر فى اللفظ على مخالفته فى المعنى وهو معنى دقيق *

وقيل فى وجه التعبير بما ذكر افادة الاستمرار التجددى وهو بناء على المعنى الثانى فى الآية . وقال بعضهم فى تغاير الدليلين : إن هذا عينى وذلك علمى أو هذا آفاقى والأول أنفسى . وقرأ الزهرى (كيف بدا الخاق) بتخفيف الهمزة بابدالها ألفا ثم حذفها فى الوصل . قال ابو حيان : وهو تخفيف غير قياسى كما قال : ٥ فارعى فزارة لا هناك المرتع ، وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى بعد النشأة الأولى التى شاهدتموها والنشأة الأيجاد والخلق ، والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شئون الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولا فرق بينهما الا بالاولية والأخروية كذا قيل *

والظاهر أنه مبنى على أن الجسد يعدم بالكلية ثم يعاد خلقا جديدا لا أنه تتفرق اجزاؤه ثم تجمع بعد تفرقها وإلى كل ذهب بعض ، والأدلة متعارضة ، والمسألة كما قال ابن الهمام عند المحققين ظنية . وفى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد لحجة الاسلام الغزالى . فان قيل: فما تقولون أتعدم الجواهر والاعراض ثم تعادان جميعا أو تعدم الأعراض دون الجواهر وإنما تعاد الاعراض ؟ قلنا : كل ذلك ممكن ولكن ليس فى الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات انتهى ، وذهب ابن الهمام إلى أن الحق وقوع الكيفيتين اعادة ما انعدم بعينه وتأليف ما تفرق من الأجزاء ، وقد يقال : إن بدء الانسان ونحوه ليس اختراعا محضا واخراجا من كتم العدم إلى الوجود فى الحقيقة لما أنه مخلوق من التراب وسائر العناصر ، والظاهر أن فناءه ليس عبارة عن صيرورته عدما محضا بل هو عبارة عن انحلاله إلى ما تركب منه ورجوع كل عنصر إلى عنصره . نعم لا شك فى فناء بعض الاعراض وانعدامها بالكلية ، وقد يستثنى منه بعض الاجزاء فلا ينحل إلى ما منه التركيب بل يبقى على ما كان عليه وهو عجب الذنب لظاهر حديث الصحيحين « ليس شئ من الانسان لا يبلى الا عظما واحدا وهو عجب الذنب منه

Marfat.com

يركب الخلق يوم القيامة » وتأويله بما أوله به ملا صدرا فى أسفاره مما لا ينبغى أن يلتفت اليه ، وحينئذ فالاعادة تكون بتركيب ما انحل من العناصر وضمه إلى هذا الجزء فلا تكون اختراعا محضا واخراجا من كتم العدم إلى الوجود فى الحقيقة ، لكن لكل من البدء والاعادة شبه تام بالاختراع والاخراج المذكور ، وبه يصح أن يقال لكل اختراع واخراج من العدم إلى الوجود فلا تغفل ، والجملة معطوفة على جملة (سيروا فى الأرض) داخلة معها فى حيز القول ، ولا يضر تخالفهما خبرا وانشاء فانه جائز بعد القول وماله محل من الاعراب ، ولا يصح عطفها على بدأ الخلق لأنها لا تصلح أن تكون موقعا للنظر أما إن كان بمعنى الابصار فظاهر وأما إن كان بمعنى التفكر فلأن التفكر فى الدليل لا فى النتيجة ، وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره فى بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة إلى علة الحكم فانه الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال وتكرير الاسناد ورد ما تقدم على مقتضى الظاهر فلا يحتاج للتوجيه ، وكون المراد منه ليس إثبات الاعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال غير مسلم ، وقرأ أبو عمرو . وابن كثير (النشاءة) بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة والقصر أشهر ، ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف العامل أى ينشئ فينشأون النشأة الآخرة نحو (أنبتكم من الارض نباتا) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته عز وجل على جميع الممكنات التى من جملتها الاعادة لا يتصور أن يتردد فى قدرته سبحانه عليها ولا فى وقوعها بعدما أخبر به ، ثم اعلم أن أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته لجمع النقيضين بل غاية ما عندهم استبعاده ، والرد على هؤلاء بهذه الآيات ونحوها ظاهر لما فيها مما يزيل الاستبعاد من الابداء الذى هو فى الشاهد أشق من الاعادة ، ومنهم من يقول باستحالته عقلا فلا يصلح متعلقا للقدرة ، وهؤلاء هم القائلون باستحالة اعادة المعدوم ، والرد عليهم بعد تسليم أن ما نحن فيه من اعادة المعدوم وليس من جمع المتفرق بابطال ما استدلوا به على الاستحالة ، وقد تكفلت الكتب الكلامية بذلك ، وأما الرد عليهم بهذه الآيات ونحوها فلما فيها من الاشارة إلى تزييف أدلة الاستحالة فتدبر ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما بعد النشأة الآخرة أى يعذب بعد النشأة الآخرة من يشاء تعذيبه وهم المنكرون لها ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمته وهم المقرون بها ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ أى تردون ، والجملة تقرير للاعادة وتوطئة لما بعد ، وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ ﴾ أى بالهرب فى الارض الفسيحة أو الهبوط فى مكان بعيد الغور والعمق بحيث لا يوصل اليه فيها ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها أو التى هى أمنع لمن حل فيها عن أن تناله أيدى الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقى اليها كما فى قوله تعالى : (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا) أو البروج والقلاع المرتفعة فى جهتها على ما قيل ، وهو خلاف الظاهر ، وقال ابن زيد . والفراء : إن (فى السماء) صلة موصول محذوف هو مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير ولا من فى السماء بمعجز ، والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها ، وضعف بأن فيه حذف الموصول مع بقاء صلته وهو لا يجوز عند البصريين الا فى الشعر كقول حسان :

Marfat.com

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

على ماهو الظاهر فيه ، على أن ابن مالك اشترط فى جوازه عطف الموصول المحذوف على موصول آخر مذكورا فى هذا البيت ، وبأن فيه حذف الخبر أيضا مع عدم الحاجة اليه ، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفا على أنتم ولم يجعله مبتدأ محذوف الخبر ليكون العطف من عطف الجملة على الجملة ، وزعم بعضهم أن الموصول محذوف فى موضعين وأنه مفعول به لمعجزين وقال : التقدير وماأنتم بمعجزين من فى الارض أى من الانس والجن ولا من فى السماء أى من الملائكة عليهم السلام فكيف تعجزون الله عز وجل ، ولايخفى أن هذا فى غاية البعد ولا ينبغى أن يخرج عليه كلام الله تعالى •

وقيل ليس فى الآية حذف أصلا ، والسماء هى المظلة إلا أن (أنتم) خطاب لجميع العقلاء فيدخل فيهم الملائكة ويكون السماء بالنظر اليهم والارض بالنظر إلى غيرهم من الانس والجن وهو كما ترى ٥

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحرسكم من بلاء أرضى أو سماوى ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ٢٣ ﴾ يدفعه عنكم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ ﴾ أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الاولى الدالة على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا ، وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ﴿ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ الذى تنطق به تلك الآيات ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عز وجل ﴿ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى ﴾ أى ييأسون منها يوم القيامة على أنه وعيد ، والا فالكافر لايوصف باليأس فى الدنيا لأنه لا رجاء له ، وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس فهو لايخطر بباله رجاء ولاخوفا ، إن أخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف وإن أخطر المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء ، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم، وأن يكون الكلام على الاستعارة •

شبهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر لأنه مادامت الحياة لا يتحقق اليأس من الرحمة لرجاء الايمان ، أو من قدر آيسا من الرحمة على الفرض دلالة على توغلهم فى الكفر وعدم ارعوائهم . وقرأ الذمارى : وأبو جعفر ، (ييسوا) بغير همز بل ياء بدل الهمزة ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى تكرير اسم الاشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على فظاعة حالهم مالايخفى . لكن قال الامام : إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عز وجل دون العذاب ليؤذن بأن رحمته جل وعلا سبقت غضبه سبحانه ، وأنت تعلم أن فى الآية على هذا دلالة على سوء حالهم أيضاً لافادتها أنهم حرموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ •

وقرأ الحسن : وسالم الأفطس بالرفع على العكس ، وقد مر مافيه فى نظائره ، والمراد بالقتل ماكان بسيف ونحوه فتظهر مقابلة الاحراق له ، ولاحاجة إلى جعل أو بمعنى بل ، والآمرون بذلك إما بعضهم لبعض أو كبرائهم قالوا لأتباعهم : اقتلوه فتستريحوا منه عاجلا أو حرقوه بالنار فاما أن يرجع إلى دينكم إذا مضته

Marfat.com

النار وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه ، وإيآما كان ففيه إسناد ماللبعض إلى الكل ، وجاء هنا التردد بين قتله عليه السلام وإحراقه فقد يكون ذلك من قائلين ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق ، وفى اقترب قالوا حرقوه اقتصروا على أحد الشيئين وهو الذى فعلوه رموه عليه السلام فى النار ولم يقتلوه ثم إنه ليس المراد أنهم لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حججه عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم ، بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الآخيرة ، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لايحصى ﴿ فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها سبحانه عليه بردا وسلاما حسبما بين فى مواضع أخر ، وقد مر بيان كيفية القائه عليه السلام فيها وإنجائه تعالى إياه منها ، وكان ذلك فى كوثى من سواد الكوفة ، وكونه فى المكان المشهور اليوم من أرض الرهى وعنده صورة المنجنيق وماء فيه سمك لا يصطاد ولا يؤكل حرمة له لا أصل له ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى إنجائه عليه السلام منها ﴿ لَآيَـٰتٍ ﴾ بينة عجيبة وهى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها *

وعن كعب أنه لم يحترق بالنار إلا الحبل الذى أوثقوه عليه السلام به ، ولولا وقوع اسم الاشارة فى أثناء القصة لكان الأولى كونه إشارة إلى ماتضمنته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤ ﴾ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالفحص عنها ، والتأمل فيها ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار *

﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا الاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول له فى الخارج ، أو المعنى إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم إلى اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودونه اتخذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه ، وهذا كما يرى الانسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودة له ، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولا له فى الخارج ، والمراد نفى أن يكون فيها نفع أو ضر وأن الداعى لاتخاذها رجاء النفع أو خوف الضر ، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علة لاتخاذها علة وهو ما أشاروا اليه فى قولهم : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) للاشارة الى أن ذلك لكونه أمرا موهوما لاحقيقة له مما لاينبغى أن يكون علة باعثة وسببا حاملا لمن له أدنى عقل *

وقال بعضهم : يجوز أن يكون المخاطبون فى هذه الآية أناسا مخصوصين ، والقائلون : (مانعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى) أناسا غيرهم ، وقيل : إن الاوثان أول ماتخذت بسبب المودة ، وذلك أنه كان أناس صالحون فماتوا وأسف عليهم أهل زمانهم فصورا احجارا بصورهم حبا لهم فكانوا يعظمونها فى الجملة ولم يزل تعظيمها يزداد جيلا فجيلا حتى عبدت ، فالآية إشاره إلى ذلك ، والمعنى انما اتخذ أسلافكم من دون الله أوثانا الخ ، ومثله فى القرآن الكريم كثير ، وثانى مفعولى اتخذتم محذوف تقديره آلهة *

وقال مكى : يجوز أن يكون اتخذ متعديا إلى مفعول واحد كما فى قوله تعالى : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب) ورد بأنه مما حذف مفعوله الثانى أيضا ، وجوز أن يكون مودة هو المفعول الثانى بتقدير مضاف أى ذات مودة وكونها ذات مودة باعتبار كونها سبب المودة ، وظاهر كلام الكشاف أن المضاف المحذوف

Marfat.com

هو لفظ سبب ، وقد يستغنى عن التقدير بتأويل مودة بمودودة ، أو بجعلها نفس المودة مبالغة ، واعترض جعل مودة المفعول الثانى بأنه معرفة بالاضافة إلى المضاف إلى الضمير والمفعول الاول نكرة وذلك غير جائز لأنهما فى الاصل مبتدأ وخبر . وأجيب بأنه لا يلزم من غير جواز ذلك فى أصلهما عدم جوازه فيهما ، وإذا سلم اللزوم فلا يسلم كون المفعول الثانى هنا معرفة بالاضافة لما أنها على الاتساع فهى من قبيل الاضافة اللفظية التى لاتفيد تعريفا وإنما تفيد تخفيفا فى اللفظ ، كذا قيل : وهو كما ترى ٭

وقرأ نافع . وابن عامر . وأبو بكر (مودة) بالنصب والتنوين بينكم بالنصب ، والوجه أن مودة منصوب على أحد الوجهين السابقين و(بينكم) منصوب به أو بمحذوف وقع صفة له ، وابن كثير . وأبو عمرو . والكسائى . ورويس (مودة بينكم) برفع مودة مضافة إلى بين وخفض بين بالاضافة ، وخرج الرفع على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أى هى مودة على أحد التأويلات المعروفة ؛ والجملة صفة أوثانا ، وجوز كونها المفعول الثانى أو على أنها خبر إن على أن ما مصدرية ، أى إن اتخاذكم ، أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول ، أى إن الذى اتخذتموه من دون الله أوثانا مودة بينكم ، ويجرى فيه التأويلات التى أشرنا اليها ٭

وقرأ الحسن . وأبو حيوة . وابن ابى عبلة . وأبو عمرو فى رواية الأصمعى . والاعشى عن أبى بكر (مودة) بالرفع والتنوين (بينكم) بالنصب ، ووجه كل معلوم مما مر . وروى عن عاصم (مودة) بالرفع من غير تنوين و(بينكم) بفتح النون ، جعله مبنيا لاضافته إلى لازم البناء فمحله الجر بإضافة مودة اليه ، ولذا سقط التنوين منها . وفى قوله تعالى : (فى الحيوة الدنيا) على هذه القراءات والاوجه فيها أوجه من الاعراب ذكرها أبو البقاء . الاول : أن يتعلق باتخذتم على جعل ما كافة ونصب مودة لا على جعلها موصولة أو مصدرية ، ورفع مودة لئلا يؤدى إلى الفصل بين الموصول وما فى حيز الصلة بالخبر . الثانى : أن يتعلق بنفس مودة اذا لم يجعل بين صفة لها بناء على أن المصدر اذا وصف لا يعمل مطلقا ، وأجاز ابن عطية هذا التعلق وان جعل بين صفة لما أنه يتسع بالظرف مالم يتسع فى غيره ، فيجوز عمل المصدر به بعد الوصف . الثالث : أن يتعلق بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم . الرابع : أن يجعل حالا من بينكم لتعرفه بالأضافة . وتعقب أبو حيان هذين الوجهين بعد نقلهما عن أبى البقاء كما ذكرنا بأنهما اعرابان لايتعقلان . الخامس : أن يجعل صفة ثانية لمودة اذا نونت وجعل بينكم صفة لها ، وأجاز ذلك مكى . وأبو حيان أيضا . السادس : أن يتعلق بمودة ويجعل بينكم ظرفا متعلقا بها أيضاً ، وعمل مودة فى ظرفين لاختلافهما . السابع : أن يجعل حالا من الضمير فى بينكم إذا جعل وصفا لمودة والعامل الظرف لأن العامل فى ذى الحال هو العامل فى الحال ، ولا يجوز أن يكون العامل مودة لذلك . وقال مكى : لأنك تدو صفتها ومعمول المصدر متصل به فيكون قد فرقت بين الصلة والموصول بالصفة . وعن ابن مسعود أنه قرأ (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا إنما مودة بينكم فى الحياة الدنيا) بزيادة (إنما) بعد أوثانا ورفع (مودة) بلا تنوين وجر بين بالاضافة وخرجت على أن مودة مبتدأ وفى الحياة الدنيا خبره ، والمعنى إنما تواددكم عليها أو مودتكم إياها كائن أو كائنة فى الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يتبدل الحال حيث ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم ﴾ وهم العبدة ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهم الاوثان ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق

Marfat.com

الآخر ، وفيه تغليب الخطاب وضمير العقلاء ، وجوز أن يكون الخطاب للعبدة لا غير ، والمراد بكفر بعضهم ببعض التناكر أى ثم يوم القيامة يظهر التناكر والتلاعن بينكم أيتها العبدة للاوثان ٠

﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه أبداً ٠

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ﴾ يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها ، وجمع الناصرين لوقوعه فى مقابلة الجمع ، أى مالأحد منكم من ناصر أصلا ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ أى صدقه عليه السلام فى جميع مقالاته أو بنبوته حين ادعاها لا أنه صدقه فيما دعا اليه من التوحيد ولم يكن كذلك قبل ، فانه عليه السلام كان متنزها عن الكفر ، وما قيل : إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه ضعيف رواية وكذا دراية ، لأنه بظاهره يقتضى عدم إيمانه قبل وهو غير لائق به عليه السلام ، وحمله بعضهم على نحو ماذكرنا أو على أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها إلا الأفراد ، ولوط على مافى جامع الاصول ابن أخيه هاران بن تارح ، وذكر بعضهم أنه ابن أخته بالتاء الفوقية ﴿ وَقَالَ ﴾ ابراهيم عليه السلام : كما ذهب اليه قتادة . والنخعى ؛ وقيل : الضمير للوط عليه السلام وليس بشىء لما يازم عليه من التفكيك ، والجملة إستئناف بيانى كأنه قيل : فماذا كان منه عليه السلام ؟ فقيل : قال ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ ﴾ أى من قومى ﴿ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ أى إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة اليها ، وقيل : إلى حيث لا أمنع عبادة ربى ، وقيل : المعنى مهاجر من خالفنى من قومى متقربا إلى ربى ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ عز وجل ﴿ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى ﴿ ٱلْحَكِيمُ ٢٦ ﴾ الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى ٠

روى أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوطا وسارة ابنة عمه الى حران ، ثم منها الى الشام فنزل قرية من أرض فلسطين ، ونزل لوط سذوم وهى المؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من قرية ابراهيم عليهما السلام ، وكان عمره اذ ذاك على مافى الكشاف والبحر خمسا وسبعين سنة ، وهو أول من هاجر فى الله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولدا ونافلة حين أيس من عجوز عاقر ، والجملة معطوفة على ماقبل ولا حاجة الى عطفها على مقدر كاصلحنا أمره ، ولم يذكر سبحانه اسماعيل عليه السلام ، قيل لأن المقام مقام الامتنان وذكر الأحسان وذلك باسحاق ويعقوب لما أشرنا اليه بخلاف اسماعيل ، وقيل لأنه لا يناسب ذكره ههنا لانه ابتلى بفراقه ووضعه بمكة مع أمه دون أنيس ، وقال الزمخشرى : إنه عليه السلام ذكر ضمنا وتلويحا بقوله تعالى ؛ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ ولم يصرح به لشهرة أمره وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من أولاده وأعلم به ، والمراد بالكتاب جنسه المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ ﴾ على ماعمل لنا ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ قال مجاهد : بأنجائه من النار ومن الملك الجبار والثناء الحسن عليه بحيث يتولاه كل أمة ، وضم إلى ذلك ابن جريج الولد الذى قرت به عينه ٠

وقد يضم إلى ذلك أيضا استمرار النبوة فى ذريته ، وقال السدى : إن ذلك اراءته عليه السلام مكانه من الجنة ، وقال بعضهم : هو التوفيق لعمل الآخرة ، وقيل : هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وقال الماوردى :

Marfat.com

هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لنبي غيره ، ولايخفى حال بعض هذه الاقوال ، وذكر بعضهم أن المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته الينا ، وعليه لا يصح عد الانجاء من النار من الاجر بل يعد اعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم ونحوه ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الاجر ، وعطف هذا ومابعده من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أى لفى عداد الكاملين فى الصلاح من التعميم بعد التخصيص، كأنه لما عدد ماأنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه : وجمعناله مع ماذكر خير الدارين ﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم أو على نوحا والكلام فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ كالذى فى القصة السابقة * ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ الفعلة البالغة فى القبح ، وقرأ الجمهور (أئنكم) على الاستفهام الانكارى : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استئناف مقرر لكمال قبحها ، فان إجماع جميع افراد العالمين على التحاشى عنها ليس الا لكونها مما تشمئز منه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس الكريمة ، وجوز أبو حيان كون الجملة حالا من ضمير تأتون ، كأنه قيل: إنكم لتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ أى تنكحونهم ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أى وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارة تلك الفعلة القبيحة واتيانهم كرها أو وتقطعون سبيل النسل بالاعراض عن الحرث واتيان ماليس بحرث ، وقيل : تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال ، وقيل : تقطعونه بقبح الاحدوثة ﴿ وَتَأْتُونَ ﴾ أى تفعلون ﴿ فِى نَادِيكُمُ ﴾ أى فى مجلسكم الذى تجتمعون فيه ، وهو اسم جنس إذ أنديتهم فى مجالسهم كثيرة ، ولا يسمى ناديا إلا إذا كان فيه أهله فاذا قاموا عنه لم يطلق عليه ناد ﴿ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أخرج أحمد . والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه . والطبرانى . والبيهقى فى الشعب . وغيرهم عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : (وتأتون فى ناديكم المنكر) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم ، وعن مجاهد . ومنصور والقاسم بن محمد . وقتادة . وابن زيد . هو اتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضا ، وعن مجاهد أيضا هو لعب الحمام وتطريف الاصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم ، وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم فيها ، وفى رواية أخرى عنه هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح ولم يأت فى قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء فى قصة إبراهيم وكذا فى قصة شعيب الآتية لأن لوطا كان من قوم إبراهيم وفى زمانه وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده واشتهر امره عند الخلق فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو اليه سبحانه فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى كذا فى البحر *

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ ﴾ أى فيما تعدنا من نزول العذاب على مافى الكشاف وغيره ، وهذا ظاهر فى أنه عليه السلام كان أوعدهم بالعذاب ، وقيل : أى فى دعوى استحقاقنا العذاب على مانحن عليه المفهومة من التوبيخ المعلوم من الاستفهام الانكارى ،

Marfat.com

وقيل: أى فى دعوى استقباح ذلك الناطق بها كلامك . وهذا الجواب صدر عنهم فى المرة الأولى من مرات مواعظ لوط عليه السلام ، وما فى سورة الاعراف المذكور فى قوله تعالى : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) الأية وما فى سورة النمل المذكور فى قوله تعالى :(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) الآية فقد صدر عنهم بعد هذه المرة فلا منافاة بين الحصر هنا والحصر هناك ، قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود . وتعقب بأن هذا التعيين يحتاج إلى توقيف . وأجيب بأن مضمونى الجوابين يشعران بالتقدم والتأخر ، وذلك أن (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) من باب التكذيب والسخرية وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات و(أخرجوهم من قريتكم) ونحوه من باب التعذيب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفى ، وهذا القدر يكفى لدعوى التقدم والتأخر ، وقيل فى دفع المنافاة بين الحصرين : إن ماهنا جواب قومه عليه السلام له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا فى أمره، وقيل: إن أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم والآخر صدر عن غيرهم ، وظاهر صنيع بعض الأجلة يقتضى اختيار أن يكون كل من الحصرين بالاضافة إلى الجواب الذى يرجوه عليه السلام فى متابعته فتأمل .

﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِى ﴾ أى بانزال العذاب الموعود ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ٣٠ ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيما بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق السخرية ، وإنما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ أى بالبشارة بالولد والنافلة ﴿ قَالُوا ﴾ أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ أى قرية سذوم وهى أكبر قرى قوم لوط وفيها نشأت الفاحشة أولا على ما قيل ، ولذا خصت بالذكر ، وفى الاشارة بهذه إشارة إلى أنها كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام وإضافة (مهلكو) إلى (أهل) لفظية لأن المعنى على الاستقبال ، وجوز كونها معنوية لتنزيل ذلك منزلة الماضى لقصد التحقيق والمبالغة ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ٣١ ﴾ تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى ، والتأكيد فى الموضعين للاعتناء بشأن الخبر وقال سبحانه : (ان أهلها) دون إنهم مع أنه أظهر وأخصر تنصيصا على اتفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجى .

وقال بعض المدققين : إن ذلك للدلالة على أن منشأ فساد جبلتهم خبث طينتهم ، ففيه اشارة خفية إلى أن المراد من أهل القرية من نشأ فيها فلا يتناول لوطا عليه السلام ، واعترض بأنه يبعد كل البعد خفاؤها لو كانت على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ وقيل : يجوز أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا اليه من عدم تناول أهل القرية اياه لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه ، وقيل : أراد أن يعلم هل يبقى فى القرية عند اهلاكهم أو يخرج منها ثم يهلكون ، و كأن فى قوله : (إن فيها) دون إن منهم إشارة إلى ذلك . وأفهم كلام بعض المحققين أن قوله : (إن فيها لوطا) اعتراض على الرسل عليهم السلام بأن فى القريه من لم يظلم بناء على أن المتبادر من إضافة الأهل اليها العموم ، وحمل الأهل على من سكن فيها وإن لم يكن تولده بها ، أو معارضة للموجب للهلاك وهو الظلم بالمانع وهو أن لوطا بين ظهرانيهم

Marfat.com

وهو لم يتصف بصفتهم ، وأن جواب الرسل المحكى بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ تسليم لقوله عليه السلام فى لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ماكانوا غافلين عنه ، وجواب عنه بتخصيص الاهل بمن عداه وأهله على الاعتراض : أو بيان وقت إهلاكهم بوقت لا يكون لوط وأهله بين ظهرانيهم على المعارضة ، وفيه مايدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب فى الجملة ، والذى يغلب على الظن أنهم أرادوا بأهل القرية من نشأبها على ماهو المتعارف فلا يكون لوط عليه السلام داخلا فى الأهل ، ويؤيد ذلك تأييداً ما قول قومه (أخرجوا آل لوط من قريتكم) وفهم إبراهيم عليه السلام ماأرادوه وعلم أن لوطا ليس من المهلكين إلا أنه خشى أن يكون هلاك قومه وهو بين ظهرانيهم فى القرية فيوحشه ذلك ويفزعه ٥

ولعله عليه السلام غلب على ظنه ذلك حيث لم يتعرضوا لاخراجه من قرية المهلكين مع علمهم بقرابته منه ومزيد شفقته عليه فقال : (إن فيها لوطا) على سبيل التحزن والتفجع كما فى قوله تعالى : (إنى وضعتها أنثى) وجل قصده إن لا يكون فيها حين الاهلاك فأخبروه أولا بمزيد علمهم به وأفادوه ثانيا بما يسره ويسكن جأشه نظير ما فى قوله تعالى : (والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) وأكدوا الوعد بالتنجية إما للاشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلة من ينكر تنجيته لما شاهدوا منه فى حقه ، وتحمل التنجية على إخراجه من بين القوم وفصله عنهم وحفظه مما يصيبهم فانها بهذا المعنى الفرد الأكمل ، ويلائم هذا ماقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ٣٢ ﴾ أى من الباقين فى القرية وهو أحد تفسيرين ، ثانيهما ماروى عن قتادة وهو تفسيره الغابرين بالباقين فى العذاب فتأمل ، فكلام الله تعالى ذو وجوه ، وفسر الأهل هنا بأتباع لوط عليه السلام المؤمنين ، وجملة (كانت من الغابرين) مستأنفة وقد مر الكلام فى ذلك وكذا فى الاستثناء فارجع اليه ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿ لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ أى اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء ، وقد جاءوا اليه عليه السلام بصور حسنة إنسانية ٥

وقيل : ضمير (بهم) للقوم أى سىء بقومه لما علم من عظيم البلاء النازل بهم ، وكذا ضمير (بهم) الآتى وليس بشىء ، و(أن) مزيدة لتأكيد الكلام التى زيدت فيه فتؤكد الفعلين واتصالهما المستفاد من لما حتى كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان فكأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث ٥

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ أى وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم : ضاقت يده ، ويقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له قادرا عليه ، وذلك أن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع ٥

﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ عطف على سىء ، وجوز أن يكون عطفا على مقدر أى قالوا : (إنا رسل ربك) وقالوا الخ ، وأيا ما كان فالقول كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلت به الحال إلى أن قال : (لو لا أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) والخوف للتوقع والحزن للواقع فى الأكثر ، وعليه فالمعنى لا تخف من تمكنهم منا ولا تحزن على قصدهم إيانا وعدم اكتراثهم بك ، ونهيهم عن الخوف من التمكن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر ، وإن كان بعد الاعلام فهو لتأنيسه وتأكيد ماأخبروه به ٥

Marfat.com

وقال الطبرسي : المعنى لاتخف علينا وعليك ولاتحزن بمانفعله بقومك ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ فلا يصيبكم مايصيبهم من العذاب ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ إنها ﴿ كَانَتْ ﴾ فى علم الله تعالى ﴿ مِنَ الْغَابِرِينَ ٣٣ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى . ويعقوب (لننجينه ومنجوك) بالتخفيف من الانجاء ، ووافقهم ابن كثير فى الثانى *

وقرأ الجمهور بشد نون التوكيد ، وفرقة بتخفيفها ، وأيآما كان فمحل الكاف من منجوك الجر بالاضافة ، ولذا حذفت النون عند سيبويه و(أهلك) منصوب على اضمار فعل أى وننجى أهلك ، وذهب الاخفش . وهشام إلى أن الكاف فى محل النصب وأهلك معطوف عليه وحذفت النون لشدة طلب الضمير الاتصال بماقبله للاضافة ، وقال بعض الاجلة : لامانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلان الجر والنصب ويجوز العطف عليها بالاعتبارين ، وقرأ نافع . وابن كثير . والكسائى (سىء) باشمام السين الضم ، وقرأ عيسى . وطلحة (سوء) بضمها وهى لغة بنى هذيل . وبنى دبير يقولون فى نحو قيل وبيع قول وبوع وعليه قوله :

حوكت على نولين اذتحاك تحتبط الشوك ولاتشاك

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ استئناف مسوق لبيان ماأشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم ، والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم :ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرأ ابن عامر(منزلون) بالتشديد . وابن محيصن (رجزا) بضم الراء ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ٣٤ ﴾ أى بسبب فسقهم المعهود المستمر ، وقرأ أبو حيوة . والاعمش بكسر السين ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أى من القرية على ماعليه الاكثر ﴿ ءَايَةً بَيِّنَةً ﴾ قال ابن عباس : هى آثار ديارها الخربة ، وقال مجاهد : هى الماء الاسود على وجه الارض ، وقال قتادة : هى الحجارة التى امطرت عليهم وقد أدركتها أوائل هذه الامة ، وقال أبو سليمان الدمشقى: هى أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها إلى الآن ، وأنكر ذوو الابصار ذلك ، وقال الفراء : المعنى تركناها آية كما يقال : إن فى السماء آية ويراد أنها آية . وتعقبه أبو حيان بأنه لايتجه الا على زيادة (من) فى الواجب نحو قوله * أمهرت منها جبة وتيسا * يريد أمهرتها . وقال بعضهم : إن ذلك نظير قولك : رأيت منه أسدا ، وقيل : الآية حكايتها العجيبة الشائعة ، وقيل: ضمير (منها) للفعلة التى فعلت بهم والآية الحجارة أو الماء الاسود والظاهر ماعليه الاكثر *

ولا يخفى معنى (من) على هذه الأقوال ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥ ﴾ أى يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار ، فالفعل منزل منزلة اللازم و(لقوم) متعلق بترك نا أو ببينة ، واستظهر الثانى هذا ، وفى الآيات من الدلالة على ذم اللواطة وقبحها مالايخفى ، فهى كبيرة بالاجماع ، ونصوا على أنها أشد حرمة من الزنا وفى شرح المشارق للا ئمل أنها محرمة عقلا وشرعا وطبعا ، وعدم وجوب الحد فيها عند الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه لعدم الدليل عنده على ذلك لا لخفتها ، وقال بعض العلماء : إن عدم وجوب الحد للتغليظ لأن الحد مطهر ، وفى جواز وقوعها فى الجنة خلاف ، ففى الفتح قيل : إن كانت حرمتها عقلا وسمعا لاتكون فى الجنة وإن كانت سمعا فقط جاز أن تكون فيها ، والصحيح أنها لا تكون لأن الله تعالى استبعدها واستقبحها فقال سبحانه : (إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وسماها خبيثة فقال عز وجل

Marfat.com

(كانت تعمل الخبائث) والجنة منزهة عنها . وتعقب هذا الحموى بأنه لا يلزم من كون الشىء خبيثا فى الدنيا أن لا يكون له وجود فى الجنة ألا ترى أن الخمر أم الخبائث فى الدنيا ولها وجود فى الجنة ، وفيه بحث ، لأن حبث الخمر فى الدنيا لازالتها العقل الذى هو عقال عن كل قبيح وهذا الوصف لا يبقى لها فى الجنة ولا كذلك اللواطة . وفى الفتوحات المكية فى صفة أهل الجنة أنهم لا أدبار لهم لأن الدبر إنما خلق فى الدنيا لخروج الغائط وليست الجنة محلا للقاذورات ، وعليه فعدم وجودها فى الجنة ظاهر ، ولا أظن ذا غيرة صادقة تسمح نفسه أن يلاط به فى الجنة سراً أو علنا ، وجواز وقوعها فيها قد ينجر إلى أن تسمح نفسه بذلك أو يجبر عليه وذلك إذا اشتهى أحد أن يلوط به إذ لابد من حصول ما يشتهيه ، وهذا وإن لم يكن قطعيا فى عدم وقوع اللواطة مطلقا فى الجنة إلا أنه يقوى القول بعدم الوقوع فتأمل ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ متعلق بارسلنا مقدر معطوف على أرسلنا فى قصة نوح أى وأرسلنا إلى مدين ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أى توقعوه وماسيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ماتأمنون به غائلته ، أو الأمر بالرجاء أمر بفعل مايترتب عليه الرجاء إقامة المسبب مقام السبب ، وفى الكلام مضاف مقدر فالمعنى افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر ، وجوز أن لايقدر مضاف ، وإرادة الثواب من إطلاق الزمان على مافيه ، وقيل : الأمر برجاء الثواب أمر بسببه اقتضاء بلا تجوز فيه بعلاقة السببية •

وقال أبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والمعنى وخافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦ ﴾ حال مؤكدة لأن العثو الفساد ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما تضمنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمره ونهيه وقع بهم العذاب واليه ذهب أبو حيان ، وقيل : من أنه تعالى مستحق لأن يعبد وحده سبحانه وأن اليوم الآخر متحقق الوقوع أو نحو ذلك ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء ومايجاورها من الأرض ، وفسر مجاهد الرجفة هنا بالصيحة ، فقيل : لذلك ؛ وقيل : لأنها رجفت منها القلوب ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ ﴾ أى بلدهم فان الدار تطلق على البلد ، ولنا قيل : للمدينة دار الهجرة أو المراد مساكنهم وأقيم فيه الواحد مقام الجمع لأمن اللبس لأنهم لايكونون فى دار واحدة ، ولعل فيه إشارة إلى أن الرجفة خربت مساكنهم وهدمت مابينها من الجدران فصارت كمسكن واحد ﴿ جَاثِمِينَ ٣٧ ﴾ • أى باركين على الركب ، والمراد ميتين على ماروى عن قتادة •

وفى مفردات الراغب هو استعارة للمقيمين من قولهم : جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض ويرجع هذا إلى ميتين أيضا ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ منصوبان باضمار فعل ينبىء عنه ماقبله من قوله تعالى : (فأخذتهم الرجفة) أى وأهلكنا عاداً وثمود ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ﴾ عطف على ذلك المضمر أى وقد ظهر لكم أتم ظهور إهلاكنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها . وذلك بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذهابا إلى الشام وإيابا منه ، وجوز كون (من) تبعيضية ، وقيل : هما منصوبان باضمار أذكروا أى واذكروا عادا وثمود •

Marfat.com

والمراد ذكر قصتهما أو باضمار اذكر خطابا له صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجملة (قد تبين) حيالية ، وقيل : هى بتقدير القول أى وقل : قد تبين ، وجوز أن تكون معطوفة على جملة واقعة فى حيز القول أى اذكر عادا وثمود قائلا قد مررتم على مساكنهم وقد تبين لكم الخ ، وفاعل تبين الاهلاك الدال عليه الكلام أو مساكنهم على أن (من) زائدة فى الواجب ، ويؤيده قراءة الاعمش (مساكنهم) بالرفع من غير من ، و كون (من) هى الفاعل على أنها اسم بمعنى بعض مما لا يخفى حاله *

وقيل : هما منصوبان بالعطف على الضمير فى (فأخذتهم الرجفة) والمعنى يأباه ، وقال الكسائى : منصوبان بالعطف على الذين من قوله تعالى : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) وهو كما ترى ، والزمخشرى لم يذكر فى ناصبهما سوى ماذكرناه أولا وهو الذى ينبغى أن يعول عليه . وقرأ أكثر السبعة (وثمودا) بالتنوين بتأويل الحى ، وهو على قراءة ترك التنوين بتأويل القبيلة ، وقرأ ابن وثاب (وعاد وثمود) بالخفض فيهما والتنوين عطفا على مدين على ما فى البحر أى وأرسلنا إلى عاد وثمود ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ بوسوسته واغوائه ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة من الكفر والمعاصى ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى الطريق المعهود وهو السوى الموصل إلى الحق ، وحمله على الاستغراق حصرا له فى الموصل إلى النجاة تكلف ﴿ وَكَانُوا ﴾ أى عاد وثمود لا أهل مكة كما توهم : ﴿ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أى عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم أغفلوا ولم يتدبروا وقيل : عقلاء يعلمون الحق ولكنهم كفروا عنادا وجحودا ، وقيل : متبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم السلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا *

وعن قتادة . والكلبى . كما فى مجمع البيان أن المعنى كانوا مستبصرين عند أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدى . وأخرج ابن المنذر وجماعة عن قتادة أنه قال : أى معجبين بضلالتهم وهو تفسير بحاصل ما ذكر ، وهو مروى كما فى البحر عن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك ، والجملة فى موضع الحال بتقدير قد أو بدونها ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ معطوف على عادا ، وتقديم قارون لأن المقصود تسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقى منه ما لقى ، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود فانه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئا كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا ، أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على وفق الواقع ، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لايمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى عليه السلام ، ويكون فى تقديمه لذلك فى مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئا ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الايمان والطاعة ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى قلة عقولهم لأن من فى الأرض لا ينبغى له أن يستكبر *

﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩ ﴾ أى فائتين أمر الله تعالى ، من قولهم : سبق طالبه أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك ، وقال ابو حيان : المعنى وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر أى تلك عادة الأمم مع رسلهم عليهم السلام ، وليس بذاك . وآيا ما كان فالظاهر أن ضمير كانوا القارون

Marfat.com

وفرعون . وهامان ، وقيل : الجملة عطف على أهلكنا المقدر سابقا وضمير ـ كانوا ـ لجميع المهلكين ، وفيه تبر للنظم الجليل ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمنة تعذيب من كفر ولم يمتثل أمر من أرسل اليه ، وقال أبو السعود : هذا تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الابهام وما بعده تفصيل للأخذ ، وفى القلب منه شيء . وكأنه اعتبر رجوع ضمير ـ كانوا ـ إلى المهلكين ، وقد علمت حاله وتقديم المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق ، وقال الفاضل: المذكور للحصر أى كل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته لا بعضا دون بعض ، وبحث فيه بأن كلا متكفلة بهذا المعنى قدمت أو أخرت ، وأجيب بأنا لا نسلم أنه يفهم منها لا بعضا إذا أخرت وإنما يفهم منها بواسطة التقديم فتأمل ، والكلام فى مرجع ضمير بذنبه سؤالا وجوابا لايخفى على من أحاط علما بما قيل فى قولهم : كل رجل وضيعته .وقولهم: الترتيب جعل كل شيء فى مرتبته ، وهو شهير بين الطلبة ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا عاصفا فيها حصباء ، وقيل : ملكا رماهم بالحصباء وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك لأن ماأهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لاتخلو عن الحصب بأمور مؤذية ، والحاصب هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمى بشيء ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ هم مدين وثمود ولم يقل أخذناه بالصيحة ليوافق ماقبله ومابعده فى اسناد الفعل اليه تعالى الأوفق بقوله تعالى: (فكلا أخذنا بذنبه) دفعا لتوهم أن يكون سبحانه هو الصائح ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهو فرعون ومن معه ، وذكر بعضهم قوم نوح عليه السلام أيضا . واعترض بأنهم ليسوا من المذكورين ، وتعقب بأنهم أول المذكورين فى هذه السورة من الامم السالفة ، ولعل المعترض أراد بالمذكورين المذكورين متناسقين أى بلا فصل بأمة لم تفد قصتها اهلاكها ، وقوم نوح وإن ذكروا أولا لكن فصل بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة قوم إبراهيم عليه السلام وهى لم تفد أنهم أهلكوا ، وذكر النيسابورى أنه سبحانه قرر بقوله تعالى : (فكلا) الخ أمر المذنبين باجمال آخر يفيد أنهم عذبوا بالعناصر الاربعة فجعل مامنه تركيبهم سببا لعدمهم ومامنه بقاؤهم سببا لفنائهم ، فالحاصب وهو حجارة محماة تقع على كل واحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر اشارة إلى التعذيب بعنصر النار ، والصيحة وهى تموج شديد فى الهواء اشارة إلى التعذيب بعنصر الهواء ، والخسف اشارة إلى التعذيب بعنصر التراب ، والغرق اشارة إلى التعذيب بعنصر الماء اه ولايخفى مافيه ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أى ماكان سبحانه مريداً لظلمهم وذلك بأن يعاقبهم من غير جرم لأنه خلاف ماتقتضيه الحكمة . وفى أنوار التنزيل أى ماكان سبحانه ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من سنته عز وجل ، ويفيد ذلك أنه لو وقع منه تعالى تعذيبهم من غير جرم لايكون ظلما لأنه تعالى مالك الملك يتصرف به كما يشاء فله أن يثيب العاصى ويعذب المطيع ، وهذا أمر مشهور بين الأشاعرة والكلام فى تحقيقه يطلب من علم الكلام . وقد أسلفنا فى تفسير قوله تعالى : (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) ماينفعك فى هذا المقام تذكره فتذكر ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ بالاستمرار على مباشرة مايوجب ذلك من الكفر والمعاصى باختيارهم ، وقال مولانا الشيخ ابراهيم الكورانى ماحاصله : إن ظلم الكفرة أنفسهم

Marfat.com

إنما هو لسوء استعدادهم الذى هم عليه فى نفس الامر من غير مدخل للجعل فيه وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلق جل وعلا ماصار سببا لظهور شقائهم اه ، والبحث فى ذلك طويل الذيل فليطلب من محله ، وتقديم المعمول لرعاية رءوس الآى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ استئناف متضمن تقبيح حال أولئك المهلكين الظالمين لأنفسهم وأضرابهم ممن تولى غير الله عزوجل، وفيه اشارة الى أعظم أنواع ظلمهم فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عبدوا من دون الله عز وجل الاوثان *

وجوز أن يكون جميع من اتخذ غيره تعالى متكلا ومعتمدا آلهة كان ذلك أو غيرها ، ولذا عدل إلى أولياء من آلهة أى صفتهم أو شبههم ﴿ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ أى كصفتها أوشبهها *

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ بيان لصفة العنكبوت التى يدور عليها أمر التشبيه ، والجملة على ما نقل عن الاخفش من لزوم الوقف على العنكبوت مستأنفة لذلك (وإن أوهن البيوت) الخ فى موضع الحال من فاعل اتخذت المستكن فيه ، وجوز كونه فى موضع الحال من مفعوله بناء على جواز مجىء الحال من النكرة ، وعلى الوجهين وضع المظهر موضع الضمير الراجع الى ذى الحال ، والجملة من تتمة الوصف . واللام فى البيوت للاستغراق ، والمعنى مثل المتخذين لهم من دون الله تعالى أولياء فى اتخاذهم اياهم كمثل العنكبوت وذلك أنها اتخذت لها بيتا والحال أن أوهن كل البيوت وأضعفها بيتها ، وهؤلاء اتخذوالهم من دون الله تعالى أولياء والحال أن اوهن كل الأولياء وأضعفها أولياؤهم ، وإن شئت فقل : إنها اتخذت بيتا فى غاية الضعف وهؤلاء اتخذوالها أو متكلا فى غاية الضعف فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه ، ويجوز أن تكون جملة اتخذت حالا من العنكبوت بتقدير قد أو بدونها أوصفة لها لأن أل فيها للجنس ، وقد جوزوا الوجهين فى الجمل الواقعة بعد المعرف بأل الجنسية نحو قوله تعالى : (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وعن الفراء أن الجملة صلة لموصول محذوف وقع صفة (العنكبوت) أى التى اتخذت ، وخرج الآية التى ذكرناها على هذا واختار حذف الموصول فى مثله ابن در ستويه ، وعليه لا يوقف على العنكبوت ، وأنت تعلم أن كون الجملة صفة أظهر . والمعنى حينئذ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس الى الموحد الذى عبد الله تعالى كمثل عنكبوت اتخذت بيتا بالاضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشرى فى الآية ، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه ، والغرض إبراز تفاوت المتخذين والمتخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وادماج توطيد الآخر ، وعليه يجوز أن يكون قوله تعالى : (وإن أوهن البيوت) جملة حالية لأنه من تتمة التشبيه ، وإن يكون اعتراضية لأنه لو لم يؤت به لكان فى ضمنه مايرشد إلى هذا المعنى وإلى كونه جملة حالية ذهب الطيبى *

وقال صاحب الكشف : كلام الزمخشرى إلى كونه اعتراضية أقرب لأن قوله : وكما أن أوهن البيوت الخ ليس فيه إيماء إلى تقييد الاول ، وقد تعقب أبو حيان هذا الوجه بأنه لا يدل عليه لفظ الآية ، وإنما هو تحميل اللفظ مالا يحتمله كعادته فى كثير من تفسيره ، وهذه مجازفة على صاحب الكشاف كما لا يخفى ، ويجور أن يكون المعنى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيما اتخذوه معتمداً ومتكلا فى دينهم وتولوه من دون

Marfat.com

الله تعالى كمثل العنكبوت فيما نسجته واتخذنه بيتا ، والتشبيه على هذا من المركب فيعتبر فى جانب المشبه اتخاذ ومتخذ واتكال عليه ، و كذلك فى الجانب الآخر ما يناسبه و يعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كله بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر ، والغرض تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التى لاغاية بعدها ، ومدار قطب التشبيه أن أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : (إن أوهن البيوت) تذييلا يقرر الغرض من التشبيه *

وجوز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ماسمعت إلا أنه يجعل التذييل استعارة تمثيلية و يكون ماتقدم كالتوطئة لها ، فكأنه قيل : وإن أوهن ما يعتمد عليه فى الدين عبادة الأوثان ، وهى تقرر الغرض من التشبيه بتبعية تقرير المشبه ، وكأن التقرير فى الوجه السابق بتبعية تقرير المشبه به ، وهذا قريب من تجريد الاستعارة وترشيحها ، ونظير ذلك قولك : زيد فى الكرم بحر والبحر لا يخيب من أتاه إذا كان البحر الثانى مستعارا للكريم ، وذكر الطرفين إنما يمنع من كونه استعارة لو كان فى جملته ، ورجح السابق لأن عادة البلغاء تقرير أمر المشبه به ليدل به على تقرير المشبه ، ولأن هذا إنما يتميز عن الالغاز بعد سبق التشبيه *

وجوز أن يكون قوله تعالى : (مثل الذين) الخ كالمقدمة الأولى ، وقوله سبحانه : (وإن أوهن البيوت) كالثانية وماهو كالنتيجة محذوف مدلول عليه بما بعد كما فى الكشف ، والمجموع يدل على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التى لاغاية بعدها على سبيل الكناية الايمائية فتأمل ، والظاهر أن المراد بالعنكبوت النوع الذى ينسج بيته فى الهواء ويصيد به الذباب لا النوع الآخر الذى يحفر بيته فى الأرض ويخرج فى الليل كسائر الهوام ، وهى على ماذكره غير واحد من ذوات السموم فيسن قتلها لذلك ، لا لما أخرج أبو داود فى مراسيله عن يزيد بن مرثد من قوله ﷺ : «العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى فمن وجدها فليقتلها» فانه كما ذكر الدميرى ضعيف *

وقيل : لا يسن قتلها فقد أخرج الخطيب عن على كرم الله تعالى وجهه قال : « قال رسول الله ﷺ دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن » ذكر هذا الخبر الجلال السيوطى فى الدر المنثور ، والله تعالى أعلم بصحته وكونه مما يصلح للاحتجاج به ، ونصوا على طهارة بيتها لعدم تحقق كون ماتنسج به من غذائها المستحيل فى جوفها مع أن الاصل فى الاشياء الطهارة ، وذكر الدميرى أن ذلك لا تخرجه من جوفها بل من خارج جلدها ، وفى هذا بعد . وأنا لم أتحقق أمر ذلك ولم أعين كونه من فمها او دبرها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك لا لعدم امكان الوقوف على الحقيقة ، وذكر أنه يحسن ازالة بيتها من البيوت لما أسند الثعلبى . وابن عطية وغيرهما عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : « طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فان تركه فى البيوت يورث الفقر » وهذا إن صح عن الامام كرم الله تعالى وجهه فذاك ، والا فحسن الازالة لما فيها من النظافة ولاشك بندبها . والتاء فى العنكبوت زائدة كتاء طالوت فوزنه فعلوت وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ومن استعماله مذكرا قوله :

على هطالهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها

واستظهر الفاضل سعدى جلبى كون المراد به هنا الواحد ، وذهب إلى تأنيثه أيضا فذكر أنه اختير هنا

Marfat.com

تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه ، وقال مولانا الخفاجى معرضا به : الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله تعالى : (الذين) وأما افراد البيت فلأن المراد الجنس ، ولذلك أنث (اتخذت) لا لأن المراد المؤنث ، وفى القاموس العنكبوت معروف وهى العنكباة والعكنباة والعنكبوه والعنكباء ، والذكر عنكب وهى عنكبة ، وجمعه عنكبوتات وعناكب ، والعكاب . والعكب والاعكب اسماء الجموع ، وتعقب بأن عد ماعدا ماذكره أولا اسم جمع لاوجه له لأن أعكب لايصح فيه ذلك ، وذكروا فى جمعه أيضا عناكيب ، واختلف فى نونه فقيل أصلية ، وقيل : زائدة كالتاء ، وجمعه على عكاب يدل على ذلك . وذكر السجستانى فى غريب سيبويه أنه ذكر عناكب فى موضعين فقال فى موضع : وزنه فناعل وفى آخر فعالل ، فعلى الأول النون زائدة وهو مشتق من العكب وهو الغلظ اه المراد منه ، ولعل الاقرب على ذلك كونه مشتقا من العكب بالفتح بمعنى الشدة فى السير فكأنه لشدة وثبه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند فراره أطلق عليه اسم العنكبوت ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كانوا يعلمون شيئاً من الاشياء لعلموا أن هذا مثلهم أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ، وقيل: أى لو كانوا يعلمون وهن الاوثان لما اتخذوها أولياء من دون الله تعالى ، وفى الكشف أن قوله تعالى (لو كانوا يعلمون) على جميع التقادير أى المذكورة فى الكشاف وقد ذكرناها فيما مر من الايغال ، جهلهم سبحانه فى الاتخاذ ثم زادهم جل وعلا تجهيلا أنهم لا يعلمون هذا الجهل البين الذى لايخفى على من له أدنى مسكة ، و(لو) شرطية وجوابها محذوف على ماأشرنا اليه ؛ وجوز بعضهم كونها للتمنى فلا جواب لها وهو غير ظاهر *

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ ، وقيل : لا حاجة إلى إضماره لجواز أن يكون (تدعون) من باب الالتفات للايذان بالغضب ، وفيه بحث . وقرأ أبو عمرو . وسلام (يعلم ما) بالادغام . وأبو عمرو : وعاصم بخلاف (يدعون) بياء الغيبة حملا على ما قبله ، و(ما) استفهامية منصوبة بتدعون و(يعلم) معلقة عنها فالجملة فى موضع نصب بها و(من) الأولى متعلقة بتدعون على ماهو الظاهر و(من) الثانية للتبيين ، وجوز كونها للتبعيض ، ويجوز كون ما نافية ومن الثانية مزيدة وشىء مفعول تدعون ، أى لستم تدعون من دونه تعالى شيئا ، كأن مايدعونه من دونه عز وجل لمزيد حقارته لايصلح أن يسمى شيئا ، وجوز كونها مصدرية وهى وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول يعلم على أنها بمعنى يعرف ناصبة لمفعول واحد ومن تبعيضية ، أى يعرف دعاءكم وعبادتكم بعض شىء من دونه وقيل : (من) للتبيين و(شىء) بمعنى ذلك المصدر وتنوينه للتحقير ، أى يعرف دعوتكم من دونه هى دعوة حقيرة ، وجوز كونها موصولة مفعول يعلم بمعنى يعرف ومفعول تدعون عائدها المحذوف و من إما بيان للموصول أو تبعيضية * وجوز زيادتها على هذا الوجه وما بعده ، ولا يخفى ما فيه . والكلام على الوجهين الاولين فى (ما) تجهيل للكفرة المتخذين من دون الله تعالى أولياء لما فيهما من نفى الشيئية عما اتخذوه وليا ؛ والاستفهام عنه الذى هو فى معنى النفى لأنه إنكار ، وفيه توكيد للمثل لأن كون معبودهم ليس بشىء يعبأ به مناسب ولذا لم يعطف ، وعلى الوجهين الاخيرين فيها وعيد لهم لأن العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارة عن مجازاتهم عليها وكذا العلم بما يدعونه عبارة عن مجازاتهم على دعائهم إياه ، وترك العطف فيه لأنه استئناف ، ويجوز أرادة التجهيل والوعيد فى الوجوه كلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٢ ﴾ فى موضع الحال ويفهم منه التعليل على المعنيين ،

Marfat.com

فان من فرط الغباوة اشراك مالا يعد شيئا بمن هذا شأنه ، وإن الجماد بالاضافة إلى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت ، وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم ه

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ ﴾ أى هذا المثل ونظائره من الامثال المذكورة فى الكتاب العزيز

﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ تقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد

﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ٤٣ ﴾ الراسخون فى العلم المتدبرون فى الأشياء على ماينبغى . وروى محيي السنة بسنده عن جابر « أن النبي ﷺ تلا هذه الآية (وتلك الامثال) الآية فقال العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه » ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى محقا مراعيا للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنها حال من مفعوله ، فانها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شئونه تعالى المتعلقة بذاته سبحانه وصفاته كما ينصح عنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٤٤ ﴾ دالة لهم على ماذكر من شئونه عز وجل، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لأنهم المنتفعون بذلك ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى دم على تلاوة ذلك تقربا إلى الله تعالى بتلاوته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الاخلاق ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى داوم على اقامتها، وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره صلى الله تعالى عليه وسلم باقامتها متضمنا لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى :﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ كأنه قيل: وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهيها إياهم عن ذلك أنها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدى الله عز وجل والركوع والسجود له سبحانه الدال على غاية الخضوع والتعظيم كأنها تقول لمن يأتى بها لاتفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص ربا هو أهل لما أتيت به ، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه عز وجل وقد أتيت بما يدل على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الاقوال والافعال بما تكون به أن عصيت وفعلت الفحشاء أو المنكر كالمتناقض فى أفعاله ، وبما ذكر ينحل الاشكال المشهور وهو أنا نرى كثيرا من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك ، فان نهيها اياهم عن الفحشاء وا نكر بهذا المعنى لا يستلزم انتهاءهم . ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضا كما قال سبحانه : (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) والناس لاينتهون وليس نهى الصلاة بأعظم من نهيه سبحانه وتعالى ، فاذا لم يكن هناك استلزام فكيف يكون هنا . وما أرى هذا الاشكال الا مبنيا على توهم استلزام النهى للانتهاء ، وهو توهم باطل وتخيل عاطل لا يشهد له عقل ولا يؤيده نقل . ونقل أبو حيان عن ابن عباس . والكلبي . وابن جريج . وحماد بن أبى سليمان أن الصلاة تنهى عن ذلك مادام المصلى فيها ، وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلى القائلة له لا تفعل ذلك مادام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الاقوال والافعال التى كان النهى بما تدل عليه من العظمة والكبرياء . ونقل عن القطب أنه قال فى جواب الاشكال : إن الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عز من قائل : (أقم الصلاة لذكرى) ومن كان ذاكرا لله عز وجل منعه ذلك عن

Marfat.com

الاتيان بما يكرهه منه تعالى مما قل أو كثر وكل من تراه يصلى ويأتى الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلى لكان أشد اتيانا فقد أثرت الصلاة فى تقليل فحشائه ومنكره ، وهو كما ترى ، وقيل : إن المراد أن الصلاة سبب للانتهاء عن ذلك ، وليس هذا كليا لما أن الصلاة فى حكم النكرة وهى فى الاثبات لا يجب أن تعم فينحل الاشكال، وعلى ماقلنا لا يضر دعوى الكلية . نعم النهى الذى ذكرناه يتفاوت بحسب تفاوت أداء الصلاة فهو فى صلاة أديت على أتم مايكون من الخشوع والتدبر لما يتلى فيها مع الاتيان بفروضها وواجباتها وسننها وآدابها على أحسن أحوالها أتم ، وقد يضعف النهى فيها حتى كأنها لا تنهى كما فى الصلاة التى تؤدى مع الغفلة التامة والاخلال بما يليق فيها وهى الصلاة المردودة التى تلف كما يلف الثوب الخلق ويرمى بها وجه صاحبها فتقول له: ضيعك الله تعالى كما ضيعتنى ، وكأن مراد القائل : إن المراد بالصلاة التى تنهى عما ذكر هى الصلاة المقبولة هو هذا ٭

وقد يجعل الانتهاء علامة القبول . روى بعض الامامية عن أبى عبدالله رضى الله تعالى عنه أنه قال: من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر فبقدر مامنعته قبلت منه ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . والبيهقى فى شعب الايمان عن الحسن قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفى لفظ « لم يزدد بها من الله تعالى الا بعدا » وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا ٭

وأخرج ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قيل له : إن فلانا يطيل الصلاة فقال : إن الصلاة لا تنفع الا من أطاعها ثم قرأ (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقد يتفق لمن يكثر الصلاة أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتقبل لطفا من الله تعالى وكرما ، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصى، ويشير إلى هذا ماأخرج أحمد . وابن حبان . والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن فلانا يصلى بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه ماتقول » وأصرح منه فيما ذكرنا ماروى أن فتى من الانصار كان يصلى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة ولا يدع شيئاً من الفواحش الا ركبه فوصف له ، فقال عليه الصلاة والسلام: إن صلاته ستنهاه » فلم يلبث إلا أن تاب . إلا أن ابن حجر ذكر فيه أنه لم يجده فى كتب الحديث . ثم إن حمل الصلاة فى الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيد بالآثار والاخبار الصحيحة ، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن المراد بها هنا القرآن، وقال ابن بحر: إن المراد بها الدعاء أى أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى ان الدعاء إلى أمره سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر، وكل منهما عدول عن الظاهر من غير داع . وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ (إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر) ﴿ولذكر الله اكبر﴾ قال ابن عباس . وابن مسعود . وابن عمر . وأبو قرة. ومجاهد . وعطية : المعنى لذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه سبحانه ، وفى لفظ لذكر الله تعالى العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى ، وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ (اذكرونى أذكركم)٭

وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن أبى مالك أنه قال ذكر الله تعالى العبد فى الصلاة أكبر من الصلاة، فذكر مصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف وكذا المفضل عليه وهو خاص على ماسمعت ، وجوز

Marfat.com

أن يكون عاما أى أكبر من كل شىء ، وقيل : المعنى ولذكر العبد لله تعالى فى الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : أى ولذكر العبد لله تعالى فى الصلاة أكبر من ذكره إياه سبحانه خارج الصلاة ، وقيل:أى ولذكر العبد لله تعالى أكبر من سائر أعماله ، وروى عن جماعة من السلف مايقتضية . أخرج أحمد فى الزهد. وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : « ماعمل آدمى عملاأنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، قالوا: ولاالجهادفى سبيل الله تعالى قال:ولاأن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول فى كتابه (ولذكرالله أكبر) •

وأخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير عن أبى الدرداء قال : «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأسماها فى درجاتكم وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم وخير من إعطاء الدنانير والدراهم قالوا : وماهو ياأبا الدرداء ؟ قال ذكرالله تعالى (ولذكر الله أكبر)» . وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سئل أى العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن؟ (ولذكرالله أكبر) لاشىء أفضل من ذكرالله ، ونسب فى البحر إلى أبى الدرداء . وسلمان رضى الله تعالى عنهما القول الذى ذكرناه أولاعمن سمعت،ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما ، وجاء عن ابن عباس أيضا رواية تشعر بأن المراد بذكر الله تعالى ذكر العبد له سبحانه •

أخرج سعيد بن منصور . وابن أبى شيبة . وابن المنذر . والحاكم فى الكنى . والبيهقى فى شعب الايمان عن عنترة قال : قلت لابن عباس رضى الله تعالى عنهما أى العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر وما قعد قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم الاأظلتهم الملائكة بأجنحتها وكانوا أضياف الله تعالى ماداموا فيه حتى يفيضوا فى حديث غيره وماسلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم الاسهل الله تعالى له طريقا إلى الجنة •

وقيل : المراد بذكرالله الصلاة كمافى قوله تعالى:(فاسعوا إلى ذكرالله) أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به للايذان بأن مافيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ، وقيل : المعنى ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر ، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر من الصلاة ، (فذكر) على هذه الاقوال مصدر مضاف للمفعول والمفضل عليه محذوف،وجوز أن لايكون أفعل للتفضيل سواء كانت إضافة المصدر للفاعل أم للمفعول كما فى الله أكبر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ٤٥﴾ من الخير والطاعة فيجازيكم بذلك أحسن المجازاة،وقال أبو حيان : (يعلم ماتصنعون) من الخير والشر فيجازيكم بحسبه ففيه وعد ووعيد وحث على المراقبة •

لك الحمد ياألله على ماأنعمت علينا باتمام الجزء العشرين من تفسير روح المعانى للعلامة الألوسى ووفقتنا لذلك نسألك أن تيسر لنا مابقى منه بعونك وحولك ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادى والعشرون أوله قوله تعالى : (ولاتجادلوا) الخ •

Marfat.com

فهرست

﴿الجزء العشرين من تفسير روح المعانى﴾

صحيفة

٣ بيان أن الذين اصطفاهم الله هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
٣ مذاهب العلماء فى جواز السلام على غير الانبياء وعدم جوازه
٣ تبكيت الكفار والتهكم بهم لاتخاذهم لله شركاء والزامهم الحجة بطريق برهانى بديع
٥ تبكيت الكفار بنفى الألوهية عما يشركونه به عز وجل فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية
٥ بيان سوء الكفار بعدولهم عن الحق الواضح الذى هو التوحيد وعكوفهم على الباطل البين الذى هو الاشراك.
٦ بيان أن اجابة الله دعاء المضطر مقيد بالمشيئة
٦ الاحتجاج على الكفار بأن الله هو الذى يجيب دعاءهم عند الاضطرار دون آلهتهم الباطلة
٧ الاحتجاج عليهم بأن الله يهديهم فى ظلمات البر والبحر ويسخر الرياح لمنافعهم
٧ الاحتجاج عليهم بأن الله يبدأ الخلق ثم يعيده ومطالبتهم بدليل عقلى أو نقلى يدل على أن مع الله إلها آخر وفيه دليل على أن الدعوى لا تقبل بدون برهان
٩ بيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب
١١ اختلاف العلماء هل يجوز أن يعلم البشر بعض الغيوب أم لا وعلى الثانى فمن قال أنا أعلم الغيب هل يكفر أم لا

صحيفة

١٢ بيان أن علم العقول بما لم يكن بعد من الحوادث على ما يزعمه الفلاسفة ليس من علم الغيب وكذا علم المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرة الجوكية
١٢ الفرق بين علم الصوفية والمرتاضين من الجوكية والحاق علم المتصوفة المنسوبين إلى الاسلام المهملين لاحكامه بعلم المرتاضين من الجوكية
١٢ بيان أن علم النجومى بالحوادث الكونية ليس من علم الغيب
١٣ تتابع علم الكافرين باحوال الآخرة إلى الاضمحلال والفناء
١٣ تفسير (ادارك) وبيان القراءات الواردة فيه
١٥ انكار الكفار البعث واخراجهم من القبور بعد أن صاروا ترابا
١٥ أمر الكفار بالسير والنظر فى ادبار الأمم المكذبة للاعتبار بما حل بهم
١٦ سؤال الكفار عن وقت العذاب على سبيل الاستهزاء
١٦ الرد على من استعجل العذاب بأنه عسى أن يلحقه بعض ما استعجله منه
١٨ بيان أن القرآن يقص على بنى اسرائيل ما اختلفوا فيه
١٩ بيان أن اعراض الكفار عن الحق منشؤه موت قلوبهم
٢٠ لا ينتفع بالقرآن الا المؤمن

Marfat.com

صحيفة
٢١ خروج الدابة من الارض حين لايبقى فى الارض خير وذكر علامات الساعة
٢٢ أقوال العلماء فى الدابة وفى محل خروجها
٢٤ أقوال العلماء فى معنى كلام الدابة ومن هم الذين تكلمهم
٢٦ استدلال الامامية على الرجعة بقوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) الآية
٢٧ أول من قال بالرجعة عبد الله بن سبا وتبعه جابر الجعفى ثم الامامية وأنكر ذلك الزيدية وقد ذكر المصنف فساد استدلالهم بالآية على الرجعة فى الدنيا الخ
٣ الكلام على معنى الصور
٣١ صعق أهل السموات والارض عند النفخة الاولى الا من شاء الله واختلاف العلماء فى عدد النفخات
٣٣ اختلاف العلماء فيمن لا يصعق عند النفخة
٣٤ اختلاف العلماء فى وقت تسيير الجبال بعد نسفها
٣٦ جواز اطلاق الصانع على الله عز وجل
٣٦ بيان أن المراد بالحسنة قول لا إله إلا الله
٣٨ استدلال المرجئة بقوله (من جاء بالحسنة) على أن المعصية لا تضر مع الايمان الخ والرد عليهم
٣٨ استدلال المعتزلة بقوله (ومن جاء بالسيئة) على خلود المؤمن العاصى فى النار والرد عليهم
٤٠ بيان المراد بالآيات فى قوله تعالى (سيريكم آياته)
٤٠ ﴿ من باب الاشارة فى الآيات ﴾
٤١ ﴿ سورة القصص ﴾
٤١ بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو بحث بديع جداً
٤٢ بيان أن الغرض من قصة موسى مع فرعون انتفاع المؤمنين بما فيها من ألوان العبر

صحيفة
٤٣ بيان الأوجه فى اعراب (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا)
٤٥ اختلاف العلماء فى الوحى إلى أم موسى هل كان بارسال ملك أم بالهام أم باخبار نبى فى عصرها وبيان أنه كان بعد الولادة
٤٥ بيان ما فى قوله (انا رادوه اليك) الخ من البلاغة
٤٦ بيان وجوه الاستعارات فى قوله (ليكون لهم عدوا وحزنا)
٤٩ أقوال العلماء فى تفسير قوله تعالى: (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا)
٥٠ منع موسى عليه السلام من تناول ثدى المراضع ليكون سببا فى رده الى أمه
٥١ تفسير قوله تعالى (ولما بلغ أشده) وبيان أصح الأقوال فى تفسير الحكمة
٥٢ دخول موسى عليه السلام المدينة على حين غفلة من أهلها ونصره الاسرائيلى على القبطى
٥٤ بيان أن قتل موسى عليه السلام للقبطى لاينافى العصمة لأنه كان خلاف الأولى فقط
٥٥ تفسير (فلن أكون ظهيرا للمجرمين)
٥٦ الدليل على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم
٥٧ استصراخ الاسرائيلى بموسى عليه السلام مرة ثانية
٥٩ خروج موسى عليه الصلاة والسلام من مصر وتوجهه تلقاء مدين
٦١ سقى موسى عليه السلام لابنتى شعيب رحمة عليهما
٦٤ مجىء بنت شعيب الى موسى عليهما السلام لتدعوه الى أبيها
٦٥ تفسير (ان خير من استأجرت القوى الامين)
٦٨ بيان مذاهب العلماء فى التزويج على رعى الغنم
٦٩ استدلال العلماء على استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والصدق وحضور الولى واعتبار الايجاب والقبول فى النكاح وغير ذلك من المسائل الفقهية
٧٢ خروج موسى عليه السلام بأهله الى

Marfat.com

صفحة

مصر وماوقع له فى طريقه من النداء لتشريفة بالنبوة
٧٣ اختلاف العلماء فى كيفية سماع موسى عليه السلام كلام الله
٧٥ تأييد موسى عليه السلام بقلب العصا حية واخراج يده بيضاء من غير سوء
٧٧ طلب موسى عليه السلام أن يرسل معه أخوه هرون ليصدقه بايراد الحجج ودفع الشبه
٧٨ ادعاء الكفار أن ماجاء به موسى عليه السلام سحر
٨٠ ترجى فرعون أن يطلع الى اله موسى ليتبين ان كان صادقا أو كاذبا وأقوال العلماء فى تفسير الآية
٨٣ اغراق فرعون وجنوده فى اليم بظلمهم
٨٤ ايتاء موسى عليه السلام التوراة بعد اندراس الشرائع الماضية لتقرير الاصول وتجديد الفروع
٨٤ بيان أن التوارة بصائر للمسلمين من هذه الامة ايضا لما تضمنته من الارشاد الى حقية نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم
٨٥ شروع فى بيان وجه الحاجة إلى القرآن والاستدلال على نبوته ﷺ لاخباره بالمغيبات التى لاتعرف الامن طريق الوحى
٨٦ بيان أن النبى ﷺ لم يشاهد الوحى إلى موسى وأخبر به على ماهو عليه
٨٨ بيان أن العرب لم يرسل اليهم بعد اسماعيل الا النبى ﷺ
٨٩ وجه آخر فى تفسير الآيات المتقدمة
٩٠ تعنت الكفار واقتراحهم أن ينزل القرآن على النبى ﷺ جملة كما أنزلت التوراة على موسى جملة والرد عليهم
٩٢ تحدى الكفار بأن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن
٩٣ بيان أن الكفار حيث عجزوا عن الاتيان بكتاب اهدى منهما فانما يتبعون اهواءهم ويتركون الدليل
٩٤ اختلاف العلماء فى الاسلام هل هو من خصوصيات هذه الأمة أم لا
٩٥ تسلية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على عدم ايمان قومه بان الهداية تابعة لمشيئة الله
٩٦ اختلاف العلماء في ايمان أبى طالب
٩٨ تذكير المشركين بمن هلك من قبلهم من الامم حيث كذبوا رسلهم
١٠٠ تبرؤ رؤساء الكفار من ضعفائهم يوم القيامة وادعاؤهم أنهم لم يغووهم وإنما هم الذين آثروا الكفر
١٠١ سؤال الكفار عن اجابتهم للرسل والتباس الجواب عليهم
١٠٣ تفسير قوله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار)
١٠٦ توبيخ المشركين على شركهم بالله مع معاينتهم آثار قدرته فى تعاقب الليل والنهار
١٠٩ بيان أن الكفار ليس لهم دليل على شركهم وإنما يتبعون الهوى
١٠٩ شروع فى ذكر قصة قارون
١١٠ تفسير (لتنوء بالعصبة أولى القوة)
١١٢ بيان ان الفرح بزخارف الدنيا الملهية عن الدين من أسباب غضب الله
١١٣ أقوال العلماء فى العلم الذى اكتسب به قارون الاموال الكثيرة
١١٣ الكلام على الكيمياء عند الحكماء وادعاؤهم تحويل المعادن إلى ذهب ومناقضة بعضهم لبعض فى ذلك وقد بسط المصنف الكلام فيه وبين أنه لم يقم على صحتها دليل صحيح
١٢٢ تمنى أهل الدنيا أن يؤتوا مثل ماأوتى قارون وزجر أهل العلم لهم عن ذلك
١٢٢ خسف الارض بقارون
١٢٤ بيان أن الله تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيق على بعضهم لالكرامة توجب البسط ولاهوان يوجب التضييق
١٢٥ لايدخل الجنة متكبر ولامفسد
١٢٧ جزاء الحسنة خير منها وجزاء السيئة بقدرها فضلا من الله على عباده

Marfat.com

Marfat.com